


مركز دراسات الوحدة العربية

# اللغة العربية والوعي القومي

## بحوث ومناقشات الندوة
## الفكرية التي نظمها
## مركز دراسات الوحدة العربية

بالاشتراك مع

المجمع العلمي العراقي — معهد البحوث والدراسات العربية

سعدون حمادي — احمد مطلوب — يوسف ذنون
صالح احمد العلي — الشاذلي الفيتوري — ياسين خليل
نوري حمودي القيسي — حاتم الضامن — احمد حقي الحلي
عبد العزيز البسام — جميل الملائكة — شكري فيصل
مسارع الراوي — حامد ربيع — هاشم طه شلاش
محمد جميل شلش — محمد جابر الفياض — محمد حسن آل ياسين

**اللغة العربية والوعي القومي**

***GIFTS 2006***

The Swedish Institute

**Alexandria**




مركز دراسات الوحدة العربية

# اللغة العربية والوعي القومي

## بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية

بالاشتراك مع

المجمع العلمي العراقي — معهد البحوث والدراسات العربية


سعدون حمادي — احمد مطلوب — يوسف ذنون
صالح احمد العلي — الشاذلي الفيتوري — ياسين خليل
نوري حمودي القيسي — حاتم الضامن — احمد حقي الحلي
عبد العزيز البسام — جميل الملائكة — شكري فيصل
مسارع الراوي — حامد ربيع — هاشم طه شلاش
محمد جميل شلش — محمد جابر الفياض — محمد حسن آل ياسين

«الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة
عن اتجاهات يتبناها مركز دراسات الوحدة العربية»

**مركز دراسات الوحدة العربية**

بناية «سادات تاور» ـ شارع ليون ـ ص. ب. : ٦٠٠١ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان
تلفون ٨٠١٥٨٢ ـ ٨٠١٥٨٧ ـ ٨٠٢٢٣٤ ـ برقياً: «مر عربي»

تلكس: ٢٣١١٤ مارابي

---



الطبعة الاولى : بيروت : نيسان/ابريل ١٩٨٤
الطبعة الثانية : بيروت : حزيران/يونيو ١٩٨٦

# المحتويات



## القســـم الاول



## القســـم الثاني

## القسم الثالث



## القسم الرابع

# تقديم

نظم مركز دراسات الوحدة العربية والمجمع العلمي العراقي ومعهد البحوث والدراسات العربية التابع للجامعة العربية ندوة بعنوان « اللغةالعربية والوعي القومي » في الفترة الممتدة بين ٢٨ ـ ٢٩ ايلول / سبتمبر ١٩٨٣ في مبنى المجمع العلمي العراقي في بغداد . وقد القيت كلمات افتتاحية من قبل كل من د. سعدون حمادي عن مركز دراسات الوحدة العربية ، ود. صالح احمد العلي عن المجمع العلمي العراقي ، ود. نوري القيسي عن معهد البحوث والدراسات العربية .

وبعد كلمات الافتتاح عقدت اربع جلسات عمل ، القيت فيها ملخصات تسعة بحوث وسبعة تعقيبات، وقدم بحث واحد وتعقيب مكتوب واحد بدون القاء. وقد تم ترتيب البحوث والتعقيبات في هذا الكتاب حسب تسلسل القاء ملخصاتها في الجلسات الاربع للندوة . ولا يعكس هذا التسلسل اهمية للبحوث من حيث المحتوى ولا منزلة الكتّاب . وبعد القاء الملخصات للبحوث والتعقيبات في كل جلسة ، جرى نقاش مستفيض من قبل المشاركين ، تم بروح علمية وحرية تامة . وقد حضر الندوة ستة وثمانون من المتخصصين من ضمنهم اعضاء المجمع العلمي العراقي واساتذة اللغة العربية في الجامعات العراقية وعدد من المهتمين بشؤون اللغة العربية والفكر القومي . وقد اختتمت الندوة ببيان ختامي لخصت فيه الاتجاهات الرئيسية التي برزت في البحوث والتعقيبات والمناقشات وعدد من المقترحات البناءة . وقد تم تحرير مواد الندوة فتم ضبط نصوص البحوث والتعقيبات ، كما تم تفريغ المناقشات وتحريرها وجمعت مع الوثائق الاخرى ، فكونت هذا الكتاب الذي نضعه بين يدي القارىء العربي ، ونخرجه للرأي العام آملين القاء الضوء على قضية علاقة اللغة العربية بالوعي القومي العربي . وبذلك تكون المؤسسات التي نظمت هذه الفعالية الثقافية قد ساهمت بقدر او بآخر في خدمة الثقافة العربية وفكر القومية العربية .

# مقـدّمَة

- ١ -

من الممكن ان تدرس العلاقة بين اللغة العربية والوعي القومي من وجوه عديدة ، وليس اقل تلك الوجوه هو انه في حالة القومية العربية تشكل اللغة العربية احد مقوماتها الاساسية . لذلك لم يكن من المصادفة اطلاقاً ، ان تنطبق حدود الوطن العربي على تلك الرقعة الجغرافية التي تتكلم اللغة العربية . ان الشعور المشترك او الشعور الموحد يتكون في هذه الحالة من واقع ملموس قوي التأثير هو القدرة على التفاهم ـ بالمعنى الواسع لذلك ـ عبر لغة واحدة . وبالطبع لا يقتصر الامر على التفاهم مهما كان مفهومه واسعاً ، فهناك الادب والتراث الحضاري الذي يمكن بسبب اللغة الواحدة ، ان تقرأه الامة وتفهمه وتشعر بمعانيه ، واثر ذلك في توحيد المشاعر واضح لا يحتاج لكثير من الادلة .

إن الدين الاسلامي نفسه الذي تدين به الاكثرية الساحقة من العرب ، قد جاء مقروناً باللغة العربية، وليس من اليسير فهم واستيعاب معاني هذا الدين ولا حتى عباداته من غير معرفة اللغة العربية . وهنا لا بد من الوقوف عند نقطة مهمة قد لا يلتفت اليها في هذا الصدد ، وهي ان العلاقة بين اللغة العربية والشعور القومي لا تقتصر على نقطة محددة ساكنة من الزمن ، بل ان العلاقة موجودة ايضاً اذا ما نظرنا الى اللغة والشعور القومي بمنظار زمني متحرك . وبعبارة اخرى ، اننا نستطيع ان نقول ان الشعور القومي يعتمد ـ من جملة ما يعتمد ـ على معرفة اللغة العربية في الوضع الزمني الحاضر اي بمقياس زمني ساكن . فكون المواطن الفلاني يتكلم العربية الآن ، فإن عاملاً من عوامل تكوين شعور قومي عنده قد توفر . هذا هو المنظور الزمني المحدد الساكن . ولكننا اذا ما أخذنا أساساً متواصلاً ، اي متحركاً ، فإننا نقول بالنسبة لهذا المـواطن ، إنه كلما ازدادت معرفته واتقانه للغة العربية ازدادت قوة اللغة كعامل لتكوين الشعور القومي عنده ، اي ازداد شعوره القومي قوة . فزيادة المعرفة باللغة العربية والامعان في اتقانها يعني طردياً زيادة في امور

عديدة اخرى كفهم التراث وتذوق الادب واستيعاب التاريخ وحتى فهم القرآن واستيعاب الحديث والفقه الاسلامي . اذن فالعلاقة طردية بين اللغة العربية والشعور القومي ليس على اساس ساكن ، بل وعلى اساس متحرك ايضاً .

ولذلك جاء توزيع البحوث والتعقيبات في الندوة موضوع هذا الكتاب متمشياً مع هذا الاعتبار فكانت هناك بحوث وتعقيبات حول خصائص اللغة العربية وحول كيفية تحسين طرق تدريسها ومجابهة الاخطار التي تتعرض لها سواء من جانب اللغات الاجنبية او من جانب اللهجات العامية .

- ٢ -

هناك في الوطن العربي قضية لم تحسم نهائياً بعد ، هي استخدام اللغة العربية في التعليم العالي . صحيح ان بعض البلاد العربية لا تزال في منتصف الطريق في جهود التعريب الا ان الامر محسوم بالنسبة لمراحل التعليم دون الجامعي ، ولكنه ليس كذلك بالنسبة للتعليم الجامعي ، وعلى وجه التخصيص ، في بعض حقوله العلمية ومنها الطب والهندسة . وفي هذا المجال يقوم جدل ليس من الصعب معرفة مواضع الخطأ والصواب فيه ، الا انه مشتبك مع عوامل اخرى نفسية وفكرية . هناك من جهة الصعوبة المتوقعة عند بدء طريقة جديدة في العمل ، وهناك اوهام الصعوبات التي تكون حاجزاً نفسياً له اثره السلبي ، فجزء مهم من الهيئات التدريسية قد تلقى علومه في جامعات الغرب ، الامر الذي يجعل التدريس باللغات التي درسوا بها اسهل بالنسبة لهم . وهناك الخوف من العزلة عن التطور الثقافي في العالم الذي يقف وراءه في الحقيقة ضعف معرفة اللغات الاجنبية الحية اكثر من اي شيء آخر . ولكن الامر لا يقف عند العوامل النفسية والفكرية بل قد يتعداه في بعض الحالات ، الى المصالح وضعف الولاء الوطني والانسلاخ عن الهوية القومية .

وغني عن البيان ان نوضح ان الغالبية العظمى من الشعوب والامم في اوروبا تدرس بلغاتها القومية ، وكذلك هو الحال في اليابان والاتحاد السوفياتي وغيرهما من الدول الاخرى دون ان يكون لذلك اثر انعزال ثقافي . وفي كل الاحوال لا بد من ولوج هذا الباب ومجابهة الصعوبات المحتملة بصورة عملية وحلها جذرياً ليستقيم استخدام اللغة العربية في التعليم بكافة مراحله ، اي حل المشاكل عن طريق العمل ودخول مجال التعريب لا عن طريق الانتظار .

ومما تجدر الاشارة اليه في هذا الصدد ، هو ان مسألة تعريب التعليم الجامعي تتعلق بصورة اساسية بتعريب المصطلحات ، وفي بعض الاحيان وبالاضافة لذلك ، بتوفير الاساتذة . وبخصوص المصطلحات ، هناك جانب المصطلحات المستخدمة في لغة التعليم الجامعي ، وهناك المصطلحات المتعلقة بالاختراعات العلمية والادوات، والمعدات الجديدة المستخدمة في الحياة اليومية . والذي يبدو ان جهداً لا بأس به قد بذل من قبل المجامع العلمية والمؤسسات والافراد لتعريب النوع الاول من المصطلحات ، الا ان هذا الجهد ينقصه التعميم وبالتالي

الاستخدام الفعلي في لغة التعليم والكتاب المدرسي . وفي بعض الحالات يشكل النقص في وسائل الطباعة عائقاً في سبيل ذلك . اما في النوع الثاني من المصطلحات فهناك نقص واضح ، الامر الذي فسح المجال لكلمات ومصطلحات اجنبية ان تدخل في التداول اليومي . ان مرور الوقت يزيد من صعوبة طرد هذه الكلمات والمصطلحات من اللغة ، الامر الذي يتطلب معالجة سريعة . والغريب في الامر ان دخول مصطلح او لفظة اجنبية الى الاستخدام اليومي لا يخضع عندنا لاصول وضوابط ، بل الباب لا يزال مفتوحاً بدون رقيب .

- ٣ -

ومن الامور ذات العلاقة الوثيقة بموضوع اللغة ودورها كعامل من عوامل تكوين الشعور القومي ، هو الاعلام وقد نوقش هذا الموضوع في حيز لا بأس به في هذه الندوة . فالاعلام بامكانه ان يكون عاملاً ايجابياً ، كما بامكانه ان يكون عاملاً سلبياً في موضوع نشر اللغة العربية وتعميم استخدامها . فقد استطاعت وسائل الاعلام ان تكون لغة عربية فصيحة مبسطة يفهمها الجميع بما في ذلك ـ الى حد بعيد ـ الجمهور الواسع من الشعب ، ومن حسن الحظ ان هذه اللغة قد اصبحت شائعة متداولة في كل الوطن العربي من مشرقه الى مغربه . وقد كان لهذه اللغة اثرها الفعال في الاندماج الثقافي العربي وتعميم الثقافة وتيسير سبل الفهم العام في البلاد العربية . ويصح الشيء نفسه على لغة الكتاب وان كانت هذه اللغة ارفع ـ الى حد ما ـ من لغة الصحافة ، الا انها هي كذلك عامة الفهم وموحدة الى حد بعيد في جميع البلاد العربية .

اما سلبياً ، فقد لعبت وسائل الاعلام دوراً ايضاً ، فقد ساعدت على دخول عدد من المصطلحات والكلمات الاجنبية لا يستهان بها في التداول ، كما انها تساعد على نشر الاخطاء في النحو والاستهانة بقواعد اللغة . وهي في بعض الاحيان قد ساعدت على نشر اخطاء وانحرافات لغوية في مجالات اخرى كالتراكيب وطريقة التعبير ، ولعل ابرز مظاهر ذلك هو ترجمة المصطلحات وطريقة التعبير الموجودة في لغات اجنبية حية كالانكليزية والفرنسية ونشرها في الاستخدام . ان لكل لغة طريقة في التعبير وطريقة في التركيب، ولكل لغة مفاهيمها . فعندما نتكلم بالعربية علينا ان نستخدم مفاهيمها وطريقتها في التعبير وتراكيبها ، لا ان نترجم ما هو موجود في لغات اخرى ونزجه في اللغة العربية ، الامر الذي يساعد بمرور الوقت على ركاكتها وفقدانها لاصالتها وشخصيتها المستقلة . هناك اخطاء شائعة كان لوسائل الاعلام الدور المهم في تعميمها وبالتالي ترسيخها .

لقد اثبتت الدراسات والبحوث العلمية ان للاعلام دوراً يفوق دور التعليم واقل كلفة في نشر الثقافة ، الامر الذي قد زاد من خطورة هذه الوسيلة الحديثة التي وسع آفاقها الى حد بعيد ، التطور الهائل في التقنيات الجديدة وعلى رأسها الاذاعة المرئية والمسموعة .

هناك امر غاية في الاهمية وهو الاقبال الشديد من قبل جماهير الارياف والمدن لسماع الاذاعة المسموعة ، الامر الذي يوفر فرصة جيدة لاستخدام هذه الوسيلة في نشر الثقافة العامة ، ومنها

تعميم استخدام اللغة العربية الفصيحة الميسرة ومحاربة الاخطاء والانحرافات وحمايتها من الاخطار التي تهددها . ان هذا الامر الذي قليلاً ما التفتنا اليه في بلادنا العربية ، يصلح ان يكون اساساً لمجموعة من السياسات والاجراءات التي تكفل الاستفادة القصوى من هـذه الخاصيـة وسنوح الفرصة المواتية من قبل الجمهور الواسع .

- ٤ -

ولن يكون موضوع استخدام اللغة العربية الفصيحة كاملاً بدون الحديث عن العامية ، ان هذا الحديث وان كان قديماً ، الا انه ميت تقريباً الآن ، فليس هناك تيار بالمعنى الصحيح يدعو لذلك باصرار ما عدا بعض الافراد من الكتاب . ومع ذلك فلا بد من كلمة حول الاسباب التي ادت بمثل هؤلاء الافراد لأخذ هذا الموقف .

والحديث عن الاسباب التي اقصدها هو الحديث الثقافي وليس الحديث السياسي . ففي المجال السياسي ، قد اصبح معروفاً لا يقبل الشك ان الدوائر الاستعمارية وخاصة الصهيونية ، تعمل في مجال الثقافة لاضعاف لغتنا الموحدة واحلال العاميات مكانها . فتلك الدوائر هي التي تقف وراء الجهد الذي بذل منذ مدة لتحقيق هذه الاهداف المعادية للقومية العربية . ولكن بجانب ذلك ، هناك اسباب ادت ببعض الاشخاص العرب للدعوة لاستخـدام العاميـة . وعلة ذلك مزدوجة ، هي الموقف المسبق والطريق التجريدية في البحث. فهؤلاء الاشخاص كانت نقـطة بدايتهم في تناول هذه القضية بعيدة عن الموضوعية بسبب من ثقافاتهم المتأثرة بالغرب، كما انهم بتناولهم هذا الموضوع لا يبحثون الموضوع بالذات وكما هو ، بل يصلون لاستنتاجاتهم عن طريق المقارنة والقياس بما حدث للغة اللاتينية واللغات الاوروبية المحلية التي حلت محلها . وموضع الخطأ في هذا التحليل التجريدي هو بكل بساطة ، اننا بدلاً من ذلك لندرس اللغة العربية كما هي واللهجات العامية كما هي ، بدون مقارنة ولنصل الى ما نصل اليه من استنتاجات ، عن طريق قوانين العقل والحصافة البسيطة . فاللغة العربية ليست اللاتينية واللهجات العامية ليست اللغات الاوروبية .

- ٥ -

هناك صفات ومميزات في اللغة العربية يجدر التنويه بها لعلاقتها الوثيقة بجوهر الموضوع . فالمزية الاولى هي ان اللغة العربية لغة واسعة ودقيقة ، غنية بمفرداتها ، وغناها ودقتها في التعبير عن تفاصيل الحياة والمشاعر وموجودات المحيط يجعلانها قادرة على ان تستعمل في التعليم ،وان تكون لغة لجميع الاغراض بما في ذلك العلوم الحديثة . فمن الامور التي تساعد جداً على تعريب العلوم هو الاطلاع على كتب التراث التي جاءت حاوية لعدد كبير من المفردات العلمية التي يجهل وجودها كثير منا ، فيعمـد للتفتيش عن مصطلحـات جديـدة . ان معرفـة هذه الحقيقـة التي يعـرفهـا المتخصصون المطلعون على كتب التراث العلمية ، ستساعد على تيسير مهمة التعريب ، اذ ان شطراً مهماً من المصطلحات العلمية الحديثة التي نجهد انفسنا في التفتيش عما يقابلها في العربية ، او

نعمد الى استخدامها كما وردت في اللغات الاجنبية ، لها ما يقابلها في كتب التراث ، وما علينا الا التفتيش عنها . بالطبع ان ذلك يصح على جزء وليس على كل المصطلحات العلمية لاسباب واضحة تتعلق بالفارق الزمني بين الوقت الذي كتبت فيه تلك المؤلفات التراثية وبين العصر الحديث .

والمزية الثانية هي ان اللغة العربية استطاعت ان تكون مستوى ميسراً للاستخدامات اليومية الدارجة في الكتاب والصحافة ووسائل الاعلام الاخرى ، بينما احتفظت اللغة الفصحى بمستوى للمختصين ، وكان للقرآن الكريم الدور الاكبر في الحفاظ على هذا المستوى الاختصاصي .

والمزية الثالثة التي تدل هي الاخرى على الحيوية والمرونة ، هي ان العامية الدارجة نفسها قد تطورت صعوداً نحو الفصحى بفعل عامل التعليم وانتشار الثقافة . اذ حتى العامية التي يتكلمها الناس في الشارع والبيت اليوم ، هي اقرب الى الفصحى من عامية الفترة العثمانية عندما كانت الامية متفشية والتعليم محصوراً في نطاق ضيق . لذلك نجد ان كثيراً من المفردات الاجنبية التي كانت مستخدمة في عامية العهد العثماني قد اختفت اليوم . وبذلك كان للغة العربية وضعها الخاص وظروفها الخاصة التي حكمت تطورها .

إن هذا التطور الايجابي في العامية المتطورة نحو الفصحى يدل على حيوية وقدرة على التكييف ، ولقد كان لهذا التطور الايجابي اثر قومي واضح ، فقد ادى الى زيادة التفاعل والاندماج بين الاقطار العربية ، خاصة بين اقطار المشرق واقطار المغرب العربي ، اذ اصبح بمتناول الجميع لغة عربية ميسرة مشتركة الى حد بعيد ، بين جميع الاقطار العربية ، اشاعتها لغة وسائل الاعلام ، مما ساعد على التفاهم والامتزاج لحدود لم تعرفها الفترات الماضية .

- ٦ -

إذاً فكل عناية تولى للغة العربية هي عناية بالوعي القومي . ولنضرب على ذلك مثلاً : ان معرفة اللغة العربية الفصيحة او الفصحى ( اذ هناك فرق بين الاثنين ) تمكن المواطن العربي من الاطلاع على الادب العربي ، ومعرفة الادب العربي تغذي الشعور القومي من ناحيتين . فأولاً ، ان تذوق الادب العربي والاطلاع عليه من شأنه ان يخلق اثراً نفسياً يقوي الشعور القومي بما فيه من صور وما يعكسه من احاسيس وبما يزخر به من قيم روحية عالية تبعث على الاعتزاز والثقة بالنفس . انه ذو اثر ايجابي من الناحية النفسية من دون شك . ومن ناحية تاريخية يعكس الادب العربي التاريخ المشترك ، التاريخ العربي بفتراته من الجاهلية الى العصر الحديث ، فهو مرآة التاريخ العربي المشترك ، لذلك فهو وسيلة من وسائل تلمس الرابطة التاريخية المشتركة التي تربط العرب ببعضهم . وبعبارة اخرى ان قراءة الادب تحمل معها اثراً نفسياً واثراً تأريخياً في اتجاه ايجابي ، وليس غير اللغة ما يجعل الاطلاع على الادب العربي ممكناً وبهذه الصورة .

فإذا كانت اللغة العربية عاملاً من عوامل القومية العربية المهمة ، واذا كانت ذات اثر مهم في تكوين الشعور القومي، فما اجدرنا ان نحمي هذه اللغة من الاخطار التي تهددها. فالامم الحية تولي قضية اللغة اهتماماً بالغاً من جميع النواحي لأنها تدرك معنى سلامة لغتها القوميـة وتعميم استخدامها ودورها في تكوين الشخصية المستقلة للامة وتقوية اصالتها . وقد سبق للغة العربية ان تعرضت لاخطار واستطاعت ان تخرج من تلك الفترات سالمة ، فالفترة المظلمة التي تقلص فيها التعليم وشاعت الامية وانحسرت الثقافة العامة لمحيط القلة الصغيرة اصبحت اللغة العربية مهددة بأن تحل محلها العامية ، وقد قاوم الدين الاسلامي ورجال الفكر ذلك الوضع واستطاعوا انقاذ العربية من خطر الزوال . واليوم ان كل لفظة اجنبية تدخل العربية انما هي تهديد لسلامة اللغة ، وبالتالي لسلامة الامة . فاللغة يجب ان يكون لها حدود محمية وان تحاط بسياج واق فلا يدخل اليها الا ما كان ضرورياً ونافعاً وباختيار الامة لا بالرغم منها .

فاللغة كالوطن يجب ان يكون الدخول اليه مقنناً ومرتبطاً بالمصلحة العامة ، لا ان تكون الحدود مفتوحة للاستيطان الاجنبي والهجرات الوافدة بدون رادع ولا قيود . فكما ان الامة المستقلة هي التي لها حدود آمنة ، كذلك فاللغة الحية المستقلة هي التي لها حدود تحميها لا ان تكون ابوابها مشرعة بدون حراسة . وهذا الواجب القومي مزدوج المسؤولية . فهو يحتاج لمسؤولية فنية تضطلع بها المجامع العلمية والمختصون ، ومسؤولية سياسية تضطلع بها الدولة التي تستطيع بالتشريع ان تحافظ على اللغة العربية وان توفر لها اسباب النمو والتطور الصحي السليم . وغني عن البيان ان نقول ان المجامع العلمية العربية بسبب تعددها والحدود الرسمية التي تعمل بضمنها ، بحاجة الى عمل مشترك تتكامل في اطاره الجهود الفنية وتتضافر اجراءات الدولة للاستفادة من تلك الجهود ووضعها موضع التطبيق ، ومما يؤسف له ان هذه المجامع لم تتوفق حتى الآن ، لانشاء اتحاد عربي للمجامع العلمية الذي اصبح الآن ضرورة ملحة .

# كلمة الافتتاح الاولى

سعدون حمادي

السادة الحضور

يسر مركز دراسات الوحدة العربية ان يشترك مع المجمع العلمي العراقي ومعهد الدراسات والبحوث العربية في اعداد هذه الندوة عن اللغة والوعي القومي . ومركز دراسات الوحدة العربية مؤسسة انشأها جمع من المثقفين العرب من اقطار عربية مختلفة ، لاجراء البحوث واقامة الندوات ، وممارسة كافة اشكال النشاط الثقافي المتاحة من اجل نشر الدعوة لافكار القومية العربية والوحدة العربية باسلوب ثقافي موضوعي . وقد نظم بالاشتراك مع مؤسسات اخرى عدداً من الندوات في العراق خلال السنوات الماضية ، كما قام بنشاط ثقافي واسع في الوطن العربي ، الامر الذي جعله معروفاً ومقيّماً لدى الرأي العام على انه المؤسسة الثقافية الخاصة الوحيدة في الوطن العربي التي تعنى بهذه القضية القومية المهمة بهذا التحديد والوضوح .

وهو إذ يساهم في اعداد هذه الندوة ، انما يقوم بذلك ايماناً بما للغة من دور خطير في توسيع قاعدة الوعي القومي وتمتين العلائق القومية وبث روح التفاؤل بمستقبل الامة العربية وفي تقوية شعورها بشخصيتها المستقلة ، ويجيء ذلك في وقت تمر فيه فكرة القومية العربية والوحدة العربية بفترة انحسار لا تبرره عوامل موضوعية . وستحاول هذه الندوة من خلال البحوث والتعقيبات ان تعالج هذه القضية بشيء من التفصيل بقدر ما يسمح به المجال الذي هو في النهاية مجال محدود .

لقد كان لا بد من ايجاد مدخل للموضوع ، الا وهو بحث مسألة اللغة العربية وخصائصها وبحث مسألة القومية العربية كشاغل فكري بالنسبة للمثقفين العرب والرأي العام العربي عموماً ، وبعد ذلك لا بد من بحث مسألة العلاقة التأثيرية بينهما ، وبعبارة اخرى كيفية تأثير اللغة في نشر الوعي القومي ومد جذوره . وفي النهاية لا غنى عن محاولة الجواب عن السؤال الذي لا بد من ان ينتهي به كل نشاط من هذا النوع ، الا وهو السؤال عن العمل الذي يجب ان نقوم به لتحقيق ما

نصبو اليه . وبعبارة اخرى محاولة التوصل لمقترحات قابلة للتنفيذ لمعالجة وضع القضية المبحوثة كما هي عليه الآن .

ورب قائل يقول وما هي حدود ما يمكن ان نعمله في هذا المجال ؟ والجواب هو ان الحدود هي حدود الوسيلة الثقافية ، فبمقدار ما تستطيع الثقافة ان تؤثر في الانسان بذلك المقدار ، نستطيع ان نتقدم نحو الهدف وان نخدم القضية التي نعمل من اجلها . وغني عن البيان ان الوسيلة الثقافية ـ وان لم تستطع ان تكون مباشرة ، وان لم تكن فعالة احياناً في الامد القصير ـ تستطيع ان تكون مؤثرة في الامد الطويل . وبصورة غير مباشرة، اقول بالرغم من كل ذلك فهي مؤثرة وبصورة اكيدة ، اذ لا شيء انجع من التأثير في تفكير الانسان وليس غير الثقافة ما يعمل ذلك . ولهذا الموضوع جانب آخر لا بأس من التنويه به ولو بصورة موجزة ، الا وهو ان الاسلوب الثقافي الصحيح ـ بما ينطوي عليه من حوار حر ونقاش اختياري يتسع للفكرة ، ولما يناقضها ، وللرأي ولما يعارضه ـ من شأنه ان يوطد اسلوب الديمقراطية وجوهرها الحرية . والقناعة التي يتوصل اليها الانسان عن طريق البحث الحر والنقاش الاختياري المفتوح هي اساس التطور الفكري الذي يقف وراء حضارات الانسان التي ازدهرت خلال التاريخ . فالعمل الثقافي اذا ما جرى باسلوب حر فهو مزدوج الاهمية . فهو مفيد للعمل الثقافي بحد ذاته من جهة ومفيد لقضية اجتماعية اوسع هي الحياة الديمقراطية للمجتمع من جهة اخرى .

ايها السادة

اننا نتقابل اليوم لبحث هذه القضية التي لا اظن ان اهميتها تخفى على احد منكم . فهي، من جهة ،اللغة العربية لغة القرآن ولسان الدين الاسلامي ورابط الامة العربية من الخليج الى المحيط ، ورابطها في اعماق التاريخ منذ نشوء هذه الامة الى يومنا الحاضر، وهي من جهة اخرى قضية القومية العربية بكل ما تنطوي عليه من استقلال وتوحيد وانتاج حضارة عصرية تساهم في حضارة العالم .

ولئن كان الوقت محدوداً ومستلزمات البحث الاخرى محدودة ، الا اننا لانعدم الصدق والاخلاص والنزاهة فيما نبحث ، وكل معالجة تأتي على هذا الاساس لا يمكن الا ان تؤثر ايجابياً . فلنقل كلمة الحق ولنتوخ جميعنا الصدق فيما نبحث ، وذلك واجب كل من اختار ان يعمل في هذا المجال ، مجال الخدمة العامة عن طريق الثقافة . انني واثق من اننا سنكون كذلك ، لذلك فإنني واثق من جدوى الجهد والوقت اللذين نقدمهما . . .

وفي الختام لا بد من التنويه بروح التعاون ووحدة التفكير اللتين تجلتا بين المؤسسات التي نظمت هذه الفعالية ، فقد عملنا سوية وبدافع واحد من اجل اخراجها الى حيز التنفيذ .

كما اود التنويه بروح الخدمة العامة الوطنية التي تجلت عند من كلفناهم بالبحوث والتعليقات التي تشكل محتوى هذا اللقاء ، واساس المناقشة فيه .

والى جميع الذين لبوا دعوتنا ، التقدير والشكر ، آملين ان يأخذ كل منا مداه في النقاش وابداء الرأي والى الحد الذي يراه مفيداً . .

وفقكم الله والسلام عليكم ورحمته وبركاته .

# كلمة الافتتاح الثانية

صالح احمد العلي

اللغة اداة التفاهم واكتساب المعرفة وانماء الفكر ، وهي بوجهتها السليمة امتن رابط يشدّ الافراد ويكوِّن من مجموعهم امة متميزة قادرة على البقاء والنمو .

وللعربية مكانة متميزة بين لغات الامم ، لا لأنها من اقدم اللغات الحية فقط ، وانما لأن تكوينها وخصائصها يسّرا لهاالقدرة على التعبير عن مختلف الاشياء المادية وادق الافكار المجردة . ويكفيها فخراً ان القرآن الكريم نزل بها ، واكد ان من معجزاته انه بلسان عربي مبين ، وكان ـ وهو كتاب الله المنزل ، والمعين الصافي السليم ـ المرجع المعتمد للغة ، والاداة المكينة في نشرها بين الشعوب الكثيرة التي آمنت بالاسلام واتخذته معتقداً وموجهاً للحياة .

إن تقدير العرب للكلام الفصيح ، وحرصهم على الاستزادة من المعرفة وخلقهم السمح في تقبل عرض انواع الافكار في مختلف الميادين ، حفظ للغة العربية حيويتها واغناها ، غير انه عرّضها في مسيرتها التاريخية لبعض ما يشوه سماتها الناصعة ، ويعرقل نموها السليم ويحرف مسيرتها في معارج الرقي والازدهار . غير انها لم تعدم سدنة من المخلصين والعلماء الصادقين ، كرسوا مواهبهم وعلمهم للدفاع عنها بايمان صادق وعقل راجح ، وعملوا على حفظ مسيرتها بالطريق السليم . وفي هذا الزمن المفعم بالتيارات المتباينة والقوى المتضاربة تبرز حقيقة ثابتة هي ادراك العرب لعزهم الغابر وتاريخهم الغني ، وحرصهم على تحقيق مستقبل زاهر ، وايمانهم بأن لغتهم هي المظهر الابرز لعراقة تاريخهم وغنى حضارتهم ، وهي الاداة الاقوى لتفاهمهم ، والرابط الاقوى لشدهم وتماسكهم وتأمين وحدتهم الثقافية والحضارية ، وان هذه الندوة تأمل توضيح اثر اللغة في الوعي القومي .

ان هذه المشاعر والاماني تواجه تحديات تعمل على الانتقاص من مكانتها ، وتشويه سماتها ، وتشويش خصائصها . وتحظى هذه التحديات بانصار تسندهم قوى حاقدة ظاهرة او خفية ، وتوفر لهم وسائل عديدة للامتداد في اوسع الميادين .

تنبه العرب لهذه التحديات واخطارها ، ونشط كثير من المخلصين ، افراداً وجماعات لتوضيح اخطارها والعمل على صدها واجتثاث آثارها . وكانت المجامع اللغوية والعلمية في طليعة المؤسسات في الوطن العربي التي عملت على تأمين سلامة اللغة وتيسيرها لتكون اداة ربط الامة بماضيها ، والسير بها في طريق النمو والتقدم .

ان المجمع العلمي العراقي منذ بداية تأسيسه قبل خمس وثلاثين سنة ، اعتبر رسالته الاولى اظهار خصائص اللغة العربية والعمل على تمكينها من مواكبة التطور الفكري والحضاري المعاصر . وقام لتحقيق ذلك ، بجمع المخطوطات والمصادر ، ونشر الكتب التي تحقق هذا الغرض ، غير ان النصيب الاوفى من جهده انصب على اعداد المفردات اللغوية التي تيسر نشر الدراسات بلغة عربية سليمة . وقد حقق في ذلك ما يفخر به من مصطلحات في مختلف ميادين العلوم ومظاهر الحضارة ، وهو يرجو الله ان يوفقه في متابعة عمله ، ونشر دراساته بما يخدم العربية ويؤمن سلامتها ويثبت مكانتها وييسر قيامها بدورها في تنمية الفكر العربي وتوحيده .

ان المجمع العلمي العراقي يرحب بوضع امكانياته المادية للاسهام في اعداد الندوة ، وتيسير المتطلبات لاجتماع هذه النخبة من الافاضل المعنيين باللغة العربية ، والحريصين على ادامة شعلتها الوهاجة نقية وسليمة تنير للامة العربية لا في قطرنا وحده ، وانما في كافة الارجاء الرحبة للوطن العربي ، سبيل التعبير السليم ، والتفاهم البنّاء ، والترابط الوثيق ، لتحقيق المنعة ، والله ولي التوفيق .

# كلمة الافتتاح الثالثة

نوري حمودي القيسي

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى : ﴿ ولو جعلناه قرآناً اعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي ﴾ .

العلماء الاجلاء
السادة الوزراء
الحضور الافاضل

يطيب لي باسم السيد المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم د. محيي الدين صابر ، ان ارحب بكم واشكر لكم حضوركم واسهامكم في هذه الندوة المباركة ، وهي تناقش موضوعاً تتصل وشائجه وتترابط اصوله وتتفق غاياته . فاللغة العربية من اوثق وسائل الترابط واشدها صلة بوجود الانسان ، وهي اساس ثابت من اسس العلاقة التي تشدّ بين العرب وغيرهم ، وتوحد اساليب تفكيرهم ، والحصن الذي يحول دون وقوعهم في دائرة الافكار الوافدة ، وقد اجتمعت تحت ظلالها امم وتحدث بلسانها اقوام وآمنت برسالتها طوائف ، لأن سبيل معرفة الاسلام لا يتمُ الا بضبط العربية ، ومعرفتُها فرضٌ واعتياد الخطاب بغيرها مُجانبٌ للدين ، وهي ميزة عُرفتْ بها وفضيلةٌ تخصصت بجماليتها ووجه تحددت بموجبه قسمات شخصيتها . والقرآن الكريم ـ وهو النموذج الاعلى لبلاغتها ـ يزيد في قيمتها هذه ، ويبرهن على آصالتها ويُشيد بالامة التي نزل عليها بلسانها ، فكانت ازليةُ القرآن حقيقة ازلية هذه اللغة التي شرفها الله فكانت لغتَه ، ووحّدها فكانت الدائرة الكبيرة التي ازدهرت فيها علومها ومعارفها وخصائصها .

ان معهد البحوث والدراسات العربية الذي يؤدي رسالته في هذه المرحلة ويتبنى الاهداف المرسومة في نظامه ولوائحه ، يجد في المشاركة بمثل هذه الندوة اساساً من اسس مبادئه ووجهاً من وجوه نشاطه ، وطريقاً من طرائق وسائله التي يسعى من اجل تحقيقها .

فالحديث عن اللغة لا ينفصل عن الحديث عن دالة الفكر العربي ، لأن اللغة تمثل السبيل لاستكشاف دواخل الامة ، فمن خلال الفاظها تعبر عن كوامن الاحساس بالمواطنة والشعور بالصلة ، والتوافق بالمشاعر . وهي من اقوى عوامل الوحدة والتضامن بين ابناء الامة الواحدة ، فهي القادرة في كل احوالها على تحويل الانسان الى كائن اجتماعي يتحسس الواقع ، ويستشرف الخصائص المميّزة التي تكمن في كل اشارة من اشاراتها ودلالة من دلالاتها . وقد وجد فيها العرب منذ اقدم العصور ، صفة الملازمة للفرد في حياته وتسربها الى اعماقه حساً ووجداناً ، وتوغلها في تضاعيف نفسه لتعبّر عن ادق خطراته ورغباته ، وهي بالتالي تجعل من الامة الناطقة بها كلاً متماسكاً ومتراصاً تحكمه قواعدها واصولها ، وتوحد تفكيرهم اساليبها وطرائقها ، ومن هنا اصبحت اللغة تمثل الرابطة الحقيقية التي توحد بين رغباتهم ومطامحهم وعاشت في اذهانهم فكراً واملاً وحياة .

ان حرص العرب على لغتهم ينطلق في كثير من اسبابه من الصورة الجليلة التي تحدد السمات المتميزة للانسان العربي ، وما يتحقق في نفسه من هواجس وهو يختار من اللغة ما يوافقُ كل خافقة من خوافقه ، ويعبر عنه من افكار ومشاعر واخيلة لأنها الوسيلةُ التي يُفكر بها ، والاداة التي يمتلك من خلالها حسَّه الجماعي . وهو في كثير من حالاته يعمد الى تعقيل الوجود عن طريقها ، ومن هنا كانت لمسة الفكر فيها لمسة النوازع والهواجس ولمسةَ المخاوف والمطامح ولمسةَ الاحلام والذكريات . وتتجلى في حروفها وتراكيبها صورةُ ابداعه ، وقدرةُ اختياره وروعةُ اسلوبه البياني الذي يُعطي الفكرة حقها ، والاحساس تصوّرهُ ، والمشاعر رقّتها ، حتى اصبحت الفكرة الماثلة في كل قضية من قضاياها تعني الحضور الوجداني والروحي . وهو يحلل اجزاءها المتداخلة في بنية الالفاظ وتراكيبها التي لا تنفصل بأي حال عن الذهن ، فتُقرأُ في مفرداتها تجارب الامة وصور الماضي بكل احداثه ، وتُستعادُ في معانيها اخبارها وتُرى في صورها عظمة الاعمال الخالدة وعبقريةُ المبدعين الافذاذ الذين تركوا في كل حركة من حركاتها ما يوحي بوفائهم لامتهم ويؤكد حبّهم للغتهم ، وايمانهم بأنها الوحدة التي تلتقي في رحاب قدرتها كلّ المطامح ، وتنطلق في نبرات حروفها كلّ الاصوات التي تجمع المؤمنين برسالتها في الحياة ، فتُصبحُ حلقات الثقافة متصلة ، ويزداد تراث الامة في إغنائها ثراءً ، وتشعرُ الاجيال بأنها تتقاسم هذا التراث بناء وتشارك في رفده عطاءً وتفاعلاً . لأن الامة تستطيع ان ترى في هذه اللغة اشراقة كيانها تتعاظم ، وتدرك اسرار ما يُحيط بها من عوالم وما تتمخض عنه ذاتها ، وهي تواكب المسار المستديم لكل مرحلة من مراحلها ، حتى اصبحت اللغة صورة فذة لا يُدانيها اثر على الاطلاق ، لأنها تكشف عن عالم فكري موحد في اطار اسلوبها الذي تُحكمُ صياغتهُ قوانينُها المحكمة وتوحدُ اصالتَه تراكيبُها التي نمت في ظل استعمالاتها وتوافق دلالاتها ومعانيها .

ايها الحضور الكرام

لا يسعني في ختام كلمتي الا ان اكرر شكري للاساتذة الباحثين الذين يشاركون في بحوث

الندوة والمناقشين الذين يُغنون هذه البحوث بإضافاتهم وتعليقاتهم ، متمنياً للجميع التوفيق والنجاح . والله اسأل ان يُبقي هذه اللغة وسيلةً حيةً من وسائل البقاء وصورة واعيةً من صور التعبير الانساني الخالد ، لتظلّ الامةُ مُوحدةً ويبقى ابناؤها البررة رواد معرفةٍ ، وحملة رسالةٍ ، لأنهم كانوا وما يزالون خير أمة اخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .

والسلام عليكم .

# القسم الاول

# الفصل الاول

# تجديد الحديث عن القومية العربية

سعدون حمادي

- ١ -

الحديث عن القومية العربية بحاجة الى تجديد ليس في ذلك شك اذا ما قارنا ما هو عليه الآن بما كان عليه في الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية . كان الحديث وما يزال يدور حول النهضة والتقدم، ولكن بعد الحرب العالمية الثانية كان الفكر العربي الى حد بعيد يعتبر القومية العربية هي اساس التقدم ، ويعتبر الوحدة العربية هي الهدف الاول والاكبر . الحديث عن النهضة والتقدم لا يزال موجوداً ، ولكنه يجري بشكل عام وليس واضحاً . إن المقصود به يجب ان يكون على اساس القومية . ان دعوة النهضة والتقدم تجري الآن بدون تحديد حتى وكأنها يمكن ان تتم بدون محفز وبدون قوة دافعة ، وذلك بالطبع خطأ فادح لا يجدر بالفكر العربي ـ بعد ان قطع ما قطع من مراحل ووصل الى ما وصل اليه من نضج ـ ان يقع فيه . فالنهضة لا تقوم بدون محفز ولا تحدث بدون القوة الدافعة التي تخرج من اعماق الانسان ، وهو ما نطلق عليه في حديثنا العادي كلمة الحماس . في الفكر العربي الآن ، وبالتالي ـ في العمل السياسي الفكري ـ هناك فتور في الحديث عن القومية ، في حين ان الحديث عن النهضة والتقدم لا يزال موجوداً . فكيف يمكن ان يتم ذلك ؟

ان وضعاً كهذا ينطوي على خطأ أساسي يكمن في احتمالات ثلاثة ، هي : إما ان يكون الفكر العربي لا يزال يعتبر القومية هي اساس النهضة والتقدم ، ولكن الحديث عنها غير مجد بعد المرور بجملة الاوضاع السلبية التي شهدت النكسات في العمل الوحدوي ، وفي جهود المجابهة مع الصهيونية وهو امر مخطَّأ من دون شك لأن السبب فيه ـ كما هو واضح ـ سلبي لا ايجابي ، وعارض لا جوهري ، وإما ان يكون الفكر العربي لم يعد يعتبر القومية اساساً للنهضة والتقدم ، وبهذه الحالة عليه ان يفتش عن الاساس البديل. والاحتمال الثالث هو ان الفكر العربي يعتبر ان النهضة يمكن ان تتم بدون حافز وهو اكثر الاحتمالات خطأ ، فليس في التاريخ المعروف ما يدل على امكانية ذلك . النهضة امر يبدأ بالانسان وليس بما يحيط به من امور مادية ، اذ الانسان

هو الذي يغير المحيط المادي ، والانسان لا يقوم بذلك اذا لم يتوفر فيه الحافز الداخلي لذلك واذا لم توجد فيه القوة الدافعة للتقدم . ان مسألة علاقة الانسان بالطبيعة ، ودور الارادة الانسانية مقابل الجبرية هي موضوع جدل قديم معروف لا نستطيع الخوض فيه في هذا المجال ، ولكن وبصورة موجزة يمكن القول : إن الانسان هو محور النهضة والتقدم فمنه يبدأ كل شيء وإرادته هي التي تصنع التاريخ ، وكل تغيير لا بد من ان يبدأ في الانسان اولاً ومنه يخرج ويشع على ما حوله .

إن الموضوع يمكن وضعه هكذا : اذا ما اتفقنا على ان النهضة لا بد لها من محفز ، فالنهضة العربية الحاضرة اما ان يكون محفزها القومية ، واما ان يكون غير ذلك . وبعبارات اخرى الاساس البديل اما ان يكون عالمياً ( ماركسياً او دينياً ) ، واما ان يكون دون المستوى القومي ( قطرياً او طائفياً ) .

ومن مجمل ذلك نتبع انماط الجدل المعروفة : العروبة مقابل الانسانية ، والعروبة مقابل الاسلام ، والعروبة مقابل القطر او الطائفة . في وقت من الاوقات ـ خاصة بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة وبتأثير انتصارات الاتحاد السوفياتي والصين ـ قُدمت لنا الماركسية كأساس للنهضة ، ووضعت حسب هذا المنطق القومية على اساس انها متناقضة مع العالمية . وبعد نكبة فلسطين وتردّي الوضع العربي وبسبب عوامل سلبية عديدة ، قُدّم لنا الاساس الديني او الاساس القطري او الطائفي . وقد صاغ الفكر العربي موقفاً محدداً من كل ذلك : فالقومية العربية لا يمكن ان تتناقض مع الانسانية ، ولا يمكن ان تتناقض مع الاسلام ، ولكنها متناقضة مع العالمية ومع القطرية ومع الطائفية . فالقومية رابطة روحية تنبع من عوامل معنوية ومادية ، لذلك فهي ذات روح انسانية تنبع من النضال من اجل التحرر من الظلم والاستعمار والاستغلال ، وتنبع من وشائج الحب والأثرة وشعور الجماعة الذي يتكون في الفرد ، الذي ينعكس في نظرته لأبناء امته ، وبالضرورة بالتالي لأبناء الامم الاخرى .

اما علاقة العروبة بالاسلام فهي واضحة في التاريخ وتتجلى في الفهم الصحيح لكيفية نشوء الاسلام ، ولحقيقة مبادئه ومكانته في المجتمع العربي . فالاسلام هو روح العروبة والمعبّر عن اخلاقية العرب وميولهم المثالية وحبهم لحمل القيم العليا للآخرين ، وتحملهم مسؤولية ذلك . فالاسلام له روح ومبادىء ، وله من ناحية اخرى ، طقوس وعبادات .

إن تكوين الدولة الحديثة لا بد من ان يكون على اساس قومي . والنهضة العربية الحديثة لا بد من ان يكون محفزها القومية العربية ، فلا يمكن تصوّر قيام دولة تضم كل العالم لا في المستقبل القريب ولا في المستقبل البعيد ، كما لا يمكن تصور قيام دولة تضم جميع المسلمين في العالم . ومن ناحية اخرى لا يمكن قبول ولا تصوّر ان عجلة التقدم يمكن ان ترجع الى الوراء فتقوم الدولة الطائفية . اما الدولة القطرية فهي موجودة الآن وسبب وجودها معروف وكيفية قيامها معروفة ايضاً ، وهي تعاني من علّة جوهرية تتعلق بجوهر مسألة التقدم هي استحالة قيام تنمية حقيقية توصل الدولة الى مستوى الدول الصناعية المتقدمة ، الآن ، من حيث مستوى

المعيشة والقوة الاقتصادية والتقنية ، لسبب جوهري هو ضيق السوق وعدم تكامل الموارد وضيق الرقعة الجغرافية من جهة ، وغياب الحافز من جهة اخرى . وهذا هو الآخر موضوع لا ننوي التوسع فيه في هذا المجال . اذاً لا سبيل للتقدم غير الدولة القومية التي تستطيع وحدها ان توفر الحافز المشروع للتقدم ، الحافز الذي يجدد الاخلاق ، ويجلو الصدأ عن النفس فترتفع الهمة ، ويتصاعد النشاط وتزدهر قيم العمل والتضحية والاخلاص والانضباط والتفاؤل بالمستقبل ، وتشيع روح الحب والتضامن والتعاون والعمل الجماعي في الامة وفي علاقاتها مع الامم الاخرى . والاساس القومي هو الذي يوفر السوق المحلية الكبيرة والتكامل في الموارد ، واتساع الرقعة الجغرافية والقوة العسكرية ، وهي عناصر اساسية للتنمية الحقيقية بمقياسها الحديث .

- ٢ -

لماذا تراجع الحديث عن القومية العربية؟ ولمثل هذه الظاهرة لا بد من ان تكون هناك اسباب ، والاسباب قد تكون رئيسية وقد تكون ثانوية وهي بكل الاحوال عديدة ، ولكننا في هذا المجال سنركز البحث على اهمها .

هناك اولاً وقبل كل شيء الوضع النفسي الذي نتج عن الاخفاق في تحقيق خطوة جدية في طريق الوحدة العربية : فالوحدة بين مصر وسورية قد فشلت ، ومشاريع التوحيد الاخرى لم يتحقق منها شيء . وفوق كل ذلك ، العلاقات بين الاقطار العربية نفسها قد ساءت ، وفي بعض الاحيان كانت بالغة السوء وتقارب اعلان الحرب . ومن ناحية اخرى ، لم يستطع الجهد العربي حتى الآن ان يحقق تقدماً ملموساً في مجال مقاومة العدو الصهيوني . كل ذلك قد خلق وضعاً مادياً ومعنوياً غير موات نفسياً لقيام الوحدة ، او تحقيق خطوة مهمة على طريقها . فكيف اذاً يمكن الحديث عن القوميةالعربية والوضع العربي على هذا الشكل؟ ذلك سبب رئيسي في تراجع الحديث عن القومية العربية . وقد نشأ عن هذه الحالة وضع نفسي غير متفائل يتصف بالاحباط في مجال التحقيق الفعلي لهدف الوحدة العربية .

والسبب الآخر هو التحول الذي طرأعلىالنشاط العام نحو الاهداف الاقتصادية والاجتماعية . ففي البلاد العربية ـ كما في عموم العالم ـ هناك زيادة في التأكيد على امور التقدم الاقتصادي والاجتماعي والثقافي ، ورفع مستوى المعيشة ، ومكافحة العلل الاجتماعية والاهتمام بالتنمية . ان زيادة الاهتمام بالتنمية امر واضح في البلاد العربية وهو بحد ذاته ليس توجهاً سلبياً ، الا انه ظاهرة يمكن تفسيرها في عديد من العوامل كالتأثر بالتيارات التي تسود العالم الآن ، وزيادة العائدات النفطية بدرجة كبيرة . ولكن مهما قيل عن هذه الاسباب الايجابية يبقى هناك عامل آخر هو الفشل في تحقيق الوحدة العربية ، اي ان الفشل في هذا المجال قد نتج عنه تحول في الاهتمام من الجانب القومي الى الجانب الاقتصادي والاجتماعي ، كوسيلة تعويض . كما لا يخفى ان الثقافة العامة السائدة الآن تؤكد على اهمية التنمية ورفع مستوى المعيشة والخروج من التخلف ، وهي اهداف اصبحت المعرفة بها واسعة لدى الرأي العام ، ولدرجة انه اصبح لا مناص لأي حكومة من تبنيها والاهتمام بها ، لذلك نجد الحكومات في

الاقطار العربية ، مهما تباينت في سياستها القومية ، لا مناص لها، وفي بعض الحالات لا خيار لها من تبني هذه الاهداف والسعي من اجلها ولو بدرجات متفاوتة .

وبعبارة اخرى اصبح النشاط في المجال الاقتصادي والاجتماعي شاغلاً ومعوضاً عن النشاط في المجال القومي ، شاغلاً لأنه يحتاج الى جهود مضنية واهتمام كبير ؛ ومعوضاً عن الفشل في المجال القومي بشقيه الوحدة العربية ومقاومة التحدي الصهيوني . وهناك نقطة تجدر الاشارة اليها ، وهي ان الاهتمام بالجانب الاجتماعي لم يكن مقصوراً على رفع المستوى العام للمعيشة ، ولكنه يتضمن ايضاً تحقيق العدالة الاجتماعية بشكل او بآخر ، ومعالجة اوضاع الاستغلال بشكل عام ، وهي الاهداف التي تكمن وراء اجراءات الاصلاح الزراعي ، وقرارات التأميم والتشريعات العمالية ، وقوانين الضمان الاجتماعي وتحديد الملكية الخاصة ، وغيرها من الاجراءات التي تقع في هذا الباب . فإذا ما اضيف هذا الجانب الى موضوع التنمية بمعناها الواسع ، الاقتصادي والاجتماعي ، يتضح ان هذه الاهداف اذا ما اخذت ككل تشكل ما يسمى بالمضمون الاقتصادي والاجتماعي للنهضة العربية الحديثة .

وهنا تتضح علامات شيء من التناقض . فهل يعني هذا الكلام ان المضمون الاقتصادي والاجتماعي للنهضة العربية قد اصبح ـ ضمن الوضع الذي اشرنا اليه ـ في تناقض مع القومية العربية عندما نقول انه يأتي بدور الشاغل والمعوض عن الحديث عن القومية العربية؟ السؤال مشروع وذو معنى . فالقومية العربية الحديثة تعني توحيد البلاد العربية ، ولكنها لا تقتصر على هذا الهدف ، بل تؤكد ايضاً على ان هذه الوحدة يجب ان تكون ذات مضمون اقتصادي واجتماعي تتحقق بموجبه التنمية والعدالة الاجتماعية والقضاء على الاستغلال بكافة اشكاله . فهل اصبح المضمون متناقضاً مع الاصل؟ الجواب على ذلك يعتمد على الاسس التي يوضع عليها المضمون ، فالاهتمام بالتنمية الاقتصادية والعدالة الاجتماعية والقضاء على الاستغلال بشتى اشكاله ، يمكن في حالة من الحالات ، ان يكون المقصود منه الانشغال عن الوحدة العربية، او التعويض عنها ، اي ان يكون بديلاً لها . وبهذا المعنى يكون التناقض واضحاً . ولكنه ان وضع على اسس غير هذه الاسس كأن تكون الاسس التي يوضع عليها هي نفسها قومية الاتجاه ، اي انها متجهة لتحقيق الهدف القومي الاكبر وتأخذه في الحساب عند وضع برامجها العملية ، في حالة كهذه لا يكون الاهتمام بالمضمون متناقضاً مع الجوهر اي مع هدف الوحدة العربية ، فكل شيء يعتمد على الاتجاه الاساسي والاجراءات العملية التي تتخذ بناء على ذلك الاتجاه .

وعلى سبيل المثال ان برامج التنمية الاقتصادية واجراءات العدالة الاجتماعية وبناء الاشتراكية التي يراد تطبيقها في قطر عربي ، تكون ذات صيغة معينة اذا كان اساسها قومياً ، وتكون ذات صيغة معينة اخرى اذا لم تكن كذلك ، اي اذا كانت قطرية الهدف . وعن هذا الطريق يمكن حل التناقض الذي يمكن ان ينشأ بين الهدف الاكبر والمضمون الاقتصادي والاجتماعي ، اي ان يكون تحقيق المضمون بالشكل الذي يساعد على التقرب من تحقيق الهدف ، والذي يؤخذ في الحساب عند صياغة البرامج العملية لتحقيق ذلك الهدف .

العامل او السبب الثالث في التراجع في الحديث عن القومية العربية هـو عامـل خارجي وليس داخلياً الا وهو ان الوطن العربي يتأثر بالتيارات الموجودة في العالم خاصة التيارات القوية السائدة فيه . في العالم اليوم لا يوجد حديث بصوت عالٍ عن القومية كما كان الحال في القرن التاسع عشر والنصف الاول من القرن العشرين . التيارات السائدة في العالم اليوم تتحدث عن الاشتراكية وعن الديمقراطية وعن مشاكل البطالة والتنمية والسلام والتعاون الدولي . . . الخ ، ولا يوجد بينها صوت مرتفع يتحدث عن القومية . عالم اليوم يمارس القومية، ويتحدث بلغة غير لغتها ، وربما كان لذلك اسباب . فالقوميـة في العالم المتقـدم من الاتحاد السـوفياتي الى امـريكا الشمالية قد حققت اهدافها من حيث استكمال الوحدة السياسية فأكملت بناء الدولة القومية ، واصبحت القومية امراً بديهياً في كيانها السياسي وحياتها اليومية فلم يعد الحديث عنها مطلوباً . فقد اتجهت نحو تحقيق اهداف اخرى تتعلق بالامور السياسية والاقتصادية . ثم جاءت الحرب العالمية الثانية ، واقترنت القومية في المانيا وايطاليا واليابان بالعنصـرية والحـرب ، الامر الـذي جعل صوتها ينخفض بعد انتهاء الحرب . كل هذه العوامل قد جعلت عالم اليوم لا يشهد تياراً فكرياً يدعو للقومية . ولكننا من ناحية اخرى نجد ان عالم اليـوم الذي لا يتكلم عن القـومية يتصرف على اساسها تماماً وبمقتضاها ، ويستوي بذلك الشرق الماركسي والغرب الـرأسمالي ، فالجميع له دول ذات حدود ومصالح ، ويعمـل ليل نهار لتقـوية الـدولة ، وحمـاية حـدودها ، وتوسيع نفوذها وزيادة قوتها الاقتصادية والعسكريـة ، ويكيف تصرفـه الدولي في عـلاقاتـه مع الدول الاخرى على هذا الاساس .

والوطن العربي اليوم ـ كما هو الحال في بلدان العالم الثالث ـ يتصف بالتأثر بتيارات الفكر السائدة في البلدان المتقدمة ، ويدل ذلك ـ الى حد ما ـ على ضعف الفكر بوجه عام . فالعصر الحالي هو عصر التصرف القومي وليس عصر الحديث عن القومية : فالقومية في البلدان المتقدمة قـد اجتازت مـرحلة البحث والنقاش ، واصبحت حقيقـة واقعة مجسمـة في الدول القـومية ، والتصرف القومي ، الامر الذي جعل هذه البلدان تتحول الى حلّ مشاكل جديدة هي القضايا الاجتماعية والاقتصادية واحلال السلام . والفكر العربي المتسم بالضعف لم يستطع تحليل الحالة بصورة سليمة ، فهو بصورة ضمنية ربما يتصور ان القومية قد انتهت مرحلتها ، لا بل هناك من يقول بذلك الآن صراحة . ان مجرد غياب الجدل والنقاش عن القومية قد اوقع الفكر العربي في خطأ فادح هو التصور ان عصر القومية قد انتهى وحل محله ، اما عصر العالميـة ـ الماركسيـة او الدينية ـ وإما عصر الدولة القطرية، او الطائفية . ولو كان في عالم اليوم تيار فكري قوي يتحدث عن القومية في الدول المتقدمة لانعكس ذلك في الفكر العربي ، اذ من سمات الفكر الضعيف المحاكاة والتطلع لاحوال الفكر القوي ونسيان الواقع ، والاهتمام بالمظاهـر الخارجيـة اكثر من الجوهر .

ـ ٣ ـ

هذه بنظري هي العوامل الرئيسية في تراجع الحديث عن القومية العربية وتجتمع كلها في

عامل مشترك واحد هو انها عوامل سلبية وليست ايجابية . فالفشل الذي اصاب خطوات التوحيد لا يمكن ان يكون مجالاً لاشتقاق مبدأ عدم امكانية الوحدة فالخطوات كانت محدودة والخطوة العملية التي فشلت ، وهي توحيد سورية ومصر ، لا تصلح تجربتها لاشتقاق قانون عام فظروفها معروفة ، والاخطاء التي رافقتها معروفة ايضاً ، والانفصال الذي حدث لم يكن حتمياً ، بل كان من الممكن تجنبه فهو لا يعدو ان يكون عملية فنية، وليست مسألة مبدئية . ويصح ذلك على جميع مشاريع الوحدة التي لم تخرج الى الوجود . والمجال الآن لا يتسع لبحث هذه المسألة بالتفصيل ، ولكن علينا ان نفرق بين العوامل الفنية والعوامل المبدئية . ان فشل الخطوات الوحدوية يعود لعوامل فنية بحتة وليس لعوامل جوهرية ترقى لمستوى الحتميات المبدئية .

ومن ناحية اخرى فإن الموضوع يمكن ان يطرح بصورة معكوسة تماماً . فإذا كانت الوحدة العربية هدفاً أساسياً للنهضة العربية ، واذا كانت هي العمود الفقري لتقدم العرب وقوتهم وحل مشاكلهم ، فإن الفشل في الخطوات التي اتخذت لحد الآن يجب ان يكون مبرراً لمزيد من الاصرار ، وسبباً لمزيد من التمسك بالوحدة بدلاً من التراجع عنها .

**الوحدة العربية ليست مستحيلة** وليست بعيدة المنال ولا من قبيل الاماني ، بل هي هدف قابل للتحقيق ، حتى في احلك الظروف ، لا بل ان احلك الظروف هي انسبها لتحقيق الوحدة ، فالوضع العربي وضع رجراج لم يأخذ شكله النهائي بعد وكثير من الامور يتحقق بشكل حلقات مترابطة . ان حدوث تطور واحد بامكانه ان يزيل التوازن القلق الذي يشهده وضع التجزئة ، فخطوة واحدة الى الامام بامكانها ان تخلق خطوة جديدة اخرى الى الامام وهذه بدورها يمكن ان تفعل فعلها في الواقع المادي ، وفي الوضع النفسي لدرجة يمكن ان ينتج عنها خطوة جديدة ، وهكذا يمكن ان يتطور الوضع تصاعدياً . والوضع العربي ليس من السهل قراءة مستقبله ولا التنبؤ به على اساس معطيات الحاضر ، فهو قابل للمفاجآت ومليء بالاحتمالات التي لا يوحيها ما هو موجود . وهناك ادلة كثيرة على ان الواقع العربي يتصف بهذه الصفات ، فضربة فنية هنا قد ينتج عنها ما هو ليس بالحسبان الآن . الامة العربية ككل الامم الاخرى تكتسب خبرة وتزداد نضجاً كلما مرت بالتجارب ، لذلك فليس من المحتم ان يكون نصيب العمل الوحدوي اليوم كنصيبه في الماضي ، وما نقوم به غداً لا يشترط ان يكون شبيهاً بما نقوم به اليوم ، والامم القوية هي التي تستفيد من حالات الفشل لا التي تستسلم لها . وبعبارة اخرى لا يستطيع احد ان يشتق قانوناً حتمياً من تجربة الماضي القصيرة المحدودة المعروفة الظروف .

والعامل الثاني ، كما مر ذكره ، هو الاهتمام بالقضايا الاقتصادية والاجتماعية ، وهنا ايضاً يتضح العامل السلبي ، فإذا كان من الممكن تحسين مستوى المعيشة في دولة التجزئة عن طريق تنفيذ البرامج التنموية ، فإن تحقيق تنمية حقيقية توصل القطر الى مستوى الدول الصناعية في العالم المتقدم ، وحتى الصغيرة منها كهولندة وبلجيكا ، اصبح الآن مستحيلاً وتزداد استحالته بمرور الوقت . فالتنمية من هذا النوع تحتاج لسوق واسع يبرر قيام الصناعة المنتجة

للسلع الانتاجية . ومن البديهي المعروف ان التنمية الحقيقية لا يمكن ان تحصل الا بالوصول الى مرحلة امكانية صناعة السلع الانتاجية بصورة اقتصادية، اي صناعة الآلات والتجهيزات الثقيلة المستعملة في اقامة المصانع لانتاج السلع الاخرى . ان هذا المستوى من التصنيع لا يمكن ان يحصل اطلاقاً ضمن الدولة القطرية في الوطن العربي الحاضر . ان السوق غير متوفرة والموارد غير متكاملة ايضاً ، فالاقطار التي تتوفر فيها اليد العاملة يشح بها رأس المال ، والاقطار التي يكثر بها رأس المال ، تقل بها اليد العاملة . ناهيك عن عدم التكامل الموجود في شتى نواحي الاقتصاد : في الزراعة والصناعة ، والنقل والقدرة الفنية . إن التطور التقني نفسه قد ادّى الى زيادة الصعوبة امام الدولة القطرية ، فالوحدة الاقتصادية الدنيا في الصناعة قد ازدادت انتاجيتها وهي في زيادة مستمرة بسبب التطور التقني ، الامر الذي يجعل السوق الضروري لهذه الوحدة اكبر . وهكذا تصبح إقامة الصناعة الحديثة اكثر صعوبة امام الدولة القطرية المحدودة السوق . وفي عالم اليوم وضمن ظروف الوطن العربي الحالية ، لا يمكن تصور امكانية قيام تنمية اقتصادية من هذا النوع بدون قوة عسكرية لحمايتها . والقوة العسكرية من هذا النوع لا يمكن توفرها لكل قطر لوحده ، وتجاربنا في مواجهة الصهيونية خير دليل على ذلك . والقوة العسكرية ، كما هو واضح ، ليست شراء السلاح بل تصنيعه ، وليست عملية سلاح لوحده بل هي مجمل القوة الاقتصادية بأوسع معانيها ، والقوة البشرية بوضعها العددي والتقني والمعنوي .

بقي ان نقول كلمة عن سلبية العامل الثالث وهو التأثير الخارجي . ان سلبية هذا العامل اكثر وضوحاً فالعالم المتقدم اليوم ، مكون من دول قومية تتصرف على هذا الاساس ، وإن قل التحدث عن ذلك . والدول المتقدمة هذه ، تحاول عن طريق قنوات الفكر ، ان توهمنا بأن عصر القومية قد انقضى ، وغرضها الاستعماري من ذلك يجب الا يكون صعب الفهم ، فالغرب الذي وطد دولته القومية تحول الآن الى مزيد من توطيدها عن طريق حل المشاكل الاقتصادية والاجتماعية ، وهو حتى عندما يعمل في مجال التعاون الدولي يهدف الى حماية الدولةالقومية ، وجلب المزيد من المنافع لها وبالتالي تقويتها . ان عالم اليوم ، الشرق فيه والغرب ، عندما يقول بالعالمية بشكل او بآخر ، يهدف في الحقيقة ، لا الى تخطي القومية او ازالة الدولة القومية واحلال نمط سياسي جديد محلّها ، بل الى تحقيق الرفاه لشعوبه ، وتجنب المشاكل ، والاحتكاك الدولي ، توفيراً لموارده القومية ، وحماية لانجازاته الاقتصادية ، اي الى المزيد من التقوية للدولة القومية ، لا العكس . فلا الشرق ولا الغرب يقول بحكومة عالمية ، وحتى اشد العقائد تمسكاً بالعالمية ، وهي الماركسية ، لم تستطع امتصاص الفروق القومية ، بل على العكس فقد ازدادت وضوحاً وتبلوراً بدليل ما حصل بين الصين والاتحاد السوفياتي ، وسلسلة التطورات في اوروبا الشرقية .

إن الحديث الموجه الينا ضمناً او علناً ، من خلال قنوات الفكر والدبلوماسية ، ان عصر القومية قد انتهى ، انما هو في حقيقته حديث القصد منه التأثير على مسيرة تطورنا لجرها في غير الطريق الصحيح لها ، الا وهو طريق القومية والوحدة . ان هذا الحديث الذي يصدر بصورة خاصة عن الفكر الغربي ، ان هو الا حديث غير نزيه ومقصود لهدف استعماري لم يعد خافياً

على احد . ان الغرض من مثل هذا الكلام هو تسميم الفكر القومي ، واضعاف تيار القومية العربية لتضعف بالتالي مقاومتنا للاستعمار . وتبذل الصهيونية على وجه الخصوص جهوداً استثنائية في هذا النشاط بطرق ملتوية ، غير مباشرة . هذه هي السمة السلبية في هذاالعامل .

وخلاصة هذا الحديث هو انّ تراجع الحديث عن القومية العربية لا يعود لاسباب متصلة بمصلحتنا المشروعة ، ولا يمت بصلة جوهرية بقضية تقدمنا ، بل على العكس تماماً . فالاسباب برمتها سلبية تقف على طرفي نقيض من مصلحتنا الحقيقية . وما علينا الا تحليلها وفهمها والتصدي لها .

- ٤ -

والآن لنلقِ نظرة على تاريخ النهضة العربية الحديثة منذ بداية هذا القرن لنرى دور الشعور القومي في التطورات التي حصلت خلال هذه الفترة . حقاً لقد كانت القومية العربية هي المحرك الاساسي لمجمل التطورات المهمة خلال هذه الفترة . إن مجمل الحركة المناوئة للاستعمار العثماني قد بدأت على هذا الاساس ابتداء من المطالبة باللامركزية الى قيام الثورة العربية في ١٩١٦ ، التي اعلنت بوضوح هدف استقلال وتوحيد البلاد العربية في المشرق . وبعد ذلك كان استقلال الاقطار العربية الواحد تلو الآخر بدافع القومية ، وليس بفعل اي محفز آخر . ان الحركة الاستقلالية التي اجتاحت البلدان العربية كانت من دون شك بحافز القومية وبدافع الشعور بالشخصية المستقلة عن الدولة المستعمرة ، وهكذا استقل العراق واستقلت سورية وباقي الاقطار العربية .

نقول ذلك عموماً ، ولا نقصد بالحافز القومي ان الاستقلال قد حقق الوحدة العربية فالوحدة هدف قومي اكبر ، ولكن المقصود هو ان حركة الاستقلال عن المستعمر العثماني وبعده الاوروبي كان حافزها القومية المعبر عنها بالشخصية المستقلة والكيان الخاص . ان استقلال الاقطار العربية في المشرق العربي عموماً لم يكن له غير هذا المعنى ، والاستقلال لم يكن في ذهن الذين ناضلوا من اجله وحققوه ، انه يعني شيئاً غير القومية العربية ، فهو لم يكن ينطوي على اعتبار كل من هذه الاقطار قومية منفصلة عن القومية العربية ، بل النظرة السائدة للاستقلال كانت هي انه خطوة نحو الوحدة العربية . اقول ذلك ، وبالطبع في الذهن ان ذلك كان بدرجات متفاوتة ، وببعض الاستثناءات ، ولكن على العموم كان الشعور السائد في الحركة الاستقلالية ، ان الاستقلال هو خطوة نحو الوحدة وان محفز تلك الحركة هو الشعور القومي . ثم هناك مجمل النضال الذي خاضته البلاد العربية ، ذلك النضال الذي امتد عشرات السنين ، والذي تمخضت عنه تطورات جوهرية في الوضع العربي ، ماذا كان محفزه ؟ اليس الشعور القومي والقومية العربية؟ من دون شك ان النضال للدفاع عن فلسطين ضد الصهيونية كان ولا يزال العامل الجوهري في اوضاع البلاد العربية ، وهي مجزأة ، وسيبقى حجر الزاوية في سياستها الخارجية ، وهو مؤثر مهم في اوضاعها الداخلية ، وهو من دون ادنى شك منبعث من الشعور القومي .

ثم كـان قيام الجـامعة العـربية ومـا رافقها الى الآن من نشاط في مجـال العمل العـربي المشترك ، هو الآخر دافعه قومي ومحفزه الشعور القومي وليس اي شيء آخر . وفي هذا الصدد يجب عـدم التقليل من اهميـة ما انجـز في هذا المجـال ، فهو وإن كـان على العمـوم اقـل من الطموح ، الا انه انجاز لا يستهان به . كذلك يجب عدم قياس الانجازات على اساس ما انجز في المجال السياسي ، فالمجالات غير السياسية في نطاق الجامعة العربية قد شهدت عملاً مشتركاً مهماً يجب عدم التقليل من اهميته . ان الاخفاقات السيـاسية وكـون الذي انجـز دون مستوى الطموح ، يجب الا يرسم امامنا صورة خادعة لحقيقة واهمية ما انجزته هذه المؤسسة القومية .

وفي صدد هذا البحث تجدر الاشارة الى ظاهرة مهمة في السنوات الاخيرة هي التفاعـل المهم الذي حصل بين المغرب العربي والمشرق العربي . فالمغرب العربي الذي بقي معزولاً لفترة من الزمن ، نلاحظ ان وشائجه بالبلاد العربية في المشرق ، قد قويت في السنوات الاخيـرة في جميع النواحي السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية ، ودخلت بلدان المغرب العربي مجال التعريب وتوسيع نشر الثقافة العربية والحضارة العربية . ان هذا التطور المهم انما هو دليل على اصالة الشعور القومي واهميته كمحرك للتطورات المهمة في الوطن العربي .

ان عملية التقدم الاجتماعي والاقتصادي والثقافي نفسها التي تقوم بها الاقطار العربية في ظل التجزئة لا تخلو من الحافز القومي ، فما تقوم به هذه الاقـطار في مجالات التعليم والصحـة والمواصلات والصناعة ومختلف نواحي العمران ، انما تقوم به على اساس قومي فهو بمجموعـه يشكل جهوداً لبناء حضارة مقـابل حضـارات العالم المتقـدم فهو عمـل امة مقـابل امـة او امم اخرى ، واثبات وجود مقابل وجود الآخرين . فمعنى الوطنية في هذه الناحية يكاد يمتزج بمعنى القومية ، فجميع هذه الجهود مبنية على اساس الثقافة العربية والوجود العربي ، وبالاستناد الى الحضارة العربية ذات الجذور العميقة في التاريخ . ان جهود البناء والتقدم الـوطني في الاقطار العربية لا يقف وراءها دافع اممي ولا دافع ديني او طائفي ولا يوجد شعور واضح بوجود قوميات مختلفة ومستقلة عن القومية العربية فالشعور بالمصير المشترك ، وترابط المصالح والمستقبل الموحد موجود ، وليس من الصعب تشخيصه حتى في ظل وضع التجزئة الموجود حالياً .

والرأي العام العربي قد عبّر عن تعلقه واهتمامه بالقومية والوحدة بوسائل لا يستهان بها . فمجمل الادبيات الجادة منذ الحـرب العالميـة الثانيـة ، قد عبـرت عن هذا الشعـور بشكـل او بآخر . والاتجاه القومي يمكن تلمسه في الجزء الاعظم مما يخرج من وسائل الاعلام بشكـل او بآخر . كما عبّر الرأي العام عن نفسه بوسائل اخـرى ، فالاحـزاب والجمعيات السيـاسية التي تنادي بالوحدة وتعمل من اجلها معروفة ، وهي تمثل الجزء المهم والاكثر تأثيراً في مجرى السياسة العربية . ولا نبتعد عن الحقيقة اذا قلنا ان حركة القومية العربية بمجملها هي المحرك الاساسي لمجمل السياسة العربية وبصورة خاصة في المشرق العربي .

هذا هو وضع التراجع الذي حصل في الحديث عن القومية العربية : معناه واسبابه السلبية ، وهذه هي منجزات الشعور القومي الذي اخذ يدب في جسم الامة العربية منذ بداية هذا القرن . فماذا نستنتج من ذلك في مجال العمل الفكري على وجه الخصوص ؟

ـ ٥ ـ

البلاد العربية مجزأة ووجودها مهدد وقضية التنمية الاقتصادية والاجتماعية في مأزق . التجزئة فاشلة في الدفاع عن الوجود وذلك امر لا شك فيه ، والتنمية الاقتصادية والاجتماعية الحقيقية غير ممكنة في ظل هذا الوضع ، فما العمل؟ هل نلجأ للعالمية ـ الماركسية او غيرها من الافكار ام نلجأ لاطار اضيق هو الطائفية او القطرية؟ الوضع القطري قد ثبت ، بنظري ، فشله في هذين المجالين الاساسيين. والطائفية لا يمكن الا ان تكون اكثر فشلاً ، وتجر لما هو اسوأ . اما العالمية فقد مضى على افكارها مدة كافية وهي موجودة بين ظهرانينا فماذا يمكن ان ننتظر منها ؟ هل من المنطقي ان امة مجزأة يهددها خطر الصهيونية بوجودها ، وتجاورها بلدان ذات مطامع اقليمية ، وجهودها التنموية تسير في طريق مسدود ، تلجأ للافكار العالمية لحل مشاكلها؟ ماذا ستوفر العالمية لامة كأمتنا؟ هل توفر الحل السحري لهذه المشاكل الجوهرية ؟ الجواب بنظري سلبي ، فلا المنطق المجرد يؤيد هذا الحل ولا التاريخ يحوي من الشواهد على امكانية نجاحه . فالافكار العالمية ، ، خاصة الشيوعية ، موجودة في الوطن العربي منذ امد ليس قريباً فماذا استطاعت ان تحقق؟ ما هي التطورات الايجابية التي نتجت عنها ، وما هي خطوات التقدم التي يمكن ان تنسب لها؟ هل تستطيع العالمية ان توفر الحافز العملي الذي يشحن الهمم ،ويحدث النهضة، ويوفر القوة الدافعة نحو التقدم والقوة والنهضة؟ وكيف يمكن ان يحصل ذلك ، خاصة وان هذه الافكار مرتبطة بدول اجنبية لها مصالحها وسياستها واهدافها المختلفة عن مصالحنا واهدافنا . اذا لم نلجأ للشعور القومي كحافز للتقدم فلأي شيء نلجأ ؟ للشعور بالعالمية ام للشعور الطائفي او القطري ؟

اننا بحاجة الى تجديد الحديث عن القومية العربية ، فيقوم المثقفون والمفكرون بشرحها وتوضيح عواملها ، ومد الجمهور بمادة ثقافية للقراءة عنها ، كما حصل بعد الحرب العالمية الثانية وبنطاق اوسع واعمق . ان الشعور القومي بحاجة الى دفعة ثقافية جديدة تضع هذا الموضوع امام تفكير المواطن العربي من جديد . ثقافياً لا يتم ذلك الا بتوفير المادة الثقافية في المكتبات، واستخدام وسائل الثقافة الحديثة كالاذاعة المسموعة والمرئية ، ومختلف انواع المطبوعات ، ووسائل التعبير الفني كالمسرح والصور المتحركة ، من اجل حملة ثقافية لتجديد الفكر العربي وتعبئته في الاتجاه القومي . تلك هي المخاطبة المباشرة .

اما الحديث عن محتوى القومية العربية ، اي التقدم الاقتصادي والاجتماعي والعدالة الاجتماعية فيمكن ان تعالج على اساس قومي ايضاً ، بحيث تكون الكتابات عنها تساعد على تقريب فكرة القومية العربية للاذهان ، وجعلها تصب في الرافد نفسه ، فحيثما يكون المجال متعلقاً بمحتوى القومية العربية ، يجب تقديم الموضوع على هذا الاساس المرتبط بالقومية العربية

وليس على اساس مجرد . ومن الخطأ التصور ان الاهتمام بالمحتوى بحد ذاته وبصورة مجردة يؤدي الى تقوية الشعور القومي ، اذا لم يكن ذلك الاهتمام مصمماً في الاساس على القومية العربية والوحدة العربية ، فالحديث عن المضمون ليس واحداً فهو يمكن ان يكون مؤدياً للشعور العربي ويمكن ان يكون معزولاً عنه ، وعلينا التفريق بين الحالتين . اذاً لا غنى عن الحديث مجدداً عن القومية العربية بحد ذاتها ، ولا غنى عن تصميم الحديث عن محتواها بالشكل الذي يؤكد عليها ، ويرتبط بها اذ لا بد من الاهتمام مجدداً بالحافز والمحرك للنهضة . اما النهضة بحد ذاتها ، من حيث كونها تجسيداً للحافز ، فهي نتيجة وليست سبباً .

لقد بقي الفكر العربي متأثراً بالتيارات الخارجية تارة بهذا التيار وتارة بذاك . ان ذلك يدل على ان المرحلة هي مرحلة تحول وتفتيش عن الحلول اذا ما اخذ هذا التأثر بمعناه الايجابي ولكنه يدل ايضاً على سمة سلبية هي ضعف المناعة . فإذا كانت الحقيقة واحدة فيجب الا يكون هناك مجال لترجيع صدى التيارات الخارجية المتناقضة ، تارة هذا التيار وتارة ذلك التيار المناقض له . فالتفاعل والانفتاح شيء والتأثر السلبي شيء آخر .

الفكر هو اداة الوصول للمعرفة وموضوع المعرفة هو الحقيقة. لذلك نقول: ان الحقيقة واحدة ، فإذا كانت كذلك فإن الفكر يحاول استكشافها ولو بالتدريج ، وعلى مراحل . واكتشاف الحقيقة هو ما تسعى اليه كل الامم ، خاصة عندما تكون في حالة انتقال من وضع لوضع آخر مختلف عنه ، كما هو الحال في الامة العربية الآن . والفكر في هذه العملية قد يسلك سبيل الاستنتاج والتحليل المنطقي ، وقد يسلك سبيل استقراء الوقائع ، ولكنه بكل الاحوال يهدف الى المعرفة ، والمعرفة في حالة الامة العربية هي معرفة المرحلة التالية من التطور وكيفية الوصول اليها ؛ أي الهدف وكيفية تحقيقه . وتلك هي عملية صوغ النظرية وتكوين العقيدة . وعلى هذا الاساس فلا مجال لأن تكون الحقيقة اليوم شيئاً وغداً شيئاً مختلفاً عنه ، بالرغم من ان اكتشاف الحقيقة قد لا يكون مرة واحدة ، بل على مراحل . وصحيح كذلك ان عملية الوصول للحقيقة قد تكون ناقصة بسبب نقص المعلومات ، او خطأ التحليل ، الامر الذي ينتج عنه ان ليس كل النظريات كاملة في تعبيرها عن الحقيقة . ولكن العملية الفكرية مستمرة ، وباستمرارها تصاغ النظريات ومن خلال ذلك يتم اكتشاف الحقيقة شيئاً فشيئاً وتتراكم المعرفة شيئاً فشيئاً .

إن جميع هذه النقائص هو ما يمكن ان ندعوه بالجوانب الفنية للعمل الفكري . ولكننا اذا وجدنا الفكر يقدم اليوم حلاً لمشكلة الامة بتأثير تيار فكري خارجي وغداً يقدم حلاً مختلفاً عنه تحت تأثير تيار فكري خارجي آخر فإن ذلك ما لا يمكن ان نعزوه للعوامل الفنية بل هو ما يمكن ان ندعوه الغرض المسبق او التقليد الناتج عن الضعف . ونحن نسوق هذه الملاحظات للتذكير بأن الفكر العربي خلال الحرب العالمية الثانية ، وبعدها ، قد تأثر بالماركسية التي شهدت مداً في نفوذها ، وقُدمت لنا على انها الحل الناجع الصحيح ، وبعد فترة من الزمن انحسر ذلك التيار . واليوم يتأثر الفكر العربي بتيارات اخرى مختلفة ، فقد طال عمر التجزئة وقامت الدولة القطرية

المستقلة في جميع ارجاء الوطن العربي واخذ يظهر للعيان نوع من الوضع القطري المتوازن ، الذي كلما حاولنا تغييره لوضع توحيدي فشلت المحاولة ، ورجع وضع التوازن الى ما كان عليه . ومن هذا الواقع ترشحت فكرة الوضع القطري . كما ان ما حدث في قطر مجاور للبلاد العربية يرفع شعارات دينية ، قد ادى الى بعض الحديث عن الدولة الدينية .

اننا نعرف ان الدولة القطرية في وضع ضعيف وكل ما يمكن ان تدعيه من ايجابية ، هو انها موجودة. ونعرف ان الدولة الدينية ليست في مضمونها الحقيقي الا طائفية ورجوعاً الى الوراء . ولكن على ماذا يدل كل ذلك فيما يتعلق بالفكر ؟ انه يدل على الضعف ، ويشير الى التأثر الانفعالي تحت تأثير التخلف والازمات الحادة . وبعبارة اخرى ان ما يقدم لنا كحلول ليس في الحقيقة من نتاج الفكر المستقل ، الباحث عن الحقيقة ، بل هو تأثر سلبي بما يحدث في العالم . وهو في الحقيقة مما تفرزه الازمات ، التي تمر بها الامة العربية اليوم . لذلك فهي لا تعدو ان تكون موجات لا تلبث ان تزول كما تزول فقاعات الصابون ، تزول كما زال غيرها من قبل ،ولن يبقى غير العمل الفكري الايجابي الباحث عن الحقيقة بصورة مستقلة وقوية .

- ٦ -

الخلاصة هي اننا بحاجة اليوم الى تجديد الحديث عن القومية العربية فكرة ومضموناً . والحديث عن الفكرة ذو مجال واسع ، فالقومية العربية لم يستوفَ بحثها الى الآن ، فهناك الكثير مما يمكن ان يبحث في هذا المجال ، خاصة الامور التي تتعلق بالجوانب المثيرة للجدل .

إن القومية العربية بحاجة الى توضيح تفصيلي فيما يتعلق بالتعريف . والمقصود بالتعريف في هذا المجال توضيح جوهر الفكرة بحيث تصبح موضوعاً بحثياً في الوسط المثقف ، ومفهوماً بسيطاً لدى عموم طبقات الشعب . والجوانب المثيرة للجدل متعددة ، بعضها قد طرق من قبل وبعضها لم يطرق ، والذي سبق بحثه لم يبحث بصورة وافية .

ما هي القومية العربية ؟ وما هي جذورها في التاريخ العربي؟ والموضوع المثير للجدل في هذا المجال هو : هل القومية العربية قد نشأت بتأثير نشوء القومية في الغرب ، ام انها عميقة الجذور في التاريخ العربي؟

موضوع آخر مهم ومثير للجدل هو علاقة القومية العربية بالانسانية والتفريق بين مفهوم الانسانية ومفهوم العالمية . اذ من الاهمية بمكان توضيح الاطروحة القائلة بأن القومية هي الاساس الصحيح للعلاقات الدولية . ثم هناك مجمل موضوع القومية ونوع العلاقة الاجتماعية التي تقوم عليها لإخراج كل القضية العرقية ، والتعصب القومي من موضوع القومية العربية . وليس اقل اهمية من ذلك معالجة موضوع القومية والمراحل التاريخية ، ذلك الموضوع الذي يكوّن الاساس للسؤال المعروف حول مرحلية القومية ، اي اعتبار القومية مرحلة عابرة لا بد من تجاوزها للعالمية كما يدعي البعض .

القومية ، والوحدة السياسية ، ومعنى الوحدة السياسية ، وعلاقة ذلك بقيام الدولة القومية ، هي الاخرى بحاجة الى البحث ، لايضاح الفروق بين ذلك وبين المفهوم القائم على مجرد التضامن العربي . ثم هناك قضية الطريق الى الوحدة الذي تتفرع عنه مواضيع مهمة تتناول مسألة النضال الشعبي والتنظيم القومي وموضوع المرونة في اختيار الاساليب مقابل القانون النظري والجبرية في بحث قضية الاسلوب .

هذه كلها امور تتعلق بجوهر الفكرة نفسها ، بحاجة الآن الى بحوث واسعة لا تتناقض ، بل تكمل وتشرح الادبيات التي صدرت حتى الآن عن موضوع القومية .

ومن المهم ايضاً تناول الجانب الآخر ، الا وهو موضوع المحتوى الاقتصادي والاجتماعي ، حيث تحتاج مسألة العلاقة بين الفكرة وبين مضمونها الى زيادة في المناقشة والشرح . وفي هذا الصدد لا بد اولاً من شرح المضمون على وجه التحديد ، كنظام اقتصادي واجتماعي ، لدولة الوحدة العربية . وهنا نعود لذكر ما سبقت الاشارة اليه من ان المحتوى يمكن ان يكون مساعداً ومشدوداً لقضية الوحدة ، او ان يكون منفصلاً وغير متأثر بها . ولاجل ان يكون المحتوى مساعداً ومشدوداً لفكرة القومية لا بد لهذا المحتوى من اسس ومعالم خاصة . ويثير هذا البحث مسألة الحركة والمراحل بين الوحدة والمحتوى الاقتصادي والاجتماعي ، والعلاقة الجدلية التي يجب ان تكون بينهما ، مقابل العلاقة الميكانيكية الوحيدة الجانب والتأثير .

هذه اهم الامور التي ترد الى الذهن كمواضيع للتناول بالبحث والمناقشة ، بحيث تصل الافكار الناتجة عنها الى مختلف شرائح المجتمع . اننا بحاجة اليوم الى اعادة تحريك الفكر العربي في هذا الاتجاه لتعود قضية القومية العربية من جديد القضية الرئيسية في الوسط الشعبي والوسط المثقف ، ولن يضير ما ندعو اليه من بحث مناقشة الافكار الاخرى المناقضة للقومية بالاستماع اليها وتفنيدها ، حسب قواعد المنطق السليم واصول المناقشة الحرة .

إن هذه الدعوة موجهة لعموم المثقفين العرب ، سواء أكانوا من الجيل الجديد ام الجيل الذي سبقه ، وهدفها اثارة التفكير مجدداً بالقضايا الكبيرة ، التي تهم مجتمعنا ، والتي يتوقف عليها مصيره . والفكر العربي اليوم قادر بغضّ النظر عن العوائق على الاضطلاع بهذه المهمة وتحمل مسؤوليتها . وفي النهاية فإن رائد الفكر هو الحقيقة ، فإذا كانت القومية العربية حقيقة في حياة العرب فجدير بنا ان نعمل من اجلها بصبر واستعداد للتضحية .

# الفصل الثاني

# العربية الفصيحة لغة التعليم في الوطن العربي

عبد العزيز البسام

## مقدمــــة

١ ـ تتضمن هذه الدراسة دعوة صريحة لاعتماد العربية الفصيحة لغة للتعليم في الوطن العربي في جميع مراحله وجميع ميادين الدراسة فيه ، وذلك بوصفها رابطة قومية يجتمع عليها ابناء الامة العربية ، وبوصفها اداة تربوية فعّالة في ترسيخ قيمها ومعالم شخصيتها ، ولتسهم بهذين الوصفين في تعميق وحدة الفكر والارادة بين ابنائها ، وهي الاساس لوحدتها الشاملة ومصيرها الواحد .

٢ ـ وانما تلتمس الاسانيد لهذه الدعوة من عناية الامم في العصر الحديث بلغاتها القومية واعتمادها لغة للتعليم بين مواطنيها ، ومن الدراسات النفسية والاجتماعية وما تكشفه عن اهمية اللغة في التربية وكفايتها في تطوير الشخصية الانسانية ، واغناء الثقافة القومية ، كما تلتمس في خصائص اللغة العربية ذاتها وحيويتها واستيعابها لحضارة انسانية على مدى قرون من تاريخ امتها ، وصلاحها للوفاء بمطالب العلم الحديث وتطوير الفكر العربي المعاصر ، ومضاهاة ذلك بواقعها بوصفها اداة للتعليم وما تواجهه من العقبات والمشكلات ، ليكون في تلك الاسانيد جميعها ما يمهد لاقتراح سياسات تربوية تكفل اعتماد الفصيحة ، تمييزاً لها عن العامية واستبدالاً بها عن اية لغة اجنبية اخرى ، ان وجدت ، في انظمة التربية العربية في مراحلها وميادينها كافة ، ولاقتراح مسارات تحقيق تلك السياسة في واقع الحياة القومية بتمامها .

## اولاً : اللغات القومية في انظمة التربية المعاصرة

١ ـ عنيت الامم في العصر الحديث بلغاتها القومية ، تقديراً منها لأهميتها في تقوية التماسك الاجتماعي بين الافراد والفئات من شعوبها ، وفي اغناء ثقافتها وتوثيق وحدتها ، فعملت على تطويرها اداة رئيسية في تربية ابنائها ، يصدق ذلك على الدول الصناعية كما يصدق على الدول

المتنامية ، مع ما قد يكون بينها في الحالين من تعدد الثقافات واللغات ومن تفاوت في عدد السكان وفي اتساع البلاد .

٢ ـ ونبدأ بالحديث عن الدول الصناعية لطول عهدها بالتنظيم السياسي وبتطوير انظمتها التربوية في العصر الحديث ، ونخص في هذه البداءة دول اوروبا الغربية وفيها برزت الدولة القومية في صيغة من صيغها المعاصرة . ومعروف ان لغاتها وهي تنتمي عامة الى فصيلة اللغات الهندية الاوروبية ، تتعدد اصولها حتى لتوصف بأنها مهجنة ، تلتقي فيها اللهجات التي كانت سائدة بين قبائلها مع ما اقتبسته من اللغة اللاتينية عن طريق التبادل الثقافي بالفتح او بدونه ، وما اقتبسته من اللغة اليونانية وقد سعت لاستيعاب تراثها الفكري وبخاصة بعد عصر النهضة في الآداب الاوروبية[١] .

٣ ـ وقد ظلت اللاتينية كما هو معروف لغة الفكر في اوروبا خلال القرون الوسطى وحتى مطلع القرن الثامن عشر ، واليها نقلت كتب التراث العربي في الطب والفلسفة والعلوم وعن طريقها تعرفت اوروبا على كثير من التراث اليوناني ، وفيها كتب اعلام الفكر الاوروبي منذ عصر النهضة امثال توماس مور ، وغروتيوس ، وفرانسيس بيكون وسبينوزا وديكارت ونيوتن وغيرهم[٢] .

٤ ـ وتضافرت عدة عوامل على تحرر بعض اللغات الاوروبية من سيطرة اللاتينية عليها وغلبتها اياها في الجامعات ومعاهد الدراسات وفي الابداع الفكري على تعدد مجالاته ، منها : حركة الاصلاح الديني ، وترجمة التوراة بعهدها القديم وعهدها الجديد من اللاتينية الى اللغات المحلية ، ومنها ظهور الطباعة وانتشار المطبوعات ، ولكن ابرزها فيما نعتقد نشوء الحركة القومية في اوروبا واعادة تكوين دولها على اساس قومي ، مع ما اقتضاه ذلك من توحد الامارات والدويلات المتفرقة في دولة واحدة . ورافق هذه الحركة القومية ، حركة نشر التعليم وتحقيق الالزام فيه بمرحلة الدراسة الابتدائية خلال القرن التاسع عشر ، وتبادلت الحركتان السياسية والتربوية التأثيرات تستمد كل منهما البواعث والاهداف والاتجاهات والمحتويات من الاخرى ، فكان من الطبيعي ان تبرز اللغات القومية اداة رئيسية في تعليم الناشئين ، وتصبح هي السائدة في جميع مراحل الدراسة ، مهما ظل للغات القديمة المأثورة ( الكلاسيكية ) اللاتينية واليونانية مكان ملحوظ في بعض انماط المدارس الثانوية وبعض الجامعات العريقة ، ومهما ظلت هاتان اللغتان بين متطلبات الالتحاق ببعض الجامعات حتى مطلع القرن العشرين .

٥ ـ ونشأ نظام التعليم ، في البلاد التي اصبحت الولايات المتحدة الامريكية واستقلت عن انكلترا ، على غرار الانظمة الاوروبية وبخاصة البريطانية ، فكانت مدارس الاجرومية اللاتينية هي السائدة في مستوى الدراسة الثانوية ، في النصف الثاني من القرن السابع عشر ، وما لبثت حركة الاصلاح الديني ان مهدت لانتشار الانكليزية واسهمت اقتراحات بنجامين فرانكلين عند

---

(١) Frederick Bodmer, *The Loom of Language* (London:Allen and Unwin), p. 17 and chap. 8.

(٢) *Encyclopaedia Britannica* (1965), s. v. «Latin Literature ,» vol. 13, p. 789.

منتصف القرن الثامن عشر في الدعوة الى نشر الانكليزية في برامج الدراسة ، ثم كان تطبيق التعليم الالزامي في القرن التاسع عشر سبباً في انتشارها، واصبحت الحاجة الى ترسيخ الولاء للدولة ، وهي تتنامى وتزداد بازدياد الولايات المنضمة اليها ـ مع تعدد الاصول الثقافية والعرقية للمهاجرين اليها واختلاف لغاتهم ـ عاملاً رئيسياً باعتماد اللغة الانكليزية في مؤسسات التعليم في جميع مراحله واصبح تعلمها الزامياً حتى نهاية الدراسة الثانوية(٣) .

٦ ـ والشأن في دول اوروبا الاخرى ـ مثل فرنسا والمانيا وهولندا والدول الاسكندنافية وايطاليا واسبانيا والبرتغال ـ كالشأن في انكلترا من حيث تطور لغاتها القومية ، على تعدد اصولها ، واعتمادها لغة للتعليم ، لا تنافسها لغة اجنبية في المرحلة الابتدائية الا نادراً وعلى سبيل الاستثناء ، مع ميل فرنسا الى تدريس اللاتينية واليونانية في بعض الفروع ، وميل في المانيا والدول الاسكندنافية الى تعليم لغة اجنبية حديثة في مرحلة التعليم الثانوي(٤) .

٧ ـ والروسية هي لغة التعليم في الاتحاد السوفياتي ، لا تنافسها الا اللغات القومية للناشئين من ابنائها في الجمهوريات الخاصة بهم ، فهؤلاء يبدأون التعلم بلغتهم القومية منذ السنة الاولى ، ليشرعوا بتعلم الروسية منذ السنة الثانية ، ويظل تعلمها متواصلاً خلال مراحل الدراسة جميعها(٥) .

٨ ـ وفي اندونيسيا يبدأ الاطفال التعلم باللغة المحلية ( الجافيّة ) في السنتين الاوليين ، ثم يأخذون بتعلم الاندونيسية منذ السنة الثالثة لتظل هي لغة التعليم عامة(٦) .

٩ ـ واللغة التركية هي المعتمدة في جميع مراحل التعليم في تركيا ، وتعتمد اللغات القومية في يوغسلافيا(٧) .

١٠ ـ ومعروف ما أدى اليه الغزو والاستعمار والاستيطان من انتشار اللغة الانكليزية واللغة الفرنسية في بلاد كثيرة في آسيا وافريقيا وامريكا ، حتى عادت اية واحدة منها لغة التعليم في تلك البلاد ، غير ان بعض الشعوب بعد ظفرها بالاستقلال ، اخذت تزيد من اعتمادها على لغاتها القومية ، فبالرغم من طول عهد الاستعمار في القارة الهندية وما جاورها، فإن الجهود متواصلة لاعتماد الهندوستانية في الهند ،والاردية في باكستان ، والبنغالية في بنغلادش ، والبرمية في بورما ،

(٣) R. Braddak, «English Composition,» in: Robert L. Ebel, ed., *Encyclopaedia of Educational Research: A Project of the American Educational Research*, 4th ed. (London: Macmillan, 1969), pp. 443-457.

(٤) United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization [ UNESCO] , *World Survey of Education*, 5 vols. (Paris: UNESCO , [1955-1971]).

(٥) المصدر نفسه .

(٦) المصدر نفسه .

(٧) المصدر نفسه .

والسنهالية والتاملية في سيلان ( سري لانكا ) ، وان لم تخلص جميعها بعد من الانكليزية ، وقد يضاف اليها في بعض الحالات لغات محلية في بعض الاقاليم[٨] .

وتسود الاسبانية في دول اميركا اللاتينية ما عدا البرازيل ففيها البرتغالية .

١١ ـ والصينية هي لغة التعليم في الصين على اتساع رقعتها ووفرة سكانها وصعوبة الحروف والمقاطع الاساسية التي تكتب بها وتعددها . والتعليم في اليابان باللغة اليابانية في جميع مراحله وميادينه ، وعلى التلميذ في المدرسة الابتدائية ان يتقن ٨٨١ من الحروف او ما يقابلها ، يضاف اليها حوالى ٤٠٠ منها في المدرسة المتوسطة وبذلك يتاح للمتعلم الالمام بالوحدات الاساسية المطلوبة لقراءة الجرائد اليومية[٩] .

١٢ ـ وهكذا فإن الامم قديمها وحديثها ، والدول الصناعية والمتنامية بينها ، في اوروبا وفي آسيا واميركا ، تحرص على لغاتها القومية في تعليم ابنائها .

١٣ ـ ونضيف الى ما سبق ان العبرية ، وقد اهملت فتضاءلت حتى كادت تتلاشى ، تبذل المساعي لاحيائها بالرغم من غلبة الدخيل عليها ، وقد اصبحت لغة التعليم والثقافة والاعلام ، وفي كثير من شؤون الحياة العامة ، على ايدي الغزاة المحتلين لفلسطين من اصحاب الكيان الصهيوني ، ولم نشأ ان ندرجهم في الكشف السابق لما عرفوا به خاصة من الوحشية والعدوان والاعمال غير الانسانية والغزو والاحتلال للاراضي العربية ،ولكن في ذكرهم بعد ذلك الكشف عبرة اية عبرة في هذا المجال .

١٤ ـ ومهما يكن من امر ، فتلك هي السياسات العليا التي تبنتها الدول حسبما عرضناها . وبين تلك السياسات وبين ممارستها وما لها من حظ في الكفاية وحسن الاداء في تعليم اللغات القومية ، شوط طويل لا يخلو من العقبات والمشكلات ، مما يحتاج الى بصيرة وتدبر ، والى جد وجهد ، يعتمد فيه غالباً على مناهج البحث العلمي واستثمار نتائجه في التطبيق التربوي ، وهي نتائج تستمد غالباً من الدراسات النفسية والاجتماعية .

١٥ ـ واود ان استشهد بمثال يوضح هذه الافكار استمده من تقرير وضعه المجلس الاستشاري للتعليم في انكلترا للنظر في التعليم الابتدائي ،عنوانه : الاطفال ومدارسهم الابتدائية ، صدر في اواخر الستينات ، ويعرف باسم رئيسة الهيئة السيدة ( بلاودن ) ، وجاء فيه بصدد اللغة الانكليزية في تلك المرحلة : « على الرغم من الاهمية الواضحة للغة الانكليزية من حيث هي اداة التواصل ومن حيث هي ادب ، فإن مكانتها لم تكن بارزة في تاريخ التربية باستثناء ما حصل لها في العصر الحديث على الاقل . فقد كانت الانكليزية في المدارس التي تعرف بالعامة ( ولكنها في الواقع خاصة بالعلية ) في منزلة ادنى من منزلة اللغات القديمة ـ

---

(٨) المصدر نفسه .

(٩) Organisation for Economic Cooperation and Development [ OECD ], *Reviews of National Policies for Education Japan* (Paris: OECD, 1971), p. 61.

المأثورة ـ (الكلاسيكية)، ونخص اللاتينية واليونانية في هذا الصدد . فلما نشأت المدارس للطبقة الفقيرة عنيت في اول عهدها بتعليم الاطفال قراءة التوراة ، واتجهت في مرحلة تالية خلال المدة القصيرة المتاحة للتعليم الى تزويدهم بالحد الادنى من مهارات القراءةو والكتابة مما يحتاجون اليه في مواقعهم المتواضعة في دنيا الاعمال . ولا يزال هذا الماضي باقياً معنا في بعض المدارس التي تؤكد اساليب القراءة والكتابة دون العناية بالكلام وفي استمرار نظرية في النحو متفرعة عن اللاتينية بما عهد فيها من التصريفات . ومما هو ذو دلالة ان الانكليزية وقد عادت محوراً في موضوعات المنهج وفي جداول الدراسة في معظم المدارس الابتدائية، لم تتناولها الثورة الا مؤخراً بالقياس الى الفنون ، وذلك بسبب كونها احد موضوعين يتقرر بموجبها الصلاح للالتحاق بالمدارس الثانوية ( فظلت الاساليب التقليدية سارية عليها ) .

ولكن الثورة قد تناولتها لا ريب . وقد بدأت في الحلقة الاولى في المدارس الابتدائية التي اصبحت تقدر ما لدى الاطفال الصغار من تلقائية في التعلم والتعرف على الدنيا المحيطة بهم كما تقدر ما لديهم من ذخيرة لغوية في السنوات الاربع او الخمس التي تسبق التحاقهم بالمدارس مما يتجاوز ما يتعلمونه بعد ذلك ـ فالخبرات الواقعية واللغة انما تتفاعلان باستمرار ، والكلمات تحيا في سياق الخبرات ، سواء أكانت حسية مباشرة او كانت مستمدة من التخيلات الواضحة ولقد تتضح معانيها وتتهذب ، ويتحقق الانسجام بين المشاعر المصاحبة لها لتؤلف اساساً لمزيد من التعلم . فإنّ انجاز كثير من المدارس الابتدائية انما تحقق باستنادها الى خبرات التلامذة والتوسع فيها ، واتاحة الفرص لهم للتحدث ولتكوين علاقات حميمة تشجعهم على مزيد من الكلام والاستماع »[١٠] .

١٦ ـ ذلك نموذج من ثمرات البحث العلمي وتطبيقاتها في واقع التربية ، فلننظر الى الجوانب النفسية والاجتماعية للغة التي كانت وما تزال ميداناً للدراسة والبحث .

## ثانياً : بعض الجوانب النفسية والاجتماعية للغة

١ ـ من المسلمات ان اللغة خاصية انسانية اصيلة يتميز بها الانسان دون سائر المخلوقات ، واذ يوصف الانسان بالحيوان الناطق فذلك بدلالتين : دلالة العقل ودلالة الكلام ، وهما متكاملتان ، لا تكاد تنشأ واحدة منهما بصورتها السليمة الوافية من دون الاخرى . وفي الآية الكريمة ﴿وعلّم آدم الاسماء كلها﴾ تعبير عن هذه الحقيقة فتعلم اللغة فاتحة العلم واساسه ، لا يتم بدونها . ويرى بعض علماء الآثار ان وجود بعض المخلفات من الادوات البدائية الى جانب رمم الانسان القديم ، لا يمكن تصوره من دون نمط من اللغة سهل التعاون على صنعها واستخدامها .

٢ ـ وقد حظيت اللغات بعناية الدارسين منذ القديم ، وكان فهم كتب الديانات من البواعث الرئيسية لتلك الدراسات ، وبلغت العربية شأواً عالياً في تلك العناية مذ كانت لغة القرآن الكريم .

---

(١٠) Central Advisory Council for Education (England), Department of Education and Science, «Children and Their Primary Education,» vol. 1: «The Report,» pp. 209-210.

٣ ـ وقد اصبحت اللغات محوراً لكثير من المباحث والدراسات في العصر الحديث ، سواء ما جاء منها في نطاق علم النفس والعلوم الاجتماعية ، كعلم الاجتماع وعلم الانسان بوصف اللغة من اخص الظواهر في ميادينها ، او ما جاء صادراً اصلا من النظر في اللغات ومتابعة نشأتها وتطورها وتحليلها واكتشاف الخصائص التي تتمايز بها والاصول والقوانين التي تتحكم فيها ، سواء ما يصدق عليها جميعها او ما يصدق على بعض فصائلها وصيغها القومية . بل لقد نشأت من تداخل هذه الدراسات وتفاعل العلوم التي تشترك فيها فروع تقوم على اساس المشاركة بين ميادين المعرفة وتداخلها ، مثل علم اللغة النفسي وعلم اللغة الاجتماعي ، وهما من فروع اللسانيات في تطورها الحديث[١١] وقد اصبحت هذه الفروع تتميز بالدقة والضبط حتى لتعد في طليعة العلوم الاجتماعية واغناها[١٢] .

٤ ـ ولا يتسع المجال لعرض ما تحقق لهذه العلوم المتصلة باللغة جميعها من انجازات وانما حسبنا ان نلم بما يتصل منها بالتربية والثقافة على وجه التحديد ، ونوجز القول في الجوانب النفسية في اللغة ووظائفها في التعلم والتعليم ، وفي الجوانب الاجتماعية مما له صلة بالثقافة القومية .

٥ ـ ويذهب كثير من الباحثين الى ان اللغة نمط سائد في السلوك الانساني بالمعنى الشامل لكلمة السلوك ، لا بمعناها الضيق كما تستخدمها ما تسمى بالمدرسة السلوكية التي تقصرها على الحركات والاعمال الظاهرة ، فهي بمعناها العام تتجاوز ذلك لتشمل النشاط الانساني عامة ، وما ينطوي عليه من عمليات عقلية .

٦ ـ وللغة بهذا المعنى ثلاثة جوانب ، شأنها في ذلك شأن العمليات العقلية عامة ، او شأن السلوك بمعناه العام : جانب المعرفة ، وجانب الوجدان وجانب النزوع. فجانب المعرفة يتجلى في الادراك الحسي وفي الفهم والتذكر وفي التخيل والتفكير ومما يترتب عليهما من حل المشكلات والابتكار ، وجانب الوجدان يتجلى في الانفعالات وما يصحبها من حالات اللذة والالم وما يترتب عليها من المتعة والرضا او من السخط والاستياء ، وجانب النزوع يتجلى في الارادة والنيات ، وما يصدر عنها من الاعمال والحركات . فلا تكاد تخلو العملية العقلية من هذه الجوانب جميعها ، مهما طغى جانب منها على الجانبين الآخرين ، وهي اذ تحصل فإنما تحصل عامة بالتفاعل مع البيئة بجوانبها المادية والانسانية ، تأثراً بها وتأثيراً فيها ، وكذلك هو الشأن في اللغة بوصفها نمطاً من السلوك ، فهي تنطوي على تلك الجوانب الثلاثة بتمامها لا تكاد تخلو من جانب منها ، وهي تحصل بالتفاعل مع البيئة اخذاً وعطاء باستمرار .

٧ـ وللغة على المستوى النفسي جملة وظائف على رأسها التفكير والتعبير وما يترتب عليهما من

---

(١١) علي عبد الواحد وافي ، علم اللغة ، ط ٧ ( القاهرة : دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، ١٩٧٢ ) .

(١٢) R. Jackobson, *Linguistics: Main Trends of Research in the Social and Human Science* (Paris; the Hague: Mouton ; UNESCO, 1970), chap. 6, part 1: «Social Sciences», p. 420.

التواصل بين الافراد(١٣) ، وتتداخل بهذه الوظائف او تتفرع عنها وظائف التذوق والتعاطف والمشاركة في الاعمال .

فاللغة هي اداة التفكير الرئيسية ، تتجلى قيمتها خاصة في انها الصيغة التي تحدد فيها المفاهيم والمعاني المجردة ، فتلك هي محتويات التفكير الرئيسية . فمن خبرات الطفل المتعددة في التعامل مع الاشياء والاحياء ، تتكون لديه المفاهيم التي تجمل الخصائص المشتركة بين افراد كل نوع منها ، ويستخدم اللغة في تحديدها . فمن بين افراد هذا النوع من الحيوان او ذاك ، وهي تمر عليه ويدركها بحواسه ، يلم تدريجاً بالخصائص المشتركة بينها ، ويجملها في مفهوم معين يقتبس تسميته من الوسط الاجتماعي وما فيه من لغة متواضع عليها ، فيطلق عليه « الحصان » او غيره من الاسماء ، ولا يشترط ان يكون إلمامه بتلك الخصائص المشتركة وافياً ودقيقاً ، وحسبه انه يجاري الجماعة التي هو منها في تسمية الاشياء والاحياء على تعددها . ويصبح هذا الاسم بمثابة العملة النقدية يتداولها كلما فكر في هذا الحيوان ، فتيسر له وظيفة التفكير ، وتغنيه عن الصور الحسية التي كانت ملازمة لها ومن تعداد الخصائص واحدة واحدة بتفصيلاتها . ولقد يتعذر ان يمضي الانسان في التفكير من دون اعتماد على هذه المفاهيم للظواهر ومن دون اعتماد على اللغة في تسميتها ، وحسب المرء ان يقارن بين الكتابة « الهيروغليفية » وبين الكتابة كما نعهدها في اللغات المتطورة ليدرك النقلة الكبيرة التي يبلغها التفكير وهو يتجاوز الصور الحسية الى المفاهيم المجردة واسمائها ، بل ان التفكير بالرموز العلمية نفسه يمكن ان يعد نوعاً من اللغة يصعب ان يستغني عنها(١٤) .

٨ ـ ولكن الانسان لا يحتفظ بتفكيره عادة في باطنه ، بل انه يستشعر الحاجة الاصيلة للتعبير عنه كتابة او كلاماً مع من حوله ، وادواته الرئيسية في الحالين انما هي اللغة . والتفكير والتعبير في حقيقة الامر متلازمان ، لا يستوفي احدهما كفايته الا مقترناً بالآخر ، مستعينين باللغة ، لا تكون الصور الحسية او الرموز في حالة التفكير ، او الاشارات والحركات تظهر على ملامح الوجه او يتهدج بها الصوت ، في حالة التعبير الا وسائل مضافة لا تغني عن اللغة الا في حالات محدودة ، او في حالات الضرورات كوجود العاهات في اعضاء النطق او اعضاء السمع على وجه التخصيص(١٥) ، ومن هاتين الوظيفتين تنشأ وظيفة التواصل (Communication) بين الافراد والجماعات تبادلاً للخبرات وللتأثيرات اخذاً وعطاء باستمرار . فالتعبير في سياق التواصل لا يقتصر على التبليغ بل يؤدي عادة الى التأثير في الآخرين ، من حيث الافكار ومن حيث المشاعر والنيات ، وتتضاعف صيغ هذا التأثير بالحوار المتبادل كما يقتضيه التواصل في خير حالاته ، فكما ان الانسان حيوان ناطق بالمعنيين المشار اليهما آنفاً ، فهو حيوان اجتماعي لا يستغني عن ذلك التواصل في الاحوال الناشطة للحياة .

---

(١٣) « الانكليزية : اللغة والادب ،» ترجمة عبد العزيز البسام ، في : وزارة المعارف البريطانية ، مرشد المعلم ، تعريب وزارة المعارف العراقية ، ط٣ (١٩٥٧) ، ص ٣٤٨ ـ ٤١٦ .

(١٤) Philip B. Ballard, *Thought and Language* (London: University of London Press, 1934), chaps. 3 and 4.

(١٥) المصدر نفسه ، الفصلان ٣ و٤ .

وانما تبرز قيمة هذا التواصل فيما ينطوي عليه من التفكير والتعبير وما يضاهيهما من المشاعر والنيات ، وأداة جميعها اللغة كلاماً وكتابة على السواء، ويجدر تأكيد ما يترتب على هذه العمليات من وظيفة التذوق لما في الحياة في اشيائها واحيائها وفي انساقها وفنونها من جمال ، ووظيفة التعاطف او المشاركة الوجدانية وتبادل المواقف وما يشتمل عليه من الانفعالات والعواطف ، ووظيفة المشاركة في الاعمال. وجميع هذه الوظائف لا غنى عنها في النشاط الاجتماعي ، وهي التي تؤلف لباب الثقافة كلما كانت تعبيراً عن اساليب الحياة وتضفي عليها قيمتها ، وان الحاجة اليها لتشتد كلما ارتفعت المستويات الحضارية للافراد والجماعات ، وجميعها تعتمد بالدرجة الاولى على اللغة في التلقي والفهم وفي التبليغ والافهام .

٩ ـ وتستند هذه الوظائف جميعها الى اسس عضوية ووظيفية في الجسم ، سواء في مراكز الدماغ او في اعضاء النطق وفي اعضاء الحواس واعضاء الحركات ، ووجود هذه الاسس الحيوية هو الذي اتاح للانسان ان يتميز على غيره من المخلوقات ، وما يملكه الانسان السوي منها هو الذي يمكنه من اكتساب اية لغة من اللغات ، معتمداً على ما يوفره الوسط الذي يعيش فيه من فرص تحصيلها . وتتضافر جملة من الاسباب تنشأ من التفاوت في هذه الاسس الحيوية ، ومن التفاوت في القدرات العقلية كالذكاء العام او المقدرة اللغوية ، على تفرعاتها ، ومن ظروف الوسط المتاح للتنشئة وللتربية ، فيتولد عنها الفروق الفردية بين الناس في ما يملكون من الكفاية في اللغة وممارسة وظائفها . وربما تولد عن هذه الفروق الفردية ، بتأثير الانتخاب الطبيعي ، على المدى البعيد فروق بين الجماعات والشعوب في اختلاف خصائص لغاتها في النطق والصيغ البنيوية وفي الاساليب.

١٠ ـ والحديث عن هذه الاسس العضوية الوظيفية يؤدي الى تناول المهارات اللغوية ذات الاهمية في تعلم اللغات ، وهي مهارات الاستماع والقراءة ، ومهارات الكلام والكتابة ، النوعان الاولان للتلقي والتسلم والنوعان الآخران للتبليغ والافهام ، وجميع هذه المهارات تعتمد على اعضاء الحس واعضاء الحركة على تعددها ، ويبرز فيها السمع والبصر واوتار النطق في الحلق وحركات اللسان[١٦] .

١١ ـ وكشفت الدراسات النفسانية عن تطور اللغة خلال مراحل النمو في الطفولة والمراهقة وما تخضع له من النسق والتتابع ، سواء من حيث نطق الحروف او غلبة بعض اقسام الكلام ، او من حيث اختلاف طبيعة الكلمات بين اسماء المدركات الحسية واوصافها والاحداث الصادرة عنها ، وبين المفاهيم والافكار المجردة ، او من حيث تنظيم المفردات في الجمل والعبارات[١٧] .

١٢ ـ ويبرز بعض الباحثين العلاقات بين النمو العقلي وبين النمو اللغوي ، وما يحصل بينهما من تبادل التأثيرات. فمباحث العلاّمة ( بياجيه ) تحدد اربعة اطوار رئيسية في النمو العقلي : الطور

---

(١٦) « الانكليزية : اللغة والادب ،» .

(١٧) المصدر نفسه .

الحسي ـ الحركي ، والطور الحدسي ، والطور الاجرائي والطور المنطقي الشكلي وما يستدعيه من التجريد ، وانما يبلغ الطور الاخير عند المراهقة . ومن خصائص الطور الاول نظر الطفل الى العالم نظرات مفعمة بالتركيز حول الذات فكأن العالم يدور حوله ، يتجلى ذلك في كلامه وكثرة حديثه بضمير المتكلم المفرد فيسرد باسهاب ما يقوم به من اعمال وحركات ، وما يلاحظه من مشاهد وموجودات يتحدث عنها لمحض التمتع بها والفرحة بمجرد التعبير عنها ، ولا يشترط تجاوب الآخرين معه ، ويعينه ذلك على وضوح خبراته وحيويتها . ومع غلبة اسماء الاشياء المحسوسة بين مفرداته ، فإنه يكثر من استعمال الضمائر على قلتها ، وتكون الغلبة لاستعمال الافعال ، لدلالتها على الاحداث ، وفي ذلك دلالة على التركيز الذاتي وعلى الحيوية والاهتمام بممارسة الاحداث والعناية بروايتها(١٨) .

١٣ ـ وعني الاستاذ ترمان وهو يدرس الاطفال في الولايات المتحدة بتعيين عدد المفردات في الانكليزية السائدة بالمعدل في الاعمار المختلفة ، فوجد ان الطفل السويّ في سن الثامنة يملك حوالى ٣,٦٠٠ كلمة ، وان المراهق في سن الرابعة عشرة يملك حوالى ٩,٠٠٠ كلمة ويملك الراشد السوي حوالى ١١,٧٠٠ كلمة ويملك الراشد المتفوق حوالى ١٣,٥٠٠ كلمة(١٩) . ويقدر ان الطفل في انكلترا تتنامى ذخيرته من المفردات بين الثانية والخامسة من العمر فتبلغ في المعدل حوالى ٢٠٠٠ كلمة ، وانه ينبغي ان يحصّل حوالى ٣٠٠٠ كلمة ليبدأ تعلم القراءة ، وهذا ما يتوافر لمعظمهم عند الالتحاق بالمدرسة الابتدائية(٢٠) . وأي اختلاف في النوعين من الارقام فمرده في الغالب الى اختلاف الزمان والمكان والفئات التي تتكلم الانكليزية .

١٤ ـ ولا شك ان قدرة الطفل وهو ينمو على تعلم لغة مجتمعه ، ونشأته على التفكير والتعبير بها ، والتواصل بها مع الآخرين ، وتبادل الخبرات بواسطتها ، انما هي الاساس لأنماط السلوك التي تؤلف ثقافة ذلك المجتمع ، وتيسر انتقالها من جيل الى آخر باستمرار ، فعن طريق اللغة يستطيع الانسان ان يستوعب خبرات الآخرين ويستثمرها ، من دون اشتراط ان يمارس تلك الخبرات ذاتها . ويكشف تحليل اللغة عن التنظيمات الاجتماعية السائدة وانماط العلاقات القائمة فيها ، بما فيها علاقات النسب والقرابة ، وعلاقات الجنس بين الذكر والانثى ، وعلاقات العمل وما يشتمل عليه من انواع الحرف والمهن والصناعات وعن طريق اللغة يتم استيعاب القيم السائدة وما تشتمل عليه من المواقف والاتجاهات تجاه الخالق والكون والحياة وما فيهما من موجودات ، وتجاه الانسان وما يتألف عنه من جماعات . والانتماء الى الجماعة يعتمد الى حد بعيد على ما توفره اللغة

---

(١٨) Jean Piaget, *The Language and Thought of the Child,* trans. by Marjorie Gabain(New York: Meridien Books, 1955).

(١٩) Lewis M. Terman, *The Measurement of Intelligence: An Explanation of and a Complete Guide for the Use of the Stanford Revision and Extension of the Binet-Simon Intelligence Scale* (Boston: New York: Mifflin,[ c1916]', p. 226.

(٢٠) Central Advisory Council for Education, Department of Education and Science, «Children and Their Primary Education,» p. 19.

فهماً وتعبيراً من امكانيات للتعاون والمشاركة في النشاط المجتمعي والحفاظ على كيانه وعلى ثقافته وما تنطوي عليه من نظم القيم والافكار والاتجاهات وتكوين الارادة الواحدة بين افراد المجتمع وتشمل هذه العبارة الامة بتمامها. ويؤكد بعض الباحثين ان اللغة قد تكون اعظم قوة في تأنيس الفرد socialization ، وتكييفه لمطالب مجتمعه واستيعابه لخصائص امته وتمثلها في سلوكه ، ولا شك ان للتربية ، وهي تستخدم اللغة ، مساهمة كبيرة في تحقيق هذه الوظائف في الافراد والجماعات(٢١) .

١٥ ـ وقد تطورت مباحث اللسانيات بعد طلائعها الاولى في القرن التاسع عشر فبلغت شأواً عالياً في القرن العشرين وذلك في وصف اللغات وتحديد خصائصها الصوتية والبنيوية ، وفي المقارنة بينها والكشف عن العلاقات بين اللغة وثقافة الامة وانماط التفكير السائدة فيها . وقد كان للغات الاوروبية نصيب وافر من هذه المباحث ، وتعددت الجهود لاعتماد تلك الخصائص في تيسير تعلم تلك اللغات وتمكين المتعلمين من اتقانها سواء حين يتعلمون لغاتهم القومية او حين يتعلمون لغات اجنبية غيرها ، وقد نشأت اتجاهات حديثة في النحو تكشف عن الخصائص البنيوية للعبارات وإمكان تحويلها من صيغة الى اخرى عرفت بالنحو التحويلي(٢٢) .

١٦ ـ وخلاصة ما سبق ان اللغة فكر ووجدان وارادة ، تتجلى في مهارات ، وتؤدي وظائف التفكير والتعبير والتواصل(٢٣) ، وما يرتبط بها من التذوق والتعاطف والمشاركة في المواقف والاعمال. واللغة إذ تنمو مترابطة مع النمو العقلي في الاطفال وتأتي كذلك في نسق وتتابع ، هي وعاء ثقافة الامة والسبيل الى استيعاب قيمها واساليبها في النظر الى الوجود والموجودات .

١٧ ـ وقد كان الكشف عن هذه الجوانب النفسية والاجتماعية للغة اساساً لفيض من البحوث ذات الصلة بالتربية واساليبها ، غنمت منها ممارستها في كثير من انظمة التربية المتقدمة ، وهي تؤلف معايير لتقويم تعليم اللغات في واقعها من ناحية ، ولاقتراح اتجاهات تطوير اساليب ذلك التعليم من ناحية ثانية ، مما سوف نراعيه في الاقسام التالية . ونرفده بمصدر آخر لمثل هذه المعايير واتجاهات التطوير نستمده من التعرف على **بعض خصائص** اللغة العربية ذاتها .

## ثالثاً : بعض خصائص اللغة العربية

ـ فخرت العرب منذ القديم بلسانها وبيانها كما فخرت بأصولها وانسابها ، كأنما ادركت بسليقتها الصلة الوثيقة بين الجانبين ، وان اللغة مرآة حياة الامة والسجل المعبر عن خصائصها . فلما شُرِّفت العربية بنزول القرآن الكريم بها : ﴿ إنّا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾ ، ﴿ لسان الذين يلحدون اليه اعجمي وهذا لسان عربي مبين ﴾ ، اصبح الاعتزاز بها منوطاً بتلك الكرامة الالهية خاصة ،

---

(٢١) Edward Sapir, *Selected Writings of Edward Sapir in Language, Culture and Personality*, ed. by David G. Mandelbaum (1949).

(٢٢) *Encyclopaedia Britannica* (1965), s.v. « Linguistics,» vol. 14.

(٢٣) « الانكليزية : اللغة والادب ، » .

وباعثاً الى دراستها لفهم آيات الذكر الحكيم وادراك اسرار البلاغة فيها وفهم الاحاديث النبوية الشريفة وعميق دلالاتها في احكام الشريعة وفي آداب السلوك ، وحكمة الحياة وقيمتها .

ـ وقد بلغت العناية باللغة العربية حداً يعز نظيره بين اللغات ، وكانت الدراسات فيها رائدة لغيرها من الدراسات . نشأ نحوُها في الثلث الاخير من القرن الاول للهجرة ، خشية ان يفشوَ اللحن بعد اختلاط العرب بغيرهم من الشعوب ، واستمد قواعده اول العهد به من استعراض كلام العرب وتمحيص شواهده في فصاحة اهل البادية وفي اقوال الشعراء والخطباء ، ثم خالطه المنطق فأخذ اصحابه يتقصون العلل ويؤصلون المناهج ، فظهرت فيه المذاهب ، في البصرة والكوفة وبغداد ، والفت فيه الكتب والرسائل . وما زال المنطق ينفذ اليه ويتغلغل فيه خلال القرون التسعة التالية حتى اثقل كاهله وعاد في بعض المؤلفات ضرباً من الفلسفة والمجادلات .

ـ وحرص العرب على جمع المفردات وترتيبها ، ولعلهم اسبق الامم الحديثة في تأليف المعاجم ومن طلائعها كتاب العين للخليل بن احمد الفراهيدي ، ومنها المفردات في غريب القرآن وفي غريب الحديث . وما زالت المعاجم تتوالى فكان بينها المعاجم الشاملة مثل القاموس المحيط ولسان العرب وتاج العروس روعي فيها صيغة من الترتيب وفقاً لحروفها ، والمعجمات المعنية بمصطلحات العلوم والفنون ، والفوا في البلاغة واصولها وفي النقد واساليبه ، وان من هذه الدراسات ما يعد من طلائع مباحث اللسانيات في العصر الحديث .

ـ ولا يسعنا في هذا المقام الالمام بخصائص العربية بتمامها ، وانما حسبنا ان نلم ببعض ما له صلة باعتماد العربية لغة للتعليم في الوطن العربي ، وما يقتضيه ذلك من الحفاظ على اصولها والحرص على تراثها وغناها والعمل على تطويرها لتفي بحاجات الحضارة المعاصرة وتقدم الفكر والعلم فيها ، ولتعبر عن ثقافة الامة العربية وشخصيتها القومية ، وهي تنهض لتحقيق وحدتها وتدرك ما للغة من قوة في ترسيخها ، فنوجز القول بهذه الخصائص على الوجه الآتي :

## ١ ـ العراقة والتكويـــن

أ ـ « يذهب بعض علماء المقارنة بين اللغات الى ان العربية عرفت بخصائصها المميزة لها عند القرن الرابع قبل الهجرة ، والارجح ان لها تاريخاً ابعد من ذلك ادى الى تطورها تطوراً يمكنها من التفرقة الدقيقة بين احكام الاعراب ، وبين صيغ المشتقات ، وبين اوزان الجمع والمثنى وجموع الكثرة والقلة في الاوزان السماعية ومن تكوين حروف الجر والعطف التي تدخل في تركيب الجملة بمعانيها المختلفة »(٢٤) .

ب ـ ويضاف الى الاحكام العامة السالفة بعض الفاظ في العربية « تشبه ان تكون بقايا تاريخية درست اصولها كما تدرس الآثار المادية ويبقى منها اساس متين يدل على زمن متطاول في القدم . مثال ذلك افعال

---

(٢٤) عباس محمود العقاد ، اللغة الشاعرة : مزايا الفن والتعبير في اللغة العربية ( القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٠ ) ، ص ٣ .

انقرض منها المصدر واكثر ما يشتق منه ولم يبق منها الا صيغة او صيغتان مما تستدعيه الحاجة مثال ذلك الفعلان يدع ويذر فليس لهما مصدر معروف ولا يستعمل ماضيهما . واغرب من ذلك افعال منصرفة في معنى جامدة مثل ( هب ) بمعنى افرض . . . وغير ذلك الفاظ مثل ليس وعسى »[٢٥] .

ج ـ وحسب المرء ان يتأمل اساليب الشعر الجاهلي وما بلغته من الاتقان والاحكام في التعبير ، ويواصل التأمل في اساليب القرآن الكريم وقد بلغت ذروة الاعجاز في امة تحفل بالبيان ، ليقدر ان وراء تلك الاساليب دليلاً اي دليل على تاريخ طويل في التطور والتكوين .

د ـ ومعروف تعدد اللهجات بين القبائل العربية ، تعدداً يتناول التفاوت في نطق الحروف والاختلاف في معاني بعض المفردات . غير ان من الظواهر الاجتماعية الجديرة بالمراعاة في تطور الامة العربية قبل الاسلام ، الحركة المتواصلة بين القبائل وتنقلها في رحاب شبه الجزيرة وما حواليها واختلاط بعضها ببعض من ناحية ، ونشأة المدن التي توافرت لها اسباب النمو في التجارة وفي العبادة وفي المنعة والمكانة والنفوذ ، وابرزها مكة ، من ناحية ثانية ، وما يتصل بهاتين الناحيتين من الاتصال بالشعوب والحضارات الاخرى . ويبدو انه قد كان لهذه الظواهر جميعها آثار بعيدة في التقاء اللهجات وتأثر بعضها ببعض ، وخضوعها جميعها لحظ من الانتخاب الطبيعي يؤدي الى التلاقح والشمول والغنى الحضاري ، والى غلبة الافضل في نطق الحروف وتكوين المفردات بدلالاتها وعمق معانيها [٢٦] .

هـ ـ وقد كان للهجة قريش مثل هذه الغلبة حيثما اشتد الخلاف بين اللهجات . وهكذا استصفت قريش لغتها من بين لغات القبائل الذين كانوا يفدون اليها في المواسم ويغشون ديارها للحج ولغير ذلك من المناسبات ولم يكن من قبيل المصادفة والاعتباط ان اتخذ الشعراء من لغة قريش لغة الفن الشعري اياً كانت قبائلهم وأياً كانت منازلهم . فامرؤ القيس ، وهو كندي ، وزهير ، وهو غطفاني ، وطرفة والاعشى ، وهما قيسيان ، وغير اولئك من فحول شعراء الجاهلية لم يقولوا الشعر الا بلغة قريش . . . وفي مثل هذا يقول احمد بن فارس في كتابه الصاحبي . . « وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها اذا اتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم واشعارهم احسن لغاتهم واصفى كلامهم ، فاجتمع ما تخيروا من كلامهم من تلك اللغات الى نحائزهم وسلائقهم التي طبعوا عليها فصاروا بذلك افصح العرب » . فكانت لغة قريش مبرأة من المحلية الى حد بعيد ، وهي في ذلك على حد ما توصف به اللغة الفصيحة او اللغة القياسية في التعابير الحديثة[٢٧] . وجاء نزول القرآن الكريم بها شاهداً على فصاحتها وداعياً الى ترسيخ تلك الفصاحة وثباتها على مر العصور .

---

(٢٥) احمد عبد الستار الجواري ، « من دلائل القدم في اللغة العربية ، » محاضرة القيت في : مجمع اللغة العربية بالقاهرة والمجمع العلمي العراقي ، المؤتمر المشترك ، شباط / فبراير ١٩٦٧ ، « المحاضر ، » ج ٦ ، ص ١٩٧ .

(٢٦) العقاد ، المصدر نفسه ، ص ٥٤ ـ ٥٧ .

(٢٧) احمد عبد الستار الجواري ، « اللغة المصفاة ، » محاضرة القيت في : مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، الدورة ٤٩ ، القاهرة ، شباط / فبراير ١٩٨٣ .

و ـ وهكذا فنحن نجد في العربية لغة عريقة متينة التكوين وافية الاصول ، تميزت بالفصاحة والبيان فاستوعبت هداية القرآن ، وحكمته الانسانية وما فيها من دلالات حضارية .

## ٢ ـ الحروف والمفـردات

أ ـ « تدل المقارنة بين اصوات الحروف في اللغات المختلفة على ان الابجدية العربية ليست اوفر عدداً من الابجديات في بعض اللغات الاخرى ، ولكنها اوفر عدداً في اصوات المخارج التي لا تلتبس ولا تتكرر بمجرد الضغط عليها ، فليس هناك مخرج صوتي واحد ناقص في الحروف العربية ، وعلى هذه الصورة تمتاز اللغة العربية بحروف لا توجد في اللغات الاخرى كالضاد والظاء والعين والقاف والحاء والطاء ، واستغنت عن تمثيل الحرف الواحد بحرفين مشتبكين او متلاصقين ، كما يكتبون الثاء والذال والشين ، ولا يصعب على الناطقين بها التعبير عن الحروف التي لا تشتمل عليها وذلك بمجرد الضغط على مخرج موجود فيها ، كما هي الحال في حرف الباء الثقيلة او الفاء الثقيلة ، فليست العبرة بزيادة عدد الحروف ، وانما بوفرة مخارجها واستنفاد امكانيات جهاز النطق بتمامها وهذا ما تتميز به العربية عن غيرها . ولقد كان لالتقاء لهجات القبائل وخضوعها للانتخاب الطبيعي ( كما جاءت الاشارة الى ذلك آنفاً ) أثر في هذه الوفرة في مخارج الحروف وشمولها »(٢٨) .

ب ـ وفضلاً عن وفرة المفردات في الشؤون المتصلة بالحياة العربية فإن فيها من القواعد المقررة للاشتقاق ، لا تضاهيها في غناها واتساع مداها وفي دقتها وضبطها اللغات الاخرى من فصيلتها ، دع عنك اللغات الاخرى التي تضيق بالاشتقاق فإن تغييراً يسيراً في مادة الكلمة يتيح تكوين كلمات اخرى تحتفظ بجانب من المعنى الاصلي وتضيف اليه ما يناسبها في مبناها . ويلاحظ ان الوزن هو قوام التفرقة بين اقسام الكلام في اللغة العربية ، فقد بلغت درجة في ضبط المشتقات بالموازين التي تسري على جميع اجزائها وتوفق بين معانيها ومبانيها ، فالفرق بين المشتقات يتجلى في الفرق بين اوزانها من حيث هي افعال واسماء او صفات ومن حيث هي افراد او جموع . ولا تتبع كثير من اللغات الاخرى مثل هذا النسق ، فقد تجري الكلمات فيها على وزن واحد مع اختلافها في اقسام الكلام(٢٩) .

## ٣ ـ نظم الكلام والإعراب

أ ـ وانما يكون الكلام بتآلف المفردات ونظمها بعضها الى بعض لتؤدي معنى يحسن السكوت عليه ، وهذا هو التعريف الذي يكاد يتفق عليه النحاة ويصفون به الجملة ، وبهذه المثابة تكون الجملة هي الوحدة الاساسية للكلام المفيد .

ب ـ وتتميز اللغة العربية بين كثير من اللغات بالمرونة في تكوين الجمل ، فالجملة فيها يمكن ان تكون فعلية ، ويمكن ان تكون اسمية، يراعى في ذلك كيف يكون الابتداء فيها بالفعل او

---

(٢٨) العقاد ، اللغة الشاعرة : مزايا الفن والتعبير في اللغة العربية ، ص ٧ ـ ١١ .
(٢٩) المصدر نفسه ، ص ١٣ ـ ١٧ .

بالاسم ، وقد يحتاج الامر في التفريق بينهما ادراك الاسناد ايكون المسند فعلاً او اسماً وتحديد موضع الاهتمام(٣٠) ، خلافاً للغات الاوروبية حيث يكون الاصل في تراكيبها عامة الجملة الاسمية .

ج ـ ومهما اختلف الباحثون في المفاضلة بين النوعين من حيث نصيب كل منهما من الاصالة والسبق ، في نمو اللغة بين الاطفال وبين الجماعات ، او من حيث دلالة كل نوع على النضج والتطور ، فيذهب فريق الى ان الجملة الفعلية هي الاصل في العربية وهي اكثر شيوعاً في استعمال الفصيحة منها ، ويذهب فريق ثان الى ان الجملة الاسمية هي التي تسبق في كلام الاطفال وتشيع في اللهجات العامية . ويذهب فريق ثالث الى ان الجملة الاسمية ادل على افراد الشخصية وابراز الفاعل المؤثر ، وانها توحي بالنضج والتطور ، غير ان مرونة العربية في استخدام النوعين معاً احرى بجمع الحسنات لكل منهما ، واهدى لمراعاة مقتضى الحال ومواضع اهتمام المتكلم والمخاطب(٣١) ، فإن للكلام في خير حالاته رسالة تحصل بالمواءمة بين قصد المتكلم وحاجة المخاطب ، فالتنوع في تركيب الجمل بين فعلية واسمية كما هي الحال في العربية انما يراعى فيه موضع الاهتمام بين الحدث ذاته وبين محدثه وفاعله .

د ـ ولعل هذا التنوع في العربية بين الجملة الفعلية والجملة الاسمية احرى بالاستجابة لمطالب التعبير في العلم الحديث ، من حيث اعتماده في منهجياته على الجمع بين الاستقراء والاستنتاج ، فالاستقراء وما يستدعيه من رصد الظواهر المفردة وهي تتكرر انما يناسبه الجملة الفعلية ، لما فيها من تأكيد للحوادث ذاتها ، والاستنتاج وما يستدعيه من وضع القواعد على اختلافها مجردة عن زمانها مؤكدة عللها ومؤثراتها ، انما يناسبه الجملة الاسمية ، فالتنوع بهذه المثابة ادل على النضج والغنى والتطور .

هـ ـ وتتميز العربية بين كثير من اللغات بالاعراب بمعنى تحريك اخر الكلمات وفقاً لموضعها في الجملة ، يكاد يشمل معظم الاسماء وبعض الافعال ، مما لا تبلغ مداه وتنوعه اللغات التي تضمنت حظاً منه ، وكثير منها اسقط ما كان لديه منه بتمامه .

فالاعزاب ركن من اركان ضبط معاني الكلمات اذ ترد في تركيب الكلام وتحديد علاقات بعضها ببعض من حيث الفاعلية والمفعولية والاضافة وغيرها يضاف الى ضوابط اخرى منها التنوع في ايراد المسند في الجملة الأسمية او في المسند اليه في الجملة الفعلية غير ان بعض النحاة قد اسرفوا في تناول الاعراب وحالاته والتماس العلل لها وقصروا اهتمامهم على الكلمات المفردة ولم يعنوا عناية وافية بتنظيم الكلام في الجملة(٣٢)،وبهذا تخلى النحو عن مهمته في معالجة الكلام بتمامه

---

(٣٠) احمد عبد الستار الجواري ، **نحو الفعل** ( بغداد : المجمع العلمي العراقي ، ١٩٧٤ ) ، الفصل ١ .

(٣١) علي الجارم ، « الجملة الفعلية اساس التعبير في اللغة العربية ،» . محاضرة القيت في : مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، الدورة ١٥ ، القاهرة ، ١٩٤٩ ، محاضر الجلسات في الدورة الخامسة عشرة ،» ص ٣٧٥ - ٣٨٦ .

(٣٢) احمد عبد الستار الجواري ، **نحو التيسير** ( بغداد : مطبوعات نشر العلوم والثقافة ، ١٩٦٢ ) ، خاصة الفصل المعنون « دراسة الجملة ،» ص ١١٣ - ١٢٦ .

وانتظامه في الجمل المفيدة فأدّى ذلك الى كثير من الشكلية وولد مشكلات في فهمه وتطبيقه وفي تذوقه واستساغته(٣٣) .

و ـ ولا يختم هذا القسم في تنظيم الكلام دون الاشارة الى اوزان الشعر وبحوره في اللغة العربية فهي ميزة من ميزاتها لا تكاد تضاهيها فيها اللغات الاخرى قديمها وحديثها « فالشعر لم يوجد فناً كاملاً مستقلاً عن الفنون الاخرى في غير اللغة العربية والمقصود بالفن الكامل هو الشعر الذي توافرت له شروط الوزن والقافية وتقسيمات البحور والاعاريض التي تعرف باوزانها واسمائها وتطرد قواعدها في كل ما ينظم من قبلها »(٣٤) .

## ٤ ـ المجاز والقيـــاس

أ ـ تبلغ العربية مدى واسعاً في استعمال المجاز ، وفي الجمع فيه بين الدلالة على المحسوسات والدلالة على المجردات . وكلمة المجاز نفسها تصور هذا التوفيق بين النوعين من الدلالات : فيقال جاز المكان او جاز به غير معترض ( وتلك دلالة محسوسة ) كما يقال هذا جائز عقلاً اي غير ممتنع ولا اعتراض عليه ( وتلك دلالة مجردة ) .

ب ـ ويلاحظ هذا الاقتران بين المعاني المحسوسة والمعاني المجردة في كثير من المسائل الفكرية والصفات الخلقية التي تجتمع في مادة واحدة ، كالواجب والفريضة والفضيلة والحكمة والعقل والعظمة والانفة والعزة والنبل والشرف والرحمة والعلم والذكاء .

ج ـ فالفضيلة كل بقية او زيادة ، والفضيلة هي الخلق الذي يدل على فضل او زيادة عند صاحبه . والعظمة هي صفة العظيم ، والعظيم هو الكبير العظام او كبير الاخلاق والمزايا . والعلم ( بكسر العين ) والعلم ( بفتح العين) والمعالم التي يعرف بها الطريق جميعها من مادة واحدة . والذكاء الفهم وهو ايضاً اتقاد النار(٣٥) .

د ـ وقد لاحظنا اعتماد النحو على المنطق تدريجاً ، فكان من تطبيقاته الاولى تبني القياس في توليد الاحكام والتماس العلل لها ، وايجاد الحلول للمشكلات المستجدة ، التي لم يجر عليها السماع . فكما نشأ القياس في الفقه والشريعة فكان باباً للاجتهاد فيما لم يرد فيه نص صريح ، نشأ في النحو لاغراض مشابهة . وكانت نشأتها معاً في العراق . وظهر من بعد ذلك من توسع في القياس في تناول مفردات اللغة ، سعياً الى تصنيفها والتماس اصولها ، والى الحكم على الجديد منها وفقاً لتلك الاصول(٣٦) .

---

(٣٣) المصدر نفسه ، الفصل ١ .
(٣٤) العقاد ، اللغة الشاعرة : مزايا الفن والتعبير في اللغة العربية ، ص ٢٤ .
(٣٥) العقاد ، « المجاز والشعر ، » في : المصدر نفسه ، ص ٣٧ ـ ٤٩ .
(٣٦) احمد امين ، « مدرسة القياس في اللغة ، » محاضرة القيت في : مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الدورة ١٥ ، القاهرة ، ١٩٤٩ ، « محاضر الجلسات في الدورة الخامسة عشرة » ، ص ٣٨٨ ـ ٤٠٤ .

هـ ـ والمجاز والقياس سبيلان لتطوير اللغة واغنائها بشرط التقيد بأصول العربية وقواعد بنائها .

## ٥ ـ الفصاحـة والتعبير

أ ـ الفصاحة بمعنى الوضوح صفة يحرص العرب ان تتوافر في كلامهم وتلتمس الفصاحة اصلاً في نطق الحروف بأصواتها المتميزة لها ، وقد جاءت الاشارة آنفاً الى ما تتميز به العربية من وفرة مخارج الحروف واستنفادها امكانيات جهاز النطق بتمامها ، وسريان الحروف من مجاريها ، حتى اذا تعددت مخارجها ، من دون تزاحم بينها او لبس فيها . ثم تلتمس الفصاحة في المفردات بالاحتكام الى ما جرت به ألسنة العرب ، قبل ان يخالط كلامهـا الدخيـل ، وكما يثبتـه القرآن وصحيح الحديث ، ومن بعدهما كتب اللغة ومعاجمها المأثورة.

وكما يعبر الشعر عن احوال قائله وشخصيته ،تعبر اللغة الحية عن احوال امتها وخصائص طبيعة الحياة فيها ، والعربية لغة معبرة بهذا المعنى الواسع من معاني التعبير. ونـدع جانبـاً وفرة مفرداتها في اسماء الموجودات في بيئتها من احياء واشياء ومن ظواهر في الارض وفي السماء مما هو معروف . لننظر في الكلمات الدالة على المجتمع ، وهو في الاصل مجتمع رحلة ورعي، لنجدها تراعي هذا الاصل مراعاة وافية .

ب ـ « فالأمة هي الجماعة التي تؤم مكاناً واحداً او تأتم بقيادة واحدة . والشعب هو الجماعة التي تتخذ لها شعبة واحدة من الطريق، والطائفة هي الجماعة التي تطوف معاً والقبيلة هي الجماعة التي تسير الى قبلة مشتركة ، والفصيلة هي الجماعة التي تفارق في مسلك واحد ، والفئة هي الجماعة التي تفيء الى ظل واحد ، والجيل من الناس هم الذين يشتركون فـي مجـال واحـد، والبيئة هي الموطن الذي يؤوب اليه اصحابه بعد الرحلة عنه ، والنفر من القوم من ينفرون معاً للقتال او لغيره ، والقوم في جملتهم هم الذين يقومون قومة واحدة للقتال خاصة . . . »[٣٧] .

ج ـ فتسمية هذه الجماعات مراعى فيها خصائصها ووظائفها على خير حالاتها من التماسك والعمل المشترك والارادة الواحدة . مما تقتضيه طبيعة الحياة في مجتمع الرحلة والرعي .

د ـ ويلاحظ مثل هذه الصلة في اسماء الامكنة ، وعلى رأسها « الوطن وهو المكان يستوطن ويستقر فيه ، والمنزل حيث ينزل الانسان والبيت حيث يبيت بالليل ، وكذلك الموقع والمرجع والمأوى وكذلك المسافة بين مكانين انما هي الموضع الذي يساف ترابه للاهتداء الى الطريق . . . . »[٣٨] .

هـ ـ ويلاحظ هذا ايضاً في الكلمات التي تدل على العشير او على الروابط الاجتماعية بين الآحاد .

---

(٣٧) العقاد ، « لغة التعبير ، » في : العقاد ، **اللغة الشاعرة : مزايا الفن والتعبير في اللغة العربية** ، ص ٦٠ ـ ٦٧ .

(٣٨) المصدر نفسه ، ص ٦٠ ـ ٦٧ .

« فالصاحب هو من يمشي معك في السفر ، وكذلك الرفيق الذي يؤخذ مع الطريق وقبل الطريق ، وكذلك الزميل من صحبة الزاملة ، والقريب الذي يقترب من منزلك ، ومناسبة كلمة « العدو » للخصم الذي يعدوك اويعدو على جوارك . . . . ونتتبع هذا المعنى او نتقراه في المعاني المجازية فنقول المذهب للطريقة الفكرية كما نقول المنهج والمشرب والنحو والمصدر والمورد . . ونطلق السيرة على الترجمة وهي من سار يسير ، ونطلق القصة على الحكاية وهي من قص الاثر »[٣٩]. فجميع هذه الاسماء موائمة لمجتمع يعول على الرحلة والرعاية ، وعلى المشاركة بين الجماعة في تكوينها وفي تعاونها وفي مقامها وحركتها ، كما ان فيها دلالة على قدرة العربية على الاشتقاق ، فهي كلمات تصدر عنها الاسماء والافعال من مادة واحدة ، مما يقل نظيره بين اللغات .

و ـ فإذا تجاوزنا دلالات الكلمات المفردة ، ونظرنا في الآثار الادبية بجملتها ، « فإن الشعر ، كما يقولون ، ديوان العرب ، فيه مجتلى للفضائل التي ينشدونها ويعتزون بها ، واشادة بها ، وفيه عرض للعيوب التي ينكرونها وتشين اصحابها وازراء بها ، وبيان وافٍ للاخلاق التي تحكم الحياة فعلاً او ينبغي ان تحكمها وتتراءى فيها مرجحة مشرفة بين سائر الاخلاق »[٤٠] .

ز ـ « ولا يرجع العربي الى الشاعر ليسأله عن المذاهب الفلسفية ولكنه يرجع ليجد عنده شيئاً اقرب الى حسه وفهمه وعمله ، يجد شخصيات حية تتمثل في كل منها صورة من صور الحياة كما هي او كما يتمناها . وانه ليشعر بالمجاوبة بينه وبين هذه الشخصيات في جوانب كثيرة من ذات نفسه وذات ضميره »[٤١] .

ح ـ ونختم هذه الملاحظات بالاشارة الى قدرة العربية على اشتقاق المعاني المجردة ، فمصادر الافعال قد تدل على الحدث مجرداً عن الزمان فتعبر بذلك عن الافكار المجردة . وانما تأتي مثل هذه الكلمات المجردة في اللغات الاوروبية باضافة بعض اللواحق تارة للاسماء وتارة للصفات وتارة للافعال وعلى غير اطراد ، مثل ness تضاف الى ـ great ـ فتكون ـ greatness ـ العظمة ومثل ـ hood ـ تضاف الى ـ man ـ فتكون ـ man hood ـ الرجولة ـ وغيرها . وهي كلمات متفرقة تجري على السماع دون ان تكون لها قاعدة مقررة في اصول اللغة كما هي في العربية ذاتها ، وفي هذا استعداد العربية لتناول افكار الفلسفة وافكار العلوم بلا تقييد .

ط ـ فالعربية فصيحة في وضوح النطق بحروفها وفي حفاظها على مفرداتها ، على وفرتها ، وفي تنظيم الكلمات في جملها . والعربية معبرة بترجمتها الصادقة لطبيعة بيئتها وخصائص مجتمعها ، « ومعبرة بما استحقت به ان توصف باللغة الشاعرة ـ لأنها بنيت على نسق الشعر في اصوله الفنية والموسيقية ، فهي في جملتها فن منظوم منسق الاوزان والاصوات ، لا تنفصل عن الشعر في كلام تألفت منه ولو لم يكن من كلام الشعراء وهذه الخاصة ظاهرة من تركيب حروفها على حدة ، الى تركيب مفرداتها على حدة ، الى تركيب قواعدها وعباراتها ، الى تركيب اعاريضها وتفعيلاتها في بنية القصيد »[٤٢] . وهي معبّرة لأنها تلائم مطالب

---

(٣٩) المصدر نفسه ، ص ٦٠ ـ ٦٧ .

(٤٠) العقاد ، « الشعر ديوان العرب ، » في : المصدر نفسه ، ص ٨٦ ـ ١٠٦ .

(٤١) المصدر نفسه ، ص٨٦ .

(٤٢) المصدر نفسه ، ص ٨ .

العلم ، بالوفاء بالمعاني المجردة وفقاً لاصولها المطردة ، وبمرونة اساليبها ، وبمنطقية تركيبها ، وفي هذا يقول الاستاذ ( غب ) المستشرق المعروف وهو يتكلم عن نشأة قواعد النحو في العربية « وقد ساعد على انشاء هذه القواعد وتطبيقها ، ان للغة العربية ميزة ظاهرة ، هي منطقية تعبيرها اكثر من اية لغة اخرى »(٤٣) ؛ وهو قول لا يحمله عليه فخر بعصبية قومية ، وانما يصدر فيه عن دراية ومعرفة موضوعية باساليب التعبير في العربية وفي غيرها من اللغات القديمة والحديثة .

## ٦ ـ الحضارة والتطور

أ ـ يكشف الشعر الجاهلي عن ابعاد حضارية لا يستبعد ان تصدر عن القبائل العربية وهي معروفة بانتقالها في رحاب شبه الجزيرة وما جاورها ، وقد اتيح لها ان تنشىء المدن والدول في جنوبها وشمالها وفي وسطها وان تخالط غيرها من الشعوب ، وان تمدها بفيض من الهجرات اليها اسهمت في بناء حضارة وادي الرافدين ووادي النيل وبلاد الشام ، فلما شرفت العربية بنزول القرآن الكريم بها واحتوت تعابيرها حكمته وهدايته ، كان ذلك دليلاً قاطعاً على كفايتها لاداء المعاني الحضارية في ارفع مراتبها .

ب ـ وكان من ابرز عناصر الدعوة الاسلامية تأكيد مكانة الانسان في الوجود واعتماده على هداية العقل والضمير ، وحمله المسؤولية في شؤون حياته ديناً ودنيا ، وترتب على ذلك سعيه في التعلم وكسب المعرفة وممارسة التفكير، فانفتحت امام العرب والمسلمين عامة آفاق رحبة للتفاعل مع الحضارات الاخرى ولإنشاء حضارة انسانية متميزة بخصائصها ، شملت العلوم والفلسفة كما شملت الشعر والآداب وعلوم اللغة نحواً وبلاغة ونقداً ، وانما يعنينا من ذلك في هذا المقام صلاح اللغة العربية اداة لاستيعاب هذه العلوم والفنون ومذاهب الفلسفة ، وتطورها .

ج ـ فقد تطورت العربية بمفرداتها ومن بينها ما وضعته لمصطلحات العلوم وما عربته منها ، وبأساليبها وفنون التعبير بها ، وبعلومها وما ادت اليه من تأصيلها وكشف القواعد التي تتحكم بها ، نحواً وبلاغة ونظماً ونقداً ، فكانت بجميع ذلك وعاء صان المعرفة الانسانية بفلسفتها وعلومها تفاعلاً مع السابق لها ، وابداعاً في مجالاتها وابلاغاً لمن تلاها ، فمهدت لعصر النهضة بأوروبا ، كما كانت وعاء ابدع ادباً انسانياً رفيعاً بما عرض من نماذج الشخصيات وبما راد من مذاهب الفكر ومنها ما تابعته بروافد خاصة بها بعض مذاهب الفلسفة الحديثة . ودلت في الحالين على حيوية وافرة وامكانيات في الغنى والتطور ، وثبتت بوصفها لغة لحضارة انسانية سادت الفكر العالمي لعدة قرون وشعت على ثقافات الشعوب الاسلامية واثرت في الحضارة المعاصرة ذاتها .

د ـ ولكن تلك الحضارة الانسانية تعرضت واأسفاه لقرون طويلة من التدهور والانحطاط

---

(٤٣) هاملتون غب ، تعليق على محاضرة د. ابراهيم مدكور : « منطق ارسطو والنحو العربي ، » القي في : مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، الدورة ١٥ ، القاهرة ، ١٩٤٩ ، « محاضر الجلسات في الدورة الخامسة عشرة » ، ص ٣٧١ .

من اثر جملة من العوامل منها تبدد الوحدة وتفرق الكلمة بين الحكام وتشتت البلاد الى دويلات متصارعة ، ومنها فساد الحكم وغلبة المصالح الذاتية على الحكام وميلهم الى الترف والملذات ، ومنها الغزوات الاجنبية ، وبخاصة غزوات التتار والصليبيين وما تلاها من الخضوع للنفوذ الاجنبي ، ثم غزوات الاستعمار الغربي منذ القرن الثامن عشر واحتلاله اجزاء كثيرة من الوطن العربي، امتدت وطأته في بعضها قرناً من الزمان او يزيد ، فلا جرم ان يتأثر الفكر العربي وتتأثر اللغة العربية خلال تلك الحقبة المظلمة ، فتضاءل الفكر وغلب عليه التقليد ، وضعفت اللغة ، ونشأ فيها اللحن وكثر الدخيل ، وطغى على الادب نثراً ونظماً التكلف والزخرفة في الاساليب ، وفساد المحتوى والموضوعات ، واصبح صنعة للتملق والمداجاة وللمدح الكاذب للحكام . وقد كانت العربية الفصيحة معرضة لأن تتشتت وتتبدد الى لهجات محلية لا جامع بينها بحكم التجزئة والتخلف لولا ان الدين الاسلامي قد صانها بالقرآن الكريم والحديث الشريف وحفظها في القلوب وعلى ألسنة الدارسين وأقلام الكاتبين ، كما حفظ معها شخصية الامة العربية طوال تلك القرون .

هـ - فلما ظهرت طلائع النهضة الحديثة في البلاد العربية ، منذ القرن الثامن عشر ، بحكم دوافع ذاتية من باطنها كالشأن في بعض حركات الاصلاح الديني ، وبحكم المواجهة للحضارة الغربية وغزوتها الشرسة ، تجلت بواكيرها في الحركة الفكرية ، فكان من اثارها نشر كتب التراث العربي والاسلامي ، ونمو الاصلاح الديني ، فسرت بعض تلك الآثار الى اقلام الكتاب وألسنة الشعراء واصابت اللغة العربية حظها من الانتعاش ، وما زالت تسترد عافيتها تدريجاً. تضافر على ذلك عوامل منها ظهور الطباعة وانشاء الصحافة ونشاطها ، واهمها انتشار التعليم وبروز نوابغ من الادباء والشعراء ، وتأسيس الجامعات وممارستها لمناهج البحث الحديثة ، والانفتاح على الثقافات الانسانية ، وانشاء المجامع وعنايتها بوضع المصطلحات والكشف عن اصول اللغة واتجاهات تطورها ، ويتغلغل في هذه العوامل التفاعل بين الحركات الوطنية على الصعد القطرية وحركة القومية العربية على الصعيد القومي من جانب ، وبين الحركة الفكرية في الوطن العربي من جانب آخر ، وتبادل التأثيرات بين الجانبين . فما زالت اللغة العربية من خلال هذه العوامل على تعددها تحظى بنصيبها من دواعي النهضة والتطور ، فتتجدد الاساليب وتسلم من آثار التكلف والزخرف والتقليد ، ويغنى الادب العربي الحديث بطائفة من النابغين المبدعين ، شعراء وناثرين ، وتبرز فيه فنون القصص والروايات والتمثيليات ، الى جانب فنون الرسائل والفصول والمقالات ، ويبلغ حظاً من التعبير عن صور الحياة وعن تطلع الامة العربية الى الوحدة والحرية والتقدم .

و - وتلك جوانب ايجابية تسري في الحياة الفكرية العربية ، وإنما ينشأ التساؤ ل عن مدى اتساعها ، وعن نصيب الجماهير العربية منها ، لكيلا تكون مقتصرة على فئة محدودة من المثقفين ، وتظل الكثرة الكاثرة من ابناء الامة محرومة منها . وإنما نلتمس الجواب عن هذا التساؤ ل في مهمات التربية لنتحقق بخاصة مدى عنايتها بالعربية الفصيحة اداة لها ، وبخاصة وقد المنا ببعض خصائصها في التعبير وفي صلاحها لغة للحضارة وقابليتها للتطور وفقاً لمطالبها المتجددة .

ز ـ ولا نغفل في ختام هذا العرض خصائص اللغة العربية وميزتها الحضارية انها كانت لغة عالمية للفكر قروناً طويلة ، وما زالت تحتفظ بنصيب من العالمية من حيث هي لغة عقيدة ينزلها العرب منزلة رفيعة في نفوسهم بوصفها لغة القرآن الكريم ، وتشاركهم في الاعتزاز بها الشعوب الاسلامية حيثما صانت عقيدتها وادركت حاجتها الى العربية ، وبها تؤدى الصلوات كل يوم وتراعى كثير من العبادات ، فصلتها بها قائمة ، وهي حريّة ان تكون عاملاً يجمع بينها ويعينها في حمل رسالتها هداية للانسانية على مر العصور .

## رابعاً : تقويم مجمل لواقع تعليم اللغة العربية في انظمة التربية في الوطن العربي

١ ـ في هذا القسم محاولة لتقويم مجمل لواقع تعليم اللغة العربية في انظمة التربية في الوطن العربي ، وهو تقويم يلم بما هو قائم من اتجاهات ايجابية ويسعى الى تشخيص الصعوبات والمشكلات ، تمهيداً لإبداء الرأي في وسائل معالجتها في قسم تال ، ونلمح من الجوانب الايجابية ثلاثة اتجاهات :

أ ـ تكشف النظرة المجملة على مستوى السياسات التربوية عن اعتماد اللغة العربية لغة للتعليم في الاقطار العربية عامة ، وتجد هذه السياسات بعض مظاهر تطبيقها في مناهج الدراسة وكتبها وفي جداول العمل فيها ، دون ان يعني هذا الحكم ان ذلك حاصل في جميع مراحل الدراسة وجميع ميادينها ، بله ان يعني ان ما هو حاصل منه يبلغ المستوى المطلوب من اعتماد العربية الفصيحة ذاتها .

ب ـ تحقق في النصف الثاني من القرن العشرين ، وبعد نيل معظم البلاد العربية استقلالها توسع ملحوظ في التعليم المدرسي ، فأخذت اعداد التلاميذ في مرحلة الدراسة الابتدائية تتضاعف كل عشر سنوات تقريباً ، وربما زادت هذه النسبة للتعليم الثانوي والتعليم العالي . ونظراً للبداءات المتواضعة التي انطلق منها ذلك التوسع فلا يزال الشوط طويلاً دون تحقيق الالزام في مرحلة الدراسة الابتدائية ، اذ يقدر ان حوالى ثلث الاطفال في تلك السن ما يزالون خارج المدارس . ومهما يكن من امر فإن ذلك التوسع الكمي ترك آثاره في تعلم مهارات القراءة والكتابة واستخدامها في الحياة العاملة ومن الناشئين من واصل تعليمه في مرحلة تالية وتلك مكاسب لمصلحة اللغة العربية في كثير من الاحيان ، يضاف اليها مكاسب اقل عدداً ونوعاً بشأن محو الامية بين الكبار ، فما زال حوالى نصفهم محرومين من التعليم .

ج ـ ان النهضة الفكرية التي حصلت في الوطن العربي ، وكانت متفاعلة مع الحركات الوطنية ومع حركة القومية العربية ، مما جاءت الاشارة اليها آنفاً ، ذات صلة بالتوسع في التعليم وباعتماد اللغة العربية فيه ، تتأثر بها وتؤثر فيها . فبين الادباء ، ناثرين وشعراء ، من ترعرع في

احضان معاهد التعليم التي اغتنت ثقافته من مناهلها ، وبينهم من تدرب على مناهج البحث الحديثة فيها ، فكان اسهامه في الانتاج والابداع اغناء للغة العربية وآدابها ، ودعوة لمزيد من التعليم معتمداً عليها. وكان من ذلك ما هو من عوامل النهضة الفكرية وما هو من نتائجها ، ومهما يكن من امر فقد غنمت اللغة العربية من هذه الحركات جميعها ، وارتفع مستواها تلقياً وعطاء ، وصحت اساليب التفكير والتعبير بها .

٢ ـ فإذا التفتنا الى الجوانب السلبية في تعليم اللغة العربية ، فإننا نلاحظ منها ما يأتي خاصة :

أ ـ ان التطور الذي حصل في انظمة التربية العربية في النصف الثاني من القرن العشرين تناول جوانبها الكمية ، اكثر مما تناول جوانبها النوعية فلا يخفى ان تلك الانظمة جاء انشاؤها منقولاً عن انظمة التربية الغربية متأثراً بها ، وكان للنزعات الاستعمارية تأثير في نشأتها من حيث اهدافها ومن حيث محتوياتها ومن حيث عزلتها عن مجتمعاتها. وبذلت الحركات الوطنية والحكومات التي نشأت بعد الاستقلال جهوداً في اصلاحها ، ولكنها جهود جزئية ، متناثرة في الغالب ، يعوزها الشمول والتكامل ، وتعتمد على الخبرات الشخصية في التربية واساليبها ، اكثر مما تعتمد على البحوث العلمية الدقيقة في مناهجها الممحصة في نتائجها ، فلا جرم ان تظل انظمة التربية العربية عامة تشكو من نقص كفايتها وغلبة الاساليب التقليدية عليها ، يتجلى ذلك في غموض اهدافها وفي ضيق محتوياتها وفي ضعف طرائقها ووسائلها واساليب تقويمها . وللغة العربية نصيب ملحوظ من هذه الجوانب السلبية ، بحكم سعة موقعها وخصوصيتها وبحكم الصعوبات المتصلة بتكييف تعليمها لمستويات المتعلمين وحاجاتهم اليها ، والمتصلة باعداد معلميها ومدى كفايتهم بها ، وستأتي الاشارة الى بعض تفصيلات تتعلق بتدريسها .

ب ـ **ازدواجية اللغة في بعض مراحل الدراسة وبعض ميادينها** : فعلى الرغم من اعتماد العربية لغة للتعليم في انظمة التربية العربية عامة ، فإنها ما تزال تنافسها لغة اجنبية في بعض الاقطار العربية ، وقد تكون المنافسة في جميع مراحل الدراسة وجميع ميادينها وقد تكون في بعضها ، ونتبين في هذا الصدد الانواع التالية من الحالات : (١) اقطار المغرب العربي الاربعة : تونس والجزائر والمغرب وموريتانيا ، كانت الفرنسية سائدة في مؤسسات التعليم الرسمية فيها في جميع مراحلها عند استقلالها ولكنها تبنت تباعاً على المستوى الحكومي المعلن سياسة التعريب ، بمعنى اعتماد اللغة العربية لغة للتعليم واخذت بتطبيق تلك السياسة تدريجاً ، بدعوى ان التدرج تستدعيه الحاجة الى توفير المعلمين المؤهلين وتوفير مناهج الدراسة وكتبها ووسائلها ووضع المصطلحات العلمية لموادها. وربما كان وراء تلك الدعوى اسباب اخرى من آثار السياسات القائمة في عهد الاستعمار وبين بعض اصحاب المصالح الضيقة من الذين ثقفوا ثقافات اجنبية ، ومهما يكن من تأثير تلك الدعاوى والاسباب الكامنة وراءها فيبدو ان سياسة التعريب ماضية في تحقيق اهدافها على النحو المتدرج المخطط لها ، وان تفاوت نصيبها من النجاح بين قطر وآخر او بين مرحلة واخرى من مراحل التعليم ، واحرى ان يكون نجاحها ملحوظاً في مرحلة التعليم الابتدائي ، وفي جوانب من التعليم الثانوي والتعليم العالي ، وبخاصة تلك التي تتصل

بالدراسات الانسانية والعلوم الاجتماعية ، بخلاف العلوم الطبيعية . ولعل جيبوتي تشبه احوال المغرب العربي عند الاستقلال من حيث الاعتماد على الفرنسية ، وفي الصومال تعتمد اللغة المحلية وينصرف الاتجاه الى التوسع بالعربية تدريجاً .

كانت الجامعة السورية اسبق الجامعات العربية في اعتماد اللغة العربية لغة للتعليم فيها ، انطلقت في تطبيق تلك السياسة في معظم كلياتها منذ العشرينات واستكملتها في الاربعينات ، ووضعت كتب الدراسة بالعربية ذاتها . وعلى هذا نهجت كليات العلوم الانسانية والاجتماعية في مصر والعراق والسعودية وغيرها ، وظلت كليات الطب والهندسة والعلوم الصرفة في اقطار المشرق العربي تعتمد لغة اجنبية في كثير من الحالات ثم نشأ بعض جامعات عربية يعتمد لغة اجنبية الى حد بعيد مثل جامعة الخرطوم في السودان وجامعة البترول والمعادن في السعودية .

غير ان العراق شهد في النصف الثاني من السبعينات حركة فعّالة في اعتماد العربية لغة للتعليم العالي في جميع ميادين الدراسة ، فاتخذت حكومة الثورة قراراً حاسماً بتعريب تدريس العلوم الصرفة والتطبيقية والتقنية في كليات التعليم العالي ومعاهده ابتداء من العام الدراسي ١٩٧٧ ـ ١٩٧٨ ، فوضعت لذلك خطة وافية شملت توفير مئات من الكتب الدراسية المقررة والكتب المساعدة وبعض كتب المراجع ، ترجمة او تأليفاً ، وشرع بتطبيقها في الصفوف الاولى من تلك السنة ، تليها الصفوف الاخرى بصورة متتالية صفاً بعد آخر ، حتى اكتملت عام ١٩٨٠ ـ ١٩٨١ وتخرجت بها اولى دوراتها . ولعل محاولات اخرى في تعريب التعليم العالي تجري في اقطار عربية اخرى وإن لم تبلغ ما بلغه العراق من الشمول والتكامل في التخطيط وفي التنفيذ على السواء ، ومن بينها جهود المجمع بالاردن بترجمة كتب العلوم الحديثة ونشرها بين الطلبة الجامعيين . (٢) بعض المؤسسات الخاصة والاجنبية على مستوى المدارس الابتدائية والمدارس الثانوية او على مستوى التعليم العالي ما زالت تعتمد اللغات الاجنبية لغة للتعليم فيها ، يصدق ذلك على مؤسسات في لبنان ، وتبرز بينها الجامعة الامريكية اذ تعتمد الانكليزية والجامعة اليسوعية وتعتمد الفرنسية ، وكلتاهما ببيروت .

ومهما يكن من امر ، فإن مضار التعليم بلغة اجنبية في مؤسسات التعليم في مستوى ينافس العربية ويستأثر بنصيب وافر من فرص التعلم لا تقتصر على حرمان المتعلمين من الاعتماد على لغتهم القومية اداة فكرية ايسر في التعلم ، ووسيلة اجتماعية وقومية لترسيخ الخصائص القومية واسس الوحدة الفكرية ، وانما تشمل ايضاً اخطار تشربهم لقيم ثقافة اجنبية خلال مرحلة مهمة من نشأتهم ، تشرباً ما احراه ان يؤثر في ولائهم لأمتهم ومواقفهم من المشاركة في نضالها لتحقيق اهدافها . ولا يعني هذا ان اعتماد العربية لغة للتعليم يقتضي العزوف عن تعلم اللغات الاجنبية بتمامها ، بل الامر على العكس ، لا بد من حظ منها للاغراض العلمية والثقافية ، متابعة للتبحر في المعرفة العلمية وبحوثها ، وانفتاحاً على الفكر الانساني عامة ، كما سندعو الى ذلك في قسم تالٍ . ومهما يكن من امر، فإن مواصلة سياسة التعريب ، بمعناها المحدود اي اعتماد العربية لغة للتعليم في جميع مراحله، بتطبيقها في الواقع امر على غاية من الاهمية والخطورة ، للاغراض الفكرية والقومية على السواء،ولا يقوم ما يسوغ التأخر في انجازه بتمامه .

ج ـ **شيوع اللهجات العامية**: معروف تعدد اللهجات العامية وشيوعها بين المواطنين في البلاد العربية لغة للكلام في البيوت وفي السوق وفي الحياة العامة ، وفي كثير من المؤسسات حتى لتسري الى بعض اجهزة الاعلام والثقافة ، ولذلك اسباب تاريخية وجغرافية ، ومتضمنات مجتمعية وثقافية .

ان حظاً من التفاوت في اللهجات العربية امر يمكن افتراضه منذ القديم مع اختلاف الاصول القبلية واتساع الاقاليم في عهود ازدهار الحضارة العربية الاسلامية ، مهما قللت منه اللغة المصفَّاة كما جاء بها القرآن الكريم والاحاديث الشريفة وسيادتها في شؤون الادب والفكر قروناً طويلة. غير ان ابتعاد اللهجات عن العربية الفصيحة وتعددها ، انما حصل في عهود التدهور والانحطاط ، وبسبب التجزئة الى دويلات ، وبتأثير الغزوات الاجنبية وغلبة التخلف بآفاته الثلاث على المجتمعات العربية، ففشا اللحن وشاع الدخيل وفسد الكلام ، ثم جاء الاستعمار الغربي يرسخ التخلف والتجزئة ويزيد من وطأتها على الجماهير ، ويتبنى سياسات في محاربة عقائد الامة وثقافتها ولغتها ، ويسعى الى طمس شخصيتها القومية، ويتخذ في سبيل ذلك اجراءات مشددة ، ومنها فرض لغته الاجنبية لغة للتعليم في مختلف مراحله ، واقامة حواجز لعزل الكيانات المحلية في الاقطار العربية بعضها عن بعض واشاعة الفرقة والنزعات الطائفية بينها ، والحيلولة دون تبادل ا لآثار الثقافية او حركة الاشخاص والايدي العاملة بينها. وغالت فرنسا في الجوانب الثقافية لهذه السياسات خاصة ، فكانت آثارها اكثر وضوحاً في اقطار المغرب العربي ، كما هو معروف .

ويلاحظ التلازم الوثيق بين اللهجات المحلية على تعددها وبين الجهل والامية ، فالتأثيرات بينهما متبادلة ، ويقع اكبر قسط منها على المرأة ، وهذا مدخل لكليهما الى البيت يتغلغلان في نطاق الاسرة ويؤثران في العلاقات الناشطة فيها كل يوم ، ويكشفان عن صلة وثيقة بالتخلف نشأة واحتضاناً .

والمقارنة بين الفصيحة وبين اللهجات العامية من حيث كونها انظمة لغوية يراد لها ان تؤدي الوظائف المألوفة للغة كفيلة ان تكشف عاجلاً عن تدني الثانية وعجزها عن الوفاء بالمطالب الفكرية للثقافة والعلوم ، حتى ليراعي ذلك عادة في تعريفات العلماء المعنيين بدراسة هذه الظواهر اللغوية ويكاد يصدق على جميع اللغات قديمها وحديثها .

فقد ذهب بعض العلماء المعاصرين الى دراسة التفاوت بين اللغة الفصيحة وبين لهجاتها العامية في اليونانية وفي العربية وفي السويسرية الالمانية ، فكان منهم من سماها « ازدواجية اللسان » diglossia ، وعرّفها اللغوي الامريكي شارلز **فيرغسون** وهو ممن عنوا بدراسة هذه الظواهر في العربية ، على الصورة الآتية « حالة لغوية ثابتة نسبياً يوجد فيها فضلاً عن اللهجات الاساسية ( التي ربما تضم نمطاً محدداً او انماطاً مختلفة باختلاف الاقاليم ) نمط آخر في اللغة مختلف ، عالي التصنيف ( وفي اغلب الاحيان اكثر تعقيداً من الناحية القواعدية ) فوقيّ المكانة وهو آلة ( كذا ـ ولعل الكلمة المناسبة هي اداة ) لكمية كبيرة ومحترمة من الأدب المكتوب لعصور خلت ولجماعة سالفة ويتعلم الناس هذا النمط بطرق التعليم الرسمية ، وتستعمل لمعظم الاغراض الكتابية والمحادثات الرسمية لكنه لا يستعمل من قبل اي قطاع من قطاعات الجماعة المحلية

للمخاطبة او المحادثة العادية »[٤٤] . واذا استعدنا للذهن خصائص اللغة العربية الفصحى ومزاياها للتفكير والتعبير ، كما اجملناها آنفاً، وما تنطوي عليه من الاصول والاساليب ومن ذخائر الحكمة والآداب ، قدرنا الفارق الكبير بينها وبين اللهجات المحلية ، حيثما كانت في اقطار العروبة ومجتمعاتها ، وتلك حقيقة مقررة لا يكاد ينشأ حولها كبير خلاف . وقد اكدتها طائفة من كبار ادباء العربية المعاصرين ومنهم الاستاذ عباس محمود العقاد ، الذي يرى ان العامية تعجز لا بمجرد نقص مفرداتها ، بل بضعف تراكيبها واساليبها في التعبير عن الاحاطة بالافكار الرفيعة والمشاعر الدقيقة التي يبدعها النوابغ والموهوبون ، يصدق ذلك على اللغات عامة قديمها وحديثها ، واحرى ان يصدق على العربية الفصحى قبل غيرها[٤٥] . ومنهم الدكتور طه حسين حيث يقول عن العامية « لا تستحق ان تسمى لغة ولا تلائم اهداف الحياة الثقافية »[٤٦] .

وقد وضع الاستاذ محمد فريد ابو حديد دراسة تتضمن مسحاً اولياً لبعض كلمات اللهجة المحلية في القاهرة كشف فيه عن عجزها بالقياس الى الفصحى من حيث المفردات ، فلا تكاد تشمل من الافعال الثلاثية المبتدئة بحرف الباء الا نحو ثلث ما يرد في قاموس متوسط كالمحيط ، « فالافعال الثلاثية في العامية اقل بكثير من الافعال الفصحى ومعنى هذا انها تقصر عن اداء كثير من المعاني التي يمكن ان تؤدى بالفصحى » . كما وجد تحريفاً في وزن الافعال وتصريفها وكثرة الدخيل فيها ، وتساهلها في اوزان المضارع وميلها الى التبسيط في قواعدها . وقد وردت هذه الدراسة في تقرير لجنة العامية والفصحى وعرضت على مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة بدورته الرابعة عشرة، وابرزت المناقشة ضعف العامية بالقياس الى الفصحى ، وكان مما اخذ على العامية اهمالها للاعراب[٤٧] .

وقد ظهرت في القرن العشرين ، في بعض البلاد العربية ، دعوات لتبني اللهجات العامية لغة للثقافة والتعليم ، بحجة انتشارها بين الجماهير ويسرها على المتعلمين ، وهي دعوات جاءت طوالعها على ألسنة رجال الاستعمار وبينهم المهندس ولكوكس ، وبشّر بها ودافع عنها ذوو النزعات الاقليمية وبخاصة في مصر ولبنان[٤٨] ، كما كان من ورائها بعض المؤسسات الاجنبية

---

(٤٤) محمد راجي الزغلول ، « نظرة في حاضر العربية وتطلع نحو مستقبلها في ضوء الدراسات اللغوية ،» اللسان العربي ( الرباط ) ، السنة ١٢ ، العدد ١ (١٩٨٠)، ص ٢١ ـ ٣٨ ، وقد نقلنا عنه تعريف فيرغسون الذي ورد في مقالته :

« Diglossia ,» *Word*, no. 15 (1959), pp. 325-340.

(٤٥) عباس محمود العقاد ، **ساعات بين الكتب** ( بيروت : ١٩٦٩ ) ، « الفصحى والعامية ،»، ص ١٤٥ ـ ١٤٦ . انظر ايضاً : الزغلول ، المصدر نفسه ، ص ٣٥ .

(٤٦) طه حسين ، **مستقبل الثقافة في مصر** ، ص ٢٣٦ ، والزغلول ، المصدر نفسه ، ص ٢٦٠ .

(٤٧) محمد فريد ابو حديد ، « موقف اللغة العامية من اللغة الفصحى،» محاضرة القيت في : مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، الدورة ١٣ ، القاهرة . وقد اعدت لجنة العامية والفصحى تقريراً بشأنه القي في : مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، الدورة ١٤ ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، ص ٤٥٥ ـ ٤٨٥ .

(٤٨) نفوسة زكريا سعيد ، **تاريخ الدعوة الى العامية وآثارها في مصر** ( القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٤ ) .

تشارك فيها بصيغ مختلفة وبأساليب ماكرة ، من بينها رصد ذخيرة الاطفال اللغوية والكلمات العامية الشائعة بينهم ، ولا تخفي في هذه المشاركة اهدافها ومهماتها .

وتتعدد الاخطار من شيوع اللهجات العامية في الوطن العربي، وتلتقي فيها الجوانب التربوية والثقافية بالجوانب الاجتماعية والسياسية ، ولعلنا نجمل بعضها على الوجه الآتي :

(١) إن شيوع العامية بين الجماهير يصرفها عما يكتبه قادة الفكر في الامة ، ويحرمها من غذاء فكري لا تستغني عنه وهي تهم بتغيير اساليب حياتها . ومن جانب آخر ، فإن ضعف الصلة بين قادة الفكر وبين الجماهير فيه خسارة اولئك القادة انفسهم ، لأنه يعزلهم عن واقع الحياة في مجتمعهم وهو ميدانهم الطبيعي ، ويفقدهم الرفد المعنوي الذي هم في حاجة ماسة اليه لمواصلة الابداع وبخاصة حين تنقطع صلتهم بالجماهير وما يمكن ان يصدر عنهم من الاعجاب والتأييد .

(٢) ولعل الخسارة على المجتمع تكون اشد في انقسام الشعب الى فئتين منعزلتين احداهما عن الاخرى ، فئة قادة الفكر من النوابع والمبدعين ، وفئة الجماهير المحرومة من غذاء فكري رصين ، مما لا يستقيم مع الوحدة الشعبية المؤملة في اتجاهات الثقافة العامة وما تنطوي عليه من الاعراب عن طبيعة الحياة وتفاعلاتها وعن الشخصية القومية للامة بتمامها[٤٩] .

(٣) ان اقتصار الجماهير على العامية وعجزهم عن فهم الفصيحة وعن استساغتها فضلاً عما فيه من حرمانهم من الغذاء الفكري الناشىء في حاضرهم ،يعني عزلهم الى حد بعيد عن المصادر الاولى لعقيدتهم كما تمثل في القرآن الكريم وفي الاحاديث النبوية الشريفة وعن التراث الفكري لأمتهم في ماضيها الزاهر وما اشتملت عليه الحضارة العربية الاسلامية من ذخائر في العلم والفلسفة والآداب ، ويترتب عليه انقطاعهم عن جذور ثقافتهم وأصالتها ، وفي ذلك ما فيه من خسارة روحية وفكرية ، ومن خسارة مجتمعية قومية ، بما ينسون من خصائص امتهم ومن مزايا شخصيتها القومية كما تكونت على خير صورها ، وشأنهم شأن من يفقد ذاكرته ويسير على غير هدى من سالف خبراته .

(٤) واذا كانت الاخطار السالف ذكرها المترتبة على شيوع اللهجة العامية يمكن ان تحصل مجتمعة ومتفرقة في القطر الواحد ، فإنها لتتضاعف حين تتعدد الاقطار في الوطن العربي وتتباين اللهجات المحلية ، وتختلف المواقف منها ، فتؤدي الى ترسيخ التجزئة على الصعيد القومي ، وتضعف اللغة الفصيحة في تأثيرها بوصفها رابطة قومية تشد المواطنين الى وحدتهم الفكرية وتتعرض الامة العربية الى التشتت فتتبدد الى مجموعات سكانية مختلفة في ثقافاتهم وفي اتجاهاتها ، وتعطل حركتها نحو الوحدة وتشل امكانياتها في المنعة والتقدم .

---

(٤٩) ابو حديد ، المصدر نفسه ، ص ٤٥٥ ـ ٤٥٧ .

وفي مواجهة الاخطار السالف ذكرها ، يجدر ان نقف عند الملاحظات التالية :

ـ قد لا تخلو امة من وجود لهجات محلية الى جانب لغتها القياسية كما توصف احياناً للدلالة على صحتها ، وانما تزداد اخطار هذه اللهجات المحلية كلما حالت دون التفاهم باللغة القياسية ، وهبطت في مستواها الى مرتبة ضئيلة في مواجهة المشكلات الفكرية ، وقد ادى انتشار التعليم ومحو الامية بين الجماهير في الدول الصناعية الى التخلص من كثير من هذه الاخطار ، فعادت لغاتها القياسية اداة التفاهم الى حد بعيد ، مهما اختلفت عنها هنا وهناك بعض اللهجات المحلية وخضعت لبعض التغيرات الفرعية بحكم الاصول العرقية او بحكم المواقع الجغرافية .

ـ تختلف اللهجات المحلية في البلاد العربية بعضها عن بعض ، وقد تتعدد داخل القطر الواحد ، وتختلف جميعها عن العربية الفصيحة ، ولكنها تنحدر عامة عن هذه ، وما تزال تحتفظ بحظ من صيغها الصحيحة وبحظ آخر من صيغ محرفة عنها بعض التحريف في النطق او في التصريف . ففي الدراسة التي قام بها الاستاذ محمد فريد ابو حديد ، واجرى فيها مسحاً اولياً للهجة العامية في القاهرة واشرنا اليها آنفاً ، وجد على سبيل المثال « ان الفرق ضئيل بين الافعال العامية والفصحى ، فلا تزال العامية محتفظة في افعالها بكثير من دلائل الفصاحة مع تحور قليل . . . وقد احصيت عدد الافعال الصحيحة التي اولها حرف الباء فوجدتها ٤٥ من جملة الافعال وعددها ٧٥ ، واما باقي الافعال فمحرفة ، ما عدا خمسة افعال لا اصل لها في الفصحى . . . . والشبه عظيم هنا ( في اوزان الافعال ) مع فارق في ضبط الحركات بين العامية والفصحى . . . »(٥٠) ؛ وذلك يفتح المجال للانتفاع من الالفاظ الصحيحة ومراعاة شيوعها ، ورد المحرفة الى اصولها ، بما يؤدي الى تضييق الشقة بين العامية والفصيحة .

ـ لم تنقطع الجماهير العربية عن الفصيحة ، بل ظلت صلتها بها قائمة عن طريق الدين الاسلامي وتعلق الناس به ، فهم يستعملون الفصيحة في صلواتهم الخمس كل يوم ، ويستمعون الى آيات الذكر الحكيم والى الاحاديث الشريفة في الخطب والمواعظ ، ويلمون ببعض الاحكام الشرعية في بعض المناسبات ، مما يعز نظيره في غيرها من اللغات ، وقد ظل هذا المورد الصافي من الفصحى يغذي العقول والقلوب على مر العصور ، قد يفوت العامة كثير من معانيه وعميق اسرار بلاغته ، ولكنه يواليهم بتأثيره بدون انقطاع ويجعلهم على حظ من الالفة به ، مهما تفاوتت اقدارهم منها .

ـ قامت المجامع اللغوية والعلمية في الوطن العربي ـ في دمشق وفي القاهرة وفي بغداد ، ثم في عمان والرباط ـ بجهود حميدة وجادة في سبيل الحفاظ على سلامة اللغة العربية وفي سبيل تطويرها للوفاء بمطالب الحضارة المعاصرة وتقدم العلوم والفنون فيها ، وتجلت جهودها في وضع المصطلحات ، وفي مواصلة العمل في احياء التراث العربي وتحقيق كتبه ، وكان لبعضها مساهمة جادة في سبيل تيسير قواعد النحو والصرف والاملاء . وبرزت الحاجة في اقطار المغرب العربي الى

---

(٥٠) المصدر نفسه ، ص ٤٦٣ ـ ٤٦٥ .

تبني سياسة التعريب ، بعد استقلالها ، فانعقد مؤتمر التعريب في الرباط سنة ١٩٦١ وتقرر فيه انشاء مركز التعريب بالرباط ، وبذل جهوداً طيبة في سبيل التنسيق بين اعمال المجامع والجامعات في وضع المصطلحات وفي نشر دراسات لغوية ، كما شاركت الجامعات العربية في تطوير الدراسات العربية واغنائها تأليفاً وتحقيقاً ، يذكر منها جامعات مصر وسوريا والعراق وجامعات المملكة العربية السعودية وجامعة الكويت . وقد اومأنا الى الحركة الفكرية وصلتها بالحركات الوطنية وبالحركات القومية ، وما تولد عنها من نهضة ادبية في القرن العشرين ، كشفت عن نوابغ من الشعراء والكتّاب وتعددت بها فنون الادب وصحت بها اساليب العربية وخلصت على ايدي كثير من الكتاب من الزخرف والزيف والاسفاف. غير ان من الجهود الشاملة على مستوى السياسات العامة ما قامت به حكومة الثورة في العراق باصدارها قانون الحفاظ على سلامة اللغة العربية برقم ٦٤ لسنة ١٩٧٧ ، وبموجبه الزمت الوزارات وما يتبعها من الدوائر الرسمية وشبه الرسمية والمؤسسات والمصالح والشركات العامة والجمعيات والنقابات والمنظمات الشعبية بالمحافظة على سلامة اللغة العربية ، واكدت اعتماد اللغة العربية لغة للتعليم في جميع مراحله وميادينه ، وعلى مؤسساته ان تحرص على سلامتها لفظاً وكتابة ، وتنشئة الطلاب على حسن التعبير ، والتفكير بها ، وادراك مزايها والاعتزاز بها . كما الزمت مؤسسات النشر والاعلام باعتماد العربية والعناية بسلامتها وعدم جواز استعمال العامية الا عند الضرورة القصوى، واقامت من المجمع العلمي العراقي مرجعاً في وضع المصطلحات العلمية والفنية .

وقد انعقد في الخرطوم المؤتمر الاول للغة العربية في السودان في ١٦ صفر ١٤٠٣هـ الموافق ١ كانون الاول / ديسمبر ١٩٨٢،برزت فيه العناية بالحفاظ على سلامة اللغة العربية في الثقافة والحياة العامة ، واعتمادها لغة للتعليم في جميع مراحله ، واتجهت نية الحكومة الى اصدار قانون مجلس التخطيط اللغوي وانشاء مجمع اللغة العربية في السودان وتنشيط التعريب في التعليم العالي والبحث العلمي ، وتشجيع الابداع في العربية وآدابها .

تلك ملاحظات تبعث على شيء من الثقة والاطمئنان في معالجة مشكلات شيوع اللهجات العامية ، ويجدر ان نستحضرها في الذهن حين نتناول تلك المعالجة بأساليبها ومساراتها .

د ـ **احوال اللغة العربية في تعليم المواد الدراسية عامة** : فالطفل العربي يأتي الى المدرسة وذخيرته من المفردات والتعابير مستمد معظمها ، كما جاءت الاشارة آنفاً ، من العامية ، فهي اداته في التفكير . وتظل اللهجة العامية هي السائدة في المدرسة بين الاطفال بعضهم مع بعض وبينهم وبين معلميهم في كثير من الحالات . وتؤلف الظاهرة الاخيرة مشكلة لغوية وتربوية كبرى في مؤسسات التعليم العربية في مراحلها كافة . ذلك ان الاتجاه السائد فيها ان تعليم اللغة العربية تقتصر مسؤوليته على معلمي اللغة انفسهم ويكاد يعفى منها غيرهم من المعلمين ، كأنما اللغة مجرد موضوع من موضوعات الدراسة ، وليست هي اداة لتعلم الموضوعات الاخرى جميعها . ومع الخطأ في فهم العلاقات بين الموضوعات المدرسة عامة على هذه الصورة ، اذ ينبغي مراعاة ما بينها من التداخل والترابط وصولاً الى تأكيد مبدأ وحدة المعرفة فإنه خطأ لا يغتفر بالنسبة للغة القومية ،

حيثما اريد لها ان تكون اداة التعلم الرئيسية ، مع ما تشتمل عليه من خبرات انسانية ، وما فيها من فكر ووجدان وعمل تتغلغل في شؤ ون الحياة العامة .

ويجدر ان انقل في هذا الصدد ما جاء في كتاب مرشد المعلم وهو ترجمة لما يسمى بـ«اقتراحات للمعلمين»ـ تصدره وزارة التربية في المملكة المتحدة ( بريطانيا ) ليكون بمثابة مناهج الدراسة وطرائقها في مدارسها ، وذلك على الوجه الآتي :

« وبديهي ان مساعدة الطفل في ملك ناصية اللغة من عمل المدرسة جميعها ، يتضافر في ذلك جميع المعلمين فيها . ذلك ان اللغة هي الاداة التي بواسطتها يمكن تعليم الطفل وتربيته ، وبواسطتها يتمكن هو نفسه من ان يتوسع في امر تعليمه وتربيته ويساهم فيه . وان من مسؤ ولية المدرسة على وجه الخصوص ان تجعل الطفل يتكلم بدقة وطلاقة وحيوية ، وتتأكد ان ما يعبر عنه في الكتابة يؤدي الى الافكار والمعاني المقصودة بصورة مضبوطة ومنظمة . ولو ان معلم العلوم مثلاً اتبع هذا النهج لما كان في عمله من نفع لدرس اللغة بقدر ما فيه من نفع لدرسه هو بالذات ، فإنه لا يمكن ان يعلم موضوعه ما لم يسر في تعليمه على الدقة والانتظام في التعبير ، ولا شك ان دراسة اي كتاب إنما هي في الحقيقة عمل لغوي فهي بالضرورة درس في اللغة . . . . وان ما يبدو من اخفاق الاطفال في اختبارات المواد المدرسية المختلفة كثيراً ما يكون مرده الى الانطباعات غير المحددة التي تلقوها مما سمعوه او قرأوه ، فالاصل في هذا الاخفاق على الغالب الضعف في الناحية اللغوية . . . . ويجب ان نتذكر انه ما اكثر ما يرد على الاطفال من التعابير المجردة حتى في تلك الكتب الموضوعة لهم خاصة . واذا اخذت المبادىء والنصائح السالفة بنظر الاعتبار ، اصبح من واجب كل معلم في المدرسة ان يبذل اقصى الجهد لتيسير سيطرة الطفل على الكلمات وتمكينه من ملك ناصيتها »[٥١] .

وما اقل ما يعنى بتنفيذ هذه المبادىء والتوصيات في مؤسساتنا التربوية على اختلاف مراحلها ، اذ ان الانطباع العام الذي تؤيده الخبرات المتواصلة انما هو الاقتصار في تحمل مسؤ ولية تعليم اللغة العربية الفصيحة على معلميها ، وتخلي غيرهم من المعلمين عن هذه المسؤ ولية الى حد بعيد .

وقصارى هؤ لاء ان يتمسكوا بنصوص الكتب المدرسية المقررة على ما فيها من الضعف وان يديروا الحديث في موضوعات الدروس باللهجة العامية على ما فيها من الاضطراب والعجز عن تناول المفاهيم والافكار المجردة على وجه التحديد . وهكذا لا يتاح للعربية الفصيحة في مؤ سساتنا التربوية ان تكون الاداة الرئيسية للتفكير والتعبير في الميادين الدراسية العلمية على تعددها وفي تطبيقاتها في شؤ ون الحياة على اتساعها وتنوع مجالاتها ، وان تتكيف لطبيعة تلك الميادين وتلك الشؤ ون وتستوعب خصائصها ومفاهيمها وتستوفي التعبير عنها بوسائل الكلام ووسائل الكتابة على السواء ، ولتجري مجرى السليقة الراسخة في اذهان المتعلمين والكاتبين بها ، والفصيحة اذ لا يتاح لها ذلك تفقد رافداً رئيسياً من روافد الحيوية والتطور ، وتظل في احسن الاحوال مقصورة على دروس اللغة او على نصوص الكتب على ما في النوعين من الضعف والشكلية والانعزال عن الحياة . والمقارنة بين مكانة اللغات القومية الاخرى في تعليم المواد الدراسية جميعها في الانظمة

---

(٥١) « الانكليزية : اللغة والادب ، » ص ٣٤٩ - ٣٥٠ .

التربوية المتقدمة وبين مكانة اللغة العربية في تعليمها ، حرية ان تكشف ، ونحن نعتمد في ذلك على خبرات شخصية وافية ، عن فروق بينة تتجلى بين المراحل المختلفة في كتب الدراسة ومدى ما في تعابيرها من الاتقان ، كما تتجلى في لغة الحديث في الدروس والمحاضرات . وقد يعزى ذلك الى استقرار تلك الانظمة منذ عهد طويل ونجاحها في نشر التعليم ومحو الامية بين الجماهير ، وغلبة اللغة القياسية نسبياً على اللهجات المحلية الضيقة في الثقافة وشؤون الحياة العامة ، كما يعزى الى الجهود التربوية المستندة الى البحث العلمي في تحسين العمليات التربوية في وضع المناهج وتأليف الكتب المدرسية وفي طرائق التعليم ووسائله واساليب التقويم ، وفي اعداد المعلمين(٥٢) . وهي عوامل متداخلة تلتقي فيها النتائج بالاسباب . ويجب ان نستمد العبرة من هذه الفروق ، وان نقدر خاصة الحاجة الى اعداد المعلمين المؤهلين لاعتماد العربية الفصيحة على تعدد ميادين تخصصهم ومسؤولياتهم في تعليمها ، يصدق ذلك على معلمي المدارس الابتدائية والثانوية كما يصدق على اعضاء هيئات التدريس في التعليم العالي .

**هـ - تعليم اساسيات اللغة العربية في المدرسة الابتدائية** : فالاساس السليم هو المنطلق الصحيح لكثير من الشؤون ، وبخاصة شؤون التربية والتعليم ، وتعلم اللغة القومية بالذات ، فيجدر ان نقف عند مثل هذا الاساس لتقويم تعلم اللغة العربية الفصيحة ، مستندين في احكامنا الى المعايير التي يمكن ان تشتق من استعراضنا للجوانب النفسية والاجتماعية ، كما ألمحنا اليها آنفاً ، والى عرضنا لخصائص اللغة العربية ، مهما تكن تلك الاحكام تقريبية .

ونبدأ بما يوصف بالمهارات ، وهي تعتمد كثيراً على اجهزة الحس واجهزة الحركة في الاطفال . وقد أبرزنا منها في تعلم اللغة مهارات الاستماع ومهارات القراءة ، وتمارس فيها مهمات التلقي وادراك اللغة منطوقة او مكتوبة ، وفهم معاني عباراتها ، ومهارات الكلام ومهارات الكتابة ، وتمارس فيها مهمات التعبير لفظاً او تدويناً للعبارات . ان الطرق التربوية الحديثة تميز بين هذه الانواع من المهارات وتولي اهمية لكل نوع منها ، وللتوافق والانسجام بينها ، وتسعى الى ان يكون الطفل فاعلاً نشيطاً في كل منها يمارس مهماتها بحيوية ويحسن استخدام حواسه ومداركه ويوفق بين الحركات الموائمة لها ، ويصلها بخبراته الواقعية .

ويبدو ان تعليم اللغة العربية في مدارسنا يعنى في احسن احواله بمهارات القراءة ومهارات الكتابة ، ويكاد يقتصر عليها ، ويدع مهارات الاستماع ومهارات الكلام يمارسها التلامذة بصورة عفوية من دون تدريب مقصود عليها . ويأتي هذا النقص في مصدرين رئيسيين : من فرط الاعتماد على الكتاب المدرسي والوقوف عند نصوصه ، وضعف الالتفات الى الخبرات الشخصية المتنوعة المتوافرة لدى الاطفال ، ومن النقص في ادراك ما ينطوي عليه الاستماع والكلام من عناصر

---

(٥٢) Ebel, ed., *Encyclopedia of Educational Research: A Project of the American Educational Research Association,* وفيها استعراض لبحوث تربوية في تطوير المناهج والاساليب .

تتطلب عمليات عقلية مثل الانتباه وتركيزه ، والادراك الحسي والتمييز بين منبهاته ونطق الحروف من مخارجها الصحيحة ، واستشعار الثقة بالنفس لممارسة الطلاقة في الكلام من دون خجل او تردد.

وهكذا يحرم الاطفال في المرحلة الاولى في تعلم اللغة من التدريب على المهارات المختلفة ومن الاعتماد على رصيد الخبرات الشخصية المتوافرة لديهم وقد نقلنا نصاً من تقرير لجنة ( بلاودن ) في انكلترا وما جاء فيه عن الثورة في تعلم الانكليزية ، وهي ثورة انطلقت ، كما ورد في النص ، من الاعتماد على خبرات الاطفال وادراك انهم اذ يأتون الى المدرسة يملكون ذخيرة وافية من المفردات ، وقدرة على وصف خبراتهم بموجبها . وقد لخص التقرير في موضع آخر بعض نتائج تلك الثورة فأشار الى ما دلت عليه البحوث المسحية المتوالية من ان مستويات الكفاية في القراءة قد ارتفعت بصورة ملحوظة ومتدرجة وان الاطفال في عمر الحادية عشرة قد كسبوا بصورة عامة ما يقرب من ١٧ شهراً مما كانوا عليه في اعقاب الحرب العالمية الثانية نتيجة لتدريب المهارات المختلفة بصورة متوازنة والاعتماد على خبرات الاطفال انفسهم(٥٣) .

ان هناك دواعي متعددة للاهتمام بالجوانب اللفظية من اللغة القومية ، منها ان الكلام - استماعاً اليه ، وفهماً لمضمونه ، او تعبيراً به عن الخواطر والمشاعر - هو الاصل في اللغة وهو الغالب منها في الحياة العامة وفي التواصل بين الناس ؛ ومنها ان اللغة العربية بالذات ، ذات مزايا في فصاحة النطق ومراعاة الوزن والتنغيم فيه وفي اشتقاق الكلمات باوزانها ، يجدر استثمارها بتمامها ؛ ومنها ان الحضارة المعاصرة قد عادت تعنى بالكلام ، بعد ان كان قد طغى عليه من قبل ، في مؤسسات التعليم ، العناية بالقراءة والعكوف على نصوصها ، وبالكتابة والاعتماد عليها في التعبير ، وتبرزه بما نشأ فيها من اختراع اجهزة الاعلام الناطقة وبما تدعو اليه من التواصل المستمر بين الافرادوالفئات وتعاونها في المؤسسات والمجتمعات . وهكذا يبدو أن تعليم اللغة العربية في مدارسنا ما يزال ترين عليه الاساليب التقليدية في الوقوف عند القراءة والكتابة والاقتصار عند نصوص الكتب المدرسية المقررة الى حد بعيد ، دون العناية بمهارات الاستماع الى كلام الآخرين والاصغاء اليه وفهمه وبمهارات الكلام تعبيراً به عن الافكار والمشاعر بطلاقة وحيوية ، والاعتماد في جميع ذلك على الخبرات الشخصية ، وتوفير التوازن في تدريب الانواع المختلفة من المهارات .

فإذا تجاوزنا هذه المهارات الاساسية الى التساؤل عما اشرنا اليه من وظائف اللغة ، كما يتم تعليمها وتشمل وظائف التفكير والتذوق والتعبير والتواصل، والمشاركة بالمشاعر والاعمال ، فما احرانا ان نجد ان الوظيفة الاولى ، كما تتجلى ، في تحصيل المعرفة هي التي تحظى بالعناية ، دون عناية وافية بغيرها من الوظائف ، بل قد يقتصر من تلك الوظيفة في تحصيل المعرفة على الجوانب

---

(٥٣) Central Advisory Council for Education, Department of Education and Science, «Children and Their Primary Education,» p. 212.

السطحية في تلقي المعلومات متفرقة وبصورة سلبية دون معالجة المشكلات وممارسة التفكير والسعي الى التميز والاستقلال في الآراء والافكار والى ممارسة الابتكار . اما الوظائف الاخرى فلا تجد ما تستحق من الاهتمام . فالتذوق اذ يرافق التفكير في النصوص الادبية او في الحكم الاخلاقية حين تعرض لفظاً او كتابة اساس لتشرب القيم والفضائل ، كما هو اساس في فهم الفنون والطبيعة وما فيهما من جمال ، والربط بين معاني الكلام وبين متضمناته في الاعمال يجعل من اللغة اداة في تطوير السلوك واغناء الخبرات واكتساب المهارات ، ولكنه لا يجد عناية وافية في مدارسنا . وما يحصل من استعمال اللغة لغرض التواصل بين التلامذة بعضهم مع بعض ومع معلميهم انما يتم بصورة عشوائية ، لا يخضع للتنظيم المقصود الذي تستوفى فيه مطالب الحوار وما فيه من تبادل الآراء والافكار ، وجعل ذلك اساساً للتفاعل في شؤون الحياة العامة باستمرار .

وهكذا فإن جانب المعرفة هو الذي يحظى بالاهتمام ، مهما تكن تلك المعرفة سلبية تقتصر على تلقين المعلومات واستذكارها بصورة مجزأة دون تنمية التفكير وحل المشكلات وقدرات الابتكار .

وتعليم اللغة العربية لا يستند في الغالب الى مراعاة وافية لمستويات النمو العقلي خلال مراحل الطفولة ، وصلة ذلك بالنمو العقلي ، لأن الدراسات الدقيقة عن اطفالنا لمّا تتوافر بعد ، بل ان ايسرها وهو مما يتصل بمسح الكلمات الشائعة وانتقاء الفصيحة منها والتعرف على مدى تكررها في الاعمار المختلفة ، قد همت به المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ولمّا تنجزه بعد على صورة يستفاد منها في وضع كتب الدراسة نفسها .

وقد ظلت بعض كتب القراءة لتعليم المبتدئين في بعض انظمة التربية العربية كما هي خلال نصف قرن من الزمان ، لم يطرأ عليها الا تغييرات يسيرة ، ومهما يكن فيها من جهود حميدة فإنّ ما حصل من تطور المعرفة التربوية من ناحية ، ومن تغييرات مجتمعية واسعة وعميقة من ناحية ثانية امور كفيلة بالتطوير والتجديد . وقد كشفت بعض الدراسات الميدانية في بلاد المغرب العربي ان ما تشتمل عليه الكتب المدرسية من المفاهيم الفكرية لا يكاد يصل الى نصف عدد مثيلاتها في كتب الدراسة في بعض البلاد الاوروبية ، كأننا نقنع باعطاء تلامذتنا الالفاظ الفضفاضة ومشتقاتها دون عناية بتزويدهم بما وراءها من الافكار .

ومعروف ان الخلاف لا يزال يدور منذ اكثر من نصف قرن بين المعلمين وبعض التربويين حول المفاضلة بين الطريقة الصوتية والطريقة الجملية في تعليم القراءة للمبتدئين ، ولم يبلغ بعد الداعون الى الطريقة التوليفية التي تجمع بينهما نصيبهم من النجاح في كسب تلك المعركة ، واقرار طريقتهم الجامعة في وضع الكتب الدراسية وفي تدريب المعلمين على ادائها بكفاية وحيوية .

وجاءت الاشارة آنفاً الى ما تحقق من الثورة في تعليم اللغة الانكليزية للاطفال في انكلترا ، وتحقق في الاتحاد السوفياتي مثل هذه الثورة ، فأدت البحوث اللغوية النفسية الى تطوير اساليب تعليم اللغة القومية وترتب على ذلك تقصير مدة الحلقة الاولى من الدراسة الابتدائية سنة واحدة من

اربع الى ثلاث مع الحفاظ على مستويات التعليم وكفايتها . وواجهت الولايات المتحدة مشكلات تعليم اللغة القومية ، على تعدد تلك المشكلات ، واتصال بعضها باحوال التخلف الاقتصادي والاجتماعي والثقافي للزنوج ، فوضعت برامج تحظى برعاية الحكومة الاتحادية وتمويلها، تضاف الى الجهود المتواصلة في تجديد العمليات التربوية وتحسين نوعيتها(٥٤) .

ومع هذا النقص الواضح في تعليم المهارات اللغوية الاساسية للصغار فإن الاساليب المتبعة وكتب القراءة المستخدمة فيها ، كثيراً ما تنقل بحذافيرها او مع تحويرات يسيرة فيها الى ميدان تعليم الكبار في صفوف محو الامية وصفوف المتابعة التالية لها ، مع اختلاف البواعث والخبرات بينهم وبين الصغار ، مما يقتضي تكييف التعليم باهدافه ووظائفه وبمحتوياته واساليبه لخصائصهم واحوالهم ، ويتكرر النقص في تنمية المهارات الاساسية وفي استثمار وظائف اللغة بتمامها كما كانت الحال في تعليم الصغار ، ويمكن ان يتصور المرء ما يهدر من جهود في هذه المشروعات . ويبرز من مصادر هذه المشكلات في الحالين نقص الدراسات اللغوية ، وبخاصة وفقاً للمناهج الحديثة في اللسانيات ، لتكييف خصائص اللغة للمبتدئين في التعليم صغاراً وكباراً ، ونقص الدراسات التربوية لمراعاة حاجات اولئك المبتدئين ومستوياتهم وتكييف طرائق التعليم لها ، ونقص الاعداد للمعلمين ، كمايبرز خط من الانفصام بين العاملين في هذه المجالات الثلاثة ، التي يراد لها الترابط والانسجام .

و ـ **قواعد النحو واصول الادب** : جاءت الاشارة الى نشأة علم النحو في العربية ، وكيف كان في بداءاته يعنى باستقراء كلام العرب واستقصاء نماذجه الفصيحة واستخلاص القواعد منها ، مهما خضعت للاستثناءات ، وهو منهج صحيح ، يجري على الفطرة السليمة في النظر الى اللغة بوصفها ظاهرة اجتماعية ، كما تذهب الى ذلك بعض النظريات الحديثة . ولكن المنطق ما لبث ان تسلل الى الدراسات النحوية ، يسعى الى تفسير القواعد فيها والتماس العلل العقلية لها(٥٥) ، وربما كان ذلك مقبولاً في اول امره ، فلما حصل الاسراف في الاعتماد على قواعد المنطق الشكلية ، حتى اصبحت غاية بذاتها ، عاد النحو بواسطتها الى مباحث اقرب الى الفلسفة منها الى اللغة كما يتداولها المتحدثون بها ، وانحرف هذا العلم على ايدي اولئك المناطقة عن اغراضه ووظائفه واوغل في ميادين غير ميادينه .

« ومما يؤثر عن علماء العربية القدامى قولهم في علوم العربية ان منها ما نضج واحترق ومنها ما نضج ولم يحترق، ومنها ما لم ينضج ولم يحترق . اما الذي نضج واحترق فهو النحو ، واما الذي نضج ولم يحترق فهو علم الرواية واما الذي لم ينضج ولم يحترق فهو علوم البلاغة »(٥٦) .

---

(٥٤) Ebel, ed., *Encyclopedia of Educational Research: A Project of the American Educational Research Association.*

(٥٥) ابراهيم مدكور ، « منطق ارسطو والنحو العربي ، » محاضرة القيت في : مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، الدورة ١٥ ، القاهرة ، ١٩٤٩ ، « محاضر الجلسات في الدورة الخامسة عشرة ، » ص ٣٥٩ ـ ٣٧٣ .

(٥٦) الجواري ، **نحو التيسير** ، ص ج .

« فما زال نحو العربية عند اهلها عسيراً غير يسير ، وعراً غير ممهد منحرفاً الى غير قصده ، لا يخلو من تعقيد ولا يسلم من انحراف . وما زال هذا النحو مثار الشكوى من المعلمين والمتعلمين على سواء . يبدأونه فلا يكادون يبلغون منه غاية او يصلّون فيه الى نهاية . . . كلما توسعوا فيه اتسع امامهم مجاله وتشعبت مسالكه ، فتشغلهم فيه الوسيلة عن الغاية ، واختلط الامر واضطرب ، وصار النحو مشكلة من مشكلات التعليم عند العربي بين طرفين متناقضين ، إما دراسة ضحلة مهلهلة لا يعني فيها المؤلف والمدرس ما يقول ، وإما تلفيق من آثار القدماء لا اصالة فيه ولا تطور ولا تطوير ، ونتف مبتورة من كتبهم لا تغني الدارس ولا تفتح ذهنه ولا تربي فيه ملكة التعبير الصحيح عن نفسه او القدرة على فهم النص فهماً دقيقاً محكماً ، وإما دراسة تقليدية مرهقة مضنية لا ماء فيها ولا رونق ولا ارتباط بينها وبين واقع الحياة العقلية . وانما هي اشبه ، بالنسبة للدارسين ، بازدراد الصخر الصلد لا طعم فيه ولا غذاء ولا فائدة كبيرة . وصار جل امر الدارسين والمدرسين ترديداً لعبارات الاقدمين واستظهاراً لآرائهم وحفظاً لمتون كتبهم وشروحهم »(٥٧) .

بهذه العبارات حدد استاذ جامعي مجمعي اختص بدراسة النحو وبتدريسه، هو د. احمد عبد الستار الجواري ، احوال هذا العلم كما آلت اليه بعد نشأته السليمة الاولى ، وكما يعانيها الطلبة والمدرسون في العهد الحاضر ، وذلك في كتابه **نحو التيسير** وهو دراسة قيمة نافذة في طبيعة النحو ووظيفته وفي اتجاهات تيسيره .

وقد اورد الاستاذ خليل السكاكيني في محاضرة له عن النحو ، يذهب بها الى التخفيف في قواعد النحو والاعتماد على الشواهد ، « فقرتين من تقرير لوزارة المعارف المصرية » ، لعله صدر في اواخر الثلاثينات او مطلع الاربعينات ، جاء فيهما :

« بما ان الوزارة سبق لها ان عملت على تبسيط قواعد النحو والصرف والبلاغة فيما اخرجت من كتب ، وكان لهذا العمل نتيجة مرضية ، وبما ان هذه الخطوة التي خطتها الوزارة في الماضي لم تكن كافية ، اذ انه لوحظ ان صعوبة قواعد النحو والصرف والبلاغة لا تزال قائمة ، وان المعلمين والمتعلمين يبذلون جهداً كبيراً ووقتاً طويلاً في تعليمها وتعلمها ، ولا يصلون بعد هذا كله الى نتائج تتفق مع ما يصرف من زمن وجهد . . . لذلك نرى تشكيل لجنة ، مهمتها البحث في تيسير قواعد النحو والصرف . . . »(٥٨) .

وذكر الاستاذ احمد امين في تعليق له على تقرير عن موقف اللغة العامية من الفصحى جاءت الاشارة اليه آنفاً ما يأتي: « فنحن نعلّم التلميذ والطالب في المدرسة والجامعة قرابة اثني عشر عاماً ثم لا يستطيع بعد ذلك ان يقوّم لسانه ، وهذه هي العقبة الكبرى التي تقف امامنا اذا اردنا ان نعمم التعليم بين طبقات الشعب من فلاحين وعمال »(٥٩) . وتلك ملاحظة من استاذ ذي تجربة طويلة في التدريس بالجامعات يوردها في آخر الاربعينات حينما كان التعليم للنخبة ، وكان للدراسات الانسانية ومنها اللغة العربية منزلة عالية في جداول الدراسة وفي اختيار الطلبة لها ، فتدل على نقص في كفاية تدريسها .

---

(٥٧) المصدر نفسه ، ص ١ - ٢ .

(٥٨) خليل السكاكيني ، « النحو » محاضرة القيت في : مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، الدورة ١٥ ، القاهرة ، ١٩٤٩ ، « محاضر الجلسات في الدورة الخامسة عشرة ، » ص ٣٠٦ - ٣١٨ .

(٥٩) ابو حديد ، « موقف اللغة العامية من اللغة الفصحى ، » ص ٤٧٢ .

وقد شعرت بالحاجة الى تيسير النحو بعض وزارات التربية في الاقطار العربية ، وجاءت الاشارة آنفاً الى تقرير لاحداها ، كما شعر به بعض الباحثين في العصر الحديث كان بينهم الاستاذ ابراهيم مصطفى في كتابه **احياء النحو** فدعا الى الغاء نظرية العامل وعدها مصدر الصعوبات ، ولعله قد تابع ابن مضاء القرطبي في كتابه **الرد على النحاة** كما شعر بذلك بوضوح د. احمد عبد الستار الجواري وبسط آراءه في كتابه **تيسير النحو** مما جاءت الاشارة اليه آنفاً(٦٠) .

ويضاف الى صعوبة النحو صعوبة الصرف والاملاء ، مما كان موضع الشكوى من المعلمين والمتعلمين . ودراسة الادب لا تخلو من الشكلية في كثير من الحالات ، تنحو الى الوقائع التاريخية في حياة الاديب او الشاعر وتعنى بمعاني المفردات ، وتقصر في الكشف عن مواضع البيان واسرار البلاغة في نصوصها ، بل انها تمضي في تفسير الجوانب النفسية في شخصية الناثر او الشاعر وعن نواح تميزه عن اقرانه ومعاصريه ، او تفسير الجوانب الاجتماعية المؤثرة في ادبه بوصفه تعبيراً عن الحياة في زمانه ، وتقف تلك الدراسة في الغالب عند الجوانب المعرفية دون ان تعنى بالجوانب الوجدانية والارادية ، وما تتضمنه من العواطف والقيم والاخلاق ، وقصاراها الحفظ والاستظهار والفهم في احسن الاحوال ، دون التعمق والتذوق والتأثر والانفعال .

وكثيراً ما يكتفي المتعلمون بما اشتمل عليه الكتاب المدرسي المقرر دون ان يكون هو باعثاً لهم على الاستزادة ومتابعة التحري ، والاستقصاء ، جرياً وراء حب التطلع والفهم والمتعة والذوق، كما ينبغي ان تكون وظيفة الادب في دراسته على الوجه السليم .

ويتكرر ما لاحظناه من مصادر هذه المشكلات : نقص في الدراسات اللغوية ونقص في الدراسات التربوية ، ونقص في إعداد المعلمين ، وحظ من الانفصام بين العاملين في هذه المجالات الثلاثة ، التي ينبغي لها الترابط والانسجام .

**ز ـ اللغة العلمية ووضع المصطلحات** : لا يبدو ان عناية تبذل على تدريب الطلبة على ما تتطلبه العلوم المختلفة من اساليب في التفكير وفي التعبير ، ومن منهجيات في تناولها وفي تطبيقها في الحياة العامة ، وحسبهم من فرص التدريب ان يكتبوا موضوعات في الانشاء ، كثيراً ما ترتجل عناوينها وميادينها ارتجالاً .

وللعلوم خصائصها واساليب التفكير والتعبير الملائمة لها ، ومنها الوضوح والدقة وملاحظة الوقائع وتدوينها ، وعرض الافكار بتتابعها المنطقي واستناد بعضها الى بعض ، وقد استشعرت بعض الجامعات في البلاد الصناعية الحاجة الى هذا النوع من التدريب بعد اكتشافها تقصير المتخرجين منها في الفروع العلمية والهندسية في حسن استعمال اللغة ، ومن الكلمات المأثورة في هذا التقصير قول الروائي الانكليزي « باري » عند مطلع القرن العشرين « يبدو ان رجل العلم هو وحده الذي لديه ما يقوله في هذه المرحلة ـ ولكنه الرجل الوحيد الذي لا يعرف كيف يعبر عما لديه من الافكار » ،

---

(٦٠) T.A.Rickard, *Technical Writing*, 2nd ed. (New York: Wiley, 1923), pp. 1-3.

وشكا كثير من رجال الاعمال الامريكيين من قبل نحو خمسين سنة ، من المتخرجين في العلوم التقنية عدم قدرتهم على التعبير كلاماً وكتابة ، فعنيت بعض الجامعات بمعالجة هذا النوع من التقصير[٦١] . ويبرز بين مشكلات العلوم الحديثة مشكلة وضع مصطلحاتها في العربية ، وقد بذلت جهود محمودة في هذا السبيل دلت على كفاية اللغة العربية باستيعاب هذه المصطلحات بوضع ما يقابلها ، نهضت بها المجامع الثلاثة في دمشق والقاهرة وبغداد ، وانما تلاحظ الحاجة الى تنمية الاتفاق في اساليب وضعها ، وضعف التنسيق بين المؤسسات المعنية بها ، وقلة الانتاج ازاء تفجر المعرفة العلمية وتنامي مصطلحاتها ، والعقبات القائمة في سبيل اذاعة ما يوضع منها واشاعة استعمالها . كما يلاحظ ضعف الحوار بين المتخصصين باللغة العربية والمتخصصين بالعلوم الحديثة وحاجة كل جانب الى الاخذ بنصيب من تخصص الجانب الآخر وتقدير ابعاده ومفاهيمه ونظرياته .

**ح ـ الثقافة العامة واجهزة الاعلام** : وعلى الرغم من وفرة ما تنتجه المطابع في السنين الاخيرة من المنشورات باللغة العربية ، قياساً على عدد ما انتجته عند منتصف القرن العشرين فإن المستويات في قيمتها الثقافية تتباين كثيراً ، وما يصدر عن الثقات في شؤون الفكر والثقافة يطغى عليه في الكثرة ما يكتبه البداة ، سواء ما كان منه ترجمة او تأليفاً ، فيضيع الجيد في غمار الرديء ، ويفتقد الشباب من يهديهم بين تعدد التيارات وتعارضها وبين تفاوت قيمتها الى مكامن الجودة والقوة في الانتاج .

وتؤلف وسائل التواصل الجماهيرية ـ وسائل الاعلام ـ سلاحاً ذا حدين فهي ـ كما يمكن ان تذيع نماذج طيبة من الثقافة ، وتيسر للمواطنين استيعابها بيسر وسهولة ، فإن اخطاءها حين تحصل ، سواء في اساليب التعبير او في محتوياته تؤدي الى نتائج سيئة ، لا يسهل ادراك آثارها في العقول والنفوس . وتبقى مسألة استعمال اللهجات العامية في كثير من الاذاعات مصدر خطر على العربية الفصيحة ، يرسخ تلك اللهجات وما يترتب عليها من الضعف ومن التجزئة ، ويعطل انتشار الفصيحة وجريانها في الخواطر وعلى الالسنة وعلى الاقلام .

ولا تخفى مكانة اللغة العربية الفصحى بين الشعوب الاسلامية ، وتعلقها بها وحاجتها اليها ، فهي لا تستغني عن طرف منها في صلواتها اليومية وفي كثير من اصول عباداتها ، وقد أثّرت في كثير من لغاتها وادابها ، فالعربية بهذه الصلوات تؤلف رابطة عالمية وسبيلاً لتوثيق علاقات الامة العربية بالشعوب الاسلامية خاصة ، وقد عنيت بعض الاقطار العربية بهذه الناحية وتولت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم اعداد برنامج لنشر الثقافة العربية في خارج الوطن العربي ، وبخاصة بين الدول الافريقية ، ولكن الشوط ما يزال طويلاً والمجال واسعاً لمزيد من الجهود الجادة والمخطط لها ومراعاة الجوانب الثقافية والسياسية في تنمية العلاقات العربية الاسلامية وتيسير تعلم العربية بين الشعوب الاسلامية ، ومنها من يتطلع الى ذلك ويحرص عليه .

---

(٦١) المصدر نفسه .

## خامساً : اعتماد العربية الفصيحة لغـة للتعليم في الوطـن العربي، السياسة التربوية ومسارات تحقيقها في الواقع

على هدي من العرض السابق بأقسامه المتتابعة ، وتقديراً لمكانة اللغة العربية وخصائصها واستثماراً لجوانبها التربوية ، لتكون اداة فعالة في التعلـم والتعليم ، تتغلب على المشكلات القائمة في الانظمة التربوية ومنها شيوع اللهجات العامية فيها ونقص كفايتها ، ومراعاة لوظيفتها بوصفها رابطة قومية يلتقي عندها ابناء الامة العربية فترسخ بينهم وحدة الفكر والثقافة وهي الاساس لوحدتهم الشاملة ، واعتزازاً بمنزلتها بوصفها لغة عقيدة تجتمع عليها الشعوب الاسلامية وتعمل على تبليغ رسالتها الخالدة للانسانية جمعاء .

وتنشأ الحاجـة الى اعتمـاد سياسـة تربويـة واضحـة وشاملـة لاعتماد اللغة العربية الفصيحـة لغـة للتعليـم فـي جميـع مراحلـه وجميـع ميادين الدراسة فيهـا ، تستوفـي ابعادهـا ، ويتـم تعيين المسارات الرئيسية لتطبيقها وتتضافر الجهود على الصعد القطرية وعلى الصعيد القومي للوطن العربي لمتابعة تنفيذها ، حتى تؤتي ثمارها في المؤسسات التربـوية جميعها ، فتسري آثارها منها الى الحياة العامة في مجالاتها كافة ، لتصبح الفصيحة تدريجاً لغة تواصل بين المواطنين كما هي لغة تعلم بين المتعلمين ، وتغنى بها الثقافة العربية المعاصرة ادباً وعلماً وأساليب في الحياة ، كما غنيت بها في الماضي عند ازدهار الحضارة العربية الاسلامية في عصورها الزاهية ، وتبذل الجهود لتمكين الشعوب الاسلامية من تعلمها وتوثيق الروابط الثقافية بواسطتها معها .

ولا يخفى ما ينطوي عليه جميع ذلك من مهمات جليلة تتعـدد جوانبهـا وتتعقد مسـائلها وتستدعي تضافر الجهود في التصور والتخطيط وفي التدبر والتدبير ، وفي الصحائف التالية اجمال للابعاد العامة لتلك السياسة التربوية وايجاز للمسارات الرئيسية لتحقيقها .

### ١ ـ الابعاد العامة للسياسة التربوية

**أ ـ تحديد معنى الفصيحة :** تنطلق السياسة التربوية من تحديد معنى اللغة العربية الفصيحة وتحديد الاهداف المتوخاة من اعتمادها لغة للتعليم في جميع مراحله وجميع ميادين الدراسة فيها .

فأما الفصيحة فتستمد من الفصحى ذاتها ، فإذا كانت الفصحي هي لغة القرآن الكريم والحديث الشريف ، وما يتلوهما منزلة مما جاء في الادب العربي شعراً ونثراً في العصر الجاهلي وعصر صدر الاسلام ، وما اقتصرت على تدوينه المعاجم المثبتة ، فإن الفصيحة اذ يراد لها ان تكون لغة جميع المتعلمين وهم في المستقبل القريب باذن الله جميع المواطنين من ابناء الامة العربية ( فذلك هو هدف التربية العربية قبل نهاية القرن العشرين ) . انما تكون صيغة ميسرة متطورة ، تتمسـك باصول الفصحى وتحافظ على طبيعتها ولا تخرج عن اسس تكوينها ، وانما تستوعب التطورات

السليمة التي طرأت عليها خلال عصور ازدهارها وتتفتح وفقاً لأصول الفصحى نفسها وامكانياتها للوفاء بالحاجات الحضارية المتجددة ، فالفرق بينهما فرق في الدرجة لا في النوع ، وفي اطراد نمو البنية الحية وتكيفها لمطالب الحياة ، لا في جوهر التكوين واسسه الراسخة ، وهو فرق تستدعيه الحاجة الى الشيوع بين ابناء الامة كل منهم ينال نصيبه المقدر منه ، ومراعاة ان اللغة ظاهرة اجتماعية تؤثر فيها عوامل التطور وفاء بالحاجات الاصيلة للمتكلمين بها ، وهو تطور يخضع للضوابط التي تفرضها طبيعة اللغة واسس تكوينها . فمن المشكوك فيه ان الفصحى ، كما جاء تعريفها آنفاً في ذلك المستوى الرفيع لها قد كانت لغة جميع العرب في صدر الاسلام لا يقنعون منها بفهمها وانما يتعدون ذلك الى التعبير بها عن افكارهم ومشاعرهم كما يعانونها في حياتهم اليومية على اختلاف مستوياتهم وحظوظهم في المعرفة وفي الملكة وفي الذكاء . واذا كان ذلك الشك قائماً ، فمما يفرضه الواقع الا نطمع من عامة الامة بعد اكثر من اربعة عشر قرناً من الزمان ان يبلغوا ذلك المستوى الرفيع لا في فهم الفصحى فحسب ، بل في التعبير بها في حياتهم الفكرية وفي حياتهم اليومية تعبيراً يتجاوز الاعادة والتكرار الى الابداع والابتكار. وقد خضعت العربية ، وهي ظاهرة اجتماعية ، لنواميس التطور ، فتبدلت بمرور الزمن ، وقد كان لها من سلامة التكوين وجودة الاصول ما جعلها في خير حالاتها تحافظ على سلامتها ولا تنحرف عن جوهرها ، فكان تطورها استمراراً في وجودها وليس انقطاعاً عن جذورها وكما حصل في كثير من اللغات غيرها . وقد تغيرت مطالب الحضارة ونشأت فيها حاجات لم تكن معروفة من قبل . ولا بد للغة العربية ان تستجيب لها وان توفي مطالبها ، وللمتخصصين في العربية ان يتفقوا على الضوابط التي يجب ان تراعى في صيغ التطوير .

ومن الطبيعي ان يتفاوت المواطنون وقد تعلموا بالعربية الفصيحة في المدارس وألفوا تلقيها في وسائل التواصل الجماهيرية وفي المنشورات الثقافية كما يؤمل لهم ، من الطبيعي ان يتفاوتوا في انصبتهم منها ، لا بذخيرتهم من مفرداتها فحسب ، بل بأساليبهم في التعبير بتلك المفردات ، وفقاً لتفاوتهم في مستوى التعليم والثقافة ، وفي مستوى القدرات واختلاف التخصصات ، وانما يؤمل ان يبلغ نصيب كثيرين منهم مستوى جديراً بأن يوصف بأن العربية الفصيحة تجري له مجرى السليقة وان يرتفع بعضهم الى شأو عالٍ في الابداع يقارب مستوى الفصحى في خصائص الفصاحة والبلاغة والبيان .

ومهما يكن من امر فإن الفصيحة التي جاء وصف معالمها تنسج على منوال الفصحى في اصولها وسلامة تكوينها ، بل لعل التيسير المنشود فيها يجري على ما هو ماثل في الفصحى وما عرف في امثلتها الرفيعة من يسر وسهولة ، وان تكن من النوع الممتنع ، وهي اذ تنسج على منوال الفصحى لتختلف اختلافاً بيناً عن اللهجات العامية ، وما تتسم به من الانحراف في النطق والقواعد والاساليب وشيوع الدخيل فيها ، واغفال الاعراب في مفرداتها .

ب ـ **تحديد الاهداف** : ولا يستغنى في كل سياسة تتصدى لعمل جليل كالشأن في اعتماد

اللغة العربية الفصيحة من وضوح الاهداف المتوخاة منها ، لكيما تستوفي متضمانتها في التخطيط على تعدد مستوياته ، وتكون موجهات للعمل ومعايير لتقويمه ، واقترحها على الوجه الآتي :

ـ تعمق خصائص اللغة العربية الفصحى ووظائفها في حياة الامة العربية ، والحفاظ على سلامتها واستثمار امكانياتها في التطور للوفاء بالحاجات الحضارية المتجددة .

ـ تنمية اللغة العربية الفصيحة لتوثيق الروابط القومية بين ابناء الامة وحسن استثمارها في ارساء وحدتها الفكرية سبيلاً لوحدتها الشاملة .

ـ تطويرها بوصفها اداة فعالة للتعليم وتيسير تعلمها للمتعلمين وتمكينهم من حسن استثمارها في تربية انفسهم وتنمية شخصياتهم فكراً ووجداناً وارادة وعملاً .

ـ تمكين المتعلمين بواسطتها من فهم القرآن الكريم والحديث الشريف والتراث الفكري العربي ، وتشرّب ما فيها من القيم والفضائل الانسانية والمواقف العقلانية وتمثلها في السلوك .

ـ تنميتها بوصفها وعاء للثقافة العربية بخصائصها القومية معبرة عن حياة الامة وتطلعاتها الى التقدم وعن معالم شخصيتها .

ـ تنميتها لتكون اداة في استيعاب العلم الحديث وتطبيقاته وفي المساهمة في تطويره ، ومراعاة ما يقتضيه من الدقة والوضوح وتحديد المفاهيم والمصطلحات .

ـ اشاعتها في الحياة العامة وسيلة للتفكير والتعبير والتواصل بين المواطنين ، في نطاق الاسرة ونطاق العمل والنشاط المجتمعي عامة .

ـ اعتمادها اداة فعالة في ابداع الآداب وابتكار العلوم وتطبيقاتها ، واغناء الثقافة العربية المتميزة والعلم العربي المتخصص بالآثار الادبية والعلمية في مختلف مجالاتها . فلا يكفي افتراض ان هذه الاهداف متضمنة بمجرد اعتماد الفصيحة لغة للتعليم ، بل يجب تحديدها بمثل هذا الوضوح لتتم متابعة متضمناتها جميعاً على ما بينها من التداخل والتفاعل ولتوجه الاجراءات المناسبة لتنفيذ السياسة ، وعلى ان تعين تفصيلاتها مستوى بعد مستوى .

ج ـ **الشمول والتكامل** : تقديراً للتفاعل بين الجوانب المختلفة للانظمة التربوية بعضها ببعض ، ولتفاعلها مع مجتمعها اخذاً وعطاء ، تأثراً وتأثيراً ، فإن السياسة التربوية لاعتماد العربية الفصيحة لغة للتعليم انما تؤلف في خير صورها جزءاً من سياسة تربوية اوسع تعنى بالتجديد الشامل للانظمة التربوية في نطاق التنمية الشاملة للوطن العربي ، وقد سبق للبلدان العربية سنة ١٩٧٨ ان اقرت ما يتطلبه ذلك من سوقيات ( استراتيجية ) لتطوير التربية العربية ، كما وضعتها لجنة انتدبتها لهذه المهمة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم[٦٢] .

(٦٢) جامعة الدول العربية ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، **استراتيجية تطوير التربية العربية : تقرير لجنة وضع استراتيجية لتطوير التربية في البلاد العربية** ( بيروت : المنظمة ، ١٩٧٩ ) .

ويكفي ان نقدر ان سياسة اعتماد العربية الفصيحة لا تستغني عن سياسة في اعداد المعلمين لمختلف المراحل ليكونوا مؤهلين للنهوض بمهمات تعليم العربية الفصيحة ، وان تلك السياسة تحتاج ايضاً الى تعاون اجهزة الثقافة ، لنعلم ان الشمول والتكامل بين هذه الجوانب المختلفة امر لا يستغنى عنه ، في مستوى التصور العام وفي مستوى التخطيط والتنفيذ في مراحل متتالية ولا يعني هذا ان يقف المعنيون بتلك السياسة مكتوفي الايدي ريثما تستكمل الجوانب الاخرى جميعها ، بل ان امامهم ان ينهضوا بما تتطلبه سياستهم من برامج عمل مراعين ان تلتقي مع برامج اخرى ما امكن ذلك ، كلما كان التخطيط الشامل لهاوافياً .وهكذا فإن مثل هذه الاعمال الجليلة تحتاج الى تضافر الجهود وتفاعلها في مجالات متعددة يدعم بعضها بعضاً باستمرار ، ولا بد من مراعاة ما يقتضيه ذلك من تخطيط واجراءات .

**د ـ التعاون على الصعيد القطري وعلى الصعيد القومي** : لا يستغنى في تنفيذ السياسة التربوية لاعتماد العربية الفصيحة لغة للتعليم عن التعاون الوثيق بين المؤسسات بعضها مع بعض ، وبين العلماء المتخصصين في اللغة العربية وفي التربية وفي العلوم على تعدد ميادينها ، بعضهم مع بعض على الصعيد القطري ، بل ان العمل على الصعيد القطري لا يفي باهداف السياسة ، كما جاء وصفها آنفاً. وبمتابعة متضمناتها ، فلا بد من تعاون بين المؤسسات وبين العلماء على الصعيد القومي ، واحسب ان المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم هي المعنية بحكم اختصاصاتها بتنظيم هذا التعاون على الصعيد القومي خاصة ، ومن المساهمة في النشاط المطلوب على الصعد القطرية كلما طلب منها ذلك ، تساعدها المجامع والجامعات والاتحادات العربية المعنية .

٢ ـ رسم المسارات ( السوقيات الاستراتيجية ) لتحقيق السياسة التربوية ـ لا معدى في رسم السياسات في مختلف مجالاتها ، من الاجمال وتناول الابعاد العامة ، على ان يتلو ذلك في اساليب التخطيط الحديثة رسم المسارات الرئيسية لتحقيقها ـ يراعى فيها متطلبات الواقع وما يشتمل عليه من احتمالات وما يقتضيه من بدائل لمواجهتها ، وهذا هو ما يوصف في مصطلحات تلك الاساليب في التخطيط بالسوقيات ( الاستراتيجية ) يتلوها التخطيط وفيه يُبلغ حظ اكبر من التحديد ، ويعنى بالاجراءات في التطبيق في نطاق البرامج والمشروعات . ونتناول العناصر الرئيسية في السوقيات ( الاستراتيجية ) الملائمة لتحقيق السياسة التربوية بشأن اعتماد اللغة العربية الفصيحة لغة للتعليم في جميع مراحله وجميع ميادين الدراسة فيها ، بمراعاة ما سبق ذكره في الاقسام السابقة من اتجاهات فكرية ومن انجازات ومن مشكلات ، وذلك على الوجه الآتي :

## أ ـ القرار السياسي والتشريع

(١) ان عملاً جليلاً متعدد الجوانب متواصل الحلقات في التنفيذ ، يستند الى تعاون المؤسسات والمتخصصين في مواجهة مشكلات على حظ من التعقيد ، يتطلب قراراً سياسياً على مستوى الدولة ، يحدد معالم السياسة التربوية لاعتماد العربية الفصيحة ، ويجمل اهدافها

والمجالات والوسائل الرئيسية لتحقيقها ، على ان يشفع ذلك القرار بتشريع على حظ من التحديد وتوفير الاسانيد اللازمة للتنفيذ .

ولعل ما وضعته حكومة الثورة في العراق في قانون الحفاظ على سلامة اللغة العربية برقم ٦٤ لسنة ١٩٧٧ ، وقد جاءت الاشارة اليه آنفاً ، يعد مثالاً طيباً لهذا التشريع . ولمّا كان ذلك القانون قد روعي فيه الحفاظ على سلامة اللغة العربية بصورة عامة ، فإن سياسة اعتماد العربية الفصيحة لغة للتعليم قد تقتضي مزيداً من التحديد والتفصيل لتحقيقها في نطاق المؤسسات التربوية نفسها ، وبالتعاون مع المؤسسات الاخرى في المجتمع ، ومزيداً من الانفتاح على التعاون على الصعيد القومي مما تتطلبه طبيعة المهمة الجليلة بتمامها .

(٢) **التعريب** : اصبح التعريب بمعنى اعتماد العربية لغة للتعليم سياسة مقررة في الاقطار العربية كافة ، ويبدو ان العقبات التي يدعى انها تعطل تحقيقه مثل عدم توافر المدرسين والكتب والمراجع ووضع المصطلحات ، مبالغ فيها ، ولا تقتضي الوقوف موقف التلكؤ والابطاء ازاءها ، فالامر يتطلب مواجهة ثورية ، كما حصل في العراق فيما يتعلق ببعض الفروع العلمية والتقنية من التعليم العالي ، وقد اشير اليه آنفاً ، ونحسب ان جهوداً جادة ومنظمة تبذل في بعض اقطار المغرب العربي، وانما يراد لها ان تتكاثر وان تتسم بالثورية في مواجهة المشكلات التي تعترضها ، ويصدق ذلك على مؤسسات في اقطار عربية اخرى ، ويجدر ان يطبق على هذا الميدان مبدأ قومية العمل العربي ، والمشاركة الواسعة في تبادل المدرسين والكتب العلمية والمترجمة والمصطلحات وفق خطة منظمة .

(٣) **المصطلحات العلمية وتنمية البحوث والترجمة والتأليف في العلوم الحديثة** : ويتطلب الامر : (أ) تطوير المنهجيات العلمية لوضع المصطلحات ودعوة المؤسسات المعنية لتبنيها وتطبيقها ؛ (ب) دعوة المؤسسات المعنية وبخاصة المجامع والجامعات الى مضاعفة جهودها والتنسيق بينها ، ولا بد من ان يكون لاتحاد المجامع العربية ولاتحاد الجامعات العربية ولمركز التعريب جهود بارزة في التنسيق وتبادل الاعمال ؛ (جـ) تنمية وسائل نشر المصطلحات وتبادلها وتيسير اشاعتها ؛ (د) تنمية جهود الترجمة والتأليف للكتب العلمية مراعى استيعابها للمصطلحات كما يتم وضعها واقرارها ؛ (هـ) توثيق التعاون بين المتخصصين في اللغة العربية والمتخصصين في العلوم الحديثة ، فكراً وتطبيقاً ، ومعرفة كل فريق بالابعاد العامة والمناهج الاساسية والنظريات الرئيسية للفريق الآخر ، وتكوين سبل التواصل والحوار المتعمق بينهم .

يتم جميع ذلك في نطاق سياسة اشمل لتنمية البحث العلمي وجعله متصلاً بالمشكلات والحاجات القومية وتطويعه لمطالب التنمية وارساء اسس التقنية الحديثة في الوطن العربي .

(٤) **البحوث والدراسات اللغوية** : تنشأ الحاجة الى تنمية الدراسات والبحوث اللغوية كشفاً عن خصائص العربية وابرازاً لمزاياها ، سعياً لجعلها وافية بمطالب تقدم المعرفة العلمية وتطور الحضارة ، وتيسير تعلمها بين الناشئين

وتمكينهم من اتقان الفصيحة منها . ومن هذه الدراسات ما يعتمد المنهجيات العلمية الحديثة في اللسانيات ، والعناية بتيسير النحو والصرف والاملاء ، ويبرز في مجال النحو خاصة متابعة ما بلغته بعض الدراسات ومن بينها كتب د. احمد عبد الستار الجواري : **نحو التيسير ونحو القرآن ونحو الفعل** ، فهي تصدر عامة من العناية بتركيب الكلام وتناول الجملة بتمامها ، واتخاذ الاعراب سبيلاً للابانة عن مواقع الكلمات ودلالاتها فيها ، مما يعني به علم المعاني ، والعودة بالنحو الى مناهله الاولى عناية باللغة الحية وتقدير وظائفها الاجتماعية وامكانية تطورها ، للوفاء بالحاجات المتطورة ، وان يتخذ منطلقه من القرآن الكريم في سلامة عباراته ويسرها على الافهام وسلامة اساليبه ، وتخليص النحو من كثير من شكلياته وتعليلاته المنطقية الخالصة ، واحسب ان ذلك مما يتفق بعضه مع اتجاهات اللسانيات الحديثة[٦٣] .

وتنشأ الحاجة الى معاجم متدرجة في وفرة المفردات وتعريفاتها ، معنية بتطوراتها ودلالاتها المعاصرة .

(٥) **بحوث تربوية** : تشتد الحاجة الى بحوث نفسانية ، اجتماعية ، تربوية تعنى خاصة بالنمو اللغوي لدى الاطفال وصلته بالنمو العقلي بينهم ومتابعة متضمناته في تعلم اللغة . ويجدر ان تلتقي هذه الدراسات مع الدراسات اللغوية وفقاً لمناهج مباحث اللسانيات خاصة اغناء لعلم اللغة النفسي وتأكيداً لمعالجة الظواهر النفسية والاجتماعية بما يستدعيه تداخل الفروع العلمية وتعاونها ، كما تشتد الحاجة الى دراسة آثار العوامل الاجتماعية في نطاق الاسرة وخارجها في التعلم وفي اكتساب اللغة خاصة .

ولا بد من رصد ذخيرة الاطفال اللغوية وتصنيفها وفقاً للاعمار والاقطار وتعيين مفردات الفصيحة منها ، وجعلها مصدراً لوضع المناهج وتأليف كتب القراءة والمطالعة للمبتدئين خاصة ، والشأن في هذه الدراسات كالشأن في المباحث اللغوية من حيث ان يشارك فيها المتخصصون في ميادين متعددة ، لغوية ونفسية واجتماعية وغيرها.

(٦) **تطوير مناهج الدراسة وطرائقها ووسائلها** : وانما يتم تطوير مناهج الدراسة في اللغة العربية في نطاق جهود اشمل لتطوير المناهج عامة ، انطلاقاً من الاهداف العامة للتربية ، ووفقاً لمنهجيات علمية ، تتحدد فيها اغراض كل ميدان من ميادين الدراسة ، ويشمل التطوير ما تقتضيه المناهج من طرائق ووسائل تعليمية بما في ذلك كتب الدراسة ، ويستفاد من الدراسات العلمية الآنف ذكرها .

ويراعى في تطوير مناهج اللغة العربية تقويم الاحوال الحاضرة ونقدها نقداً نافذاً تستوفى فيه الملاحظات العامة التي ابديناها في القسم السابق من هذه الدراسة من ناحية ، ونتائج البحوث اللغوية والتربوية المقترحة آنفاً من ناحية ثانية ، ويؤكد فيها على العربية الفصيحة ، وان تكون هي

---

(٦٣) احمد عبد الستار الجواري ، نحو القرآن ( بغداد : المجمع العلمي العراقي، ١٩٧٤ ) .

المعيار الذي يعتمد في تقويم تحصيل الطلبة وجهود المعلمين ، ويراعى ان تكون المسؤولية في ذلك مسؤولية مشتركة بين المعلمين كافة ، فلا تقتصر على معلمي اللغة انفسهم ، ينهضون بها على تعدد ميادين تخصصهم ويكيفونها وفقاً لمطالب ذلك التخصص حيثما استدعت الحاجة الى ذلك التكييف .

(٧) **اعداد المعلمين** : لا شك ان المعلم هو الركن الاساسي في اية محاولات جادة وشاملة لتجديد الانظمة التربوية وتجديد الاداء فيها وتحسين كفايتها ، وهو كذلك في تعليم اللغة القومية على وجه التحديد ، حيثما كانت المسؤولية فيها لا تقتصر على معلم اللغة وانما تشمل المعلمين كافة .

وتطوير اعداد المعلمين في الوطن العربي مطلب رئيسي تشتد الحاجة اليه . والعناية باللغة العربية الفصيحة ، بالنسبة للمتخصصين بها وغيرهم من معلمي المواد المدرسية الاخرى ، عنصر اساسي في التطوير عامة ، وبالسياسة التربوية باعتماد العربية الفصيحة التي نحن بصددها ؛ ولا حاجة الى التأكيد ان يكون ذلك الميدان هو الميدان الرئيسي لاستيعاب نتائج الدراسات اللغوية والتربوية المقترحة آنفاً . وتوجه عناية خاصة باعضاء هيئة التدريس في الجامعات ومؤسسات التعليم لتجاوز اية صعوبات تنشأ من اكمالهم تحصيلهم المتخصص في الجامعات الاجنبية ومن حاجتهم لتوفير المصطلحات العلمية في تخصصاتهم ، وتمكينهم من المساهمة في وضعها واذاعتها .

(٨) **التقويـــم** : والدعوة الى تطوير اساليب التقويم تأتي هنا على مستويين ، مستوى تقويم تحصيل المتعلمين والتحقق من بلوغهم للاغراض التربوية المقصودة في تربيتهم ، وبخاصة ما يتعلق باللغة الفصيحة نفسها ، ومستوى تقويم الجهود التربوية ذاتها كما هي ماثلة في المعلمين وفي المدارس والمؤسسات ، ومدى ما يتحقق لها من كفاية الاداء وتوفير المناخ الملائم للتعلم وتنمية قدرات المتعلمين وشخصياتهم عامة ، والتحقق من استيعابها للاهداف التربوية العامة ، بما في ذلك تنمية الروح الوطنية والقومية بينهم وتنشئتهم على اعتماد الفصيحة لغة للتفكير والتعبير في شؤون الفكر وشؤون الحياة عامة .

(٩) **اللغات الاجنبية** : وقد يبدو غريباً في مشروع يخصص للغة العربية الفصيحة ان تشتمل الدعوة اليه دعوة الى تعليم اللغات الاجنبية ، ولكن ذلك مما يتطلبه تنظيم الدراسات لدواع متعددة ، على رأسها التفاعل الحضاري واستيعاب الثورة العلمية والتقنية التي تشهدها الحضارة المعاصرة والانفتاح على الفكر الانساني ، ففيها من المادة العلمية والثقافية ما لا يستغني عنه المتعلمون ولا تستغني عنه الامة العربية في نهضتها وسعيها لمواكبة الحضارة المعاصرة والمساهمة فيها وتوجيهها وجهاتها السليمة . وليس نقصاً في اللغة العربية ان يحتاج ابناؤها متابعة تفجّر المعرفة العلمية في لغات اخرى غيرها ، وانما النقص في المؤسسات العلمية المعنية بالبحث العلمي في الوطن العربي ، ومن الباحثين المتخصصين فيها وفي خارجها ، فما تزال هذه المؤسسات وما يزال هؤلاء الباحثون ، لمّا يستكملوا بعد مستلزمات البحث العلمي ووسائله وموارده ، يشهد على ذلك ضآلة انتاجهم في جميع مجالاته . بل ان الدول الصناعية نفسها تحرص على ان يتقن المتعلمون فيها

لغات اجنبية ، بالرغم مما يتوافر فيها من ذخائر البحوث العلمية من انتاج باحثيها او مترجمة عن غيرها ، اذ ان الاطلاع المباشر في لغة اجنبية او اكثر يفترض ان يكون من ادوات الباحثين لا يستغنون عنه ، وهم يشترطون في طلبة الجامعات خاصة اتقان لغة اجنبية او اكثر . والانتاج العلمي لا يقتصر على لغة واحدة ، وانما يتعدد ويتنوع بتعدد بعض اللغات الحديثة في الدول الصناعية وتقدم العلوم والتقنية فيها ، ففي كل منها جديد في العلم ليس في الاخريات ، فما اولانا نحن في هذه المرحلة من مراحل نهضتنا ان نحرص على ان يتقن المتعلمون بيننا لغة اجنبية ، ولنا اسوة حسنة فيما حصل للحضارة العربية الاسلامية حين استجاب المسلمون منذ صدور الدعوة وحضّها اياهم الى طلب المعرفة والاستزادة منها اياً كانت ، وانفتحوا على الحضارات الاخرى وما فيها من ذخائر العلم والفلسفة.

وانما يلاحظ ان الحاجة قد تدعو الى تأجيل تعلم اللغات الاجنبية حتى الدراسة الثانوية ، ويعفى منها تلامذة المدارس الابتدائية ، ترسيخاً للغة القومية بينهم ، وحرصاً على ان تكون البداءة في تعلم اللغات الاجنبية مستندة الى اسس متينة في المناهج والطرائق والكتب ، وعلى ايدي معلمين ذوي كفاية عالية . فمثل ذلك يحصل في البلاد الصناعية نفسها ، كما يلاحظ ان يكون تعلم اللغات الاجنبية متقناً وممتداً حتى الدراسة العالية ، فهي من لوازمها ، وان تتنوع هذه اللغات بيننا فلا تقتصر على الانكليزية والفرنسية ، بل تشمل الالمانية والروسية والايطالية واليابانية وغيرها . ان مما يدعم حرصنا على اعتماد العربية الفصيحة في التعليم ، وحرصنا على تطوير هذا التعليم في منهجياته ومحتوياته ان تنصرف عنايتنا الى تنمية تعلم اللغات الاجنبية الحديثة واتقانها وتجويدها وتنويعها ، باعتبارها سبيلاً لمتابعة تطور البحث العلمي وتفجر المعرفة في ميادينه وسبيلاً للانفتاح على الثقافات الانسانية وميادين ابداعها ، وتطوير التعاون بين الشعوب لخير القضايا العربية وخير الانسانية ، فضلاً عن فوائدها العملية في التجارة والسياحة والعلاج . ولن تستقيم الدراسات العالية في اي فرع من تخصصاتها بيننا بدون فرص الاطلاع المتواصل على نتائج البحث العلمي المتطور باستمرار ، والاداة الفعالة والسبيل الميسرة لذلك انما هي اللغات الاجنبية الحديثة . وتظل المسألة العملية قائمة وهي تتعلق بالاساليب الصحيحة لإتقان اللغات الاجنبية وتيسير تعلمها .

(١٠) **اللهجات المحلية** : اذا استثنينا القرار السياسي وما يوفره من السند التشريعي ، وهو منطلق وأساس لجملة العناصر السوقية التي نعرضها ، فإن المسارات السابقة جميعها مما تنتظم الجهود فيها داخل الانظمة التربوية المدرسية ومؤسساتها ، وتتصل بالبحوث والدراسات وبتطوير العمليات التربوية من حيث مناهجها وطرائقها ووسائلها واساليب تقويمها . وقد آن ان نحدد مسارات اخرى تشارك فيها مؤسسات مجتمعية اخرى ، مهما كان للانظمة المدرسية مساهمة فيها ، وعلى رأس هذه المسارات مواجهة اللهجات المحلية في الوطن العربي على تعددها .

واذا كان التعريب يواجه الخطر الاكبر الماثل في اعتماد لغات اجنبية بدلاً عن العربية اداة للتعليم ، فإن وضوح السياسات التربوية بشأنه ، والجهود المبذولة في ميادينه ، قد ضيق الخناق على ذلك الخطر ، وقصره على مؤسسات بعينها او على ميادين دراسية محدودة ، يؤمل ان تكسبها

معركة التعريب في مدة قريبة ، باذن الله ، ليظل الخطر الكبير الذي يواجه العربية الفصيحة في معاهد التعليم وفي الحياة العامة على السواء ، انما يمثل في اللهجات المحلية ، وتأتي وسائل مواجهة مشكلاتها على مستويين : مستوى الاجراءات التنموية التربوية ومستوى الدراسات العلمية .

فقد جاءت الاشارة الى صلة اللهجات المحلية بالامية خاصة وبأحوال التخلف عامة من ناحية ، وصلتها بنزعات التجزئة ودعوات الاقليمية من ناحية ثانية . وترتب على ذلك ان يكون من وسائل معالجتها ما يوصف بمحو الامية الحضاري ، وقد شدد على الدعوة اليه د. محيي الدين صابر المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، والجهاز العربي لمحو الامية وتعليم الكبار فيها . ومما يقتضيه ان تأتي الجهود لمحو الامية في اطار واسع من خطط التنمية الشاملة ومشروعاتها ويقصد تجاوز التخلف باعتباره الرحم الذي تنشأ فيه الامية والعقبة الكأداء في سبيل تحقيق الانسان لإنسانيته بتمامها . ومحو الامية الحضاري بجوانبه التربوية لا يقتصر على تعلم مهارات القراءة والكتابة والحساب ، وانما يمتد لتكون هذه المهارات سبيلاً لمواصلة التعلم اعتماداً على الجهود الذاتية بصورة مجدية متصلة بحاجات المتعلم مستمرة مدى الحياة ، ويعني ذلك ارساء الاسس لتعليم الكبار وتطويره بوصفه نظاماً موازياً للنظام المدرسي يتيح للكبار تنمية قدراتهم على التعلم واستثمارها في خير حياتهم وخير مجتمعاتهم وامتهم .

ان محو الامية الحضاري وما يترتب عليه من نظام لتعليم الكبار ، كفيل ان يرفع مستويات المواطنين اجتماعياً واقتصادياً وثقافياً ، وان يمكنهم من الانتقال مهما كان ذلك تدريجياً من فرط التعويل على اللهجات العامية الى الاستعداد لاعتماد العربية الفصيحة لغة للتعلم ولغة للكلام في شؤون الحياة .

ويجب ان تواجه الدعوات لتبني اللهجات العامية ، بما يكشف عن زيفها ويبرز اخطارها وصلتها بالنزعات الاقليمية وبالمؤسسات الاجنبية التي تحض عليها ، وبترسيخ التجزئة بين اقطار العروبة وتمزيق شملها .

اما مستوى الدراسات العلمية، فتتناول اللهجات المحلية للتعرف على خصائصها وحصر مفرداتها واساليبها ، وبقصد ردها في كثير من حالاتها الى الفصيحة ، وتصويبها . وليكون شيوعها بعد تصحيحها جانباً لقوتها والاستفادة منها ما امكن بعد التحقق من فصاحتها ، مصدراً في تعليم الناشئين ـ وستكون مساهمة المدارس حين ينهض جميع معلميها بمسؤولياتهم في تعليم العربية الفصيحة الاداة الفعالة في حصر آثار العامية وفي تضييق الخناق عليها تمهيداً للخلاص منها في المؤسسات التربوية خاصة ، ثم في الحياة العامة .

(١١) **الثقافة واجهزة التواصل الجماهيرية** : تتعدد الصلات بين التربية وبين الثقافة ، وبين كل منهما وبين العلم الحديث . وتنشأ من تلك الصلات تأثيرات متبادلة باستمرار . وحسبنا ان نشير الى ان الثقافة بمعناها الواسع المعبر عن اساليب الحياة القومية تؤلف المحتوى الرئيسي للتربية ، وان التربية هي السبيل الرئيسي لاستيعاب الناشئين لثقافة امتهم ، ومنها يسهمون في تطويرها وتجديدها ، وان نذكر ان اللغة القومية هي اداة كل منهما .

ولا يقتصر الامر في كل منها ، بل يجب ان يشمل ايضاً تعريب كل منها بالمعنى الواسع للتعريب ، اي جعلها معبرة عن خصائص الامة العربية وشخصيتها القومية في ماضيها الحي وفي حاضرها الذي تعمره ارادة التغيير ، وفي تطلعها نحو مستقبلها المؤمل في الوحدة والحرية وفي العدالة والمساواة ، وفي الامن والمنعة والتقدم ، وما ينطوي عليه ذلك من مكانة الانسان العربي واطلاق قوى الابداع فيه واغناء حياته بمستواها ونوعيتها ، واستنادها الى القيم الانسانية والمواقف العقلانية المستمدة من عقيدتها ومن تراثها الفكري الزاخر ، ومن تطلعها الى الحياة الكريمة والمساهمة في الحضارة الانسانية باتجاهاتها السليمة ، مع ما يتطلبه ذلك من الانفتاح على الفكر الانساني بينه وبين التيارات الزائفة في الثقافات الاجنبية ، والاعراض عن الافتتان ببريقها الخادع الذي ينطوي على الدس واضعاف الثقة بخصائص الثقافة القومية وخلاصة ذلك ان تكون الحياة العربية وخصائص الامة العربية ، وهموم الانسان العربي وآماله هي ميدان الثقافة الرئيسي ، وان يكون الادب فيها على تعدد فنونه تعبيراً عن تلك الحياة وتلك الخصائص ، ومتنفساً لتلك الهموم والآمال ، فلا ينعزل في ابراج مغلقة بعيداً عن الجماهير ، ولا يرضى لها بالحياة الراكدة بل يعبر عن ارادة التغيير التي تعمرها ، ويستلهم ماضيها الحي وتراثها الزاخر ، ويصور تطلعها الى المكانة التي تستحقها بجهدها في مسيرة الحضارة الانسانية . ومن الطبيعي ان ذلك مطلب لا يفي به في جوهره وفي سمو مرتبته غير العربية الفصيحة ، تسلم فيه من الركاكة واللحن وضعف الاساليب ، وترتفع فيه بلغة المتعلمين او ما يقابلها من الصيغ القياسية الشائعة في الصحافة الى مستوى عال من الفصاحة والبيان. ولا بد ان يعنى بتفاعل الثقافة العربية مع الشعوب الاسلامية وهي تتطلع الى العربية لغة عقيدة بين ابنائها ، وان يؤلف التراث العربي الاسلامي والثقافة العربية المعاصرة وسيلة للروابط الوثيقة بين هذه الشعوب بعضها مع بعض .

وتؤلف اجهزة الاعلام الجماهيرية في الصحافة والاذاعة على تعددها وسائل رئيسية لتنمية الثقافة العربية بالمعنى السالف وابلاغ رسالتها الى الجماهير العربية خاصة ، والى جماهير الشعوب الاسلامية والصديقة عامة ، وما دامت هذه الاجهزة اسلحة ذات حدين ، فمن الاهمية بمكان تخليصها من الجوانب السلبية محتوى واسلوباً ، فكراً ولغة ، ومراعاة ان تعتمد الفصيحة اداتها في الخطاب . وان تجذب اليها قادة الفكر في الوطن العربي ولا تقتصر على العاملين المختصين بها ، وان تميز بين الثقات وبين الشداة ولا بد من تيسير تبادل النتاج الثقافي مؤلفات ومترجمات وبرامج اذاعات ، وتشجيع دور النشر على ان تمارس نشاطها على الصعيد القومي ، فتيسر تعرف الجماهير على انتاج قادة الفكر على ذلك الصعيد .

**(١٢) قومية العمل العربي** : اذا كانت قومية العمل العربي ، بمعنى المشاركة الواسعة فيه ، امراً لا يستغنى عنه في كثير من المهمات والمشروعات التي تشمل الوطن العربي، فهو ضرورة لازمة في اعتماد العربية الفصيحة لغة للتعليم ، بحكم طبيعة المهمة وجلالة قدرها ، وبحكم اتساع المجالات فيها وتعقدها ، وبحكم صلتها الوثيقة بالحياة القومية وآفاق مستقبلها والمساهمة في وحدتها .

فلا بد من تضافر الجهود في تحقيق هذه المهمة بين الحكومات والوزارات المسؤ ولة فيها عن التربية والثقافة والعلوم ، وبين المنظمات العربية المعنية وعلى رأسها جامعة الدول العربية نفسها ، ومنظماتها المتخصصة ، ومن بينها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم خاصة ، وبين المجامع والجامعات العربية والمؤسسات المعنية باللغة العربية وباعداد المعلمين والمدرسين وبين الاتحادات العربية وبخاصة اتحاد المجامع العربية : اتحاد المعلمين العرب واتحاد الجامعات العربية واتحاد مجالس البحث العلمي وغيرها من الاتحادات المهنية .

ان ما تتطلبه المهمة من القرارات السياسة ومن الاتفاق على المسارات الرئيسية لتطبيقها ( الاستراتيجية ) ومن صيغ التخطيط لها ، ومن الدراسات والبحوث العلمية التي تسندها تتطلب جميعها قومية العمل العربي امراً لازماً لا غنى عنه ، وقد يكون من مسؤ ولية المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ان تبادر لتنظيم العمل المشترك في اداء هذه المهمة الجليلة ذات الاثر في تربية ابناء الامة وفي ارساء وحدتها في المدى المؤمل القريب بإذن الله .

# تعقيب ١
# وسائل الاتصال الجماهيريّ ودورها في نشر لغة عربية صحيحة

مسارع الراوي

## مقدمــة

كلفتني اللجنة التحضيرية لندوة اللغة العربية والوعي القومـي اعداد تعقيب عن اللغـة العربية ووسائل الاعلام . وحاولت ان اعتذر عن تحمل هذه المسؤولية لكوني لست متخصصاً في اللغة العربية ، او في وسائل الاتصال الجماهيري . ولكن رغبة مني في المشاركة في مثل هذا العمل القومي الرفيع آثرت قبول الدعوة للخوض في هذا الميدان الجديد عليّ والسعي في البحث والتنقيب كباحث مبتدىء آملاً ان يكون اجتهادي في طرح الموضوع مثيراً للمناقشة والحوار ، واسهـاماً متواضعاً في تحقيق بعض اهداف الندوة .

## اولاً : مسلمات في هذا الموضوع

إن البحث في موضوع دور وسائل الاتصال الجماهيري في نشر لغة عربية صحيحة موحدة ، مما يساعد في تقوية الروابط القومية بين البلاد العربية ، يتطلب منا التأكيد على بعض البديهيات والاعتراف ببعض المسلمات التي تشكل خلفية للموضوع مدار البحث ، ولعل من اهم هـذه المسلمات والموجهات الآتي :

١ ـ اللغة وسيلة التخاطب والتفاهم كانت ولا تزال من اهم عناصر القومية ، وابرز اركانها ومقوماتها ، تاريخاً وحاضراً .

٢ ـ اللغة العربية بالذات بصفتها الوعاء الفكري والمستودع الحضاري للامة العربية تعتبر من

العناصر المهمة في تقوية الروابط القومية بين البلاد العربية حاضراً وتاريخاً . ولقد عبر عن اهمية اللغة العربية في تقوية الروابط القومية وتوحيد الامة العربية الشاعر العربي حيث قال :

ان فرْق الاي انُّ بين جموعنا — فلسانُنا العربي خيرُ موحّدِ

او كما قال :

فلا حد يباعدنا — ولا دين يفرقنا
لسان الضاد يجمعنا — بغسان وعدنان

٣ ـ وسائل الاعلام كجزء من وسائل الاتصال الجماهيري هي قنوات الاتصال بين الافراد والجماعات ، وهي قديمة قدم الدهر ، وقد تطورت وتنوعت بتطور وتنوع حياة الانسان وتعقد المجتمعات البشرية .

وقد كانت وسائل الاعلام بدائية بسيطة عندما كانت حياة الانسان بدائية سهلة ، واصبحت متطورة ، بل معقدة ومتعددة الوسائط حينما اصبحت حياة الانسان صعبة وطبيعة مجتمعاته معقدة .

٤ ـ لقد كانت وسائل الاعلام في بادىء الامر تركز على الكلمة المنطوقة ثم تطورت الى الكلمة المطبوعة ( الصحافة ) والكلمة المسموعة ( الراديو ) حتى وصلت الى الكلمة المنطوقة والمرئية من خلال التلفزيون .

٥ ـ لقد اظهرت الدراسات والبحوث الميدانية التي اجريت في مجال اهمية وسائل الاتصال الجماهيري ومدى تأثيرها في عملية التثقيف والتربية والتعليم ان الانسان يتعلم ٨٣ بالمائة من خلال حاسة البصر و ١١ بالمائة من خلال حاسة السمع ، ويتذكر ٢٠ بالمائة مما يسمع ، و ٥٠ بالمائة مما يسمعه ويراه . وهذه النتائج العلمية تؤكد الاختلاف في تأثير وسائل الاعلام . فالتلفزيون كوسيلة لبث الرسالة الاعلامية اكثر تأثيراً في الجماهير من الصحافة والراديو لأنه يخاطب العين والاذن بالصورة والصوت ، والصحافة اكثر تأثيراً من الراديو لأنها تخاطب العين بالصورة والشكل .

## ثانياً : النظام الاعلامي في الاقطار العربية

لقد اثبت التاريخ البشري ان الامة العربية اسهمت اسهاماً فعالاً في بناء صرح الحضارة البشرية ، واسهام الامة العربية في اغناء الحضارة ، وبناء تاريخ الانسانية يتسع ليشمل كل مناحي الحياة المادية والثقافية . فلقد عرف العرب وسائل الاعلام وتنبهوا الى اهميتها الفردية والجماهيرية فأوجدوا المخبرين والاندية والاسواق في اوقات الحرب والسلم ، وما سوق الثلاثاء ، وسوق عكاظ قبل الاسلام إلّا قنوات للاعلام ووسائل للاتصال الجماهيري . فقد كانت تمارس في هذه الاندية

والاسواق المناظرات والمساجلات بين الشعراء والخطباء للتفاخر بالانساب والاعتراف بـالانتماء وابراز الولاء .

والنظام الاعلامي في اي قطر جزء لا يتجزأ من النظام الكلي السياسي والاقتصادي لذلك القطر . ولذلك نجد ان النظام الاعلامي ووسائل الاتصال الجماهيري التي يتبناها القطر متقدمة وفعّالة عندما يكون هذا البلد متقدماً ونظامه السياسي قوياً .

ولقد كانت اجهزة الثقافة ووسائل الاتصال الجماهيري عند العرب فعّالة ، ومؤثرة في عصر الازدهار الحضاري والرقي الثقافي ، وبالعكس تردت وسائل الاعلام والتواصل الثقافي في عهد الانحطاط والسقوط الحضاري ، بل اصبحت الاجهزة الثقافية وقنوات الاتصال الجماهيري تابعة ليس لها هوية محددة ولا شخصية مميزة .

واستقراء الواقع العربي وتحليله يكشفان لنا حقيقة مرة مفادها ان الامة العربية على مفترق الطرق في ان تكون او لا تكون ، لأن التحدي المصيري اصبح يهدد اعز ما تملكه الامة في ذاتها وشخصيتها ، وهويتها . انها معركة الاستلاب ، استلاب الارادة ، وتهديد الامن الثقافي للامة .

والامة العربية التي تجسدها ثقافتها الواحدة من تاريخ ولغة ودين ومصير مشترك تعيش ازمة وجود سببها الرئيسي التجزئة والقطرية ومايتبعهما من انظمة متباينة في طبيعتها ، ومتصارعة في سياساتها وخططها ، مما يضعف طاقة الامة المادية ويبدد مواردها البشرية ، بحيث يسهـل على اعداء الامة العربية تحقيق اهدافهم وتنفيذ استراتيجياتهم وسياساتهم .

ولقد جندت حكومات الاقطار العربية وحشدت كل وسائل الاتصال الجماهيري ووظفته لترسيخ الانظمة السياسية القائمة وتثبيت السلطة الحاكمة لأن النظام الاعلامي في البلاد العربية ليس الا مرآة للبنى الاجتماعية والنظم السياسية .

واستقراء واقع الانظمة الاعلامية في البلاد العربية يظهر لنا التشابه في الجوهر والاختلاف في المظهر، فمن حيث الاختلاف نجد ان بعض الانظمة العربية تنحو منحى دول المعسكر الشرقي ، في امتلاكها لوسائل الاعلام وقنوات الاتصال الجماهيري واعتبارها قطاعاً حكومياً عاماً . وهذا يعني ضرورة تأميمها وتوظيفها لخدمة اهداف الحزب والسلطة الحاكمة ، اما الانظمة العربية الاخرى فنجدها اقتسمت مع القطاع الخاص بعض وسائل الاتصال الجماهيري كالصحافة التي قيدتهـا برقابة شديدة .

اما دور الاذاعة ومحطات التلفزيون ووكالات الانباء فقد احتكرتها لنفسها وجعلتها تحت تصرف الحكومة وخدمة النظام . واما من حيث الجوهر فوسائل الاتصال الجماهيري في كل البلاد العربية مركزية المصدر هدفها الاساسي خدمة انظمة الحكم وترسيخ مفاهيم السلطة ونشر الدعاية للدولة .

ان هذا النوع من الاعلام الذي يستثمر وسائل الاتصال للتبشير والدعاية لا نتوقع ان يكون

تأثيره فعالاً ومردوده ملحوظاً في تغيير عقلية الجماهير وتثقيفها لأن مثل هذه الانظمة تعيش ازمة ثقة بينها وبين جماهيرها حيث تتباين الاهداف والمنطلقات وتتسع الفجوة بين الحكومات والجماهير ، فضلاً عن ان قنوات الاتصال ووسائل الاعلام لا تثير الحوار او تسمح بالنقاش وتبادل المعلومات والخبرات .

وقد اثبتت الاحداث المرة التي عاشتها الامة العربية في تاريخها المعاصر ، دور معظم اجهزة الاعلام ووسائل الاتصال الجماهيري في تضليل الجماهير العربية وخداعها . فلقد حولت اجهزة الاعلام العربية الهزائم التي لحقت بجيوش الأقطار العربية وانظمتها الى انتصارات قولاً لا فعلاً ، كما صنعت وسائل الاتصال الجماهيري في البلاد العربية النصر وانتزعته من واقع الهزيمة بصورة خادعة ومضللة .

## ثالثاً : وسائل الاعلام واللغة العربية

السؤال الذي يثار ، بل يطرح نفسه للمناقشة ، بعد هذه المقدمات واستقراء واقع الانظمة الاعلامية في البلاد العربية : كيف يمكن توظيف وسائل الاتصال الجماهيري في تنمية الثقافة العربية وبخاصة في نشر لغة عربية صحيحة موحدة مما يساعد على تقوية الروابط القومية بين البلاد العربية ؟

ان الجواب عن هذا السؤال سهل وصعب في الوقت نفسه . ولعل سهولة الاجابة عن هذا السؤال المطروح تأتي من الاعتراف بالواقع ، وهو ان اجهزة الاعلام ووسائل الاتصال الجماهيري في البلاد العربية في وضعها الحالي ، بحكم تبعيتها للانظمة السياسية ووظيفتها في مسايرة رجال الحكم ، غير قادرة على المساهمة الفعّالة في تنمية الثقافة العربية ونشر لغتها وتيسير تعلمها ادباً ونحواً .

إن اجابتنا بصراحة عن السؤال بهذه الصورة قد لا تبعث على التفاؤل الا انها لا تنفي بأي حال من الاحوال وجود بعض المساعي الحميدة التي تقوم بها بعض اجهزة الاعلام في بعض الاقطار لعربية في اعطاء اهمية لتنمية الثقافة العربية ونشر اللغة العربية ، ولو بصورة محددة ولفترات زمنية قصيرة ، في محطات التلفزيون ودور الاذاعة ووكالات الانباء والصحف المحلية .

اما صعوبة الاجابة عن السؤال المطروح فتكمن في السعي للانطلاق من الواقع المؤلم بعد فهمه بعمق وتحليله علمياً بتجنب الهروب من مشاكله او الاذعان بالامر الواقع المتحكم فيه ، بقبول الحكمة القائلة ليس بالامكان احسن مما كان .

إن الانطلاق من مبدأ التكامل والأخذ بالنظرة الشمولية يتطلبان التأكيد على ضرورة ايجاد استراتيجية موحدة لاجهزة الاعلام ونظم التعليم على المستوى القومي والمستوى القطري في مجال تنمية ثقافة جماهيرية اصيلة ، ونشر لغة عربية صحيحة موحدة . وهذا يعني ايجاد جو من التعاون والتنسيق بين النظام الأمّ المتمثل بالمدرسة بصفتها المؤسسة التربوية النظامية ، وبين وسائل

الاتصال الجماهيري بصفتها اجهزة ثقافية معززة ومدعمة للعمل التربوي النظامي المباشر ، والتعاون والتنسيق عمليتان ايجابيتان فيهما اخذ وعطاء في اطار من التغذية المتبادلة ، ولكل من النظام التعليمي والنظام الاعلامي حقوق وواجبات .

فنظام المعلومات والاعلام يطالب النظام التعليمي ببعض الواجبات ،والنظام التعليمي يطالب نظام الاعلام ببعض الواجبات ايضاً ، ولكل منهما حقوق والتزامات . فاجهزة الاعلام ووسائل الاتصال الجماهيري تطالب النظام التعليمي باعداد وتهيئة الاطر الفنية الكفوءة لتتولى قيادة وتسيير شؤون اجهزة الاعلام من تلفزيون واذاعة وصحف على المستويات كافة : تخطيطاً وتنفيذاً واشرافاً وادارة . هذا بالاضافة الى ضرورة المتابعة المستمرة في التدريب على الجديد والحديث في مجال تقنيات الاعلام والاتصال الجماهيري . كما يطالب نظام الاعلام واجهزته النظام التعليمي التحرر من التبعية والاغتراب في فلسفته واهدافه وبرامجه ومناهجه ، فالنظام الاعلامي يريد من المدرسة في البلاد العربية ان تكون عربية حقاً في اهدافها وسياستها ، فتهتم بالثقافة العربية الاسلامية ، وتغرس في المواطنين روح الاعتزاز بالقيم العربية الاصيلة ، والاهتمام باللغة العربية وعاء فكرياً لهذه الثقافة الواسعة . فاللغة العربية تدرس في المدارس العربية على الرغم من كثرة حصصها في الاسبوع الواحد وكأنها لغة اجنبية في ادبها ونحوها وصرفها ، وعليه فالمطلوب هو تيسير تعلمها وتبسيط اصول نحوها للدارسين لتشويقهم لها ، وترغيبهم بها ، كما ان المطلوب من المدرسة ان تتمشى مع التطور الحديث والتقدم العلمي في مجال استخدام التقنيات الحديثة ووسائل الاتصال الجماهيري المتنوع فتسعى لتوظيف هذه التقنيات الحديثة ، والوسائل الاعلامية المتنوعة في طرق التدريس واساليب التعلم الذاتي والمبرمج . وعملية انتقاء هذه التقنيات واختبار الوسائل يحددها عمر المتعلم وبيئته المحلية . ان الانتفاع من التقنيات الحديثة وتوظيف وسائل الاتصال الجماهيري في عمليتي التعلم والتعليم لا يقلل من شأن المعلم بل يعزز دوره ويعين في تحقيق رسالته واهدافه في إحداث تغييرات سلوكية في شخصية المتعلم .

واذا كنا قد تعرفنا على الالتزامات المطلوبة من المدرسة ونظامها التعليمي تجاه نظام المعلومات واجهزة الاتصال في مجال تنمية الثقافة العربية ونشر لغة عربية صحيحة ، فما علينا الا ان نحاول اثارة الحوار حول التزامات وسائل الاعلام الجماهيرية في نشر لغة عربية صحيحة موحدة مما يساعد على تقوية الروابط القومية بين ابناء الامة العربية .

ويجدر بنا في هذا المقام ان نؤكد على نتائج المسح الميداني الذي اجرته المنظمات العالمية وخاصة ( اليونسكو ) والذي كشف ان البلاد العربية فقيرة في استخدام اجهزة الاعلام وتكنولوجيا الاتصال في التعليم مقارنة لا بالدول المتقدمة بل بالدول المتخلفة في افريقيا وآسيا ودول امريكا اللاتينية . كما اثبتت المسوحات الميدانية والدراسات العلمية ان نتائج استخدام وسائل الاعلام للتعليم والتوعية القومية مضمونة المردود ، وتكاليفها المالية قليلة ، مقارنة بالتعليم النظامي ، لكسرها الحواجز الجغرافية واختصار الزمن ، اذا ما أحسن انتاج البرامج الجيدة للارسال وقدمت للجمهور بشكل فني مشوق .

وتأتي اهمية وسائل الاتصال وتكنولوجية الاتصال وفاعلية تأثيرها في الجماهير العربية في مجال تنمية الثقافة العربية ونشر اللغة العربية الصحيحة بحكم تفشي الامية بين عامة الناس بحيث وصلت نسبة الامية الى ٥٠ بالمائة وبحدود ثلاثين مليون امي .

اما النصف الآخر من المتعلمين الذين يملكون مهارات القراءة والكتابة ، فيمكن توظيف وسائل الاعلام من صحف واذاعة وتلفزيون ، في التعاون مع المدرسة ونظامها التعليمي في تنفيذ استراتيجية موحدة هدفها تنمية الثقافة العربية ونشر اللغة العربية بين ابناء الامة لتقوية الشعور القومي وتكوين فكر عربي موحد . وهذا يتطلب اعداد برنامج خاص باللغة العربية ، والتفنن في اخراجه ، بحيث يثير شوق القراء ويرغب المستمعين والمشاهدين . كما يمكن استخدام وسائل الاعلام كالتلفزيون في اعداد برامج تربوية خاصة بالاطفال ما قبل المدرسة واثناء مرحلة المدرسة الابتدائية يكون التركيز فيها على استخدام اللغة العربية الفصحى الميسرة ذات النحو الواضح والاسلوب اليسير والمعاني المفهومة بعيدة عن الحشو والمفردات الغامضة . اما الطلبة في المراحل المتقدمة الاخرى ، فيمكن ان توجه اليهم برامج في اللغة العربية ـ ادباً ونحواً وشعراً وتراثاً ـ بطريقة مباشرة وغير مباشرة ، من خلال وسائل الاتصال الجماهيري واجهزة الثقافة .

إن المهم هو ان تكون الاهداف واضحة ومحددة وتكون البرامج ميسرة محتوى واسلوباً ، وطريقة اخراجها مشوقة ، وان يكون مقدمو هذه البرامج التربوية اصحاب خبرة وكفاءة وقدرة لغوية يمثلون نماذج يقتدى بها في التعبير واختيار المفردات وتفهم المعاني واستيعاب الافكار وفهم القواعد والاصول النحوية واللغوية .

وفي ختام تعقيبي لا يسعني الا المطالبة بتبني القرارات والتوصيات التي انتهى اليها مؤتمر مجمع اللغة العربية في القاهرة في دورته الاخيرة ، التي عقدت من ٢١ شباط / فبراير حتى ٧ آذار / مارس ١٩٨٣ ، والسعي لوضعها حيز التنفيذ ، وكان من ابرزها الآتي :

ـ ان تيسر وزارات التربية في البلاد العربية تعليم النحو فيما تعده لطلابها من كتب في قواعد اللغة العربية .

ـ ان تهتم وزارات التربية في البلاد العربية بدروس المطالعة في تعليم اللغة العربية لطلبتها مع تقديم مختارات من النصوص القديمة الملائمة لمستواهم .

ـ ان تعتني الجامعات والمعاهد في البلاد العربية باستخدام اللغة العربية في تدريس المواد الدراسية ( تعريب التعليم الجامعي ) .

ـ ان تعود الصحف العربية الى تقليدها القديم في تكليف مراجعين متخصصين في اللغة العربية يطمئنون الى صحة ما يقدم للنشر من مقالات ومواد صحافية .

ـ ضرورة التزام وسائل الاعلام بقواعد اللغة العربية ونطق الكلمات نطقاً سليماً واعداد من يضطلع بذلك لغوياً وصوتياً .

ـ العناية باحياء التراث العربي واعداد المؤهلين له وبسط مداه .

# المراجــع

## دوريــات

الجابر ، زكي . « الاعـلام والمؤسسة التعليميـة : الطلاق الـذي لم يكتمل الثـلاث . » **رسالـة الخليج العربي** : السنة ١ ، العدد ٧ ، ١٩٨٣ .

عبد الجواد ، نور الدين . « الاعلام والرسالة التربوية . » **رسالة الخليج العربي**: السنة ١ ، العدد ٧ ، ١٩٨٣ .

« ندوة ماذا يريد التربويون من الاعلاميين : التوصيات . » **رسالة الخليج العربي** : السنة ١ ، العدد ٧ ، ١٩٨٣ .

## مؤتمرات وندوات

**حلقة العمل الخاصة باستخدام المعلمين لوسـائل الاتصـال الجماهيـرية في العمليـة التربـوية ، عمـان ( المملكة الاردنية الهاشمية ) ٧ - ١٦ مايو / ايار ١٩٨٣.** باريس : منظمة الامم المتحـدة للتربيـة والعلوم والثقافة ، قسم التعليم العالي وتدريب العاملين في التربية ، ١٩٨٣ .

**الندوة العربية لمناقشة كيفية وضع مؤشرات الخطة الاعلامية للحملات الوطنية الشاملة لمحو الاميـة ، الدوحة ( قطر ) ٢٨ / ١ - ٣ / ٢ / ١٩٨١** . بغداد : الجهاز العربي لمحو الامية وتعليم الكبـار ، ١٩٨٢ . « وسائل الاعلام والتنمية القومية . » اعداد الطيب عطية .

**ندوة ماذا يريد التربويون من الاعلاميين ، الرياض ٢٩ مايـو / ايار - ١ يـونيه / حـزيران ١٩٨٢** . الرياض : مكتب التربية العربي لدول الخليج ، ١٩٨٢ . « التعليم والاعلام من اجل تربية افضل للمواطن العربي . » اعداد محمد احمد الغنام .

# تعقيب ٢
# اللغـة ووسائل الاعـلام الجماهيريـة

محمد جميـــل شلش

## مدخـــل

يحاول هذا التعقيب معرفة التأثر والتأثير المتبادل سلباً او ايجاباً بين اللغة العربية ، من حيث كونها وسيلة اتصال معنوية ، وبين وسائل الاتصال الجماهيرية ، المعروفة ، من حيث كونها وسائل تكنولوجية، تُستخدم لتنفيذ عملية الاتصال . . . وصولاً الى كيفية استخدام هذه الوسائل ، استخداماً جيداً ، باعتبارها حلقات مترابطة ، في سلسلة واحدة ، الهدف الاساس منها ، هو نقل المعلومات ، بافضل الطرق التي تفضي الى افضل تعبير، وتوصيل ، وتأثير ، عن طريق اللغة ، التي يعتبرها الاعلام الحديث ، وسيلة الاتصال الاساسية الاولى ، وكل ما عداها من وسائل ، انما هي امتدادات ، مكملة لوظيفتها في هذا الحقل .

## اولاً : اللغة وسيلة اتصال

ولعل من المفيد هنا ، قبل الخوض في تفاصيل البحث ، ان نوضح مسألتين ، هما :

ما هو المقصود بالاتصال ؟

كيف تكون اللغة وسيلة اتصال؟

وبالرجوع الى معاجم المصطلحات الحديثة ، نلاحظ انها تعرف الاتصال (Communication) بأنه : تبليغ رسالة شفوية او خطية ، او معلومات ، او افكار ، او آراء ، عن طريق الكلام المنطوق او الكتابة ، او الاشارات ، فهو ، كما يورده قاموس وبستر : « عملية يتم فيها تبادل المفاهيم ، بين الافراد ، وذلك باستخدام نظام الرموز المعروفة »[1] .

---

(١) *Webster's Biographical Dictionary*, and
منير بعلبكي ، المورد : قاموس انكليزي - عربي ، مادة «Communication» .

اما الاتصال ، بمعناه الجماهيري ، وهو موضوع بحثنا ، فإنه يعني تزويد الجماهير ، بالاخبار ، والمعلومات ، والآراء ، بهدف التأثير فيها ، باسلوب غير مباشر ،وأما وسائله (MASS MEDIA) فتعرف بأنها : « الطرق التي يمكن بها ايصال فكرة او رأي ، الى عدد كبير من الافراد المستقبلين ، المنتشرين في اماكن بعيدة ومتفرقة : كالجرائد والراديو ، والتلفزيون ، والسينما . ولكل وسيلة من هذه الوسائل استخداماتها المعينة ، كما ان لكل منها مزاياها الخاصة ، كذلك فإن كل وسيلة ، تختلف عن الاخرى فيما يتعلق بالجمهور الذي يُتصل به ، وفي حمل نوع من الرسائل ، وايضاً ، خلق تأثيرات معينة ، اعلامية او تثقيفية ، او ترفيهية»[٢] .

فعملية الاتصال ، بمعناها الاصطلاحي الحديث ، تتم عن طريق الوسائل التكنولوجية المعروفة ، التي تستخدم لتنفيذ الاتصال ، الذي يتم من خلال سلسلة تفاعلات متبادلة ، وحلقات مترابطة ، قوامها : « مرسِل ـ مستقبِل ـ رسالة ـ وسيلة اتصال » ، وهذه السلسلة تضعف ، في حالة ضعف اية حلقة من حلقاتها .

غير ان الاتصال، قديم ، قِدَم المجتمع البشري ، والتبادل بمعناه البسيط ، قائم منذ ان وعى الانسان حقيقة وجوده ، بدءاً بالاشارات وانتهاء باكتشاف اللغة ، ووصولاً الى استخدام وسائل الاعلام الحديثة ، ولكل مرحلة اجتماعية ، مرحلة اتصال مناسبة مرت بها ، حتى وصلت الى ما نراه اليوم ، بعد ان اصبح الاعلام الجماهيري ، فناً حضارياً قائماً بذاته يتصل بأسباب الحضارة ، وينبع منها ويغذيها ، الى حد ، صار يقال فيه : « إن لغة الاعلام هي التي تصوغ الحضارة »[٣] .

ولكن ، كيف تكون اللغة وسيلة اتصال ، لتؤدي هذا الدور العظيم؟ بالعودة الى كيفية اتمام عملية الاتصال ، نلاحظ انها لا تتم بين المرسل ، والمستقبل ، ولا تستطيع الوسائل التكنولوجية تنفيذها ، الا عن طريق ( الرسالة ) ، والرسالة هنا ، هي ( الوسيلة ) في عملية الاتصال ، وبمعنى اوضح ، هي « اللغة » ، فاللغة اذن ، هي ( وسيلة الاتصال)[٤]الاساسية ، وبدونها لا تتحقق عملية الاتصال الجماهيري ، بمعناها المعروف . ومع ان اللغة نسق من الاشارات موجود في اي مجتمع[٥] ، وان كل كلمة تقوم مقام « رمز » ، فإن الكلمات اصلاً ، ليست رموزاً اصطلاحية مجردة ، وانما هي ، بالتركيب اللغوي ، تهدف الى نقل المعنى ، وان مدلولها الرمزي ، يتغير في سياق الكلام ، في كل مرة تستعمل فيها فتعطي دلالة ، ونكهة خاصة ، تختلف عن سابقتها ، ذلك ان لكل كلمة بُعدين : بعداً مادياً ، وبعداً معنوياً . وعندما يتعلق الامر بالتعبير الاعلامي ، وبنقل المعلومات ، فإن البعد المعنوي للكلمات ، يكون ذا اهمية كبيرة، ولذلك فإن رجل الاعلام الجماهيري ، عليه ان يعي بدقة ، اسلوب الاتصال اللغوي ، وان يضع

---

(٢) احمد زكي بدوي ، **معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية** ، مادة «Mass-Media» .

(٣) عبد العزيز شرف ، **الاعلام ولغة الحضارة** ( القاهرة : دار المعارف ) ، ص ٣١ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٨ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٨ .

في حسابه قضية فهم الجمهور العام ، لأننا ، كما يقول « شرام » : « عندما نتصل بغيرنا ، فإننا نحاول ان نقيم مشاركة مع من نتصل به »(٦) .

وهكذا تظهر اهمية اللغة ، كأهم وسيلة من وسائل الاتصال بل كوسيلة اساسية ، تعتبر جميع وسائل الاتصال الجماهيرية الاخرى امتداداً لها ، ولذلك ، يجب معرفة كيفية معالجتها ، واستخدامها ، كوسيلة تعبير ، وتوصيل ، وتأثير.

وما دامت اللغة اهم وسيلة في الاتصال الجماهيري ، فذلك يعني ان « النتائج الفردية والاجتماعية لأية وسيلة من وسائل الاعلام ، تتوقف على تغير المقياس اللغوي ، الذي تُحدثه كل تكنولوجيا جديدة »(٧) .

وهكذا تشتد الحاجة الى لغة عربية ، جديدة ، ومبسطة ، ومعبرة ، ومنسجمة مع حاجة كل وسيلة اعلامية ، وخصوصاً ، بعد التحول الهائل في تكنولوجيا وسائل الاعلام الجماهيرية واعتمادها اداة فعالة في عملية التنمية القومية .

## ثانياً : التأثر والتأثير المتبادلان بين اللغة ووسائل الاعلام الجماهيرية

لقد شهد العصر تحولاً كبيراً في وسائل الاعلام الجماهيرية ( صحف - راديو - تلفزيون - سينما ) كما شهد ايضاً تحولاً في اللغة عموماً ، وفي لغة الاعلام خصوصاً ، وبقدر ما اثرت اللغة في انجاح هذه الوسائل ، فقد تأثرت بها ، محققة بذلك تطوراً ، وشيوعاً ، في وسائل الاتصال الجماهيرية ، يواكبان حاجات العصر ، ويدلان على قدرة اللغة ، كاداة من ادوات الاتصال، كما يدلان على فاعليتها في تحقيق الاتصال الجماهيري وعلى تأثيرها في مشاعر الناس، وفي سلوكهم ، ومعتقداتهم ، كما يؤشر بالتالي تواصل انتصاراتها على هذا الصعيد ، الى درجة سوغت لبعض الاساتذة المهتمين بشؤون اللغة ، وهو ينظر الى اثر بعض وسائل الاعلام الجماهيرية فيها ، الى القول : « ان الاسلوب السهل المُشرّف الذي وصلنا اليه اليوم في الكتابة بلغتنا العربية ، لا يعود الفضل فيه الى معلمي اللغة في المدارس ،والكليات ، ولا يعود الفضل فيه الى الكتّاب والادباء القدامى ، بل الفضل الاول في هذا الاسلوب ، يعود الى الصحافة اليوم »(٨) .

وحقاً ، فقد كان للصحف ، وما يزال ، دور كبير في لغة الاعلام الجديدة ، اضافة الى دورها الاشمل ، حيث امتزج « الحدث » الصحافي بالازدواجية اللغوية ، فطعّم اللغة ، وكان

---

(٦) Wilbur Schramm, *How Communication Works* (1955), p. 3.

(٧) شرف ، **الاعلام ولغة الحضارة** ، ص ٢٢ .

(٨) اديب مروة ، **الصحافة العربية ، نشأتها وتطورها : سجل حافل لتاريخ فن الصحافة العربية قديماً وحديثاً** ( بيروت : دار مكتبة الحياة ، ١٩٦١ ) ، ص ١١١ .

سبباً في تطورها ، فنشأت لغة جديدة تختلف عن لغة الادب والعلم ، وتعبر عن الحياة اليومية ، بألفة ، وبساطة ، ووضوح ، ولذلك ، تضاربت فيها الآراء ، فهي عند البعض ، تبدو ( حدثاً لغوياً ثالثاً ، بعد الحدث القرآني وبعد حدث النثر الفني )[9] . وهي عند بعضهم الآخر ، قد انتقلت الى طور جديد ، فيه خطر على اللغة ، بحيث شذت عن اصولها ، « واصبح لكثير من الفاظ الجرائد لغة خاصة بها ، تقتضي معجماً بحاله »[10] ، وهذا الرأي الاخير، رأي سلفي ، مترنح ، يناقضه صاحبه ، وهو ينهي كلامه في هذا الصدد بقوله ان الاسلوب الصحافي « آذن بانتعاش اللغة »[11] ، وان الجرائد « انتقلت الى طور جديد من الفصاحة وجزالة التعبير »[12] .

مهما تضاربت الآراء ، فإن الحقيقة تبقى تؤشر هنا ، ان الصحافة طوعت اللغة ، وجعلتها مرنة ، تفي بمتطلبات العصرية ، وتستوعب التطورات العظيمة ، التي صاحبت النهضة ، في ميادين الحياة المختلفة ، فقد أشاعت الفاظاً ، واستحدثت الفاظاً جديدة ، ومصطلحات جديدة ، ووسعت آفاق اللغة وطورت اساليبها في العلوم ، والفنون ، والاجتماع ، والسياسة ، وقد افاض في الكتابة عن اثرها في هذا الحقل ، اساتذة وباحثون ، منذ عصر النهضة ، حتى اليوم[13] .

وبقدر ما أثّرت الصحف في اللغة ايجاباً ، فقد كان لها تأثير سلبي ، اذ انّ التوسع في استخدام هذه الوسيلة ، وضعف كوادرها ، وغياب العناصر المثقفة ، والمهنية فيها ، سبب ضعفاً لغوياً ، وادائياً واعلامياً انعكس على الصحف نفسها ، كوسيلة اعلام جماهيرية ، وسبب ضعفاً في بعض ابوابها من جهة اخرى ، فقد نسي كثير من الكتاب لغة الجرائد ( كمنبر اعلامي جماهيري ثقافي سياسي وديمقراطي) فراحوا يكتبون الزوايا والتعاليق والخواطر ، وبعض الافتتاحيات ، احياناً ، باسلوب ادبي ، ذاتي ، اقرب الى لغة الشعر ، منه الى لغة الاعلام الجماهيري الفصيحة ، المبسطة ، مما نجم عنه ، فقدان الصحيفة اثرها كمنبر اعلامي جماهيري .

وتبرز انعكاسات الآثار السلبية على اللغة في وسائل الاعلام الجماهيرية الاخرى ( كالراديو ـ والتلفزيون ـ والسينما ) وذلك في الاغراق باستعمال العامية ، وتهجين فصحى مبسطة ، مما يجعلها ضعيفة الاثر ، في بلورة فصحى مشتركة .

فعلى صعيد ( الراديو ـ التلفزيون ) ـ والحديث هنا عن العراق ـ نلاحظ توسعاً في استخدام لهجة ( اهل الجنوب ) في كثير من البرامج ، والاغاني ، والاحاديث ، والتمثيليات ، علماً بأن هذه

---

(٩) عبد العال سالم مكرم ، **القرآن الكريم واثره في الدراسات النحوية** ( القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٨)، ص ٣٧٨ .

(١٠) ابراهيم ناصيف اليازجي ، **لغة الجرائد** ( مصر : مطبعة مطر ، [د.ت.])، ص ٢ .

(١١) المصدر نفسه .

(١٢) المصدر نفسه .

(١٣) عناد اسماعيل الكبيسي ، **الادب في صحافة العراق منذ بداية القرن العشرين** ( النجف الاشرف : مطابع النعمان ، ١٩٧٢ ) ، ص ٩٠ ، انظر ايضاً : مصطفى جواد ، الكرملي والرصافي في : **لغة العرب** ، السنة ٢٧ ، العدد ٦ ، ص ٣٢٧ ، والسنة ٣٠ ، العدد ٢ ، ص ١١٥ .

اللهجة ، ليست هي القاسم المشترك للعامية العراقية ، بحيث نتوسع في استعمالها ، وكأنها هي اللهجة البديلة ، هذا اذا غضضنا النظر عن كونها « عامية » لا تنسجم اصلاً مع فكرة « التكامل »، لا قطرياً ولا قومياً .

كما نلاحظ ايضاً ، على البرنامج الريفي الزراعي ، استخدام الفصحى بقسر واضح، يشحنها بمصطلحات ، وتعابير سياسية ، ثم يلويها ، لكي تصبح لهجة عامية دارجة ، ظناً من مقدم البرنامج انه بعمله هذا يطوعها لمدارك اهل الريف من المزارعين ، ولكنه يحاول عبثاً ، لأنها تظل صعبة ، لا يفهمها ابناء الريف بسهولة .

ولكون الاذاعة اكثر قدرة ووفرة ، من التلفزيون ، واقل كلفة ، كذلك ، فهي من اهم وسائل الاعلام الجماهيرية ، بسبب قدرتها على الايصال السريع ومخاطبة اكبر عدد من الجمهور ، لما تبثه من برامج مختلفة ، تساهم في تشكيل الرأي العام واحترامه، وتحقق التقارب الذهني بين الجماهير والسلطة .ولكونها ـ الاذاعة ـ تخاطب الاذن ، فإنها تخلق التخيل المباشر ، مما يعطي الاخبار قيمة ، مضافة الى قيمتها الاعلامية المحضة . وتزداد اهمية الاذاعة في هذا المجال ، اذا ما عرفنا ان الجماهير العربية عموماً ، هي جماهير « سمعية » بسبب نسبة الامية العالية بين صفوفها ، ومن هنا ، فإن على الجهات المسؤولة ، والمختصة ، العناية الفائقة بالاذاعة ، من حيث : التكنيك ، والبرمجة ، والصوغ ، ومن حيث اتباع الاساليب العلمية ، والتحليل السريع ، والتنويع ، واثراء البرامج بالمادة الواسعة واستهداف كل ما من شأنه شد المواطن الى اذاعة بلده ، بهدف ابعاده عن التطلع او الانشداد الى بعض الاذاعات التي قد يجد في برامجها ما هو اوسع ، وامتع ، واكثر فائدة .

وتأتي هنا ، اهمية البحوث ، والتقويمات الميدانية ، لترسم في ضوئها الخطط ، ابتعاداً عن الوقوع في الاخطاء ، وانسجاماً مع واقع الجماهير وتلبية لمطالبها ، الذوقية ، والنفسية ، ولكي لا تظل الرؤية بالنسبة للجمهور ، ضبابية ، بحيث ينظر اليه ، وكأنه جمهور عام ، ثم لكي لا تظهر على وسائل اتصالنا « النزعة النخبوية » اذ ان المراقب للصحف عموماً وللاذاعة الصوتية والمرئية ، في برامجها الاخبارية على وجه الخصوص . . يلاحظ ان برامجها تخضع في بعض الاحيان « للخطاب الاعلامي » وللعلاقة الفوقية ، مما يضعف من مصداقيتها كوسيلة اعلام جماهيرية .

كما يلاحظ ، ان ظروف تحسين الاستماع ، وتحسين اللغة ، ما تزال دون مستوى الطموح المنشود ، الامر الذي يستدعي تطوير الاجهزة تكنولوجياً ، واستثمار الطاقات المبدعة وتشكيل اقسام للبحوث ، ولجان استشارية من خارج المؤسسات الاعلامية الجماهيرية ، لكي لا تنعكس هذه الثغرات بمردود سلبي، على عملية الاتصال الجماهيرية . ولعل الحديث عن السينما ، لا يختلف كثيراً ، عن الحديث ، عن الاذاعتين ( الصوتية ـ والمرئية ) ما عدا ان المتلقي في السينما ، تغلب عليه روح الجماعة ، فيتأثر بها ، بينما تغلب عليه عقليته الفردية في الاذاعة ، فلا يذوب في عقلية الجماعة .

اما في التلفزيون ، فتجتمع الصورة والصوت ، ويكون هذا الجهاز اقرب الى السينما ، ولكنه يظل يعتمد على المنظور في المقام الاول .

ولعل مما يضعف من توجهات وسائل الاعلام الجماهيرية ويؤخر من رقيها الى مستوى التكامل القومي ، كون تبادل البرامج الاذاعية ، والتلفزيونية خصوصاً ، يكاد يكون جغرافياً ، مقتصراً على « بلدان الخليج من جهة ، وبلدان المغرب العربي من جهة اخرى » . وهنا يبرز دور المنظمة العربية للتربية والثقافة واتحاد الاذاعات العربية في تخطي الحواجز ، والسعي نحو تحقيق التكامل ، في اجهزة الاعلام الجماهيرية العربية ، في الاساليب والمضامين .

لقد احدثت الآلة ثورة في الاتصال ، وتجسدت قدرة وسائل الاتصال في لغة الاعلام الجماهيرية ، ثم ضاعف تطور الوسائل من اهمية اللغة وساهم في تطويرها ، وما زال التأثير متبادلاً ، بين حلقات هذه السلسلة ، وستزداد هذه الحلقات اهمية ، بعد ان يستخدم العرب القمر الصناعي ، للاتصال الاعلامي . وعلى العرب منذ الآن ، ان يبحثوا عن « لغة عربية فصيحة مشتركة » تقارب بين مستويات اللغة ، وتحقق الرابطة بين الاعلام والمجتمع ، على المستويين ، القطري والقومي ، وصولاً الى تكامل الحياة القومية ، واثراء القيم الانسانية .

## ثالثاً : الفصحى المشتركة لغة الحضارة الاعلامية

لقد بات واضحاً ، ان الاعلام فن حضاري ، وان لغته لغة جديدة ، تأتي منزلتها ، في حلقات وسائل الاعلام التكنولوجية ، بمثابة « نظام اعلامي » باعتبارها هي الاداة الاساسية ، التي تنتقل بها سائر النظم الاعلامية الاخرى .

ولذلك ، فإن مشكلة اللغة ، بحد ذاتها ، عامل مهم ، في فاعلية وسائل الاعلام الجماهيرية ، ففي البلدان التي تتعامل باكثر من لغة واحدة ، تجد الجهات المسؤولة ، صعوبة في تعميم الاعلام الجماهيري ، اما في البلدان ، التي تتعامل بلغة قومية غالبة ، فإن المشكلة تكاد تنحصر في اساليب الصوغ ، وفي المضامين . ويكون لوسائل الاعلام الجماهيرية ، دورها الفاعل ، والواسع ، عندما تنجح في استخدام وسيلتها الاساسية ، التي هي اللغة ، ولذلك يقال : ان وسائل الاعلام الجماهيرية الناجحة ، تختار جماهيرها ، عن طريق المضمون ، مؤدى بلغة عصرية ، مبسطة ، ومعبرة ، ولهذا ، فإن « التطور المذهل في وسائل الاعلام، يقتضينا ان نؤصل البلاغة الجديدة ، من خلال دراسة طبيعة الجماهير ، التي تتلقى الاعلام والوحدات والانماط التي تتألف منها ، وان ندرك ان الكتابة ليست الا وسيلة لتحويل المسموع الى مرئي »(١٤) .

لقد بشر « ويلز » قبل عدة عقود من السنين ، بلغة جديدة ، وبلاغة جديدة ، وعبر عن حاجة العصر ، الى لغة اعلامية جديدة ، وكتعبير عن اثر اللغة ، واهميتها ، كوسيلة اتصال ، فقد

---

(١٤) شرف ، **الاعلام ولغة الحضارة** ، ص ٢٦ .

ذهب بعض الباحثين الى ان الناس ، يبنون حضارة عصرهم ، وفق « عالم اللغة » وذلك ، لأنهم لا يحيون في نطاق عالم الموجودات ، والاشياء ، التي تحيط بهم ، ولا في نطاق الحضارة المادية ، والحياة الاقتصادية فقط ، وانما هم خاضعون لعالم اللغة ، التي هي وسيلة تعبيرهم ، لأن الواقع ، يرتكز ، لا شعورياً ، على العادات اللغوية للجماعة (١٥) .

إن وسائل الاعلام الجماهيرية ، بما فيها اللغة اصبح لها تأثير عظيم ، على عقول الناس ، وعلى سلوكهم ، وتغيير مداركهم ومواقفهم الخاصة وتشكيل آرائهم ، على نحو ، يجعلهم ينزعون الى التجديد ، والى تحمل المسؤولية ، والاسهام في عمليات التنمية القومية ، على جميع الصعد .

واذا كان هدف الاعلام الجماهيري، هو الوصول الى جميع قطاعات المجتمع والتواصل معها ، والتأثير فيها ، وصولاً الى تكاملها ، والى توحيد مشاعرها ، عبر مشاركة ايجابية ، قطرياً وقومياً ، فإن اللغة هي السبيل الاول ، الى هذا الهدف ، لأنها حلقة اساسية ، في سلسلة حلقات وسائل الاتصال ، وبقدر ما تكون اللغة ، موحدة ، ومفهومة من قبل الجميع ، فإن الرابطة بين الاعلام ، والمجتمع ، تتحقق ، على نحو ، يخدم عمليات التنمية .

على ان هذا التصور ، يفرض على وسائل الاعلام الجماهيرية ، الاعداد « لفصحى مشتركة » ، فهي على الصعيد القطري ، اقرب من غيرها ، الى احداث التكامل ، لأنها مفهومة من قبل العامة ، ولأنها وسيلة تقارب بين مستويات اللغة : العلمية ، والادبية ، والعملية.

اما على الصعيد القومي ، فإن لغة الاعلام ، الفصيحة ،المشتركة،المبسطة ، والمعبرة ، هي اللغة الوسط ، التي لا بديل سواها ، لتعميم الاعلام وتأثيره ، لكي يقوم بدوره ، في التواصل ، وفي الغاء عنصر المكان وتنمية الوعي القومي كماً ونوعاً .

ومما لا شك فيه ، ان التطور الاعلامي ، اثر على الوطن العربي وعلى اللغة العربية ، ايجابياً ، ولكن، كانت له ، في الوقت نفسه ، مضاعفات جانبية ، ففي الوقت الذي كان فيه الاعلام الجماهيري ، عاملاً في التكامل القومي ، والتوحيد ، فإن التوسع فيه ، جر ، الى استعمال اللهجات العامية ، بشكل مفرط ، وهذه ارتبطت بالاقليمية ، ومن شأنها ، بالتالي ان تكون عاملاً ، في تكريس التجزئة ، اذا استمرت وتضخمت ، وتوسعت ، على حساب الفصحى .

ان المشاركة الواسعة ، التي ينشدها الاعلام الجماهيري ، على الصعيد القومي ، لا تتحقق ، الا بلغة مشتركة ، وان الفصحى المشتركة - والعرب ، مقدمون على استعمال القمر الصناعي اعلامياً - هي الوسيلة الاولى ، نحو هذا الهدف ، ونحو توحيد المشاعر ، والسير حثيثاً صوب الوحدة الثقافية لان الفصحى هي اللغة الوحيدة ، التي تتجاوز حدود القطر الواحد ، الى جميع الاقطار ، اضافة الى انها لغة الحضارة الاعلامية الجديدة ، فهي فصحى ، ولكنها سهلة ،

---

(١٥) احمد ابو زيد ، « حضارة اللغة ،» عالم الفكر ( الكويت ) ، ( نيسان / ابريل ١٩٧١ ) .

وأليفة ، ومعبرة ، اذا أُحسن استخدامها ، وهي اللغة الاعلامية الاوسع ، لأنها مفهومة ، لدى العامة ، على المستوى القومي ، وان استعمالها بالتالي ، لا يؤثر على اللهجات الشعبية والعامية ، المحلية ، ولذلك ، فمن واجب الاعلام ان يسعى حثيثاً ، نحو تعميمها لان تعميمها ، والالتزام بها ، معناه الالتزام بالمجتمع القومي الاوسع ، والعروبة ، لا تستلهم وجودها الا من خلال لغتها ، لأن قلب الشعب ، كما يقول هردز ، ينبض في لغته ، وان روح الشعب ، تكمن ، في لغة الآباء والاجداد .

## ملاحظـــات

مع ان هذا التعقيب ، كما هو واضح ، ليس بحثاً ، مستنداً الى استجوابات ، وتقويمات ميدانية ، فإن الاشارات ، والآراء ، والاحكام التي وردت فيه ، يعتمد اغلبها على ملاحظات ، مستقاة من التجربة ، ومن المراقبة العملية ، ويمكن اجمالها بما يأتي :

١ ـ ضعف لغة الاعلام الجماهيري ، في عملية التكامل القومي ، بسبب شيوع اللهجات العامية المحلية ، وبسبب ضعف هذه الوسائل في بلورة فصحى عربية مشتركة .

٢ ـ اختلال التوازن ، بين اللغة المعتمدة وبين التقدم التكنولوجي الهائل ، الحاصل في وسائل الاتصال .

٣ ـ ما تزال وسائل الاعلام الجماهيري ، بشكل عام ، تخاطب « جمهوراً نخبوياً » ، ويبرز هذا في الصحف ، وفي كثير من البرامج الاخبارية ، التي تخضع للخطاب الاعلامي ، ولصيغ العلاقات الفوقية ، الامر الذي يضعف من مصداقيتها ، كوسائل اتصال جماهيرية .

٤ ـ إن الرؤية الاعلامية بالنسبة لمسألة الجمهور ، تكاد تكون « ضبابية » ويكاد يكون الجمهور بالنسبة ، اليها ، هو « الجمهور العام » دون مراعاة في بعض الاحيان ، لقطاعاته ، وشرائحه المختلفة .

٥ ـ غياب الخطط المفصلة ، المنسجمة مع الاهداف ، والمبنية على نتائج البحوث ، والتقويمات الميدانية عموماً ، باستثناء اعتماد مثل هذه التوجهات ، بقدر ما ، في اقطار عربية قليلة ، كمصر ، والعراق ، والسودان ، مع ملاحظة شيوع توجه اعلامي ، يؤثر في نتائجه ، الاكتفاء بتحقيق قدر متوازن ، ومعقول ، قوامه « اخبار ـ ترفيه ـ تثقيف » .

٦ ـ ضعف العلاقة ، بين الاختصاصيين والمبدعين ، من جهة ، وبين وسائل الاعلام الجماهيرية ، من جهة اخرى ، وعدم وجود لجان استشارة ، وبحث ، مستمرة ، من داخل المؤسسات وخارجها ، تتولى ، على الدوام ، تقويم البرامج ، والتوجهات الاعلامية ، في الاشكال ، والمضامين ، وصولاً الى تحقيق التواصل مع الجماهير ، على نحو ، يجنبها الاخطاء ، ويصل بها الى افضل النتائج .

# المنَاقشَات

## ١ ـ الشاذلي الفيتوري

اطلب المعذرة من الاخوان لاني شعرت الآن اني قد تجنيت عليهم . انا دخيل على الجلسة المباركة اذ أتيت من بلاد الغرب وبلاد الغربة من جنيف كي ادخل وافتح باب النقاش . اشكر د. سعدون حمادي على افتتاح هذه الندوة بكلمته التي افادتنا جميعاً وأثارت بلا شك كثيراً من المشاعر ، وقد ازكت ما قد يكون قد فتر في بعض النفوس من ايمان بالقومية العربية لما نقاسيه اليوم من حالات مزرية او حالات لا ترضي بالنسبة لكامل المجموعة العربية شرقاً وغرباً .

اريد بوصفي فرداً من ابناء الامة العربية يأتي من بلاد المغرب ، ان اقدم ملاحظة اخوية بسيطة اعتقد ان د. حمادي لا يمكن ان يؤاخذ عليها اذ هي ربما من باب زلات القلم او زلات اللسان عندما يقول « ان بلاد المغرب قد دخلت مجال التعريب والرجوع للثقافة العربية والحضارة العربية في هذه السنوات الاخيرة » . ما استطيع ان اقوله ـ وهذا من باب توضيح بعض الحقائق ـ ان بلاد المغرب لم تخرج البتة عن عروبتها منذ القدم وأنا اقول المغرب ما زالت تحمل في طياتها من قديم الزمن الى يومنا هذا المأساة الاولى التي قاساها العرب ؛ وما مأساة فلسطين اليوم الا ذيل من ذيولها . هي مأساة النكسة في الاندلس وعندما يتجول الانسان من الرباط الى تونس ويرى القرى الاندلسية القائمة الى الآن بعاداتها وتقاليدها وفنونها الشعبية والاصيلة ، كفن الموشحات ، يعلم ان الاندلس لم تمت . فقد ماتت جغرافياً ان شئنا وماتت سياسياً ، الا انها لم تمت في نفوس الناس وفي نفوس المغاربة ، على الاقل . ومن لم يزر قرطبة ، ومن لم يدخل غرناطة ومن لم يدخل اشبيلية ، ومن لم يشهد معالم الحضارة العربية الاسلامية هناك ، القائمة الى يومنا هذا ، فإنه لا يستطيع ان يفهم شيئاً من مآسينا اليوم ، لا يمكنه فهم ذلك ان هو لم يتمثل المأساة الكبرى التي كانت للعرب في الاندلس والتي امتدت الى الحروب الصليبية وما بعدها ، ثم الحروب الاستعمارية ثم النكسات والانتكاسات التي ما زلنا نعيشها الى الآن .

إذاً بلاد المغرب لم تخرج عن العروبة ولم تدخل مجال التعريب ، ولم تدخل مجال الثقافة العربية في السنوات الاخيرة. بل اذكر على سبيل المثال ، ولا اريد الاطناب ، ان حركة النهضة عندما قامت في مصر قد وجدت صداها ، ولربما قد وجدت لها ما يضاهيها ويتجاوزها في بلاد المغرب . ان خير الدين باشا كان من الاوائل الذين فطنوا الى هذه المسافة السحيقة التي تفصل بين الغرب والشرق ، وبين حضارة الغرب والحضارة العربية الاسلامية ، فأراد ان يسدّ هذا النقص لا في مجال اللغة والنهضة ذات اللون الادبي فحسب ، بل في المجالات الحيوية الاساسية التي ما زلنا نقاسيها الى الآن ، وما زلنا نتلمس لها الحلول ، اعني بذلك المجال العسكري اولاً . وقد اتبع خير الدين باشا هذا ، واحدث المدرسة العسكرية « بانة » ، واهتم الى جانب انتباهه للتراث ، بالمجال الصناعي. فشجع صناعة البواخر والسفن ، واحدث المدرسة الصناعية في ضواحي الكلس . وفي مجال الثقافة اهتم بتكوين الاطر الادارية والسياسية اللازمة للبلاد ، فأحدث لذلك المدرسة الصادقية ، التي ما زالت قائمة ليومنا هذا . ثم كان اول من عمل على تطوير التعليم التقليدي وأدخل تعديلات جسيمة جداً وجريئة كذلك على الجامعة الزيتونية ، وذلك قبل ان يدخل الشيخ الامام محمد عبده إصلاحاته على الازهر او « الجامعة الازهرية » . كما احدث المكتبة الوطنية ، ودخل في حوار مع الثقافات الاجنبية لا على اساس التسليم لهذه الثقافات بأنها هي الاولى والاخيرة ، بل على اساس الحوار ، وإعادة الحوار ، كما كان الامر قائماً في بغداد في عصر العباسيين ، في الاندلس في عصر ازدهار الحضارة الاندلسية وفي القيروان في عهد الاغالبة . كل هذا قد نجد له بذوره. وهناك شواهد تاريخية ، وهناك وثائق نحن في حاجة الى العودة اليها وربما الى التعريف بها ، مع الاسف .

من مظاهر الاستعمار الثقافي الذي انتاب الاقطار العربية حدثت هذه القطيعة بين الشرق والغرب ، واصبح الغرب في معزل عن الشرق ، واصبح المغرب العربي منقطعاً عن المشرق العربي . المشرق العربي يجهل تماماً كذلك ما يجري في المغرب من مظاهر هذه النهضة . ان الجزائر التي وضع عليها الاستعمار الفرنسي كامل ثقله واراد ان يبرمجها تماماً قلباً وقالباً لولا قيام حركة عبد الحميد بن باديس ، وهو من خريجي الزيتونة . وكذلك الرئيس الراحل هواري بومدين انما هو من خريجي الزيتونة قبل ان يكون من خريجي المدرسة العسكرية المصرية . اذاً الزيتونة اضطلعت بدور خطير في النهضة العربية الاسلامية ، وقد غذّت الحركة الوطنية الجزائرية . ولولا حركة عبد الحميد بن باديس في كامل التراب الجزائري لما قامت للثورة الجزائرية قائمة ، ولما استطاعت الجزائر اليوم ان تحرز استقلالها وان تبني من جديد كيانها العربي الاسلامي . فاللغة العربية لمّا تندثر حتى في الجزائر . واقول « حتى في الجزائر » ، لأن الجزائر قد اعتبرت مدة طويلة من الزمن ، في نظر اولي الامر في فرنسا ، جزءاً من التراب الفرنسي ، وكانت السياسة الفرنسية مبيّتة ترمي الى فرنسة العقول والقلوب . رغم هذا ، فقوة الاسلام ، باعتباره وسيلة من وسائل النضال اضافة الى كونه عقيدة ، وقوة الايمان بالعروبة في الوطن الجزائري ، ولدتا اناساً مثل عبد الحميد بن باديس . وقد أقام حوله مؤسسة تسمى الى الآن « جمعية علماء الجزائر » .

كل هذا جعل الشخصية العربية الاسلامية الجزائرية تذوب وتكون هي الشرارة الاولى التي ستبعثها الحركة الثورية في تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٥٤ . كل هذا اذاً من المعطيات التي ستدل على ان حركة النهضة في المغرب ، وان اتخذت صيغاً ربما تختلف عما اتخذته في بلاد المشرق ، كانت دائماً منبثقة من مفهوم العروبة ، وان المغرب لم يتخلّ في يوم من الايام عن عروبته واسلامه ، وانه لم يدخل اذاً في هذه الايام الاخيرة دور العروبة ودور التعريب .

ملاحظة بسيطة واخوية ايضاً للدكتور عبد العزيز البسام ، لأنه قد التقى مع الدكتور سعدون حمادي عندما تحدث عن التعريب الذي لم يحقق بصورة مرضية ، وخاصة في التعليم العالي ، واشار بالخصوص الى بلاد المغرب . فعلاً بلاد المغرب ما زال التعليم فيها مزدوج اللسان لا في المرحلة العالية وحسب ، بل وكذلك في المرحلتين الابتدائية والثانوية . لكن الازدواجية هذه ، وهي مشكلة ربما قد يطول نقاشنا لها الآن ، وسأعود اليها لاحقاً لأني قد عالجت جانباً منها في الدراسة التي قدمتها لهذه الندوة، هذه الازدواجية انما هي متفشية في كامل البلاد العربية ان لم تكن ازدواجية بين الفرنسية والعربية والانكليزية والعربية ، فالازدواجية ، كما اشير الى ذلك منذ حين بين عربية عامية وعربية فصيحة . وهذا مظهر كذلك من مظاهر ذبول الثقافة العربية في تلك الاجيال الماضية . اذاً لا بد من ان نعالجها ، دون ما تحامل لا على المشرق ولا على المغرب ، مع تقديري لظروف المشرق والمغرب . لكن مع العلم كذلك انه لا سبيل لاي بلد عربي ان يشق طريقه بمفرده لحل هذه المشكلة دون ان يكون متعاوناً متضامناً مع بقية البلدان العربية .

فاللغة العربية انما هي لغة كل العرب ، وليست لغة مصر ولا لغة تونس ولا لغة العراق ولا لغة البحرين ، بل هي لغة كل العرب ، ولا يمكن لأي عربي ولا لاي قطر عربي ولا لأي مجمع علمي عربي ان يشرع لكل المجموعة العربية ان لم يتم اتفاق بين كل العرب على هذا النوع من التشريع او على اتجاه من هذا النوع . لذا فأنا مع د. عبد العزيز البسام عندما يطالب بسنّ سياسة للتعريب يكون متفقاً عليها على الصعيد القومي العربي لا على الصعيد الاقليمي . لأن ما انتهج الى الآن، وخاصة في بلاد المغرب ، من سياسات تقول او تدّعي انها سياسات تعريب ، هي في الحقيقة سياسات ازدواجية . لأنه عندما اتحدث عن التعريب في الجزائر فالاخوان الجزائريون يعنون بذلك ادخال العربية من جديد الى جانب الفرنسية في تعليمهم الرسمي . هذا ليس تعريباً ، بل هو ازدواجية . وعندما نتحدث عن التعريب في تونس فإننا نقول كلاماً هو اقرب الى كلام اهل المدينة الفاسقة منه الى كلام اهل المدينة الفاضلة . نتحدث عن التعريب في المجالات التي يمكن للانسان ان يتحمل فيها التعريب ، ونُبقي المجالات الاخرى خارجه ، حفاظاً على مكانات سياسية واقتصادية واجتماعية تجعل النخبة القائمة الآن في البلد تعمل على تدعيم وتكريس نفوذها . فننادي بالتعريب لابناء الشعب ولابناء الطبقة الفقيرة ، ونبقي على الازدواجية واللغات الاجنبية لابناء النخبة او نخبة النخبة من القوم .

إيماناً منا ، بأنه لا سبيل لنجاحنا عن طريق اللغة الفرنسية ، او عن طريق اللغة الانكليزية ، والاعتقاد أن اللغة العربية قد تجاوزتها الاحداث فهي لغة التراث ولغة الحنين

للماضي ولغة الرجوع الى الوراء ، فكل هذه المشاكل انما هي من رواسب الاستعمار ، انما هي من رواسب عصور التقهقروالركود،ولا يمكن علاجها ولا يمكن القضاء عليها في النفوس الا على الصعيد القومي . بقدر ما استطاعت الامة العربية في فترة الكفاح الوطني والكفاح التحرري الوطني ان تغذي في نفوس ابنائها شرقاً وغرباً شعور الاعتزاز بهذه القومية ، وتجعلهم يصمدون امام المستعمر ويحرزون استقلالهم بعد كفاح مرير . وثورة الجزائر انما تقوم مقام الرمز بالنسبة لكامل الامة العربية في هذا المجال . كذلك اليوم الكفاح الثقافي واسترجاع المكانة للثقافة العربية واللغة العربية في كل مجالات الحياة ، لا في مجال التدريس فحسب ، لا يمكن ان يقوم الا على اساس هذا الشعور القومي المشترك .

**٢ ـ ياسين خليل**

لي بعض الملاحظات على الدراسة التي قدمت من د. سعدون حمادي ، فقد تناول في دراسته مسألة تراجع الحديث عن القومية العربية ، وكانت الدراسة في ثلاثة محاور هي : الاثر النفسي والتنمية والمؤثر الخارجي . الدراسة تنطلق بالحقيقة من مفهوم وكأنه معروف لدى كل الناس هو مفهوم القومية ، وعلى اساس ان القومية واحدة لدى كل الافراد والجماعات والحركات والتنظيمات والاحزاب . بينما المعروف حتى الآن ان جميع قادة الفكر القومي العربي لم يتفقوا على اي تعريف للقومية العربية . كنت ارى واتمنى ان يبدأ الباحث بتعريف واضح للقومية التي يراها قاسماً مشتركاً تتفق عليه جميع التنظيمات والجماعات والحركات وما الى ذلك .

**النقطة الثانية** ، مع تأييدي الكامل للمحاور الثلاثة التي ادت الى فشل تحقيق الوحدة العربية ، هناك عامل مهم جداً أغفل في الدراسة هو الاختلافات الايديولوجية بين الحركات والتنظيمات السياسية . فعلى الصعيد القومي نجد حركات وتنظيمات مختلفة لكل منها ايديولوجيتها الخاصة، وادى هذا الى نوع من التمزق الذي يمكن ان يدعى الآن « التمزق العقائدي » . هنالك عدد من المواثيق السياسية الايديولوجية . اليمن الجنوبية لها ميثاق ؛ سابقاً ، الجمهورية العربية المتحدة كان لها ميثاق ، حزب البعث العربي الاشتراكي له ادبياته الخاصة ، حركة القوميين العرب لها ادبياتها الخاصة ، وحركات كثيرة وصلت الى السلطة فمارست السلطة فعلاً ، ومنها من تمارس وهي خارج السلطة ولكن لها تأثير جماهيري دون ادنى شك . الاختلافات ليست بسيطة كما نعتقد ، بل ادت في كثير من الاحيان الى التناحر والى الصراع الدولي . يضاف الى ذلك لو اخذنا محتويات القومية على سبيل المثال ، وما تتضمنه اجمالاً من شعارات متفق عليها مثل الوحدة والاشتراكية والحرية ، نجد ان معظم الادبيات عند الاحزاب والحركات لا تتفق على معنى الاشتراكية ولا على معنى الوحدة ولا على معنى الحرية ، بل هناك اختلافات جذرية تبدأ من اليمين الى اليسار . كلنا نحن الذين شاركنا النضال القومي نعرف بأنه في فترة من الفترات ، هي فترة ما بعد **١٩٦٣** ، طغى التفكير الماركسي على القومية العربية ، في تطوير الاشتراكية العلمية على كل ما عداه . بالطبع سمي الاشتراكية الماركسية ، وكتاب كلوفيس مقصود **ازمة اليسار العربي** خير دليل على ذلك .واعتقد ان هذه الاختلافات هي الاساس والسبب المباشر في عدم التقاء

الجماهير العربية للوحدة على الوحدة ، وما سببته هذه الاختلافات بين القوى القومية من آثار نفسية . ادى ذلك الى شيوع نوع من القلق والى شيوع نوع من التراجع بحيث ترك المجال مفتوحاً للسياسات القائمة ان تعمل عملها . هذا حصل حتى عند المثقفين انفسهم .

الكلام عن البديل وهو **النقطة الثالثة** ، في الحقيقة، القومية شيء والعالمية شيء آخر ، ولكن الماركسية لا تعني العالمية اطلاقاً . قد يكون من اهداف الماركسية ان تحقق الدولة الأممية لكن هي ليست عالمية بالمعنى الذي اخذناه في الفلسفة . هناك طروحات اخرى ، اذا لم تكن قومية فليس بالضرورة ان تكون إما ماركسية او دينية ، ربما تكون ليبرالية . لأن القومية لو اخذناها الآن على سبيل المثال في الدول الاوروبية لم تكن مرتبطة بأي نظام اقتصادي او نظام سياسي معين . فقد تبلورت بعد ان تشكلت الدولة من النواحي اللغوية والبشرية والجغرافية . فهذا بالطبع جانب . الجانب الآخر الذي اريد ان اضيفه ، اي البديل الذي لدينا ، عندما نقول قومية في مفهومنا نحن كقوميين اشتراكيين نقصد به القومية الاشتراكية ، ليس لدينا غيرها . لكن قد تكون القومية بالنسبة لقوميين آخرين ليست القومية الاشتراكية ، بل القومية الليبرالية . وبالفعل عدد كبير من القوميات التي تأسست في اوروبا كان اساسها ليبرالياً ولم يكن اشتراكياً . بقيت لدي نقطة واحدة ، وهي النكسات . لا شك انها تؤدي الى تأثيرات نفسية معاكسة ، لكن بعد دخول نابليون الى المانيا واحتلالها ، وبعد ان قاسى الشعب الالماني مرارة الهزيمة وقف احد الفلاسفة الكبار وهوكوتلب فيخته معلناً في عدد من المقالات « ان الوقت أذِنَ لقيام الدولة الالمانية » .

يجب على الانسان ان يفهم العناصر السلبية والعناصر الايجابية فيحاول ان يتخطى العناصر السلبية . قناعتي من كل هذا الحديث ان ليس هناك تراجع عن الحديث في القومية العربية ، بل هناك نوع من إعادة النظر بكل الاتجاهات التي حدثت والتي قادت الى النكسة ، او التي قادت الى تكوين دول مثل ما حدث في العراق . وعندئذٍ المواطن العربي ، عندما يجد دولة قومية مثل ما يجد الالماني في بروسيا دولة قومية جيدة ، يحاول ان يبني دولته على نمط تلك الدولة القومية وعندئذٍ تتحقق الوحدة لا دفعة واحدة ولكن على خطوات .

**٣ ـ حميد الهيتي**

سينصب حديثي على جانب اللغة واثرها في الوعي القومي . ومن الانصاف اقول ، وفي مجال بحث د. عبد العزيز البسام ، ان طرحه للموضوع باسلوب عربي شيق وفصيح يجعلني اؤكد ثقتي السابقة ، بأن د. البسام هو من القلائل الذين يعززون حرصهم على اللغة الفصيحة بممارستها ، وهذا نمط يندر الآن . ان كثيراً من المتحدثين عن الفصيحة وضروراتها ، مع الاسف ، احياناً لا يطبقون ذلك فيما يقولون ، بل يعجزون عن ذلك ، وربما يطلبون المستحيل . من خلال بحث د. البسام اقول ان واقع اللغة العربية الفصيحة على مستوى التعليم وعلى مستوى غيره ليس على ما يرام . واذا كان الجميع قد تحمسوا كثيراً للتعريب فأنا اقول ينبغي ان نتحمس مع التعريب حماساً آخر ، حماساً للتفصيح . اذا كان التعريب على مستوى تعريب العلوم في الكتب

المكتوبة ، فنحن بحاجة الى ان نشيع الفصيحة فيما نتحدث وفيما نكتب معاً . ومعركة العودة الى الفصيحة ربما لا تقل اهمية عن معركة التعريب . لكن ورد في بحث د. البسام ضرورة ارتباط العودة الى الفصيحة بصدور قرار سياسي . وانا ارى ان قراراً من هذا النوع وفي مثل هذه الساحة ، الساحة التي نعيشها الآن ، خطير جداً لأن القرار سيصدر ليطبق على قاعدة غير قادرة على الاستجابة .

لقد عقدت ندوة في وزارة التربية وكانت معظم الاصوات تنادي بضرورة جعل التعليم بالفصيحة ، بدءاً من المدرسة الابتدائية وانتهاء في الجامعة . ولكن ظهرت اصوات ، وكانت محقة ، ان هذا الالزام قد يعطي نتائج عكسية ، لأن القاعدة الموجودة غير قادرة على الاستجابة . الكتاب المنهجي ضعيف ، ووزارة التربية تدأب الآن على تحسينه ، ومعلم اللغة العربية ضعيف ، وينبغي العمل على إعداده اعداداً افضل مما هو الآن . إن الوسائل المعينة على الفصيحة في التعليم ضعيفة ، وهي بحاجة الى تحسين والى حسن استخدام . اذاً إن ثورة على العامية في التعليم ومنهاجاً لطرد اللغة المهجنة من هذا الوسط يقتضينا امرين اثنين : الاول ، هو وضع الكتاب الجيد ؛ والثاني ، هو خلق المدرّس الجيد . وربما يعزز ذلك الثالث : اختيار معلم اللغة العربية او مدرس اللغة العربية . وهذا ينتهي الى ضرورة العودة الى وضع شروط خاصة للقبول في اقسام اللغة العربية في الجامعات العراقية وفي دور المعلمين والمعلمات .

ربما في المرحلة الحاضرة يكتفى بالحديث عن تحسين الوسائل المتاحة اما الوصول الى النمط المطموح اليه فينبغي ان يبدأ بثورة تبدأ من هذه الاسس التي ذكرتها .

وفي مجال تعقيب الاستاذ محمد جميل شلش ود. مسارع الراوي يبدو لي ان الحديث قد غلب عليه جانب وسائل الاتصال ، وجاءت اللغة طرفاً من هذه الوسائل ، وكان الحديث فيها عاماً . واخيراً في نهاية حديثيهما تخصصا بالعربية مع ميل لم يأخذ الحجم المطلوب في اقترانه بالفصيحة . انا لا اتفق مع ما ذهب اليه الاستاذ محمد جميل شلش بأن وسائل الاعلام قد خدمت اللغة وخلقت آفاقاً جديدة لها واعطت نمطاً مشرقاً ، الا اذا كان التساهل في حدود اللغة ، واقول التساهل غير المشروع ، الاّ اذا كان ذلك مقراً من قبله او من قبل البعض ممن ينهجون هذا المنهج .

إن الاعلام اضرّ باللغة . نحن لا نريد بالفصيحة الفصيحة المتقعِّرة او القريبة الالفاظ او الفصيحة الصعبة . اننا نريد الفصيحة الوظيفية المتداولة . وأنا لا استطيع ان افهم بأية حال من الاحوال ان يخطىء احد في اوليات اللغة ، في مرفوعات ومنصوبات الاسماء ، يخطىء حتى في استخدام حروف الجر ، يخطىء في ابسط وسائل إعلام وقواعد الإملاء . يمكن ان يكون الاعلام نافعاً للغة العربية او جاداً في إنصافها وهذا موجود . وقبل قليل أخبرت احد الاخوة ، انني بالامس اتصلت بالسيد رئيس المؤسسة العامة للاذاعة والتلفزيون على اثر إعلان في التلفاز ، وكان في الاعلان خطأ املائي ، لأنه في لفظة المدونة اسماؤهم وضع الهمزة على كرسي الياء . وطبعاً هناك مشرفون لغويون لا احملهم هذه المسؤولية كثيراً ، بل احملها الوسط الذي نعيش فيه . ان الوسط

مع الاسف قد انحرف لسانياً عن جادة الفصيحة . وقد آن الاوان ان نثور على العامية ، لأن العامية تنمي ظاهرة التجزئة ، والفصيحة هي اللغة التي توحد .

وقد تحدث الاستاذ محمد جميل اخيراً كيف نوحد لغة الاعلام العربي . ليعد الناس الى الفصيحة المبسطة التي ترتكز على اوليات قواعد اللغة العربية وبذلك فقط يخلقون لغة موحدة يفهمها الجميع . انا لم اجد عربياً يستمع الى مذياع يذيع نشرة الاخبار بالفصيحة ويقول لا افهمها . واود هنا ان اذكر ان مسرحية الخنساء التي اديت بفصيحة بسيطة في حينه، اثارت عند الناس حماساً كبيراً الى الفصيحة ، بل حتى في وسط القيادة السياسية وعلى اثرها سُئلنا في التعليم العالي وفي غيره اين انتم من الفصيحة؟ ولماذا لا تعملون مثل هذا الادب ؟

**٤ ـ محيي الدين توفيق**

سأقصر حديثي على اسباب او عوامل انحسار الحديث عن القومية العربية . وفي الواقع هناك في رأيي عاملان متتابعان متلازمان : احدهما عامل داخلي والآخر خارجي ، ولكن احدهما هو نتيجة للآخر . فالنكسات ـ التي تفضل واشار اليها ايضاً د. ياسين خليل ـ نعم قد تحدث وطأة نفسية وانكسار نفسي يؤثران على مجمل العملية التقدمية ومجمل العملية السياسية . هذا لا شك فيه فإذا كان هذا الانكسار منظماً تنظيماً متعمداً يصبح الامر اكثر تعقيداً واكثر قدرة على احداث فجوة واسعة وعميقة في نفوس الجماهير . فالنكسات التي واجهت الامة العربية هي غير النكسات التي واجهتها المانيا . والمعامل هناك ، ١٥٠ سنة او اكثر ، اختلفت فيها الوسائل العلمية والتكنولوجية وعوامل التأثير الخارجي المنظم ، واختلف الوضع السياسي الدولي .

إن تتابع النكسات وبشكل منظم ، ادى الى هذا الوضع الذي نعانيه الآن . هذا فضلاً عن ان النماذج لم تكن بالمستوى المطلوب سواء النماذج المطبقة او المقترحة ، او الافكار التي طرحت . تحدث هذه الفجوة الكبيرة في نفوس الجماهير عندما نتحدث عن القومية العربية ونسيء الى القومية العربية بتصرفاتنا،مع جيراننا من غير العرب تصرفاً يوحي بأن العرب قوم عدوانيون،او مع بني جلدتنا كما يحدث مثلاً في لبنان في يومنا هذا او في بعض البلاد العربية ازاء حرب مقدسة يخوضعها العراق . العمل الثاني وهو ، كما قلت،منظم ايضاً في رأيي هو اننا نواجه الآن هجمة استعمارية منظمة ودقيقة ومدروسة على مدى ، ليس السنين الاخيرة ، وانما ربما على مدى ٣٠ او ٤٠ عاماً الماضية ، بحيث تعمل على اجهاض كل حركة فكرية تتبعها دولة سياسية او تطبق سياسياً في دولة ما . وما اظن احداً لا يتذكر ، او لا يتفق معي في ان ما يحدث الآن ليس الا منظماً تنظيماً دقيقاً عندما وجد ان هذه الدولة التي بدأت بفكر قومي منظم ودقيق لا بد من ان تؤدي الى اشعاعات تتأثر بها المنطقة بأسرها ، وعندئذٍ لا بد اذاً من ان تحدث نواة للوحدة العربية في وقت ليس ببعيد .

إن الذي عانيناه او الذي فقدناه خلال ثلاث سنوات هي هذه المسألة الخطيرة التي في اعتقادي منظمة تنظيماً دقيقاً من الخارج واقصد بها اننا اوقفنا تنموياً واوقفنا سياسياً واوقفنا تطورياً لأننا نضطر لأن نضع الامور في مجال محدد وهو الدفاع عن حياض الوطن والحدود .

## ٥ ـ ماجد السامرائي

لدي ملاحظة شكلية في البداية تتعلق بسير الندوة وهي ان هذه الندوة اعطت وقتاً اطول للبحوث والدراسات في الوقت الذي قصرت من وقت المناقشة وكان بودنا ان يكون وقت المناقشة اطول لأن خلق الحوار وتعميقه في مثل هذا الموضوع الخطير له اهميته في هذه المرحلة . النقطة الثانية ايضاً موضوع توزيع البحوث . اعتقد لا يتيسر لأي انسان ان يعطي ملاحظات جوهرية على بحث او تقرير مع بداية الاجتماع . الملاحظة الاخرى تتعلق بالدراسة التي قدمها الاستاذ محمد جميل شلش وهي تتعلق بموضوع لغة الاعلام والذي شاركه فيها د. مسارع الراوي . هذا الموضوع في تقديري موضوع مهم ، ومن الضروري ان تكون حوله دراسات وبحوث لأنه يتعلق بمسألة جوهرية وهي قضية اللهجات وقضية اللغة الفصيحة ونحن مثل ما تعرفون ان امتنا العربية لفترة طويلة والسنوات الطويلة التي عاشتها من حياة التجزئة وفي هذا الظرف الجديد في مرحلة حركة النهوض القومي بحاجة الى تحديد منهج واضح لكيفية تحقيق هدف العودة الى الفصيحة اذا قلنا بأنه هو الهدف الرئيسي . ولهذا فإن لغة الاعلام عنصر رئيسي لتحقيق هذا الهدف لا بد ايضاً من ان تسلط حوله الاضواء وان يحدد المنهج في تحقيق لغة الاعلام العربي وفق المنظور القومي المطلوب .

نحن لا زلنا نفتقر الى الدراسة المنهجية حول هذا الموضوع ، وما جاء في الملاحظات التي اوردها الاستاذ محمد جميل شلش في تقديري على اهميتها ، ولكنها تحدثت عن امور عامة غير محددة للمنهج المطلوب الذي ينبغي ان يعمل وفقه واقع الاعلام العربي عموماً ؛ بالتأكيد هو مثلما تفضل الاستاذ شلش قضية الاعلام قضية رسالة ومرسل ومتلقٍ لكن على المؤسسات الثقافية والتربوية العربية ان تعالج هذا الموضوع بشكل علمي دقيق . فنحن نعيش واقع الذين يقومون بالعملية الاعلامية. وغالبية من الكتّاب والمثقفين والمبدعين، فإن دراساتهم اللغوية ضعيفة وفي بعض الاحيان معدومة . الذي درس هذه الدراسات درسها وفق الاسس التعليمية التقليدية التي لا يتمكن من خلالها ان يمارس الفعالية الاعلامية بالشكل المطلوب ووفق المنهج الصحيح . اضافة الى هذا فإن الممارسة في المؤسسات الاعلامية من قبل الناس المتخصصين سواء في التاريخ او الجغرافية او الاقتصاد او الادب ايضاً تقريباً معدومة ، والصلات بين المتخصصين وبين هذه المؤسسات ضعيفة . هذه عناصر تضعف تحقيق الهدف المطلوب ايضاً . لا بد من ان يكون هنالك من خلال الصلة الدائمة ان تقوم للمؤسسات الثقافية والجامعات ومراكز البحوث بحملة او بعمل منهجي من اجل تقويم اللغة الاعلامية واعطاء صورة واضحة عن ماهية اللغة الاعلامية المطلوبة لتحقيق هذا الهدف .

لي تعقيب اخير فيما يتعلق بما ورد في حديث الاستاذ شلش حول المؤسسات او الفعاليات الاعلامية في العراق وقضية استخدام اللهجات في الاذاعة والتلفزيون العراقية احب ان اوضح في هذا الجانب بأنَّ ما يتعلق بموضوع اللهجات هنالك قرار واضح ينص بأن لا تستخدم لهجة الجنوب في البرامج الاذاعية والتلفزيونية اطلاقاً . وهذا منذ فترة طويلة سواء أكان في الدراما او في البرامج الاخرى، قد تكون في موضوع الاغنية ، واعتقد انه من الصعب ان تحقق الاغنية هدفها من خلال اللغة الفصيحة .

٦ ـ سليمان مزبان

بودي ان اشكر الاخوة القائمين على التحضير لهذه الندوة لدعوة مجموعة من وزارة التربية ذلك لأنه في حضورنا فرصة للاستفادة من البحوث القيّمة المقدمة ، اضافة الى ان موضوع الندوة يمسّ مسألة التربية والتعليم بشكل اساسي ، ولاهتمام وزارة التربية اصلاً بتحديد مؤشرات لعام (١٩٨٥) من اجل تطوير مناهج اللغة العربية ولغة الكتب المدرسية .

وقد دعا د. البسام الى موضوع الانسجام بين النمو اللغوي والنمو العقلي . اعتقد ان عدم الانسجام بالجانب النفسي السيكولوجي بالتعبير اللغوي ونفسانية او سيكولوجية الاستيعاب والادراك للانسان العربي تطرح مهمة أساسية للعلماء والادباء والفنانين ورجال الثقافة والاعلام ليس في مسألة التذوق والصلة بالحياة ، كما اشار د. البسام ، وإنما في مسألة الفهم اصلاً . كيف نستخدم اللغة وسيلة من وسائل الفهم؟ كيف نبسط العلوم ؟

اعتقد انها مسألة ترتبط بمسألة طرحها د. مسارع الراوي وهي علاقة التربية بالاعلام ، ماذا يريد الاعلاميون من التربويين ؟ وماذا يريد التربويون من الاعلاميين؟ وهي مسألة اصلاً مرتبطة بالتلاؤم اللغوي ، او تجديد او تحديث اللغة الفاظاً وتراكيب ووسائل عرض وإزالة شوائب وتبسيط في انضاج عوامل الوعي القومي واهميته . اعتقد ان هنالك اهمية لقيام جهة متخصصة لتكن بوجه اعلامي ومن خلال جهاز اعلامي لكن ينبغي ان تكون هذه الجهة متخصصة بعلوم اللغة او حسن استخدام اللغة في العلوم لتصدر شيئاً جنباً الى جنب مع وزارة التربية . وزارة التربية حقيقة تحاول ان تطور مناهجها ، لكن مناهجها والانشطة المرافقة لهذه المناهج تأتي مرحلياً ضمن النمو العقلي لأن هنالك تواكباً بينهما . انما صار الطفل في مجتمعنا يتعلم الكثير من الاخطاء او الالفاظ الخاطئة ويتعلم كثيراً من المفاهيم الخاطئة من اجهزة الاعلام. اذن لا بد من ان تكون هناك جهة متخصصة وتساهم جهات تربوية وتعليمية بها في سبيل استخدام زاوية او ركن او وسيلة معينة إعلامية في سبيل تلافي هذا النقص . وهذه المسألة تبدو مهمة خاصة وان اجهزة الاعلام صارت تؤثر ، ولم تعد العملية التربوية اصلاً مقتصرة على المعلم والكتاب المدرسي في المدرسة ، وإنما صارت العملية عملية جماهيرية تساهم فيها عدة اطراف . فأعتقد من المفيد ، وقد تكون المجامع العلمية في الوطن العربي ، هي الاجدر على إعطاء التصور الصحيح لمثل هذا الاتجاه .

ما طرحه الاستاذ جميل شلش يشمل مسألتين اثارتا في ذهني مسألة مسحة اللفظ او الكلمة . اشار بأن اجهزة الاذاعة والتلفزيون تستخدم لهجة الجنوب ، وانا اعتقد ان هناك فرقاً بين مسحة اللفظ والكلمة ، قد تكون الكلمة عامية وقد تكون فصيحة لكن مسحة اللفظ تعطيها طابعاً محلياً . اعتقد اذا كان الجانب الثاني هو الحاصل فلا بأس من تنميته او تركه على علاّته . المهم ان تقال الكلمة فصيحة بأي مسحة لفظية سواء أكانت في البصرة او في الموصل . المهم ان تقال الكلمة الفصيحة .

واشار ايضاً الى مسألة الحس الاجتماعي بمفهومه الحضاري . انا اعتقد ان هناك ارتباطاً كبيراً بين الاثنين. واجهزة الاعلام ـ مثلما اشار اليها د. حميد الهيتي ـ تخرب اللغة. تقرأ احياناً مقالاً معيناً او ترى صورة في التلفزيون فتنفر من سوء استخدام اللغة ، ونطقها واخراج صورتها . واسباب ذلك تعود الى قصور تربوي في البيت وفي المدرسة وخارجها على المستوى اللغوي الذوقي بارتباطه بالواقع . وكما ان القيم احياناً تستشف من وراء السطور فكأن هناك إنقاصاً من القيمة وتشهيراً ، وكثيراً ما يكون هذا غير متعمد ، ولكن نتيجة عدم معرفة وعدم تطابق بين الحس الاجتماعي بمفهومه الحضاري والاداء اللفظي للمفاهيم .

### ٧ ـ احمد حقي

لديّ استفساران لزيادة المعرفة وليس لتجريح البحوث .

الاول ، تفضل د. البسام فقال العربية الفصيحة لغة للتعليم ، وأيده في ذلك الاستاذ الهيتي ولكن عقب على ذلك بأنها الفصيحة الوظيفية . فإن كان قصد د. البسام الفصيحة الوظيفية فأنا اوافق على ذلك لأنني اعرف انه لما سمع الاصمعي لفظة زوجة بدل من زوج ، اعترض عليها ، فقيل له ان هذه اللفظة استعملها ذو الرمة ، قال انه نشأ في الحواضر فلا يؤخذ به . فإذا كان الهدف التوفيق بين الاثنين فأنا مع الاثنين .

الثاني ، يتعلق بتعقيب د. مسارع الراوي وجميل شلش ، وجميل جداً ما تعرضا اليه . لكن هناك جانباً أساسياً يتعلق بقضية الاعلام واثره في توجيه الجيل . ظهر كتاب حديثاً اسمه (mass communication) ترجمته اليونسكو ، يشير الى ان اثر الاعلام اقوى بكثير من اية مدرسة كانت . فبودي لو يشار في البحثين الى القوة الكبيرة للاعلام . ولهذا اذا اتفقنا ان الاعلام يجب ان يحوّر على اساس انه اكثر اثراً من وزارة التربية فيجب ان يشد المسؤولون عنه العزم ، ويعرفوا ان المهمة التي هم فيها مهمة جد خطيرة .

اخيراً ، تفضل د. حمادي فقال لا يمكن تصور دولة تضم المسلمين . وانا اعترض فقط على « لا يمكن » . لأن التجربة الماضية كانت ممكنة ، فكيف لا يمكن التصور ؟

### ٨ ـ عبد العال الصكبان

في كلمة د. سعدون الاولى اشارة الى نقطتين : ان دور الثقافة وان كان غير مباشر ولكنه

اساسي في تكوين الوعي بالقضية الاساسية وهي قضية الوحدة . واشار في نقطة ثانية الى الابتعاد عن العلوية والتقديرية ، اي باتباع الاسلوب الديمقراطي في طرح الافكار . ولقد حكمت هذه المقدمة ما جاء في دراسته بعد ذلك . تحدث بإيمان صادق عن ان دولة الوحدة آتية كالساعة ، ولكنه اختار ان يذهب في بحث الاقتصاد والانماط الاجتماعية . وطرح نمطاً من النظام الاجتماعي العربي الذي يمكن ان يدور حوله نوع من التقارب او التعاون ، ومس وهو يسير في البحث قضية الجامعة العربية والتنظيمات . ثم انتهى الى افكار يمكن ان تبحث حول موضوع توضيح مفهوم القومية وتاريخ القومية ، وما اذا كانت القومية العربية اكثر اصالة او ابعد تاريخاً من ظهور مفهوم القومية في الغرب . ثم طرح القضية القومية والعرقية والوحدة السياسية .

الهدف الاساسي للندوة في تقديري معالجة تراجع الادب الوحدوي والادب القومي منذ فترة منتصف الستينات وحتى الآن . فما هي الوسائل التي تحفز الكتّاب العرب والمثقفين العرب الى العودة الى بحث مختلف الموضوعات ؟

يخيل للباحث احياناً ان الناس لا يجدون جدوى مباشرة في بحث قضية من قضايا الوحدة ، ما دامت الانظمة العربية غير مستعدة الآن للحديث في الجانب الوحدوي . بعض الاخوان قد يطرح قضية النظم الاجتماعية ، ولكن في الحال تأتي قضية تجربة دولة الامارات العربية المتحدة ، وتجربة مجلس تعاون الخليج ، برغم تساؤ ل الانظمة وبرغم تقارب السياسات الاقتصادية، ولكن الوحدة حتى في هذا المجال بعيدة المنال .

قضايا الوحدة لم تطرح بعد فترة انطلاقها في الخمسينات وبعد ان جاءتها نكسة الستينات ، لم تطرح طرحاً تفصيلياً وطرحاً علمياً يدور حوله النقاش . الآن طرحت الحقيقة قضية الاممية وقضية القومية . الاشتراكية بالضرورة قومية ، ولكن ليست الماركسية بالضرورة قومية ، الماركسية بالضرورة اممية ولكن مرة اخرى ليس هذا هو موضوع النقاش . الموضوع اننا نريد ان نقيم وحدة على اسس ليبرالية ، او وحدة على اسس اشتراكية . هذا ايضاً منحى جيد من الامور التي يمكن ان يكتب فيها ويتم النقاش بين القوميين الاشتراكيين والقوميين غير الاشتراكيين حولها. لكن يوجد قاسم مشترك هو موضوع القومية والوحدة العربية . لذلك ، في تصوري ، ان المؤسسات الرسمية والشعبية المهتمة بقضية الوحدة العربية مدعوة الى وضع بدائل وتصورات مستقبلية تقسم المستقبل على مراحل ، وفي كل مرحلة تطرح تصورات معينة فيها تصورات أساسية ، وفيها تصورات بديلة . واهم شيء ان تكتب بلغة مفهومة للناس.

القرآن الكريم على عظمته يهم كل الناس . كثير من الكتّاب العرب عندما يتكلمون عن المستقبل والنماذج المستقبلية يتكلمون بلغة لا يفهمها احد وحتى الخاصة . نريد ان نطرح وعياً جديداً في الاقتصاد ، في الاجتماع ، في التربية ، في كل مناحي الحياة ، يقرّب قضية الوحدة ؛ وبالتالي ينبغي ان تتصدى المؤسسات ذات الابعاد الوحدوية لتبني الانشطة التي تعنى بالمستقبل العربي . الآن يوجد نشاط يشارك فيه مركز دراسات الوحدة العربية ، وتشارك به الامم المتحدة

حول وضع تصورات مستقبلية للوطن العربي . هذه التصورات بعضها ما زال يكتب بلغة بعيدة كل البعد عن استيعاب الجماهير الحقيقية لقضية الوحدة . في كل ذلك ، المطلوب من المهندسين العرب والاقتصاديين العرب والمعلمين العرب كل في مجاله ان يضعوا شيئاً عن تصوراتهم . ويرد هنا بحث د. البسام حول تصور نمط يخدم به تدريس اللغة العربية قضية الوعي القومي . ان ادراكي للندوة الحقيقة هو التالي : كيف يمكن للكتابات باللغة العربية ان تخدم قضية الوحدة العربية ؟ إنها ليست قضية اتصال وليست قضية إعلام وانما قضية مخاطبة جماهير متعطشة الى هذا الوعي . ولكل ذلك فإني اؤكد على حقيقة ان هناك فعلاً انتكاسة في الادبيات الوحدوية . ولكني اقول ان كل تحدٍ يجب ان يولّد استجابة اكبر منه ، يجب ان تكون استجابة الكاتب العربي والمتعلم العربي اكبر من التحدي الذي ولدته النكسة ، حتى نستطيع ان نتحرك للامام .

**٩ ـ يوسف نمر دياب**

لي تعقيب على ما جاء في بحث د. سعدون حمادي ، حيث انه ذكر ان لا تناقض بين القومية العربية والاسلام ، وان لا تناقض بين القومية العربية والانسانية ، في حين ان هناك تناقضاً بين القومية والعالمية والقطرية والطائفية . انني اعتقد ان التسليم تسليماً مطلقاً بأن لا تناقض بين القومية العربية والفكر الاسلامي ، قد ادى ويؤدي الى انحسار الفكر القومي .

من الحق اننا نقول او نعتمد في هذا القول على حقائق تاريخية ، منها ان العرب مادة الاسلام وحملة رسالته ، لكننا نلاحظ اثناء التاريخ العربي السابق والحاضر ان التعارف يكون ، او غالباً ما يكون ، بين حملة الفكر الاسلامي ، او من يدعون ذلك ـ ولا عبرة في الدعوى لأنهم يجدون في ذلك ما يبرر دعواهم ـ وبين الاتجاهات القومية . الحركات الشعوبية والحركات المناوئة للدولة القومية والدولة العباسية استندت على الاسلام ، على الفكر الديني والفكر الاسلامي . لو جئنا الى العصر الحديث في بداية الدعوة الى التخلص من الدولة العثمانية ، والى وحدة الامة العربية والى تحررها ، فإن اصحاب الفكر الديني هم من وقفوا ضد هذا الاتجاه بمعنى انهم كانوا يدعون الى الخلافة العثمانية الاسلامية . في الخمسينات هناك حركتان بارزتان مثلتا الفكر القومي ، حركة البعث والحركة الناصرية . وقف ضد هاتين الحركتين اتجاهان ، الاتجاه الماركسي والاتجاه الديني ايضاً .

اننا قد نردد هذا ، وانا افهم ، لأسباب اعلامية، لكن التسليم المطلق بالغاء هذا التناقض سيؤدي ، سواء ان درى اصحاب الفكر القومي ام لم يدروا ، الى تراجع فكرهم امام الفكر الديني ، الآن الدعوة الخمينية او الدعوات الاسلامية حتى من العرب ، هي التي تقف ضد الفكر القومي عموماً فأرجو عدم التسليم المطلق بعدم التناقض في هذا .

إنني اعتقد ايضاً اعتقاداً قد يكون غير بيّن، من دعوة د. حمادي الى الحديث عن القومية العربية ، اننا نحتاج الى التصرف القومي وليس الى الحديث ، لأن الحديث قد يؤدي بنا الى ما كنّا فيه طوال نصف قرن ، او ما يقرب من قرن ، الى احلام قد يصح ان نسميها رومانسية ، احلام الوحدة العربية .

# القسمُ الثاني

# الفصل الثالث

# من خصائص اللغة العربيّة

احمد مطلوب

- ١ -

العربية لغة الملايين من المتحدثين بها في الوطن العربي او الناطقين بها في العالم الاسلامي وبعض ارجاء المعمورة الاخرى . وهي لغة موغلة في القدم لا يعرف احد نشأتها الاولى، ومعظم ما قيل فيها لا يزال بعيدا عن التوثيق الذي تستند اليه الدراسات العلمية . وترجع الرواية العربية وتاريخها الى النبي اسماعيل ـ عليه السلام ـ وتذكر انه اول « من تكلم بالعربية ونسي لسان ابيه »[١] و « انه اول من فتق لسانه بالعربية المبينة وهو ابن اربع عشرة سنة » و « ان الله الهمه العربية الهاماً »[٢] و « ان العرب كلها ولد اسماعيل إلاّ حمير وبقايا جرهم »[٣] . ولكن العربية التي يعنون « اللسان الذي نزل به القرآن وما تكلمت به العرب على عهد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتلك عربية اخرى غير كلامنا هذا »[٤] .

واذا صحت الروايات فإن تاريخ اللغة العربية قديم ، فقد عاش ابو العرب ـ ابراهيم ـ عليه السلام ـ قبل المسيح بألفي عام ، وربما كانت العربية قبل ذلك العهد . فقد جاء عن النبي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ان « اول من كتب بالعربية اسماعيل » . وقال ابو عمر بن عبد البر :

(١) محمد بن سلام الجمحي ، طبقات فحول الشعراء ، تحقيق محمود محمد شاكر ، ٢ ج (القاهرة : مطبعة المدني ، ١٩٧٤ ) ، ج١ ، ص ٩ .

(٢) ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، البيان والتبيين ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ، ٤ ج ( القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٨ ـ ١٩٥٠ ) ، ج٣ ، ص ٢٩٠ ـ ٢٩١ .

(٣) الجمحي ، طبقات فحول الشعراء ، ج ١ ، ص ٩ .

(٤) المصدر نفسه ، ج١ ، ص ١٠ .

« وهذه الرواية اصح من رواية من روى : « ان اول من تكلم بالعربية اسماعيل » »[٥]. وهذا يدل على ان العربية اقدم من ذلك بكثير، لأن الكتابة لا تظهر مع اللغة وانما بعد ان تشيع وتنتشر ويصبح الناس في حاجة الى التدوين .

ويسند هذه الروايات دراسة صيغ العربية وأساليبها ، وقد حاول عباس محمود العقاد ان يستدل على ذلك بدراسة ضمائر الجنس والعدد فيها ، وانتهى الى انها اقدم اللغات الحية بدلالة الضمائر والاسماء الموصولة ، وهذا « . . . ظاهر من احتوائها عليها جميعاً وبقاء اصولها جميعاً فيها الى اليوم مستعملة لأغراضها التي تناسبها »[٦] . واستدل الاب انستاس ماري الكرملي بسفر ايوب قال : « ان لغة الضاد قديمة يشهد على ذلك سفر ايوب فإن كثيرين من العلماء يذهبون الى ان صاحبه وضعه بلغته العربية اذ فيه عبارات وتشبيهات ومجازات واستعارات لا تعرف الا في العربية . ولا شك انه نُقل من اللغة العربية الى اللغة العبرية وبقيت في النقل اصول اللغة ومبانيها وصيغها على اصلها او يكاد »[٧] . ودلت النقوش الثمودية واللحيانية والصفوية على ان اللغة العربية السابقة للفصحى ترجع الى القرن الخامس قبل الميلاد ، وان اقدم نص للفصحى نفسها يرجع الى سنة ٣٢٨ للميلاد[٨] . وهذا خير شاهد على قدم العربية واصالتها وتواصلها حتى يومنا هذا .

ان دراسة اللغة من داخلها ومقارنتها باللغات القديمة يوضح قدم العربية وعراقتها ، ويفتح لعلم اللغة المقارن ابواباً جديدة تعرض لقدم اللغات وتظهر مراحل تطورها خلال القرون الطويلة . واهم ما يعين على ذلك النصوص الادبية ، ولكن ما وصل الينا من العرب لا يصور العهود السحيقة وانما يمثل عصر ما قبل الاسلام بزمن لا يتعدى القرنين . ولعل الشعر الجاهلي اقدم تلك النصوص ، ولكنه لا يحدد تاريخ العربية لأنه « حديث الميلاد ، صغير السن » . قال الجاحظ : « فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له الى ان جاء الله بالاسلام خمسين ومائة عام ، واذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام »[٩] . وما وصل من هذا الشعر يدل على انه قطع عدة مراحل في تطوره ، فلغته ومعانيه واسلوبه واوزانه وقوافيه تؤكد انه ليس وليد قرن او قرنين قبل الاسلام وانما هو ثمرة قرون طويلة شهدتها العربية قبل ان تكتمل الفاظها ومعانيها واساليبها وتظهر في الشعر الذي اصبح « ديوان العرب » . وكتاب الله اصدق من ذلك الشعر في تصوير اللغة العربية ، فقد نزل بلسان

---

(٥) ابو القاسم عبد الرحمن بن عبدالله السهيلي ، **الروض الآنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام ومعه السيرة النبوية لعبد الملك بن هشام** ، تحقيق عبد الرحمن الوكيل ، قدم له وعلق عليه وضبطه طه عبد الرؤ وف سعد ، ٤ج ( القاهرة : مكتبة الكليات الازهرية ، ١٩٧١ - ١٩٧٣ ) ، ج١ ، ص ٧٨ - ٧٩ .

(٦) عباس محمود العقاد ، **اشتات مجتمعات في اللغة والأدب** ( القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٣ ) ، ص ٧١ .

(٧) انستاس ماري الكرملي ( الأب ) ، **نشوء اللغة العربية ونموها واكتمالها** ( القاهرة : المطبعة العصرية ، ١٩٣٨)، ص ١٠١ .

(٨) السيد يعقوب بكر ، **دراسات في فقه اللغة العربية** ( بيروت : ١٩٦٩ ) ، ص ٧ - ٩ .

(٩) ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، **الحيوان** ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، ٧ ج ( القاهرة : مكتبة مصطفى البابي الحلبي ، ١٩٣٨ - ١٩٤٥ ) ، ج١ ، ص ٧٤ .

عربي مبين على امة فصيحة بليغة فبهرها وجعل بعض من لم يهدهم الله يفرون منه لئلا يقع في الآذان والقلوب موقعاً حسناً فيدفعهم الى اعتناق الرسالة الخالدة والسير في سبيل الهداية والنور . ويمثل كتاب الله ارفع كلام عربي واسماه ، وهو معجز تحدى به سبحانه العرب فقال : ﴿ قلْ لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾(١٠) . ولولا بلاغته المعجزة واسلوبه الرفيع ومعانيه الرائعة ما كان موطن تحد رمز تفرد في قوم كانت لغتهم المتمثلة في الشعر والخطب والامثال ارقى ما وصلوا اليه قبل الاسلام . فروعة القرآن الكريم وبلاغته وفصاحته واسلوبه تدل على ان العربية قديمة ، وانها مرّت بمراحل كثيرة قبل ان ينظم فيها الشعر البديع وتنزل بها معجزة السماء . ولكن ذلك القديم لم ينقطع ، فقد بدأ حياته وسار في نموه حتى اكتهل وتمثل في اروع الاساليب، ولا يزال يربط الماضي بالحاضر ويمتد الى الآتي وهو يحمل سمات الاصالة ويتحدّى الزمان . فالعربية لغة متواصلة وهذا التواصل من اهم خصائصها، وقد شهد العالم لغات كثيرة وعرف لها ادباً وعلماً ولكنها اصبحت تاريخاً يذكر بعد ان بادت اممها ، وظلت العربية تواصل سيرها ومعها الامة العربية وهي تبني حضارة وتنقل العالم من الظلمات الى النور .

وكانت العربية متصلة بالامة التي حملتها قروناً ، ومعبرة عن خصائصها العقلية والنفسية والروحية ، وقد اوضح ذلك من خلال دراسة بعض الالفاظ عالمان جليلان هما العقاد ومحمد المبارك ، وانتهى الاول الى انه « لا يعرف علماء اللغات لغة قوم تتراءى لنا صفاتهم وصفات اوطانهم من كلماتهم والفاظهم كما تتراءى لنا اطوار المجتمع العربي من مادة الفاظه ومفرداته في اسلوب الواقع والمجاز »(١١) . وقال الثاني « ان بين خصائص اللغة العربية وخصائص العرب انفسهم وشيجة ونسباً »(١٢) . وهذه الوشيجة وذلك النسب خلداها على الزمن وجعلاها ممتدة متواصلة ومترابطة في اصولها وقواعدها على الرغم من التطور الكبير الذي نالته بعد نزول القرآن الكريم وبناء الحضارة العربية الاسلامية ، وعلى الرغم من الاخطار الكثيرة التي تعرضت لها في عهود الغزو والاحتلال او التخلف والجمود او التبعثر والضياع .

ولم يكن ذلك سهلاً يسيراً ، فقد تعرضت غيرها لاقل مما تعرضت له فبادت او اختلت او ذابت في غيرها ، ولعل ما اعقب سقوط بغداد عام ٦٥٦هـ كان امتحاناً عسيراً للامة العربية ولغتها ، فقد اصابها ما لم يصب لغة اخرى ، ولكنها خرجت من ذلك كله قوية بعد أن اشتد الوعي القومي وانتشر ، وبعد ان وقفت الاقطار العربية تلم اشتاتها وتوحد كلمتها وتبني حاضرها على اساس قومي يوحد ولا يبدد وفكر عربي يبني ولا يهدد .

---

(١٠) القرآن الكريم ، سورة الإسراء : الآية ٨٨ .

(١١) عباس محمود العقاد ، **اللغة الشاعرة : مزايا الفن والتعبير في اللغة العربية** ( القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ؛ مطبعة مخيمر ، ١٩٦٠ ) ، ص ٦٠ .

(١٢) انظر لمحمد المبارك : **خصائص العربية ومنهجها الاصيل في التجديد والتوليد** ( القاهرة : جامعة الدول العربية ، معهد الدراسات العربية العالية ، ١٩٦٠ ) ، ص ١٢ ، و**فقه اللغة وخصائص العربية : دراسة تحليلية مقارنة للكلمة العربية وعرض لمنهج العربية الاصيل في التجديد والتوليد** ، ط٢ ( بيروت : دار الفكر الحديث ، ١٩٦٤ ) ، ص ٢٤٣ . [يشار اليه لاحقاً بـ : **فقه اللغة وخصائص العربية . . .**] .

ان قدم العربية وتواصلها خلال قرون طويلة ، واحتفاظها بالقواعد والاصول العامة من اولى خصائصها ، وان ذلك التواصل جعل ابناءها يقرأون تراثها الضخم وينتفعون به ، وجعلهم يتوادون ، ويسند بعضهم بعضاً على اختلاف اقطارهم وانتشارهم في اصقاع الارض . وتلك مزية لا تعرفها اللغات القديمة او الحديثة ، فقد بادت لغات واصبحت طلاسم لا يفكها الا المتخصصون ، واستمرت بعض اللغات ، ولكن ابناءها لا يقدرون على فهم كثير من تراثها القديم لاختلافها في طرائق التعبير ، ولانحسار كثير من الفاظها ، وانقطاع الصلة بين الماضي والحاضر ، وتغيرها في النطق والرسم وغير ذلك مما يعرض للغات .

ومن اهم خصائص العربية ثبات اصوات الحروف فيها ، وكان ذلك « توفيراً للجهد ودلالة على الاتصال بين اجيال الامة العربية ، وتعبيراً عن الثبات والخلود فيها لا يوجب تقلب الايام وتبدل الحياة وتغييره »[١٣]. ولا يغير من هذه الحقيقة بعض ما اصاب النطق في الاقطار العربية بعد الاختلاط بالاعاجم ، لأن جوهر الصوت العربي بقي واضحاً ، وهو ما يتمثل بقراءة القرآن الكريم ، واخراج الحروف الصامتة اخراجاً يكاد يكون واحداً لأن « حروفنا العربية محفوظة الاصول ، معروفة الانساب »[١٤] . ولأن مدرجها الصوتي واسع ، ولأنها « تشتمل على جميع الاصوات الانسانية ومخارجها »[١٥] .

قال محمد المبارك : « ان اول ما يبدو من صفات الحروف العربية توزعها في اوسع مدرج صوتي عرفته اللغات ، وذلك ان الحروف العربية تندرج وتتوزع في مخارجها ما بين الشفتين من جهة واقصى الحلق من جهة اخرى فتجد الفاء والباء والواو الساكنة ومخارجها من الشفتين من جانب ، والحاء والهاء والعين والهمزة ثم الغين والخاء على التدريج ، ومخارجها من الحلق اقصاه فأدناه من جانب آخر ، وتتوزع باقي الحروف العربية بينهما في هذا المدرج . قد تجد في لغات اخرى غير العربية حروفاً اكثر عدداً ولكنها محصورة مخارجها في نطاق اضيق وفي مدرج اقصر ، وقد تجدها مجتمعة متكاثرة في جانب الشفتين وما ولاهما من الفم او الخيشوم في اللغات الكثيرة الغنّة او تجدها متزاحمة في جهة الحلق ، وفي كلا الحالين ضيق في الافق الصوتي واختلال في الميزان الصرفي وفقدان لحسن الانسجام بسبب سوء توزيع الحروف . تمتاز اللغة العربية في مجموع اصوات حروفها بسعة مدرجها الصوتي سعة تقابل اصوات الطبيعة في تنوعها وسعتها وتمتاز من جهة اخرى بتوزعها في هذا المدرج توزعاً عادلاً يؤدي التوازن والانسجام بين الاصوات »[١٦] . وأدّى ذلك الى توازن الاصوات في اللفظة الواحدة ، وقد استقبح العرب واستبعدوا كثيراً من الالفاظ التي لا تأتلف حروفها ، قال الجاحظ : « فإن الجيم لا تقارن الظاء ولا القاف ولا الطاء ولا الغين بتقديم ولا بتأخير ، والزين لا تقارن الظاء ولا السين ولا الضاد ولا الذال بتقديم ولا تأخير »[١٧] . وهذه قاعدة مطردة في الالفاظ العربية الاصيلة ، وقد حدد اللغويون هذه الصفات ووضعوا وبينوا سمات

---

(١٣) المصدرين نفسيهما ، ص ١٧ ، ٢١ و٢٥١ ، ٢٥٣ على التوالي .

(١٤) صبحي الصالح ، دراسات في فقه اللغة ( دمشق : مطبعة جامعة دمشق ، ١٩٦٠ ) ، ص ٣١٨ .

(١٥) المصدر نفسه ، ص ٣٣١ .

(١٦) المبارك ، خصائص العربية ومنهجها الاصيل في التجديد والتوليد ، ص ١٦ ، و فقه اللغة وخصائص العربية . . . ، ص ٢٤٩ .

(١٧) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج١ ، ص ٦٩ .

معرفة الدخيل في ضوء هذه الاصول. وهذه العناية بالاصوات وانسجامها ادت الى ان تكون لإلفاظ العربية موسيقى عذبة ، وان يتولد من ذلك شعر رقيق يحفل بالايقاع الجميل ، وان تدل اجراس الحروف على اصوات الافعال ، وتنبه الى معناها ، قال ابن جني : « فإن كثيراً من هذه اللغة وجدته مضاهياً بأجراس حروفه اصوات الافعال التي عبّر بها عنها ، الا تراهم قالوا « قضم » في اليابس و « خضم » في الرطب ، وذلك لقوة القاف وضعف الخاء ، فجعلوا الصوت الاقوى للفعل الاقوى والصوت الاضعف للفعل الاضعف . وكذلك قالوا : « صرَّ الجندب » فكرروا الراء لما هناك من استطالة صوته ، وقالوا : « صرصر البازي » فقطعوه لما هناك من تقطيع صوته »[18] .

وكره العرب الالفاظ الثقيلة واقاموا معظم الفاظهم على حروف ثلاثة لخفتها وايجازها وسهولة النطق بها . قال ابن جني : « ان الاصول ثلاثة : ثلاثي ورباعي وخماسي ، فأكثرها استعمالاً واعدلها تركيباً الثلاثي ، وذلك لأنه حرف يبتدأ به وحرف يحشى به ، وحرف يوقف عليه . وليس اعتدال الثلاثي لقلة حروفه وحسب ، لو كان كذلك لكان الثنائي اكثر منه لأنه اقل حروفاً » . ثم قال : « فتمكن الثلاثي انما هو لقلة حروفه ، لعمري ، ولشيء آخر هو حجز الحشو الذي هو عينه بين فائه ولامه ، وذلك لتباينهما ولتعادي حاليهما . الا ترى ان المبتدأ لا يكون الا متحركاً ، وان الموقوف عليه لا يكون الا ساكناً ، فلما تنافرت حالاهما ، وسّطوا العين حاجزاً بينهما لئلا يفجئوا الحس بضد ما كان آخذاً فيه ومنصباً اليه »[19] . وثلاثية الالفاظ اللغوية ـ إن لم تكن ثنائيتها ـ من اهم خصائص العربية ، ولا تكاد لغة اخرى تشاركها في هذه السمة الواضحة . وكان الاصل الثلاثي عمدة الاشتقاق الذي هو من ابرز الخصائص العربية مما جعل الالفاظ تعيش في مجتمعات كما يعيش العرب في اسر وقبائل[20] ، وجعل بعضها يرتبط ببعض ويتصل المعنى وان اختلف ترتيب الحروف فإن « معنى ـ ق و ل ـ اين وجدت وكيف وقعت من تقدم بعض حروفها على بعض وتأخره عنه انما هو للخفوق والحركة »[21] ، ومثل ذلك ـ ك ل م ـ فهي حيث تقلبت تدل على القوة والشدة[22] ، فالاشتقاق احدى وسائل نمو اللغة العربية واتساعها ، وقد جعل منها كائناً حياً مبدعاً في مختلف العهود ، وجعلها قادرة على استيعاب الوان جديدة من الحضارة ومظاهر المدنية في كل عصر ولولا ذلك لتوقفت وعجزت عن مواكبة المتغيرات وشؤون الحياة المختلفة . ان العربية ليست لغة إلصاقية او معتمدة على النحو كغيرها من اللغات وانما تقوم على الاشتقاق ولذلك كثرت ابنيتها ، وكان لكثير من تلك الابنية معانٍ خاصة تحملها في ذاتها من غير ان تسند او تضاف[23] . فبناء

---

(١٨) ابو الفتح عثمان بن جني ، الخصائص ، تحقيق محمد علي النجار ، ط ٢ ، ٣ ج ( القاهرة : دار الكتب المصرية ، ١٩٥٢ ـ ١٩٥٦ ) ، ج ١ ، ص ٦٥ .

(١٩) المصدر نفسه ، ج١ ، ص ٥٥ ـ ٥٦ .

(٢٠) المبارك ، **خصائص العربية ومنهجها الاصيل في التجديد والتوليد** ، ص ٢٦ ، **وفقه اللغة وخصائص العربية** . . . ، ص ٢٦٤ .

(٢١) ابن جني ، **الخصائص** ، ج١ ، ص ٥ .

(٢٢) المصدر نفسه ، ج١ ، ص ١٣ .

(٢٣) عبد الملك بن منصور الثعالبي ، **فقه اللغة وسر العربية** ، تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي ( القاهرة : ١٩٥٤ ) ، ص ٣٤٠ ـ ٣٤٣ .

« فَعَّلَ » يكون بمعنى التكثير مثل « غلَّقَ » ، وبمعنى « أَفعلَ » مثل « خبّـر » . و « أَفعلَ » بمعنى « فعل » مثل « اسقى » . و« فاعلَ » يكون بين اثنين مثل « ضاربه » وبمعنى « فعل »مثل « قاتلهم الله » . و« تفاعل » تكون بين اثنين او جماعة مثل « تجادلا » وبمعنى « اظهر » مثل « تغافل » . و« تفعّل » بمعنى « فعّل » مثـل « تخلّصه » وبمعنى التكلف مثـل « تشجع » ولأخـذ الشيء مثل « تعلّم » . و« استفعل » بمعنى التكلف مثل « استكبر » وبمعنى الدعاء والطلب مثل « استوهب » وبمعنى « فعل » مثل « استقر » وبمعنى « صار » مثل « استنسر ». و« افتعل » بمعنى « فعل » مثل « اكتسب » ولحدوث صفة مثل « افتتن » . و« انفعل » للمطاوعة مثل « انكسر » ويكون ما جاء على « فَعَلان » للحركة والاضطراب مثل « الغليان » . و« فَعْلان » للدلالة على صفـة تقع في احوال مثل « عطشان » . و« افعل » للدلالة على صفات الالوان مثل « ابيض » وعلى العيوب مثل « اخنف » . و«فُعال»للادواء مثل « الصداع » وللاصوات مثل « الصراخ » و« فعيل » للاصوات مثل « الضجيج » . و« فعللة » لحكايات الاصوات مثل « الغرغرة » . و« فعيلة » للاطعمة مثل « الـوليمة » و« فعـول » للادويـة مثل « اللعـوق » و« مفعـال » للدلالـة عـلى الاستكثـار مثـل « مطعام » . قال الاب الكرملي : « فأما اوزان العربية فمن ابدع ما ورد فيها وهي من الغنى بحيث يجد فيها الباحث ما يجزأه عن النحت والتركيب وتكثير الالفاظ والشروح حتى انك لا تجد ما يضارعها من سائر الالسنة ولوكانت سامية الاصل . ثم انك ترى في العبرية والارمية شيئاً يشبه هذه الاوزان لكنك لا تجدها كلها، بل بعضاً منها وهي دون العربية عدداً . فالعربية سبقت اخواتها كلهن وبزتهن بزاً فلكل وزن من تلك الاوزان مزية خاصة به وربما اجتمعت فيه عدة مزايا وربما ايضاً اشتركت مزايا هذا الوزن مع مزايا الوزن الآخر»(٢٤). ثم قال بعد ان ذكر معاني صيغة فاعل: « فهي اوسع ميداناً من الاوزان ، ولا نظن ان في العالم لغة تعددت فيها الصيغ كما تعددت في لغتنا » .

ففي لغات الغرب مثلاً ـ ولا سيما الحديثة منها ـ ترى صيغاً للتصغير والتكبير ، للتحبيب والتحقير ، للتقريب والتبعيد ، للتجديد ، والتعميق ، الى اشباه هذه الفكر ، ونظن ان أغلبها صيغت على امثلة لغة عدنان . لما ان هناك صيغاً خاصة ولكل صيغة مزية خاصة بها دون غيرها ، فهذا لا يرى الا في هذه اللسان البديعة(٢٥) . فـاللغة العـربية فنيـة بصيغها ، ولـذلك كـانت الدراسات الصرفية فيها من اوسع ما عرفته اللغات وادقها ، وهي دراسات بدأت منذ عهد مبكر واولاها علماء اللغة عناية كبيرة . قال د. تمام حسان : « وهذه الشعبة من دراسة اللغة واجادة القول فيها افردت الصرفيين العرب بمكان لا يدانيه اي مكان آخر في عالم اللغويين قديماً او حديثاً ولا يزال كشفهم عن النظام الصرفي العربي موضع الاعجاب والاحترام ، وسيظل كذلك في نظر اللغويين في مختلف انحاء العالم »(٢٦) .

ومن خصائص العربية ان الفاظها لا تبدأ بالساكن ، وكان العرب يستوحشون من الابتداء به في كلام العجم فإذا عربوه حركوه . ومن ذلك الهمزة في عرض الكلام والحاء والظاء ، قال ابن

---

(٢٤) الكرملي ، نشوء اللغة العربية ونموها واكتمالها ، ص ١١٣ .

(٢٥) المصدر نفسه ، ص ١١٤ .

(٢٦) تمام حسان ، اللغة العربية : معناها ومبناها ( القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٣ ) ، ص ١٥ .

فارس : « فأول الحروف الهمزة والعرب تنفرد بها في عرض الكلام ، ولا تكون في شيء من اللغات الا ابتداء . ومما اختصت به لغة العرب الحاء والظاء ، وزعم ناس ان الضاد مقصورة على العرب دون سائر الامم »(٢٧) . وقال ابن جني « واعلم ان الضاد للعرب خاصة ولا يوجد من كلام العجم الا في القليل »(٢٨) .

وهذا ما ايدته الدراسات الحديثة ، قال الكرملي : « ان الهمزة في اول الكلمة موجودة في جميع اللغات فلا عبرة له هنا ، اما مهموز العين واللام فخاصان بالعربية على ان قريش ، وكانت لغتها افصح اللغات ، ما كانت تهمز »(٢٩) . وقال د. ابراهيم انيس : « ان استعمال النزعة الشعوبية ادى الى ان تشيع التسمية التي خلعها العرب على لغتهم وهي « لغة الضاد »»(٣٠) .

ومن خصائصها توسعها بوسائل كثيرة لا يقابلها شيء في سائر اللغات ، قال الكرملي : « مما وسع كلام الناطقين بالضاد توسيعاً لا يقابله شيء في سائر اللغات المعروفة ما وقع فيها من القلب والابدال والتصحيف والتحريف وتشابه رسم الحروف والتعريب »(٣١) . ثم قال : « المراد بالقلب هنا تقديم بعض احرف الكلمة على بعضها كقولك : استدمى غريمه واستدامه » اذا رفق به ، و« اعتام الرجل واعتمى » اذا اختار . ويسمى « القلب المكاني » . . . ومن القلب عندهم القلب الذي لا يستحيل بالانعكاس مثل « فحّت الحية وحفّت » . . . ومثل القلب الذي لا يستحيل بالانعكاس لا يرى الا في لغتنا . واما مثل القلب المألوف فيرى منه في الالسنة القديمة فقط كالعبرية والآرامية واليونانية واللاتينية ، ولكنه ليس بفاش فيها فشوّه في لغة مضر »(٣٢) . وقال « المراد بالابدال هنا اقامة حرف مكان آخر يقاربه مخرجاً وربما لا يقاربه او يكون بقلب الحرف نفسه لفظاً آخر على معنى احالته اليه . . . ومثل ذلك « الوأل » و« الوعل » و« الوغل » »(٣٣) . وكان ابن السكيت قد الف رسالة في القلب والابدال ونظر الى هذه الظاهرة « على انها من خصائص اللغة العربية »(٣٤) . وجعل ابن فارس والثعالبي الابدال من سنن العرب في كلامها(٣٥) . وتحدث اللغويون والصرفيون عنهما ، وهما من اسباب تنمية العربية ، اما التصحيف

---

(٢٧) ابو الحسين احمد بن زكريا بن فارس ، **الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها** ، تحقيق مصطفى الشويمي ( بيروت : مؤسسة بدران للطباعة والنشر ، ١٩٦٤ ) ، ص ١٠٠ ، وجلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر السيوطي ، **المزهر في علوم اللغة وانواعها** ، تحقيق محمد احمد جاد المولى ومحمد ابو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي ، ط ٣ ، ٢ ج ( القاهرة ) ، ج ١ ، ص ٣٢٨ .

(٢٨) ابو الفتح عثمان بن جني ، **سر صناعة الاعراب** ، تحقيق مصطفى السقا وآخرون ( القاهرة : مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، ١٩٥٤ ) ، ص ٢٢٢ .

(٢٩) الكرملي ، **نشوء اللغة العربية ونموها واكتمالها** ، ص ١٣ .

(٣٠) ابراهيم انيس ، **اللغة بين القومية والعالمية** ( القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧٠ )، ص ١٩٨ .

(٣١) الكرملي ، **نشوء اللغة العربية ونموها واكتمالها** ، ص ١٦ .

(٣٢) المصدر نفسه ، ص ١٦ - ١٨ .

(٣٣) المصدر نفسه ، ص١٨ .

(٣٤) ابراهيم انيس ، **من اسرار اللغة** ، ط ٢ ( القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥٨ ) ، ص ٥٢ .

(٣٥) ابن فارس ، **الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها** ، ص ٢٠٣ ، والثعالبي ، **فقه اللغة وسر العربية**، ص ٣٤٧ .

والتحريف وتشابه رسم الحروف فليس مما تلجأ اليه اللغة لانماء نفسها ، ومثل ذلك التعريب الذي وقف منه العرب موقف الحذر ، والنحت الذي لم يتوسعوا فيه لأن العربية لغة اشتقاقية لا الصاقية كاللغات الآرية او الهندية الاوروبية . ولكن هناك وسائل اخرى ترفد العربية بالالفاظ منها الترادف والمشترك اللفظي والاضداد ، ولكثرة وسائل تنمية اللغة العربية قال القدماء انها « افضل اللغات واوسعها »(٣٦) .

وقال الكرملي : « ان لسان العرب فوق كل لسان ولا تدانيها لسان اخرى من السنة العالم جمالاً ولا تركيباً ولا اصولاً »(٣٧) .

هذه بعض خصائص اصوات اللغة العربية والفاظها ، وليس البحث فيها بالسهل اليسير ، وان كان القدماء والمعاصرون قد اولوها عناية كبيرة ووقفوا عندها طويلاً وشغلتهم، وكادت دراساتهم تنصب على هذا الجانب من فقه اللغة وتبتعد عن الجمل والتركيب . قال محمد المبارك : « وما الكلام المركب او دراسة الجملة العربية ونظام تركيبها فذلك ما لم نبحثه في كتابنا هذا مع انه جزء من فقه اللغة في مفهومه الحديث . وقد بحثه اسلافنا في علمي النحو والمعاني ، ولكن فقه اللغة يبحثه في افق اوسع ومن وجهة نظر اعم واوسع مستفيداً من الموازنات بين اللغات المختلفة في طرائق تركيبها للكلام وملاحظاً اختلاف الشعوب في طرائق تعبيرها . وهو بحث لا يزال ينتظر جهد الباحثين في اللغة العربية ، وقد الم ببعض جوانبه البحاثة الكبير الاستاذ العقاد في فصول موجزة من كتابه « اشتات مجتمعات »(٣٨) وسأل الله ان يتيح له الفرصة لدراسة الجملة العربية وخصائصها وانواعها » (٣٩) .

ان خصائص اللغة العربية لا تنحصر في الفاظها ودلالاتها وانما تتجلى ايضاً في تراكيبها واساليبها ، وقد تعرض ابن جني لبعض تلك الخصائص وقال : « انني اذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة ، وجدت فيها من الحكمة والدقة والارهاف والرقة ما يملك عليّ جانب الفكر حتى يكاد يطمح به امام غلْو السحر»(٤٠) . ولكن هذه الخصائص لم تدرس دراسة حديثة على الرغم من الجهود التي بذلها النحاة والبلاغيون . وهي خصائص كثيرة من ابرزها الايجاز الذي يعد من اهم سمات الكلام البليغ ، وقد قال معاوية بن ابي سفيان لصحار بن عياش العبدي « ما تعدّون البلاغة فيكم؟» قال «الايجاز» قال له معاوية « وما الايجاز ؟» قال صحار : « ان تجيب فلا تبطيء وتقول فلا تخطيء »(٤١) .

---

(٣٦) ابن فارس ، المصدر نفسه ، ص ٤٠ ، والسيوطي ، **المزهر في علوم اللغة وانواعها** ، ج ١ ، ص ٣٢١ .

(٣٧) الكرملي ، **نشوء اللغة العربية ونموها واكتمالها** ، ص ١ .

(٣٨) المبارك ، **فقه اللغة وخصائص العربية** . . . ، ص ٧ .

(٣٩) المصدر نفسه ، ص ٣٣٩ ، والمبارك ، **خصائص العربية ومنهجها الاصيل في التجديد والتوليد** ، ص ٧٧ .

(٤٠) ابن جني ، **الخصائص** ، ج ١ ، ص ٤٧ .

(٤١) الجاحظ ، **البيان والتبيين** ، ج١ ، ص ٩٦ .

ولذلك كان كلام العرب يوصف بالايجاز وإن كانوا يطيلون عند اقتضاء الكلام ، فقد قيل لابي عمرو : « أكانت العرب تطيل ؟» فقال : « نعم لتبلغ » . قيل : « أفكانت توجز ؟» قال : « نعم ليحفظ عنها »(٤٢) . وتعرض المعاصرون لهذه السمة الواضحة في العربية وتحدثوا عن الايجاز في حروفها والفاظها وتراكيبها منطوقة ومكتوبة ، وقارنوا بينها وبين اللغات الاجنبية(٤٣) ، وانتهوا الى انها لغة متقدمة بين لغات العالم وأنها بهذا الايجاز حققت كثيراً من الاهداف واختصرت كثيراً من الجهد والوقت والمال .

ومن خصائص العربية في التركيب ما تحدث عنه المستشرق برغستراسر Bergstraesser واهمها ثلاث مسائل : الاولى ضمير الشأن ، قال : « ومن خصائص العربية ان مبتدأ الجملة الاسمية المركبة ربما كان ضميراً للغائب لا علاقة له بالجملة الخبرية ولا راجع اليه فيها ، وهذا ما سماه النحويون ضمير الشأن نحو ﴿ . . . انه لا يفلح الظالمون ﴾(٤٤) . واكثر ذلك بعد « أنَّ » كما في هذا المثال او بعد « إنَّ » وفائدة هذا التركيب انه يمكّن الناطق من ادخال « إنَّ » و « أنَّ » على الجمل نحو « لا يفلح الظالمون » فهذا مما يشهد بمزية العربية شهادة مبينة ، فغيرها من اللغات السامية قد يقدم امثال « إنَّ » على الجمل الفعلية وان كان موضعها الاصلي اول الجملة الاسمية فقط . والعربية اعدمت الشواذ وأرست قاعدة الحاق « إنَّ » واخواتها بالجمل الاسمية فقط ، وهي مع ذلك اخترعت وسيلة لقلب الجملة الفعلية اسمية بغير تغيير تركيبها لكي يمكن الحاق « إنَّ » واخواتها بالجملة الفعلية بواسطة لا مباشرة ومبتدأ الاسم منصوب بعد « إنَّ » واخواتها وكثرة ذلك من خصائص العربية مع كون اصله سامياً شائعاً في غير العربية ايضاً »(٤٥) .

الثانية : نائب الفاعل ، قال : « والجملة الفعلية ابسط تركيباً من الجملة الاسمية ولا ينبغي لنا ان نتكلم عنها تفصيلاً بل يكفي الكلام عن مسألة واحدة من مسائلها وهي مسألة الفعل المعلوم الفاعل او المسند . اما الاولى فهي فعل ما لا يسمى فاعله نحو « ضُرب زيد » فهو معدوم الفاعل وليس بمعدوم المسند اليه فتراه اسند الى « زيد » وهو مفعوله ، فإذا نقلنا جملة « ضربت زيداً » الى ما لم يسمّ فاعله صار المفعول هو « زيد » مسنداً اليه . وحذف الفاعل في العربية قد يسند فعل ما لم يسمّ فاعله في بعض الاوقات الى ما لم يكن مفعولاً بل كان منصوباً غير مفعول نحو « سيرفرسخان » اصلها « ساروا فرسخين » و« صيم رمضان » اصلها « صاموا رمضان » ولا نظير لذلك في غير العربية . وحذف الفاعل عند نقل الجملة الى ما لم يسمّ فاعله هو الاصل في اللغات السامية بخلاف اللغات الهندية والايرانية والغربية . ونرى فيها الفاعل لا يحذف عند النقل الى ما يسمى فيها صيغة التأثر بل يضم الفعل بواسطة اداة خاصة بهذه الوظيفة مثال ذلك في الفرنسية : «Il été frappé par moi» ، وفي الانكليزية : «He has been beaten by me.»(٤٦) » . الثالثة : اسناد الفعل

---

(٤٢) ابن جني ، **الخصائص** ، ج١ ، ص ٨٣ .

(٤٣) مازن المبارك ، **نحو وعي لغوي** ( دمشق : مكتبة الفارابي ، ١٩٧٠ )، ص ٦٢ وما بعدها .

(٤٤) **القرآن الكريم** ، سورة الانعام : الآيتان ٢١ و١٣٥ ؛ سورة يوسف : الآية ٢٣ ، وسورة القصص : الآية ٣٧ .

(٤٥) برغستراسر ، **التطور النحوي للغة العربية** ( القاهرة : محمد حمدي البكري ، ١٩٢٦ ) ، ص ٩١ .

(٤٦) المصدر نفسه ، ص ٩١ - ٩٢ .

او الخبر الى ظرف الزمان ، قال : « ومن غرائب العربية التي تتميز بها ، ليس عن سائر اللغات السامية فقط بل عن اكثر اللغات على العموم ، اسناد الفعل او الخبر الى ظرف زمان نحو « اذا ما نام ليل الهوجل » اي : اذا نام البطيء والاحمق ليله. ومن مثل ذلك اخذ وصف الزمان بالفعل نحو « يوم عاصف » واضافة الفعل اليه نحو ﴿ . . . مكر الليل والنهار. . . . ﴾(٤٧) » .

ومن ابرز خصائص العربية المرتبطة بحرية الكلام والتوسع في طرائق التعبير ، الاعراب ، وهو « الابانة عن المعاني بالالفاظ »(٤٨) . وبه « تميز المعاني وتوقف على افراض المتكلمين»(٤٩) . والاعراب مهم في اللغة العربية لأنه يحدد المعاني وذلك لأن « الاسماء لما كانت تعتورها المعاني فتكون فاعلة ومفعولة ومضافة ومضافاً اليها ولم تكن في صورها وابنيتها ادلة على هذه المعاني بل كانت مشتركة جعلت حركات الاعراب فيها تنبيء عن هذه المعاني »(٥٠) . ويكاد معظم المهتمين باللغة العربية وفقهها يجمعون على ان الاعراب سمة واضحة من سماتها وانه ضروري ، وان الغاءه يؤدي الى اللبس في الكلام او جمود العربية في تراكيبها ، وقتل الطاقة الكامنة فيها . قال احمد بن فارس « من العلوم الجليلة التي خصت بها العرب الاعراب الذي هو الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ وبه يعرف الخبر الذي هو اصل الكلام . ولولاه ما ميز فاعل من مفعول ولا مضاف من منعوت ولا تعجب من استفهام ولا صدر من مصدر ولا نعت من تأكيد »(٥١) . وقال عبد القاهر الجرجاني وهو يتحدث عن النحو : « ان الالفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الاعراب هو الذي يفتحها ، وان الاغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها ، وانه المعيار الذي لا يتبين نقصان كلام ورجحانه حتى يعرض عليه والمقياس الذي لا يعرف صحيح من سقيم حتى يرجع اليه ، ولا ينكر ذلك الا من ينكر حسه والا من غالط في الحقائق نفسه »(٥٢) . وعده العقاد « آية السليقة الفنية في التراكيب العربية المفيدة ، توافرت لها جملاً مفهومة بعد ان توافرت لها حروفاً تجمع مخارج النطق الانساني على افصحها واوفاها ، وبعد ان توافرت لها مفردات ترتبط فيها المعاني بضوابط الحركات والاوزان »(٥٣) .

وليس الاعراب ـ كما يتوهم دعاة العامية او انصار الاخذ باللغات الاعجمية او المتأثرون

---

(٤٧) المصدر نفسه ، ص ٩٣ ، **والقرآن الكريم** ، سورة سبأ : الآية ٣٣.

(٤٨) ابن جني ، **الخصائص** ، ج١ ، ص ٣٥ .

(٤٩) ابن فارس ، **الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها**، ص ١٩٠ ؛ السيوطي ، **المزهر في علوم اللغة وانواعها** ، ج١ ، ص ٣٢٩ ، ومهدي المخزومي ، **في النحو العربي** ، ص ٦٥ وما بعدها .

(٥٠) ابو القاسم عبد الرحمن بن اسحق الزجاجي ، **الايضاح في علل النحو** ، تحقيق مازن المبارك ، ط٢ ( بيروت : ١٩٧٣ ) ، ص ٦٩ .

(٥١) ابن فارس ، **الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها** ، ص ٧٧ ، والسيوطي ، **المزهر في علوم اللغة وانواعها** ، ج١ ، ص ٣٢٧ .

(٥٢) عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني ، **دلائل الاعجاز في علم المعاني** ، تحقيق محمد رشيد رضا ( القاهرة : ١٣٧٢ هـ ) ، ص ٢٣ ـ ٢٤ .

(٥٣) العقاد ، **اللغة الشاعرة : مزايا الفن والتعبير في اللغة العربية** ، ص ٢٠ .

بالدراسات الاجنبية ـ « زخرفاً يزين به الكلام ، وانما هو عنصر اساسي في بنائه اذا حذف منه سقط جزء من المعنى وضاع كثير من الفروق بين تعابير يختلف معناها باختلاف الاعراب وحده . ولا بد حين يحذف الاعراب من الاستعاضة عنه بما يؤدي وظيفته في اصل الكلام وبنائه ، وفي ذلك تغيير لبناء اللغة وتركيبها »(٥٤) . وليس الاعراب قصة « استمدت خيوطها من ظواهر لغوية متناثرة بين قبائل الجزيرة العربية ثم حيكت وتم نسجها حياكة محكمة في اواخر القرن الاول الهجري او اوائل الثاني »(٥٥) ، بل هو عمدة في اللغة العربية ولذلك اهتم به القدماء والمعاصرون ووقفوا على جوانبه المختلفة وإن خرج بعضهم عن روح العربية ودعا الى حذف الاعراب جهلاً او تأثراً باللغات الاجنبية ، على الرغم من انه « ميزة حافظت عليها اللغة في تاريخها الطويل وينبغي ان تبقى محافظة عليها ، وذلك لأنه في الحقيقة وسيلة تعيين الوظائف النحوية للالفاظ في الجمل . . . وبفضل الاعراب يستطيع الكاتب او المتحدث ان يتصرف بالجملة فيراعي دواعي التقديم والتأخير دون ان يبقى اسيراً للحجرات النحوية الثابتة »(٥٦) . ولعل اسلوب التقديم والتأخير في العربية اصدق دليل على اهمية الاعراب الذي لولاه لاصبحت اللغة جامدة وفقدت حريتها في التعبير وقدرتها على التفنن في القول .

يقول د. مهدي المخزومي : « للعربية سمة تميزها عن اللغات الاخرى ، تلك هي ان الكلمة في اثناء الجملة تحمل معها ما يدل على صفتها الاعرابية . وما دام للكلمة مثل هذه السمة فلها من الحرية في التنقل في اثناء الجملة ما لم يكن لغيرها من الكلمات في غير العربية . والقيمة النحوية للكلمة الاجنبية انما تحدد بموضعها المخصص لها في الجملة فإذا زحزحت عن مكانها جرت عن صفتها واتخذت لها صفة اخرى يحددها موضعها الجديد . فالكلمة المرفوعة اي المضمومة الآخر هي المسند اليه او التابع للمسند اليه، وليس لها موضع محدد لها بحيث لا تفارقه ، فهي تتصدر الجملة حيناً وتتأخر حيناً ، ثم تتوسط اجزاء الجملة حيناً آخر ولا تخرج عن كونها مسنداً اليه مهما يتغير موضعها في الجملة ما دامت مرفوعة . والكلمات المنصوبة اي المفتوحة الآخر انما هي من متعلقات الفعل ، او من متعلقات الجملة ، وهي اذا كانت مفعولاً مثلاً فهي مفعول في موضعها اللغوي المألوف ، وهي مفعول اذا تقدمت ، وهي مفعول ايضاً اذا توسطت اجزاء الجملة الاخرى . والكلمة المخفوضة اي المكسورة الآخر مضاف اليه او تابع للمضاف اليه ، ولا يخرجها عن كونها كذلك انتقالها من موضعها ما دامت تحمل معها ما يدل على قيمتها النحوية وهي الكسر »(٥٧) . اي ان الاعراب « صمام الامان حين تشتبه علينا الامور وتتعقد بسبب ما يقع من تغيير او تبديل غير مألوف في مواقع الكلمات »(٥٨) .

## ـ ٢ ـ

يقع التقديم والتأخير في الجملة ، والجملة اصغر وحدة يتم بها معنى الكلام ، ولا بد

(٥٤) المبارك ، خصائص العربية ومنهجها الاصيل في التجديد والتوليد ، ص ١٠ ، وفقه اللغة وخصائص العربية . . . ، ص ٢٤١ .

(٥٥) انيس ، من اسرار اللغة ، ص ١٨٢ .

(٥٦) المبارك ، نحو وعي لغوي ، ص ١٠٦ ـ ١٠٧ ؛ الصالح ، دراسات في فقه اللغة ، ص ١١٨ ، ومحمد حماسة عبد اللطيف ، في بناء الجملة العربية ( الكويت : ١٩٨٢ ) ، ص ١٢١ .

(٥٧) مهدي المخزومي ، في النحو العربي : قواعد وتطبيق ( القاهرة : ١٩٦٦ )، ص ٨٧ .

(٥٨) كمال محمد بشر ، دراسات في علم اللغة ( القاهرة : ١٩٦٩ )، القسم ٢ ، ص ١٣٨ .

من ان يكون فيها مسند ومسند اليه ، اي : فعل وفاعل ، او مبتدأ وخبر . قال سيبويه : « هذا باب المسند والمسند اليه وهما مما لا يغني واحد منهما عن الآخر ولا يجد المتكلم منه بُدّاً »(٥٩) .

والجملة العربية ثلاثة اقسام :

**الاول** : الاسمية وهي التي صدرها اسم مثل « زيد قائم » .

**الثاني** : الفعلية وهي التي صدرها فعل مثل « قام زيد » .

**الثالث** : الظرفية وهي المصدرة بظرف او جار ومجرور مثل « اعندك زيد ؟» . و« أفي الدار زيد ؟ » .

والعبرة عند ابن هشام في هذه الاقسام بصدر الجملة قال : « مرادنا بصدر الجملة المسند او المسند اليه فلا عبرة بما تقدم عليهما من الحروف فالجملة من نحو « أقائم الزيدان » و« ازيد اخوك » و« لعل اباك منطلق » و« ما زيد قائماً » اسمية . ومن نحو « قام زيد؟ » و« ان قام زيد » و« قد قام زيد » و« هلاّقمت » فعلية » .

والمعتبر ايضاً ما هو صدر في الاصل ، فالجملة من نحو « كيف جاء زيد ؟» ومن نحو ﴿ ... فأي آيات الله تنكرون ﴾(٦٠) . ومن نحو ﴿ ... ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون﴾(٦١) ، و﴿خشعاً ابصارهم يخرجون ... ﴾(٦٢) فعلية ، لأن هذه الاسماء في نية التأخير . وكذلك الجملة في نحو « يا عبدالله » ونحو ﴿ وان احد من المشركين استجارك ... ﴾(٦٣) ، و ﴿ الانعام خلقها ... ﴾(٦٤) و ﴿ والليل اذا يغشى ﴾(٦٥) فعلية لأن صدورها في الاصل افعال ، والتقدير « ادعو زيداً » و« ان استجارك احد » و« خلق الانعام » و« اقسم والليل »(٦٦) .

وهذا ما قاله معظم النحاة والباحثين اي ان الجملة المبدوءة بالمبتدأ تكون اسمية والمبدوءة بالفعل تكون فعلية . ويرى برغستراسر ان الجملة « مركبة من مسند ومسند اليه فإن كان كلاهما اسماً او بمنزلة الاسم فالجملة اسمية ، وان كان المسند فعلاً او بمنزلة الفعل فالجملة فعلية »(٦٧) . اي

---

(٥٩) ابو بشر عمرو بن عثمان سيبويه ، **الكتاب** ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، ٥ ج ( القاهرة : دار القلم ، ١٩٦٦ ـ ١٩٧٧ ) ، ج ١ ، ص ٢٣ .

(٦٠) **القرآن الكريم** ، سورة غافر : الآية ٨١ .

(٦١) المصدر نفسه ، سورة البقرة : الآية ٨٧ .

(٦٢) المصدر نفسه ، سورة القمر : الآية ٧ .

(٦٣) المصدر نفسه ، سورة التوبة : الآية ٦ .

(٦٤) المصدر نفسه ، سورة النحل : الآية ٥ .

(٦٥) المصدر نفسه ، سورة الليل : الآية ١ .

(٦٦) ابو محمد عبدالله بن يوسف بن هشام ، **مغني اللبيب عن كتب الاعاريب** ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ٢ ج ( القاهرة ) ، ج٢ ، ص ٣٧٦ .

(٦٧) برغستراسر ، **التطور النحوي للغة العربية** ، ص ٨١ .

ان العبرة ليست في التقديم والتأخير وانما في ركني الاسناد ، والى ذلك ذهب د. مهدي المخزومي وقال ان الجملة الفعلية هي : « الجملة التي يكون فيها المسند دالاً على التغيير والتجدد ، او بعبارة اخرى هي التي يكون فيها المسند فعلاً » . والجملة الاسمية هي « الجملة التي يكون فيها المسند دالاً على الدوام ، او بعبارة اخرى هي التي لا يكون فيها المسند فعلاً » والجملة الظرفية هي « الجملة التي يكون فيها المسند ظرفاً او مضافاً اليه او بالاداة »(٦٨) .

ولا يؤثر هذا الاختلاف في تحديد انواع الجمل في بناء الجملة العربية كثيراً ، لأن الاصل في الجملة الفعلية ان يتقدم الفعل ويليه الفاعل، والاصل في الجملة الاسمية ان يتقدم المبتدأ ويليه الخبر . وهذه هي البنية الاساسية للكلام ، ولكن العربية لم تتقيد بهذا النظام الصارم وانما كانت لها حرية واسعة في التقديم والتأخير ولاسيما الجملة الاسمية التي لا ينتج التقديم والتأخير فيها صوراً ممنوعة لغوياً(٦٩) . وليس في اللغات الاوروبية مثل هذه الحرية فالجملة فيها اسمية يتقدم فيها الفاعل على الفعل ولا يتقدم الفعل فيها الا شذوذاً في حالات قليلة جداً اهمها حالة الدلالة على المفاجأة ووقوع الفعل على غير انتظار . فإذا تقدم الفعل لمثل هذا السبب فهم لا يجعلون ذلك قسماً معدوداً من اقسام التركيب اللفظية اي انهم لا يقسمون الجملة الى اسمية وفعلية من اجل ذلك ولكنهم يحسبونه عارضاً من عوارض القلب التي يحدث فيها ان يتقدم الفعل على الفاعل كما يتقدم حرف الجر او الظرف او الصفة المناسبة يقتضيها التعبير(٧٠) . فالاكتفاء بالجملة الاسمية في كلام الاوروبيين نقص وليس بالمزية التي تدل على الكمال والارتقاء وليس في وسع من يفهم مواقع الكلم ان يجهل الفارق بين قولنا « محمد حضر » وقولنا « حضر محمد » . فإننا نقول « محمد حضر » اذا كنا ننتظر خبراً عن محمد او عن حضوره على الخصوص ، ولكننا نقول « حضر محمد » لمن يسمع خبراً من الاخبار على اطلاقه ولا يلزم ان يكون الخبر عن محمد ولا عن الحضور بل لعل السامع كان ينتظر كلاماً عن حسن وعن علي كما ينتظره عن محمد ، او لعله خبر سفر وليس خبر حضور منتظراً او غير منتظر . واوسع من ذلك في وسائل التفرقة ان اللغة العربية تسمح بابتداء الجملة بحرف الجر ، وتؤدي بذلك معنى تحسبه الاجرومية الاوروبية مجرداً من الكلام المفيد . فإذا قال العربي « في الدار رجل » فهو كلام مفيد لأنه يشتمل على تنبيه لا يؤديه هذا الاداء قول الرجل « رجل في الدار» . اما هذه العبارة بعينها في اللغات الاوروبية فهي لفظ غير مفيد سواء تقدم حرف الجر او كان التقديم للرجل او للدار في تركيب من التراكيب كقول القائل « الدار فيها رجل » او « الدار رجل فيها » وهو تركيب سائغ عند الاوروبيين (٧١) .

---

(٦٨) انظر لمهدي المهزومي : في النحو العربي : قواعد وتطبيق ، ص ٨٦ ، وفي النحو العربي : نقد وتوجيه ( بيروت : ١٩٦٤ ) ، ص ٣١ .

(٦٩) انظر هذه الصور في : عبد اللطيف ، في بناء الجملة العربية ، ص ٥٠ وما بعدها .

(٧٠) العقاد ، اشتات مجتمعات في اللغة والأدب ، ص ٥٦ .

(٧١) المصدر نفسه ، ص ٦٠ - ٦١ .

فاللغات الاوروبية كالفرنسية والانكليزية يستقر فيها نظام الجملة استقراراً يكاد يقرب من الجمود ، وليس « للمتكلم باحدى هاتين اللغتين ان ينتقل بالكلمة من مكانها المعين في الجملة »(٧٢) ، الا في اضيق الحدود ، وليست كذلك لغة العرب فإن جملها صيغت بصور متعددة تدل على الرقي الذي تتمتع به ، والحرية التي تطلق القول فيهز النفوس ويقع في القلوب موقعاً حسناً .

ان التقديم والتأخير في العربية لون من الوان حريتها وخاصية من خصائصها(٧٣) ، وهو من سنن العرب في كلامها لما له من اهمية في دقة التعبير وحسن الاداء . وقد تحدث النحاة عن تأثير الترتيب في صورة الجملة ومعناها فقال سيبويه : « وتقول : « ما كان فيها احد خير منك » و« ما كان احد مثلك فيها » و« ليس احد فيها خير منك » اذا جعلت « فيها » مستقراً(٧٤) ولم تجعله على قولك « فيها زيد قائم » اجريت الصفة على الاسم . فإن جعلته على قولك « فيها زيد قائم » نصبت تقول « ما كان فيها احد خيراً منك » و« ما كان احد خيراً منك فيها » الا انك اذا اردت الالغاء فكلما اخرت الذي تلغيه كان احسن . واذا اردت ان يكون مستقراً تكتفي به فكلما قدمته كان احسن لأنه اذا كان عاملاً في شيء قدمته كمتقدم « اظن » و« احسب » واذا الغيت أخرته كما تؤخرها لانهما ليسا يعملان شيئاً » .

والتقديم ههنا والتأخير فيما يكون ظرفاً او يكون اسماً ، في العناية والاهتمام مثله فيما ذكرت لك في باب الفاعل والمفعول . وجميع ما ذكرت لك من التقديم والتأخير والالغاء والاستقرار عربي جيد كثير ، فمن ذلك قوله عز وجل ﴿ ولم يكن له كفواً احد ﴾(٧٥) ، واهل الجفاء من العرب يقولون « ولم يكن كفوا له احد » كأنهم أخّروها حيث كانت غير مستقرة(٧٦) .

وأدخله ابن جني في باب « شجاعة العربية » وقال انه على ضربين : « احدهما : ما يقبله القياس ، والآخر : ما يسهله الاضطرار »(٧٧) .

والتقديم والتأخير تغيير لبنية التراكيب الاساسية ، او هو عدول عن الاصل يكسبها حرية ودقة ، ولكن هذه الحرية غير مطلقة ، وقد حدد النحاة الاشياء التي لا يجوز تقديمها وهي ثلاثة عشر :

١ ـ الصلة على الموصول .

٢ ـ المضمر على الظاهر في اللفظ والمعنى الا اذا كان على شريطة التفسير .

---

(٧٢) انيس ، **من اسرار اللغة** ، ص ٢٧٧ .

(٧٣) انظر : ابن فارس ، **الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها** ، ص ٤١ و٢٤٦ ، والثعالبي ، **فقه اللغة وسر العربية** ، ص ٣٠٢ و ٣٢٢ .

(٧٤) يسمي الظرف الواقع خبراً مستقراً لأنه يقدر بـ استقر وان لم يكن خبراً سماه لغواً .

(٧٥) **القرآن الكريم** ، سورة الاخلاص : الآية ٤ .

(٧٦) سيبويه ، **الكتاب** ، ج ١ ، ص٥٥ ـ ٥٦ .

(٧٧) ابن جني ، **الخصائص** ، ج٢ ، ص ٣٨٢ ، انظر ايضاً ص ٣٦٠ .

٣ ـ الصفة وما اتصل بها على الموصوف ، وجميع توابع الاسم حكمها كحكم الصفة .

٤ ـ المضاف اليه وما اتصل به على المضاف .

٥ ـ ما عمل فيه حرف او اتصل به حرف زائد لا يقدم على الحرف ، وما شبه من هذه الحروف بالفعل فنصب ورفع فلا يقدم مرفوعها على منصوبها .

٦ ـ الفاعل لا يقدم على الفعل .

٧ ـ الافعال التي لا تتصرف لا يقدم عليها ما بعدها .

٨ ـ الصفات المشبهة بأسماء الفاعلين والصفات التي لا تشبه اسماء الفاعلين لا يقدم عليها ما عملت فيه .

٩ ـ الحروف التي لها صدر الكلام لا يقدم ما بعدها على ما قبلها .

١٠ ـ ما عمل فيه معنى الفعل فلا يقدم المنصوب عليه .

١١ ـ لا يقدم التمييز وما بعد « الا » .

١٢ ـ حروف الاستثناء لا تعمل فيما قبلها .

١٣ ـ لا يقدم مرفوعه على منصوبه ولا يفرق بين الفعل العامل والمعمول فيه بشيء لم يعمل فيه العامل الا الاعتراضات[٧٨] .

ويجوز تقديم غير ذلك اذا كان الكلام دالاً على المعنى ، قال المبرد « وإنما يصلح التقديم والتأخير اذا كان الكلام موضحاً عن المعنى نحو « ضرب زيداً عمرو » لأنك تعلم في الاعراب الفاعل والمفعول »[٧٩] . ولذلك اوضح النحاة كل ما يتصل بهما في ابواب كتبهم وحددوا ما تقديمه او تأخيره واجب او جائز . ومن ذلك الفاعل ، فإنهم يرون ان الاصل فيه ان يتأخر عن الفعل فإذا تقدم عليه كان مبتدأ قال ابن جني « وكما لا يجوز تقديم الفاعل على الفعل كذلك لا يجوز ما اقيم مقام الفاعل كـ « ضُرب زيد » وبعد فليس في الدنيا مرفوع يجوز تقديمه على رافعه »[٨٠] . غير ان الكوفيين اجازوا التقديم[٨١] لورود ذلك عن العرب كقول الزباء :

---

(٧٨) ابو بكر بن السراج ، **الاصول في النحو** ، تحقيق عبد الحسين الفتلي ( النجف الاشرف : ١٩٧٣ ) ، ج٢ ، ص ٢٣١ ، وجلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر السيوطي ، **الاشباه والنظائر في النحو** ، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد ( القاهرة : ١٩٧٥ ) ، ج١ ، ص ١٤٠ .

(٧٩) ابو العباس محمد بن يزيد عبد الاكبر المبرد ، **المقتضب** ، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة ( القاهرة : ١٣٨٥ هـ وما بعدها ) ، ج ٣ ، ص ٩٥ .

(٨٠) ابن جني ، **الخصائص** ، ج٢ ، ص ٣٨٥ .

(٨١) انظر : علي بن مؤمن بن عصفور ، **شرح جمل الزجاجي** ، تحقيق ودراسة صاحب جعفر ابو جناح =

مـا لـلجـمـال مـشـيُـهـا وئـيـدا      أجـنـدلاً يحـمـلـن ام حـديـدا

فإن « مشيها » عندهم فاعل للصفة « وئيدا » وعند غيرهم بدل من « الجمال »[٨٢]، لأن الاصل في الفاعل ان يلي الفعل لأنه كالجزء منه ، ولأن تقديمه يوقع في اللبس بينه وبين المبتدأ[٨٣] .

فتقديم الفاعل على فعله ليس بالجيد عند معظم النحاة وإن كان الاسناد لا يتغير ، وقد جاء التقديم في باب ما يحتمل الشعر ، فقال سيبويه « ويحتملون قبح الكلام حتى يضعوه في غير موضعه لأنه مستقيم ليس فيه نقض فمن ذلك قوله :

صـددت فـأطـولت الصـدود وقـلـما      وصـال عـلى طـول الـصـدود يـدوم

وانما الكلام « وقلما يدوم وصال » »[٨٤] .

وتقديم الفعل او تأخيره في الجملة ليس مسألة اعراب واختلاف فيه، وانما يرجع ذلك الى المعنى فهو الذي يحدد تركيب الجملة ويوجب البدء بالفعل او بالاسم . وقد اشار العقاد الى الفرق بين قولنا : « محمد حضر » وقولنا : « حضر محمد »[٨٥] ، وقال برغستراسر وهو يتحدث عن تقديم الفاعل « وأما تقديم الفاعل في الجملة الفعلية فلا يقرره النحويون بل يحسبونه مثل « زيد جاء » جملة ذات وجهين ، اي جملة اسمية مبتدؤها « زيد » وخبرها جملة فعلية وهي « جاء » على قياس مثل « زيد رأيته اليوم » معناها « اما زيد فرأيته اليوم » وهذا ليس بمحال ، وقد يوجد احياناً ، غير ان الاكثر والاقرب الى الاحتمال هو ان يكون معنى « زيد جاء » عين معنى « جاء زيد » وانما الفرق بينهما اني اذا قلت

---

= ( بغداد : ١٩٨٠ ) ، ج١ ، ص ١٥٩ ، وعبد القادر بن عبدالله الكنغراوي ، **الموفي في النحو الكوفي** ، تحقيق محمد بهجة البيطار ( دمشق : المجمع العلمي العربي ، ١٩٥٠ ) ، ص ١٨ .

(٨٢) انظر : ابو القاسم عبد الرحمن بن اسحق الزجاجي ، **امالي الزجاجي** ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ( القاهرة : المؤسسة العربية الحديثة ، ١٣٨٢هـ ) ، ص ١٦٦ .

(٨٣) انظر : المبرد ، **المقتضب** ، ج١ ، ص ١٦ وج ٤ ، ص ١٢٨ ؛ ابو الفتح عثمان بن جني ، **كتاب اللمع في العربية** ، تحقيق فائز فارس، المكتبة النحوية ، ١ ( الكويت : دار الكتب الثقافية ، [١٩٧؟])، ص ٣١ ؛ ابو القاسم محمود بن عمر جار الله الزمخشري ، **المفصل في علم العربية وبذيله المفصل لابي فراس النعساني** ( بيروت )، ص ١٨ ؛ ابو عمرو عثمان بن عمر بن الحاجب ، **الايضاح في شرح المفصل** ، تحقيق موسى بناي العليلي ( بغداد : ١٩٨٢ ) ، ج ١ ، ص ١٥٧ ؛ موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش ، **شرح المفصل** ، ١٠ ج ( القاهرة ) ، ج١ ، ص ٧٥ ؛ ابو البركات عبد الرحمن بن محمد بن ابي سعيد الانباري ، **كتاب اسرار العربية** ، تحقيق محمد بهجة البيطار ( دمشق : المجمع العلمي العربي ، ١٩٥٧ ) ، ص ٧٩ ؛ عبدالله بن عبد الرحمن بن عقيل ، **شرح ابن عقيل على الفية ابن مالك** ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط ١٤ ، ٢ج ( القاهرة : المكتبة التجارية الكبرى ، ١٩٦٤ ) ، ج١ ، ص ٤٦٥ ، وعلي بن محمد الاشموني ، **شرح الاشموني على الفية ابن مالك** ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ٢ ج ( القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٥ ) ، ج١، ص ١٦٩ .

(٨٤) سيبويه ، **الكتاب** ، ج١ ، ص ٣١ .

(٨٥) انظر : العقاد ، **اشتات مجتمعات في اللغة والادب** ، ص ٦٠ ، وقد تقدم كلام العقاد .

« جاء زيد » اخبرت عن مجيئه إخباراً محضاً لا يخالطه شيء غيره ، فتقديم الفعل هو العبارة المألوفة . واذا قلت « زيد جاء » كان مرادي ان انبه به السامع الى ان الذي جاء هو زيد كأني قلت « زيد جاء لا غيره » فتقديم الفاعل عبارة عن الاهم كون زيد هو الفاعل لا كونه فعل الفعل ، وما ينبه به السامع عن هذا المعنى الخاص شيئان :

**الاول** : تغيير الترتيب العادي ، فكل شيء يخالف العادة هو اكثر تأثيراً في الفهم من المألوف .

**والثاني** : ان اول كلمة في الجملة هي على العموم المضغوطة في اللغة العربية اذا صرفنا نظرنا عما نبتدىء به الجملة في الادوات إن واخواتها الى غير ذلك . وقد يكون آخر الجملة اشد ضغطاً من اولها وذلك اذا قدمت كلمة « انما » فهي تقدير نظام ضغط الجملة وتنقل اقوى الضغط الى آخرها . مثاله في القرآن الكريم : ﴿ . . . **انما بغيكم على انفسكم** . . . . ﴾[(٨٦)] وضدها « اما » فهي تشدد الضغط على اول الجملة .

فاللغات تتخالف تخالفاً ظاهراً في هذا الباب ، فترتيب الكلام في الجملة مقيد في بعضها ، واختياري في بعضها . مثال النوع الاول اللغة الفرنسية فنرى فيها لكل جزء من الجملة موضعاً لا يمكن نقله عنه الا في القليل من الحالات ، ومثال النوع الثاني الالمانية فقواعد ترتيب الكلمات فيها قليل والشواذ منها كثير . فلغة من اشباه الفرنسية لا تتمكن من تغيير ترتيب الكلمات للتنبيه على المهم منها فتحتاج الى وسائط اخرى منها في الفرنسية تغيير تركيب الجملة . فإني مثلاً اذا ترجمت « جاء زيد » الى الفرنسية قلت : «Zaid est venu» ، واذا ترجمت « زيد جاء » قلت «C'est Zaid qui est venu.» . فالعربية متوسطة بين النوعين المذكورين من اللغات ، فقيد فيها تركيب الكلمات في كثير من الحالات كتقديم الموصوف على الصفة والمضاف على المضاف اليه الى آخره ، وهو اختياري في بعضها كما ذكرنا في تقديم الفاعل على الفعل . وامثال هذا اقل بكثير من امثال ذلك في العربية ، وقواعد الترتيب قاسية فيها ، فالعربية اقرب الى الفرنسية في ذلك منها الى الالمانية ، وهي اشد اللغات السامية تقييداً لترتيب الكلمات »[(٨٧)] .

والاصل في الجملة تقديم الفاعل وتأخير المفعول ولا يتأخر الا في احوال منها :

ـ اسلوب الحصر او القصر كقوله تعالى ﴿ . . . . **وما يعلم تأويله إلا الله** . . . ﴾[(٨٨)] .

ـ طول الكلام مع الفاعل وتوابعه مما يضمر المفعول به ولا نتبينه حين يتأخر كقوله تعالى ﴿ **واذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم** . . . ﴾[(٨٩)] .

ـ اشتمال الفاعل على ضمير يعود على المفعول كقوله تعالى ﴿ . . . **هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم** . . . ﴾[(٩٠)] .

---

(٨٦) **القرآن الكريم** ، سورة يونس : الآية ٢٣ .
(٨٧) برغستراسر ، **التطور النحوي للغة العربية** ، ص ٨٦ ـ ٨٧ .
(٨٨) **القرآن الكريم** ، سورة آل عمران : الآية ٧ .
(٨٩) المصدر نفسه ، سورة النساء : الآية ٨ .
(٩٠) المصدر نفسه ، سورة المائدة: الآية ١١٩ .

وذكر د. ابراهيم انيس انه « ليس يشفع في انحراف الفاعل عن موضعه ما ساقه سيبويه من حديث عن العناية والاهتمام بالمتقدم اذ كما قال الجرجاني لم يذكر في ذلك مثالاً ، وكذلك لا يشفع في هذا الانحراف فلسفة عبد القاهر حين اراد توضيح معنى الاهتمام بعبارته المشهورة « قتل الخارجيّ زيد » . فالحلال بيّن والحرام بين ، والاساليب التي يسبق فيها المفعول فاعله واضحة جلية وفي غيرها لا يصح ان يغير احدهما مكانه ، فما قاله النحاة من جواز تقدم المفعول على فاعله حين يؤمن اللبس لا مبرر له من اساليب صحيحة ولا يعدو ان يكون رخصة منّ بها علينا النحاة دون حاجة ملحة اليها غير إنّا قد نقبلها في الشعر ، وذلك لأن للشعر اسلوبه الخاص »[٩١] . وذكر انواعاً اخرى لتقديم المفعول وارجعها الى الفاصلة والحرص على موسيقاها كقوله تعالى ﴿فأوجس في نفسه خيفةً موسى﴾[٩٢] ، وقوله ﴿ فلما جاء آلَ لوطٍ المرسلون ﴾[٩٣] او مجيء اسم الاشارة كما في قوله تعالى ﴿ ... أنى يحيي هذه الله بعد موتها ... ﴾[٩٤] . فيجرده من المشار اليه وصار بنيّته جعله كضمير متصل فعومل في الآية كما عومل الضمير المتصل ولذلك ولي الفعل مباشرة وارتبط به ارتباط الضمائر المتصلة . او كراهية الكلمة ونفور النفس منها كلفظة الموت في قوله تعالى ﴿ ام كنتم شهداء اذ حضر يعقوبَ الموتُ ... ﴾[٩٥] ، ولفظة « الضر » في قوله ﴿ واذا مس الانسان الضرُّ دعانا لجنبه ... ﴾[٩٦] .

وليس التقديم في هذه الامثلة بواجب كالانواع الثلاثة ولكنه مما يدخل في باب حُريّة الجملة العربية ، وهو غير ما اراده د. ابراهيم انيس وحدّده منهجه في دراسة اللغة ، وهو منهج صارم لا يهتم بالنظم والاتساق في العبارة كثيراً ، ولا يلتفت الى ما يريده المعنى ويهدف اليه ، بل لا يلتفت الى ما جاء في كتب النحاة مثل « ضرب زيداً عبدالله » ، وكان سيبويه قد قال عنه « وهو عربي جيد كثير ، كأنهم انما يقدمون الذي بيانه اهم لهم ، وهم ببيانه اعنى »[٩٧] . وقال ابن جني « ان المفعول قد شاع واطرد من مذاهبهم كثرة تقدمه على الفاعل حتى دعا ذلك ابا علي الى ان قال « ان تقدم المفعول على الفاعل قسم قائم برأسه كما ان تقدم الفاعل قسم ايضاً قائم برأسه وان كان تقديم الفاعل اكثر » . وقد جاء به الاستعمال مجيئاً واسعاً نحو قول الله عز وجل ﴿ ... انما يخشى الله من عباده العلماء ... ﴾[٩٨] وقول ذي الرمة :

استحدث الركب من أشياعهم خبرا ... ام عاود القلب من اطرابه طرب»

---

(٩١) انيس ، من اسرار اللغة ، ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦ .
(٩٢) القرآن الكريم ، سورة طه : الآية ٦٧ .
(٩٣) المصدر نفسه ، سورة الحجر : الآية ٦١ .
(٩٤) المصدر نفسه ، سورة البقرة : الآية ٢٥٩ .
(٩٥) المصدر نفسه ، سورة البقرة : الآية ١٣٣ .
(٩٦) المصدر نفسه ، سورة يونس : الآية ١٢ .
(٩٧) سيبويه ، الكتاب ، ج١ ، ص ٣٤ .
(٩٨) القرآن الكريم ، سورة فاطر : الآية ٢٨ .

ثم قال : « والامر في كثرة تقديم المفعول على الفاعل في القرآن وفصيح الكلام متعالم غير مستنكر ، فلما كثر وشاع تقديم المفعول على الفاعل كان الموضع له ، حتى انه اذا اخر فموضعه التقديم »(٩٩) . ولكنه لا يُقدَّم اذا خيف اللبس ، وذلك اذا كان الفاعل والمفعول مما لا يظهر فيهما الاعراب مثل « ضرب موسى عيسى » فإن الفاعل هو « موسى » والمفعول هو « عيسى » اي ان الفاعل في مثل هذه الجملة يكون مقدماً ، ولكنه يجوز في مثل « اكل يحيى كمثرى » ان يقال « اكل كمثرى يحيى » لأن الفاعل معروف سواء تقدم او تأخر(١٠٠) .

وشاع في لسان العرب تقديم المفعول المشتمل على ضمير يرجع الى الفاعل المتأخر مثل « خاف ربّه عمر » ، قال ابن عقيل « وانما جاز ذلك ـ وإن كان فيه عود الضمير على متأخر لفظاً ـ لأن الفاعل منوي التقديم على المفعول ، لأن الاصل في الفاعل ان يتصل بالفعل فهو متقدم رتبة وان تأخر لفظاً »(١٠١) .

وقد يتقدم المفعول على الفعل وجوباً كأن يكون اسم شرط او كم الخبرية او الاستفهامية او اذا كان ضميراً منفصلاً . وقد يلزم تأخيره كأن يكون ضميراً متصلاً ، او يكون العامل غير متصرف ، وقد يجوز فيه التقديم والتأخير في غير المواضع التي ذكرها النحاة(١٠٢) .

ويتبع الفاعل في التقديم والتأخير نائبه ، ويجوز فيه ما جاز في ذلك ، يقال « أُعطي زيد درهماً » و« أُعطي درهماً زيد »و« درهماً أُعطي زيد »و « زيد أُعطي درهماً »(١٠٣) .

وقد عزا بعض الغربيين تأخير الفاعل في العربية الى نوع من القدرية الشرقية التي تحيل كل شيء الى الغيب ، وقال بعضهم ان الاختلاف بين الاوروبيين وابناء اللغة العربية في مسألة الجملة الاسمية انما هو اختلاف في درجة الشعور بالثبوت للشخصية الانسانية ، فإن ثبوت هذه الشخصية ملازم للتفكير الاوروبي ولكنه ضعيف عند العرب يسري ضعفه من الفكر الى اللسان كما يظهر من غلبة الجملة الاسمية على ألسنة الاوروبيين وغلبة الجملة الفعلية على ألسنة الناطقين بالضاد . وهذا تفسير عجيب انبرى له العقاد فقال « لا يخفى ان هذا

---

(٩٩) ابن جني ، الخصائص ، ج١ ، ص ٢٩٥ ـ ٢٩٧ .

(١٠٠) انظر : المصدر نفسه ، ج١ ، ص ٤٥ ، والسيوطي ، الاشباه والنظائر في النحو ، ج ٢ ، ص ٤٩ .

(١٠١) ابن عقيل ، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ، ج ١ ، ص ٤٩٣ .

(١٠٢) انظر : علي بن مؤمن بن عصفور ، المقرب ، تحقيق احمد عبد الستار الجواري وعبدالله الجبوري ( بغداد : رئاسة ديوان الاوقاف ، ١٩٧١ ) ، ج ١ ، ص ٥٥ ؛ السيوطي ، الاشباه والنظائر في النحو ، ج٢ ، ص ٦٣ ؛ السيوطي ، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع ، تحقيق عبد العال سالم مكرم ، ٧ ج ( الكويت : دار البحوث العلمية ، ١٩٧٥ ـ ١٩٨٠ ) ، ج ٣ ، ص ٩ ؛ ابن عقيل ، المصدر نفسه ، ج١ ، ص ٤٨٤ ؛ ابن عصفور ، شرح جمل الزجاجي ، ج١ ، ص ١٦٤ ، وعباس حسن ، النحو الوافي ، مع ربطه بالاساليب الرفيعة والحياة اللغوية المتجددة ، ط٥ ، ٤ ج ( القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧٥ ) ، ج ٢ ، ص ٨٩ .

(١٠٣) المبرد ، المقتضب ، ج ٤ ، ص ٥٣ .

الاختلاف بين لغة الضاد واللغات الاوروبية له دلالته التي لا ريب فيها او لا يمكن ان يحدث لغير سبب يقبل التعليل ، كما تقبله جميع الظواهر اللغوية على حسب نصيبها من الجلاء او الغموض في مراحلها التاريخية ، الا ان التعليل الذي يرتضونه لهذا الاختلاف غير مقنع وقد يكون مناقضاً للواقع عند التأمل فيه من بعض نواحيه »(١٠٤) . ثم قال بعد ان ناقش هذا الرأي مناقشة علمية « ان الجملة الأسمية موجودة في اللغة العربية وليست مع وجودها قليلة الاستعمال في مواضعها ، فليس تقديم الفعل على الفاعل فيها عجزاً عن التركيب الذي يتقدم فيه الفاعل على الفعل ولكنه تقسيم للكلام على حسب مواضعه وتصحيح لموقع الفعل وموقع الفاعل من ارادة المتكلم وفهم السامع ، ومتى ثبت لنا الفرق بين موقع الفعل والفاعل في الجملتين الاسمية والفعلية فالاكتفاء بالجملة الاسمية كما تقع في كلام الاوروبيين نقص منتقد وليس بالمزية التي تدل على الكمال والارتقاء، وليس في وسع من يفهم مواقع الكلم ان يجهل الفارق بين قولنا « محمد حضر » وقولنا « حضر محمد» »(١٠٥) .

إن اللغة العربية واسعة ، وهي تعنى بالجمل الاسمية كما تعنى بالجمل الفعلية ، ولكل منها دلالته في التعبير وهدفه في الاداء ، ويدرك ذلك من تضلع بها وتذوق اساليبها ، وانه لغريب من الغربيين واتباعهم ان يفسروا العربية هذا التفسير العجيب الذي لا ينبع من واقع الامة العربية وروح لغتها المعطاء وانما من نظرتهم الى العرب وتصوراتهم المريضة .

ولم يشغل النحاة العرب انفسهم بتقديم الفاعل او المفعول وحسب ، وإنما تحدثوا عن المفاعيل الاخرى وعقدوا مباحث لتقديم المبتدأ والخبر واسم كان وخبرها واسم ان وخبرها والتمييز والحال والاستثناء وغيرها من اجزاء الجملة الاساسية او المتعلقة بها . وابدوا الرأي فيها ، وكانوا ينطلقون في ذلك كله من حرصهم على اللغة العربية واظهار قدرتها على التوسع في اساليب التعبير . ولكنهم على الرغم مما بذلوا من جهد لم يعنوا كثيراً بالمعاني التي يؤديها التقديم والتأخير ، ويبدو ان المعاني كانت واضحة عند المتقدمين منهم لقربهم من عهد صفاء اللغة ومعرفة الفروق بين عبارة واخرى . وقد دفع تأخر المعهد ابن الخباز ،. احد نحاة القرن السابع للهجرة، الى ان يقول : « ان قلبت الفرق بين « زيد اخوك » و« اخوك زيد»؟ قلت : من وجهين : احدهما : ان « زيد اخوك » تعريف للقرابة ، و« اخوك زيد » تعريف للاسم » .

والثاني : ان « زيد اخوك » لا ينفي ان يكون له اخ غيره ، لأنك اخبرت بالعام عن الخاص و« اخوك زيد » ينفي ان يكون له اخ غيره ، لأنك اخبرت بالخاص عن العام وهذا ما يشير اليه الفقهاء في قولهم « زيد صديقي» و« صديقي زيد»(١٠٦) . وهذا حسن من ابن الخباز والفقهاء ، لأن تركيب الجملة يحدد مغزاها ، وقد اهتم البلاغيون بالتقديم والتأخير في دراستهم لعلم المعاني الذي هو

---

(١٠٤) العقاد ، اشتات مجتمعات في اللغة والادب ، ص ٥٧ .

(١٠٥) المصدر نفسه ، ص ٥٧ .

(١٠٦) السيوطي ، الاشباه والنظائر في النحو ، ج ٢ ، ص ٢٢٢ .

« تتبع خواص تراكيب الكلام في الافادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره»[١٠٧] . وهذه هي معاني النحو او توخيها ، وقد بنى عبد القاهر نظرية النظم على هذا الاساس وحدد النظم بقوله « اعلم ان ليس النظم الا ان تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه واصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها »[١٠٨] .

ولكن البلاغيين تجنبوا الكلام في الرتبة المحفوظة وتحدثوا عن الرتبة غير المحفوظة ، قال الدكتور تمام حسان : « فإن علم المعاني يعد في هذه الحالات عالة على علم النحو مثال ذلك ان النحاة حددوا الرتبة في الكلام وجعلوها محفوظة وغير محفوظة . وقد ارتضى علماء المعاني هذا التقسيم وتجنبوا الكلام في الرتبة المحفوظة لأنها ليست مظنة اختلاف الاساليب بسبب حفظها وثبات وضعها ، وعمدوا الى الرتبة غير المحفوظة فمنحوها دراسة اسلوبية مهمة تحت عنوان « التقديم والتأخير » . وبمعنى هذا ان التقديم والتأخير البلاغي وثيق الصلة بقرينة الرتبة في النحو ولكن لا يمس الرتبة المحفوظة لأنها محفوظة فلا تختلف فيها الاساليب »[١٠٩] . وقال « ولكن دراسة التقديم والتأخير في البلاغة دراسة لاسلوب التركيب لا للتركيب نفسه ، اي انها دراسة تتم في نطاقين : احدهما : مجال حرية الرتبة حرية مطلقة . والآخر : مجال الرتبة غير المحفوظة . واذن فلا يتناول التقديم والتأخير البلاغي ما يسمى في النحو باسم الرتبة المحفوظة لأن هذه الرتبة المحفوظة لو اختلت لأختل التركيب باختلالها »[١١٠] .

وليس النحو دراسة التراكيب وحدها وانما النظر فيها وراءها من مقاصد ، ولذلك كان شديد الصلة بعلم المعاني كما ذهب اليه عبد القاهر والسكاكي اللذان ربطا بينهما ربطاً محكماً . وقد دفع ذلك بعض الباحثين الى جعلهما علماً واحداً لتعود الروح الى النحو بعد ان فقدها يوم شغل المتأخرون بالاعراب والبناء والعامل وتركوا ما وراء التركيب من اهداف . ومن ذلك التقديم والتأخير الذي « هو باب كثير الفوائد جم المحاسن واسع التصرف بعيد الغاية لا يزال يفترّ لك عن بديعه ويفضي بك الى لطيفه ، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه ويلطف لديك موقعه فتجد سبب أنْ راقك ولطف عندك ان قدم فيه شيء وحول اللفظ عن مكان الى مكان »[١١١] ، وهو « احد اساليب البلاغة فانهم اتوا به دلالة على تمكينهم في الفصاحة وملكتهم في الكلام وانقياده لهم ، وله في القلوب احسن موقع واعذب مذاق »[١١٢] .

---

(١٠٧) ابو يعقوب يوسف بن ابي بكر السكاكي ، **مفتاح العلوم** ( القاهرة : ١٩٣٧ ) ، ص ٧٧ .

(١٠٨) الجرجاني ، **دلائل الاعجاز في علم المعاني** ، ص ٦٤ .

(١٠٩) تمام حسان ، **الاصول** ( الدار البيضاء : ١٩٨١ ) ، ص ٣٤١ .

(١١٠) حسان ، ***اللغة العربية : معناها ومبناها*** ، ص ٢٠٧ .

(١١١) الجرجاني ، **دلائل الاعجاز في علم المعاني** ، ص ٨٣ .

(١١٢) محمد بن بهادر الزركشي ، **البرهان في علوم القرآن** ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، ٤ ج ( القاهرة : دار احياء الكتب العربية ، ١٩٥٧ ـ ١٩٥٩ ) ، ج ٣ ، ص ٢٣٣ .

والتقديم والتأخير « باب عريض يشتمل على اسرار دقيقة »[113] ، وقد جعله عبد القاهر على وجهين :

**الاول** : تقديم على نية التأخير ، وذلك في كل شيء اقر مع التقديم على حكمه الذي كان عليه وفي جنسه الذي كان فيه كخبر المبتدأ اذا قدم على المبتدأ والمفعول اذا قدم على الفاعل ، مثل « منطلق زيد » و« ضرب عمراً زيد » فـ« منطلق » و« عمراً » لم يخرجا بالتقديم عما كانا عليه من كون هذا خبر متبدأ ومرفوعاً بذلك وكون ذلك مفعولاً ومنصوباً من اجله كما يكون اذا أخّر .

**الثاني** : تقديم لا على نية التأخير ولكن على ان ينقل الشيء عن حكم الى حكم ويجعل بابا غير بابه واعرابـاً غير اعرابه ، وذلك ان يؤتى الى اسمين يحتمل كل واحد منهما ان يكون مبتدأ والآخر خبراً له فيقدم تارة هذا على ذاك واخرى على هذا . ومثاله ما يصنع بـ« زيد » و« منطلق » حيث يقال مرة « زيد المنطلق » واخرى : « المنطلق زيد » فـ « المنطلق » لم يتقدم على ان يكون متروكاً على حكمه مع التأخير فيكون خبر مبتدأ كما كان بل على ان ينتقل عن كونه خبراً الى كونه مبتدأ . ولم يؤخر « زيد » على ان يكون مبتدأ كما كان بل على ان يخرج عن كونه مبتدأ الى كونه خبراً . واظهر من هذا « ضربت زيداً » و« زيد ضربته » لم يقدم « زيد » على ان يكون مفعولاً منصوباً بالفعل كما كان ولكن على ان يرفع بالابتداء ويشغل الفعل بضميره ويجعل في موضع الخبر له[114] . لقد اثر التقديم والتأخير في حكم كل جزء وبدل المعنى الذي يهدف اليه .

فإذا تساوى المبتدأ والخبر في التعريف او التنكير كان المقدم منهما المبتدأ والمؤخر الخبر ، وهو ما يحدده الغرض فإن كان المراد الاخبار باحدهما أُخّر ليصبح وصفاً للثاني اي مسنداً . لولا هذا الهدف لم يكن لهذا التركيب اهمية ولأصبح عبثاً او ضرورة يلجأ اليهـا من لا يقدر عـلى التعبير السليم .

ويشمل التقديم والتأخير كثيراً من اجزاء الكلام ، فالمسند اليه يقدم لاغراض بلاغية منها :

١ ـ انه الاصل ولا مقتضى للعدول عنه كتقديم الفاعل على المفعول والمبتدأ على الخبر وصاحب الحال عليها .

٢ ـ ان يتمكن الخبر في ذهن السامع ، لأن في المبتدأ تشويقاً اليه كقول المعري :

والـذي حـارت الـبـرية فـيـه      حـيـوان مـسـتـحـدث مـن جماد

٣ ـ ان يقصد تعجيل المسرة إن كان في ذكر المسند اليه تفاؤ ل مثل « سعد في دارك » او المساءة ان كان فيه ما يتطير به مثل « السفاح في دار صديقك » .

---

(١١٣) ضياء الدين ابو الفتح نصر الله بن الاثير ، المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ٢ ج ( القاهرة : مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، ١٩٣٩ ) ، ج ٢ ، ص ٣٨ .

(١١٤) الجرجاني ، دلائل الاعجاز في علم المعاني ، ص ٨٣ ـ ٨٤ .

٤ ـ ايهام ان المسند اليه لا يزول عن الخاطر مثلاً « الله ربي » .

٥ ـ ايهام التلذذ بذكره كقول الشاعر :

بـالله يـا ظبيـات القـاع قـلن لـنـا ‏ ‏ ‏ ليـلايَ مـنكـن ام لـيـلى مـن الـبـشـر

٦ ـ تخصيص المسند اليه بالخبر الفعلي ان ولي حرف النفي مثل « ما انت قلت هذا » وقول المتنبي :

ومـا أنـا أسـقـمـت جسـمـي بـه ‏ ‏ ‏ ولا أنـا أضـرمـت في الـقـلـب نـارا

٧ ـ تقوية الحكم وتقديره في قوله تعالى ﴿ والذين هم بربهم لا يشركون ﴾(١١٥) .

٨ ـ افادة العموم مثل « كل انسان لم يقم » فيقدم ليفيد نفي القيام عن كل واحد من الناس .

ويقدم المسند لاغراض منها :

١ ـ تخصيص المسند بالمسند اليه كقوله تعالى ﴿ ولله مُلْكُ السموات والارض. . . ﴾(١١٦) ، وقوله ﴿ لكم دينكم ولي ديني﴾(١١٧) .

٢ ـ التنبيه من اول الامر على انه خبر لا نعت ، كقول حسان بن ثابت يمدح النبي ـ صلى الله عليه وسلم :

لـه همـم لا منـتـهـى لـكـبـارهـا ‏ ‏ ‏ وهمتـه الصغـرى أجلّ من الـدهـر

لـه راحـة لـو ان معشـار جـودهـا عـلى ‏ ‏ ‏ الـبـر كـان الـبـر انـدى مـن البـحـر

٣ ـ التفاؤ ل بتقديم ما يسر مثل « عليه من الرحمن ما يستحقه » .

٤ ـ التشوق الى ذكر المسند اليه كقولِ المعري :

وكـالـنـار الحـيـاة فـمـن رمـاد ‏ ‏ ‏ اواخـرهـا ‏ واولهـا ‏ دخـان

ومن التقديم تقديم متعلقات الفعل عليه كالمفعول والجار والمجرور والحال ،ويكون ذلك لأغراض منها :

١ ـ الاختصاص كقوله تعالى ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾(١١٨) اي نخصك بالعبادة فلا نعبد غيرك .

---

(١١٥) القرآن الكريم ، سورة المؤمنون : الآية ٥٩ .
(١١٦) المصدر نفسه ، سورة آل عمران : الآية ١٨٩ .
(١١٧) المصدر نفسه ، سورة الكافرون : الآية ٦ .
(١١٨) المصدر نفسه ، سورة الفاتحة : الآية ٥ .

٢ ـ الاهتمام بالمتقدم كقوله تعالى ﴿ قل اغير الله ابغي ربا وهو رب كل شيء . . . ﴾(١١٩) .

٣ ـ التبرك مثل « قرآناً قرأت » .

٤ ـ التبكيت والتعجب من حال المذكور كتقديم المفعول الثاني على الاول في قوله تعالى : ﴿ وجعلوا لله شركاء الجن . . . ﴾(١٢٠) . والاصل « الجنّ شركاء » وقد قدم لأن المقصود التوبيخ ، وتقديم « شركاء » ابلغ في حصوله .

٥ ـ ضرورة الشعر وهو كثير ، وقد يكون بعضه بسبب الوزن ، وقد يكون بسبب القافية وربما حملت هذه الضرورات على لغة الشعر التي تختلف عن لغة النثر في التركيب .

٦ ـ رعاية الفواصل والتناسب كقوله تعالى ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر ، واما السائل فلا تنهر ﴾(١٢١) . وقوله تعالى ﴿ فأوجس في نفسه خيفة موسى ﴾(١٢٢) ، فإنه لو اخر « في نفسه » عن « موسى » لفات تناسب الفواصل لأن قبله « يخيل اليه من سحرهم انها تسعى » وبعده « انك انت الاعلى » ، ولذهب التناسق في العبارة وقل تأثيرها .

وهذه الاغراض كثيرة وقد قال علماء البيان ومنهم الزمخشري ان تقديم هذه الانواع للاختصاص، غير ان ابن الاثير يرجعها الى الاختصاص ونظم الكلام(١٢٣) ، وفي ذلك تبيان لأهمية التقديم في كتاب الله وكلام العرب .

وهناك انواع كثيرة لا ترجع الى ما سبق،وانما تعود الى امور اخرى بحثها الزركشي في تقسيمه للتقديم والتأخير الى ثلاثة اقسام :

**الاول** : ما قدم والمعنى عليه ، ومقتضياته كثيرة منها السبق والعلة والسببية والمرتبة والتعظيم وخفة اللفظ ورعاية الفواصل .

**الثاني** : ما قدم والنية به التأخير ، ومنه ما يدل على ذلك الاعراب ، ومنه ما يدل عليه المعنى .

---

(١١٩) المصدر نفسه ، سورة الانعام : الآية ١٦٤ .
(١٢٠) المصدر نفسه ، سورة الانعام : الآية ١٠٠ .
(١٢١) المصدر نفسه ، سورة الضحى : الآيتان ٩ و١٠ .
(١٢٢) المصدر نفسه ، سورة طه : الآية ٦٧ .
(١٢٣) ابو القاسم محمود بن عمر جار الله الزمخشري ، **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل** ، ط ٢ ، ٢ج ( القاهرة : ١٩٥٣ ) ، ج ١ ، ص ١١ ؛ ابن الاثير ، **المثل للسائر في ادب الكاتب والشاعر** ، ج٢ ، ص ٣٩ ، ويحيى بن حمزة العلوي ، **الطراز المتضمن لاسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز** ( القاهرة : ١٩١٤)، ج٢ ، ص ٦٦ .

**الثالث : ما قدم في آية وأُخر في اخرى**(١٢٤) .

وهذه الانواع لم يتطرق لها البلاغيون الا من خلال الجملة، ولذلك كانت دراساتهم قاصرة لارتباطها بالمسند والمسند اليه والمتعلقات ولعل احسن من وقف على اسرار البلاغة الشيخ عبد القاهر الذي ابدع في تحليل التراكيب ووقف على اهمية الاساليب ونقل النحو من الاعراب والبناء الى عالم يموج حركة ويتدفق حياة . ومن امثلة تحليله قوله في النكرة اذا قدمت على الفعل او قدم الفعل عليها : « اذا قلت « أجاءك رجل ؟» فأنت تريد ان تسأله هل كان مجيء من احد من الرجال اليه . فإن قدمت الاسم فقلت « أرجلٌ جاءك ؟» فأنت تسأله عن جنس من جاءه : أرجل هو ام امرأة ؟ ويكون هذا منك اذا كنت علمت انه قد اتاه آت ولكنك لم تعلم جنس ذلك الآتي ، فسبيلك في ذلك سبيلك اذا اردت ان تعرف عين الآتي فقلت « ازيد جاءك ام عمرو ؟» ولا يجوز تقديم الاسم في المسألة الاولى لأن تقديم الاسم يكون اذا كان السؤال عن الفاعل والسؤال عن الفاعل يكون اما عن عينه او عن جنسه ولا ثالث . واذا كان كذلك كان محالاً ان تقدم الاسم النكرة وانت تريد السؤال عن الجنس لأنه لا يكون للسؤال حينئذ متعلق من حيث لا يبقى بعد الجنس الا العين . والنكرة لا تدل على عين شيء فيسأل بها عنه فإن قلت « أرجل طويل جاءك ام قصير؟» كان السؤال عن ان الجائي من جنس طوال الرجال ام قصارهم . فإن وصفت النكرة بالجملة فقلت « أرجل كنت عرفته من قبل اعطاك هذا ام رجل لم تعرفه؟» كان السؤال عن المعطي أكان ممن عرفه قبل ام كان انساناً لم تتقدم منه معرفة . واذْ قد عرفت الحكم في الابتداء بالنكرة في الاستفهام فأبن الخبر عليه؟ فإذا قلت « رجل جاءني » لم يصلح حتى تريد ان تعلمه ان الذي جاءك رجل لا امرأة ، ويكون كلامك مع من قد عرف ان قد اتاك آت . فإن لم ترد ذاك كان الواجب ان تقول « جاءني رجل » فتقدم الفعل »(١٢٥) .

هذه بعض اسرار التقديم والتأخير في العربية ، وليس من العبث ان يشغل البلاغيون انفسهم بها لولا ان لكل تعبير معناه ولكل وضع مغزاه ، وفي ذلك اتساع في القول وقدرة على الابداع . ولكن هذه الحرية ليست مطلقة لأن في العربية كثيراً من الرتب المحفوظة والصيغ التي اذا غيرت اختل المعنى واصبح مبهماً . ومن ذلك البيت المنسوب الى الفرزدق :

وما مثله في الناس الا مملكاً ... ابو امه حي ابوه يقاربه

وترتيبه « وما مثله في الناس حي يقاربه الا مملكاً ابو امه ابوه » وهو عند البلاغيين من التعقيد الذي احدثه فساد النظم(١٢٦) ، وعند اللغويين والنحاة من الضرورة الشعرية(١٢٧) لأنه « يجوز في

---

(١٢٤) الزركشي ، **البرهان في علوم القرآن** ، ج ٣ ، ص ٢٣٣ وما بعدها .

(١٢٥) الجرجاني ، **دلائل الاعجاز في علم المعاني** ، ص ١٠٩ - ١١٠ .

(١٢٦) انظر : المصدر نفسه ، ص ٦٥ ؛ ابن الاثير ، **المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر** ، ج٢ ، ص ٤٦ ، وجلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني ، **الايضاح** ، تحقيق لجنة باشراف محمد محيي الدين عبد الحميد ( القاهرة ) ، ص ٥ .

(١٢٧) انظر : سيبويه ، **الكتاب** ، ج١ ، ص ٣٢ ( الهامش ) ؛ ابن جني ، *الخصائص* ، ج١ ، ص ١٤٦ ؛ علي بن مؤمن بن عصفور ، **ضرائر الشعر** ، تحقيق السيد ابراهيم محمد ( بيروت : ١٩٨٠ ) ، ص ٢١٣ ؛ ابو =

الشعر ما لا يجوز في الكلام »[128] .

والضرورة الشعرية قد تكون لانفعال الشاعر ، قال ابن جني : « فمتى رأيت الشاعر قد ارتكب مثل هذه الضرورات على قبحها وانحراف الاصول بها ، فاعلم ان ذلك على ما جشمه منه وان دل من وجه على جوره وتعسفه فإنه من وجه آخر مؤذن بصياله وتخمطه[129] . وليس بقاطع دليل على ضعف لغته ولا قصوره عن اختياره الوجه الناطق بفصاحته ، بل مثله في ذلك عندي مثل مجرى الجموح بلا لجام ، ووارد الحرب الضروس حاسراً من غير احتشام . فهو وإن كان ملوماً في عنفه وتهالكه ، فإنه مشهود له بشجاعته وفيض مِنّته » . ثم قال « فاعرف بما ذكرناه حال ما يرد في معناه ، وان الشاعر اذا أورد منه شيئاً فكأنه لأنسه بعلم فرضه وسفور مراده لم يرتكب صعباً ولا جشم الا امما[130] ، وافق بذلك قابلاً له او صادف غير آنس به الا انه هو قد استرسل واثقاً وبنى الامر على ان ليس ملتبساً »[131] . وقريب من هذا ما ذهب اليه بعض المعاصرين كالدكتور ابراهيم انيس الذي قال « ألست ترى معي ان المعاني قد تزاحمت في ذهن الفرزدق فتزاحمت الالفاظ واختلط بعضها ببعض بينما الشاعر في شغل عنها وقد تملكته العاطفة وسيطرت عليه الفكرة فلم يعبأ بنظام الكلمات على النحو المألوف للناس؟ لسنا نبالغ اذن حين نقرر ان الشعر يفر من كل ما هو مألوف معهود محلقاً في سماء الخيال لا يكاد يشعر بالالفاظ كما يشعر بالمعاني . فإذا سيطرت عليه الصورة سيطرة تامة فقد يسوق لنا مثل هذا النظام الغريب الذي نراه في بيت الفرزدق »[132] . ود. لطفي عبد البديع الذي قال « فما يعده عبد القاهر وغيره من البلاغيين بناء على معاني النحو فساداً في التأليف وخللاً في النفس ليس الا صورة من صور التركيب توخاها الشاعر في اللغة . والنحو بأحكامه اعجز من ان يستوعب اسرار اللغة الشعرية ووجوهها التي يدق فيها النظر فهو يقيم اصولاً عامة يجريها على اشياء متباينة لا تكاد تتضح معها الخصائص المتفردة للكلام ، والفاعلية والمفعولية والابتدائية والخبرية وغيرها ، لا تغني وحدها في بيان الآثار الشعرية لمواقع الالفاظ في العبارات »[133] .

والسيد ابراهيم محمد الذي قال ان الضرورة الشعرية « تكشف عن الخصائص الفردية التي بها يظهر روح الشاعر او الاديب . فمغالبة القوة التي يصنعها اطراد العادة اللغوية لا يمكن تفسيره الا بالتسليم بأن قوة مناهضة بعثت على النشاط الجديد الذي به خالف التعبير ما استقر عليه الاستعمال ، اذ اطراد الاستعمال اللغوي من شأنه ان يصبح قوة تتسلط على كل تعبير ناهض اذ تتكون العادة اللغوية التي عليها يطرد التعبير وتستقر في عقل الجماعة فلا ينفك عنها اي تعبير ، على انه وإن كانت الضرورة الشعرية خروجاً على القواعد النحوية فهي ليست خروجاً على اللغة

---

= عبدالله محمد بن جعفر القزاز ، **كتاب ما يجوز للشاعر في الضرورة** ، تحقيق وتقديم المنجي الكعبي ( تونس : الدار التونسية للنشر ، ١٩٧١ ) ، ص ١٥٧ ، ومحمود شكري الآلوسي ، **الضرائر وما يسوغ للشاعر دون الناثر** ، تحقيق محمد بهجت الاثري ( بيروت )، ص ٢٥١ . ( طبعة مصورة )

(١٢٨) سيبويه ، المصدر نفسه ، ج١ ، ص ١٢٦ .

(١٢٩) تخمط : هدر وثار وتكبر .

(١٣٠) الامم : اليسير ، البيّن من الامر .

(١٣١) ابن جني ، **الخصائص** ، ج٢ ، ص ٣٩٢ - ٣٩٣ .

(١٣٢) انيس ، **من اسرار اللغة** ، ص ٣٢٦ .

(١٣٣) لطفي عبد البديع ، **التركيب اللغوي للأدب : بحث في فلسفة اللغة والاستطيقا** ( القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧٠ ) ، ص ١٠ .

لأن الشعراء بحكم حياتهم في اللغة لا ينفكون عنها بحال » . ثم قال « ولكن التحليل الاسلوبي لبيت الفرزدق ومنه التقديم والتأخير ووضع الكلام في غير موضعه يتضمن البحث عن العلل الروحية التي نشط عنها التعبير وتتحصل بها القيمة الفكرية التي يتضمنها البيت ولا تظهر الا به »(١٣٤) .

فالتقديم والتأخير قد يكون لانفعال الشاعر او حرصه على موسيقى شعره وقافيته او محاولته الخروج على القيود التي تفرضها قواعد النحو ، ولكن ذلك قد يقود الشاعر الى مسالك وعرة تعقد كلامه وتفضي به الى الغموض والابهام . ومهما قيل في بيت الفرزدق فإنه يبقى فاسد النظم ، غامض المعنى ، ثقيل الايقاع ، ولكن الشاعر قد تندّ عنه ابيات يحرص عليها حرصه على بنيه . ولا يختص الشعر بمثل هذه الحرية وحده وانما تظهر الحرية في النثر وتتجلى في الالتزام بالفواصل والسجع ومراعاة نظم العبارة وجملها ، ولكن هذا الالتزام لم يؤد الى الغموض والابهام ، ومن ذلك قوله تعالى ﴿ . . . ولكن كانوا انفسهم يظلمون ﴾(١٣٥) ، وقوله ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر . واما السائل فلا تنهر ﴾(١٣٦) . ويرى د. ابراهيم انيس ان المفعول هنا لم يتقدم الا مراعاة لموسيقى الفاصلة القرآنية لأن « المفعول لا يصح ان يسبق ركني الاسناد في الجمل المثبتة كما يزعم اصحاب البلاغة في تلك الامثلة المصنوعة من نحو « زيداً ضربت » و« زيداً ضربته »»(١٣٧) . والبلاغيون حينما نظروا هذه النظرة لم يلتزموا بالبنية الاساسية للتركيب او تحليل التركيب وحده كما يفعل اللغويون وانما تجاوزوه الى تحليل الاساليب . ولا ينقص ذلك من جهدهم بل يعد امتداداً لعمل اللغويين وتفسيراً حياً للغة ، وليس صحيحاً انه « لا معنى لأن ننساق مع البلاغيين حين يعزون تقدم المسند اليه الى امور تلمسوها من شواهد معينة كالتمكن في ذهن السامع والتعجيل بالمسرة او المساءة والاستلذاذ والتعظيم والتحقير . ومن الغريب انهم يجعلون هذه الاسباب نفسها او معظمها داعياً من دواعي تقدم المسند ايضاً ودراستهم هنا لا تعدو ان تكون نقداً ادبياً لأمثلة معينة تصوروا فيها تلك الامور التي اشاروا اليها »(١٣٨) .

وليست المسألة تصوراً وانما هي الواقع اللغوي الذي يحس به المتذوق للغة ولم تأتِ « انفسهم » في الآية لأجل الفاصلة والتناسق وحسب ، وانما جاءت تحديداً لمن يقع عليه الظلم وتوكيداً له ، وهل من ظلم اشد من ان يظلم الانسان نفسه؟ ومثل ذلك تقديم « اليتيم » و« السائل » لأن الهدف ليس القهر والنهر في المقام الاول وانما الرحمة باليتيم والسائل ، ولذلك تقدم المفعولان على فعليهما ، ولو كان القصد غير ذلك لتأخرا وجاءا على نسق الكلام المحفوظة رتبته ، وليس هذا ما اراد الله سبحانه ان يبينه .

وعبارتا « ضربت زيداً » و« زيداً ضربت » مختلفتا الهدف ، فالاولى ليس فيها تخصيص لأنها تحتمل ان يكون المضروب غير « زيد » فعند النطق بالفعل اولاً يذهب الذهن مذاهب شتى، ولا

---

(١٣٤) ابراهيم محمد ، الضرورة الشعرية : دراسة اسلوبية ، ط ٢ ( بيروت : ١٩٨١ ) ، ص ٩٧ - ٩٨ .

(١٣٥) القرآن الكريم ، سورة البقرة : الآية ٥٧ .

(١٣٦) المصدر نفسه ، سورة الضحى : الآيتان ٩ و١٠ .

(١٣٧) انيس ، من اسرار اللغة ، ص ٣١٢ .

(١٣٨) المصدر نفسه ، ص ٢٨٥ .

يتوقف او يصحو الا عند اكمال الجملة ، ولا يحدث مثل ذلك عند البدء بالمفعول اي تقديمه على الفعل لأنه يتحدد ، ويسرح الذهن بعيداً في الفعل ويتصوره تصورات مختلفة . وقد عرف القدماء هذه الفروق واشار ابن الاثير اليها فقال « فإن في قولك « زيداً ضربت » تخصيصاً له بالضرب دون غيره ، وذلك بخلاف قولك « ضربت زيداً » لأنك اذا قدمت الفعل كنت بالخيار في ايقاعه على اي مفعول شئت بأن تقول « ضربت خالداً او بكراً او غيرهما » واذا اخرته لزم الاختصاص للمفعول »(١٣٩) . ومثال ذلك « زيد قائم » و« قائم زيد » . فالجملة الاولى لا يراد بها اثبات القيام عند النطق بها وانما تحديد « زيد » لا غيره ، والجملة الثانية يراد بها إثبات القيام . .

ان اللغة ليست هياكل صامتة وانما هي اجسام حية ناطقة ، وقد اكمل علماء المعاني ما بدأه اللغويون والنحاة ، وأعادوا الى التراكيب اللغوية روحها التي فقدتها في كتب النحو المتأخرة . وان اية دراسة لغوية تتخذ من تحليل التركيب وحده منهجاً لن تخدم اللغة او تقدم لها ما ينفعها في تطورها ، وقد كان لما كتبه عبد القاهر في « دلائل الاعجاز » ولخصه البلاغيون في علم المعاني ابلغ الاثر في بعث الدراسات اللغوية والنحوية . ولو استمر منهج عبد القاهر لأغنى العربية وافاد الادباء ، ولكن الذين جاءوا بعده لم يقفوا على نظرية النظم وقفة المتذوق فجمدت في قوالب بلاغية اظهرتها شروح التلخيص في صور حائلة ليس فيها ما ينير السبيل .

- ٣ -

تلك بعض خصائص اللغة العربية ، وقد كان الوقوف عند التقديم والتأخير طويلاً لانه يمثل ابرز السمات التركيبية في العربية ، وهناك خصائص كثيرة كالالتفات الذي هو احد ابواب « شجاعة اللغة العربية » والفصل والوصل ، والتنكير والتعريف وغيرها من المباحث اللغوية المبثوثة في كتب النحو والبلاغة والتفسير .

وبعد فماذا كانت حصيلة هذا البحث ؟

لقد ظهر ان العربية لغة قديمة متواصلة ، وهذا التواصل من اهم خصائصها ، ولولاه لانقطع الحاضر عن الماضي واصبحت اللغة القديمة طلاسم يعنى بفكها علماء الآثار . ولكن فهم العربي المعاصر للغة امرىء القيس والقرآن الكريم والادب الممتد قروناً طويلة يجعل العربية خالدة بين لغات العالم ويضفي عليها قانون الوحدة الذي جمع العرب ووحد مشاعرهم وعقيدتهم . وليس ادل على وحدة العرب من ذلك الشعر الذي كانت القبائل تتناقله ، وتلك الخطب التي كان الناس يتسابقون الى روايتها ، وذلك الأدب الذي تردد في كل مكان ، وكان خير مثال يحتذى في الفصاحة والبيان .

---

(١٣٩) ابن الاثير، المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر ، ج ٢ ، ص ٣٨ .

وظلت اللغة العربية على تعدد اقطار الناطقين بها محتفظة بوحدتها ، وتتجلى هذه الوحدة في الاسلوب الذي يسود كلام الناس ولاسيما احاديثهم وتآليفهم في العلوم والآداب والفنون . ولم تكن هذه طوقاً يقيد المتكلمين او المنشئين،لأن فيها سعة في القول وتنوعاً في الاداء يتجليان في قدرات المبدعين وطواعية العربية للتصرف في افانين القول وتراكيب الكلام .فللجملة بناء معروف أكدته كتب النحو وهو يمثل البنية الاساسية او الرتبة المحفوظة ، ولكن اساليب العرب وطرائق تعبيرهم اوسع من ان تضمها قواعد النحو وأصوله . ومن ذلك ان للتقديم والتأخير بنية اساسية يسلكها العرب في كلامهم وهي ما يطلق عليه وجوب التقديم او وجوب التأخير ، ولكن تلك البنية ليست وحدها سبيل المبدعين ، فهناك الوان كثيرة من التراكيب تحددها الاهداف ويرسمها المنشئون . وقد عالج البلاغيون هذه الالوان ووقفوا على جوانب كثيرة منها وبذلك اتسع فن القول وتحرر الكلام من القيود . وساعد على هذا التصرف الاعراب او الحركات ولولا ذلك لجمدت العربية واصبحت هياكل صامتة لا يقدر الاديب على تصريفها كما تحب المعاني وتهدف اليه الاغراض .

وفي اللغة العربية وحدة من جهة وتنوع من جهة اخرى ، وهو تنوع يرجع الى اصل واحد ويشير الى سمات اللغة وخصائصها ، ولكن ذلك الاصل لم يكن قيداً يمنع الناس من التفنن في توليد الالفاظ والصيغ والتراكيب .

ومن خصائص العربية انها ليست لغة فئة او جماعة بعينها ، وانما هي لغة الشعب العربي كله ، وقد كان العربي يتنقل في جزيرته فلا يجد صعوبة في التفاهم الا ما كان من بعض الاختلاف في اللهجات ، ويستمع الى الشعراء في الاسواق او الحواضر فيطرب ويتغنى بذلك الشعر ويشيعه بين الناس . وازداد العرب فهماً للغتهم بعد نزول القرآن الكريم الذي جمعهم على الخير ، وساروا شرقاً وغرباً ونشروا رسالتهم الخالدة في الآفاق ، وكان العربي او المسلم في الاندلس يقرأ ما يكتب في القاهرة او دمشق او بغداد او اطراف الصين ، وكان الرجل يطوف العالم العربي الاسلامي فلا يجد صعوبة في اللغة ولا ضيقاً في الفهم على الرغم من امتداد البقاع وتنوع الاصقاع . ويستمع العربي اليوم الى المذياع فيفهم ويعلق على ما يذاع ، وقد يكون ممن لا يحسنون القراءة والكتابة او ممن حرموا نعمتها ، ويقرأ الصحف والكتب وهي تصدر في اقطار عربية مختلفة فيفهمها وينتفع بها . ولم يكن ذلك يسيراً لولا شعبية اللغة العربية وحرص ابنائها على التمسك بها والذود عنها ورد ما يشيعه الشعوبيون ويسعى اليه الحاقدون على الامة ولغتها الرائعة .

ان وحدة اللغة العربية وتواصلها ، وان تنوع تراكيبها وتعددها ، وان شعبيتها وتفاعلها - من اهم خصائصها ومن اهم دعائم الامة ووحدتها . ولن تقوم دولة العرب الكبرى من غير لغة موحدة ،تجمعهم على الخير وتوحد مشاعرهم وتحقق مصالحهم وتعلي شأنهم بين الامم . وليس في العالم امة لها لغة حية كلغة الضاد وليس انفع للعرب من ان يعتزوا بلغتهم ، وان يصونوها . ورحم

الله العقاد حينما قال : « ومن واجب القارىء العربي الى جانب غيرته على لغته ان يذكر انه لا يطالب بحماية لسانه ولا مزيد على ذلك ، ولكنه مطالب بحماية العالم من خسارة فادحة تصيبه بما يصيب هذه الأداة العالمية من ادوات المنطق الانساني بعد ان بلغت مبلغها الرفيع من التطور والكمال . وان بيت القصيد هنا اعظم من القصيد كله ، لأن السهم في هذه الرمية يسدد الى القلب ولا يقف عند الفم واللسان وما ينطقان به في كلام منظوم او منثور »[١٤٠] .

فالحفاظ على اللغة العربية وسلامتها حفاظ على الامة ووحدتها ، وحمايتها من كيد الشعوبيين ودفاع عن الانسانية وتقدمها ، والتمسك بها اول السبيل الى الوحدة الكبرى ، وان نشرها في العالم اعتراف بامة العرب ودورها في بناء الحضارة الحديثة وخلق الانسان الجديد .

---

(١٤٠) العقاد ، اللغة الشاعرة : مزايا الفن والتعبير في اللغة العربية ، ص ٦ .

# الفصل الرابع

# الاسس النفسية والاجتماعية للغة العربية

الشاذلي الفيتوري

## اولا : تمهيد

لئن كان حرص العرب منذ القدم على تتبع قضايا لغتهم حرصاً لا يهدأ البتة ، فإنه قد يتعين عليهم في اواخر هذا القرن ان يزداد حرصهم تأججاً ، نظراً لما يهدد الامة العربية من غزو لغوي يمهّد للغزو الثقافي ويواكبه ، كما يواكب الواناً اخرى من الغزو الاقتصادي والسياسي وحتى العسكري . لذا ، يجب علينا عند تتبع قضايا لغتنا اليوم ان ننظر اليها بالمنظار الذي تفرضه الاحداث دون ما تضليل للنفس ولا تزيين للواقع ولا تجاهل للحقيقة ولا افراط في التفاؤل بالمستقبل . بل يجب ان نكون في تمحيصنا لواقعنا اللغوي والثقافي نقادين متشددين ، واعين لما تشكوه لغتنا وثقافتنا من نقص وتخلّف بالنسبة الى بعض اللغات والثقافات الاخرى ، وكذلك لما كان منا من تفريط في استثمار ما هو جاهز لدينا من امكانيات توفرها لغة الضاد في مجالات التعبير والاتصال ، باتت كامنة فيها بالقوة اذ لم تقدر العقول العربية ان تخرج بها الى حيّز الفعل ، طالما ران عليها الافراط في التواكل والتقليد والتبعية .

نقول هذا ، لا تشاؤماً ولا بدافع نزعة« مازوشية » ولدتها فينا احقاب من التقهقر وانكسار النفس ، بل نعلنها كلمة حق حتى نكون على بيّنة منذ البداية على ما نحن عليه من تذبذب ثقافي لم ينتج عنه تذبذب لغوي فحسب ، بل اكتسح كامل جوانب الشخصية العربية فباتت حالها اقرب الى المرض منها الى الصحة . يقول العالم البلجيكي مارك ريشال[1] : « ان في الاصطدام الثقافي سقماً

---

(١) انظر : Marc Richelle, *Aspects psychologiques de l'acculturation: Recherche sur les motivations de la stabilisation urbaine au Katanga* (Elizabethville, Congo: Centre d'études des problèmes sociaux indigènes, 1960), p. 21.

حقيقياً ينتاب الثقافة المصدومة»، وهو يعني بذلك ان الثقافة المصدومة تصبح ثقافة هزيلة . وبالفعل لقد اصبحت ثقافتنا هزيلة مذ اصطدمت بثقافة الغرب ، اذ لم يكن التقاء الثقافتين لقاء ود وحوار ، بل كان لقاء غلبة واستيلاء ، فحصل ما يحصل في مثل هذه الحالات : قيام ازدواجية ثقافية ولغوية اساسها الصراع بين ثقافتين تحاول احداهما الاستيلاء على الاخرى . لكن قبل التعرّض لمشكلة ازدواجية الثقافة واللغة في البلاد العربية، يجدر بنا الوقوف عند مشكلة اخرى سابقة لها ما زالت مثار بحث ونقاش في بعض الاوساط الجامعية ، وهي مشكلة الثنائية القائمة بين العامية والفصحى .

## ١ ـ الثنائية بين الفصحى والعامية

هي معطى من المعطيات الاجتماعية لا سبيل الى انكاره ، لكن الغريب في الامر ان دعاة العامية في بعض البلاد العربية ، كأنهم يتوهمون او يريدون ان يوهموا ، ان هذه المشكلة إنّما هي وليدة العصر ، وان اللهجات العامية انما هي نتيجة حتمية من نتائج تطور الفصحى على مر العصور ، ومظهر من مظاهر مواكبة هذه اللغة لمقتضيات العصر :

أ ـ ان القضية قديمة قدم اللغة العربية ، وقد اتخذت ابعاداً اخرى لها بعد انتشار الاسلام . يقول عبد الرحمن ابن خلدون ، بعد ان اوضح كيفية تداول اللغة من جيل الى جيل عن طريق السماع وتكرار الاستعمال :

« هكذا تصيّرت الالسن واللغات من جيل الى جيل وتعلّمها العجم والاطفال ، وهذا هو معنى ما تقوله العامة من ان اللغة للعرب بالطبع اي بالملكة الاولى التي اخذت عنهم ، ولم يأخذوها عن غيرهم . ثم فسدت هذه الملكة لمضر بمخالطتهم الاعاجم ، وسبب فسادها ان الناشىء من الجيل ، صار يسمع في العبارة عن المقاصد كيفيات اخرى غير الكيفيات التي كانت للعرب ، فيعبر بها عن مقصوده لكثرة المخالطين للعرب من غيرهم ، ويسمع كيفيات العرب ايضاً ، فاختلط عليه الامر واخذ من هذه وهذه ، فاستحدث ملكة وكانت ناقصة عن الاولى . وهذا معنى فساد اللسان العربي . ولهذا كانت لغة قريش افصح اللغات العربية واصرحها لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم »[٢].

ب ـ إن دعاة العامية يقيسون الامور بغير نظائرها حينما يشبهون الفصحى بلغة ميتة مثل اللاتينية واللهجات العامية باللغات الاوروبية المنبثقة عن اللاتينية . وقد تجاهلوا ان اللغة الفرنسية مثلاً اشتملت ، وما زالت تشتمل ، على لسانين احدهما فصيح وهو المتعامل به في الدوائر العلمية والثقافية ، ولسان عامي وهو اداة الاتصال بين عامة الناس . كما غاب عنهم كذلك ان للفصحى مستوياتها ، وكذلك العامية هي الاخرى سواء أكان هذا بالنسبة الى اللغة العربية ام بالنسبة الى بقية اللغات الاخرى . وهذه المستويات رهينة ظروف الناطقين بهذه اللغات وتلك اللهجات . فهي تقلبات التاريخ وما تفضي اليه من ارتفاع حضارة القوم او انحطاطها . وهي كذلك تقلبات الاحداث بالنسبة الى اصناف من البشر داخل المجموعة البشرية الواحدة ، فيرتفع مستوى التعبير

(٢) ابو زيد عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون ، المقدمة ( بيروت : دار الكتاب اللبناني ، ١٩٥٦ ) ، ص ١٠٤٦ .

عندهم او ينحدر بالقدر الذي تمليه هذه الاحداث . ومهما يكن من امر ، فإن الفصحى والعامية متعايشتان في كل فترات التاريخ وعلى اختلاف الامم واللغات ، وان ارقى درجات العامية يكون مشدوداً الى ادنى درجات الفصحى ، وان درجات الفصحى تختلف باختلاف العصور وباختلاف قدرات المتمرسين فيها . فبالنسبة الى اللغة العربية ، ان كان المثل الاعلى في مجال الفصحى هو القرآن الكريم ، فإن مستويات التصرف فيها تبقى متراوحة بين الابتذال والاعجاز . وكذلك العامية ، فهي تمتد من كلام السوقة وعامة الناس الى لباقة اعيان القوم وتكلف الظرفاء . هذا مع العلم ، بأن لهجات البدو غير لهجات الحضر التي هي الاخرى غير لهجات اهل المدر . والفرق في هذا المجال بين اللغة العربية ومختلف لهجاتها المحلية ( اي العامية ) هو غير الذي نشاهده بالنسبة الى اللغات الاخرى ، وذلك ان اللهجة المحلية العربية مهما خالطتها الاصوات الاجنبية ( مثل الاصوات البربرية في بلاد المغرب او التركية او الفارسية او الكردية في بلاد المشرق ) ، ومهما تسربت اليها المفردات والتراكيب الواردة من اللغات الاجنبية التي احتكت بها ، فإنها تبقى في هيكلها العام وفي قدرتها على تبليغ المعاني الاساسية وفي اغلب تراكيبها ومفرداتها وصيغها البلاغية ، قريبة جداً من الانموذج الفصيح ، بل قل ان هذا الانموذج ما فتىء يغذيها بصورة شعورية او غير شعورية لما يتخلل الحياة اليومية ولغة التعامل فيها من معانٍ اسلامية جاءت لغة القرآن والحديث والاثر المنقول تطعّمها بصورة دائمة ، حتى في الاوساط التي سادها الجهل والامية في عصور الركود . وان كانت بداية اكتساب اللغة عند الانسان تكمن في تمرّس المسامع على اصواتها ، فإن مجرّد الاستماع الى الشهادتين والآذان والقرآن في البيئة المسلمة يكفي لتعويد السامع منذ الولادة على مخارج حروف اللغة العربية ، وعلى ما تستلزمه من اشباع ومد وادغام وتفكيك وترخيم وتفخيم ، بالاضافة الى ما توحي به المفردات والتراكيب من معاني الشهادة والتوحيد والربوبية والرسالة : وهي معان كلية تتجه الى العقل والى المدارك الذهنية ، كما تستلهم الوجدان والحساسية الروحية . لذا كان تلقيها عن طريق الفصحى يكسب الصوت والعبارة والتركيب ضمن هذه اللغة ، قيمة تتخطى بها بقية اللغات الاخرى . ثم ان الاسلام لكونه لا يفصل بين امور الدنيا وامور الدين ، قد اوجد مجتمعاً جاءت فيه المفاهيم الدينية تتخلل كامل مظاهر الحياة اليومية ، فباتت لغة التخاطب اليومي على اختلاف الاقاليم مرقعة بعبارات البسملة والحمد والتسليم والدعاء والصلاة والسلام ، وغير ذلك من مظاهر السلوك اللغوي النابع من موقف كلي يكتسبه الانسان المسلم منذ نشأته الاولى ، فيضفي على كلامه اسلوباً يجعله ذا صلة وثيقة بالانموذج الفصيح ، حتى وان كان المتكلم امياً . وهذا من اجلى مظاهر عبقرية الاسلام الذي لم يجعل من اللغة العربية مجرد اداة لتبليغ قيمه ومفاهيمه ، بل جعلها كذلك قيمة اساسية من هذه القيم . اذ بها نزل الوحي على محمد (صلعم) فباتت هذه اللغة اداة وصل بين السماء والارض ، واللغة التي بها يتوجه المخلوق الى خالقه في صلاته ودعائه وابتهاله . فكل هذه العوامل تجعل اللغة العربية الفصيحة تحتل من شعور الانسان العربي[3] ومن لا شعوره كذلك مكانة لا نجدها عند بقية

---

(٣) نقول الانسان العربي ولا نقول الانسان المسلم العربي لأن البيئة العربية ، التي اشتملت على اقليات مسيحية او يهودية ، قد جاءت المفاهيم الاسلامية غالبة عليها الى حد انك عندما تمعن النظر تجد الرجل المسيحي او =

المجموعات البشرية الاخرى التي جاءت اللغة الفصيحة عندهم لا تتمتع بالمكانة التي حظيت بها اللغة العربية ، باعتبارها لغة الوحي . ثم ان لهجاتهم العامية في اغلب الاحيان قد جاءت من حيث صلتها باللغة الفصيحة على عكس ما قامت عليه صلة العربية الفصيحة باللهجات العربية العامية . فالاولى مثل ما هو قائم في فرنسا او اسبانيا او المانيا ، قد جاءت اللهجات المحلية فيها تمثل بقايا لغات قديمة منفصلة تماماً عمّا يسمونه باللغة القومية ، الا انها بدافع مقتضيات الحياة اليومية قد اضطرت الى ان تقتبس الكثير من هذه اللغة القومية(٤) ، فيحصل بذلك التحريف في هذه اللغات المحلية القديمة كي تساير اللغة القومية ، دون ان تفقد هذه اللغات مميزاتها ، وتبقى الثنائية قائمة بينها وبين اللغة القومية . وهذا ما هو حاصل لهذا العصر بالنسبة الى فرنسا مثلاً حيث تتعايش فيها لغة « الباسك » و« البروفنسال » و« البروتون » . ثم نجد الى جانب هذا صيغاً ملحونة (formes argotiques) من اللغة القومية تتعاطاها فئات معينة من الشعب ، وتعتمد فيها جملة من الاصطلاحات ومن الصيغ المختصرة للتعبير عن حاجاتها في مجال الشغل او في مجال الحياة اليومية ، الامر الذي يجعل السامع يتوهم ان هذه الانماط من الكلام لا تمت بصلة الى اللغة المشتقة منها ، فتحصل بذلك ثنائية اخرى في مجال التخاطب لا نجد لها ما يشابهها في البلاد العربية ، وذلك انك عندما ترهف السمع فيما ينطق به العربي في الريف وفي المدينة ، إن لم يكن من الاعاجم او ممن جرت السنهم على الرطانة الاعجمية ، تجده لا يحيد عن النمط الفصيح الا في الاعراب وفي بعض المصطلحات الدخيلة التي ما فتئت اللغة العربية منذ زمن بعيد ـ وخاصة بعد انتشار الاسلام واحتكاك العنصر العربي بعناصر اجنبية مختلفة ـ تستوعبها بعد تكييفها بالصورة التي تجعلها لا يتلعثم بها اللسان العربي . وما السر في ذلك إلّا لأن اللغة العربية الفصيحة قد اصبحت بعد نزول الوحي وانتشار الاسلام اداة للحفاظ على القرآن والعقيدة ، والنمط الثقافي الاول الذي يخضع له التفكير والتعبير(٥) .

## ٢ ـ لغة الام او اللغة الام؟

تثير قضية صلة العامية بالفصحى مشكلة من اهم مشاكل التربية وعلم النفس وهي قضية لغة الام ، وما تلعبه من دور خطير في نمو الطفل ذهنياً وفي تقدمه المدرسي فيما بعد . وكثيراً ما احتج دعاة العامية في البلاد العربية بهذا البون القائم بين العربية الفصيحة التي يدرب عليها الطفل منذ سنته الاولى في المدرسة ولغة الام التي يتلقاها في البيت . ثم يقارنون بين هذا الوضع ووضع الطفل الفرنسي او الانكليزي الذي يخرج من البيت الى المدرسة وقد حذق نمطاً من اللغة هو الذي يجري به التدريس . وفي هذه الموازنة عين التزييف والتضليل ، وذلك لأن جل الدراسات الاجتماعية في

---

= اليهودي كثيراً ما يتخلل كلامه عبارات قرآنية او اسلامية قد اصبحت بالمراس زاداً ثقافياً مشتركاً لا يؤثر في السلوك اللغوي فحسب ، بل وحتى في كثير من انماط السلوك الاخرى .

(٤) مثال ذلك في البلاد العربية : اللغة البربرية في المغرب الاقصى والجزائر او اللغة الكردية في لبنان وسورية والعراق او اللغة القبطية في مصر . الخ . فهي كلها لغات قديمة منفصلة عن العربية الا انها قد تأثرت بها بدافع الدين فاقتبست منها الكثير من مفرداتها وصيغها وتراكيبها .

(٥) سنحلل هذا المعنى في الجزء الثالث من هذا البحث .

البلدان المتقدمة قد اقامت الدليل على خطأ هذا الافتراض مبرزة ان مستويات العامية في المجموعة الفرنسية او البريطانية او غيرها تختلف باختلاف المستويات الاقتصادية والثقافية ، ونجاح الطفل في المدرسة يكون تبعاً لذلك . وقد اكد هذه النتيجة جملة من البحوث قامت في بداية الخمسينات في الولايات المتحدة ثم انتشرت في بقية البلدان المتقدمة ، متخذة من الفئات غير المحظوظة اقتصادياً وثقافياً مجالاً للملاحظة والتحقيق والتجريب . فكان من نتائجها ان اثبتت ان التفاوت القائم بين لغة الام ولغة التدريس يشكل حجر العثرة الاول في سبيل الطفل. ونادى اصحاب هذه البحوث لتلافي هذا النقص بسنّ طرق تربوية تعويضية تخصص لهذه الفئات من الاطفال المحرومين ، قصد تسديد ما يقاسونه من نقص وحرمان في محيطهم العائلي ، وذلك بتوفير وسائل الاحاطة الثقافية والتربوية الكفيلة بجعلهم في المستوى الذي تقتضيه المدرسة .

وقد يبدو وضع الطفل العربي في الاوساط غير المحظوظة لا يختلف عن هذا الوضع . لكن الواقع يفيد بوجود فوارق أساسية لا يمكن الاستهانة بها . ذلك مثلاً ان لغة الام العربية(٦) قد جاءت قريبة جداً من اللغة الام وهي العربية الفصيحة . اي ان الفوارق بين اللغتين لا تبلغ حد القطيعة كما هو الشأن بالنسبة الى اللهجات العامية في بقية المجموعات البشرية الاخرى . ولم تبق اللغة الام في البلاد العربية قائمة المفعول ، وثيقة الاتصال بلغة الام ، الا لأنها لغة القرآن ولأن القرآن ما زال عماد التربية وأساس الثقافة المتفشية في كل الطبقات الاجتماعية في البلاد العربية الاسلامية ، ولربما بصورة اوضح وأوكد في الطبقات الشعبية المتوسطة والفقيرة. ودون تحامل على بقية اللغات الاخرى، وكذلك دون ان نقف من اللغة العربية موقف الافراط في المدح والتغني بروائعها ( كما فعل ذلك مثلاً عباس محمود العقاد في كتابه **اللغة الشاعرة** ) فإنه يبدو جلياً لدى من حذق الى جانب العربية لغة اجنبية وتمرس على لهجاتها المحلية ، ان كلام الريف في اوروبا قلّما نجده على هذا المستوى من الاتصال بالكلام الفصيح ، ذلك الاتصال الذي نلاحظه في الارياف العربية . فبقدر ما تجد الالسن معقودة في الارياف الاوروبية بقدر ما نجدها طليقة في الارياف العربية ، وفي ذلك مظهر من مظاهر عبقرية اللغة العربية التي زادها القرآن تأكيداً ، اذ كانت وما زالت اداة مرنة للإفصاح عما يخالج نفس الانسان في كل الحالات وفي كل المواقف . فهي في آن واحد لغة المحسوسات والتجريد ولغة العقل والعاطفة ولغة الاستدلال والخيال ، تختلف لهجاتها ومستوياتها باختلاف الاقاليم والاجيال ، لكن دون ما مساس بجوهرها . وهذا عين ما انتهى اليه ابن خلدون في عصره ، وهو ما زال قائم المفعول ، حين قال :

« وما زالت هذه البلاغة والبيان ديدن العرب ومذهبهم لهذا العهد ، ولا تلتفتن في ذلك الى حرفية النحاة اهل صناعة الاعراب القاصرة مداركهم عن التحقيق ، حيث يزعمون ان البلاغة لهذا العهد ذهبت ، وان اللسان العربي

---

(٦) يجب استثناء الامهات غير العربيات او العربيات اللواتي اخرجهن الاستعمار الثقافي من جلودهن فبتن غريبات عن قومهن ، لا في الكلام فحسب ، بل وكذلك في التفكير والمشاعر وفي كل مظاهر السلوك ، وذلك عين الاغتراب . ولسنا نقصد بهذه الملاحظة تبرير ساحة الكثير من الآباء الذين ينعمون بما ادى بهم اليه الاصطدام الثقافي *(l'acculturation)* من تزييف الشخصية وتبديل اللسان . وذلك هو عين الاستلاب .

فسد ، اعتباراً بما وقع اواخر الكلم من فساد الاعراب الذي يتدارسون قوانينه ، وهي مقالة دسّها التشيع في طباعهم ، والقاها القصور في افئدتهم ، والا فنحن نجد اليوم الكثير من الفاظ العرب لم تزل في موضوعاتها الاولى ، والتعبير عن المقاصد والتعاون فيه بتفاوت الابانة موجود في كلامهم لهذا العهد ، واساليب اللسان وفنونه من النظم والنثر موجودة في مخاطباتهم ، وفهم الخطيب المصقع في محافلهم ومجامعهم ، والشاعر المغلق على اساليب لغتهم ، والذوق الصحيح والطبع السليم شاهدان بذلك . ولم يفقد من احوال اللسان المدوّن الا حركات الاعراب في اواخر الكلم فقط الذي لزم في لسان مضر طريقة واحدة ومهيعاً معروفاً وهو الاعراب ، وهو بعض من احكام اللسان . وانما وقعت العناية بلسان مضر لما فسد بمخالطتهم الاعاجم حين استولوا على ممالك العراق والشام ومصر والمغرب ، وصارت ملكته على غير الصورة التي كانت اولاً فانقلب لغة اخرى »(٧) .

لكن هذا القول ان كان يصح في شأن البدو وبعض العرب المقيمين في العواصم العتيقة التي استقرت فيها سنن الثقافة العربية ، وكانت في شبه مأمن من الغزو الثقافي واللغوي الذي تعرضت له الامة العربية ، فإنه لا يصح في اهل الامصار الذين اختلطوا بالاعاجم ففسدت ملكة اللغة عندهم الى حد انها اصبحت ابعد ما تكون ، حسب رأي ابن خلدون ، عن المثال المضري . يقول العلامة ابن خلدون في هذا الشأن :

« اعلم ان عرف التخاطب في الامصار وبين الحضر ليس بلغة مضر القديمة ولا بلغة اهل الجيل ، بل هي لغة اخرى قائمة بنفسها بعيدة عن لغة مضر وعن لغة هذا الجيل العربي الذي لعهدنا ، وهي عن لغة مضر ابعد . فأما أنها لغة قائمة بنفسها فهو ظاهر ، يشهد له ما فيها من التغاير الذي يعد عند صناعة اهل النحو لحناً ، وهي مع ذلك تختلف باختلاف الامصار في اصطلاحاتهم ، فلغة اهل المشرق مباينة بعض الشيء للغة اهل المغرب ، وكذا اهل الاندلس معهما ، وكل منهم متوصل بلغته الى تأدية مقصودة والابانة عما في نفسه . وهذا معنى اللسان واللغة .

وفقدان الاعراب ليس بضائر لهم كما قلناه في لغة العرب لهذا العهد ، واما انها ابعد عن اللسان الاول من لغة هذا الجيل فلأن البعد عن اللسان انما هو بمخالطة العجمة ، فمن خالط العجم اكثر كانت لغته عن ذلك اللسان الاصلي ابعد ، لأن الملكة انما تحصل بالتعليم كما قلناه . وهذه ملكة ممتزجة من الملكة الاولى التي كانت للعرب ومن الملكة الثانية التي للعجم ، فعلى مقدار ما يسمعونه من العجمة ويربون عليه يبعدون عن الملكة الاولى . واعتبر ذلك في امصار افريقية والمغرب والاندلس والمشرق ، اما افريقية والمغرب فخالطت العرب فيها البرابرة من العجم بوفور عمرانها بهم ، ولم يكد يخلو عنهم مصر ولا جيل فغلبت العجمة فيها على اللسان العربي الذي كان لهم ، وصارت لغة اخرى ممتزجة . والعجمة فيها اغلب لما ذكرناه ، فهي عن اللسان الاول ابعد وكذا المشرق لما غلب العرب على امه من فارس والترك فخالطوهم ، وتداولت بينهم لغاتهم في الاكرة والفلاحين والسبي الذين اتخذوهم خولا ودايات واظئارا ومراضع ، ففسدت لغتهم بفساد الملكة حتى انقلبت لغة اخرى ، وكذا اهل الاندلس مع عجم الجلالقة والافرنجة وصار اهل الامصار كلهم من هذه الاقاليم اهل لغة اخرى مخصوصة بهم تخالف لغة مضر ويخالف ايضاً بعضها بعضاً كما نذكره ، وكأنها لغة اخرى لاستحكام ملكتها في اجيالهم ، والله يخلق ما يشاء ويقدر »(٨) .

---

(٧) ابن خلدون ، المقدمة ، ص١٠٤٣ ـ ١٠٤٤ .
(٨) المصدر نفسه ، ص ١٠٤٧ ـ ١٠٤٨ .

ولربما ازداد هذا الوضع تعكراً بعدما حصل من احتكاك بين اللغة العربية واللغات الاجنبية نتيجة الاستعمار المباشر الذي عرفته جلّ الشعوب العربية في القرن الاخير والى نهاية منتصف هذا القرن ، فنشأ الى جانب هذه الثنائية القائمة بين العامية والفصحى ازدواجية لغوية وثقافية كادت تقضي في بعض الاحيان على الكيان العربي برمته . وقد اوجدت هذه الازدواجية وضعاً خطيراً جداً يهدد كيان العربية ( لغة وثقافة ) وذلك بالخصوص في الطبقات العليا من المجتمع العربي[٩] . لكن هذه الطبقات العليا لا تمثل الا اقلية في البلاد العربية . واما سواد الشعب فهو ما زال في لغته العادية التي نسميها العامية متشبثاً عن شعور او عن غير شعور ، بالنمط المثالي[١٠] الجاسم في اللغة الفصيحة ، اي لغة القرآن ولغة المفاهيم الدينية والحضارية التي على اساسها قامت الهوية العربية .

ولربما كان التشبث بهذه الهوية والحرص على دعم الذات في هذه الفترة الرهيبة من حياة الامة العربية مما يزيد في جاذبية هذا النمط المثالي ، فيجعل الافراد والشعوب تستجيب اكثر فأكثر الى هذا النوع من « اللاشعور الثقافي الجماعي »[١١] الذي يمثل في نظرنا السبب الاصلي الذي جعل اللغة العربية والحضارة العربية والشخصية العربية لا تذوب تحت تأثير الركود والتقهقر اللذين انتابا الامة العربية ردحاً من الزمن مثلما اندثرت اللغة اللاتينية مثلاً وغيرها من اللغات القديمة الاخرى - وفي هذا اس من الاسس النفسية للغة العربية .

## ثانياً : الاسس النفسية لتعلم الفصحى

### ١ - نظرية بياجيه

لقد كثرت البحوث حول الاسس النفسية لاكتساب اللغة عند الطفل ، وجاءت بحوث ج . بياجيه من اهمها واكثرها اشتهاراً في الاوساط العلمية . الا ان هذه البحوث قد دارت كلها في اوساط اوروبية او امريكية راقية وكثيراً ما نرى الباحث يلجأ الى اجراء تجاربه وتدقيق ملاحظاته على ابنائه انفسهم[١٢] . وبدون ان نحاول التعرض بالتحليل للمراحل التي ضبطها بياجيه لارتقاء اللغة عند الطفل ، فإنا نريد ان نقف عند وظيفة اعتمدها هذا العالم وجعل منها الشرط الاول لبزوغ اللغة عند الطفل والمحور الذي تدور حوله كل اطوار هذه اللغة . وهذه الوظيفة هي التي اسماها « بالوظيفة الرمزية » (la fonction symbolique) وجعل منها مصدر اللغة عند الطفل وأساس المعرفة عند الانسان . الا ان المتأمل في سلوك الطفل وفي كيفية تطور اللغة عنده لا يلبث

---

(٩) سنعود الى هذه الظاهرة في الجزء الرابع من هذا البحث .

(١٠) سنوضح هذه العبارة فيما بعد .

(١١) انظر : Chadly Fitouri, *Biculturalisme, bilinguisme et éducation* (Neuchâtel; Paris: Delachaux et Niestlé, 1983), p. 82.

(١٢) هذا ما فعله بياجيه نفسه ، انظر :
Jean Piaget. *Six études de psychologie*, Bibliothèque médiations, 27 (Paris; Genève: Gontheir, 1964).

ان يطرح هذا السؤال : ان كانت هذه الوظيفة الرمزية وظيفة مستقلة بذاتها كامنة في الانسان ، لا تلبث ان تبرز عندما يبلغ هذا الانسان مقداراً من النضج ، فتبرز معها وظيفة الكلام ، فلماذا نجد هذا التفاوت بين الاطفال في نموهم اللغوي عندما ننتقل من بيئة الى اخرى او عندما تتغير الظروف في البيئة الواحدة من طفل الى آخر ؟

لقد تعرضت نظرية بياجيه هذه الى كثير من النقد(١٣) ، وعيب عليه انه بحث مشكلة اللغة عند الطفل كما بحث بقية مظاهر النمو الذهني عنده؟ بصرف النظر عن محيطه الاجتماعي وعن العوامل الاجتماعية التي قد تغيّر مجرى الاحداث بصورة جذرية . وتأتي في مقدمة هذه العوامل الاجتماعية ، العوامل الثقافية التي تعتبر اللغة اداة تبليغها وهي في آن واحد عنصر اساسي من عناصرها . فالعلاقة الجدلية القائمة بين اللغة والثقافة تجعل الطفل عند بداية تمرنه على اكتساب عناصر اللغة ( من اصوات ومفردات وصيغ وتراكيب اولية ) ينـدرج في ثقافـة قومـه ويتشرّب مفاهيمها وقيمها ، فتتفتح بذلك مداركه الذهنية وتنمو فيزداد تلهفاً للغة ويرتفع من طور الى آخر ومن مرحلة الى مرحلة بسرعة تختلف باختلاف ما هو متوفر في محيطه من « مغريات ثقافية »(١٤) . فإن كانت هذه المغريات كثيرة وراقية كان نموه الذهني وما يتبعه من نمو لغوي ، نمواً سريعاً . وإن كانت قليلة وساذجـة كان نمـوه بطيئـاً(١٥) . وقد دلّت الـدراسات التي قـام بها المـركز الـدولي للطفولة(١٦) على قيمة هذه العوامل الثقافية في نمو الطفل ذهنياً ولغوياً وبيّنت من خلال المقارنة بين مجموعتين من الاطفال ( في سنّ واحدة ) احداهما افريقية والثانية اوروبيـة انه بقـدر ما تتفـوق المجموعة الافريقية على المجموعة الاوروبية من الولادة الى السنة الثانية من العمر من حيث النمو الانفعالي والذهني معاً ، نراها تتقهقر عن المجموعة الاوروبية ابتداء من السنة الثانية ، اي من الفترة التي تبزغ فيها اللغة عند الطفل . وعلّلوا ذلك بأن الطفل الافريقي في بداية العمر نجده ملازماً لأمه تحمله على ظهرها طيلة اليوم وتقدم له الثدي عند كل طلب فيكـون بذلـك مشبعاً لحاجاته الانفعالية ويقوم هذا الاشباع مقام المنشط لنموه الانفعالي الذي يقوم هو الآخر مقام الحافز للنمو الذهني في هذه المرحلة من العمر . فيكون في المرحلة التي يسميها بياجيه بمرحلة الـذكاء الحسي ـ الحركي (L'intelligence sensori-motrice) متقدماً على الطفل الاوروبي الذي لم ينعم بمثل هذه الصلة العضوية بأمّه . ثم عندما يأتي طور التمرّس على اللغة وبزوغ الذكاء الرمزي لا يجد الطفل الافريقي في محيطه الا لغة بدائية ساذجة لا تتجاوز حدود التعبير عن حاجات الانسان الاولى ، في حين يجد الطفل الاوروبي لغة ثقافة كما يجد محيطاً مفعماً بهذه المغريات الثقافية ، فيكون

---

(١٣) انظر في هذا الصدد : Marc Richelle, *L'Aquisition du langage* (Bruxelles: Dessart,1971), p. 157.

(١٤) نستخدم كلمة « مغريات » عوضاً عن منبهات او منشطات ، ونعني بها ما تفيد به الكلمة الفرنسيـة « Sollicitations» ، حتى نبين ان الاهم من العوامل الثقافية المتوفرة في المحيط هي تلك التي تثير الانتباه والاهتمام . لذا وجب ان تكون من العوامل التي تجلب الطفل اليها وتولد فيه الولوع بها ( مثل اللعب عـلى اختلاف انـواعها والموسيقى والصور وكذلك نوعية العلاقات التي تربطه بافراد الاسرة . . الخ ) .

(١٥) انظر في هذا الصدد : Fitouri, *Biculturalisme, bilinguisme et éducation*, p. 280.

(١٦) *Courrier du Centre International de l'Enfance* (Paris), vol. 16, no. 1(Janvier- Février, 1960).

نمّوه الذهني اسرع من نمو الطفل الافريقي واعمق . وقد اقاموا الدليل التجريبي على هذا باستخدام جملة من الروائز اعدتها لهذه الغاية مجموعة دولية من كبار الاخصائيين .

لقد اوردنا هذه المعطيات للدلالة على ما للعوامل الثقافية من اهمية في مجال اكتساب اللغة ومجال النمو الذهني التابع لهذا الاكتساب . لكنه من المؤسف ألا نجد من البحوث في البلاد العربية الاّ القليل النادر مما يمكن ان نستخلص منه مميزات البيئة العربية في هذا المجال. لأنه إن كانت العوامل الاجتماعية وفي مقدمتها العوامل الثقافية، عنصراً اساسياً من عناصر ارتقاء اللغة عند الطفل اتضح لدينا انه باختلاف هذه العوامل تختلف الاحداث والمعطيات ، فلا غرو اذاً ، ان تكون البيئة العربية لها خصائصها المميزة لها وان يكون الطفل العربي في اكتسابه اولاً **لغة الام** ، ثم في تدرجه الى اكتساب **اللغة الام** ، عندما يدخل المدرسة ، يختلف من حيث نموه عن الطفل الاوروبي من جهة ، وكذلك عن الطفل الافريقي من جهة ثانية ، لوجود هذه العلاقة المتينة بين اللغتين ولقيامها بالخصوص على هذه الثقافة المتفشية في المجتمع التي ستعمل المدرسة على توضيحها وتركيزها ، كما ستعمل على الارتفاع بالنمط الواقعي للغة الطفل ( وهي اللغة العامية ) الى النمط المثالي ( وهي لغة القرآن)[١٧] .

## ٢ ـ نظرية « ج . تانر »

لكن هذه الاسس النفسية لاكتساب اللغة ليست هي الوحيدة المؤثرة في هذه الظاهرة، بل اضاف اليها علم الحياة في هذه السنوات الاخيرة جملة من الاكتشافات المهمة التي جاءت تلقي انواراً جديدة على مشكلة النمو عند الطفل بصورة عامة ، وصلة النمو العضوي بالنمو الذهني وبالتعلم بصورة خاصة . واهم ما يذكر في هذا الباب دراسات « ج . م . تانر »[١٨] ، وبالخصوص منها دراسة بعنوان « التربية والنمو الجسدي » اوضح فيها صلة النمو الجسدي بالنمو النفسي ، كما بين فيها ان النمو الجسدي يختلف باختلاف الانسجة ، او ان لكل من هذه الانسجة سنّاً يمكن ان تقدر لا بالرجوع الى تاريخ ولادة الطفل ، بل باعتبار ما بلغته انسجته من نضج . وان مقدار النضج هذا يقاس بمقاييس موضوعية دقيقة . وبهذه الطريقة استطاع « تانر » ان يضبط سناً لكل نوع من انواع الانسجة التي يشتمل عليها الجسد : فتحدث عن سن عضلية واخرى عصبية واخرى غددية . . الخ . وبيّن ان كل الانسجة بما في ذلك المخ تخضع في نضجها لسن واحدة هي السن العظمية ، واقام الدليل على وجود ترابط وثيق بين هذه السن وبين بقية مستويات النضج الاخرى ، بما في ذلك نضج الجهاز العصبي المركزي وما يترتب عليه من نضج الوظائف الذهنية

---

(١٧) سنوضح ماذا نعني بالنمط المثالي والنمط الواقعي عند التعرض للعناصر الانثروبولوجية لتعلم الفصحى .

(١٨) James Mourilyan Tanner: *Education and Physical Growth: Implications of the Study of Children's Growth for Educational Theory and Practice* (London: University of London Press, 1961), and *Foetus into Men: Physical Growth from Conception to Maturity* (London: Open Books Pub!:sing, 1978).

المختلفة . كذلك ، اوضح « تآنر » ان سنّ النضج العظمي هذه لا تتقيد بعمر الانسان بل بسرعة النمو عنده . ويأتي هذا النمو على ثلاثة انواع : نمو سريع ونمو عادي ونمو بطيء . من ذلك ، ان الطفل الذي يكون في السادسة من عمره ( وهي السنة التي يدخل فيها الاطفال عادة المدرسة الابتدائية ، قد نجده من حيث سنّه العظمية في الرابعة او الثامنة ، مثلاً ، ان كان نموه بطيئاً او سريعاً . وتقدر السن العظمية بمجرد التقاط صورة اشعاعية من المعصم حيث تكثر العظام ، وتكثر بالخصوص نقاط التحجّر فيها .

فحسب هذه المعطيات ، يمكننا ان نفهم انه ان كان الطفل من حيث سنه العظمية قد بلغ السنة السادسة في حين انه من حيث عمره الحقيقي لم يتجاوز الرابعة ، جاز له ان ينخرط في السنة الاولى من التعليم الابتدائي ، في حين اننا نجد الطفل الذي جاء نموه بطيئاً لا يستطيع مواصلة التعلم فيها وهو في سنته السابعة او حتى الثامنة من العمر ، لأن سنّه العظمية لم تتجاوز الرابعة او الخامسة . وبالفعل ، لقد وقع اعتبار هذه المعطيات في المجال التربوي واعتمدت بعض البلدان لتسجيل الاطفال في السنة الاولى من التعليم الابتدائي ، بدلاً من تاريخ الولادة ، صورة معصم الطفل وما تفيد به عن تقدير سنّه العظمية . ثم ان « ج . تانر » لم يقف عند هذا الحد ، بل اقام الدليل التجريبي على ان من كان نموّه سريعاً كان كذلك سريع التعلم ومن كان نموه بطيئاً كان بطيء التعلّم . وهذا ما يرجعنا الى الطفل العربي وخصائص النمو في البيئة العربية .

من المعلوم ان دراسات « تانر » ، انما اجريت على اطفال في اوروبا ، وبصورة ادق في انكلترا . ومن المعلوم ايضاً ، ان الجنس الانكليزي ليس اسرع الاجناس الاوروبية نمواً ، خاصة اذا قارناه بشعوب جنوب اوروبا . ومن المعلوم كذلك ، ان شعوب الضفة الجنوبية من البحر الابيض المتوسط اسرع نمواً من شعوب الضفة الشمالية ، وان الفارق مثلاً في سن البلوغ بين هذه الشعوب قد يبلغ احياناً اربع او خمس سنوات . فإذا قدرنا هذه المعطيات بالرجوع الى نظرية « تانر » وجب ان نستخلص في المجال التربوي ، انه يجوز للطفل العربي ان يكون مبكراً في تعلّمه بالنسبة الى الطفل الاوروبي ما دام نضجه اسرع . ويصبح تقدير سن الانخراط في السنة الاولى من التعليم الابتدائي بست سنوات ( وهي عادة موروثة عن النظم الاستعمارية ) تقديراً منافياً لمعطيات العلم الحديث .

ومما يبرر هذا الاستنتاج ، اننا استطعنا في دراستين[١٩] مختلفتين ان نقيم الدليل على ان الطفل العربي عندما تتوفر له الظروف الضرورية الملائمة في البيت وفي المدرسة ، فإنه يستطيع ان يتجاوز مستوى الطفل الاوروبي ، ومن بعيد ، وذلك بصرف النظر عن مستواه الاقتصادي .

---

(١٩) الشاذلي الفيتوري ، « اختلاف المستوى الذهني من الفتيات الى الفتيان ، » حوليات الجامعة التونسية ، العدد ١ (١٩٦٤ ) ، ص ٧٩ - ١١١ ، و

Chadly Fitouri, «Biculturalisme, bilinguisme et éducation: Analyse du cas tunisien,» (Thèse de Doctorat d'Etat, Université René Descartes, Paris, 1980), p. 484, ft. 1 (dactylographiées).

لقد كانت الدراسة الاولى ترمي الى ابراز ما يوجد من فرق في سرعة النمو الذهني بين الفتيات والفتيان ضمن مجموعة استوعبت اكثر من ثمانية آلاف تلميذة وتلميذ من التعليم الابتدائي في تونس ، تراوحت اعمارهم بين السادسة والرابعة عشرة من العمر . واستخدمت لهذه الغاية جملة من الروائز الذهنية والمدرسية . وكنا ننتظر من وراء هذه الدراسة ان نثبت ، بشأن الطفل العربي ، ما اثبتته الدراسات المماثلة التي اجريت في اوروبا وفي الولايات المتحدة ، من ان الفتاة تفوق الفتى بسنتين في هذه الفترة من العمر التي تتراوح من الولادة الى سن البلوغ . لكننا فوجئنا بنتيجة اخرى وهي ان الفتاة التونسية ، في هذه المرحلة بالذات ، تتفوق على الفتى بأكثر من اربع سنوات في بعض الاحيان ، فكنا في تعليلنا لهذه الظاهرة مضطرين الى ان نستنجد بالتحليل النفسي على طريقة يونغ yung وان نفسّر هذا التفوق غير المنتظر بهذا اللون من « اللاشعور الجماعي»- l'in) conscient collectif) الذي يجعل الفتاة التونسية بعدما توفرت لها فرصة التعلم ، كأنها لا تريد ان تثأر لنفسها فحسب ، بل كذلك لاجيال من اخواتها اللائي حرمن من حظهن في التعلم طيلة عهود التقهقر والركود . فجاء تفوقها على الفتى لا يشبه تفوق الفتاة الاوروبية في نفس هذه المرحلة من العمر .

اما التجربة الثانية فقد اجريناها على مجموعة من التلاميذ ( فتيات وفتيان ) تجاوزت الخمسمائة ، تتبعنا نموهم الذهني من السنة الاولى الى السنة الخامسة من المرحلة الابتدائية، وكنا ننوي مواصلة هذا التتبع الى السنة السادسة حيث يبلغ التلميذ الثانية عشرة من العمر . لكننا اضطررنا الى ان نوقف هذه العملية في حدود السنة الخامسة الابتدائية لأن الرائز الذي اعتمدناه ، وهو رائز « جيل » (Le test mosaïque de Gille) قد اصبح غير صالح لمتابعة التجربة ، اذ استطاع كثير من التلاميذ في هذه المرحلة ، وهم لم يتجاوزوا الحادية عشرة من العمر ان يحرزوا على ٢٠٠ نقطة في حين ان اقصى ما ينتهي اليه سلّم الترقيم في هذا الرائز هو ٢٠٤ نقطة .

نستخلص مما تقدم ، ان كل ما يمكن ان نستفيده من نتائج البحوث والنظريات والتجارب ، سواء أكان ذلك في مجال علم النفس ام علم الحياة ام علم الاجتماع ام غير ذلك من العلوم ، لا سبيل الى النظر اليه عند الانتقال به من البيئة الغربية الى البيئة العربية ، الا على اساس النسبية ، وذلك لأن البيئة العربية لها من الخصائص المميزة ما يجعل العوامل المؤثرة في نمو الانسان جسدياً وذهنياً واجتماعياً ، تشتبك وتتفاعل مع بعضها البعض عند التأثير في هذا النمو ، بصورة قد لا نجد لها مثيلاً في بقية البيئات الاخرى . نقول هذا لا لتمييز البيئة العربية عن بقية البيئات الاخرى في موقف استعلاء وتكبّر - لأن مثل هذا القول يحق في اية بيئة اخرى - ولكن للفت النظر الى اننا ما زلنا في حاجة اكيدة الى التعرف على انفسنا والى سبر اعماق مجتمعنا وتحليل مقومات ذاتيتنا كي نستطيع ان نشق طريقنا في مجال التربية والتعليم ، او في مجال الاقتصاد او في مجال الفن او في اي مجال آخر ، عن وعي وبيّنة من واقعنا الآن ومما نحن عليه مقدمون . كذلك نقول هذا لا لانكار قيمة علم الحياة او علم النفس او علم الاجتماع ولكن لننبه الى ان ما هو جوهري في هذه العلوم التي تسعى الى استكناه اسرار حياة البشر - وبالخصوص منها ما سمّي بالعلوم الانسانية - انما هي منهجيتها لا نتائجها . وهذا ما حاولنا ابرازه من خلال تعرضنا لبحوث « بياجيه» و«تانر».

## ٣ ـ الخصائص النفسية المتولدة عن صلة الفصحى بالعامية وما يترتب عنها في مجال اكتساب اللغة

نستفيد مما تقدم ان مشكلة نمو اللغة عند الطفل العربي تخضع لجملة من العوامل لا بدّ من ابرازها وتعقبها بالبحث والتحليل ، حتى نكون على بيّنة من طبيعة هذا النمو ومن عناصره الاساسية التي قد لا ندركها عن طريق الملاحظة البسيطة . ونخص من هذه العناصر ما يوجد من علاقة بين العامية والفصحى ، هذه العلاقة التي قد تجعل الطفل العربي من حيث نموّه الانفعالي والذهني ينفرد عن الطفل الاوروبي ، كما تجعله كذلك بطيء النمو او سريعه على اختلاف المستوى الثقافي للاسرة التي ينشأ فيها ، اي على اختلاف مدى تأثير الفصحى في العامية ، في البيئة الاولى .
لقد استطعنا في دراستنا حول ازدواجية الثقافة وازدواجية اللغة ان نبينّ ان التلميذ التونسي لا يتسنى له النجاح في المدرسة منذ بداية الدراسة الابتدائية ( حيث لا يجري التعليم الا باللغة العربية الفصيحة ) ولا يستطيع ، فيما بعد ، ان يتغلب على الصعوبات الناتجة عن تعلم اللغة الفرنسية ، الا اذا كان متأصلاً في الثقافة القومية . وقد استطعنا عن طريق تحقيق شاسع شمل المستويات الاجتماعية والاقتصادية والمستويات الثقافية ان نبينّ ان العامل الاول المؤثر في تقدم الطفل مدرسياً وفي نموّه الذهني ، انما هو العامل الثقافي ، وذلك على شرط ان يكون مستوى الاسرة من الوجهة الاقتصادية قد تجاوز عتبة البؤس . وهذه نتيجة تأتي مغايرة لكل ما اقرته مثل هذه البحوث في البلاد المتقدمة ( اوروبا والولايات المتحدة ) ، اذ حصل شيء من الاجماع بين كل البحّاثين على القول بأن المستوى الثقافي للاسرة يتبع بصورة حتمية مستواها الاقتصادي ، وانه يكفي ان يضبط هذا الاخير حتى يعتمد عاملاً اوحد مؤثراً في نموّ الطفل ذهنياً وفي تقدمه المدرسي . لكن هذا الاعتبار ان صح في شأن المجتمعات الغربية ، فهو لا يصح مائة بالمائة في شأن المجتمع العربي .
وذلك لأن المجتمع الغربي قد جاء مجزأ الى طبقات متباينة يفرضها نظام اقتصادي معينّ هو هذا الذي قام في اوروبا منذ بداية حركة التصنيع ، في حين ان البلاد العربية التي ما زالت في جلّها بلاداً فلاحية ـ تجارية اكثر منها صناعية ( حتى وإن دبّت فيها حركة تصنيع متواضعة ) فإننالا نجد فيها طبقات اجتماعية بالمعنى الماركسي بل فئات اجتماعية واصنافاً اجتماعية ـ ثقافية ، هي التي ما زالت تكسب المجتمع العربي ملامحه المميزة له . فالفئات الاجتماعية العربية يمكن تصنيفها الى فئات غنية واخرى متوسطة وثالثة فقيرة . لكن هذا التصنيف لا يعني ان هذه الفئات قارة متحجرة . بل كثيراً ما تنقلب الفئة منها من حال الى حال بتغير الاوضاع السياسية ، او عندما تسوء حال المجموعات او الافراد لاسباب اقتصادية او غيرها : فيكون الانتقال من فئة الى اخرى نزولاً او صعوداً ، عرضاً من اعراض المجتمع . لكن الاصناف الاجتماعية ـ الثقافية قلّما نجدها متقلبة .
وذلك لأن السنن الثقافية التي لا تستقر في صنف من اصناف البشر الا بعد ممارسة طويلة وتعهد مستمر ، فهي لا تتلاشى كذلك بين عشية وضحاها لمجرد تغير عيش الناس. بل نجدها تصمد امام الاحداث وتتمكن من اجيال البشر عبر العصور . ويكفي ان ندقق الملاحظة حتى نجد هذه الظاهرة من اخص ظواهر المجتمع العربي الاسلامي . فالسنن الثقافية التي استقرت فيه منذ عهود بعيدة فجعلت علماء الاسلام منذ القدم يحرصون على تدوين كتب الطبقات ويتتبعون توارث سنن

الحديث والفقه والقضاء والعلم والادب في فئات بل حتى في اسر معينة ، قد دلت على ان الثقافة الاسلامية العربية ان هي استحكمت في قوم واستقرت في اعراقهم قد تصبح طبعاً فيهم لا تغيّره عوارض الدهر ولا تؤثر فيه تقلبات الاحوال المادية . لذلك تجد المجتمع العربي اليوم بعد ما انتابه من قرون الركود وما تبعها من نكبات استعمارية وانتفاضات سياسية وعسكرية ما زالت تعصف بسلّم الاجتماع في غير ما اتجاه ولا هدف واضح ، تجد هذا المجتمع يتمتع بشيء من الاستقرار في اصنافه الثقافية بشكل لا مثيل له في المجتمعات الاخرى . اي انك تجد بعد تغير طارىء على السلّم الاجتماعي كثيراً من الناس قد تغيرت احوالهم المادية او السياسية تغيراً جذرياً الا ان وضعهم الثقافي لم يتبع هذا التغيّر .

قد يثير هذا الكلام كثيراً من التساؤلات ، اذ يبدو من البدهي ان تكون الفئة الحاكمة في مجتمع ما واثقة من السلطات الثلاث : السلطة السياسية والسلطة الاقتصادية والسلطة الثقافية . لكن الواقع جاء مغايراً لهذا . فالفئة الحاكمة ان كانت قبل انتصابها على الحكم فئة جاهلة او من صنف اجتماعي ـ ثقافي لم ترسخ له سنة ثقافية في الماضي ، تستطيع بحكم وضعها السياسي والاقتصادي ان تغنم من التعلّم . لكن التعلّم وحده لا يكفي لاقرار سنة ثقافية . وقد استطعنا عن طريق ما قمنا به من تحقيق في الاوساط الشعبية الفقيرة في العاصمة التونسية ، ان نقيم الدليل على ان الطفل الفقير الآتي من اسرة استقرت فيها سنة ثقافية اسلامية عريقة ولم يحرز افرادها الا على نصيب زهيد من التعلّم ضمن النظام التقليدي للتعليم ( اي نظام الكتاتيب والجامعة الزيتونية ) تجده من حيث نموّه الذهني ومن حيث تقدمه المدرسي يفوق رفاقه من الفئات المحظوظة سياسياً واقتصادياً ، الذين لم ترسخ لهم سنة ثقافية ما . وهذا يأتي خلافاً لما هو معهود في البلاد الاوروبية حيث تكون الطبقة البرجوازية الحاكمة مهيمنة على الحكم السياسي وكذلك على الاقتصاد وعلى الثقافة .

إن هذه الملامح الثقافية المميزة للمجتمع العربي تجعلنا ، عند التصدي لمشكلة تعلّم اللغة العربية الفصيحة ، لا نقيس هذه المشكلة بمثيلاتها في المجتمعات الاوروبية مثلاً ، بل نرعى هذه الخاصيّة التي اوجدها الاسلام بكونه عقيدة وثقافة في آن واحد فجعل فئات المجتمع التي توغلت فيها سنن الثقافة الاسلامية وجرت الالسن فيها على اللغة العربية وحفظ القرآن ، لا تنظر الى هذه اللغة على انها لغة العبادة فقط او لغة العلم والثقافة المقصورة على دوائر منغلقة ، بل ترى فيها نمطاً مثالياً من السلوك الكلي للانسان . لذلك كان ينظر نظرة تقدير واعجاب الى المتكلم الذي يستطيع ان يرصّع كلامه العامي بمفردات فصيحة او آيات قرآنية او احاديث نبوية او اثر من فصيح كلام العرب واشعارهم ، لأن في ذلك دلالة لا على طلاقة اللسان فحسب ، بل كذلك على سمو التفكير ورقة المشاعر وعلو الهمة وحسن الخلق : وهي كلها صفات كمالية يسعى اليها الانسان المسلم ويحث عليها المجتمع .

لقد كان المجتمع الاسلامي العربي وما زال ـ في فئاته المتوسطة والفقيرة بالخصوص ـ مولعاً بتعليم الاطفال ، القرآن في سن مبكرة . فبالاضافة الى العوامل الدينية ـ وهي اساسية ـ الدافعة

الى ذلك نجد كذلك ابتهاج الآباء عندما ينطق ابناؤ هم بالمفردات الاولى من الكلام الفصيح ، ولا نقول بالآيات الاولى من القرآن الكريم ، او يستظهرون المحفوظات الاولى من النثر والشعر . وكلما تقدم الطفل في هذا الاتجاه ازداد ابتهاج الكبار به ، وذلك لاطمئنانهم على مستقبله من حيث الدين والعقيدة ومن حيث العلم والمعرفة ، وبالطبع ، من حيث المكانة الاجتماعية المتولدة عن كل هذا . لذا كانت الدوافع التي تعلّم العربية الفصيحة والارتقاء في سلّمها الى الفصحى وولوج ابواب الايمان والمعرفة التي جاءت هذه الفصحى بمثابة المفتاح لها ، قلنا كانت هذه الدوافع من اشد الدوافع وأعمقها واكثرها توغلاً في نفوس الاطفال والكبار خاصة في الفئات الاجتماعية التي استقرت فيها سنن الثقافة الاسلامية . وفي هذا ما يجعلنا نقف عند بعض الاسس الاجتماعية لتعلّم الفصحى .

## ثالثاً : الاسس الاجتماعية لتعلم الفصحى

لقد أشرنا فيما تقدم الى ان جلّ البحوث الاجتماعية التي دارت حول قضايا اللغة والثقافة في البلاد المتقدمة ، قد انتهت الى القول بأنه يوجد ترابط وثيق بين المستوى الاقتصادي والمستوى الثقافي للافراد والمجموعات[20] ، وانه يكفي ان يضبط المستوى الاقتصادي حتى يستنتج منه المستوى الثقافي . ثم اتفقت جل هذه البحوث وخاصة منها بحوث « بازيل برنشتاين »[21] على ان لكل طبقة اجتماعية لغة خاصة بها . ثم زاد « برنشتاين » في التوضيح بأن قال ان طبقات المجتمع العليا لها لغة ثرية تخضع « لقانون مركب » (code élaboré) في حين ان الطبقات السفلى لها لغة ساذجة ذات « قانون محدد » (code restreint)[22] . ونسي او تناسى ، كبقية من سبقه في هذا المجال ، ان يذكر حال الطبقات المتوسطة . وقد استطعنا في بحوثنا حول ازدواجية الثقافة واللغة ان نبين عيوب هذه البحوث من وجهين :

١ ـ ان الاكتفاء بطرفي المجتمع مع الغاء الطبقات الوسطى لا يفيد بالتعرّف على حقيقة هذا المجتمع مهما كان .

٢ ـ ان المستوى الاقتصادي وحده لا يكفي لضبط الخصائص الاجتماعية للغة عند فئات البشر ، لأن المستوى الثقافي ( وهو العامل الوحيد المهيمن على المستوى اللغوي ) لا يتبع بصورة حتمية المستوى الاقتصادي ، وذلك بالخصوص في المجتمع العربي الذي انتشرت فيه سنن الثقافة الاسلامية بدافع الدين وبصرف النظر عن المستوى الاقتصادي ، او في المجتمعات التي يطرأ عليها تغيّر سريع في هياكلها الاساسية ، فيحدث قلب في السلم الاجتماعي من الوجهتين السياسية والاقتصادية دون ان يتبعه ، بصورة حتمية ، قلب للاوضاع الثقافية .

---

(٢٠) لقد تعرضنا لهذه البحوث بالنقد في :
Fitouri, *Biculturalisme, bilinguisme et éducation*, p. 251 +

(٢١) Basil Bernestein, *Langage et classes sociales* (Paris: Minuit, 1975).

(٢٢) المصدر نفسه ، ص ٣٥ و٧٦ ـ ٨٩ .

.ثم ان التأمل في الخصائص الثقافية للمجتمع الاسلامي منذ بدايته الى يومنا هذا ( وذلك بالرغم مما طرأ على بعض فئاته من مسخ بدافع الاغتراب الناتج عن التأثر بالثقافات الاجنبية ) يجد من خصائص هذا المجتمع ، انه لم يقرن الثقافة والمعرفة بالمال وبالجاه ، اي بعلامات التقدير الاجتماعي ، بل قرنها بالايمان والتقوى . لذا كان الارتقاء في سلم المعرفة والعلم وما يتبعه من احراز مكانة اجتماعية مرموقة قد[٢٣] تفضي الى ارتفاع مستوى الفرد من الوجهة الاقتصادية ، امراً عادياً في المجتمع الاسلامي . وان وجدت في هذا المجتمع طبقات للعلماء والفقهاء والادباء والمحدثين والاطباء وغيرهم، فإن ذلك لم يكن على اساس الطبقية الاجتماعية كما نفهمها اليوم ، بل كان على اساس ما رسخ في اجيال البشر من المدينة الواحدة او من الاسرة الواحدة او من الاقليم الواحد من تعمق في الايمان ورسوخ في العلم . ومن عجائب المجتمع الاسلامي ، كذلك، ان التوغل في العلم ، بما في ذلك علوم اللغة والبيان ، لم يكن قائماً كذلك على اساس العنصرية الاقليمية او العرقية ، اذ نجد جل علماء اللغة في المشرق والمغرب من سلالات غير عربية . وهذا كذلك معطى آخر من معطيات المجتمع العربي اليوم الذي ما زالت امواج النقاش حوله متلاطمة ، لما اقحمه الاستشراق في الاذهان من لبس في المعاني وتحريف للحقائق . من ذلك انهم ارادوا ان يقصروا العربية كلغة وثقافة على اهل شبه الجزيرة واستشهدوا بتيارات الشعوبية للتمييز والتفرقة بين العرب والمسلمين ، وحاولوا النيل من العربية ( لغة وثقافة ) بأن استشهدوا بنظرية الحتمية اللغوية .

## رابعاً : العربية والحتمية اللغوية

ان نظرية « الحتمية اللغوية » (Le déterminisme linguistique) نظرية يرجع عهدها الى الفيلسوف الالماني « ولهالم همبولدت » (Wilhelm Humboldt) (١٧٦٧ ـ ١٨٣٥ ) وقد أثارها من جديد في الولايات المتحدة ادوارد سابير (Edward Sapir) سنة ١٩٢٩ ، حيث صرّح بأن الناس انما هم تبع في تفكيرهم واحساسهم ومشاعرهم ونظرتهم الى الكون ، للعادات التي اكتسبوها من خلال ممارستهم للغة قومهم . ثم زاد بعضهم فقال ان دراسة صيغ لغة من اللغات انما هي في الحقيقة دراسة لصيغ التفكير وطرقه عند القوم الناطقين بتلك اللغة ، واستدلّوا على ذلك بفقر بعض اللغات في مجالات معينة من النشاط وثروة بعضها الآخر في مجالات اخرى . من ذلك مثلاً ثروة المعجم العربي فيما يخص اوصاف الناقة وفقره فيما يخص العلم والتقنية والفن . وصرّح الفيلسوف الالماني « ارنست كاسيرار » (Ernest Cassirer) سنة ١٩٥٣ « بأن تحليل لغة ما انما هو تعرّف مباشر على خصائص التفكير والمعرفة عند القوم الناطقين بها » . واردف « بانجمان ورف » (Benjamin Worf) ذلك

---

(٢٣) نقول « قد تفضي » للترجيح وذلك لأنه كثيراً ما نجد من كبار رجال الدين والعلم في المجتمع الاسلامي من عاش عيشاً متواضعاً يتعاطى حرفة ما للارتزاق ويكرّس حياته للبحث والتأليف وحتى القضاء دون ان يتقاضى فلساً مقابل ذلك ( مثال ذلك الامام سحنون ، صاحب المدوّنة ) .

بقوله « ان الفروق القائمة بين صيغ الكلام عند البشر ، انما تنبىء بالفروق الموجودة بينهم في كيفية ادراك الواقع وتصنيفه » .

إن نقد هذه النظرية وتوضيح ما قامت عليه من افتراضات خاطئة ووصف غير موضوعي لواقع بعض اللغات ، قد لا يتسع له مجال هذا البحث(٢٤) . ونكتفي بالاشارة الى اننا قد استطعنا ان نفنّد هذه النظرية بصورة تجريبية وان نقيم الدليل على عدم وجود هذه الحتمية اللغوية ، بل على وجود حتمية تربوية قد تفعل فعلها في تفكير التلميذ المزدوج اللسان وفي مواقفه سواء أكانت اللغة المستخدمة اللغة العربية ام اللغة الفرنسية .

ثم ان ما نعتبره يأتي في منتهى التحامل والتحيّز والعنصرية في هذه النظرية ، هو انها تميل الى المقارنات المزيفة بين اوضاع مختلفة للغات دون اعتبار فترات التاريخ التي مرت بها هذه اللغات التي ينعتونها بأنها بدائية ، مثل اللغة العربية ، ودون وقوف كذلك عند المواطن التي كان فيها لهذه اللغات قصب السبق في طور من اطوار التاريخ البشري . ثم ان الخطأ الفادح الذي وقع فيه كل انصار هذه النظرية هو انهم لم يميّزوا بين اللغة والثقافة ، فكان نصيبهم الخبط والخلط الى ان جاءت البحوث في مجال الانثروبولوجيا الثقافية تعدّل الموقف وتكشف عن زيف هذه النظرية .

## خامساً : الاسس الانثروبولوجية لتعلّم الفصحى

لقد أشرنا فيما تقدم الى بعض ما ينجم عن كون العربية لغة القرآن من خصائص نوعية لهذه اللغة تضفي على اسسها النفسية والاجتماعية لوناً خاصاً . وما دمنا قد ألمحنا الى مدى تأثر الانسان العربي في سن مبكرة بأصوات هذه اللغة ومفاهيمها لتخللها كل مجالات النشاط بصورة عفوية ، فإنه لا سبيل الى ادراك خطورة الدور الذي تضطلع به هذه اللغة في انتظام سلوك الانسان العربي واكتسابه اسلوباً معيناً ، الا بانتهاج المنهج الذي سنه علم الانثروبولوجيا الحديث، وبالخصوص هذا الفرع منه الذي يسمى بالانثروبولوجيا الثقافية . وذلك لأن البحث في اللغة من الوجهين الاجتماعي والنفسي لا يأتي بنتيجة تذكر ما لم يأخذ بعين الاعتبار العلاقة الجدلية القائمة بين اللغة والثقافة ، مع اعتبار الثقافة متقدمة على اللغة التي هي الاخرى عنصر من عناصر هذه الثقافة وأداة تبليغها في آن واحد . وقد تتجلى هذه المعاني في اقصى درجات الوضوح بالنسبة الى اللغة العربية اكثر من سواها ، اذ لم تكتسب هذه اللغة كل ابعادها الا مذ نزل بها الوحي على محمد (صلعم) ودخل الناس في دين الله افواجا . فأصبحت بعد ذلك اداة ثقافة منزّلة من السماء وعنصراً من عناصرها . وقبل التمادي في هذا التحليل لا بدّ من توضيح مفهوم الثقافة كما يرد في سياق علم الانثروبولوجيا .

---

(٢٤) لقد خصصنا لعرض هذه النظرية ونقدها وتفنيدها بصورة تجريبية باباً كاملاً في اطروحتنا، انظر:
Fitouri, «Biculturalisme, bilinguisme et éducation: Analyse du cas tunisien,» pp. 274-375.

## الثقافـــة

كثيراً ما ينتج عن استخدام هذه العبارة فوضى في التفكير وذلك لما يحدث من انزلاق في معناها عند المتكلم او عند المستمع ، لأن الاستعمال العصري قد اقحم فيها من المعاني المستوردة ما لا يتسع لها مدلولها ولا مفهومها . من ذلك مثلاً استخدام هذه العبارة كمرادفة لعبارة « ادب » او لعبارة « حضارة » . وفي هذا الاستعمال الثاني اقتباس وتقليد لما هو وارد في اللغة الفرنسية عند استعمال عبارتي culture و civilisation وهو استخدام فوضوي ناتج عن قصور في التحليل والتمييز بين حالتين وان كانتا قائمتين ضمن علاقة جدلية لا سبيل لقطعها .

ثم لما ساد الجهل سواد الامة واصبحت المعرفة امراً نادراً ، استخدمت كلمة ثقافة للاشارة الى العلم والمعرفة واصبح كل من تم له نصيب منها حتى وان كان زهيداً ، نعت بأنه مثقف . وهذا ما نجده دارجاً اليوم على الالسن والاقلام الى حد ان المعجم الوسيط يعرّف الثقافة بقولـه هي ( العلوم والمعارف والفنون التي يطلب الحذق فيها ) . وفي هذا انزلاق من المعنى الاصلي الى معنى دخيل ، اذ تفيد الحروف الاصلية للعبارة بفعل « ثقف ـ يثقف ـ ثقفاً » اي صار حاذقاً فطناً . فهو ثقف . . . وثقف العلم والصناعة : حذقها . . . وثقف الشيء : ظفر به ، وفي القرآن الكريم : ( **واقتلوهم حيث ثقفتموهم** ) . . . وثقف الرجل : صار حاذقاً فطناً . وثقّف الشيء : اقام المعوجّ منه وسوّاه . وثقّف الانسان : ادّبه وهذّبه وعلّمه[٢٥] . فما يلفت الاهتمام في هذه التعاريف هو ان الثقافة تقتضي التأديب والتهذيب والتعليم كي يصبح الانسان فطناً حاذقاً . والفطنة حالة ذهنية تعني الادراك والوعي في اقصى الدرجات وهي شرط ضروري من شروط التعلّم الذي يفضي الى الحذق اي المهارة الناتجة عن الوغول في ممارسة الشيء .

فالثقافة اذاً هي حالة اضافية مكتسبة ناتجة عن تأثير المجتمع في الانسان . فما لم يثقّف هذا الانسان فهو يعتبر معوجاً غير فطن ولا مهذب . وهذه الصفات السلبية انما هي تعرّف بالرجوع الى انماط سلوكية لا يمكن للفرد ان يحيد عنها دون ان يكون معرّضاً للنقد والتأديب . لذلك مال علم الانثروبولوجيا الحديث الى تعريف الثقافة « بأنها جملة الانماط السلوكية المشتركة بين افراد المجموعة والمتوارثة عن طريقة التعلّم »[٢٦] . وقسّم هذه الانماط الى انماط مثالية ، وهي النموذج الذي يجب ان يرعاه الانسان في سلوكه حتى ينال رضى القوم والانماط الواقعية ، وهي ما يصدر عن الافراد بالفعل من سلوك . ويقصد بالسلوك في هذا الصدد كل ما يبادر به الانسان من افعال ومواقف وآراء وافكار وعواطف ، وكل ما يقول به من قيم ومبادىء وهي كلّها نابعة من الثقافة التي درب عليها . لذلك نعتت الثقافة بأنها اسلوب في العيش ونظرة الى الحياة بمجموعة ما . فبالرغم مما يمكن ان يلاحظ من فوارق في سلوك الافراد ، فإن هذا السلوك قد يبقى في جوهره خاضعاً لجملة من العوامل المشتركة

---

(٢٥) عن المعجم الوسيط .

(٢٦) Ralph Linton, *Le Fondement culturel de la personalité*, trad. A. Lyotard (Paris: Dunod, 1965), p. 33.

هي التي تجعل منه رد الفعل العادي الذي تنتظره المجموعة من اي فرد من افرادها ، عندما يجد نفسه في وضع معين . وهذا ما يوحد بين ردود الافعال الصادرة عن مختلف افراد المجموعة الواحدة بالرغم مما يظهر في سلوكهم من فوارق جزئية تميز شخصاً عن آخر او موقفاً عن آخر عند الشخص الواحد ، لما تتغير بعض الظروف . وهذا ما يكسب حياة القوم لونها الخاص واسلوبها المميز لها . وهذا اللون وذلك الاسلوب هما ما نسميه « الثقافة » .

فالثقافة التي تعنينا اذاً هي الثقافة من حيث هي سلوك ومن حيث هي محتوى لهذا السلوك. ونعني بمحتوى السلوك ما يكسب مواقف الانسان وآراءه وعواطفه وافكاره وكل حركاته وسكناته معناها ، ويجعلها تقوم على مبدأ الوحدة والانسجام . وهذا المحتوى يختلف من مجموعة بشرية الى اخرى لاختلاف الانماط الثقافية التي تضفي طابعاً خاصاً على كامل جوانب الحياة . وهذا الطابع الخاص هو الذي يجعل الانسان في كل مظاهر سلوكه ، من جلوسه وقيامه الى لباسه وطعامه فصمته وكلامه فعبوسه وابتسامه وحتى صلاته وصيامه يتكيّف مع كامل المجموعة ، ويحذر ان يحيد عن انماطها المثلى . لكن هذا التكيف لا يعني الانسجام الآلي . بل كثيراً ما نرى من الافراد من يحيد في سلوكه عن هذه الانماط المثلى في الحدود التي يمكن ان يتحملها المجتمع . وقدرة المجتمع على تحمّل هذا النوع من الزيغ ، تزداد وتنقص باختلاف الحالات والاطوار التي يمرّ بها ذلك المجتمع : فإن كان متفتحاً كانت هذه الحدود فسيحة ، ونال الناس كثيراً من التسامح . واذا كان المجتمع منكمشاً تصلب القوم في ردع من خرج عن هذه الحدود وبات الافراد في مثل هذا المجتمع منسجمين انسجام القردة في ساحة الترويض . والحقيقة ان خرق هذه الحدود التي تفرضها الانماط المثلى انما يتجلى فيها لبعض الافراد من قدرة على الابتكار والتجديد، تلك القدرة التي تنبع من ثورتهم على الاوضاع الاجتماعية المجحفة المكبّلة القاسية . وفي هذا ترجيح لرأي « رالف لنتون » عندما يقول : « تأتي الابتكارات الاجتماعية على ايدي المتألمين من الاوضاع القائمة لا على ايدي المنتفعين بها »[٢٧] .

ان هذا الوصف للثقافة يجعلنا ندرك اكثر فأكثر لماذا صمدت اللغة العربية في وجه الاحداث منذ اكثر من اربعة عشر قرناً ، وبالرغم من الحروب السافرة التي شنت عليها . فما دامت جزءاً أساسياً من الثقافة التي اوجدها الاسلام ، فإنه لا سبيل للافراد ولا للجماعات ان يحيدوا عن نمطها المثالي ( وهي لغة القرآن ) دون ان يرجعهم المجتمع الى الجادّة .

والحياد عن النمط المثالي لا يعني المساس بجوهر اللغة بل يشمل حتى النيل من اصواتها وحروفها ومفرداتها . لذلك باءت بالفشل كل المحاولات الرامية الى تبنّي الحروف اللاتينية لكتابة العربية ، كما تصدى المجتمع بالنقد والسخرية والردع لكل من حاول النيل من عبقرية اللغة ، اما بالخلط عند التعبير بين مفرداتها والمفردات المستوردة من اللغات الاجنبية، او باقتباس صيغ وتراكيب اعجمية مع استخدام مفردات عربية ، او بتزييف اصواتها تقليداً لاصوات اللغات الاجنبية . . . الخ . وكثيراً ما نلاحظ في المدن العربية التي استقرت فيها سنن ثقافية اصيلة هذا

(٢٧) المصدر نفسه ، ص ٢٦ .

النـوع من التنافس بين فئات سكانها ، في الحرص على سلامة النطق وفصاحة اللسان وحسن البيان حتى عندما يجري الكلام باللهجة العامية ، وذلك للفرز والتمييز بين اصناف البشر وفئات المجتمع . من ذلك ايضاً تهكم اهل البادية على بعضهم البعض عندما تبدو عند المتكلم عيوب في اللهجة او قصور في التعبير . وفي كل هذا دلالة واضحة ، من جهة ، على ان المجتمع العربي ما زال حريصاً على لسانه بالرغم مما نال هذا اللسان من ذبول ناتج عن فتور الثقافة وركودها زمناً طويلاً ، واشارة ، من جهة ثانية ، الى ان الثقافة الاسلامية العربية ـ بالمفهوم الذي اوردناه ـ ما زالت من حيث انماطها المثالية قائمة المفعول رغم ما انتاب الشعوب العربية من تخلف وجهل طيلة عصور الركود . وما العربية الفصيحة الا نمط اولي من هذه الانماط . وهذا ما يجعلنا ندرك لماذا جاءت كل الجماهير العربية ، على اختلاف احوالها من حيث المناخ والثقافة واختلاف اللهجات المحلية واختلاف العوامل الثقافية الدخيلة المؤثرة فيها ، لا تجد اية صعوبة في فهم هذه اللغة الفصيحة[٢٨] التي تستخدمها الاذاعات العربية في كل مكان ، وبالخصوص لتقديم نشراتها الاخبارية او بعض برامجها الثقافية . لكن هذه الظاهرة العامة ، بالرغم مما لها من خطورة ، يجب الا تخفي علينا ظاهرة اخرى ، وهي تلك المتمثلة في اختلاف مستوى ادراك الفصحى واستخدامها ، وكذلك اختلاف مستويات العامية عند الانتقال من فئة اجتماعية الى اخرى . وذلك لأن سنن الثقافة والتعلم قد جاءت متفاوتة بين هذه الفئات . وزاد في اتساع المسافة الفاصلة بين النمط المثالي للغة ( اي الفصحى ) وانماطها الواقعية ( اي اللهجات العامية ) انتشار الامية في ربوعنا ، فجاءت مستويات الادراك والاستعمال للغة الفصيحة تبعاً لهذه المسافة . ثم ان ظروف العيش ، هي الاخرى ، واحتكاك الثقافات واللغات والتعامل اليومي بين اصناف من البشر اختلفت لغاتهم واساليب عيشهم ، قد جعل اللهجات العامية تأتي كذلك على مستويات مختلفة وتحمل في طياتها ، الى جانب الانماط الثقافية العربية الاسلامية ، انماطاً ثقافية مستوردة يفرضها ما نسميه بتيار العصر كما تروّجها وسائل الاعلام الكبرى وكذلك نظم التعليم القائمة على اساس ازدواجية اللغة وازدواجية الثقافة .

وبدون ان نغوص في هذه القضية فإننا ننبّه الى ان ازدواجية اللغة في التعليم ( وهي ظاهرة تكاد تكون مشتركة بين كل البلدان العربية حتى وإن كانت لا تشمل كل مستويات التعليم في بعض البلدان ) قد لا تكون مثار تساؤل ومصدر تحيّر ، لو لم تكن بالنسبة الى كل البلاد العربية مشفوعة بازدواجية ثقافية ونابعة عنها . وذلك ان استخدام اللغة الفرنسية في بلاد المغرب او اللغة الانكليزية في بلاد المشرق الى جانب اللغة العربية ، إنّما هو نتيجة لوضع ثقافي وسياسي موروث عن عهود الاستعمار . وبالرغم من التصريحات الرسمية ، فإن هذه الازدواجية جاءت قائمة على صراع الثقافات واللغات لا على حوارها وتلاقحها . وهذا الصراع الذي كان بالامس القريب صراعاً سافراً بين سلطة استعمارية تحاول فرض هيمنتها على الشعوب العربية بقوة السلاح ، وكذلك

(٢٨) نقول اللغة الفصيحة ولا الفصحى وذلك للدلالة على هذا النمط من الكلام الخاضع لقواعد اللغة من حيث الاعراب والتراكيب والمفردات . لكنه كلام بسيط ميسور بعيد عن التكلف والتحذلق .

بفرنجة العقول والقلوب والقضاء على ثقافتنا ولغتنا باعتبارهما الركنين الاساسيين لمقوماتنا الذاتية ، ينقلب اليوم الى صراع ابشع واشنع ، اذ جاء مقنّعاً بقناع التفتح والرقي والعصرنة وما يقوم عليه هذا التقنّع من افتراض ضمني مفاده ان اللغة العربية انما هي لغة الانكماش والتقهقر والحنين الى الماضي . والخطير في الامر اننا لا نتخيل الى اي مدى يمكن ان يذهب هذا الصراع بشبابنا من حيث نظرتهم الى ثقافتهم ولغتهم فنظرتهم الى قومهم والى انفسهم . ويمكن في هذا الباب ان نشير باختصار الى ما توصلنا اليه من خلال تحقيق اجريناه على مجموعة كبيرة من التلاميذ التونسيين بخصوص مواقفهم من اللغة الفرنسية ومن اللغة العربية(٢٩) . لقد قسّمنا هذه المجموعة الى ثلاثة مستويات اجتماعية(٣٠) : مستوى رفيع ومستوى متوسط ومستوى ضعيف . وكانت النتيجة ان وجدنا تشبث التلاميذ من المستويين الضعيف والمتوسط باللغة العربية ، لا يساويه الا شغف التلاميذ من المستوى الرفيع باللغة الفرنسية . ثم لاحظنا ان تلاميذ المستويين الرفيع والمتوسط يفضلون اللغة الفرنسية على اللغة العربية في مجالات الفعل ويتركون للعربية مجال الانفعال . كذلك تبقى اللغة الفرنسية في نظرهم لغة الذكاء والنجاعة الاجتماعية . وعند المقارنة بين مكانة كل من اللغتين في اعين هذه الاصناف من التلاميذ ، نجد تلاميذ المستوى الرفيع يرجحون الفرنسية وتلاميذ المستوى المتوسط يعادلون بين اللغتين ، وتلاميذ المستوى الضعيف يرجحون اللغة العربية . وفي كل ذلك دلالات واضحة على مدى تأثير صراع الثقافتين واللغتين في نفوس التلاميذ وما يولده عندهم من مواقف ايجابية او سلبية تقوم مقام المؤثر الاول في سير حياتهم المدرسية ، وفيما سيكون لهم من نصيب في النجاح او في الخيبة . وقد اوضحنا بصورة تجريبية ان التلاميذ الذين يقحمون في هذا النوع من التعليم المزدوج وهم يرفضون اللغة والثقافة الاجنبية ، قد يؤول بهم ذلك الى هذه الحالة النفسيةالتي نعتت « باللامعيارية » (l'anomie)، والتي تفضي بالطفل الى الركود الذهني بل الى التقهقر احياناً .

## خاتمـــة

لم يكن القصد من هذه العجالة ان نلم بكل قضايا اللغة العربية وما يواكبها من قضايا الثقافة العربية . بل كل ما اردناه ، ونرجو ان نكون قد وفقنا اليه ولو بصورة جزئية ، هو ان نثير الانتباه الى ابعاد هذه القضايا واهميتها بالنسبة الى حاضر الامة ومستقبلها . ان تعقب الاسس النفسية والاجتماعية للغة العربية يدفعنا الى المزيد من التعمق في بحث اوضاعنا الثقافية ، وما تؤدي اليه هذه الاوضاع من تكييف سلوك الافراد والجماعات بأساليب قد تتنافى واهداف الامة العربية وطموحاتها . لذا كانت خطورة هذه المشكلة تفرض علينا التفكير في تنظيم بحوث متعددة الاختصاصات حتى لا تبقى قضايا اللغة العربية مقصورة على المجامع العلمية او على حلقات الاخصائيين من علماء الالسنية . ولكن هذا لا ينفي قبل قيام هذه البحوث وقبل الحصول على نتائجها ، ان تتخذ بعض التدابير العاجلة ، نذكر منها على سبيل المثال :

(٢٩) انظر : Fitouri, *Biculturalisme, bilinguisme et éducation*, pp. 149-177.

(٣٠) وذلك بعد تحقيق تناول جوانب حياة الاسرة من الوجهة المادية وكذلك من الوجهة الثقافية .

أ ـ سن سياسة لغوية محكمة قائمة على سبر عميق للواقع العربي وتصوّر دقيق للمستقبل .

وقد تختلف هذه السياسة في صيغها وفي بعض اساليبها من بلد عربي الى آخر ، لكنها لا يمكن ان تأتي بنتيجة تذكر الا اذا كانت من حيث مدغماتها ومن حيث اهدافها البعيدة سياسة قومية بأتم معنى الكلمة . نقول هذا لا اندفاعاً وراء نزعة سياسية معينة ولا انسياقاً لتيار عاطفي ، بل اعتباراً لهذا الواقع البسيط الذي جعل من اللغة العربية الفصيحة لغة كل العرب عبر الزمان والمكان ، فأصبح من العسير بل من المستحيل على اي عربي منفرد او على اية مجموعة عربية مستقلة بذاتها ان تشرع في هذا المجال او ان تخط سياسة وتنجح في تنفيذها دون دعم قومي عربي .

والدعوة الى سياسة لغوية انجع وانفع ، لا تعني اقحام قضايا اللغة العربية في صلب تيار سياسي معين ، بل تعني اتخاذ جملة من التدابير بخصوص ما يجب ان يكون لهذه اللغة من دور تضطلع به في المؤسسات على اختلاف انواعها ( بما في ذلك المؤسسات التعليمية ) ووسائل الاعلام وفي كامل مجالات الحياة اليومية . كذلك يجب ان تقضي هذه السياسة بضبط الموقف الذي يجب ان يكون لكل المؤسسات الادارية والثقافية والتعليمية من اللغات الاجنبية التي تعلّم في المدارس والمعاهد ، او التي يضطرنا التعامل مع الخارج الى استخدامها في بعض مجالات النشاط الاجتماعي .

ب ـ ضبط فلسفة تربوية واعتماد مناهج تعليمية قائمة على اساس البحث والتجريب لتلقين العربية الفصحى ، وكذلك لتلقين اللغات الاجنبية . والقصد من هذا انما هو تجاوز الثنائية القائمة بين العامية والفصحى ، من جهة ، وتسوية صراع الثقافات المواكب لتعلم اللغات الاجنبية من جهة ثانية . وقد تختلف اساليب العمل من بلد عربي الى آخر ، لكن جوهر القضية يبقى واحداً لما يوجد من تجانس الاوضاع العربية في هذا المجال على اختلاف نظمها السياسية .

ج ـ من اهداف السياسة اللغوية وما يتولد عنها من فلسفة تربوية ومنهج تعليمي ، ان تسعى الى الخروج باللغة والثقافة العربية من طور التأزم والصراع مع بعض الثقافات الاجنبية الى طور الحوار والتلاقح . ولنا في تاريخ الثقافة العربية الاسلامية ما يجعلنا على يقين من ان النهوض بلغتنا وثقافتنا انما هو موكول الى عزيمة سياسية مركّزة على معرفة موضوعية لواقعنا وعلى تفكير علمي سليم .

د ـ من النتائج الحتمية الاولى لهذه السياسة اللغوية ، لو قامت بانتظام في مختلف البلدان العربية ، ان تقطع بالامة العربية شوطاً بعيداً نحو وحدتها القومية ونحو اعادة تأصّلها الثقافي بعد انبتاتها ، اي نحو خروجها من التخلف . ولنا في تجارب كثير من الامم الغابرة او المعاصرة ما يقيم الدليل على وجاهة هذا القول . ومنذ خمسة قرون قبل الميلاد سئل « كونفوشيوس » عما يصنع لو استنجد به قوم وقد سادتهم الفوضى ، فقال : « ابدأ بادخال شيء من النظام على لغتهم » .

# تعقيب ١

# اسلوب الكتابة والهوية الثقافية القومية

صالح أحمد العلي

## ١ ـ اللغة العربية والهوية القومية

اللغة هي ابرز ما تتميز به الامم ، وترك الامة لغتها يعني فناءها وزوالها ككيان متميز بالرغم من ان افرادها قد يبقون بأجسامهم ، فعندما نقول إن الآشوريين فنوا وزالوا من الوجود ، فإننا نقصد ان الذين كانوا يتكلمون « الآشورية » تركوا استعمالها واخذوا يستعملون لغة اخرى غير الآشورية . والواقع ان الابادة الجسدية للشعوب كانت قليلة ومحدودة في التاريخ ، اما « فناء » اللغات فلم يكن قليلاً . واللغة تشمل المفردات ونظم تصريفها ، اي القواعد التي تنظم نحوها وصرفها وما يرافق ذلك من اساليب تنظيم المفردات في الجمل ، وهي وعاء الفكر ومظهر الثقافة والوسيلة التي يتم فيها التفاهم بين الافراد ومن الطبيعي ان الاساس الذي يقوم عليه هذا التفاهم هو اتفاق المتفاهمين على معنى واحد يعرفونه للكلمة الواحدة .

واللغة العربية هي ابرز ما يتميز به العرب ، واقوى رابط يشدهم الى تاريخهم القديم ويظهر استمراريتهم وبقاءهم ويجمعهم اليوم بالرغم مما بينهم من اختلافات سياسية او اقتصادية او اجتماعية ، وهذه اللغة ترجع الى عصور موغلة في القدم تكلم بها منذ ازمنة سحيقة عدد كبير ممن افترشت مساكنهم مناطق واسعة ، ومرت بهم عبر تاريخهم المديد تطورات سياسية وحضارية واسعة ، لبعضها آثار عميقة في اكثر من جانب من حياتهم ، وكان لها تأثير كبير في تطور لغتهم وخاصة في مفرداتها وبعض اساليبها ، ولكنها مع ذلك احتفظت بخصائصها الاساسية المميزة لها من مفردات وتراكيب نحوية وصرفية ، مما مكنها من مواجهة التطورات الحضارية الواسعة واستيعاب البناء الثقافي الذي شيدته ولم تفلح في ذلك اللغات الاخرى القريبة منها كالآرامية والسريانية والعبرية التي ظل استعمالها محصوراً في مجتمعات صغيرة ، وفي ميادين محدودة ضيقة ، فضعف نموها ، واصبح المتكلمون بها منعزلين ثقافياً ولغوياً .

وتعبر اللغة العربية عما كوّنه العرب عبر تاريخهم المديد من صرح ثقافي اتسم بميزات ثابتة واستجاب لحاجاتهم الثقافية ومقوماتهم السيكولوجية فهيمن على حياتهم دون فرض قسري خارجي ، وتقبل تطورات أنمتها مرونتهم وايمانهم بالحرية التي تتيح قيام افكار وآراء واساليب تطور الصرح الثقافي وتنميه دون ان تبدل هويته المميزة وبذلك ظلت هذه اللغة بمفرداتها واساليبها معبّرة عن الصرح الثقافي العربي بآرائه وافكاره ونظمه .

ولا ريب في ان بعض اسباب بقاء اللغة العربية ونموها يرجع الى ما لهذه اللغة من خصائص تمكنها من استيعاب كثير من مظاهر الحياة وخاصة فيما يتعلق بالجوانب العاطفية والاجتماعية والفكرية التي تكون أوسع مقومات المجتمع الانساني . والواقع ان المقتبسات الاجنبية التي اضيفت لها كانت أغلبها في الاشياء المادية من اثاث ونباتات واحجار ، وكلها محدودة في عددها ، فرعية في مكانتها ، وضعت ضمن التراكيب العامة للغة فزادت من مفرداتها دون ان تبدِّل طابعها العام ، والواقع ان السمات المشتركة الواسعة والعامة في اللغة تمكنها من اداء دورها كرابط قومي لا يعطله ظهور بعض الخصائص الفرعية الضيقة كالعامية مثلاً إلا اذا تفاعلت هذه الخصائص الفرعية مع عوامل اخرى .

غير ان العامل الاكبر في بقاء اللغة العربية هو إحساس اهلها شعورياً أو لا شعورياً بخصائصها وميزاتها ، وتمسكهم بها مع استعداد للانفتاح والاقتباس اللذين يساعدان على النمو والاقتباس . وقد احتفظت بوجودها حتى في الازمنة التي هيمنت فيه سلطات اجنبية لها لغات وثقافات غريبة على المقدرات السياسية والادارية للأمة العربية .

إن اللغة باعتبارها المظهر المعبر عن الكيان الثقافي للعرب تكون جزءاً أساسياً من هذا الكيان سواء في صرفها او قواعد دلالات الفاظها ورموزها وكل مناقضة لها تكون طعناً في التحام الكيان وتماسكه ، ولا تقتصر اهمية اللغة على دورها في الحياة الحاضرة وانما تمتد الى دراسة ماضي الامة الذي يقدم مادة غنية عن قدمها وعمق جذورها .

## ٢ ـ اهمية الكتابة والتدوين

يتخذ التعبير عن اللغة مظهرين هما : الكلام الشفهي ، والكلام المكتوب . فأما الكلام الشفهي فهو اعم واكثر شيوعاً ، لأنه يمتد الى المخاطبات بين الناطقين باللغة كافة بمختلف مشاربهم ومستوياتهم وثقافاتهم وهو يُستعمل للتعبير عن مختلف نشاطاتهم وافكارهم . فهو مباشر ولا يتطلب وسيطاً وكلفة مادية ، وقد اصبحت بعض وسائل الاتصال الحديثة كالراديو والتلفزيون ادوات تكسبه مكانة متميزة في الوقت الحاضر ، بالرغم من ان كثيراً من المتحدثين كثيراً ما يُلقون احاديثهم مما يدونونه . ولنبرات الصوت في الحديث والكلام اهمية خاصة ، كما ان عدم مراعاة قواعد النحو تكون فيها اظهر ، وهي من حيث العموم مبسطة وبدأت تستقر بشكل يجعلها اداة تفاهم عامة سواء في نشرات الاخبار او في كثير من الاحاديث الثقافية وفي الندوات والحلقات الدراسية والمحاضرات . اما في الكتابة فتتميز بامكان امتدادها في المكان والزمان حيث يمكن نقل محتواها الى

اماكن ابعد من مكان إقامة الكاتب ، بل يمكن نقلها اليوم الى مختلف ارجاء العالم ، كما انها قد تبقى اماداً طويلة فتتجاوز الكتابة ، غير انها في كل الاحوال تبقى معبرة عن ثقافة الكاتب في زمن كتابته .

والكتابة لا يقتصر اثرها على تسجيل افكار الكاتب وانما يمتد الى التأثير على القراء تبعاً لعددهم ومدى عنايتهم بقراءة ما يقرأون ، وهم لا يتأثرون بالافكار التي يعرضها الكاتب فحسب وانما يتأثرون ايضاً بالمفردات التي تستعمل ، والاسلوب الذي تعرض فيه الافكار . فأثر الكتابة واسع ، ودور الكتاب في التوجيه الثقافي والفكري كبير ، والكتابة تظهر مخزون افكار الكاتب وتعبر عن ارائه وافكاره ومكوناته الثقافية واتجاهاته ، وما يريد ان يعرضه بصرف النظر عن مواقفه ، ويتوفر فيها مجال اوسع للأناة والتدقيق في تخير الالفاظ الدقيقة وتعدد المفردات ، وفي صوغ الجمل ، وسبك العبارات ، ومراعاة قواعد النحو والصرف ، وبذلك تكون مسؤولية الكاتب اكبر واوضح كما ان الجهد المبذول في إنجازها هو اكبر من الجهد المبذول في الكلام الشفهي .

والكتابة لا تقتصر على معرفة الكلمات وحسن اختيارها ، وانما تعتمد ايضاً وبصورة أساسية على تنظيم عرض الكلمات وربطها أي على الاسلوب ايضاً بما في ذلك تخير الكلمات وصوغ العبارات من ايجاز او اطناب ، وسهولة او اغراب ، ووضوح او غموض ، وبساطة او تعقيد .

ان الكتابة تؤثر ايضاً في القارىء ، فأثرها يمتد حينما يقرأ الكتاب سواء أكان هؤلاء القرّاء من العرب ام من غيرهم ، وسواء أكانوا من المعاصرين ام من الاجيال التالية ، وهي تتطلب ترتيب الكلمات تبعاً لعلاقاتها مع بعضها ، إذ ان هذا الترتيب هو السبيل الذي تؤدي فيه الجملة الغرض المقصود منها ، فإذا اريد للكتابة ان تفيد القارىء ، فينبغي ان تكون دقيقة في مفرداتها منسجمة في تركيبها موضّحة لما تريد الافصاح عنه. فالكتابة الجيدة هي التي تعنى بالبساطة في التركيب والتسلسل المنطقي في العرض ، لأن كل تعقيد في التركيب يباعدها عن تحقيق غرضها في القراء ويحدِّد من آثارها فيهم ؛ فالكتابة الجيدة هي التي تُعنى بالبساطة في التركيب بما يؤدي الغرض منها . وكل تعقيد في التركيب يباعدها عن تحقيق الغرض منها ولا ريب في ان استعمال الفوارز والفواصل يسرّ توضيح المعاني في الجمل ، وهذا الاستعمال هو تطور حديث كان يعوز القدماء ، غير انه يخضع لقواعد معينة ويتطلب تطبيقها تفهماً ، والواقع ان الكتّاب المحدثين قلما عنوا به بل ان كثيراً منهم لم يتدرب عليه .

ولما كانت الكتابة شخصية تعبر عن معرفة الكاتب وطريقة تفكيره الخاصة فإنها تتيح مجال تعدد الاساليب بتعدد الافراد وتنوع عقلياتهم ، غير ان الاوضاع الثقافية العامة تفرض سمات مميزة ، وطابعاً عاماً يربط الكتابات بكل دقة مكوناً عنصراً مهماً من الكيان الثقافي للامة والذي هو من اقوى دعائم القومية .

## ٣ ـ تقدير العرب للمعاني والاساليب

إن قلة المدونات التي وصلتنا من اللغة العربية خلال الازمنة السابقة للاسلام لا تمكننا من

رسم صورة شاملة ودقيقة عن التطورات التي مرت بها ثقافة العرب ولغتهم . والمعلومات المعتمدة عن ذلك تأتي من زمن قبيل ظهور الاسلام وما تلاه من قرون شهدت فيه العربية والثقافة المدونة فيها اوج ازدهارها في امتداد استعمالها في الحياة العامة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والدينية وفي احتكاكها بعدة ثقافات اجنبية ، وفي امتداد استعمالها في بلاد واسعة من اواسط آسيا الى الاندلس .

تتجلى في آيات القرآن الكريم مكانة اللغة العربية وسعتها وثباتها، فقد ذكرت عدة آيات انه ﴿ ... قرآناً عربياً ... ﴾[١] ، وانه ﴿ .... لسان عربي مبين ﴾[٢] ، وهذه الآيات تظهر ان العرب كانت لهم عند ظهور الاسلام لغة واحدة فصيحة معتمدة وعامة ، يفهمونها ويستلهمونها في الكلام المعتمد الرفيع ، ويعتزون بها ويعتبرونها من ابرز السمات التي تستحق الفخر .

وقد تميز العرب في الزمن الغابر بتقدير الكلمة الواضحة وتأثرهم بها ، وفخر القرآن الكريم بأنه بلسان عربي مبين ، وانه كتاب مبين ( ذكرت في ١٤ موضعاً ) وأنه البلاغ المبين ( في ثمانية مواضع ) . وان الرسول هو « النذير المبين » ( في اثني عشر موضعاً ) وذكر ان ﴿ الرحمن ، خلق الانسان ، علّمه البيان ﴾[٣] ، ﴿ ثم ان علينا بيانه ﴾[٤] و ﴿ هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ﴾[٥] . ومن امتن ركائز إعجاز القرآن وضوح الفكرة وحسن التعبير ، وهي خصائص كان العرب الذين نزل فيهم القرآن اول مرة يقدرونها ويتأثرون بها ، ومن ابرز ما تحدى به القرآن الكريم المشركين أن يأتوا بكلام مثله ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ... ﴾[٦] ، ﴿ ... قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ... ﴾[٧]، ﴿ ... قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ﴾[٨]. وفي كتب السيرة أخبار عن عدد غير قليل ممن اسلم لإعجابه ببيان القرآن لغة واسلوباً .

إن القرآن الكريم الذي اعتبر نزوله بالعربية من مظاهر سموه واعجازه كان عاملاً اساسياً في تثبيت هذه اللغة بمفرداتها وأساليبها ، وفي نشرها بين الناس وصيانتها ، وبذلك ثبت المحور الاساس للغة العربية والمرجع المعتمد لها ، والدرع التي تصونها والاساس الذي يثبتها امام القوى والتيارات التي تواجهها ، وبفضل اعتزاز العرب بلغتهم والاهتمام الكبير الذي اظهروه في دراسة

---

(١) القرآن الكريم ، سورة يوسف : الآية ١ ؛ سورة طه : الآية ١١٣ ؛ سورة الزمر : الآية ٢٨ ؛ سورة فصّلت : الآية ٣ ؛ سورة الشورى : الآية ٧ ، وسورة الزخرف : الآية ٣ .

(٢) المصدر نفسه ، سورة النحل : الآية ١٠٣ ؛ سورة الشعراء : الآية ١٩٥ ، وسورة الاحقاف : الآية ١٢ .

(٣) المصدر نفسه ، سورة الرحمن : الآيات ١-٣ .

(٤) المصدر نفسه ، سورة القيامة : الآية ١٩ .

(٥) المصدر نفسه ، سورة آل عمران : الآية ١٣٨ .

(٦) المصدر نفسه ، سورة البقرة : الآية ٢٣ .

(٧) المصدر نفسه ، سورة يونس : الآية ٣٨ .

(٨) المصدر نفسه ، سورة هود : الآية ١٣ .

لغتهم ودراسة القرآن الكريم اصبحت العربية اظهر ما يميز الهيكل الثقافي الذي ثبتوه في القرنين الاولين للهجرة . وبعد ان وسّع العرب دولتهم وثبتوا دعائمها عُنوا بالفكر فنشطت الحركة الفكرية وكثر المشاركون فيها وقامت شأن حالها في معظم الامم القديمة ، على المشافهة والسماع مستخدمة اللغة العربية اداة للتعبير . ولا بد من ان المتحدث بالعلم كان يعنى بتخيّر الفاظه ، ويحدث بها بوضوح . ولما انتشر الورق وازداد التدوين سجل كثير مما حفظ عن هؤلاء « العلماء » من اقوال وآراء في ميدان معرفتهم . واكثر ما دون عنهم جُمَل قصيرة واضحة ، صوغها بسيط ولغتها سليمة في مفرداتها وقواعدها .

وكان بعض البارزين في الادارة والسياسة يلقون خطباً يعرضون فيها افكارهم بالفاظ متخيرة وعبارات متقنة ، وكان بعض هذه الخطب نماذج رائعة في البلاغة وحفظت الكتب كثيراً منها . واستقر الهيكل الثقافي العربي في القرن الثاني الهجري ، وكان قائماً على دراسة العلوم النقلية او ( علوم العرب ) وهي القرآن الكريم وما يتفرع عنه والحديث النبوي والفقه واللغة والشعر والادب . ورافق ذلك انتشار استعمال الورق ، فكثر التدوين وأُلفت كتب كثيرة تتسم بأنها كتبت بلغة عربية صحيحة المفردات سليمة التركيب واضحة الاسلوب ، دوّن فيها مؤلفوها كثيراً من علمهم وخواطرهم وافكارهم .

## ٤ ـ اساليب الكتابة من ميزات الصرح الثقافي العربي

إن الصرح الثقافي الذي استقرت معالمه في صدر الاسلام كانت اصوله المعلومات والآراء التي تُعْرض وتنقل شفاهاً ، وتتميز بالبساطة في التركيب ، والوضوح في التعبير ، والانطلاق في الافكار . وقد ظل اثر هذه السمات واضحاً بعد ان كثُر التدوين الذي رافقه ازدياد عناية بعض المؤلفين بصوغ العبارات باشكال فنية ، ثم كثرت المؤلفات في دراسة اللغة العربية بما في ذلك المفردات وتركيبها ، كما ظهرت مؤلفات تعرّف بخصائص التعبير وتضع القواعد والموازين لتقويمه ، كما نما ايضاً علم النحو الذي لم يقتصر على دراسة قواعد الكلام وإنما شمل ايضاً تعليلات وتحليلات تجعله علماً لا يستطيع تتبعه الا ذوو المستوى الفكري العالي من المختصين .

وفي اوائل الربع الاخير من القرن الاول الهجري عُربت دواوين الخراج بعد ان كانت تدون بالفارسية في اقاليم المشرق وبالاغريقية في اقاليم المغرب . وكان اول ما تطلبه هذا التعريب ان تحل محل المفردات الاعجمية في سجلات الدواوين مفردات عربية يتقن استعمالها الكتّاب الذين أُبقوا في عملهم في الدواوين . وتطلّب ذلك العناية بجمع ( اللغة ) اي المفردات العربية لتعميم استعمالها بدل المفردات الاعجمية ، كما تطلّب ايضاً دراسة المبادىء الاساسية لقواعد اللغة العربية من نحو وصرف ، مما ساهم في انماء وتطوير استعمال مفردات اللغة العربية .

وتتطلب اعمال الدواوين اساليب كتابية تراعى فيها الدقة والوضوح لأن ما يكتب فيها هو اقرب الى الوثائق القانونية منه الى السرد العاطفي ، وهذا يقتضي تخيُّر الكلمات الدالة على المعنى

بدقة ، وعلى اتقان سبك العبارات والتركيز ، وباتقان الكتاب استعمال العربية وتدقيقهم في سبك العبارات دخلت كتاباتهم ضمن الهيكل العام للثقافة العربية وان احتفظت بسماتها الفرعية من الدقة والتركيز وتخير الالفاظ الدالة على المعاني الدقيقة .

## ٥ ـ نقل العلوم الى العربية واثره في الاسلوب

اقتضى التطور الحضاري والفكري ان يعنى العرب بمواضيع العلوم الصرفة والتطبيقية . ومع انه كانت لديهم معلومات غير قليلة عن هذه المواضيع وخبرات واسعة في تطبيقاتها ، الا ان هذه العلوم لم تكن منظمة ولا مدونة في كتب يرجع اليها ، فكان لا بد من الاعتماد على الكتب الاجنبية في الحصول على المعلومات عنها ، غير ان تزايد المهتمين بهذه العلوم واعتداد العرب بلغتهم دفعهم الى نقل كتبها الى العربية دون اللجوء الى قراءتها في لغاتهم الاصلية .

وقد بدأ نقل كتب هذه العلوم مبكراً منذ العصر الاموي ، ثم اتسع بعد تأسيس الدولة العباسية ، ووصل اوج اتساعه في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ، اي بعد ان كمل استقرار الهيكل الثقافي العربي الذي تم فيه التعبير عن الافكار بلغة عربية في مفرداتها وبأساليب متأثرة بالقرآن الكريم وخطب العرب وموروث الاقوال .

نقلت الى العربية كتب كان قد تم بحث مواضيعها خلال ازمنة طويلة قد يرجع بعضها الى العهود البابلية فهي «علوم الاوائل » اي الاقدمين . وهذه العلوم ، وإن كانت اصول بعضها عربية الا انها تمت واتخذت صيغتها الاخيرة في اقطار يتكلم اهلها بلغة بعيدة عن العربية ، فدونت كتبها في تلك اللغات ونسبت اليهم .

ان معظم « علوم الاوائل » هي علوم اختصاصية دقيقة تستعمل تعابير خاصة دقيقة ومحدودة ، والمعلومات فيها في الغالب متسلسلة يتوقف فهم اية مرحلة منها على فهم المراحل السابقة ، وقد اقتضت هذه الطبيعة الدقيقة ان تكون دراستها اختصاصية مقصورة على فئة لها تدريب خاص ومقصور على من لهم هذا التدريب وممن لهم اتصال اوثق باصحاب الحرف والمهنيين ، ولم يُعنَ العرب في صدر الاسلام بدراستها لأنهم كانوا يعملون في الجيش مقاتلين او قواداً ، وفي الادارة ، وانصبت اهتماماتهم الثقافية على الشعر والاقوال الجميلة والاخبار والمعارف الدينية . وتقود العناية بهذه العلوم الى الاهتمام بثقافة الامة التي دُونت العلوم في لغتها والى انغمار النَقَلة في ( مناخ ثقافي ) يختلف عن الهيكل الثقافي الذي كوّنه العرب .

نقلت الى العربية الكتب المؤلفة بالهندية والبهلوية ، واليونانية ، والسريانية . فأما الهندية فنقلت عنها كتب في الفلك والطب والبلاغة منذ اول العصر العباسي . ولم تذكر المصادر علماء من العرب كانوا يجيدون الهندية في صدر العصر العباسي ،والراجح ان بعض الكتب الهندية نقلت الى العربية عن طريق ترجماتها الفارسية التي تمت في الزمن الساساني ولكن اكثرها من نقل علماء واطباء

هنود استقدموا الى بغداد للافادة من علمهم فتعلموا العربية في بغداد ( على كِبَر ) ولم يتقنوا أساليب العربية، ولم تصلنا الكتب التي نقلوها ولكن وصلتنا مقطتفات منها . ولعل من اسباب فقدانها عدم اجادة نقلها .

اما البهلوية فبالرغم من انها كانت لغة الهيئة المهيمنة على الحكم في زمن الساسانيين الا انها لم تكن لغة الفكر الوحيدة في زمنهم ، وما عدا معاملات الدواوين ، فإن ما نقل عن البهلوية بعض كتب التاريخ والادارة ، وعدد قليل من عهود الملوك قام بترجمتها نقلة عرفوا باتقانهم العربية وأساليب الكتابة فيها ، واعتبرت نقولهم من النماذج المتميزة في النثر العربي ، ولعل هذا التميز راجع الى تصرفهم في النقل وليس الى بلاغة الاصل البهلوي الذي فقد فلا نعلم عنه شيئاً . وقد نقلت من البهلوية بعض الكتب في الفلك والتنجيم والمواليد وهي لا تستخدم مفردات كثيرة ولا تسهب في العرض . اما السريانية فهي بمفرداتها وقواعدها وثيقة الصلة بالعربية ، تكلم بها كثير من اهل العراق وبلاد الشام والجزيرة الفراتية وكانت لغة الكنائس المسيحية ورجالها ، ولما كان اكثر هؤلاء معنيين بالفلسفة فقد استطاعوا ان يغنوها بالابحاث اللاهوتية والفلسفية ، خاصة بعد التدهور الذي حل باستعمال الاغريقية .

وقد قام بعض السريان بنقل عدد من كتب الطب الاغريقية الى لغتهم ، وكان من اوائل واكبر نقلتهم سرجيوس الرسمييني ( ت ٥٣٦م ) وايوب الرهاوي ( من اوائل القرن الثاني الهجري ، اي ان اقدم ترجمة سريانية من الاغريقية تمت قبيل الاسلام ) وقد عاب حنين نقلهما وأعاد نقل كثير من الكتب التي نقلاها مما يدل على قلة عدد المعنيين بالعلوم والطب حتى العصر العباسي حيث ظهر معظم النقلة الى السريانية ، وكل هذا يدل على ان النقل الى السريانية حدث متأخراً وأنه كان محدوداً وغير متقن حتى القرن الثالث الهجري حيث ظهر النقلة المتقنون وابرزهم حنين بن اسحق وابنه اسحق ، وابن اخته حبيش .

ان قيام السريان بنقل الكتب الى لغتهم مهّد السبيل الى اتقان النقل الى العربية حيث ان قرب السريانية من العربية يسّر ترويض بعض الكلمات للعلم ونبّه الى عدد من الكلمات المعروفة في البلاد وخاصة في النبات والمعادن والحيوان . اما اللغة الاغريقية فقد أصبحت لغة العلم العالمية في العالم المتحضر ، وخاصة منذ زمن الاسكندر ، وظلت لغة المؤلفات في العلوم والفلسفة والآداب مدة اكثر من ثمانية قرون إبان سيادة دخول الهلنستية والرومان . ولكن انحطاط الحركة الفكرية منذ القرن الرابع الميلادي ادّى الى قلة المهتمين بدراستها والتأليف فيها ، فظل النشاط فيها مقصوراً على مراكز محدودة وقائماً على كتب محدودة ، وندرت معظم المؤلفات فيها .

بدأ نقل الكتب الاغريقية الى العربية منذ العصر الاموي ، ولكنه كان محدوداً بعدد قليل من كتب الكيمياء والطب ، ثم نشط كثيراً وخاصة في ايام المأمون الذي عمل على جمع هذه الكتب وارسل الى بلاد الروم وفوداً بذلوا جهوداً للحصول عليها ، فحصلوا على نسخ منها ، مما يدل على

قلة الكتب التي كانت باقية فيها وقلة المتقنين لها في البلاد الاسلامية ، وقد ساد القول بأن مركز دراسة الطب ( وربما الفلسفة)كان عند ظهور الاسلام في الاسكندرية ثم انتقل في زمن خلافة عمر بن عبد العزيز الى انطاكية ثم انتقل في زمن المتوكل الى الرها . وهذا القول ، ان صح ، يدل على مدى تقلص انتشارها في زمن الاسلام علماً بأننا لا نعلم تفاصيل هذا الانتقال وهل كان مقصوراً على عدد محدود من الاساتذة والطلبة ام على الكتب ايضاً وكانت مدرسة الاسكندرية تعتمد على عدد محدود من الكتب المدرسية ، فإن النشاط الفكري يكون بذلك قائماً على التدريس لا على التأليف وعلى تثبيت الثقافة لا تنميتها . ومما يؤيد ذلك ان الوفود الاسلامية لجمع الكتب الاغريقية توجهت الى بلاد الروم ولم تتوجه الى الاسكندرية او انطاكية او الرها .

يذكر ابن النديم عدداً من الكتب وجدت في الاسلام بنقل قديم ومنها طوبيقا ، وريطوريقا والحيوان والعقل والمعقول لأرسطو[9] ، والمجسطي[10] ، ولم يحدد تاريخ ذلك النقل . غير انه يلاحظ ان النشاط الواسع للنقل من الاغريقية حدث ابان القرن الثالث الهجري ، اي بعد ان استقر الكيان الثقافي القائم على اللغة العربية بمفرداتها وأساليبها .

كان اكثر النقل من اللغة الاغريقية التي لم تكن لها عند ظهور الاسلام دولة ترعاها وتعنى بنشر ثقافتها في العالم الاسلامي تدعيماً لكيانها او محاولة لزعزعة السيادة العربية . وكان اختيار الكتب يتوقف على ميول الناقل او من يرعاه وقد ذكر حنين بن اسحق في كتابه ( ما ترجم من كتب جالينوس ) اسماء من نقل لهم كتب جالينوس وهم من المعنيين بالعلم كآل بختيشوع ، وبني موسى بن شاكر ، واسحق بن سليمان ، ولم يذكر حنين الدافع لهذا التقديم او العون المادي الذي تسلّمه منهم . ويروى ان ابا جعفر المنصور ، والمأمون اوليا النقل الى العربية عناية خاصة ، وان ابا جعفر شجع نقل الكتب في الفلك والطب ، وشجع المأمون نقل الكتب في الفلسفة . وان هارون الرشيد أنشأ بيت الحكمة لتجمع فيه الكتب وتنقل الى العربية ، وذُكر بعض القائمين على بيت الحكمة ولكن لم تذكر الكتب التي ترجمت فيه ، فالراجح ان اختيار الكتب لم يكن ضمن خطة ( رسمية ) مدروسة وإنما كان الاختيار يتوقف على ميول الناقل او من يرعاه او ما يراه مرغوباً عند الناس ، كما ان اهمية الكتاب المترجم تظهر من مدى الاشارات اليه في الكتب الاخرى ، او من كثرة الشروح عليه او من استعماله في التدريس . ويتبين من قوائم الكتب المنقولة الى العربية والتي ذكرها ابن النديم ان اغلب هذه الكتب في الطب والفلسفة والرياضيات وان العرب عنوا بنقل كتب علماء محدودين ، وخاصة كتب ارسطو وابقراط وجالينوس وبطليموس واقليدس ، اما بقية العلماء فلم يترجم لكل منهم اكثر من كتاب واحد صغير ، كما ان المترجمين الذين قاموا بتراجم كثيرة ، عددهم محدود ، ولم يترجم كل من الباقين اكثر من كتاب واحد .

---

(٩) ابو الفرج محمد بن اسحق بن النديم ، **الفهرست** ، ص ٣٠٩ - ٣١٠ و٣١٢ - ٣١٣ .

(١٠) المصدر نفسه ، ص ٣٢٧ .

إن النقل والترجمة يختلفان عن التأليف من حيث انهما مقيدان بالافكار التي يعرضها مؤلف الاصل ، وان يتم النقل بشكل يكون مفهوماً عند قارىء اللغة التي ينقل اليها ، وهذا يتطلب منه التعامل مع المفردات اللغوية ومع تركيب الجملة بحيث يضمن الدقةوالوضوح .ونظراً لعدم وجود هيئة رسمية للاشراف على دقة النقل فقد تُركت للنقلة حرية اتباع الطريقة التي يرتأونها ، فكان بعضهم ينقل حرفياً ويكثر من ابقاء المفردات الاعجمية بعد كتابتها بالحروف العربية ، كما أنه يجاري اسلوب اللغة التي ينقل عنها . ويبدو ان هذا النقل الحرفي كان اكثر شيوعاً في الازمنة الاولى للنقل ، فكان ما نقل بهذه الطريقة فجاً ثقيلاً لم يحظ بالتقدير ، فيذكر ابن النديم ان مرلاحي وهو احد النقلة المعاصرين له كان جيد المعرفة بالسريانية عفطي الالفاظ بالعربية[١١] ، وان قويري وهو معاصر ايضاً ( لابن النديم ) « كتبه مطروحة مجوفة لأن عبارته كانت عفطية غلقة »[١٢] ، وهو يذكر ان بعض النقلة كان نقلهم رديئاً ومن هؤلاء ابن شهدي الكرفي[١٣] والكندي[١٤] . وقد اعيد اصلاح عدد من الكتب التي كان نقلها رديئاً ، ومن ذلك كتاب سوفسطيقا الذي نقله ابن ناعجة ، ثم اصلح النقل ابراهيم بن بكوش[١٥] ، وكتاب الجغرافيا الذي نقله الكندي نقلاً رديئاً، ثم نقله ثابت الى العربية نقلاً جيداً[١٦] ، كما اصلح حنين نقل ابن البطريق لكتاب طيماوس[١٧] ، ولا بد من ان هذا الاصلاح لم يقتصر على تتبع دقة الترجمة ، وانما امتد ايضاً الى الاسلوب .

والواقع ان الكتب والنصوص التي نقلت الى العربية في العصر العباسي تتجلى فيها قلة الكلمات الاعجمية ،ووضوح العرض ، وانسجام الاسلوب مع الهيكل الثقافي العربي العام ، وهذا واضح في كافة كتب العلوم الصرفة والتطبيقية ، غير ان بعض كتب الفلسفة يظهر فيها بعض الغرابة والتعقيد . ولا بد من ان هذا الوضوح والانسجام ناجمان عن ادراك النقلة ضرورة عرض نقلهم بما ينسجم مع الهيكل العام الذي استقر عبر زمن غير قصير تجلت فيه قدرته على الاستيعاب والوضوح .

## ٦ ـ ركود الثقافة واساليب الكتابة بعد زوال الخلافة العباسية

ركدت الحركة الفكرية في العراق منذ ان زالت الخلافة العباسية وسيطر المغول على البلاد ، ثم عم هذا الركود البلاد العربية كلها بعد ان امتد اليها الحكم العثماني ، فسادت الامية واقتصر التعليم على اماكن محدودة من الجوامع والمدارس لتقرئة القرآن تدرس عدداً قليلاً من الطلبة ،

---

(١١) المصدر نفسه ، ص ٣٠٥ .
(١٢) المصدر نفسه ، ص ٣٢١ .
(١٣) المصدر نفسه ، ص ١٠٥ .
(١٤) المصدر نفسه ، ص ٣٢٨ .
(١٥) المصدر نفسه، ص ٣١٠ .
(١٦) المصدر نفسه ، ص ٣٢٨ .
(١٧) المصدر نفسه ، ص ٣٠٦ .

العلوم الدينية بما فيها القرآن وتفسيره والحديث والفقه وقواعد اللغة العربية . واعتمد العدد المحدود من العلماء في تدريسهم على قراءة وشرح كتب قديمة بنصوصها الاصلية المفصلة او تلخيصاتها . وقلما كانوا يتجاوزون ذلك الى التأليف .

وتطلبت حاجة الدولة اهتماماً محدوداً بالكتابة لأغراض الدواوين والمكاتبات ، او لتدوين الحوادث او للتعبير عن خلجات المشاعر الوجدانية، وكانت هذه الكتابة عموماً ، تكثر فيها الكلمات العامية ويستعمل فيها السجع المصطنع ، ونطاق انتشارها محدود ، لأن الطباعة لم تدخل الا في اواخر القرن الثامن عشر. وقد بقيت بعض العلوم التي يحتاجها المجتمع كالطب والحساب والفلك ، تعتمد على الممارسة دون التدريس المنظّم ، وهي تستعمل الكتب القديمة بنصوصها او ملخصاتها .

## ٧ ـ التطورات الحديثة : الاتصال بالغرب

وفي نهاية القرن الثامن عشر بدأ تهديد جديد الى قلب الدولة العثمانية عندما غزا نابليون مصر وتوغل حتى عكا ، واظهر تفوق السلاح الغربي والآفاق الفكرية والحضارية النشطة في الغرب ، واعقب ذلك ازدياد الاحتكاك والاتصال بين الغرب وبلاد الدولة العثمانية ، وكان الاحتكاك مختلفاً في قوته ومظاهره وزمنه ، فأما من حيث الزمن فإن فرنسا استولت على الجزائر سنة ١٨٣٥ واستولت انكلترا على عدن في سنة ١٨٣٤ وكلتا المنطقتان في اطراف نائية من الدولة العثمانية .

وقد نبّه التفوق العسكري العربي رجال الحكم في الدولة العثمانية الى اهمية التعرف على اسرار ومظاهر التفوق الغربي والعمل على اقتباسه ، وكان محمد علي والي مصر أسبق من تنبّه الى ذلك ، فعمل على اقتباس النظم الغربية في الجيش والتسليح واستخدام الخبراء في هذه الميادين ، ثم ارسل بعثات الى اوروبا لدراسة العلوم التطبيقية خاصة الطب والهندسة والزراعة ، وانشأ في مصر مدارس على النمط الغربي لتدريس هذه العلوم باللغة العربية وقامت الدولة العثمانية ، وخاصة في زمن السلطان محمود الثاني ، باعمال مماثلة في اسطمبول . وحدثت تطورات تساعد على نشاط فكري جديد لعل من ابرزها دخول المطابع العربية بلاد الدولة العثمانية ، ومن المعلوم ان الطباعة اخترعت في الغرب في اواخر القرن الخامس عشر ، وظهرت في هذا الوقت المبكر مطابع طبعت بالعربية عدداً غير قليل من الكتب التراثية في مختلف ميادين المعرفة ومنها كثير من الكتب الادبية التي قدّر العرب ايام عزهم الثقافي اساليبها الجديرة بالاحتذاء. ولم تكن طباعة كل هذه الكتب بالمستوى الذي يضمن الفائدة القصوى منها بسبب افتقادها للفهارس المفصّلة وعدم استيعابها المخطوطات الكاملة، وبسبب شكل الطباعة غير الجذاب ، ومع هذا فقد يسرت للكتّاب مادة ثقافية رفعت من مستوى كتابتهم ، فتناقصت الكلمات العامية والاسلوب المفكك الذي كان ظاهراً في كتابات القرون السابقة ، فظهر كتّاب عنوا بعرض معلومات بأساليب جزلة وبأساليب سلسة طلقة ولكنها لا تخرج كثيراً عن اساليب القدماء . ومما دعم هذه الكتابات ان اغلب كتّابها درسوا في المدارس الدينية التقليدية واكثروا من قراءة الكتب القديمة فتأثروا بأساليبها وافكارها .

ومن ابرز مظاهر التطورات الحديثة ازدياد وتحسين مستلزمات النشر ووسائله من ورق واستنساخ وطباعة ، بالاضافة الى توسع مجالات النشر من صحف ومجلات ومنشورات وكتب . وقد شمل هذا التوسع في النشر مختلف ميادين المعرفة بما في ذلك الآداب والفنون والعلوم والتقنيات ، وادى هذا التوسع والتنوع الى ازدياد الحاجة الى الكتّاب من مختلف الاختصاصات والمستويات . ان هذا الازدياد في توسع النشر رافقه مغريات مادية ومعنوية لتغذيته ، وصاحب ذلك ازدياد مطالب الحياة المادية ، فازداد الطلب على الكتابة وأغرى او ألجأ الكثير من الكتّاب الى الاستجابة للمطالب . وكان أثره كبيراً في اسلوب الكتابة حيث قلت العناية بالاسلوب واتجه العرض الى التعبير العفوي المبسط الذي اخذ يحل محل الكتابة المُعنى بعرضها ، اي ان الكتابة اصبحت تتجه لأن تكون تعبيراً مبسطاً للافكار دون العناية بالاسلوب المدقق الرصين المتقن.

وحدث ايضاً ازدياد في عدد المتعلمين الذين يقرأون والمثقفين الذين يكتبون ، ومعظمهم ممّن حصل على تعليمه في المدارس ومعاهد العلم الحديثة التي توسعت بشكل هائل . فالجامعات ، التي هي من اهم واعلى مؤسسات الاعداد الثقافي ، ازداد عددها ازدياداً كبيراً ، وازداد عدد طلابها واساتذتها والباحثين فيها ، وان ايراد تفاصيل هذه التطورات العالمية خارج عن نطاق هذا البحث ، ولذلك اقتصر على ايراد نموذج منها في التطور الحادث في العراق حيث اصبحت فيه ثماني جامعات منها اربع في بغداد وحدها تضم من الطلبة قرابة الخمسين الفاً ، ومن اعضاء الهيئة التدريسية عدة آلاف . هذا بالاضافة الى مؤسسات بحث ودراسات متعددة فضلاً عن العدد الكبير الذي يدرس في جامعات الاقطار العربية والغربية ، او الذين يقومون بالبحث والتدريس خارج القطر ، وتشير الاحوال الحاضرة الى ان هذا التوسع سيستمر وستبقى المواضيع الانسانية هي المقوم الاساس للثقافة ، ويحتاجها المختصون في العلوم والتقنيات ، وان محاولات بعض السلطات الموّجهة للثقافة في تنمية دراسة العلم والتقنية لن تثمر بما يقضي على الدراسات الانسانية او يقلل من الاقبال عليها .

## ٨ ـ التعليم على النمط الغربي

ومنذ اوائل القرن التاسع عشر ازداد عدد الغربيين القادمين الى البلاد العربية للعمل في المؤسسات الثقافية المدنية كخبراء او مدرسين في المدارس والمعاهد الهندسية والطبية وما يتصل بالعلوم . وكان معظم القائمين بالتدريس يدرسون بلغاتهم الاوروبية طلاباً لم يتقنوا دراسة العربية ، غير ان بعضهم يدرس في معهد لطلبة بالغين لهم بعض الدراية بالعربية ، كما ان عدداً من العرب تابعوا دراساتهم الجامعية في البلاد الغربية وخاصة في ميادين العلوم والتقنية التي اخذت تتقدم ويتوسع دورها في الصناعات وغيرها ، ومعلوماتها تختلف اساسياً عن المعلومات التي تتوفر في التراث الفكري العربي .

ومعظم الطلبة الذين يقومون بهذه الدراسات سواء أكانت دراستهم في الغرب او في بلادهم العربية هم من الشبان الذين لم يتعمقوا في دراسة الآداب العربية ولم يتدرّبوا على أساليب الكتابة

بها ، وادّى انغمارهم في دراساتهم العلمية الى عدم توفر الوقت الكافي لهم لرفع مستواهم في دراسة العربية ، خاصة وان نظم التدريس الحديثة تتطلب السير على برامج معدّة مسبقاً وتستغرق معظم وقت الطالب فتغمره في اختصاصه ولا تتيح له وقتاً كافياً لقراءة ما يجعله متقناً لاساليب اللغة العربية وبذلك بدأت تظهر الهوة العميقة بين الدارسين للعلوم الغربية سواء أكانت دراساتهم في الغرب ام في الشرق وبين الذين يتابعون دراساتهم في المدارس القديمة ، غير ان مما خفف آثار هذه الهوة قلة الانتاج الادبي .

## ٩ ـ مكانة العربية في التعليم الحديث

وإثر انتهاء الحرب العالمية الاولى انفصلت اقاليم الوطن العربي من الدولة العثمانية وتجزأت الى دويلات اقليمية تحكم معظمها او توجه سياستها انكلترا او فرنسا او ايطاليا وكلها دول اوروبية استعمارية يعتز كل منها بنظمه وثقافته ويحرص على تطبيقها في البلاد التي يهيمن عليها . وأولت هذه الدول التوجيه الثقافي اهتماماً ، فعملت على اعادة تنظيم التعليم ومناهجه وجعلته على غرار ما هو مطبق في الغرب واصبحت للمدارس مناهج مقررة تشمل عدداً من المواضيع الاساسية في الثقافة العامة ، وهي تبدأ من تعليم القراءة والكتابة ومبادىء الحساب ، ثم تتسع لتشمل التاريخ والجغرافية ومبادىء العلوم الطبيعية والرياضيات ، ومعظمها لم تكن تدرس في المدارس القديمة . ويتم التدريس باللغة العربية ، ويقوم به عدد متزايد من متخرجي دور المعلمين التي نظمت مناهجها على الاسس نفسها ، وتدرس في هذه المدارس لغة اجنبية لعدة سنوات وتعتمد على كتب اجنبية ويقوم بتدريسها عرب تعلموا هذه اللغات والغالب انهم اعجبوا بثقافة الامم التي تتكلمها ، او اجانب من ابناء الامة التي تدرس لغتها . وخصصت للغة العربية في هذه المدارس الجديدة ساعات لتدريس قواعد اللغة والتدريب على الكتابة والانشاء وقراءة النصوص المختارة . غير ان تدريس القواعد اتجه الى الاهتمام بعلم النحو بما فيه من افكار دقيقة تجعله علماً قائماً بذاته ولا يؤدي اتقانه الى تحسن تعلم العربية ، خاصة وانه يعنى بالتعريفات واستيعاب الشواذ . اما النصوص فهي في الغالب مختارات من الشعر واحياناً من النثر ، ولكن بالنظر لكون الساعات المخصصة لها قليلة ولا يتوفر للطالب فرص لتنميتها فإن اثرها اصبح ضعيفاً ، فضلاً عن ان التدريس كان يكثر فيه استعمال العامية ولا يُعنى كثيراً بالفصحى او بالاسلوب .

وانشئت معاهد لتدريب المدرسين خصصت حصصاً لتدريس اللغة العربية ونصوصاً مختارة منها . ولكن تدريس اللغة العربية اصبح مقصوراً على هذه الحصص . ولم تلق العربية السليمة عناية في تدريس بقية المواضيع مما كان له اثر في عدم إتقان الطلبة اللغة العربية السليمة .

وانشئت لتدريس اللغة العربية في معظم البلاد أقسام خاصة او كليات يدرَّس فيها مختلف فروع علوم اللغة العربية بالاضافة الى بعض العلوم الدينية ، واعتمدت معظم اقسام ومعاهد اللغة العربية على مدرسين تدربوا على الاساليب التقليدية فاعتمدوا على الكتب المفضلة في اوساطها وانصبّ اهتمامهم على الشرح دون التحليل . ودرس عدد من الطلبة العرب في الغرب فكان

اتقانهم لمفردات العربية وأساليبها ضعيفاً ، وكان منهم اكثر الدعاة لاستعمال اللغات الاجنبية في الدراسة والتأليف .

## ١٠ ـ اللغة العربية والتطورات الحديثة

ان التقدم الكبير الذي حدث في مختلف ميادين العلوم في الغرب رافقه توسع في مفردات اللغات الغربية ، وهذا التوسع لا يرجع كله الى اصول اللغات الغربية ، فإن كثيراً منه قام على مفردات اعتباطية كالنسبة الى الاشخاص او الى اشياء عادية ولكنه اكتسب ، بشيوع استعماله ، معاني خاصة ساعدت على انماء مفردات المعاجم الغربية وسبب صعوبات في ايجاد البدائل المقابلة لها بالعربية .

غير ان هذا التوسع بالرغم من اعتباطية كثير من المفردات التي أُقر استعمالها اوجد هوة واسعة بين معاجم اللغات الغربية التي ضمت كثيراً من هذه المفردات ، والمعاجم العربية التي حرصت على تدوين « الفصحى » التي يعنون بها اللغة السائدة عند بعض القبائل العربية ، ولم تدوِّن كثير من الكلمات التي استعملت في عصور ازدهار الحضارة العربية باعتبارها مولدة او دخيلة ، وبالرغم من هذا التحديد فإن في ما اقرته المعاجم مفردات تفوق ما في اللغات الاصيلة الغربية . والمشكلة التي تواجه تطوير اللغة العربية للحاجات الثقافية الحديثة هي في طريقة تنظيم مادة هذه المعاجم ، فإن اكثرها شيوعاً ، القاموس المحيط والعباب ولسان العرب يرتب الكلمات تبعاً لأواخر جذورها ويورد لكل كلمة معاني مشتقاتها دون مراعاة للتطور التاريخي للكلمات مما يوجد صعوبة في البحث عن الكلمة المطلوبة ، وقد ألَّف العرب عدداً من المعاجم رتبت فيها الكلمات تبعاً لمعانيها غير ان هذه لم تحظَ بالرواج الجدير بها عند تعريب المفردات .

تتضح معاني الكلمات من استعمالاتها ، وقد اعدت في العقود الاخيرة قوائم بالكلمات التي وردت في بعض الكتب وخاصة في ميادين الفلسفة وعلم النفس والطب وما يتبعه من تشريح وتشخيص وادوية ونباتات وهي تقدم مادة غنية لمن يعمل في تعريب المفردات . وكان التباين بين عدد المفردات العلمية في اللغات الغربية وبين عددها في المعاجم العربية من حجج بعض دعاة العزوف عن استعمال العربية في دراسة العلوم ، وقد غفلوا عن ان كثيراً من كلمات المعاجم الغربية هي مبتدعات اعتباطية ، وان اسس اللغات الغربية ليست بأمتن او اوسع من اسس اللغة العربية ، وان اللغة العربية افلحت في استيعاب كثير من ابواب المعرفة في الماضي ، فضلاً عن ان الاسلوب العربي اكثر انسجاماً مع الهوية الثقافية للعرب .

إن الدعوة لاستعمال اللغات غير العربية في دراسة العلوم لم تنبعث من عدم امكان تيسير استعمال اللغة العربية الى العلوم الجديدة ، ولا هي رد فعل على موقف متين في الدفاع عن الفصحى بمفهومهم الضيق لها ، انما هي منبعثة من دافع نفسي اعمق وهو مدى ضعف ادراكهم لكيانهم العربي ومدى رغبتهم في الحفاظ عليه وتنميته . ان موقفهم لا ينبعث من اعتقادهم بعجز اللغة العربية بقدر ما هو من اعجاب يصل حد الاستسلام للحضارة الغربية .

غير انه بالرغم من ضعف اتقان اللغة العربية واساليب تدريسها ، فإن العرب يحتفظون اليوم بهيكل ثقافي عام قائم على اللغة العربية بمفرداتها واساليبها العامة العميقة الجذور ، وان هذا الترابط الثقافي القومي يزداد قوة بفضل الاتصالات الكثيرة وتنامي الشعور بالذات والاعتداد بالهوية ، واذا كانت في البلاد العربية نظم واتجاهات سياسية منوعة ومتعارضة وتقوم بالدفاع عنها بعض الكتابات ، فإن الاختلاف في هذه الكتابات هو في المحتوى وليس في اللغة او الاسلوب العام ، اذ ان الاسس الثقافية العربية عامة ، وهي تسمو على الانقسامات المحلية ، ويعترف العموم بوجوب السير عليها .

## ١١ ـ اساليب جديدة في الكتابة

غير ان الذي يشذ عن هذا التيار العام كتابات غريبة عنه ، وهي اشد ارتباطاً بالهيكل الثقافي الغربي ، بدأت تظهر حديثاً وتنتشر في مختلف وسائل النشر ، وخاصة في الجرائد والمجلات والكتب . فأما الجرائد فإنها كانت منذ ظهورها في بلدان الوطن العربي اكثر انتشاراً وأعم اثراً . وكانت في اوائل زمن ظهورها تنشر اخباراً ومقالات بلغة عربية فيها كثير من المفردات العامية والغريبة ، وباسلوب غير متماسك او رصين ، ناجم عن جهل الكتاب بالعربية السليمة اكثر مما هو ناجم عن تأثرهم بالثقافات الاجنبية وتقليدهم لها . ثم تطورت لغتها وأساليبها واستقرت بمرور الزمن في عرضها للاخبار خاصة على نمط خاص يراعي سلامة اللغة والاسلوب بما لا يتعارض مع التراث اللغوي وان لم يكن يحاكيه كلياً او يتطابق معه تماماً . غير ان الجرائد لا تخلو من بعض المقالات المكتوبة بأساليب جديدة هي تقليد للاسلوب الاجنبي ، وبعيدة عن اساليب الهيكل الثقافي المقبول عند العرب . اما الكتب وخاصة تلك التي تبحث في ميادين العلوم والافكار الجديدة ، فإن معظم مترجميها او مؤلفيها هم ممن معرفتهم ودربتهم بالثقافة الغربية اكثر من الثقافة العربية ، ولذلك كثيراً ما يصوغون ما ينقلونه عن الثقافة الاجنبية بأساليب لا تنسجم مع المألوف بالعربية . وبما ان اغلب مواضيع هذه الكتب في العلوم الحديثة فإن المعنيين بهذه العلوم يكونون مضطرين الى قراءتها مما يزيد في توسع الهوية الثقافية بين المختصين بالعلوم وبين الكيان الثقافي العربي .

ان معظم الكتب العلمية المترجمة هي كتب ( مدرسية ) تستعمل في الدراسات العليا التي بدأ يزداد فيها عدد الدارسين والباحثين في ميادين العلوم الصرفة والتطبيقية ويمتد اثرها بدرجة اقل الى ميادين العلوم الانسانية والفنون ايضاً لمتابعة التطورات الحديثة .

وتمتد الاساليب الجديدة الى عدد غير قليل من الكتب المؤلفة في العربية وخاصة في المواضيع الثقافية التي يعنى الغربيون بدراستها بما في ذلك تاريخ العرب وحضارتهم وفلسفتهم ، واكثر ما تبرز الاساليب الجديدة في المقالات التي تنشرها المجلات التي تُعنى بالكتابة عن الاخبار وتحليلها والتوسع في وصف ماهيتها وآثارها. كما ان كثيراً منها يُعنى بنشر مقالات مستوعبة عن جوانب متعددة من الفكر ، وتعنى بنشر ما يتصل بالافكار الحديثة والآراء الجديدة ، واكثر كتّابها من

المطلعين على الثقافات الاجنبية الجديدة والمتأثرين بها، والغالب ان الكاتب يعرض معلوماته وافكاره باسلوب الثقافة التي تشرّبها ، فأساليب هذه المقالات متعددة ومتنوعة ولكنها يجمعها رابط واحد وسمة مشتركة هي بعدها عن اسلوب الكتابة المستساغ عند العرب والمنسجم مع الهيكل الثقافي العام .

وللمجلات في تنمية الثقافة اثر كبير يفوق اليوم اثر الكتب بالنظر لكثرتها وانتشارها وعنايتها بعرض القضايا والآراء التي تشغل بال الناس او تستجيب لحاجاتهم الثقافية المعاصرة فضلاً عن ان حجم المقالات وتنوعها ييسر قراءتها واستيعابها . ومن الطبيعي ان تأثيرها اقوى في اوساط المثقفين وذوي الاختصاص ممن لهم تأثير اقوى في نشر الثقافة وتوجيهها .

ان الاساليب ( الجديدة ) في الكتابة هي محاكاة وتقليد للاساليب الغربية ، وهي متنوعة بتنوع ثقافات الامم الغربية التي بعد ان كان انتاجها الفكري في العصور الوسطى مدوناً عموماً باللاتينية وموحداً ، الا انها بدأت منذ العصور الحديثة تتنوع عندما بدأ يسود فيها استعمال اللغات القومية واصولها الرئيسية هي اللاتينية لدول وسط وغربي البحر المتوسط ، والجرمانية لدول وسط وشمال اوروبا ، والسلافية في شرقي اوروبا . والواقع ان التطورات الفكرية التي رافقت نمو النظم القومية الاقليمية في اوروبا ادت الى ظهور سمات عامة تتميز بها الكتابة في كل امة بالرغم من اصولها العامة المشتركة . وبذلك كان للكتّاب في كل من الانكليزية والفرنسية والايطالية والاسبانية اسلوب خاص يتميزون به وينظم كتاباتهم العامة ، بالرغم من المتنوعات الابداعية لافراد الكتاب . وهذه السمات العامة تتحكم فيها طبيعة كل لغة محلية ، وتقاليد حرصت على ابقائها حية ، جامعات واكاديميات ومؤسسات ثقافية وافراد تميزوا بإتقان تلك التقاليد والحرص على السير عليها بدافع الاعتزاز القومي وبالسير على ما ألِفوه ونشأوا عليه . وقد ادرك كثير من المؤسسات الثقافية في الغرب خطر ظاهرة البلبلة الثقافية في مادة الكتابة واسلوب عرضها ، وقام ببعض ما يحد من آثارها ، فكثير من الجامعات الغربية لا تزال تحتفظ في هيئاتها التدريسية الموجهة للثقافة مَن نشأ على ضبط ثقافي مميز للثقافة الرفيعة في امته وهم يحرصون على ابقاء هذا الضبط الثقافي حياً فاعلاً وموجهاً للانتاج الثقافي . ومن آثار هذا ما نجده من خصائص للمتخرجين من الجامعات الفرنسية او الالمانية او البريطانية، وهكذا . ومما قوّى هذا ان لكل قطر جامعة او جامعات محدودة تحتفظ بالتقاليد المميزة وتعمل على تثبيتها وتقوم بدور في نشرها في الجامعات الاخرى . ومن الطبيعي ان الاحتفاظ بالتقاليد يفسح المجال لتطورات بطيئة محدودة ، وبذلك تضمن الاستقرار الثقافي .

ثم ان اكثر مؤسسات النشر الكبيرة في الغرب تستخدم اختصاصيين لتصحيح المخطوطات التي يقدمها الكتّاب للنشر وجعل اسلوبها سليماً ومنسجماً مع السمة العامة للثقافة في قطرها . ان هذه الكتابات جديدة في العربية ، ولعل تقدير الناس للجدة واعتبارهم اياها دليل التقدم والتحسن من العوامل التي شجعت على ظهورها وتكاثرها ، علماً بأن الجديد لا يستطيع البقاء الا بمقدار ما له من منافع وميزات ، وبمقدار ما يتيسّر للناس الافادة منه . والواقع ان ضعف اتقان

اللغة العربية لا تعالجه هذه الكتابات الجديدة الناشزة التي لا تسير على قواعد مطردة عامة تيسر فهمها .

وهذه الكتابات تتناول مواضيع وافكاراً جديدة نمت في الغرب ضمن الهيكل الثقافي الغربي العام ، فهي غير غريبة عليهم ، لأن قراءها الغربيين الفوا مفرداتها وافكارها ، ولا بد انها مكتوبة بالاساليب المألوفة في الغرب ، مما يسهّل عليهم قراءتها وفهمها . واكثر الابحاث التي تنشر بهذا الاسلوب دراسة الغرب واحواله وافكاره وابداعاته ، وتكتسب ابحاثهم مكانة لتطرقها الى مواضيع تثير اهتمامنا لصلتها بالتيار الفكري العالمي الحديث ، والذي يختلف في كثير من مادته عن مكونات الثقافة الموروثة .

## ١٢ ـ الكتّاب بالاساليب الجديدة

والكتّاب بهذه الاساليب الجديدة هم الواسطة الرئيسة لنقل الثقافة الغربية الى العربية ، واكثرهم من الناشئة المحدثين الذين درسوا في الغرب واعجبوا بحضارته وثقافته . ولا ريب في ان المؤسسات الغربية ترتاح ، وربما تشجع هذه الاساليب الجديدة رغم تفرقها وغرابتها . وسواء أكان الموقف الغربي عفوياً اوحسن النية ام مقصوداً ، فإن هذا الاسلوب يشد ثقافة الامة بالغرب ، ويزيد من تفككها وبلبلتها وابعادها عن تراثها الاصيل . ومما يسّر تمادي الكتابة بهذه الاساليب ان روح تعزيز الذات وصيانة وجودها وعزّتها عملت على مقاومة السيطرة السياسية للغرب ، ولكن الاستقلال السياسي لم ترافقه سياسة ثقافية فعالة واضحة لتنمية الثقافة القومية وفق خطة شاملة ، وانما شجع انتشار التعليم الحديث وتعميم انماط الحياة الغربية ، والتخلي عن كثير من الاشكال القديمة في الحياة ، واعتمد الى حد كبير على دعاة التجديد الذين منهم كثيرون من المعجبين بالغرب والمقلدين له .

إن الغالبية المطلقة للذين يكتبون بالاساليب الجديدة هم عرب في دمهم واصولهم ، ومعظمهم ممن اتم دراسته ، كلها او معظم مراحلها الاخيرة ، في مدارس اجنبية في داخل البلاد العربية او في البلاد الغربية . وكتاباتهم تعبر عن تكوينهم الثقافي وتظهر تقديرهم للثقافة الغربية ، وهي تؤدي في آخر المجال الى نشرها بين الناس .

وكتابتهم بالعربية تدل على ادراكهم اهمية هذه اللغة ، غير ان بعدهم عن الاساليب العربية المقبولة يظهر عدم اتقانهم لها ، وان غرابة مفرداتها واساليبها يقدم مبرراً ودافعاً لوجوب زيادة العناية بدراسة مفردات اللغة واساليب الكتابة المقبولة فيها .

والكتّاب الذين يكتبون بهذه الاساليب يكثرون من استعمال كلمات عربية في اصولها ، غير ان دلالاتها على المعاني التي يقصدون التعبير عنها غير موفقة . فهم يكثرون من استعمال الكلمات الاعجمية مكتوبة بحروف عربية ، او يستعملون صيغاً واشتقاقات غريبة للكلمات العربية ، مما

يظهر تمكنهم فعلياً من اللغات الاجنبية وايمانهم بكفاءتها في التعبير . فجهودهم اللغوية تنصب على تطويع العربية للتعبير عن الثقافات الاجنبية التي يفوق اطلاعهم عليها معرفتهم بالعربية .

إن الذين يكتبون بهذه الاساليب الجديدة رغم كثرتهم وتزايد عددهم ، غير مرتبطين بحزب سياسي معين ، ولا تجمعهم رابطة منظمة ، ولا تسندهم في العلن قوة ، غير انهم يحظون برعاية بعض المجلات التي تكثر من نشر مقالاتهم . ومما يسّر المجال لنشر الكتابات بهذه الاساليب ، الحرية وفقدان القيود التي تلزم الناشرين بمراعاة قواعد مقررة في اساليب الكتابة . وهذه الحرية يرجع بعضها الى عدم ادراك المسؤولين اخطار مثل هذه الاساليب ، كما ان بعضها يرجع الى التقاليد العربية التي تؤمن بالحرية الفكرية وتبيح عرض ما يستجد على اساس ان البقاء للاصلح الذي ينسجم مع الخصائص العامة للثقافة التي الفها الناس . والواقع ان مثل هذه الكتابة المخالفة في بعض مفرداتها واساليب عرضها ، لما هو سائد عند الناس ومألوف لديهم ، ظهرت في بعض الازمنة في التاريخ العربي ، وخاصة ابان العهود الاولى من النقل ، غير انها لم تلق عند ظهورها القبول العام ، علماً بأن تلك الكتب كانت مخطوطة ومحدودة النسخ والاعداد ، ولا تقرأ الا في اوساط علمية محدودة ، وكان من عوامل ضيق انتشارها غرابة اسلوب كتابتها فانكمشت لتحل محلها كتابات منسجمة مع المألوف عند الناس .

## ١٣ ـ امتداد اساليب الكتابة الجديدة

ومما افسح المجال لاستمرار ظهورها قلة اهتمام النقاد المحدثين ببيان عيوبها واخطارها ، وقلة العناية بدراسة الاساليب الكتابية الواجب اتباعها لتكون نافعة ومنسجمة مع الكيان الثقافي السليم . ومن المعلوم ان اكثر اهتمام النقاد انصب على نقد الآراء والافكار ، او على مدى دقة مراعاة قواعد النحو والصرف ، او على تاريخ النقد وآراء القدماء في الكتابة .

ان هذه الاساليب متفردة لا تسير على قواعد تنظمها ، وهي متعددة بتعدد الكتاب ، ومنوعة بتنوع ثقافاتهم واتجاهاتهم ، غير ان نشرها يسّر لها الانتشار رغم غرابتها وصعوبة فهمها .

تكتب في هذه الاساليب « الجديدة » افكار منوعة ومواضيع متعددة ، وتكون ابعد في الغرابة عندما تعالج مواضيع فلسفية او اجتماعية ، وهي من حيث العموم تعرض اراء وافكاراً يعنى بدراستها في الغرب ، ففيها افكار جديدة وتحليلات طريفة عن جوانب من الفكر والثقافة التي نمت في الغرب ضمن الهيكل الثقافي العام فيه . وبعض هذه الافكار « عالمية » تعالج مشاكل تنطبق على الانسانية عامة ، غير ان بعضها « اقليمية » او « محلية » لا تنطبق الا على البلاد الغربية وحضارتها ، وان عرضها والدفاع عنها يكون مفيداً في توضيح الحضارة الغربية ، ولكنه قد لا يكون صائباً في تطبيقه على دراسة المجتمعات العربية وبذلك تكون مادة هذه الكتابات عاملاً في توضيح معالم الحضارة الغربية والدفاع عنها وفرض معاييرها على المجتمعات العربية .

## ١٤ ـ اسلوب الكتابة واللغة

ان نمو الافكار التي تعرضها هذه الكتابات في الغرب ضمن الهيكل الثقافي العام فيه ، يجعلها غير غريبة عندهم ، لأن قراءها هناك ألِفوا افكارها ومفردات اللغة التي كتبت فيها ، غير انها تبدو غريبة عند العرب ، لأن مفرداتها جديدة عليهم ، واكثرها ليس مستمداً من كيانهم الثقافي العام . وهم بسبب انغمارهم في الكتابات الغربية وضعف اتقانهم للعربية فإن كتاباتهم تجري على نمط الكتابة الغربية ، وهي كتابة مألوفة للغربيين لأنها منسجمة مع هيكلهم الثقافي وقائمة على خصائص لغاتهم التي تختلف عن اللغة العربية التي لها في مفرداتها وتراكيبها خصائص تميزها وتؤثر في اساليب الكتابة بها ، وتكسب الكيان الثقافي العربي سمة خاصة تميّزه عن الكيان الثقافي للامم الاخرى .

## ١٥ ـ خصائص اللغة العربية

فمن خصائص اللغة العربية ان الجملة فيها تبدأ عادة بالفعل ، والصيغة الاساسية للفعل هي الماضي وليس المضارع ، والغائب وليس المتكلم ، وصيغ الفعل بالعربية المفرد والمثنى والجمع ، وتقتصر على المذكر والمؤنث ، فليس فيها الصيغة الثالثة (It) الموجودة في معظم اللغات الاوروبية .

واللغة العربية لا تستعمل فعل الكينونة الا في احوال توضيحية خاصة ، وتقلل من استعمال الضمائر فتحذفها او تستعيض عنها بحروف او حركات تلحق به . كما ان ادوات الوصل والاختزال، واسماء الموصول والاشارة متعددة ومنوعة ، ويتطلب استعمالها دقة واتقاناً .

واللغة العربية اختزالية في مفرداتها وتركيبها ورسم حروفها ، فبعض الكلمات مكونة من حرف واحد كالضمائر وحروف الربط ، واقصى عدد حروف كلماتها ستة حروف ، وهي عادة لا تكتب الحركات القصيرة . واشكال كثير من حروفها التسعة والعشرين متشابهة في رسمها ولا تختلف الا بما فيها من حنيات ونقط ( ب ت ث رز د ذن ، ص ض ط ظ ، ع غ ف ق ، ج ح خ ، ك ل، م ،و،هـ) . ولهذا الاختزال فائدة كبيرة في التبسيط ، اذ انه ييسر عملية التعليم ، وقد ظل مستعملاً منذ اقدم الازمنة فأصبح جزءاً أساسياً من التراث ، ويؤدي تركه الى الاخلال بالتراث وتشويهه مما يؤدي الى نتائج خطيرة ، فضلاً عن ان البدائل مهما كانت ، فإنها تجر الى تعقيدات لا تعوض عن الخسارة عند استعمالها . غير ان هذه السمات تتطلب زيادة العناية بالتدريب على الخط ، وباتقان تعلم اللفظ الذي كثيراً ما يكون منوعاً في تصريف الافعال (يكتُب، يفتَح، يرسم، يسير)، ومن الطبيعي ان عدم تدوين الحركات يزيد اهمية مراعاة قواعد متفق عليها في ترتيب الكلمات لتؤدي الغرض المطلوب « يحترم سامي محمود . من هو المحترم ؟» .

والجملة في العربية قد تتكون من لفظ كلمة واحدة ، او من عدة كلمات تعبر عن فكرة واحدة . وحروف الربط والوصل الكثيرة فيها تيسر تكوين جملة تضم عدة افكار مترابطة ويخضع

وضعها الى طريقة الكاتب في الكتابة ولكنها اذا اريد لها ان تكون واضحة للقارىء او السامع فيجب ان تسير وفق منطق واضح يساعد على تقليل الجهد في فهم المعاني « رأيت الولد الذي قال لي الرجل الذي اعرف ان اخاه يحترمه بأنه خرج للعب » ، والواقع ان كثيراً من الكلمات تعرف تبعاً لموقعها من الجملة وممّـا يستشف من معناها نظراً لعدم وضع الحركات التي تعين على تدقيق المعاني .

## اساليب الكتابة الجديدة والهوية الثقافية العربية

ان اساليب الكتابة « الجديدة » ادخلت بعض المستجدات المقبولة على الكتابة العربية ، غير انها لم تهدف تنمية الكتابة العربية ورفدها بتعابير جديدة وانما تابعت حرفياً الكتابات الغربية ، ولم تحرص على اتباع اساليب عرض ملائمة للغة العربية ومنسجمة مع قواعدها ، فهي غريبة على من ألِفوا قواعد اللغة العربية واساليبها،وهذه الغرابة كثيراً ما تحمل القارىء على استذكار اللغة الاجنبية التي يحاكيها الكاتب الجديد لمعرفة ما يريد ان يعرضه ، وهذا يقتضي ان يبذل القارىء جهداً اضافياً لفهم ما يقرأ ، كما انها تقود الى ارغامه على معرفة اساليب كتابة اللغات الاخرى والتأثر بها .

ولما كانت مصادر ثقافة الكتاب بالاساليب « الجديدة » منوعة ، وكل كاتب متأثر باسلوب ثقافة معينة ، فإن كتاباتهم لا تسير على نمط واحد وانما تعرض انماطاً منوعة ، وبذلـك تقودنا الى متاهـات ثقافـات منوعـة ومتفرقة وليست لها سمة واحدة تجمعها ، بالرغم مما في بعضها من ابداع . غير ان جميعها تغفل الاساليب العربية المألوفة وتؤثر في ابعادنا عنها ، وبذلك تبعدنا عن التراث الثقافي الموروث المعبر عن هويتنا ، وتضعف الرابطة الثقافية القومية العامة، وتثير البلبلة ، وتعمل على تفكيك وحدة كياننا الثقافي ، وتقودنا الى تبعية ثقافية مزيفة للغرب ، وهي قد تؤدي الى التشكيك بقيمة التراث وامكان الافادة منه،وبالتالي الى رفضه فتفقدنا العنصر الاساسي المميز لهويتنا ، وقد تؤدي الى رد فعل جارف يقاوم هذا الاسلوب . وتمتد المقاومة الى التخلي عن الافكار الجديدة التي يعرضها والتي في كثير منها قيمة ونفع ، وهذا يؤدي الى رجعية جامدة مشلة .

## الكيان الثقافي والتماسك القومي

إن الثقافة هي اهم أسس وحدة الامة ومظهر هويتها عبر التاريـخ ، وان اللغة العـربية واساليب الكتابة المنسجمة مع مفرداتها وطبيعة تـركيبها تكـون العنصر الاسـاسي الجامـع لهذه الثقافة. وان هذا لا يعني الجمود على القديم ، وانما يجب تطويره بما يمكنه من مواجهة التطورات الحديثة المفيدة للامة على ان لا يتجه ذلك الى هدم الكيان الثقافي ، والواجب يقضي بالحفاظ على الصرح الثقافي الموروث والعمل على انمائه وتنشيطه وخلق الحيوية فيه .

ان الثروة المادية ، والاستقلال السياسي ، والقوة العسكرية تكون سطحية معرضة للانهيار اذا لم يرافقها كيان ثقافي سليم ، وان عماد هذا الكيان الثقافي هو اللغة بمفرداتها وتراكيبها واساليب

التعبير عنها ، وان قبول التطورات الحديثة المفيدة في تطوير الامة وانمائها وتقويتها ينبغي ان يعبر عنه بلغة عربية سليمة قائمة على الموروث النافع من التراث مع تغذيته بنسخ التجدد الذي لا يقطع صلته بالماضي ولا يناقضه ، وانما ينشطه وينميه .

إن للاسلوب المنسق الذي يعرض الافكار بشكل مستساغ يحقق الغرض ، اهمية كبيرة في تيسير فهم المقروء وفي ضمان استمرارية الثقافة والتماسك القومي .

إن الحرص على الحفاظ على سمات الاسلوب العامة القائمة على المألوف المرتكز على طبيعة اللغة العربية لا تنبعث من نزعة رجعية جامدة ، ولا تدعو الى نبذ كل ما هو جديد ، وانما يعني ان المصلحة تقضي بمعالجتها لتكون منسجمة مع السمة المألوفة التي تتميز بالوضوح وتستمد قوتها من ارتباطها بالتراث .

اننا لانطالب الكاتب أن يكون متبحراً في دقائق اللغة الغربية ، وان يكون مختصاً بمفرداتها او نقّاداً لدرجة تصرفه عن اختصاصه الفكري وانما نطلب منه ان يعنى بتوفير حد ادنى مقبول من الاسلوب السليم .

ان الحرص على مراعاة سمات عامة لا يعني الدعوة الى توحيد مطلق صلب جامد ، وانما يعني ان هذه السمات العامة تبيح التنوعات الفرعية المحلية او الفردية ، وتتسع للابداع والتجدد والتطور الى الدرجة التي لا تهدد الرابط العام وانما تقوّيه وتجعله مواكباً للتطور والتقدم .

إن التراث العربي غني وأساسي في حياتنا الثقافية ، ومن الممكن الافادة منه في تنمية ثقافتنا ورفعها الى المستوى الذي نطمح اليه لتلائم حاجاتنا الحديثة مع عدم قطع الصلة بالماضي .

إن هذا واجب ملقى على عاتق العرب وحدهم ، لأنهم مصدر التذوق ومقدرو الجرس المدركون للموروث واهميته ، وان اثره سيعود عليهم ، فإما ان يقطعوا صلتهم بتراثهم ، ويكونوا تبعية لغيرهم، واما ان يتابعوا تنمية الصرح الثقافي الذي كان ابرز مظهر لهويتهم ، واقوى عامل في توحيدهم ، واكبر اداة في استيعاب حضارتهم وفكرهم في عزّ ازدهارها واوج تألقها .

# تعقيب ٢
# ظاهرة الاستشهاد اللغوي والحفاظ على الهويّة القوميّة

نوري حمودي القيسي

- ١ -

تمثل المرحلة اللغوية التي وصلت اليها اللغة العربية في اواخر العصر الجاهلي مرحلة ارتقاء وتقارب، بعد ان اصبحت وسيلة من وسائل التفاهم العام الذي ساد الجزيرة العربية، وصوتاً موحداً للمشاعر المتبادلة، والمصالح المشتركة، والاحساس الواعي بأن العرب ينتمون الى امة واحدة، وبأن الحياة التي يعيشونها تحتاج الى اصلاح وتغيير وبأن حالة النزاع والتخاصم لا يمكن ان تستمر. وقد تجسدت هذه المشاعر وهذا الوعي في التقارب اللغوي، ونشوء اللغة الموحدة التي اخذت من اللهجات مفرداتها، فنظم بها الشعراء قصائدهم، واستخدمها الخطباء في خطبهم واقوالهم، وشاعت اساليبها في كل مظهر من مظاهر حياتهم، وتداول الناس الفاظها واساليبها، ونزل القرآن الكريم بلغة قريش التي اصبحت اللغة السائدة، فخاطب الملأ باسلوب العربية، وكانت فصاحته بيّنة، وعربيته خالصة نقية، فذكر الله جميل بلائه في تعليم الانسان البيان، وعظيم نعمته في تقويم اللسان فقال سبحانه وتعالى ﴿ الرحمن علم القرآن، خلق الانسان علمه البيان ﴾، وقال سبحانه وتعالى ﴿هذا بيان للناس﴾ ومُدح القرآنُ بالبيان والافصاح، وبحُسن التفصيل والايضاح، وهو كتاب عربي مبين، كما جاء في قوله تعالى ﴿ انا انزلناه قرآناً عربياً ﴾. فالعربية لغة القرآن، واساليبها هي الاساليب التي عبرت عن المضامين التشريعية لهذا الدين الحنيف، فكانت افصح كلام وابلغَه لفظاً واسلوباً ومعنىً ليجدَ السبيل الى امتلاك الوحدة العربية التي كانت معقودة بالالسنة، ومحسوسة بكل المشاعر التي حملت العرب على الاعتزاز بها. وفي آيات القرآن البينات يُكشفُ الستار عن عالم فكري في اطار التوحيد، وخصائص متقاربة في ظل المعتقد، واهداف سامية تجمعها وحدة المصير، وتحددُ اهدافها التوجهاتُ الانسانية الرفيعة التي تناقلت الآياتُ سورها، وتركت للاجيال في كل عصر ان تجد في ابعادها صورة من حياتها ووجها من وجوه مجتمعها، وفي حديث الرسول الكريم ما يؤكد اعتزازه بفصاحته، وفي السنّة النبوية الشريفة ما يوحي بهذا الاعتزاز والاهتمام. وعُرفَ الصحابة الاخيارُ بسعة اضّلاعهم باللغة، واحاطتهم باساليبها ووقوفهم على دقائقها وخصائصها، ومن هنا كان اهتمامهم بالشعر الغريب والنادر.

واعتبرت اللغة والصرف والنحو من العلوم التي لا يستشهد عليها الا بكلام العرب ، لأنها تمثل الحقيقة المعتمدة في التوثيق والقواعد ، وعليها ترتكز علوم العربية ، وان الحفاظ على سلامتها، والالتزام بالمقاييس التي تقاس عليها يمثلان التوجه السليم الذي يحفظ للعربية هذا الاستمرار ويؤكد لها هذا الوجود . وظاهرة الاستشهاد في اللغة حالة اوجبتها ظروف الاختلاط بالاعاجم عندما بدأت بوادر اللحن تظهر على الالسنة ، فاندفع الغيارى من الابناء الى صيانة لغتهم مما يعلقُ بها من الدخيل والغريب ، واحاطتها بسياج من الضوابط والاحكام حتى لا تتعرض لما يشين وجهها ، ويفسد اصالتها ، ولتظل نقية اصيلة ، تتمثل في جوها شخصية الامة وتُقرأ في صفحاتها حضارتها وإرثها وثقافتها ، وتتجدد في كل مرحلة من مراحلها قدرتُها على التمثل والاستيعاب والاقتدار . وبقيت اللغة تحتفظ بالهوية القومية للامة لأنها تمثل الصورة التي تجتمع حولها ،والآصرة التي تشد اطرافها ، والموئل الذي ترجع اليه ، فحملت رسالة وحدتها وظيفة واحساساً ، تعبيراً وعاطفة ، واصبحت المنطلق الحقيقي لمواجهة المشكلات المصيرية التي تعرضت لها. فهي وسيلة الامة الى العالم ، ولغة الفقه والتشريع ولغة الفكر والعلم والسياسة ، ولهذا كان اهتمام العلماء بها اهتماماً متميزاً، فهي لغة القرآن الكريم والدين الحنيف ،والاعتناء بها اعتناء بالقواعد التي اصبحت خصائص مميزة لها .

ان هذا الحرص على اللغة هو الذي حمل العلماء الاوائل وهم يجدون بوادر اللحن تظهر على الالسنة ، وبدايات الخطأ تتوسع في احاديث الناس بسبب اختلاط العرب بغيرهم ، ودخول العناصر غير العربية في المجتمع لأنهم تعودوا ـ قبل هذه المرحلة ـ ان يسمعوا اللغة سليمة ، والكلام فصيحاً ، والاسلوب صحيحاً مستقيماً . فكانت المحاولة الاولى تنطلق لتحديد موارد الاستشهاد وتثبيت المنابع الصافية التي يمكن اعتمادها للحفاظ عليها سليمة ، والوقوف على اصولها بعيدة عن الدخيل والغريب ، واضحة لكل من يريد ان يعتمد قواعدها ، ويتابع اساليبها التي لا يدخلها اللحن ، ولا يفسح المجال لما يمكن ان يخلّ بضوابطها .

إن هذا الحرص دفعهم الى التشديد في الاستشهاد ، فكان اعتمادهم على الشواهد الصحيحة هو الاساس في قبول الشاهد فقبلوه من الشعراء الذين يعتد بفصاحتهم ، واقتصروا على الشعراء الجاهليين، ورفض المتشددون منهم الاستشهاد بالشعراء الاسلاميين ، وعدّوهم من المولدين ، وهم الذين كانوا في صدر الاسلام كجرير والفرزدق ، فقد كان ابو عمرو بن العلاء وعبدالله بن ابي اسحاق والحسن البصري وعبدالله بن شبرمة يُلحنّون الفرزدق والكميت وذا الرمة واضرابهم[1] .

---

(١) عبد القادر بن عمر البغدادي ، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، على شواهد شرح الكافية ، ج ١ ، ص ٣ .

وكان الخليل لا يستشهد الا باشعار الجاهليين والاسلاميين ويترك المولّدين(٢) ، وكان ابو عمرو لا يعدُّ الشعر الا ما كان للمتقدمين(٣) . وذكر السيوطي في الاقتراح انه لا يُحتج بكلام المولدين والمحدثين في اللغة والعربية(٤) .

اما الاستدلال بحديث النبي صلى الله عليه وسلم فقد كان موقف النحاة منه متشدداً ، وذهب كثير منهم الى منعه وسندهم امران :احدهما ان الاحاديث لم تنقل كما سمعت من النبي ( صلى الله عليه وسلم ) وانما رويت بالمعنى ... وثانيهما ان ائمة المتقدمين من المِصرين لم يحتجوا بشيء منه . وقال ابو حيان في شرح التسهيل انه ما رأى احداً من المتقدمين والمتأخرين من استدل بما وقع في الاحاديث على اثبات القواعد الكلية الّا لسان العرب ، وسلك هذه الطريقة ، وان الواضعين الاولين لعلم النحو ، المستقرئين للاحكام من اللسان العربي كأبي عمرو بن العلاء وعيسى بن عمرو والخليل وسيبويه من ائمة البصريين والكسائي والفرّاء ، وعلي بن المبارك وهشام الضرير من ائمة الكوفيين لم يفعلوا ذلك ، وتبعهم على ذلك المسلك المتأخرون من الفريقين وغيرهم من نحاة الاقاليم كنحاة بغداد ، واهل الاندلس . وقد جرى الكلام في ذلك مع بعض المتأخرين ، وقال :

« إنما ذكر العلماء ذلك لعدم وثوقهم ان ذلك لفظ الرسول صلى الله عليه وسلم اذ لو وثقوا بذلك لجرى مجرى القرآن الكريم في اثبات القواعد الكلية »(٥) .

لقد كان تخوف النحاة يرجع الى ان الرواة جوّزوا النقل بالمعنى ، وان الاعاجم والمولدين تداولوا روايته قبل تدوينه فأورده بما ادت اليه عباراتهم فزادوا ونقصوا وقدموا وأخروا وابدلوا الفاظاً بالفاظ ولهذا روي الحديث الواحد على اوجه شتى وبعبارات مختلفة ، وان الرسول الكريم صلوات الله عليه قال لفظاً مرادفاً لهذه الالفاظ فأتى الرواة بالمراد ولم يأتوا بلفظه اذ المعنى هو المطلوب يضاف لذلك تقادم السماع وعدم ضبط الاحاديث بالكتابة ، والاتكال على الحفظ والضابط منهم من ضبط المعنى ، واما من ضبط اللفظ فقليل جداً لاسيما في الاحاديث الطوال ، وان كثيراً من الرواة كانوا من غير العرب ، وانهم تعلموا اللسان العربي بصناعة النحو فوقع اللحن في كلامهم وروايتهم غير الفصيح من لسان العرب . والمعروف ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان افصح العرب ولم يتكلم الا بافصح اللغات واحسن التراكيب واشهرها واجزلها .

ومثل ما وقف اللغويون من صحة الاحتجاج هذا الموقف المتشدد فإنهم لم يجوزوا الاحتجاج بشعر او نثر لا يعرف قائله خشية ان يكون ذلك الكلام مصنوعاً ، ولهذا اجتهد الشراح في تخريج ابيات الشروح وفحصوا من قالها حتى نسبوا كل بيت الى قائله ان استطاعوا ، ونسبوه الى قبيلته او فصيلته ، وميزوا الاسلامي عن الجاهلي ، والصاحبي عن التابعي ، وحاولوا ان يضموا الى البيت

(٢) ابو احمد الحسن بن عبدالله العسكري ، شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف .
(٣) البغدادي ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣ .
(٤) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٤ .
(٥) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٥ .

ما يتوقف عليه معناه ، وان كان من قطعة نادرة او قصيدة عزيزة اوردوها كاملة ، وشرحوا غريبها ومشكلها ضبطاً وتقييداً ليعمّ النفع ويؤمَن التحريف والتصحيف وليوثق بالشاهد لمعرفة قائله ويدفع احتمال ضعفه .

ان هذه الضوابط العلمية الدقيقة والمتابعات العقلية المحكمة والحرص الذاتي المخلص تؤكد شعور هؤلاء العلماء بصلتهم الوثيقة بلغتهم ، ومحافظتهم على فصيحها من الدخيل، وصونها من الغريب، وابقائها نقية عن كل ما يشين صفاءها ، ويُذهب رونقها ، ويبعدها عن اصولها التي حافظت على سليقتها وهي لا تحتاج الى قاعدة ، وعبرت عن حقيقتها باسلوب قويم وعبارة حسنة ، وقد وجدوا في الشعر العربي وهو ديوان العرب مادتهم الاولى في الاستشهاد ، وثروتهم الكبيرة التي يعتمدونها في شرح الغريب وتصحيح الخطأ وتصويب اللحن ، وفي مراجعة سريعة للشواهد الشعرية التي اعتمدها النحاة مقارنة بالآيات القرآنية تتضح لنا الحقائق الجلية التي تؤكد ان كتاب سيبويه الذي يعد اعظم كتاب شامل لمباحث اللغة والاساس الذي اعتمد عليه النحويون في شواهدهم ، وقواعدهم ، واصولهم ، قد استشهد بأكثر من الف شاهد شعري ، في حين نقل شواهد القرآن حتى لتصل الى ثلاثمائة وسبعين شاهداً ، وما يقال عن كتاب سيبويه يقال عن كتاب المقتضب لابي العباس المبرد وهو من كتب النحو القديمة ، والاصول المعتمدة والمباحث الرائدة في هذا الميدان[٦] ، وان الاحصاءات الدقيقة التي تقدمها كتب النحو تؤكد ان الشعر الجاهلي يأخذ المكانة الاولى في الاستشهاد ، لأن الاجماع على صحته حاصل ، والوثوق من صحة روايته مسألة لم يعد فيها مجال للشك، او احتمال للمناقشة ، بعد ان احيطت روايته بسياج من الدقة وخضعت اصوله لموازين النقد السليم والمحاجة المنطقية المقبولة .

- ٣ -

ان عوامل الربط المحكم بين اللغة والحس القومي ، وبين الحرص على سلامتها والشعور بالانتماء الى مفرداتها تؤكد ان العمق التاريخي لهذه اللغة قد امتد في نفوس العرب حتى اصبحت صورتها في نفوسهم هي الصورة التي يُعبرون عنها في كل مظهر من مظاهر حياتهم ، وهي اللون الفكري الذي يستطيعون من خلاله ان يوحدوا انماط تفكيرهم وفق الصياغات التركيبية والتوافق الصوتي والتآلف الصوري الذي يشد بين المعنى واللفظ. وان الابعاد التاريخية التي استطاعت ان تحكم هذه الصياغة والامتداد الحضاري الموغل في القدم الذي رعى هذا الحس لم يكن وليد فترات قريبة لأن بناء اللغة واكتمال تركيبها ، ووحدة التوافق لم يكتب لها ان تصبح في فترات زمنية قريبة او مدد محددة كما تذهب بعض النظريات اللغوية وهي تحدد عمر لغتنا العربية .

ان محاولة لدراسة الرابطة الاساسية التي تشد بين اللغة وحسها القومي وبين الشعور بالانتماء والحرص على سلامتها تؤكد الصلة الوثيقة والتفاعل المستمر بين هذه الاطراف وهي دعوة لتقويم الدراسات اللغوية التي ظلت تدور في نطاق التأثر الوهمي الذي تبنته الدراسات التقليدية وهي

---

(٦) انظر : عبد الجبار النايلة ، الشواهد والاستشهاد في النحو ، ص ٣١٦ .

تعتمد المقولة الجاهزة ، وتبعد عن الحس الذي يشد بين اللغة والناطقين بها ، والانتماء الذي يدفع المؤمنين بها الى صيانتها والتعلق بها والحفاظ على كل القواعد التي تحمي وجودها وتحقق رسالتها .

فالحديث عن اللغة لا ينفصل عن الحديث عن دالة الفكر العربي ، لأن اللغة تمثل السبيل لاستكشاف دواخل الامة ، فمن خلال الفاظها تعبر عن كوامن الاحساس بالمواطنة والشعور بالصلة ، والتوافق بالمشاعر ، وهي من اقوى عوامل الوحدة والتضامن بين ابناء الامة الواحدة . فهي القادرة في كل احوالها على تحويل الانسان الى كائن اجتماعي يتحسس الواقع ، ويستشرف الخصائص المميزة التي تكمن في كل اشارة من اشارتها ودلالة من دلالاتها. وقد وجد فيها العرب منذ اقدم العصور ، كغيرهم من الاقوام ، صفة الملازمة للفرد في حياته وتسربها الى اعماقه حساً ووجداناً ، وتوغلها في تضاعيف نفسه لتعبر عن ادق خطراته ورغباته ، وهي بالتالي تجعل من الامة الناطقة بها كلاً متماسكاً ومتراصاً ، تحكمه قواعدها واصولها ، وتوحد تفكيرهم اساليبها وطرائقها . ومن هنا اصبحت اللغة تمثل الرابطة الحقيقية التي توحد بين رغباتهم ومطامحهم وعاشت في اذهانهم فكراً واملاً وحياة .

ان حرص العرب على لغتهم ينطلق في كثير من اسبابه من الصورة الجلية التي تحدد السمات المتميزة للانسان العربي ، وما يتخلق في نفسه ، من هواجس ، وهو يختار من اللغة ما يوافق كل خافقة من خوافقه ، ويعبر عنه من افكار ، وينطق به من مشاعر واخيلة لأنها الوسيلة التي يفكر بها ، والاداة التي يمتلك من خلالها حسه الجماعي وهو في كثير من حالاته يعمد الى تعقيل الوجود عن طريقها . ومن هنا كانت لمسة الفكر وفيها لمسة النوازع والهواجس ، ولمسة المخاوف والمطامح ، ولمسة الاحلام والذكريات ، ويتجلى في حروفها وتراكيبها ، صورة ابداعه وقدرة اختياره وروعة اسلوبه البياني الذي يعطي الفكرة حقها ، والاحساس تصوره ، والمشاعر رقتها حتى اصبحت الفكرة الماثلة في كل قضية من قضاياها تعني الحضور الوجداني والروحي . وهو يتخلل اجزاءها المتداخلة في بنية الالفاظ وتراكيبها التي لا تنفصل بأي حال عن الذهن ، فتقرأ في مفرداتها تجارب الامة وصور الماضي بكل احداثه ، وتستعاد في معانيها اخبارها وتُرى في صورها عظمة الاعمال الخالدة ، وعبقرية المبدعين الافذاذ ، الذين تركوا في كل حركة من حركاتها ما يوحي بوفائهم لأمتهم ، ويؤكد حبهم للغتهم ، وايمانهم بأنها الوحدة التي تلتقي في رحاب قدرتها كل المطامح وتنطلق في نبرات حروفها كل الاصوات التي تجمع المؤمنين برسالتها في الحياة . فتصبح حلقات الثقافة متصلة ، ويزداد تراث الامة في اغنائها ثراء ، وتشعر الاجيال بأنها تتقاسم هذا التراث بناء وتشارك في رفده عطاء وتفاعلاً لأن الامة تستطيع ان ترى في هذه اللغة اشراقة كيانها تتعاظم ، وتدرك اسرار ما يحيط به من عوامل وما تتمخض عنه ذاتها وهي تواكب المسار المستديم لكل مرحلة من مراحلها حتى اصبحت اللغة صورة فذة لا يدانيها اثر على الاطلاق لأنها تكشف عن عالم فكري موحد في اطار اسلوبها الذي تحكم صوغه قوانينها المحكمة ، وتوحد اصالته تراكيبها التي نمت في ظل استعمالاتها وتوافق دلالتها ومعانيها .

# المناقشات

## ١ ـ عبد الرحمن التكريتي

تفضل د. سعدون حمادي وفتح الباب حول فشل الامة العربية في الفترات الاخيرة . اذا استعرضنا العراق نجد اننا دخلنا امتحانين : امتحان ١٩٤٨ وامتحان ١٩٨٠. فشلنا في الاول والآن نجحنا . والسبب ان الاول كان اعتباطياً وعاطفياً ، اما الثاني فمدروس . الجيش العراقي يقاتل بكل صرامة واقدام وبسالة ورجولة . فهذا ان دل على شيء فإنما يدل على هذه الاستمرارية والقدرة على استيعاب المعركة . ونعود للحركات الاخرى في الساحة العربية فنبدأ بالجزائر . لماذا نجحت الثورة الجزائرية؟ لا بد للذي يدرس ثورة الجزائر من ان يعرف ان هذه الثورة اعتمدت على الوحدة في القتال ، والوحدة في الرأي ، والوحدة في الاساليب ، وكل شيء . وأعطوا تقريباً مليون وربع المليون شهيد . ومن قاتلوا؟ قاتلوا فرنسا ونجحوا ، وحصّلوا حقهم . وهذه معجزة نفتخر بها على الدوام . ودائماً نستأنس بآرائهم وافكارهم . ونعود للمعركة التي فشلنا فيها وهي فلسطين . والعرب كلهم اتخذوا فلسطين الوطن الافضل لمعاونته، ولكن مع الاسف الشديد ان سبب فشل الحرب منّا نحن العرب. نحن لم ندرس موضوع اسرائيل دراسة موضوعية ، وانما اخذنا نتخبط .

## ٢ ـ محمد جميل شلش

تعليقي قصير جداً على نقطة واحدة في بحث د. الفيتوري ، حيث جاء في بحثه ان العامية واحدة وفي الحقيقة لم افهم هل كان يقصد ان العامية واحدة في القطر الواحد ؟ العامية التونسية او العامية العراقية . . . الخ ، ام ان العامية في كل الاقطار العربية هي عامية واحدة؟ في رأيي اذا لم يكن يقصد الفهم العام للعامية وعلاقتها بالعربية الفصيحة ، فإن العامية عاميات : ففي تونس ـ على مستوى اللفظ والكلمات ومعاني الكلمات والمضامين والاغاني الشعبية وكثير من الاحاديث ـ الكلام العامي يختلف . والعراقي يجد صعوبة كبيرة في فهم بعض الكلمات اذا لم يتعود عليها

ويفهمها . لقد اقمت في تونس ما يقارب سنة ونصف ، واختلطت بأوساط كثيرة ولكني ظللت اشهراً عدة حتى فهمت ما هو المقصود بمفهوم « منا برش ناس في القاعة » . ربما كثير من الاخوان لا يفهمون بسهولة هذه الكلمات ، ثم كلمات « الدلاع » و« الكناوية » و« الفقوس » و« البوساع » . . . الخ ، مما يعرفه د. الفيتوري . هذه كلمات وامثالها كثيرة في اللهجة العامية التونسية ليست فقط صعبة على العراقي او على غير التونسي ، وانما هو لا يفهمها الا بعد ان يعرفها .

وفيما يتعلق بالاغاني الشعبية ، لدي الآن اشرطة منها كالمألوف الذي يعرفه د. الفيتوري وهو مشهور ، اسمع بعض الاغاني والى الآن لا افهمها بشكل جيّد ، مع انني تعودت سماعها مراراً . وكمثال مقابل على ذلك ، مرة زارنا بالعراق الاستاذ سمير العبادي وهو من الادباء وكتاب القصة المعروفين ، وتعمدت ان اذهب به الى مسرحية باللهجة العراقية العامية ، وهو من كتّاب القصة كما اعرف . فوافق على ذلك بشوق ، وبعد حوالى ساعة من المشاهدة اشار علي بالخروج وقال لي : حتى الآن لم افهم كلمة واحدة مما يدور على خشبة المسرح . وعندنا في العراق من الصعب القول ان العامية واحدة . نحن في بغداد مثلا لا نفهم لهجة اهل تكريت بسهولة ، وحتى اللهجة الموصلية لا نفهمها كلها بسهولة . « قفي حوافي » يمكن ان يفهمها اخ من الموصل . لكن ما معنى « قفي حوافي » بالنسبة للبغدادي او بالنسبة لغير الموصلي؟ إن اعتبار العامية واحدة ، مسألة تحتاج شيئاً من إعادة النظر .

### ٣ ـ احمد حسن حلمي

لدي استفسار اود استيضاحه من د. الفيتوري . إن العامية احياناً لا تبتعد عن الفصحى ، وانا اعرف ان العامية لا تتقيد بقواعد مطلقاً .

المسألة الاخرى هي معرفة إن كانت العامية نمطاً واقعياً ام هي تحد للغة الفصحى .

### ٤ ـ عبد العزيز البسام

ما استمعنا اليه من كلام د. الشاذلي الفيتوري هذا المساء انما هو قبس قليل من دراسات مستفيضة متعمقة ، قام بها في دراسة ظواهر اللغة والثقافة وتصادمها ، بحيث اصبح الآن حجة عالمية في دراسة هذه الظواهر . وكتابه منشور حديثاً في سلسلة معروفة بأنها ضمت اعلام علماء النفس الفرنسيين . وهو الآن ثابت في هذا المجال كحجة عالمية .

وواضح ان الكتابة في موضوع اللغة وازدواجيتها يدل على اتقان للمنهجية العلمية وتطبيق لهذه المنهجية على ظواهر عربية اسلامية ، في مجتمعات عربية اسلامية ، والوصول الى نتائج مختلفة بعض الاختلاف عمّا وصل اليه بعض العلماء في علم الاجتماع وفي علم النفس . فهذه هي الظاهرة التي ينبغي ان نبشر بها وندعو لها ، اي استعمال المنهجية العلمية في دراسة ظواهرنا والكشف عنها . ثم تبقى « مسألة العامية » ، وملاحظاتي عنها موضع تساؤ ل بدءاً بالاستاذ محمد جميل شلش ود. احمد حقي الحلي .

ود. الفيتوري على حق فيما قاله حول المسائل النسبية ، لأن العاميات في البلاد العربية تختلف كثيراً عن العاميات في كثير من اللغات الاوروبية لاسباب متعددة. منها ان تلك اللغات لغات مهجنة متعددة الاصول ، فبعض عامياتها يختلف باختلاف اصولها الاولى في حين ان العربية ذات اصول واحدة . لكن ما هو اقوى من ذلك اثراً هو اعتماد العاميات على لغة القرآن وعلى لغة الحديث، واستمرار هذا الفيض المتصل من لغة القرآن ولغة الحديث في التأثير على عامة الناس على مر العصور، مما حفظ للعربية الفصيحة مكانتها في النفوس وقرب الى حد كبير بين العاميات وبين الفصحى ، ومع ذلك يظل هذا الفرق . د. الفيتوري في احدى عباراته يقول لا خشية على العربية الفصيحة ، وهو على حق في ذلك . لا خشية على العربية الفصيحة لوجود القرآن ولوجود الحديث ، لكن الخشية ليست على اللغة وانما على المتعلمين انفسهم . اننا نريد لهؤلاء المتعلمين ان لا يحرموا من هذه الاداة القوية ، من هذه اللغة الفعالة في تهذيب النفس وفي تهذيب الاخلاق ، وفي تنمية الشخصية . نريد منهم ان لا يفرطوا في التعود على العاميات من ناحية ، وانما ينهلوا من مناهل الفصحى لكي يستفيدوا بما فيها من قوة ومن تأثير ومن دقة في التفكير في سائر المجالات . كما نريد فعلياً ان نعتمد الفصيحة لأنها الرابطة القومية التي يجتمع عليها ابناء العربية . واعتقد ان مثل هذه الافكار تقرب بيننا وبين د. فيتوري في هذه الملاحظات فهو سوف يوضح بعض هذه المسائل توضيحاً يجعلنا على ثقة من اننا متفقون في الامور الاساسية.

**٥ ـ حامد ربيع**

في التعامل مع مشكلة اللغة ، اعتقد ان الفكر المعاصر او العلم المعاصر استقر على ان تحليل اللغة يجب ان ينطلق على الاقل من ثلاثة ابعاد :

**البعد الاول** ، وهو ما يسمى بتعدد المسالك بمعنى ان تحليل اللغة يجب ان لا يتم من منطلق ليس لغوي فقط ، وانما سياسي واقتصادي وتاريخي ايضاً . . . الخ . حتى علم الاقتصاد اضحى يعرف اليوم ما يسمى باقتصاد في اللغة ، سواء اخذت على انها علم مستقل او فرع من فروع « الايكونومكس» او « اكشن » او اقتصاد الحرب .

**الناحية الثانية** ، ان اللغة يجب ان تخضع لتحليل مزدوج ، اي لتحليل جزئي وتحليل كلي .

**والناحية الثالثة** ، هي المنهاجية السلوكية . هذه الملاحظة ، او هذه الناحية العامة ، او هذا المنطلق المنهاجي ، يوضح بعض الملاحظات التي يجب ان نعلق بها على ما سمعته في هذه الجلسة وما سمعته ايضاً في الصباح ، ولو في جزء محدود .

**الاولى** ، وهي المتعلقة بالعلاقة بين اللغة والوعي القومي ، تطرح بمعنى مختلف في علم السياسة المعاصر ، ولا تطرح بالمعنى التقليدي الذي طرح وسمعناه اليوم من حيث الحديث عن العلاقة بين القومية واللغة ، على اساس هل وحدة اللغة تبرر القومية ، ام وحدة الدولة ، ام لا ؟

الواقع لو القينا نظرة على اي برنامج عادي ، نجد في النظرية السياسية المتقدمة فصلاً كبيراً

بعنوان العلاقة بين اللغة والسياسة . من هذا المنطلق تثار العلاقة بين اللغة والقومية . ولذلك ، بهذا المعنى ، نجد اكثر من مدخل واحد، اكتفي لضيق الوقت بذكر بعضها .

المدخل الاول هو **نظرية التطور السياسي** ، يتناول وضع اللغة من التطور السياسي . وكما ان اللغة قد تفرض الوحدة ، قد تفرض التجزئة . والمثل في هذه اللحظة الذي يذكر بهذا الخصوص هو ما يحدث في جنوب فرنسا باسم حركة « الكُرس» . والمدخل الثاني ، ان هناك ما يسمى **بحدود السياسة القومية** . ومعنى ذلك هل الدولة من حقها في مجتمع به لغات متعددة ان تفرض بالقوة والاكراه سيادة لغة واحدة ام لا ؟ هذا موضوع يثار اليوم في اسرائيل ويعتبر احدى النقط الحاسمة في التفكير الصهيوني المعاصر . المدخل الثالث ، ما يسمى **بنظرية الاستعمار الجديد**، ومعنى ذلك محاولة ادخال نوع من التنافس الداخلي بين اللغة القومية ، ولغات اخرى محلية كوسيلة لإضعاف التماسك القومي وهو ما يحدث هذه اللحظة في شمال افريقيا من خلال تشجيع حركة البربر واللغة البربرية والحضارة البربرية . المدخل الرابع ، وهو ما يسمى **بنظرية القيم القومية** ايضاً، احد مداخل فهم القيم القومية . نظرية اللغة تعتبر ان اللغة ليست مجرد رموز والفاظ كما فهمنا حتى الآن، وانما هي منطق وفلسفة وفكر ـ كما قال د. نوري القيسي في كلمة سريعة وعابرة.

**الملاحظة الثانية**، هي المتعلقة بمعنى اللغة. اللغة ليست مجرد الفاظ او تعبيرات او رموز علماء اللغة . وانا هنا اتحدث بوصفي عالماً سياسياً . من هذا المنطلق يقولون بأن اللغة تشمل اربعة اشياء في آن واحد . هناك اولاً ، توصيف للاشياء ؛ ثانياً ، تحديد المفاهيم والمدركات ؛ ثم هناك ثالثاً ، ما يسمى بمنطق التعامل مع اللفظ ؛ ثم هناك رابعاً ، نظام للقيم يعبر عن ذاته ، مثال منطق الفكر التام .

الناحيتان الثالثة والرابعة لم يتعرض لهما الفكر العربي حتى هذه اللحظة . الا ان د. لويس عوض منذ عامين كان قد نشر كتاباً مشهوراً عن نظرية اللغة ، صدر في مصر . واكتفي بأن اذكّر حضراتكم ببعض المؤلفين بهذا الخصوص كالعالم الصهيوني المشهور التونسي الاصل ( بطــي ) وله كتاب مشهور جداً اسمه (The Arab Mind) ، والعالم الآخر الامريكي ( لافين ) له ايضاً كتاب مشهور صدر منذ عدة اعوام باسم (The Arab Mind) . يعتبر كلاهما ان اللغة العربية لا تملك منطقاً للتعامل ، بل ان منطقها منطق فكر . ولافين ينتهي الى القول ، واعتمد هنا على الذاكرة : « ان علينا عندما نتعامل او نتحدث مع العربي بالصبر ، علينا ان نستمع ، وعقب ان ينتهي العربي من كلامه ان نعيد تركيب ما قاله لنستطيع ان نفهم ماذا قال » . كل هذا لا شك في انه مبالغ فيه وانه يتضمن نوعاً من التحيز والتشويه ، ولكن آن لنا ان نواجه هذه الاشياء ، وان نواجهها بمنطق وبلغة تستطيع ان ترد على هذه الادّعاءات . الواقع ان اللغة العربية منطلق للفكر ونظام للقيم الجماعية ، وهذا لم يحدث حتى الآن من جانب العرب .

واصل الآن الى الناحية الثالثة وهي الناحية السلوكية والتي اشار اليها بسرعة د. الفيتوري الذي اهتم بالنواحي النفسية ، ولكنه وقف عند المدرسة التقليدية التي اضحت اليوم مدرسة عفّى

عليها الزمن . فالمدرسة السلوكية تنظر الى اللغة على انها رد فعل لمنبه تفاعل مع جسد ، وعبّر عن ذاته بطريقة لاشعورية تراكمت فأضحت شعوراً ، وسلوكاً له صفة « سترتاي » وانتقل في لحظة معينة لتصير «Group Mind» ، هذا نحن الذي نريده . وعندما نكمل هذا يبقى لنا وضعنا بأنه الفكر المتخلف . نحن نريد ان نأخذ من كل النواحي المدرسة السلوكية التي هي مع « واطسون وبافلوف » ؛ ومدرسة « البوست فيترميل » التي هي اليوم سائدة في الفقه الامريكي ، بغض النظر عن اهميتها . لكن هذا المستوى الاخير الذي يعيش فيه التحليل السلوكي والذي يجب ان ننطلق منه ، او على الاقل ان ندخله في الاعتبار لا يعطي للمدرسة الفرنسية اي قيمة اليوم . ليست هناك مدرسة فرنسية في التحديد السلوكي . اين تحديد سلوك المدرسة الفرنسية؟ اريد ان يذكر لي احد اسم واحد له قيمته في المدرسة الفرنسية في التحديد السلوكي . المدرسة السلوكية إما امريكية او روسية . والعالم اليوم في هذا الخصوص ليس محتاجاً للتفصيل . وهذا يأخذني الى ملحوظة اخيرة جانبية سمعتها ايضاً من د. الفيتوري ، متعلقة بتعدد اللهجات كنتيجة للمستوى الثقافي . الواقع ان تعدد اللهجات حقيقة قائمة لكن ليس نتيجة المستوى الثقافي ، وانما نتيجة عدم تجانس المجتمع . عدم التجانس هو الاصل الذي يترتب عليه تعدد اللهجات . اختلاف العادات ، حتى اختلاف «الموضة» في الداخل، في الامثلة التي تذكر بهذا الخصوص التي منها تعدد اللهجات .

## ٦ ـ كامل البصير

تعليقي يختص في جانب من البحث القيم الذي قدمه د. احمد مطلوب ، وهو ما تناول فيه خاصة رئيسية من خصائص اللغة العربية ، الا وهي تعبيرها عن وحدة الامة العربيـة والكيان القومي العربي الموحد . الحقيقة ، هذه الخاصية تتعلق تعلقاً مباشراً بهذه الندوة لذلك ارى انه لا بد من الاهتمام بجانبين استكمالاً للصورة : الجانب الاول هو ان في التاريخ العربي مرويات تشير الى تنوع اصل القومية العربية . هناك ما يقال له عربية عاربة وعربية متعربة وعربية مستعربة . وهناك مقولات تنسب الى هذا النحويّ او الى ذلك اللغوي ، من امثال ما نسب الى ابي عمرو بن العلاء من ان لا لغة حمير كلغتنا ولا عربيتهم كعربيتنا . كذلك لا بد من ان اشير الى بعض الدراسات اللغوية والادبية المعاصرة التي استندت الى هذه المقولة والى تلك الروايات ، كما فعل مرغليوث وقلده د. طه حسين ، فأضيفت الى ذلك كله قضية نحل الشعر العربي قبل ظهور الاسلام . كذلك ايضاً ما نرى ونسمع من تبرير علمي في ظاهره وذي قصد خفي في باطنه من ان العاميات القائمة في الوطن العربي هنا وهناك لها اصولها القومية المتميزة كالفينيقية والفرعونية وما الى ذلك . فهذا جانب سلبي تؤكده هذه الاشاعات .

كنت اتمنى ان ينال هذا الجانب حظه من الدراسة والاظهار لكي نأتي الى الجانب الثاني الذي ينقضه ، وهذا الجانب الذي ينقصه كثير ولا شك . ولكنني احب ان اشير الى القرآن الكريم الذي وصف عربية اللغة العربية في اثني عشر موضعاً ، ولم يشر القرآن الكريم الى جمهورية اللغة ولا عدالية اللغة ، وانما اشار الى وصف موحد هو قومية اللغة العربية . كذلك ان للقرآن الكريم منهجية خاصة في تجسيد اللغة العربية اداة موحدة للامة العربية . هذه المنهجية في الواقع ، يمكن

الاستفادة منها ، كما يمكن الاستناد الى كتاب لغات القرآن المنسوب الى ابن عباس ، والى مسائل نافع بن الازرق وغير ذلك ، من المصادر التي هي غير مجهولة من د. احمد مطلوب .

كان لا بد من اظهار هذه المنهجية لدحض الجانب الاول ، وللخلوص بنتيجة تؤكد ان خاصة اللغة العربية لغة موحدة للامة العربية ، وموحدة لكيان القومية العربية منذ ذلك العصر ، الحقيقة لا مراء فيها .

## ٧ ـ جميل الملائكة

تعليقي على نقطة ذكرها د. احمد مطلوب في بحثه تتعلق بالاصطلاح العلمي . يقول كانوا يعربون البادئة بساكن حرّكوه . اقول صحيح انهم كانوا احياناً يفعلون ذلك ولكن يبدو انهم كانوا في الاكثر يبدأونه بهمزة بدلاً من تحريكه، يقولون « إسبرطة » في «Sparta» و« إسباني » في «Spanish» و« افلاطون » في «Platon» ، ومثل هذا كثير. على كل حال نحن الآن لا نزال نتبع هذا ، فمثلاً تقول غرام لوحدة الوزن ولا تقول إغرام ولا تقول غِرام ، وهذا ايضاً اصبح كثيراً . فهذه كانت قواعد قديمة اصبح من الصعب اتباعها في الوقت الحاضر .

تعليق آخر حول موضوع معاني حروف الجر . بالحقيقة موضوع حروف الجر هو ان معانيها متداخلة في استعمالاتها حتى في القرآن الكريم .

## ٨ ـ عادل البياتي

اجد ان البحث الكبير الذي استمعنا الى موجزه للدكتور احمد مطلوب في بعض خصائص العربية ، يجد امتداده وتكامله في تعقيب د. نوري القيسي حول ظاهرة الاستشهاد اللغوي والحفاظ على الهوية القومية . اننا نلمس التكامل بين هاتين القضيتين في عدة حالات . الحالة الاولى ، عندما نسأل انفسنا : هل وعى العرب واقعهم القومي عندما وعوا واقعهم اللغوي؟ هنا تطرح نظرية قدماء العرب في قضية اسماعيل ابي العرب ، ولفظة العرب وعلاقاتها بالوضوح والفصاحة والإبانة ،وما يرافق هذه الاشتقاقات . الحالة الثانية ، عندما تبدأ هذه الخصائص تبدو غريبة عن اللغة ، فيضعف الحس القومي . ان الحرص الاكبر كان منصباً على ان تبقى اللغة على اصالتها لتبقى الامة على اصالتها ايضاً . ولكننا لم نصل الى المحصلة النهائية : أكانت اللغة تتأثر بالنهوض القومي ، ام ان العكس هو الصحيح؟ لاسيما وان د. نوري اشار الى عبقرية اللغة في العصر الجاهلي وان هذا النهوض اللغوي ادى الى نهوض قومي فيما بعد ، وكان من اكبر ارهاصات الاسلام . فالعرب كانوا يتمتعون بحضارة انسانية ومدنية عمرانية ، الى جانب حضارة لغوية كبيرة ادت الى الاولى،او انهما كانتا تتفاعلان متكافئتين . الحالة الثالثة ،يدخل فيها الاسلام عنصراً فاعلاً في اللغة العربية والوعي القومي . لقد كانت اللغة والقومية قبل ان يكون الاسلام ، فلما جاء الاسلام ازدادت اللغة نصاعة واصالة، والقومية اشراقاً وانسانية . هذه القاعدة هي المفهومة دائماً لدى اوائلنا ، وحتى اواخرنا . وإن بدا لنا ان الاستعمار بكل اشكاله الامبريالية والشعوبية يحاول ان يضرب الاسلام ، او يلوح للاسلام بالقومية العربية اذا نشط الحس القومي ، او بضرب

القومية العربية بالاسلام اذا حصل العكس ..وهذا واضح في ايامنا القريبة، وبخاصة التجربة التي اشار اليها د. سعدون حمادي صباحاً بين سوريا والعراق ومصر ، وفي نهاية القرن الماضي مع دولة الرجل المريض ، عندما لوح لها ايضاً بالقومية العربية لما بدأت دولة الاسلام تتسع . وهذا كله متأتٍ من الفهم الجدلي المعكوس لعلاقة اللغة بالوعي القومي وبالدين . لقد فهمت شعوب كثيرة في زمن متقدم جداً قضية التعريب وفق هذه الجدلية ، فوجدوا ان التعريب في مصلحتهم فانتشر ، ولم يؤثر على قومياتهم ، مع انهم من قوميات غير عربية .

وافادتنا محاضرة د. سعدون حمادي وافاضت في هذا المجال . وهذا المفهوم كان قد لّمح اليه د. احمد ود. نوري وكنت اود ان أراه واضحاً وبشكل اكثر علمية وموضوعية واتساعاً ، لأن موضوعهما كان يتسع لهذا المجال .

## ٩ ـ واجدة الأطرقجي

لديّ تعليقان حول ما تفضل به المحاضران مساء هذا اليوم . التعليق الاول حول ما تفضل به د. احمد مطلوب في خصائص اللغة العربية . في الحقيقة اللغة العربية عبقريتها في خصائصها . وان المتمعن في اللغة العربية ليجد خصائص نادرة تبعث على الاعجاب الذي قد يصل احياناً الى حد بعيد ، حتى قال الاوائل ان اللغة العربية تفعل فيهم فعل السحر . ان في اللغة العربية اموراً كثيرة وحالات عديدة تثير هذا الاعجاب ، من ذلك الاشتقاق ، والترادف ، والنحت ، وغيرها . ومن ذلك الدلالات الكبيرة التي تدل عليها اصوات الكلمات واصوات الحروف والفاظها على المعاني . وفي هذا المجال بالذات افرد ابن جنيٍ فصولاً في دلالات الحروف على الاصوات ، او دلالات الاصوات على الصفات والمعاني . مثلاً : ذكر ان حرف الغين في « غام» و« غاص » و« غار » و« غابة » و« غاض » . . . الخ ، يدل على الاختفاء ، وينتقل هذا الى صيغة اخرى كما مثلاً في « غرق » و« غمر » و« غفى » و« غمض » و« غمق » و« غرس » و« غلق / وغلط » و« غرم » . . . الخ ، من الافعال التي مجرد ذكر حرف الغين فيها يدل على الاختفاء . كما ان حرف النون والباء يدلان على الصعود من اسفل الى اعلى كما في « نبه » و« نبر » و« نبش » و« نبض » و« نبع » الى غير ذلك من هذه الافعال التي تدل ايضاً اصوات جرسها على معناها . ان هناك كثيراً من الكلمات في مثل هذه الصفة .

إن علماء اللغة والباحثين فيها قد ابتعدوا بعض الشيء عن اضفاء الجمال على ما يقدمونه لعامة الناس وللمطلعين على اللغة العربية . فحبذا لو قام الباحثون في اللغة بعرض فصول ومقالات ودراسات سهلة المتناول ، شائعة جذابة بعيدة عن التكلف ، وبعيدة عن الدخول في قوالب جامدة نظرية وقاعدية . هذه النقطة ارجو ان تؤخذ بنظر الاعتبار وان يعمل الباحثون على ممارستها لاثارة الاعتزاز باللغة والتعلق بها .

التعليق الثاني حول ما تفضل به د. الشاذلي الفيتوري ، وفي الحقيقة لقد كان بحثه ممتعاً جداً وقد انتبهت الى تفاصيله بكل جوارحي لأني وجدت فيه جدة واموراً حديثة . لقد اعجبني في

هذا البحث انه شبّه اللهجة العامية بنمط واقعي وطبيعي ، فاللهجة العامية تكاد تشبه الحياة الطبيعية التي نحياها في بيوتنا بعيداً عن الرسميات والروتين ، لا قيود فيها ولا تكلف ، حياة بسيطة . اما اللغة الفصيحة فهي شبيهة بالمظاهر الرسمية التي نظهر بها امام الناس في جلوسنا وقيامنا ، لباسنا وكلامنا ، وغير ذلك . هذا التشبيه واقعي بالفعل . وايضاً وقفت عند قوله ان اللهجة العامية لا يمكن ان تنقطع تماماً او تبعد كل البعد عن اللغة العربية الفصيحة . ان اللهجة العامية هي لغة فصيحة الا ان هناك بعض القضايا التي ادخلت عليها ، والامور التي اضيفت اليها من إمالة واضافة بعض الحروف وبعض القضايا التي ابعدتها شيئاً ما عن اللغة الفصحى. ولهذا فإن الدعوة الى النهوض من اللهجة العامية الى اللغة الفصيحة بخطوات متقاربة وبدون ان يشعر المتعلم ، خاصة الطفل ، في بداية دراسته ، امر يجب ان نأخذ به في تدريسنا لاطفالنا في المدارس .

امر آخر جذب نظري في بحث د. الشاذلي وهو انه تفضل بالقول انه لاختلاف مستويات العامية احياناً تبدو اللهجة العامية عند المثقفين ارقى وافضل من اللهجة العامية لدى غيرهم . الا انه عندما تحدث عن النساء قال ان اللهجة العامية عند العاميات من النساء افضل بكثير منها عند المثقفات . وهذه مسألة بحاجة الى توضيح .

## ١٠ ـ ياسين خليل

لي بعض التعليقات الفنية القصيرة . اولاً ، حول بحث د. احمد مطلوب ، ذكر ان اهم خصائص العربية ثبات اصوات الحروف . واعتقد ان هذه خصيصة موجودة في كل لغات العالم وليست مرتبطة باللغة العربية وحدها . ثم جاء باقتباس بعد ذلك قال فيه ان العربية « تشتمل على جميع الاصوات الانسانية ومخارجها » . بالحقيقة انا لا اتفق معه في هذا . الافضل ان يقال ان السعة الصوتية التي يتيحها الحرف العربي ، او الصوت العربي ، تؤهل الناطق بالعربية لإجادة النطق بحروف اللغات الاخرى جميعها .

نقطة اخرى مهمة جداً كنت اود ان يفيض فيها د. مطلوب هي خصيصة اللغة العربية في القلب والابدال . وبالحقيقة تنبه الى هذه الخصيصة المهمة الخليل بن احمد الفراهيدي في معجمه ، وتعتبر في الوقت الحاضر في علوم اللغة وخاصة في علم اللغة الرياضي من اهم الخصائص ، على اساس انها تؤلف «logarithm» او « خوارزمية » لغوية ، بالامكان ان نشتق منها جميع الكلمات المستعملة والمهملة في اللغة العربية .

ولدي ملاحظة على ما جاء في بحث د. الفيتوري . في الحقيقة المشكلة هي ليست فصحى وعامية . الفصحى قائمة والعامية قائمة لكن المشكلة الكبيرة هي الدعوة الى اشاعة العامية بدل الفصحى . وهنا خطر سياسي يهدد الوحدة العربية بالصميم ، ويؤدي الى التجزئة . وجدنا بعض الكتب التي ألفت في الحقيقة بالطبع من اساطين يدعون الى هذا القول ، على اساس انه يجب ان تكون هناك لهجة لبنانية تكتب بها الكتب العلمية ، وآداب لبنانية . . وما الى ذلك . وكذلك

لهجة سورية . . . الخ . فالدعوة خطيرة . اما العامية فقائمة في كل انحاء العالم ، للغة الانكليزية عامية ، وللغة الالمانية عامية. هناك عاميات في اللغة نفسها ، او في مناطق جغرافية متباعدة ، وبسبب ذلك تباعدت اللهجات . وعندنا دراسات جغرافية لغوية تثبت هذا القول .

هناك ثلاثية كنت اود من الدكتور الفيتوري ان يؤكد عليها . الثلاثية هي القرآن والعربية الفصحى واللهجة العامية . قد لا يكون بين النصرانية وبين اللاتينية اي صلة ، ولكن الصلة وثيقة بين القرآن والعربية الفصحى . العربية الفصحى عندما نسمعها نحن دعاة القومية يتبادر الى ذهننا الوحدة العربية . وعندما نسمع اللهجة العامية يتبادر الى ذهننا التجزئة الاقليمية . فكل قومي وحدوي حريص ان يبعد عن طريقه جميع الشوائب التي يمكن ان تعرقل طريق الوصول الى الوحدة ومنها اللهجة العامية .

وفيما يتعلق بالنقطة التي تفضل بها د. صالح العلي بشأن الترجمة ، فأنا اعتبرها توسيعاً وليس نقداً . الترجمة من الهندية اقتصرت على كتاب واحد هو كتاب « كنكا الهندي » ، الذي احضره معه كنكا الهندي الى قصر المنصور وهو « سدهنتا » وكان في الفلك والرياضيات .

اما فيما يتعلق بالترجمة عن اليونانية فالعرب لم يترجموا . اني اعتبر السريان عرباً ايضاً ، مع تمييز . ان العرب لم يترجموا مباشرة من اليونانية الى السريانية ، بل قام السريان بالترجمة ، وكانت ركيكة في البداية لأن لغة السريان العربية كانت ركيكة . وذلك لا ينحصر في دائرة الفلسفة ابداً . الفلسفة كانت تشمل علوم الطبيعة والرياضيات والالهيات ، بل ان كتاب اقليدس في الهندسة تُرجم عدة مرات او اعيد صوغه عدة مرات . كذلك كتب اخرى في علوم مختلفة . من ناحية اخرى ان اول ترجمة حدثت ، والتي نعرفها ويكاد يكون يقيناً انها تمت في زمن عمر بن عبد العزيز ، هي ترجمة كتاب الكناش في الطب ؛ كان في احد المساجد وطلب عمر بن عبد العزيز ترجمته الى العربية ، وكان بالسريانية .

ظهر مصطلح في كلام د. صالح العلي دون ان يعرف ان هنالك فرقاً بين علوم العربية والعلوم العربية . علوم العربية هي ما يتصل بالطبع باللغة ، كالادب وما الى ذلك . العلوم العربية اصبح مصطلحاً في التراث العلمي العربي يقصد به لا العلوم العربية ، بل الفقه والتشريع والحديث والسيرة وما الى ذلك . فكان رجائي ان يعطي تعريفاً اكثر ضبطاً .

النقطة الاخيرة : الكلام كله دار حول اساليب الكتابة . والآن تميز الدراسات اللغوية بين اللغة والكلام ، يعني بين اللغة كنظام وبين اللغة ككلام متداول . عندما نتكلم عن اللغة كنظام اعني مجموعة القواعد الصرفية ، ومجموعة القواعد النحوية ، وعندما نتحدث عن الاسلوب يجب ان نلتزم بهذه القواعد . وللانسان حرية ان يقدم ويؤخر على ان لا يعيب من العربية شيئاً ، اعني في قواعدها . لو لجأنا الى اسلوب الكتابة في العصر الوسيط ، نجده مختلفاً عن اسلوب الكتابة في العصر الحديث . العربية تتطور باستمرار ككل لغات العالم ، فلا خوف عليها ، بل الشرط الوحيد هو ان يكون الاسلوب مقبولاً وان لا يسيء الى قواعد اللغة العربية .

## ١١ ـ حميد الهيتي

التعليق الاول على بحث د. احمد مطلوب عن خصائص اللغة العربية . فقد احسن حين جعل الموضوع « من خصائص اللغة العربية » وليس « خصائص اللغة العربية » . لأن خصيصة مهمة من خصائص اللغة العربية لم اقف عليها في البحث ، هي خصيصة سعة المجاز الذي عرفت به اللغة العربية ، وجعلها في وصف بعض اللغويين من اوسع لغات العالم مجازاً . الامر الآخر في بحثه انه اعطى اطاراً عاماً لخصائص اللغة العربية ، ولكن عملية الربط بين هذه الخصائص وبين جدواها مع موضوع الندوة والوعي القومي يكاد يكون ، اذا صح التعبير ، ضعيفاً . وبودي لو ان عملية هذا الربط زيدت ، بحيث يكون هذا البحث القيم والرائع مرتبطاً بموضوع الندوة واتجاهاتها ، في تطلعنا الى لغة تعين على وحدة الامة العربية ووحدة فكرها . هذا الامر ربما ، في جانب من جوانبه ، يتعلق بالتعقيب الذي قدمه د. نوري القيسي في باب الاستشهاد . والاستشهاد يدخل في باب صيانة اللغة العربية وتحصينها من الدخيل والغريب والعامي . ولكن ايضاً عملية الربط بينها وبين موضوع جدوى هذه الصيانة ، في صلته بالموضوع العام للندوة ضعيفة . ربما لو اضيف اليه ما يقويه لكان اجدى .

من ملاحظاتي على الذي قدمه د. الفيتوري انه هوّن كثيراً من شأن العامية ، وانا اثق انه لا يقصد الاضرار بالفصحى او بالفصيحة . ولكن كان بودنا وربما سنجد في ردوده علاجاً لظاهرة العامية . لأن ندوة من هذا النوع لا يمكن ان تتساهل بوجود العامية مع الفصيحة ، ولا بد ان يستمر النضال الجاد من اجل اشاعة الفصحى وتثبيتها هو الاساس في مستقبل العمل اللغوي لدى المشتغلين فيه . وفي بحثه وفي تعليق د. صالح كان هناك ذكر لما يسمى بازدواجية الاسلوب . وهذا من اثر التعريب او من تأثر المثقفين المحدثين بالثقافات الاجنبية . وربما لا يبدو هذا بعيداً حتى عن بعض المتحدثين هنا في هذه الندوة . كان منهم من يشفع الكلمة العربية بكلمة اجنبية ، او من يشفع الاصطلاح على الجملة العربية بجملة اجنبية . هذا ما يسمى بازدواجية اللغة . وهذا امر كان موجوداً في اللغة العربية منذ زمن بعيد . فقد عاب الجاحظ على ابن المقفع ازدواجية الاسلوب ، واكد ذلك د. طه حسين من المحدثين . ولكن الفصحاء في ذلك الزمان كانوا أبلغ منا ، وعلى هذا الاساس من واجب المشتغلين باللغة والمشتغلين بالتعريب ان ينتبهوا الى هذه الظاهرة الخطيرة ، لأن كثيراً من المثقفين بالثقافات الاجنبية يتحدثون العربية وكأنهم يترجمونها حرفياً عن اللغة الاجنبية بعيداً عن محيطها . وفي هذا المجال اذكر قولاً جميلاً للدكتور سعدون حمادي عندما كنا نتحدث عن التعريب وعن التغريب قال : « نحن بحاجة الى ان نعرّب المحيط » ، والذي يتحدث عن التعريب ينبغي ان يتحدث عن التعريب في محيطه وليس بعيداً عن محيطه .

## ١٢ ـ مسارع الراوي

لديّ سؤال ، لقد اوضح الاستاذ الفيتوري من خلال تحليله العميق للفصيحة والعامية ان الامهات الاميات ، او العاميات من النساء في القرى والارياف والبدو ، اكثر اتقاناً للغة العربية

نطقاً وكلاماً، او ربما اكثر قومية من الامهات المتعلمات في المدن . وهنا السؤال يطرح نفسه ، بحكم موقعي في حملات محو الامية ، هل هي دعوة الى وقف حملات محو الامية في القرى والارياف والبوادي العربية؟ ام تأكيد على اهمية حملات محو الامية في اطار المفهوم الحضاري بأسلوب المواجهة الشاملة والابتعاد عن التعريب الثقافي ؟

### ١٣ ـ عبد علي الجسماني

الواقع منذ هذا الصباح وخلال هذه الامسية وانا اواجه هذه اللافتة ندوة اللغة العربية والوعي القومي . وكم سرني انه كان بحث د. سعدون حمادي قد تناول « تجديد الحديث عن القومية العربية » . هذا الكلام اقوله وأنا شاعر بأننا نواجه في الوقت الحاضر نوعاً من الركود الذاتي يكاد ، ان لم يكن شاملاً ، يكون عند الكثير من الافراد . فبحكم اتصالي الحقيقي عن طريق التدريس الجامعي ، فإنني اواجه هذا . واظن انه يلمسه كثير من زملائي معي في الجامعة . وعندما نواجه الشباب نجد لديهم الحماس ، ونحن نأمل فيهم الخير ، وكلهم امل المستقبل ، لكننا نجد في بعض الاحيان نوعاً من الركود .

انا اسمع من كثير من الزملاء في الجامعة ، وهذا ليس من باب الانتقاد ، بأن الطالب يتكلم وكأنه ليس في حرم جامعي ، يتكلم بلغة لا علاقة لها بالجامعة . وأود ان اقول ان في حديث د. البسام وفي حديث د. الفيتوري الآن كثيراً من الامور التي تثير خواطر في الذهن على جانب من الاهمية . فاللغة الفصيحة في خطر ولكن ليس كل الخطر . على سبيل المثال : نشأت في بيئة ريفية ووجدت اهلي يتكلمون ، وما زالوا يتكلمون ، لغة ، ظننت بعضها اعجمياً ولكن رجعت الى **ظهر الاسلام** للدكتور احمد امين ، ورجعت الى آداب **اللغة العربية** للرافعي ، ورجعت الى ما كتبه زكي الارسوزي ، وما تطرق اليه محمد احمد خلف في كتابه **العبقرية العربية** ، وما كتبه عمر فروخ عن اللغة العربية . وجدتهم مثلاً ما زالوا يقولون « على الارض » ، ووجدت ان قبيلة من العرب من قريش تقول على الارض « عالارض فاربطها » . لا تقول على الارض انما تقول عالارض ويقولون مثلاً « الاستمطاء » ، فبعض القبائل تقول « امطى » وتقول اعطى . هذا كله مدون مثبت وانا بصدد اعداد قائمة به ، وان لم يكن اختصاصي اللغة العربية ، ولكنني أعنى باللغة العربية . إن ما قاله بعض الزملاء ، وما قاله د. نوري القيسي الآن ، من ان العربية تحمل في تضاعيفها عاطفته ، وان اللفظة العربية اتخذت في نفس العربي موقعاً حمياً فاصبح تعبيره على هذه العصور ، صحيحاً. فاللغة تمثل دواخل الامة . وانا وددت ان نرجع الى اللغة العربية لا على انها تدرس قصد الحفظ ولا ان تفرض على العامة ان يتكلموا بها ، ولكن اتساءل كيف ندخلها الى النفس .

نحن نتحدث عن اللذة والالم . عندما نحلل كلمة اللذة نجد انها تنطلق مع النفس الى غايتها . لماذا لا نأتي الى الناشئة من هنا ؟ فلماذا نتكلم عن قواعد جامدة؟ وما ذكره د. الفيتوري هذا اليوم ود. البسام عن الامن وعن الانتاجية يتصل بموضوع تربوي ارجو ان يتاح لي المجال ان اتحدث عنه وعن كيفية البدء به منذ الطفولة الاولى . والشواهد الدراسية التي اثرت في نفسية

الاطفال كثيرة ، وهذه الشواهد بقيت بعد ان تعلم الطفل في الثمانية عشر شهراً الاولى من عمره ، بقيت مؤثرة في حياته بعد ان تجاوز الطفولة والمراهقة .

استميحكم عذراً واقول بأن اللغة العربية هي صورة وجود الامة متمثلة في مجمل افكارها ومعانيها . فاللغة العربية انما هي قومية الفكر ، وليست اللغة نسباً للعاطفة والفكر . واذا هانت اللغة القومية على اهلها اصبح اغراء المؤثرات الاخرى في الخلق القومي افعل . إن القومية واللغة المعبرة عن القومية تمثلان اعتزازاً للوطن واعتزازاً بمجد الامة ، والحفاظ عليهما من الضياع في عالم مائج نعيشه اليوم . وهذا ما تفضلتم واشرتم اليه . ان الشواهد التاريخية المسندة المعنية باللغة العربية تؤكد كون الامة العربية قد اختارت بيئتها ، وهذا ما تفضل به د. نوري ، وفقاً لغايتها من الوجود وقد اصطفت الصور الصوتية المرئية وانا استعمل المرئية هنا ليس صفة وانما استعملها في الواقع مرتبطة ارتباطاً بخط بينهما ، مستندة الى ما فيها لتتفق وانسجام النفس ، وهذا احد جوانب « عقادية » اللغة العربية . والعقاد قال اننا سبقنا السابقين الى ثقافة المعرفة وثقافة العقيدة قبل اربعين قرناً واننا اعطينا العالم حظاً مهماً لا يزول منذ اربعة عشر قرناً. وان الانسان والفكرة المنبثقة عنه كليهما متماثلان تكويناً اذ ان الفكرة تنطوي على استعدادات خاصة ، كما نقول في علم النفس ، فلماذا لا نستعمل علم النفس من حيث الاستعدادات ، وما يعبر عنه بالذكاء ، وما يعبر عنه بالقدرات ، وما يعبر عنه بالقابليات ـ بالاذن من د. البسام ـ وهذه نأخذها ونصبّها في قوالب اللغة العربية ، ونضع اللغة بهذا الطبق الشهيّ ونقدمه الى طلبتنا والى الاعلام ، ولنا مع الاعلام احياناً بعض العتاب وان كان بعضهم هنا يسمع .

## ١٤ ـ د. عبد العال الصكبان

نقاط سريعة جداً . ما يستخلص من البحث ان المطلوب تبسيط الفصحى وليس البحث في العامية ولا تبرير العامية ، العامية ستقع ، ولكن كيف نجعل امام المثقف العربي لغة اكثر تبسيطاً مما هو شائع الآن .

النقطة الاخرى التي تثير النقاش ، في تقديري ، ان الاسلام اعظم انجازات العرب ، وبالتالي عندما نتكلم عن العربي الذي يعرف القراءة والكتابة لا نتكلم عن حضارة اسلامية وانما نتكلم عن حضارة عربية . والنقطة التي لمسها د. الفيتوري ان غير المتعلمات كن اكثر وعياً باللغة العربية ، وأقدر على تربية الروح القومية في الابناء ـ قد تفسر بأن الحضارة العربية الموجودة في البادية خالية من التزويق ومن الاختلاط او التأثر بالمدينة .

فيما يخص العلاقة بين السن والسن الدراسي . هناك فعلاً امكانية اختصار عدد سنوات التدريس بالنسبة للطفل العربي . ان ابتداء تعليمه من الرابعة نقطة جديرة بأن تبحث وتعمق امام الجماهير العربية . ملاحظة اخيرة ، اذا كتب « ليفل هارت» ان المئة الاعظم في العالم اولهم محمد لا يغرينا هذا كثيراً ، ولا حينما يكتب آخر ان المنطق العربي غير قابل للادراك منذ اللحظة الاولى

يهمنا كثيراً . اعتقد ان ابسط صفات اللغة العربية هي ربما قوة المنطق والوضوح والجملة القصيرة ، والايجاز والوصول للغرض .

## ١٥ ـ سليمان مزبان

من جملة الاطروحات الكثيرة الطريفة ذات الطابع التحليلي العلمي التي استمعنا اليها خلال جلستي الصباح والمساء جلب انتباهي طبيعة النقاش والملاحظة التي طرحها د. الفيتوري وعلق عليها، انا اعتقد ان هنالك ملاحظتين جديرتين بالانتباه . الملاحظة الاولى تتعلق بوجود كلمات متشابهة في الوطن العربي إنما تعطي معاني مختلفة وكثيراً ما تكون هذه المعاني متضادة ، لا بل مثيرة احياناً ، وتعني وجهاً غير مقبول .

والملاحظة الثانية ، تتصل ببدء جامعات عالمية تدريس اللغة العربية على اساس اللهجات وتختار لهجات العواصم . فهذه الجامعة وهذا القسم في الكلية يدرس اللغة العربية باللهجة المصرية ، وهذا يدرس باللهجة اللبنانية . هاتان مسألتان تمثلان ابعاداً اجتماعية من ناحية وابعاداً سياسية ايضاً . لكن على ضوء مبدأ التجانس الذي طرحه د. حامد ربيع ، ومبدأ التقليدية في اطروحات د. الفيتوري اعتقد ان د. الفيتوري كان محقاً الى حد كبير في طروحاته بالنسبة الى العامية . ليس المقصود العامية التي هي في المدن ولكن في الريف . ففعلاً متى ما تذهب الى الصحراء العربية اينما كانت ، وفي اي قطر ، تجد الكلمات متشابهة الى حد التطابق . وانا اشرت صباح هذا اليوم الى المسحة اللفظية ، ان صح التعبير ، المحلية ، يعني في صحراء موريتانيا يقولون ( حشيش )، وفي كربلاء يقولون ( حليب ) ، وهو حشيش . هذه المسحة اللفظية يعني المحلية لم تؤثر على طبيعة الكلمة العربية الفصيحة . لكن عندما اقول ملابس واقول احواس فالمسألة متغيرة اصلاً ، فأنا اعتقد بأن مبدأ التجانس الحضاري او الاجتماعي لا يصح قياسه على اللغة العربية وطرح مفهوم العامية . وطروحات د. احمد مطلوب ود. القيسي كانت متكاملة لوصولها الى حقائق اساسية في خصائص اللغة العربية وان اللغة العربية بقيت العامل الاساسي في قومية الامة العربية ، لكن لم تكن الدليل على قومية الاقطار العربية كما طرحها د. حامد ربيع . فمبدأ التجانس لا ينطبق باعتقادي ، وفعلاً عندما اتحدث مع الفتاة في الريف او الام في الريف تجدها عربية في الفاظها الى حد كبير لا يتطابق معه لغة هذا المتعلم في المدينة ، او لغة امرأة انهت دراستها الجامعية ، لأنها تستعمل كلمات دخلت من خلال اعجمية الحضارات ، فهناك كلمات فرنسية تستعمل في المدينة . البادية لا تعني الرجوع الى العامية لأن اللغة العربية الفصيحة هي في البادية . والمسألةالتي اؤكد عليها هي مبدأ التجانس الاجتماعي الذي اشار د. حامد ربيع الى انه سيسقط ويساوي اللغة الفصيحة عند المجتمع . اعتقد لا ينطبق على هذا ، فهنالك الكثير من الريفيين غير المتعلمين يتكلمون كلاماً فصيحاً اكثر من طلاب المدارس المتعلمين وهذا مرجعه الى عوامل تتعلق بالمدينة ، وبطبيعة التطور الاجتماعي ، وتتعلق بالمنافذ الثقافية التي نشرف من خلالها ، ونبتعد الى حد ما في كثير من الحالات وتنمو عندنا لغة عامية . وهذا طبعاً موجود في اوروبا ولكنها ليست

بالخطورة نفسها . الخطورة في اننا حتى الآن لم نثبّت الفصحى ، ولو ثبتنا الفصحى اعتقد ان الاشياء تتغير.

## ١٦ ـ عبد العزيز البسام

اثار د. الفيتوري ملاحظتين اجيب عليهما بصورة سريعة . هو يؤيد ما ذهبت اليه من ان دراسة الفصيحة مهمة جليلة لا يمكن معالجتها على المستوى القطري وانما ينبغي ان تعالج على المستوى القومي ، ثم ينبه الى ان ازدواجية اللغة لا تقتصر على المغرب العربي وانما تشمل بعض اجزاء المشرق العربي . وهذا صحيح .

ورد على لساني في التلخيص اشارة الى جامعات عربية نشأت في المشرق العربي واقيمت على اساس استعمال لغة اجنبية، ثم في الدراسة التي ذكرتها إشارات واضحة الى اعتماد لغات اجنبية في بعض الاقطار العربية وفي بعض الدراسات العليا . فأنا اتفق معه في هذه الناحية وان كان ثمة فرق في الدرجة لا في النوع بين المشرق العربي وبين المغرب العربي ، فمردّه بالدرجة الاولى الى السياسة الثقافية الاستعمارية لفرنسا وتأكيدها على الجوانب الثقافية واللغوية الى حد بعيد ، واصرارها على ترسيخ لغتها وثقافتها في الاقطار التي احتلتها ، سواء في المغرب العربي او في المشرق العربي . وهذا سبب من الاسباب التي رسخت الفرنسية في بعض الاقطار نتيجة لمواقف الاستعمار الفرنسي بصورة خاصة واعتماده عليها. كما اجد في ملاحظات د. الهيتي اشارة الى تساؤله عن السياسة التربوية وهل تؤدي الى الالزام في استعمال الفصحى؟ لعل في اجابتي عليه جواباً ايضاً على التساؤل الذي طرحه د. احمد حقي الحلي عن الفصيحة .

اود ان انبّه الى انني عندما تحدثت عن السياسة التربوية لم اقصد ان تتم ضربة لازم ، لاعتماد الفصحى مباشرة وانما السياسة التربوية المقصودة تقوم على عدد من المبادىء ( اربعة ) وتستلزم عدداً من المسارات لتنفيذها ، وتحتاج الى زمن طويل نسبياً . انما المهم فيها ان تؤكد هذه المبادىء وعلى رأسها حددت معنى الفصيحة ، ثم وضوح اهداف تلك السياسة ، ثم الشمول والتكامل ، فالتعاون على الصعيد القطري وعلى الصعيد القومي . تلك مبادىء اربعة قد اوردتها عن الفصيحة والفصحى قد تكون جواباً على ما تقدم به الدكتور احمد حقي الحلي . ذكرت ان الفصيح سيستمد من الفصحى ذاتها فإذا كانت الفصحى هي لغة القرآن الكريم والحديث الشريف وما يتلوهما منزلة في الادب العربي شعراً ونثراً في العصر الجاهلي وعصر صدر الاسلام وما اقتصرت على تدوينه المعاجم الثابتة فإن الفصيحة يراد لها ان تكون لغة جميع المتعلمين وهم في المستقبل القريب جميع المواطنين من ابناء الامة العربية . فيجب ان تكون صيغة ميسرة متطورة تتمسك بأصول الفصحى وتحافظ على طبيعتها ، ولا تخرج على اسس تكوينها ، وانما تستوعب التطورات السليمة التي طرأت عليها خلال عصور ازدهارها وتتفتح وفقاً لاصول الفصحى نفسها وامكانياتها للوفاء بالحاجات الحضارية المتجددة . ثم قلت : إن مما يفرضه الواقع ان لا نطمع من عامة الامة بعد اكثر من اربعة عشر قرناً من الزمان ان يبلغوا ذلك المستوى الرفيع لا في فهم

الفصحى فحسب ، بل في التعبير بها في حياتهم الفكرية وفي حياتهم اليومية تعبيراً يتجاوز الاعادة والتكرار الى الابداع والابتكار ، وقد خضعت العربية ، وهي ظاهرة اجتماعية ، لنواميس التطور فتبدلت بمرور الزمن . وقد كان لها من سلامة التكوين وجودة الاصول ما جعلها في خير حالتها تحافظ على سلامتها ولا تنحرف عن جوهرها فكان تطورها استمراراً في وجودها وليس انقطاعاً عن جذورها ، كما حصل في كثير من اللغات الاخرى .

ثم اعود واذكّر الاستاذ عبد الحميد الهيتي انني اوردت ـ لتنفيذ تلك السياسة فضلاً عن تلك المبادىء الاربعة ـ اثني عشر مساراً من المسارات التي ينبغي مراعاتها في التطبيق بدءاً من التعريب ، الى المصطلحات العلمية ، الى البحوث اللغوية، الى البحوث التربوية ، الى تطوير المناهج والكتب ، الى اعداد المعلمين ، الى التقويم . . . الخ .

فالسياسة التي ادعو اليها مهمة صعبة وجليلة وينبغي النظر اليها على المدى البعيد ، وهي تحتاج الى مسارات متعددة لتطبيقها .

## ١٧ ـ احمد مطلوب

لا اريد ان ارد على ما قاله الاخوة المناقشون ، وانما اريد ان اوضح بعض المسائل :

بالنسبة للدكتور جميل الملائكة ، في الواقع كلامه لا يخرج عما قلته وهو ان ارسطو وافلاطون هما همزة فيها حركة . وانا قلت ان العرب لا بد من ان يبدأوا بحركة سواء اضيفت همزة او لم تضف . ولذلك في الواقع العبارة التي آخذني عليها هي رأيه نفسه .

الزملاء د. واجدة ود. ياسين ود. حميد اشاروا الى بعض المسائل . وقد قلت انني لم اتطرق الى بعض الموضوعات المتعلقة بالبنية وبالصيغة وبالمجاز وبالقلب والابدال ، لأن هذه من الموضوعات التي درست قديماً وحديثاً . وانا لم ارد ان آتي بشيء سبقني اليه كثير من القدماء والمحدثين . ولذلك قضية المجاز ، الابدال ، القلب ، هذه في الواقع من خصائص العربية ، ولكني لم اقف عندها الا قليلاً لأن الموضوع الذي ركزت عليه هو موضوع البنية التركيبية او البناء التركيبي . واخذت على سبيل المثال موضوع التقديم والتأخير . ولذلك اقول للدكتور حميد الهيتي ان الربط انصبّ على هذا الموضوع . صحيح ان القسم الاول الذي مررت به مروراً سريعاً لم يكن فيه ربط ، لأن ذلك لم يكن هدفي ولم يكن من اهداف البحث ، وانما هدف البحث الاساسي هو موضوع « التقديم والتأخير » . وقد اوضحت ان هذا الموضوع هو الذي اعطانا وحدة في البنية الاساسية للعبارة من جهة ، واعطانا حرية الحركة من جهة اخرى . وحاولت ان اشرح ذلك في الصفحات الاخيرة .

هذه في الواقع بعض المسائل التي اردت ان اشير اليها . وهناك مسألة اخيرة اشار اليها د. ياسين خليل وهي ان اللسان العربي يستوعب الاصوات وهذا ، في الواقع ، هو ما اردته وربما كان في عبارتي بعض الغموض مما جعل د. ياسين لا يفهم ما قصدت . وأنا اؤيده فيما قال .

### ١٨ ـ مسارع الراوي

ليس لديّ رد على ما ذكره الاخوان سوى رغبة د. احمد حقي الحلي بأن تتضمن دراستي وليس بحثي قضية اهمية وسائل الاعلام في التثقيف والتعليم وهنا احيل د. احمد حقي الحلي الى ما اكدته بأن هذه من المسلمات. وقد اظهرت الدراسات والبحوث الميدانية التي اجريت في مجال اهمية وسائل الاتصال الجماهيري ومدى تأثيرها في عملية التثقيف والتربية والتعليم ان الانسان يتعلم فعلاً، ونتيجة دراسة بنسبة ٨٣ بالمائة من خلال حاسة البصر و ١١ بالمائة من خلال حاسة السمع، ويتذكر ٢٠ بالمائة مما يسمع و٥٠ بالمائة مما يسمعه ويراه، وهذه النتائج العلمية تؤكد الاختلاف في تأثير وسائل الاعلام. فالتلفزيون وسيلة للبث تبث الرسالة الاعلامية اكثر تأثيراً في الجماهير من الصحافة والراديو، لأنه يخاطب العين والاذن بالصورة والصوت، والصحافة اكثر تأثيراً من الراديو لأنها تخاطب العين بالصورة والشكل. هذه الحقيقة الملاحظة الوحيدة التي وددت ان اذكرها، وشكراً.

### ١٩ ـ محمد جميل شلش

الحقيقة ان المداخلات التي وردت حول تعقيبي كانت للاساتذة حميد الهيتي ود. ماجد السامرائي ود. سليمان مزبان ود. احمد حقي الحلي. ولاحظت انهم جميعاً انطلقوا في مداخلاتهم من نقطة واحدة كأنهم انطلقوا من خلفيات في الحديث عن لغة عربية فصيحة اكاديمية او على الاقل تعليمية. هكذا فهمت. كأنهم تصوروا انني اتحدث عن حقل هو حقل الاعلام الجماهيري ومدى ان يكون مجالاً لتنمية اللغة العربية، في ما يفهم منه التعليم بصورة عامة. بينما حديثي عن اللغة العربية وعلاقتها بوسائل الاعلام الجماهيرية. واللغة كوسيلة معنوية، في اغلب اراء الاعلاميين تقوم مقام نظام اعلامي. والذي اردته غير الذي جاء في مداخلاتهم. واذا كان لي من بعض التفصيل فمن هذا المنطلق لجوابي على الاستاذ حميد عندما قال ان وسائل الاعلام لم تخدم اللغة وانما اضرّتها او اضرت بها. لقد قلت هذا ايضاً، مع ان حديثي كان عن لغة الاعلام التي توصلنا اليها. واقصد بها الفصيحة المشتركة التي قلت انها لغة الحضارة الاعلامية الجديدة غير ما أراده الاستاذ حميد مع ذلك اشرت الى ما سميته مضاعفات سلبية بالنسبة للغة. والسلبيات طبعاً يومية يتذكرها كل من يقرأ صحيفة من الصحف او يستمع الى وسيلة من وسائل الاعلام. إذ نجدهم يعيدون على اذهاننا لا ولن ولم «He Plays an important part» عندما يريدون ان يقولوا « يلعب دوراً مهماً » . . . الخ. لكن ايضاً تبقى الايجابيات الكثيرة. ان وسائل الاعلام طوعت اللغة واشاعت الفاظاً واستحدثت الفاظاً جديدة ومصطلحات جديدة . . . الخ. واعني بذلك ان امثال القطار والسيارة والمأساة والملهاة، الى غير ذلك، كانت « ريل » (rail) و« اوتوموبيل » (automobile) و«تراجيدي» (tragedy) و« كوميدي » (comedy)، هذه لو كانت في مجال المجامع العلمية يمكن لما أذن لها ان تأخذ هذا المدى الواسع على المستوى الجماهيري، ثم في مجالات الاشتقاق الاخرى، ولو ان بعض الاكاديميين لا يقبل بها. الامركة والفتنمة والبرمجة

والاكسدة والموسقة والدبلجة . . . الخ ، هذه ايضاً فسحت الصحف ، خصوصاً ، صدرها لها ولامثالها .

انا في الحقيقة مع د. ماجد السامرائي في مقدمته العامة . وبصدد حديثي عن العراق ولغة اهل الجنوب فقد اتخذتها مجرد مثال فقط . وفي تعقيبي على د. الفيتوري اوضحت ان هناك عاميات لا عامية واحدة في كل قطر ، علماً بأن تعقيبي ينصب على اللغة ووسائل الاعلام الجماهيري على الصعيد القومي وليس على صعيد القطر العراقي ؛ اضافة الى انني كنت اقدر جيداً الظرف الذي يمر به القطر وضرورة التوسط او غض النظر وقتياً عن بعض مظاهر طغيان العامية . اما فيما يخص تعقيب د. سليمان فلا خلاف على المقدمة ايضاً ولكن المسألة ليست مسألة مسحة لفظية ، وانما هي استعمال الفاظ لمدلولات غريبة احياناً ، ودخيلة احياناً كثيرة . ولكن الذي يبقى ايضاً ان العامية باقية في الاغنية او في غيرها ، جنوبية كانت ام غير جنوبية . واذا كان بود د. احمد حقي الحلي في مداخلته ان يقول ان الاعلام يؤثر اكثر من المدرسة ، فأعتقد انني اتيت على هذا ضمناً في حديثي عن الفصحى المشتركة ، التي قلت انها هي لغة الحضارة الاعلامية الجديدة . وقد جاء نصاً :
« وسائل الاعلام لها تأثير عظيم على عقول الناس وسلوكهم وتغيير مداركهم ومواقفهم وتشكيل آرائهم على نحو ينزعون فيه الى التجديد والى تحمل المسؤولية والاسهام في عمليات التنمية القومية على جميع الاصعدة» .

## ٢٠ ـ الشاذلي الفيتوري

بالرغم مما يحدث هذا من حرج ، لأن الوقت قد طال الا اني اريد ان اعقب على بعض ما قدم من ملاحظات ، وابدأ بالدكتور جميل شلش لأنه عاش في تونس مدة طويلة ، استغرب ما حدث له في تونس من اصطدام باللهجة العامية . هذا النوع من الانغلاق ـ انغلاق اللهجة العامية لمداركه ـ في حين اني عندما دخلت بغداد لاول مرة فوجئت وابتهجت وسررت ايما سرور . واذكر في الاسبوع الاول دخلت سوق الصفارين هنا في بغداد برفقة اخ عزيز لم يحضر معنا هذه الندوة ، فكان مندهشاً لما حدث من تجاوب بيني وبين صاحب اول محل تجاري وقفت عنده ، طال الحديث ساعتين ونصف ثم انتبه اننا قد تناولنا الحديث وتركنا الاخ المرافق لي ، فسألني من اين اتى هذا من تونس او من اي مكان ؟ لا قلت هذا من بغداد . واندهش الاخ العراقي لهذا النوع من التجاوب . ثم سررت كذلك وابتهجت عندما دخلت المتحف الشعبي البغدادي ، فوجدت لوحات من الحياة الشعبية العراقية الاصيلة ، لا من الحياة الشعبية الملوثة ، كما لوثتها الثقافة الغربية . فذكرتني هذه اللوحات بطفولتي في مدينة القيروان وباطوار مدينة القيروان عندما كانت القيروان الاخت الصغيرة لبغداد في عهد العباسيين . اللوحات نفسها ما زلنا نعيشها الى الآن في مدينة القيروان وهذا من غرائب الدهر او من الغرائب العربية او من سر عبقرية العربية والحضارة العربية الاسلامية ، فالعربية تقترن بعبقرية الاسلام .

## ٢١ ـ احمد صالح العلي

هل اقاطعك دقيقة واحدة؟ فسكان مدينة القيروان في صدر الاسلام والقبائل التي سكنت في القيروان هي القبائل نفسها التي استوطنت الآن .

## ٢٢ ـ الشاذلي الفيتوري

صحيح . صحيح الاسماء نفسها الى الآن وقد لاحظت ان كثيراً من الاخوان اسماؤهم قيروانية عائلة تميمي مثلاً ، ومن العائلات الماجدة التي استقر فيها القضاء والافتاء عائلة صدام في القيروان ، وما زالت موجودة للآن . كل هذا يدل على ان هذا مظهر من مظاهر عبقرية الحضارة العربية الاسلامية . وقد كتبت لا ادري في اي مجلة منذ سنوات انه في تلك العصور استطاع الاسلام ان يحدث اول سوق دولية مشتركة ، قبل السوق الدولية الاوروبية . فالتجار كانوا يتجولون بالبضاعة في كامل انحاء المملكة . وكان هناك اول حكم ذاتي لا اقول فدرالي او كونفدرالي ، لأن الخلافة في الحقيقة كانت قائمة ، لكن مثلاً في عهد الخلافة العباسية كانت تونس تخضع وبالخصوص مدينة القيروان لعهد ( الاغالبة ) اي ان الحكم كان حكماً ذاتياً في ظل الخلافة العباسية . كذلك في ظل الحكم العثماني كانت تونس تخضع لحكم ( اجنبي ) . في عهد الرومان لم يحكم تونس حاكم من روما بل حكمها تونسي اصيل . ثم جادت تونس على روما بامبراطورين اثنين حكما كامل الامبراطورية انطلاقاً من تونس . وهذا يدل على انها ما تقبل الارض التي اختارها المولى سبحانه وتعالى حتى تكون دار الاسلام تمتد من الخليج الى المحيط وهي اعز منطقة في الارض لأنها جاءت حزاماً للارض .

كذلك قد وجدت فيها **بضاعة بشرية** قبل الاسلام تأكدت بعد الاسلام كانت بضاعة ثرية وبضاعة لها اناقتها ولها عزتها . قد تقاسي المحن وتبتلى بكثير من الوان الاستعمار والاحتلال لكنها لاتخضع ولا تذوب في هذه الالوان من الاحتلال الاستعماري . هذا مظهر آخر من مظاهر عبقرية الشعوب العربية الاسلامية يمكن ان ندرسها بعد . فعندما قلت ان العامية واحدة اعتقد انه قد حصل سوء تفاهم بيننا . لقد قلت انني عندما انظر الى المجموعة البشرية الواحدة مثلاً في منطقة من المناطق التونسية او منطقة من المناطق العراقية في الجنوب او في الشمال او آخذ حيّاً من الاحياء في مدينة كبيرة كبغداد او تونس واجد الناس يتكلمون لغة واحدة عامية واحدة واحاول ان اسبر الاعماق في هذه المجموعة البشرية ، اجد هذه العامية على مستويات مختلفة تختلف بالمستويات الدينية والثقافية التي لهؤلاء البشر اي ان العامية تأتي على درجات مختلفة . فعامية الشيخ الازهري ، لأنه يتحدث كذلك بالعامية لأهله وذويه ، ويتحدث حتى مع زملائه باللهجة العامية عندما يكون في حلقة التدريس ، عامية الشيخ الازهري ليست عامية السوقي البسيط . وعامية البدوي الاصيل ليست عامية هؤلاء القوم الذين اشار اليهم ابن خلدون بكلمة ( المَدر ) هذا ما اردت ان اشير اليه . وفي هذه الاشارة كنت اقصد الى غرض ابعد من العامية ومن الفصيحة هو ، ان الاهم في كل هذه القضايا الثقافية ليس القضايا اللغوية ـ واللغة كما يقول هاملتون انما هي وعاء المعاني ـ المهم هو المعنى ، المهم هو مستوى هذا النشاط اي المستوى الثقافي للناس بصرف النظر عن اداة التخاطب واداة الاتصال . ومن الملاحظ انه كلما ارتفع هذا المستوى الذهني كلما تهذبت العامية .

كيف نعمل الآن لتهذيب العامية؟ لأن هناك عامية مهذبة وهناك عامية مبتذلة .

وكيف نفعل الآن لعصرنة الفصيحة؟ لا لتبسيط الفصيحة ، لان تبسيط الفصيحة قد يؤدي الى الابتذال والى السهولة والميوعة ، لكن لعصرنتها حتى تصبح لغة العصر مع الحفاظ على عبقريتها . ثم لا ننسى انني عندما تحدثت عن النمط الواقعي والنمط المثالي فالكلمات بسيطة يجب ان لا تؤخذ على غير وجهها . النمط الواقعي هو ما هو حاصل بالفعل في كلام الناس وحديثهم . فعندما يقول الاخ انه قام بتجربة مع سمير العبادي،والله انا آسف لسمير العبادي انه لم يصغ ملياً للهجة العامية العراقية لأنه لو فعل لاستمتع بمسرحية اعتقد انها كانت مسرحية ممتازة لأني واثق من حسن اختياره . في حين ان مسرحية اخرى هي ( كاسك يا وطن ) لدريد لحام قد جالت الوطن العربي بتمامه وكماله بلهجتها السورية ونالت اعجاب الجماهير ، لأن الجماهير اكثر اصالة من المثقفين وانصاف المثقفين ،ونالت اعجاب الجماهير بصورة غريبة وقد شاهدت المسرحية في بيروت اثناء المحنة واثناء القذائف وغيرها ، ولاحظت التجاوب بين شعب لبنان ودريد لحام . ثم شاهدتها في تونس ولاحظت التجاوب نفسه وزيادة. ولم يجد الشعب التونسي ولا الشعب الجزائري ـ رغم اغترابه طيلة قرن وربع القرن وهو يرزح تحت الاستعمار الفرنسي ـ صعوبة في فهم هذه المسرحية والولوع بها والاقبال عليها . وقد قلت لكثير من الاخوة ، انه ما دام في البلاد العربية مسرح على هذا المستوى ، بهذا الاسلوب ، وبهذه اللهجة ، فالوضع بخير . كلام دريد لحام وجماعته لو ادخلنا عليه الادوات البسيطة للاعراب لاصبح كلاماً فصيحاً افضل بكثير من كلام كثير من الصحافيين العرب اليوم . وهو كلام عامي سوري لكنه كلام نقي نظيف محافظ على عبقرية اللهجة العربية العامية التي اتخذت من الكلام الفصيح النمط المثالي لها .

إني اشعر بكثير من الاسف لانني لا استطيع ان اقول كل شيء ، نظراً لضيق الوقت . وعدم تمكني من اثبات ان العامية لها نمط مثالي هو اللغة الفصيحة ، والفصيحة لها نمط مثالي هو لغة القرآن . وهل هناك نمط واقعي ، نمط مثالي ، ونمط امثل من لغة القرآن ؟ فلغة القرآن من الامور التي سجلها التاريخ ، هذه اللغة بشهادة المسلمين وغير المسلمين بشهادة العرب وغير العرب ، ما زالت تحارُ بها العقول ليومنا هذا . ومن الاشياء التي اشرت اليها في بحثي الاخير الذي نشر في الولايات المتحدة استخدام الكمبيوتر لاحصاء عدد وحدات اللغة . لا اقول مفردات اللغة بل وحدات اللغة من حيث المفردات وكذلك من حيث الصيغ والتراكيب؛ فوجدوا ان النسبة المئوية الواردة في القرآن بالرجوع الى عينة اتسعت الى كامل التراث العربي تمثل تقريباً ٩٠ بالمائة من هذا التراث . دليل موضوعي علمي مقنن بالكمبيوتر في اواخر القرن العشرين . على ان هذا الكلام ليس كلام محمد ، بل هو كلام الله المنزل من السماء . وقد وقع هذا البحث بالنسبة الى عمالقة الادب في كل اللغات : الانكليزية والالمانية والفرنسية وغيرها فوجدوا ان ابرع الكتّاب وابرزهم في هذه اللغات على مر العصور لا يستطيع ان يستخدم اكثر من ٦٠ بالمائة مما توفره عبقرية اللغة التي يكتب فيها . فهذا دليل على ان هذه اللغة لغة القرآن ، انما هي امر عجيب ، امر لا نستطيع ان نغوص لمعرفة كنهه فيبقى وسيبقى الى ابد الآبدين النمط الامثل الذي تتعلق به همة العرب المسلمين وحتى غير المسلمين .

لقد اشرت في هذه الورقة القصيرة الى ان من اراد ان يدقق الملاحظة في الاصناف اليهودية والنصرانية التي عايشت العرب المسلمين وامتزجت مع الشعوب العربية ـ لا اتكلم عن جماعة الذين لازموا الهامش لكن عن جماعة الذين اندمجوا في الاوساط العربية الاسلامية ـ قد يجد كلامهم مرصعاً بالفاظ قرآنية ، ومرصعاً بالفاظ اسلامية ، وقد يجد سلوكهم كأنه قد اصطبغ بهذه الصبغة الاسلامية ، الى حد انه لا يقدر ان يميز بين المسلم وغير المسلم . فلو انك عشت في تونس مدة سنتين مثلاً ، وزرت جزيرة جربة ، علمت ان في الجزيرة اقلية يهودية يرجع عهدها الى موسى ، ما زالت تعيش هناك اكثرها لا يعلم بوجود اسرائيل ، لأنهم اميون تماماً . واذا تحدثت مع رجل لا تدري هل هو مسلم ام يهودي ، اللهم الا اذا كنت من التونسيين الواعين ، لأن في لباسهم هناك اشارة خافية جداً تجعلك تميز اليهودي من المسلم . اما البقية الباقية من حيث الكلام ، من حيث السلوك ، من حيث العادات ـ وخاصة النساء ـ فلا يمكن للانسان ان يميز . ان هذا يدل على ان النمط المثالي والنمط الامثل ما زال موجوداً متواجداً . لكن ـ وهنا اغتنم الفرصة لاعقب على ملاحظة د. عبد العزيز البسام عن خطر العامية اليوم على ثقافة الاجيال الصاعدة وعلى تكوين الاجيال الصاعدة وعلى نموهم الذهني بأنه خطر حاصل بالفعل . لقد عجبت عندما سمعت كل هذه التعليقات ، التي اتهمتني تقريباً بأني من دعاة العامية في حين اني قد شُهرت في تونس وفي الجامعة التونسية بأني من المتزمتين ، من الرجعيين ، من القدامى المحافظين الذين لا يريدون المساس بعبقرية العربية الفصيحة . بل اكثر من هذا لقد ابديت تمنعي ، وهذا للرد على د. سليمان وهو آخر من علق على كلامي ، فيما يخص تدريس اللهجات العامية في الخارج . وان هذا ربما يتناول او ربما يقحم سياسة مبيتة ترمي الى تغليب جانب العامية على اللغة الفصيحة .

عندما اقترح علي في السنوات من ١٩٥٠ الى ١٩٥٦ ان ادرس في معهد ويلي براون وهو اكبر معهد في باريس ، اللهجة العامية ، لأن الشباب الفرنسي كان يريد ان يتعلم اللهجة العامية الجزائرية والتونسية ، رفضت . قلت لهم ليس لديّ معرفة ولا خبرة بتدريس هذا الشيء الذي ينعت بأنه عامية تونسية وجزائرية . هناك عربية وعربية واحدة من المحيط الى الخليج . انا ادرّس لهؤلاء القوم عربية تمكنهم من التخاطب والاتصال مع كل الاقوام العربية من الرباط الى بغداد . ودرّستهم اللغة العربية الفصيحة وكان من عجائب التجربة ، وهي من اجمل التجارب التي مررت بها شخصياً ، انه كان في الفصل ثلة من الشبان اللبنانيين العرب يتعلمون العربية كلغة اجنبية لأنهم اقاموا في باريس وتركوا اللسان العربي ، لكن المتفوقين في هذه الدروس كانوا فرنسيين . واتذكر فتاة لم تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها قضت ثلاثة اشهر مع المبتدئين ( كانت الدروس مقسمة الى قسمين : قسم المبتدئين تماماً وقسم آخر سمي القسم الاعلى ) حتى حذقت حروف الهجاء وتمرست على القراءة .ثم انتقلت الى القسم الثاني وقضت سنتين استطاعت على اثرهما ان تشارك في المناظرة العامة التي تقام في فرنسا كل سنة لطلاب المعاهد السنوية وفي كل الاختصاصات . وهناك مادة العربية يشارك فيها تلاميذ من اقسام البكالوريا من المغرب والجزائر وتونس وكذلك مصر ، من المعهد الفرنسي هناك ، دمشق لبنان . .الخ،فحازت على الجائزة الثانية بعد سنتين من تعلم العربية ، لكن باسلوب حديث .

كنت اول من ادخل آلة التسجيل لمعهد ويلي براون لتعليم لغة حية وهي اللغة العربية وهذا المعهد مشهور الى الآن بأنه يعلم كل اللغات الحية بما في ذلك اللغة الروسية . اذاً كانت العربية الى جانب الروسية والانكليزية والاسبانية والايطالية ، وكل هذه اللغات . وكنت اول من ادخل آلة التسجيل لتعليم اللغة العربية ولتدريب الالسن الاعجمية على الحروف العربية ، فاستطعت ان احرز نتائج باهرة ، مما يدل على انه يمكن ان تطور الاساليب العربية حتى في صفوف الاعاجم . اذن المشكلة العامية . انا اعتقد ان الاعتراف بالواقع فضيلة ، اذ لا يكفي ان نقول بجرّة قلم لا وجود للعامية في البلاد العربية، ويجب اذن ان نتمادى في دفاعنا عن الفصحى وما ادراك ما الفصحى .

وقد وقعت اشارة من طرف بعض الاخوان الى المصطلحات وكيف يمكن ان تُقحم المصطلحات وان تُنتقى هذه المصطلحات ؛ المجمع العلمي في دمشق قد قام في بداية هذا القرن بكثير من البحوث واذكر من هذه البحوث كتاب الشيخ عبد القادر المغربي حول مصطلحات الحياة اليومية . من هذه المصطلحات مثلاً كلمة الهاتف ، فكلمة الهاتف لا تستعمل الآن الا في بلاد المغرب ، وهذا من غرائب الدهر . في حين كل بلاد المشرق بما في ذلك العراق تستعمل كلمة تليفون . وكلمة هاتف لا تستخدم الا في بلاد المغرب ، والصحافة المغربية الى الآن تجدها تستخدم الكلمة كتابة ، وشفوياً كذلك يقولون الهاتف .

هذا يدل على ان المشكلة ليست مشكلة مجامع علمية بل هي مشكلة تفكير ومستوى ثقافي ومستوى ذهني ومشكلة اتصال بين الشعوب العربية . دور الاعلام هنا دور خطير لا شك فيه ، لكن الاعلام لا يكفي ان لم يكن مدعوماً بالتربية ، وهذه التربية يجب ان ينظر اليها بالمنظار المتسع اي من البداية، من الولادة الى ان نصل الى الجامعة ، وان يتجاوز الجامعة الى ما يسمى بالتربية المستديمة . اما حكاية المألوف فالاغاني الشعبية المألوف فيها نوعان نوع اندلسي صميم وكلامه كلام عربي . الشعر شعر عربي موزون ومقفى ، والنوع الاندلسي توارثناه عن الاندلس . والغريب في الامر ان هذا النوع عندما يستمع اليه بعض الاخوان المشارقة من فرقة ( عين الشمس ) للموسيقى يجدونه مستساغاً ربما لمخارج الحروف ، وربما للاداء . . .الخ،لكن من حيث السنن الموسيقية فإن فرقة عين شمس قد تجنت على المألوف الاصل ، وعلى الموشحات الاندلسية الاصيلة ، لأن السنن الاصلية استقرت في تلمسان ولم تستقر في تونس العاصمة . إن اراد ان يأخذها الانسان من ينبوعها فما عليه الا ان يزور مدينة تلمسان . هذا من مظاهر الثقافة وهو مظهر اصيل ومظهر جسيم من مظاهر الثقافة العربية التي استقرت في الجزائر رغم قرن وربع قرن من الاحتلال الفرنسي .

اظن ان في هذا رداً على تعليق د. احمد حقي الحلي لأن استفساره كان يدور حول العامية ، وكيف ان العامية لا تبعد كثيراً عن الفصحى . اردت ان ابين انها لا تبتعد كثيراً عن الكلام الفصيح خلافاً لما هو موجود في العاميات الاخرى الاوروبية . هذا لا يعني ان العاميات العربية ـ ان نحن اخذناها في هذه الاوساط المشوهة ثقافياً ـ قد بقيت قريبة من الفصيحة بل العكس . نحن

نستمع الى العامية ثم يجب ان لا نخلط لأن هناك العاميات العربية الصريحة، وهناك العاميات الهجينة ، وهناك العاميات التي لا علاقة لها بالعربية . مثلاً عندما يتكلم انسان في بلاد المغرب الاقصى باللهجة البربرية ونعتقد انه يتحدث وكلامه كلام عامي ، وان هذه العامية انما هي فصيلة من اللغة العربية فهذا خطأ ، فهي لغة اخرى اجنبية تماماً بعيدة عن اللغة العربية . كذلك اللهجات الكردية والفارسية والتركية المتوافرة في بلاد المشرق هي نمط الواقعي في الاستعمال البسيط. وهي واقع الكلام . ما يحسب في كلام الناس فهي امر واقع يجب ان ننطلق منه لكي نغيره اما ان نتجاهله وننساه فهذا لا يليق .

اما د. حامد ربيع فتعليقاته كانت كثيرة واظن ان الرد عليها قد يطول بنا . ولا استغرب انه عندما يستشهد ببعض الكتاب الصهاينة او ذوي النزعة الصهيونية مثل (بطي) وغيره ومثل ( ارنست رونو ) و(غوته) وكل هؤلاء الاقوام الذين يأتون في قوافل الحركة الصليبية ـ وهي ما زالت مستمرة الى الآن وقد اكدتها الصهيونية في العصر الحديث ـ اظن انه من تبديد العمر ان ينتبه الانسان اليه ، لأنه لا فائدة من الرد على العلماء ذوي الاصالة والجدية في البحث ، ولكن من المتحاملين . فمن كان عالماً اصيلاً بالمعنى الصحيح ، فإنه قد أنصف اللغة العربية وانصف الاسلام .

وقد تكاثرت البحوث من عهد ( ماكزفون بيرشيم ) مثلاً ، هذا الذي احدث فن النقوش الاسلامية وقدم خدمة جليلة للحضارة العربية الاسلامية، ما زلنا الى يومنا هذا في غفلة عنها . ان ( ماكزفون بيرشيم ) وهو سويسري الاصل ، ابو حركة الاستشراق في كامل اوروبا اذ من تلاميذه المرحوم ( ماثنيو) . وماكزفون بيرشيم قد تجول في كامل المملكة الاسلامية من ادناها الى اقصاها واتخذ صوراً وقوالب لكل النقوش الاسلامية المتوفرة اذ ذاك ، واشتغل في نهاية القرن الاخير وبداية هذا القرن ولم يكن وراءه الا شخص واحد مصري لا اذكر اسمه ، قد توفي فلم يبق لنا في بلاد العرب وبلاد الاسلام اختصاصي في النقوش الاسلامية . لم يشتغل ماكزفون بيرشيم في هذا التراث الا بنسبة الثلث فأخرج جزأين ضخمين ، وبقيت البقية الاخرى في قالب مادة خام في جامعة جنيف تنتظر العقول العربية والهمم العربية . وقد اشرت الى هذا في كثير من وزارات الثقافة في البلاد العربية شرقاً وغرباً . ونبهت الاقوام الى ان هذا التراث مهدد الآن بالضياع ، لأنه لو دبّ حريق في مكتبة جنيف انتهى الامر ، ضاع هذا التراث ، لأنه لم يبق شيء من هذه النقوش في كامل البلاد العربية . إما ان العرب قد قضوا عليها بالبلدوزر واحلوا محلها بنايات عصرية ضخمة ، او ان اليد الصهيونية قد لعبت وعبثت بها كما شاءت ، هذا فيما يخص مدينة القدس مثلاً . ومن اراد الانكباب على هذه الحضارة يكون قد انصف اللغة العربية وانصف الحضارة العربية .

ومن الاشياء التي لوحظت ـ وقد ذكرني بها د. البسام منذ لحظة ـ هي ملاحظة (غيب) وتعليقه على عبقرية العربية بالرجوع الى النحو العربي ، من ان النحو العربي ، الذي هو من الوان النحو المتشعبة او اكثرها تشعباً ، قد دل على عقلانية اللغة العربية . يقول ( غيب ) ان ما ساعد

على انشاء هذه القواعد وتطبيقها ان للغة العربية ميزة ظاهرة ، هي منطقية بتعبيرها اكثر من اية لغة اخرى . اظن ان اردنا في هذا المجال ان نقارن اللغة العربية بلغة اخرى لا بد من ان نقارنها باللغة اللاتينية ، وان نقارن النحو اللاتيني بالنحو العربي والنحو العربي يتجاوز النحو اللاتيني ، لأن اللغة اللاتينية ، وهذا معروف لدى دارسي هذه اللغة ، لغة العقلانية ، اسلوبها اسلوب صعب ، ونحوها من اصعب ما يمكن ان يتعلم الانسان . فاللغة العربية تأتي على هذا الغرار مع الفارق انها لغة طيّعة ، فتختلف بذلك عن اللغة اللاتينية . انها لغة التخاطب ، في حين ان اللغة اللاتينية كانت اكثر استعمالاً في مجالات الكتابة والفصاحة المهنية . لكن اللغة العربية هي لغة عامة الناس ولغة المثقفين ، ولغة الفصاحة ، ولغة الوجدان . كل ما يريد ان يعبر عنه الانسان .

اما فيما يخص الدراسات السلوكية فأعتقد بقيمة تعليقات بياجيه ، ولست من المدافعين عن بياجيه ، لأني قد انتقدته في هذا البحث . لقد تبينت ان بياجيه قد تجاوزته الاحداث في معنى اساسي من المعاني التي عاش عليها مدة طويلة من الزمن ، وهو جعل بروز اللغة عند الطفل متوقفاً على ما نسميه بالوظيفة الرمزية ؛ ونسي في ذلك ما يلعبه المحيط الاجتماعي من دور ، وخاصة المحيط الثقافي في بروز هذه اللغة ، او في التبكير ببروز هذه اللغة او في عرقلة هذا البروز . وقد ذكرت ذلك في هذا البحث على اختصاره ، وبينت انه حتى وان عدلنا رأي بياجيه في هذا الاتجاه فإن هذا الرأي لا ينطبق تماماً على المجتمع العربي . وقد اعتمد بياجيه رأي برشتاين الذي يعتبر من زعماء هذا العلم الجديد المسمى باجتماعيات اللغة ، ويعتبر الآن برشتاين زعيماً كبيراً في هذا المجال . قد انتقدت وانتقدت في صفحات طويلة في الكتاب الذي نشرت ، وبينت بالارقام وبالمعطيات الاحصائية ان نظريته انما هي نظرية منقوصة ـ لا اقول خاطئة ـ لانه لم يعتمد الا طرفي المجتمع ، القاعدة وقمة الهرم ، والمستويات المتوسطة . والاسلام دين وسط ، والاسلام جاء يعنى بهذه الامة الوسط ، وعبقرية المجموعات العربية الاسلامية انما هي تكمن في هذه المجموعات الوسط ، لا مجموعات الجهالة والجاهلية التي تنكرت تماماً للعربية وللاسلام ، ولا مجموعات ـ واعتذر لاستخدام هذه اللفظة ـ الممسوخين في هذا العصر اي اولئك الذين اخرجهم الاستعمار الثقافي من جلودهم فاصبحوا لا يشتركون مع العرب الا في الاسماء . ولو شرح الانسان قلوبهم لوجد فيها العلم الانكليزي . فهؤلاء القوم كذلك لا يمكن للانسان ان يعتبرهم ويقيم لهم وزناً ، لكن مع الاسف تأثيرهم في المجتمع واللغة تأثير عميق . بياجيه لم تتجاوزه الاحداث على ما اظن ، من الناحية العلمية ، لأن الرجل توفي سنة ١٩٧٩ . والى وفاته بقي ينشر وترك بعد وفاته كتابين هما تحت النشر برعاية زميلته . وما قام من انتقاد لنظرية بياجيه في الولايات المتحدة لم يقم في هذه الايام الاخيرة ، وهو شيء يسير لأن نظرية بياجيه قد اخذ بها لا في مجال علم النفس او في مجال دراسة سلوك الطفل ، يجب ان لا نحمل الرجل اكثر مما يتحمل بل قد أخذت عليه اشياء في فن نشوء المعرفة عند الطفل .

« بالمقارنة ان هذا النشوء يحاكي مراحل نشوء العلم والمعرفة في كامل اطوار تاريخ البشر » وكتابه الاول هو **اللغة والتفكير** . وكان ما يهمه عند الطفل ليس سلوكه الكلي بل سلوكه الكلامي وما يبرز في هذا

السلوك من عمليات منطقية . . . الخ . علم النفس السلوكي ، وعلم نفس الطفل المركز على سلوك الطفل بكل ابعاده ، قد وجد له آفاقاً في المجموعات الفرنسية كما وجد في المجموعات الانكليزية ، لكنه تجاوز ( واطسون ) بالنسبة للمجموعات الناطقة بالانكليزية وكذلك تجاوز ( بافلوف ) بالنسبة للمجموعات الروسية لأن المعنيين بشؤ ون التربية يرجعون اليه . نحن الآن في مكتب التربية الدولي في جنيف بصدد اصدار مجموعة من المنشورات حول علوم التربية تتناول بالطبع علم النفس وبقية العلوم الاخرى ، لضبط رصيد هذه العلوم وما وصلت اليه من تطور في السنوات الاخيرة . قد اصدرنا الجزء الاول والجزء الثاني صدر في هذه الايام الاخيرة ، والجزء الثالث تحت الطبع . والجزء الاول اظن انه قد تم تعريبه ، والآن هو تحت الطبع . اذن هذا من الخدمات التي يمكن ان نقدمها في مجال علم النفس والتربية بالنسبة للمجموعة العربية .

د. واجدة حملتني ما لا استطيع تحمله . ما قلت ولو مرة واحدة ، وما فكرت في يوم من الايام في حياتي ان المرأة الجاهلة افضل بكثير من المرأة المتعلمة . قد قلت ان الام الامية ، المتأصلة في ثقافتها ، قد تكون افضل بالنسبة الى نمو ابنها من المثقفة ، تلك التي ادخل عليها الاستعمار الثقافي تشويهاً لا في التعبير فحسب ، بل تشويهاً في التعبير ، تشويهاً في التفكير وفي الوجدان . فما نلاحظه مع الاسف لدى الطبقات البرجوازية سواء في الشرق او في الغرب ، وهذا ما هو قائم في كل بلاد الدنيا ، ان البروز والتعالي عن رعاع الشعب يدفعان كبار القوم ونخبة القوم نحو اللغة الاجنبية . كان هذا موجوداً في روسيا القيصرية ، وكان اللجوء الى اللغة الفرنسية ظاهرة من ظواهر البرجوازية في ذلك العهد . وما زال هذا موجوداً في صفوف البرجوازية المصرية الى يومنا هذا ، بالرغم من ان مصر لم يقع احتلالها من طرف فرنسا . وبدل ان تتمسك بقيت البرجوازية المصرية باللغة الانكليزية تلجأ الى اللغة الفرنسية لأن الانكليزية يعرفها رجل الشعب المصري ولو بمقدار ، في حين ان الفرنسية قد تصبح امراً محتكراً للنخبة النخبة، وتصبح من هذا النوع من الكلام السحري : « افتح يا سمسم »! حتى تبقى اذن المجموعة مجموعة ضيقة . لكن عندما تكون مثقفة ثقافة اصيلة لا تتصرف على هذا النحو . وما يقال في المثقفة يقال في المثقف ، لكن احمّل المثقفة اكثر مما احمّل المثقف . وقد قلت هذا للاخت اثناء الاستراحة لأن الحديث عن نمو الطفل يعني الاعتناء اولاً بالذات بلغة الام لا بلغة الاب . وسميت اللغة لغة اماً لأنها اللغة التي تنطق بها الام ، لأن الصلة بين الطفل وامه انما هي صلة عضوية فهي ترضعه لبنها ، ومع لبنها ترضعه لغتها ، وان هي ارضعته لغتها فقد ارضعته كذلك تفكيرها ووجدانها . فإن كان الرضاع سليماً كان الطفل سليم النمو ، وان كان الرضاع عقيماً كان الطفل عقيم النمو ، وبقي عقيم النمو . وفي هذا تصديق لقول سقراط وقد سأله في يوم من الايام بعض سكان اثينا : متى يجب ان ابدأ في تعليم ابني؟ قال : لك ابن؟ قال نعم . قال : كم عمره ؟ قال له : الآن اسبوعان . فأجابه : لقد تم امره وانتهى ! اذن فقد افسده الدهر بعد اسبوعين من الولادة . اذن التربية يجب ان تبدأ منذ البداية وان تبدأ والطفل في رحم الام .

وهناك ملاحظة اريد ان انهي بها هذا الكلام هي التي قدمها د. الجسماني فيما يخص سياسة العامية في الريف . حيث الحّ أن المشكلة انما هي مشكلة تربوية . اظن ان هناك كثيراً من

الاخوان ، منهم د. بسام ود. مسارع الراوي ، يعلمون ـ وكل من اشتغل مع المنظمة العربية للتربية والعلوم يعلم ـ انه قد قامت محاولة في بلاد المغرب ـ ولا اقول هذا تبجحاً بما قام من تجارب في بلاد المغرب ، واني محرج شخصياً ان اتحدث عن هذه التجربة لأني قد اسهمت فيها ـ هي تجربة الرصيد اللغوي ، وضبط الرصيد اللغوي . وهذا ما اشارت اليه د. واجدة من انه يجب ان ننطلق من هذه اللغة العامية ونرتفع الى الفصيحة . فلم تقم محاولتي في البلاد العربية في هذا الاتجاه . فعدا ما جرى في بلاد المغرب من ضبط للرصيد اللغوي على اسس علمية مضبوطة، اضفنا الى المنهجية التي اعتمدناها ـ وكانت مقتبسة من فرنسا لضبط الرصيد اللغوي الفرنسي لتعليم الفرنسية للاجانب ـ اضفنا اشياء لم يفكر فيها الفرنسيون . اضفنا مثلاً عينات من كلام الاطفال في الفصول ، في ساحة المدرسة ، خارج المدرسة ؛ من كلام الكهول المحيطين بالاطفال ، وعينات مما ينشر في الصحافة ومما يسمع من الاذاعة ، وحللنا الكل عن طريق قوائم للتواتر باستخدام كمبيوتر في معهد الالسنية في الجزائر . مع الاسف كنا نود ان يحصل هذا العمل باشتراك كامل بلاد المغرب ، اي موريتانيا ، ليبيا ، الجزائر وتونس . لكن اثناء العمل قامت الثورة الليبية المباركة وتركنا اخواننا الليبيون . ثم قامت المناوشات بين المغرب والجزائر فتركنا اخواننا المغاربة وبقي العمل محصوراً بين تونس والجزائر ، لكننا قد انهيناه . وكنت حريصاً على الا يقع الانتهاء من هذا العمل والدخول به في حيز التطبيق ، وهو مطبق الآن في المدارس التونسية من السنة الاولى الى السنة السادسة من التعليم الابتدائي . وهو معمول به كذلك في المدارس الجزائرية والنتائج من اجمل ما كان ويكون .

اقدم لكم ملاحظة بسيطة ، عندما قمنا بهذا العمل اخذنا افضل كتاب كان معتمداً في السنة الاولى للتعليم الابتدائي في تونس ، وكان من تأليف استاذي ( حميد بكر ) الذي يعرفه د. البسام واعتمد هذا الكتاب اكثر من ثلاثين سنة . وكنا اعتقدنا انه افضل كتاب . عندما حلّلناه باستخدام قوائم التواتر هذه ، وقدمنا النتيجة للمؤلف ، اندهش وقال : ما كنت احسب ان هذا الكتاب على هذا المستوى من الحماقة . كيف نريد ان نعلم اطفالنا لغة جاءت ابعد ما تكون عن حياتهم وواقعهم ولا يوجد فيها الا اصوات . وحتى الاصوات نفسها عندما يكون المعلم ركيك الطبع ويريد ان يفخم الكلام وان يهول الاشياء فإنه ينفر هؤلاء الاطفال من لغتهم الى ابد الآبدين . لأن كل هذا انما يدخلنا في خضم هذه المشاكل التي هي مشاكلنا الاساسية الاصلية ، يجب ان نبدأ من هنا لكي نرتفع الى هذا النمط الامثل ، ولا اقول النمط المثالي ، بل الى هذا النمط الامثل . واكثر ما يتمناه الانسان هو ان يصبح في يوم من الايام قادراً لا على ان يحاكي القرآن وحاشى الله ان يحاكي الانسان القرآن ـ لكن قادراً على ان يتمثل ما ورد في هذا الكتاب ، لأن هذه هي غايتنا المثلى في آخر الامر في مجال التربية .

ملاحظة اخيرة اشار لها د. عبد العال تتعلق بسن التدريس بالعربية . هل يجب ان يبقى ابتداء من السنة السادسة او ابتداء من السنة الرابعة؟ وهي اشارة الى الورقة لأنه قد تفضل فطالع هذه الورقة على الرغم من طولها ، اشارة الى نظرية ( تانر ) فيما يخص النمو الذهني ونمو الانسجة

المختلفة كما ضبطها علم البيولوجيا الحديث . اي ان نمو الانسان في الحقيقة ليس مرتبطاً بتاريخ ميلاده ، فيمكن ان يكون عمره ست سنوات ولكن من حيث النمو لم يبلغ سنته الرابعة ، وقد يكون عمره الزمني ست سنوات وهو في نموه ـ وقد جاء سريعاً ـ قد حقق سن الثامنة . فيكون اذن من التجني على الطفل ان تقحمه في السنة الاولى وتفرض عليه تعلم القراءة والكتابة . وقد اتفق جل علماء النفس على ان تعلّم القراءة والكتابة لا يصح الا في سن السادسة ، هذه السن مقدرة بالسن الذهنية لا بالسن الزمنية فيكون اذن من الظلم ومن الحيف ان تدخل طفلاً وهو متأخر النمو ، لأن نموه جاء بطيئاً ، ان تدخله السنة الاولى من التعليم الابتدائي وان تقحمه في هذا الخضم مع رفاق له جاؤوا متقدمين من حيث نموهم . وكذلك يكون من الحيف بل من الخسارة الفادحة بالنسبة للامة العربية ان تبقي طفلاً ينتظر السنة السادسة وهو قادر في السنة الرابعة على تعلم القراءة والكتابة وعلى ان يغنم سنتين من حياته ويكون من المتقدمين الموهوبين . كل هذا ضبطه علم البيولوجيا الحديث بشيء يلوح غريباً لكنه معمول به ، في بلد على الاقل ، وهو بولونيا . ان كل هذه الاعمار اعمار الانسجة بما فيها السن العصبية . إن سن نمو الجهاز العصبي المركزي كلها لها مفتاح واحد هو السن العظمية . والسن العظمية يمكن ان تقدر بصورة مضبوطة ، وضبطوا لها الالواح ، باتخاذ صورة اشعاعية لمعصم الانسان ، لأن معصم الانسان هو جزء من الجسد الذي يوجد فيه اكبر عدد من العظام ، وخاصة اكبر عدد من نقاط التحجر . فبمجرد التقاط هذه الصورة ، وفي الحين ، يمكن ان نقدر سن هذا الانسان من الوجهة الذهنية . فإذا كان من حيث الزمن في سنته السادسة نقول هذا في السن الرابعة ، وهذا في سن الثامنة ، فهذا يدخل مدرسة وهذا لا يدخلها ، ينتظر مدة من الزمن . ولوحظ ان نمو اهل الجنوب اسرع من نمو اهل الشمال ـ جرى ذلك بصدد اطفال انكليز ـ وان نمو الاولاد في الارياف اسرع من نمو الاولاد في المدن . فيمكن للطفل العربي ان يغنم من هذه الظاهرة ، وبمعطيات علمية مضبوطة . ويمكن اذن ان نقلع عن هذا النوع من التبعية والتقليد المزيف ، لأن الطفل الفرنسي يدخل المدرسة في السنة السادسة،ولأن الطفل الانكليزي يدخلها في السنة السادسة ، يجب على الطفل المصري ان يدخلها كذلك . كان اولادنا في القديم ، وما زال اولادنا اليوم في الاوساط الشعبية الريفية ، يتعلمون القرآن وهم في سنتهم الثالثة . وهناك من سجل التاريخ له انه تعلم القرآن بتمامه وكماله وهو لم يتجاوز السنة السابعة ، وهذا من المعطيات التي يجب اخذها بعين الاعتبار .

# القسمُ الثّالث

# الفصل الخامس

# العامية والفصيحة

حاتم صالح الضامن

كانت اللغة العربية ـ وما زالت ـ موضع عناية العلماء على مر الازمان وتتابع القرون لأنها لغة **القرآن** الكريم ، قال تعالى ﴿ انا انزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾[1] ، وقال عز وجل : ﴿ وكذلك انزلناه قرآناً عربياً . . . ﴾[2] .

وقد نزل **القرآن** الكريم بلغة قريش التي كانت لغة الادب عند جميع القبائل العربية قبل نزول القرآن الكريم ، فازدادت ضبطاً واحكاماً وغزرت مادتها واتسعت اغراضها وارتقت اساليبها .

وبفضل **القرآن** الكريم ظلت اللغة العربية الفصيحة لغة الأدب والكتابة حتى يومنا هذا ، وستبقى ما دام هناك **قرآن** يتلى ، وقد كفل الله تعالى له الحفظ فقال عز وجل : ﴿ انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون ﴾[3] .

وكانت هناك مع هذه اللغة الفصيحة المشتركة لهجات محلية تستخدم في الشؤون العادية ويجرى بها الحديث اليومي ، ولم تتغافل كتب اللغة عن هذه اللهجات وعن تقييد خصائصها ، فهي تحدثنا عن عنعنة تميم ، وكشكشة ربيعة ، وكسكسة هوازن ، وعجرفية ضبة ، وفحفحة هذيل ، وعجعجة قضاعة ، وتلتلة بهراء .

---

(١) القرآن الكريم ، سورة يوسف : الآية ٢ .
(٢) المصدر نفسه ، سورة طه : الآية ١١٣ .
(٣) المصدر نفسه ، سورة الحِجْر : الآية ٩ .

فاللغة الاولى الفصيحة ، وهي لغة **القرآن** الكريم ، كانت تخضع لقوانين تضبطها وتحكم عبارتها .

واللغة الثانية المتمثلة في اللهجات المحلية ، وهي العامية ، لا تخضع لمثل هذه القوانين ، لأنها متغيرة تبعاً لتغير الاجيال وتغير الظروف المحيطة بها .

ووجود هذه اللغة المحلية بجانب اللغة الفصيحة ظاهرة طبيعية في كل اللغات ، فليس وجودها اذن في اللغة العربية بالامر الشاذ .

**وحينما انتشر الاسلام وامتدت فتوحاته ازداد اختلاف لهجات المحادثة** بسبب اختلاط العرب بالاعاجم ، فظهر اللحن ، وهو الخطأ في كلام الموالي منذ عهد النبي (ص) . فقد روي ان رجلاً لحن بحضرته فقال : « ارشدوا اخاكم فقد ضل » ، وقال (ص) : « انا من قريش ونشأت في بني سعد فأنّى لي اللحن؟» .

وذكر الفرّاء في كتابه **معاني القرآن**: « ان اول لحن سمع بالعراق : ( هذه عصاتي ) بدلاً من ( هذه عصاي ) » .

وكان عبد الله بن عمر يضرب بنيه على اللحن .

وكان عبد الملك بن مروان حريصاً على الحفاظ على سلامة اللغة العربية وتنقيتها من اللحن الذي بدأ يجري على السنة الناس ، فقد اسف اسفاً شديداً لظهور اللحن على لسان ابنه الوليد ، وقال : « اضر بالوليد حبنا له فلم نرسله الى البادية » . وروي عنه انه قال : « الاعراب جمال للوضيع واللحن هجنة للشريف » . وقال ايضاً : « اللحن في الكلام اقبح من التفتيق في الثوب ، والجدري في الوجه » .

وقيل له يوماً : « لقد اسرع اليك الشيب، قال : شيبني صعود المنابر والخوف من اللحن » .

وقال الخليفة عمر بن عبد العزيز : « ان الرجل ليكلمني في الحاجة يستوجبها فيلحن فأردّه عنها ، وكأني اقضم حب الرمان الحامض لبغضي استماع اللحن ، ويكلمني آخر في الحاجة لا يستوجبها فيعرب فأجيبه اليها التذاذاً لما اسمع من كلامه » . وقال ايضاً : « اكاد اضرس اذا سمعت اللحن » .

وكان الحجاج بن يوسف الثقفي يحرص على اللغة الفصيحة ويلزم بها المتصلين به .

كل هذه الاخبار تظهر لنا اهتمام الحريصين على لغة القرآن الكريم بسلامتها وتنقيتها من اللحن والعامي والدخيل .

**وجاء العصر العباسي فكانت هناك حركة لغوية دائبة اهتمت بجمع ما شاع على السنة** الناس من كلام يخالف سنن الكلام العربي الفصيح خشية امتداد خطره الى اللغة الادبية المشتركة ، فانبرى العلماء للذب عن هذه اللغة الشريفة فألّفوا كتباً كثيرة كان لها اثر كبير في صيانة اللغة وتنقيتها من اللحن والعامي والدخيل فذكرت الخطأ المستعمل والصواب الذي يجب ان يجري به الاستعمال .

وكانت هذه الكتب تهدف الى خدمة اللغة الفصيحة عن طريق تقويم ألسنة العامة وتصحيح اخطائهم واطلق على هذا اللون من التأليف اسم ( لحن العامة ) ، وسميت كتب اخرى من هذا التأليف باسماء تلائم الغرض منها ، فمن هذه الاسماء : اصلاح المنطق ، تثقيف اللسان ، تقويم اللسان ، تصحيح التصحيف ، وتحرير التحريف ، الجمانة في ازالة الرَّطانة ، التنبيه على غلط الجاهل والنبيه . . . . الخ .

وما من شك في ان تشدد اللغويين في رقابتهم كان ضرورياً لكبح جماح الخارجين على اللغة الفصيحة ، وقد كان هؤلاء اللغويون يمثلون التيار المحافظ الذي لم يكن منه بد لحماية اصالة اللغة العربية والحفاظ على سلامتها .

وقد كان أعداء العرب ينتقصون من اللغة الفصيحة ويدعون الى تبني اللهجات العامية ، وقد ارتبطت هذه الدعوة في القديم بدعاوى الشعوبية واعداء العروبة ، وحديثاً بالاستعمار واعوانه .

اما في القديم فقد روى لنا القلقشندي المتوفى سنة احدى وعشرين وثمانمائة[٤]، قصة رجل شعوبي كان يدعى ابن مخيمرة دأب منذ اكثر من الف عام على مهاجمة اللغة الفصيحة والحط من شأنها ، وكان يردد دائماً قوله : « النحو اوله شغل وآخره بغي » ، فانبرى له ابو جعفر النّحاس المتوفى سنة ثمان وثلاثين وثلاثمئة ورد عليه قائلاً : « وقد صار اكثر الناس يطعن على متعلمي العربية - جهلاً وتعدياً - حتى انهم يحتجون بما يزعمون ان القاسم بن مخيمرة قال : « النحو اوله شغل وآخره بغي » وهذا كلام لا معنى له ، لأن اول الفقه شغل واول الحساب شغل وكذلك اوائل العلوم ، افترى الناس تاركين العلوم من اجل ان اولها شغل » .

وكان البرامكة يريدون اعادة مجد فارس فشجعوا كثيراً من الكتّاب على تأليف كتب في ذكر مثالب العرب ، وبدأ قسم من الشعراء كأبي نواس وبشار بن برد والخريمي ومهيار الديلمي وغيرهم ينتقصون من العرب . وكان الهدف تقويض الكيان العربي بالنيل من لغته اولاً ، والقضاء على وحدته المتمثلة في هذه اللغة . وقد خاب املهم وبقيت اللغة العربية الفصيحة لغة الكتابة الادبية المشتركة .

**اما في العصر الحديث فقد ارتبطت مشكلة العامية والفصيحة بالوجود الاستعماري في** وطننا العربي على الرغم من انها في اصلها ظاهرة طبيعية في حياتنا اللغوية كما سلف . ولكن الاستعمار استغل هذه الظاهرة ليحارب اللغة الفصيحة بلهجاتها المتعددة ، ووجد في اختلاف اللهجات الاقليمية ذريعة للقضاء على اللغة المشتركة بعد ان انحدرت اللغة العربية الى غاية الضعف إبّان الحكم التركي الذي فرض اللغة التركية لغة رسمية للدواوين والتعليم .

---

(٤) ابو العباس احمد بن علي بن احمد القلقشندي، صبح الاعشى في صناعة الإنشا ( مصورة عن الطبعة الاميرية ) .

وقد مهد الاستعمار لمحاربة اللغة الفصيحة بأن ادخل تدريس اللهجات العربية المحلية في جامعاته ، بل وانشأ مدارس خاصة لدراسة هذه اللهجات مستعيناً في ذلك بالشرقيين الذين كانوا يعملون في بـلاده وبالمستشرقين الذين كانت لهم معرفة باللهجات العربية المحلية .

ففي ايطاليا درست العامية في مدرسة نابولي للدروس الشرقية التي انشئت سنة ١٧٢٧.

وفي النمسا انشئت مدرسة القناصل في فيينا سنة ١٧٥٤ لأنها كانت تعلم القناصل لغات الشرق ، ومنها العربية ،مهتمة بلهجاتها العامية ، ثم اسست سنة ١٨٥١ م مدرسة للهجات الشرقية .

وفي فرنسا درست اللهجات العربية العامية في مدرسة باريس للغات الشرقية الحية التي انشئت سنة ١٧٥٩ .

وفي روسيا انشئت مدرسة لازارف للغات الشرقية في مدينة موسكو سنة ١٨١٤ ، وكانت تدرس العربية ولغات الشرق الاخرى ،وفي عام ١٩٠٩ خصصت فرعاً لها لتدريس العربية ولهجاتها العامية .

وفي المانيا انشىء مكتب كبير في برلين لتدريس اللغات الشرقية ومنها العربية ولهجاتها المحلية .

وفي المجر انشئت سنة ١٨٩١ الكلية الملكية لعلوم الاقتصاد الشرقية وتدريس اللهجات ، ومنها العربية .

وفي بريطانيا انشأت جامعة لندن في اوائل القرن التاسع عشر فرعاً فيها لتدريس العربية الفصيحة والعامية .

هذا من جهة ، ومن جهة اخرى ، فقد كثرت عندهم المؤلفات الخاصة باللهجات العامية نتيجة اهتمامهم بادخال تدريس اللهجات العربية العامية في مدارسهم وجامعاتهم ، ومن هذه المؤلفات :

١ ـ **لهجة بغداد العامية** : لـ ( ماسنيون ) .

٢ ـ **لغة بيروت العامية** : لـ ( امانويل ماتسون ) .

٣ ـ **لغة مراكش العامية وقواعدها** : لـ ( ابن سميل ) .

٤ ـ **قواعد العامية الشرقية والمغربية** : لـ ( كوسان دوبرسفال ) .

٥ ـ **عامية دمشق** : لـ ( برغستراسر ) .

٦ ـ **قواعد العربية العامية في مصر** : لـ ( ولهم سبيتا ) .

**٧ ـ اللهجة العربية الحديثة في مصر : لـ ( كارل فولرس ) .**

**٨ ـ العربية المحكية في مصر : لـ ( سلدن ولمور ) .**

**٩ ـ المقتضب في عربية مصر : ـ ( فيلوت وباول ) .**

هذه نظرة سريعة عن اهتمامهم باللهجات العامية ، وهذا الاهتمام لم يكن من اجل البحث العلمي كما كانوا يزعمون ، ولا من اجل حاجتهم الى معرفة لهجات البلاد العربية التي تقتضي مصالحهم ان يعيشوا فيها ويتعاملوا مع اهلها ، وانما من اجل القضاء على العربية الفصيحة واحلال العامية محلها ليتسنى لهم التفاهم بها في مستعمراتهم واستغلالها في التجسس والاتصال بالعامة .

**ثمة امر آخر له اهمية كبيرة وهو الدعوة الى التحرر من الاعراب** ، والاستغناء عنه بتسكين اواخر الكلمات .

والاعراب من اهم مميزات اللغة العربية ، وهو الابانة والافصاح وهو مأخوذ من : اعرب عن الشيء اذا أوضحه وأبان عنه .

ولما كانت العربية لغة تتوخى الايضاح والابانة كان الإعراب احدى وسائلها لتحقيق هذه الغاية ، فلا يستطاع التمييز بين النفي والتعجب والاستفهام ، الا بالاعراب لأن الصيغة فيها جميعاً واحدة .

وهل يمكن بغير الضبط الاعرابي فهم المعنى المراد من قولنا : ( لا تأكل وتتكلم ) ، اهو النهي المطلق عن الفعلين ، وهذا يقضي جزم الفعلين ؟ ام النهي عن الاول وحده مع اباحة الثاني ، وهذا يقتضي جزم الاول ورفع الثاني ؟ ام النهي عن اقترانهما معاً مع اباحة كل منهما وحده على انفراد ، وهذا يقتضي جزم الاول ونصب الثاني ؟

وكيف نعامل اواخر الكلمات التي لا تعرب بحركات اعرابية في آخرها ، وانما تعرب بحروف ، كل حرف يرمز لمعنى خاص يخالف ما يرمز اليه الآخر كالاسماء الستة والافعال الخمسة والمثنى وجمع المذكر السالم؟

وكيف يتضح مدلول الضمير ( انت ـ لك ) بغير الحركة التي تبين نوعه ودلالته على المؤنث او المذكر ؟

فالاعراب ، اذن مطلب العقل في اللغة ، وهو ارقى ما وصلت اليه اللغات في الابانة والوضوح ، وقد بلغت العربية الفصيحة هذه المرتبة ولا يشاركها فيه من اللغات القديمة الا اليونانية واللاتينية ، اما اللغات الآرية الحديثة ـ وتشمل معظم لغات اوروبا ـ فقد خلت من حالات الاعراب ولا مميز فيها بين الرفع والنصب والخفض ، وانما يقوم مقامها إلحاق ادوات خاصة بذلك معظمها من حروف الجر او بتقديم الالفاظ وتأخيرها .

ومن المؤسف حقاً ان يقف قسم من الادباء والمفكرين العرب وراء هذه الحملات المسعورة فيدعون الى إحلال العامية والابتعاد عن الفصحى بسبب جمودها وصعوبتها وبداوتها وتخلفها عن حاجة العصر، ولأن العامية ـ في زعمهم ـ تمتاز بالسهولة والمرونة والقدرة على التعبير عن مطالب الحياة العصرية .

ان هذه الدعوات المشبوهة التي تبناها سلامة موسى وانيس فريحة لم يكتب لها النجاح .

نخلص من كل ما قدمنا الى ان تبني العامية واستخدام اللهجات المحلية في ميدان الكتابة والتأليف وفي وسائل الاعلام سيكون اكبر عامل في تقطيع اوصال الامة العربية والتمهيد للعزلة بين ابنائها .

ويدل على ذلك اننا نحن العراقيين كنا حينما نسافر الى دولة اجنبية فيها عرب من جنسيات اخرى نجد صعوبة في التفاهم معهم بلهجاتنا العامية ، فكنا نختار اما اللغة الفصيحة او اللغة الانكليزية وسيلة للتفاهم مع الاخوة العرب ، فإذا ما قضي على الفصيحة كما يتمنى اعداء العروبة ، فإن وسيلة التفاهم ستكون اللغة الاجنبية ، وهذا هو هدف الاستعمار : احلال لغاته محل العربية .

ولا بد هنا من الاشارة الى قرار منصف اصدره المستشرقون في مؤتمر لهم عقد ببلاد اليونان ، جاء في القرار : « ان اللغة العربية الفصحى هي اللغة التي تصلح للبلاد الاسلامية والعربية للتخاطب والكتابة والتأليف ، وان من واجب الحكومات في هذه البلاد ان تعنى بنشرها بين الطبقات الشعبية لتقضي على اللهجات العامية التي لا تصلح لغة اساسية لأمم تجمعها جامعة الدين والعادات والاخلاق » .

وبعد ، فاللغة العربية الفصيحة ، لغة **القرآن** الكريم ، هي عنوان مجد الامة ورمز وجودها وقوام حياتها ودليل وحدتها .

## المراجـــع


ابن عبد ربه ، احمد بن محمد . **كتاب العقد الفريد** . تحقيق احمد امين وآخرون . القاهرة : لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٨ ـ ١٩٦٧ . ٧ج .

ابن قتيبة ، ابو محمد عبدالله بن مسلم الدينوري . **كتاب عيون الاخبار** . القاهرة : دار الكتب المصرية ، ١٩٢٥ ـ ١٩٣٠ . ٤ج .

بوبو ، مسعود . **اثر الدخيل على العربية الفصحى** . دمشق : ١٩٨٢ .

حسن ، عباس . **اللغة والنحو بين القديم والحديث**. القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٦ .

حسن ، محمد كامل . **اللغة العربية المعاصرة** . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧٧ .

السامرائي ، ابراهيم . **تنمية اللغة العربية في العصر الحديث** . تونس : ١٩٧٨ .

سعيد ، نفوسة زكريا . **تاريخ الدعوة الى العامية وآثارها في مصر** . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٤

ظاظا ، حسن . **كلام العرب من قضايا اللغة العربية** . القاهرة : ١٩٧١ .

عبد التواب ، رمضان . **لحن العامة والتطور اللغوي** . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٧ .

عبده ، داود . **ابحاث في اللغة العربية** . بيروت : ١٩٧٣ .

العقاد ، عباس محمود . **اللغة الشاعرة : مزايا الفن والتعبير في اللغة العربية** . القاهرة .

عمر ، احمد مختار . **من قضايا اللغة والنحو** . القاهرة : عالم الكتب ، ١٩٧٤ .

القلقشندي ، ابو العباس احمد بن علي بن احمد . **صبح الاعشى في صناعة الإنشا** . مصورة عن الطبعة الاميرية .

المبارك ، مازن . **نحو وعي لغوي** . بيروت : ١٩٧٩ .

ناصف ، علي النجدي . **من قضايا اللغة والنحو** . القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٧ . ( في الادب والنقد ، ٦ )

# الفصل السادس

# المصطلح العلمي ووحدة الفكر

جميل الملائكة

## ١ ـ اللغة خاضعة لسنة النمو والتطور

لا جدال في ان كل لغة حية في مجتمع نامٍ متطور يجب ان تخضع لسنّة النمو وسنّة التطور : فهي يجب ان تنموَ لأن ذلك من علائم الحياة ، ولأن حياة اللغة متصلة بحيوية الفكر الانساني وتقدمه ، فهي اداة تفكيره ووسيلة تعبيره ، وتوقفها عن النمو معناه سبيلها الى الفناء والزوال ، مثلما يقود ركود الفكر نحو التخلف والضمور والاضمحلال . ونموُّ اللغة يعني تزايداً مستمراً في محتواها من المصطلح الحضاري والعلمي للوفاء بمتطلبات التقدم العلمي والتقني والحضاري ، وهي متطلبات تتنامى يوماً بعد يوم . ومن هنا نجد معجمات العالم المتقدم اليوم غير ما كانت عليه في مطلع القرن الماضي مثلاً . فالانكليزية ـ على سبيل المثال ـ اضيف اليها باستمرار الفاظٌ جديدة مثلُ radar و telephone و radio و vitamin و helicopterو transistor و isotopes و television و adsorption و plutonium وكثيرٍ سواها من المصطلحات . وعلى غرار ذلك لا بد من استمرار نمو المفردات في لغتنا العربية لتضمّ مقابلات لهذه المصطلحات وآلافاً اخرى من المصطلحات الجديدة ، على غرار ( الهاتف ) و( المذياع ) و( النظائر ) و( الامتزاز ) و( التنافذ ) و( الطائرة العمودية ) و( المكبحة ) و( العادم ) و( الحذّافة ) و( الحادلة ) و( الكرّاءة ) و( براءة الاختراع ) و( التأمين ) و( المسدس ) و( الرشاشة ) و( الغواصة ) و( البارجة ) و( الباخرة ) و( المقطورة ) و( المستوصف ) و( المحافظة ) و( المؤسسة ) و( المصلحة) و( المنشأة ) وأمثالها مما لم يوجد في معجمنا القديم .

واللغة يجب ان تتطور ، لأن التطور سنة الحياة ، ولأن متطلبات الحياة اليومية تتجدد باستمرار لعواملَ مختلفة ، أقلها أنّ الكثير من المفاهيم والوسائل والادوات قد يصبح بدائياً بمرور الزمن ، فيزول ويحُلّ سواه محلّه . ويتبع ذلك ان الفاظاً كثيرة قد يتضاءل استعمالها ، مثل ( الدِّمنة ) لآثار الدار المهجورة ، و( النُّؤْي ) للخندق يحفر حول الدار لمنع السيل . ومنها ما يكاد

يهجر ويصبح في عداد الكلمات المماتة ، ومن ذلك آلاف الالفاظ المهملة التي لا نكاد نجدها الا في المعجمات الكبيرة والقديم من مأثور الكلام ، مثلُ ( الشُّنْتُرة ) للاصبع ، و( السَّلِءِ ) للضرب ، و( الزُّعبولة ) للخرقة الممزقة ، و( الطِّنءِ ) للمنـزل ، و( الشَّماقـة ) للنشاط ، و( الشَّـرَنبَث ) للأسد ، و( السَّجَنجَل ) للمرآة .

وقد يتغير مدلول بعض تلك الالفاظ مع تقادم الزمن تَبعاً لقانون التطور هذا، فلا تكاد تستعمل لما كانت تحمله من معانٍ، بل تتخذ مدلولات اخرى لسدّ حاجات حضارية او علمية جديدة ، كما في لفظ ( الرسم ) الذي أصله آثار الدار الباقيةُ على الارض ، وقد تطور معناه الى ما نحدثه بالقلم من اثر على ورقة او سطح لتمثيل شيء ما . ولفظ ( القَلَم ) نفسُه أصـل معناه القصبُ ونحوُه بعد قَلْمِهِ اي قطعِهِ ، وتطور الى القصبة التي تُبرَى للكتابة ، ثم الى القلم الذي نكتب به الآن الذي لم يبق له في بعض اشكاله عَلاقة بالبري ولا بالقصب ، كما في قلم الحبر والحبر الجافّ مثلاً .

قيل إنّ مسؤ ولاً انكليزياً زار منذ قَرنين ونيِّفٍ احدى المُنشَآت الحديثةِ البناء . وبعد ان أكمل ناظر المبنى الفخورُ التجوالَ معه ، سأله رأيه فيها . ولقد سُرَّ الناظرُ بجواب الزائر الذي قال I find it awful and artificial . ولا ريب انه لو حدثت هذه القصة في هذه الايام لاغتاظ الناظر من جواب الزائر . فإن عبارة awful and artificial التي اراد بها الزائر آنئذٍ awe-inspiring and artistic اي ( مؤثرة ومتميزة بالفن الرفيع ) باتت تعني في هذه الايام ( فظيعة ومصطنعة ) . المهم ان اللغة في المجتمع الحيِّ النامي من طبيعتها ان تتطور وتنموَ باستمرار ، لمواكبة التقدم والتطور الحضاريِّ والعلميّ ، لأن الفكر واللغة صنوان ولا سبيل الى تقدم احدهما مع توقف الآخر .

## ٢ ـ رَقابة لغوية دقيقة على المصطلحات

إن هذا النموَّ السريعَ في لغتنا العربية ، الذي تقتضيه متطلبات استمرار التقدم العلمي والفكري في مجتمعنا العربي ، والذي يستلزم مواصلةَ اغنائها بالمفـردات العلمية والحضـارية ، وتقبّلَها لسدّ حاجات هذا التقدم ، يستدعي بذل اقصى العناية في توخي الدقة العلمية وتجنبَ كلِّ ما من شأنه ان يسبب اللبس والغموض . وهو من ثم يقتضي فرض رقابة دقيقة وصارمة ازاء هذا السيل الجارف من الاسماء والمصطلحات التي تتطلبها المفاهيم والمداليل الجديدة ، لضمان اتباع السبل القويمة في اختيارها . صحيح انّ لغتنا العربية يجب ان تتطور ، غير انّ علينا ، مع هذا التطور السريع ، ان نحرص على عدم انجرافها في تيار حشد كبير من الفاظ الدخيل والمفردات العامية والاشتقاقات والصيغ المغلوطة ، فنحافظَ على سلامتها ونحفَظَ لها اصالتها وهُويتها .

## ٣ ـ تعذر تحديدِ قواعدَ صارمةٍ لوضع المصطلحات

على انه يجدر هنا التذكير بالفرق ما بين علوم اللغة والعلوم المضبوطة ، من حيث الخصائصُ والطرائقُ والوسائل . فبينما يمكن رسم القواعد الواضحة وبيانُ الخطوات اللازمة للوصول الى حلّ

فريد لكل مسألة في الرياضيات مثلاً ، يتعذر تحديد قواعد تفصيلية دقيقة وصارمة لطريقة اختيار المصطلح لمعنى محدد ، فضلاً عن انه قد يتيسر الخِيار من بين مجموعة من الالفاظ او الاشتقاقات المختلفة للتعبير عن مدلول واحد معين . فقد يصحّ مثـلاً الاصطلاح بلفظ ( التثليم ) او بلفظ ( التحزيز ) او ( التفريض ) او ( التفليل ) وحتى ( التسنـين ) او ( التضريس ) ، او غيـرها ، لتقابل مدلول indentation . وقد ينفع اتباع قاعدة في استعمال وزن صرفي لوضع مصطلح في حالة ما ولا تنفع تلك القاعدة في حالة مشابهة ، لما قد يقع من لَبْس في المصطلح مع مدلولات اخرى . فمع صحة قولنا ( ماء شروب ) للماء الصالح للشرب لا يصحّ ان نقول ( سمك أكول ) لشدة احتمال التباسه بالسمك النَّهم الكثير الأكل . ومن هنا لن يعدوَ ما يمكن التطرق اليه في مثل هذه الدراسة المبادىءَ والاصولَ العامة التي تمكن الافادة منها والاهتداء بها في اختيار المصطلح ووضعه توخّياً لسلامة العربية ودقة التعبير ووضوح الأداء .

## ٤ ـ في وَحدة مبادىء وضع المصطلح أدنى متطلبـــات وَحـــدة الفكـــر

ولا جَرَم أنّ في وَحدة المبادىء العامة التي يحسن السير على هديها في هذا الموضوع المهم ، ادنى مستلزَمات وَحدة الفكر القومي . فلئن كانت وحدة المصطلح نفسه هي غايةَ هذه المستلزمات فإنّ أُولى وسائل تحقيقها وحدةُ المبادىء والأسس والاصول التي يجمل الاتفاق عليها للاسترشاد والعمل بها في المؤتمرات والندوات والاجتماعات التي تعقدها المجامع والهيئات واللجان المختصة بدراسة المصطلحات ، وفي المجهودات التي يبذُلها العلماء والباحثون في هذا الشأن ، وفي النِّتاجات العلمية التي يقدمونها .

## ٥ ـ توحيد المصطلح رهن بالاستعمال

ولعل من نافلة القول انّ توحيد المصطلح سيبقى في الآخـر ، في جميع الاحـوال ، رهناً باستعماله وتداوله . فالاستعمال وحده هو الذي ينخُـل ويغربـل ، ومن ثم يستبقي المصطلح الموحد الذي يكتب له البقاء .

لقد شاركت منذ امد قريب في ندوة عقدت في بلد عربي لتدارس بعض مشاكل ادخال اللغة العربية في هذا الجهاز المشهور المدعوِّ بالانكليزية computer . واذ لم يتجاوز عدد المشاركين بضعة عشر عضواً من ثمانية اقطار عربية ، كان مما يدعو الى العجب والأسف حقاً ان الاسماء المختلفة التي عبّر بها المشاركون عن هذا الجهاز شمَلَت ( الحاسبَ الالكترونيّ ) و( العقلَ الالكترونـيّ ) و(الحاسبةَ الالكترونية ) و( المِحسابَ ) و( النظّامةَ ) و( الحَسّابـةَ ) و( الحُسّابـةَ ـ بضمّ الحاء ـ ) و( المِحسبةَ ) و( الحاسوبَ ) و( الحيسوبَ ) و( الكمبيوتر ) . لقد كان ثمة اختلاف في بعض هذه التسميات حتى في القطر الواحد .

وقد يمكن القول بأن مثل هذا التعدّدِ في الاسماء متوقَّع لمثل هذا الجهاز المهم الذي انتشر

استعماله في الاقطار العربية بسرعة تعدّ كبيرة في حسابات ازمنة نموّ اللغات وتطورها ، فلم يتيسر الوقت الكافي للاتفاق على التسمية . غير انه لو توفر للمعنيين بوضع هذه الاسماء ، دليل يشتمل على بعض المبادىء العامة في وضع المصطلح لاختُزِل هذا العدد الى ما لا يزيد على النصف في اسوأ الاحتمالات . ويبقى من بعد ذلك على الزمن ، وعلى اللقاءات والمؤتمرات التي تعقدها الهيئات المتخصصة واللجان العلمية على كلا المستويين القطري والقومي ، وعلى وسائل الاعلام والصحف والمجلات والكتب ، وعلى سائر مواطن الاستعمال والتداول الاخرى ، امر توحيد هذا المصطلح بقانون البقاء للأقوى او الأنسب .

## ٦ ـ يُنظر الى المدلول الاصطلاحيِّ للمصطلح الاجنبيّ قبل معناه اللغوي

ولعل أهم مبدأ يجب الاخذ به عند وضع مقابل عربي لمصطلح اجنبي هو ان يُنظر الى المدلول الاصطلاحي للفظ الاجنبي قبل معناه اللغوي ، ومن ثم يختار اللفظ العربي المناسب لذلك المدلول . ذلك ان كثيراً من المصطلحات الحضارية والعلمية قد لا يؤدي معناها اللغوي الا جزءاً ضئيلاً من مدلولها الاصطلاحي او لا يربط بين هذين فيها الاّ علاقة ضعيفة . ولكن واضعي المصطلح يتواضعون على اضفاء مدلول معينّ على لفظه عندما لا يجدون اللفظ او الالفاظ القليلة التي تؤدي ذلك المدلول وتستوعبه ، او لأيّ سبب آخر قد نجهله . فمن ذلك ان المعنى اللغويَّ الظاهر لمصطلح adopted street في الهندسة مثلاً هو ( الشارع المتبنّى ) او ( الشارع المختار ) ، غير أنّ المراد به اصطلاحاً ، هو أنّه ( طريق تشرف عليه ادارة محلية ) ، وهذا مدلول بعيد بعض الشيء عن المدلول اللغويّ للمصطلح . وقد يمكن على اية حال الاصطلاح على تسمية بالعربية ( الطريق المحليّ ) ، ومثل ذلك لفظ shop الذي معناه اللغويّ ( الحانوت ) ولكنّ مدلولَه الاصطلاحيَّ في الهندسة هو ( موضعُ الشغل ) ، ولذا لا تصحّ تسميته ( الحانوتَ ) او ( الدكّان ) . ولكن يمكن ان يُصطلح على تسميته ( المشْغَلَ ) لأنه المعنى الاصطلاحيُّ المقصود .

## ٧ ـ تصحّ الترجمة الحرفية للمصطلح اذا طابق معناه اللغوي مدلوله الاصطلاحي

بيد انه قد يكفي لاختيار المصطلح العربي في بعض الحالات الخاصة ان يترجم المصطلح الاجنبي حرفياً الى اللغة العربية ، وذلك اذا تحقق لدى المترجم ان المعنى اللغويَّ للمصطلح الاجنبي ومدلولَه الاصطلاحيّ شيء واحد ، او ان احدهما قريب جداً من الآخر . وهكذا امكن مثلاً ان يُختار لمصطلح resistance ( المقاومةُ ) ، و friction ( الاحتكاكُ ) ، و velocity ( السرعةُ ) ، و ventilation ( التهويةُ ) ، و work ( الشغلُ ) ، و fire extinguisher ( مُطفِئةُ الحريق ) ، و shock absorber ( مُمتصُّ الصدمات ) . اما اذا ازدادت شقة الاختلاف بين المدلولين اللغوي والاصطلاحي للفظ الاجنبي ، كما هو حاصل كثيراً ، فلا بدّ عندئذٍ من الاعتماد

على المدلول الاصطلاحي في وضع المقابل العربي ، كما سبق بيانه ، وإلاّ أدّت الترجمة الحرفية للنصوص العلمية الى ارتكاب افدح الاخطاء .

## ٨ - يلزم لواضعي المصطلحات اتقان لغتين فضلاً عن التخصّص العلمي

من كل هذا يتبين ان وضع مصطلحات جديدة في اية لغة لتقابل الفاظاً اختصاصية مستحدثة في لغة اخرى من الاعمال المتخصصة التي يلزم لمن يقوم بها ان يكون متمكناً في كلتا اللغتين ، فضلاً عن وجوب المعرفة الدقيقة بالمدلولات العلمية او الحضارية لتلك الالفاظ . ولما كان كثيرون من المتخصصين في العلوم ، ولاسيما بعض الذين حصلوا على تخصّصهم في بلاد اجنبية ، تعوزهم المعرفة الكافية باللغة العربية ووسائلها في الاشتقاق ونحوِه ، فلا بدّ لهم في هذه الحالة من الاستعانة بأهل اللغة عند وضع المصطلح العربي او اختياره . ولمثل هذه الاسباب لا يكفي واضعَ المصطلح ان يكون عارفاً باللغتين متمكناً فيهما لقيامه بهذه المهمة ، لأنّ ذلك لا يمكن ان يُغنيَهُ عن العالم المتخصص في مادة المصطلح العارف بدقائق مدلولاته العلمية التي كثيراً ما تَقْصُر الدلالةُ اللغوية عن اظهارها .

لقد كان عدم ايفاء هذه الناحية حقها من الاهتمام ، او التساهل فيها ، سبباً في تفشي كثير من المصطلحات المغلوطة والاختيارات غير الموفقة ، او ادخال الفاظ كثيرة من الدخيل على لغتنا مما لم يكن داع لادخاله . فمن امثلة الغلط الناتج عن عدم الاحاطة بالمدلول العلمي للمصطلح ما سبق ان اوردته مقتضباً في بحث سابق(١) من وضع بعضهم مصطلحَ ( المركز البينيِّ ) ليقابل المصطلحَ الاجنبيَّ metacentre الذي يراد به نقطة التقاء الخطّ الرأسيِّ المرسوم من نقطة طفو جسم عائم بالخطّ الرأسي المرسوم من نقطة طفوه الجديدة بعد امالته قليلاً . ان هذه النقطة المهمة في دراسات توازن السفن تقع ( فوق ) كلٍّ من مركز الطفو ومركز ثِقْل الجسم العائم ( وليس بينهما ) . وكان الصحيحُ ان تدعى ( المركزَ الفوقيَّ ) او ( المركزَ الأعلى ) او ( المركزَ الأبعد ) . غير أنه يبدو ان واضع المصطلح العربي لم يكن لديه ادراك واضح لمدلوله العلمي فاختار اشهر معنى للسابقة meta وهو ( بين ) ، مع انها قد تعني ايضاً ( بَعْد )، كما في دلالة metaphysics على علم ( ما وراء الطبيعة ) . ولقد شاع مصطلح ( المركز البيني ) على خطئه ، فورد هكذا في معجم المصطلحات الفنية(٢) ، وقاموس المورد(٣) ، ومعجم المصطلحات العلمية والفنية(٤) . وقد زاد

---

(١) جميل الملائكة ، « في مستلزمات المصطلح العلمي ، » مجلة المجمع العلمي العراقي ، السنة ٢٤ (١٩٧٤ ) ، ص ٩ - ١٨ . وقد القي البحث في : مؤتمر التعريب الثاني الذي عقد في الجزائر عام ١٩٨٣ .

(٢) الجمهورية العربية المتحدة ، القوات المسلحة ، **معجم المصطلحات الفنية** ( القاهرة : ١٩٦٢ ) .

(٣) منير بعلبكي ، **المورد** : قاموس انكليزي - عربي ، ط ١١ ( بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٧٧ ) .

(٤) احمد شفيق الخطيب ، **معجم المصطلحات العلمية والفنية** ، ط ٥ ( بيروت : مكتبة لبنان ، ١٩٨٠ ) .

المورد في الطين بِلّة بأن عرّف هذه النقطة بأنها ( مركز ثقل الجزء غير المغمور من جسم طاف ) وهو تعريف مغلوط لا علاقة له اطلاقاً بمدلول المصطلح . اما المعجم العسكري الموحّد(٥) فقد وقع في الخطأ ايضاً بأن التبس فيه مدلول metacentre بمدلول centre of buoyancy فكلاهما فيه ( مركز الطفو ) ، مع ان ابرز فرق بين المركزين انّ احدَهما فوق مستوى سطح السائل وثانيهما دونه . إنّ في كل هذا ارباكاً ما بعده ارباك ، ولعلّه كان من الافضل ان يدرج هذا المصطلح الدقيق المعنى وامثاله في ايٍّ من هذه المعجمات ما دام مدلوله غير واضح كل الوضوح .

ولمثل تلك الاسباب ايضاً تداول الناس الفاظاً اجنبية كثيرة من امثال ( الريبورتاج ) ، و( الكوادر ) ، و( السكيتش ) ، و( الكَراج ) ، و( الشَّقْل ) ، و( الفرامل ) و( الديكور ) ، و( البندول ) ، و( البترول ) ، ومئاتٍ غيرها . وكان بالامكان التفادي من انتشار استعمالها لو أنّ أوّل مَن استعملها كان اكثر حذراً وحرصاً على اصالة لغتنا والنفع العام . فإن اتخاذ ألفاظ عربية عوضاً عن تلك الألفاظ الغريبة ، مثلَ ( التقرير ) ، و( المَلاكات ) ، و( المخطَّط ) ، و( المَرأب ) ، و( الجرّافة ) ، و( المِكبحة ) ، و( الزينة ) ، و( الرقّاص ) ، و( النِّفط ) هو بلا شك اكثر قبولاً عند عامة الناس وأسرع الى فهمهم ، واسهل عندهم في النطق ، وهو من ثم يستحقّ ما يبذل له من قليل الجهد .

## ٩ ـ دراسة المدلولات المتقاربة علمياً ووضع مصطلحاتها في آن واحد

ويتضح من مثال ( المركز الفوقي ومركز الثقل ومركز الطفو ) في الفِقْرَة السابقة بما لا يقبل الشك انه لو كانت صورة المراكز او النقاط جميعاً ماثلة امام واضع مصطلحاتها لأمكن تحامي ما حصل من خطأ ومداخلة . إنّ مبدأ دراسة المدلولات المتقاربة ( او المصطلحاتِ الاجنبية المتقاربة المدلول ) جملة ، ومن ثَمّ وضع المصطلحات العربية لها ، بدلاً من وضع مصطلح عربي لكل مدلول او مصطلح اجنبي بصورة مستقلة ومن غير دراسة المدلولات او المصطلحات المقاربة له ، لهو من المبادىء التي كثيراً ما يفوت واضعي المصطلحات الاهتمامُ لها والأخذُ بها ، فيسبِّبُ تجاهلُها الغموضَ واللَّبس في الأقلّ ، ان لم يُؤَدِّ الى خطأ في التعبير . فمن ذلك ما حصل من فوضى التسميات في اللغة الانكليزية لثلاثة انواع من الكثافة ، اولها : كتلة وحدة الحجوم ، وثانيها : ثقل وحدة الحجوم ، وثالثها : نسبة كتلة حجم من مادة الى كتلة حجم مماثل من مادة معينة كالماء . ولما كان وصف المادة باحدى هذه الكثافات غالباً ما يغني عن الاخريين ، فكثيراً ما اكتفوا بواحدة منها وتسميتها على التسهيل اي ( الكثافة ) density ، غير ان ذلك كان سبباً للَّبس والغموض ، لاسيما وأنهم قد يتخذون من الغرام وَحدةَ كتلةٍ تارةً ووحدةَ ثِقَلٍ تارة اخرى ، وكثيراً ما حاول

---

(٥) لجنة توحيد المصطلحات العسكرية للجيوش العربية ، **المعجم العسكري الموحد** ( القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧٠ ) ، القسم الاول : انكليزي ـ عربي .

بعضهم تمييز نوع الكثافة التي يستعملها باختيار تسمية لها ، فنتج عن ذلك تعدد الاسماء لكل من هذه الانواع الثلاثة ، فقالوا في الاولى density و specific mass و unit mass و mass density اي ما ترجمته ( الكثافةُ ) و ( الكتلة النوعية ) و ( كتلة الوَحدة ) و( الكثافة الكتليّة ) ، وفي الثانية density و specific weight و unit weight و weight density وحتى specific gravity ، وترجمته الحرفية ( الكثافة ) و( الثِقْل النوعي ) و( ثِقْل الوَحدة ) و( الكثافة الثقلية ) و( الجاذبية النوعية ) ، وفي الثالثة density و specific gravity و specific density و relative density اي ( الكثـافة ) و( الجاذبية النوعية ) و(الكثافة النوعية) و ( الكثافة النسبية ) . وكان من نتيجة كلٍّ ذلك ان التبس مدلول بعض هذه المصطلحات ببعض ، لاسيما وأن لفظي weight و gravity لا يختلفان كثيراً من حيث المعنى . وقد حصلت التباسات مماثلة ايضاً في المقابلات العربية من امثال ( الثقل النوعي ) و( الوزن النوعي) و( الكثافة ) و( الكثافة النوعية) . ولا ريب في انه لو كان واضعو هذه التسميات قد تدارسوا الانواع الثلاثة من الكثافة ومدلولاتها البسيطة وسموها في وقت واحد ، بدلاً من اختيار اسمائها كلاً على حدته وفي زمن مستقل ، لكانوا اختاروا لها الاسماء المتميزة الواضحة من مثل mass density و weight density و relative density اي ( الكثافة الكتلية ) و( الكثافة الثقيلة) و( الكثافة النسبية ) ، ولما حصلت هذه البلبلة التي استمرت بضع مئات من السنين ولما تكد تنتهي .

## ١٠ ـ دخول المصطلح المعجم المتخصص قبل ظهوره في المعجم العام

وقد يكون مبدأ دراسة المصطلحات المتقاربة المدلول في وقت واحد اقرب الى المتناول لدى مترجمي الكتب العلمية المتخصصة ومؤلفيها ، لأنهم يتناولون كل مادة علمية من جوانبها المختلفة ، فتعرض لهم هذه المدلولات المتقاربة التي تتطلب وضع المصطلحات المتميزة لها . غير أنّ ذلك يجب الاّ يُعفي واضعي مجاميع المصطلحات ومعجماتها من تلك التّبعة المهمة . ومن هنا تتضح خطورة ادخال أيٍّ مصطلح جديد في المعجمات العامة قبل التحقق من سبق دراسته من قبل الاختصاصيين ذوي المؤهلات الكافية . ان كل هذا يشير الى ضرورة السير حثيثاً في عمل المعجمات الاختصاصية يُعهَد بها الى لجان متخصصة مؤهلة علمياً ولغوياً لتدارس مدلول المصطلح الاجنبي في الاختصاص الدقيق مع مدلولات المصطلحات المقاربة له ، تُقَلِّبُها على وجوهها المختلفة لتضعَ أو تختارَ المقابلاتِ العربيةَ الملائمةَ لكلٍّ منها ، وتُودعَها المعجمَ الاختصاصيَّ تمهيداً لدخولها المعجمَ العام .

## ١١ ـ ضرورة تعريف المصطلح او الاشارة الى مظانّ تعريفه

ولا جدال في ان معجم المصطلحات الامثل هو الذي يورد تعريفاً لكل مصطلح يرد فيه . غير اننا نشهد اليوم نهضة واسعة لتعريب العلوم ، وهذه النهضة تتطلب الاسراع في تهيئة المعجمات الاختصاصية ، ذات الفوائد غير المحدودة للعلماء والباحثين والطلبة . ان هذه الحالة قد

تسوّغ في الكثير من الاحيان الاكتفاء بادراج المصطلح العربيّ المختار بازاء المصطلح الاجنبيّ ، مع شريطة الاحالة على المعجم الاجنبي الذي اعتمد عليه في تعريفات هذه المصطلحات . وهذا المبدأ معمول به في كثير من معجمات المصطلحات الاوروبية المتعددة اللغات[٦] .

غير ان مما يدعو للأسف صدورَ معجمات اختصاصية كثيرة لأفراد وهيئات مختلفة في الاقطار العربية على هذه الشاكلة من غير اشارة الى المرجع الذي يمكن العود اليه للتعرف على مدلول المصطلحات الواردة فيها . ان مثل هذا الاغفال في المعجم الاختصاصي كثيراً ما يسبب اللبس والوقوع في الخطأ لدى التراجمة والكتاب الذين يستعملون بعض هذه المصطلحات ، لاسيما وان ثمة مصطلحاتٍ اجنبيةً لها مدلولاتُ اخرى في الاختصاص ذاته قد لا يوردها المعجم . فإن لفظ hardness مثلاً يراد به في الهندسة المدنية في الاكثر ( مقاومة الاجسام الصُّلبة للخدش ) . وهو ما اصطُلح على تسميته ( بالجُسوءة ) ؛ فلو اورد معجم في الهندسة المدنية هذا اللفظَ الأجنبيّ ووضع بازائه لفظ ( الجُسوءة ) من غير تعريف له ولا إشارة الى المصدر الذي فيه تعريفٌ للّفظ الاجنبيّ ، فقد يكون ذلك سبباً للبس والغموض ومدعاةً للخطأ في بعض الحالات ، لأن مصطلح hardness قد يراد به ايضاً في بعض استعمالات الهندسة المدنية معنى ( عدم صلاحِيَة الماء للاستعمالات المنزلية ) ، لاحتوائه على املاح معدنية معينة ، وهي الخاصة المدعوة ( بالعسرة ) ، وهذا مدلول قد يغفله المعجم .

## ١٢ ـ تجنّب استعمال اللفظ الواحد لأكثر من مدلول ، قدر الاستطاعة

ومن طبيعة اي لغة ، كما سبقت الاشارة اليه في الكلام على تطور اللغات ، ان يصبح فيها الفاظ لها اكثر من مدلول واحد ، سواء أكان ذلك في المصطلحات العلمية على غرار ما اوردنا في مثال hardness باللغة الانكليزية في الفقرة السابقة ، ام في المصطلحات الحضارية كما في لفظ society الذي قد يعني ( المجتمع ) وقد يعني ( الجمعية ) . ومثل ذلك في العربية كثير ايضاً كما في لفظ ( المكتب ) الذي قد يراد به مرة ( خِوانُ الكتابة ) وتارة ( مكانُ ادارة العمل ) ، وكان ايضاً حتى عهد قريب يستعمل بمعنى ( المدرسة ) . غير أن هذا لا يُعفي واضع المصطلحات العلمية والحضارية من ضرورة بذل الجهد قدر الاستطاعة في تجنب مثل هذه الازدواجية عند اختيار ايّ مصطلح . وقديماً نبّه على هذا ابو علي الفارسي ( ت : ٣٧٧ هـ ) اذ يقول فيما ينسبه اليه ابن سيده[٧] ( ت : ٤٥٨هـ ) « .... اتفاقُ اللفظين واختلافُ المعنيين ينبغي ألّا يكون قصداً في الوضع ولا اصلاً ، ولكنه من لغات تداخلت ، او ان تكون لفظة تستعمل لمعنى ثم تستعار لشيء فتكثر وتصير بمنزلة الاصل » .

---

(٦) Louis [ Peter ] De Vries, *French-English Science Dictionary for Students in Agricultural, Biological and Physical Sciences* (New York; London: McGraw-Hill, 1940).

(٧) ابو الحسن علي بن اسماعيل بن سيده ، **المخصّص** ، ١٧ ج في ٥ ( بولاق : المطبعة الاميرية الكبرى ، ١٨٩٨ ـ ١٩٠٤ ) ، ج ١٣ ، ص ٢٥٩ .

إن من دواعي اللَّبس مثلاً ما جاء في بعض معجمات المصطلحات من استعمال مصطلح الهندسة المدنية ( الاستقرار ) ليدل مرة على ( ميل الجسم الذي هو في حالة توازن الى العودة الى حالته هذه بعد زحزحته ) ، وهي الخاصة المدعوة بالانكليزية stability ، ومرة ليدل على ( الهبوط التدريجي لمبنى ) ، او ما يدعى settlement ، وهو مدلول علمي يختلف عن المدلول الاول كل الاختلاف : وكان في الامكان تسمية هذا الاخير ( الهبوط ) لتمييزه عن الاول . ومثله ما جاء من استعمال مصطلح الهندسة الميكانيكية ( التبريد ) ليدل مرة على ( تبريد الهواء في المباني ) او ما يقابل cooling ، وتارة ليُرادَ به ( خفضِ درجة حرارة الطعام ونحوه بوضعه في الثلاجة لوقايته ) ، او ما يقابل refrigeration . وكان ممكناً تسمية هذا الاخير ( التثليجَ ) لتمييزه عن الاول .

## ١٣ ـ الإفادة من الخزين الكبير من الألفاظ القديمة المُماتة

لمثل هذه الاسباب يفيد في كثير من الاحيان العود الى الالفاظ القديمة المماتة ، ولاسيما السهل الذي لا يجافي الذوق منها ، للاصطلاح بها للدلالات العلمية والحضارية الحديثة ، وفي معجماتنا العربية خزين كبير من هذه المفردات التي لا نكاد نستعملها اليوم . وهذه الطريقة تكاد تكون هي الاداة الرئيسة المستعملة اليوم لوضع المصطلحات الجديدة في اللغات الاوروبية ، وان اختلفت طبيعة تلك اللغات بعض الشيء عن لغتنا العربية . فهم يرجعون في الاكثر الى اصول في اللغة اللاتينية او اليونانية القديمة ، وكلتاهما لم تعودا من اللغات الواسعة الاستعمال ليستفيدوا منها في صوغ مفرداتهم المتنامية والمتطورة باستمرار . وعلى هذه الشاكلة اختارو مثلاً مصطلح helicopter للدلالة على ( الطائرة التي تقتصر في استنادها في الجو على رد فعل التيار الهوائي الذي تدفعه الى اسفل رفاساتها الدائرة حول محور عمودي ) او ما ندعوه ( بالطائرة العمودية ) . وأصلُ المصطلح من اللفظين اليونانيين helicos بمعنى ( لولبي ) وpteron بمعنى ( جَناح ) .

وعلى غرار ذلك اختير اللفظُ العربيُّ القديم ( القِطار ) الذي اصل معناه ( جماعة الابل يلي بعضها بعضاً في نسق واحد ) واصطُلح به للدلالة على ( السلسلة المتصلة من مركبات النقل المتحركة على سكة الحديد ) . او اللفظ القديم ( الجابية ) التي اصل معناها ( الحوضُ يُجبَى فيه الماء اي يُجمَع ) للاصطلاح بها على ( رقعة الارض التي تُمدّ نهرا او بحيرة في نقطة معينة وتقع بين حرفين مرتفعين في اعلى تلك النقطة ) وهي التي تدعى بالانكليزية watershed او drainage area .

## ١٤ ـ يُوضَعُ المصطلح لادنى علاقة بين معناه اللغويّ والاصطلاحيّ

ولعلّ أمثلةَ الفِقْرة السابقة ستُفضي بنا في الحال الى مبدأ مُهمّ في وضع المصطلحات فحواه جوازُ اختيارِ المصطلح او وضعِهِ لأدنى علاقة او ملابسة بالمدلول . فإن التعريف العلمي الدقيقَ لما اصطلح عليه في اللغة الانكليزية بلفظ helicopter المأخوذ من اليونانية لا يمكن ان يستوعبَه هذا اللفظ البسيط الذي لا يعدو معناه ( الجناحَ اللولبيَّ ) كما رأينا .

ومثل ذلك المصطلح العربي ( الجابية ) الذي اصل معناه اللغويّ ( الحوض يجمع فيه الماء ) ولكنه استُعمل لمدلول علمي معقد، لأدنى علاقة بين المعنى اللغوي والدلالة العلمية . ولو لم يؤخذ بهذا المبدأ لصعب التعبير بلفظ او اثنين عن امثال هذه المدلولات العلمية المعقدة .

## ١٥ ـ اللفظ المهجور يضفي على المصطلح خصوصية لا يوفرها الشائع المتداول

وكذلك يُستدلّ من الامثلة المذكورة على ان العود الى ألفاظ مماتة في وضع المصطلح يعطيه خصوصية لا توفّرها الالفاظ المتداولة ذات الدلالات الشائعة المعروفة . فلو اختير لفظ ( الحوض ) مثلاً عوضاً عن ( الجابية ) لبات من الصعب اضفاءُ ذلك المدلول العلميِّ المعقد الخاص عليه ، لشيوع لفظ الحوض وبساطة دلالته واحتمال وقوع اللبس .

ومثل ذلك يقال في مصطلح helicopter اليوناني الاصل ، المتميز بخصوصية قد لا يجدها الانكليزيُّ في ترجمته الحرفية spiral wing البسيطة المدلول لو استعملها بدلاً منه . وعلى غراره مصطلح aquaplane الذي اطلقوه على ( اللوح الذي يُربط بمؤخَّر زورق بخاري مسرع ليركبه الرياضي واقفاً على الماء ) . وهو مكون من لفظ plane بمعنى ( السطح المستوي ) ، مُصَدَّراً باللفظ اللاتيني aqua بمعنى ( الماء ) . ولا يخفى انه لو سُمي waterplane لالتبس مدلوله بالطائرة المائية لمناظرته لمصطلح airplane اي الطائرة الهوائية .

## ١٦ ـ الافادة من المترادفات في مصطلحات المدلولات العلمية المتقاربة

ومهما اختلف بعض اهل اللغة في وجود الترادف او عدمه فإن هذه الالفاظ المدعوة بالمترادفات ذات فائدة كبيرة في توسيع آفاق الاصطلاح العلمي وسدِّ الحاجة في التفريق بين المدلولات العلمية المتقاربة . فمن المترادف مثلاً ان يقال ( أذاع فلان الخبر ) او ( نشره ) . ولكن من مصطلحاتنا الحضارية الشائعة اليوم اطلاقَ اسمِ ( المذيع ) على الشخص ( الذي يقدم البرامج من محطات الاذاعة المسموعةِ او المرئية ) ، في حين أنّ ( الناشر ) هو ( الذي يُصْدِر المطبوعاتِ ويَعرِضها للبيع او التوزيع ) . ومثلَ ذلك فرقّوا في الانكليزية مثلاً بين مصطلح hydroplane للدلالة على ( الطائرة المائية ) ومصطلح aquaplane للدلالة على ( اللوح الذي يُربَط بزورق بخاريٍّ ليقفَ عليه المُتريِّض منزلقاً فوق الماء ) ، مع أنّ المصطلحين مترادفان لغويّاً لأنّ كلا لفظي hydro ، اليونانيِّ الاصل من hydor ، و aqua اللاتينيِّ الأصل ، يعنيان الماء .

## ١٧ ـ يُتَّخَذُ مصطلح واحد للمدلول العلمي الواحد

ولئن اقررنا بوجود المترادفات في اللغات فليس من الصواب قبول مبدأ الترادف في

المصطلحات العلمية ، بل لا بدّ ، على العكس ، من التنبيه على وجوب الامتناع من استعمال عِدّة الفاظ لمدلولٍ علميٍّ واحد ، فذلك مخالف لمبدأ توحيد المصطلح ، وهو من ثَمَّ مَدعاةٌ للَّبس وسبب لصعوبة إشاعة المصطلحات الموحَّدةِ المُثلَى . ولئن جاز للأديب او الشاعر ان يستعملَ المترادفاتِ ليُضفِيَ على نِتاجه طِلاوةً ورونقاً فما على مترجِم كتابٍ علميٍّ او مؤلِّفِهِ او كاتبِ بحث الا ان يَلتزمَ لكلِّ مدلولٍ علمي مصطلحاً واحداً لا يغيِّره في كتابه او بحثِهِ لِما قد يسبِّبه ذلك لقارئه من ارباكٍ وعدمِ وضوح .

وأخطرُ من ذلك ان يَنشُرَ الأفرادُ العلميون والهيئاتُ الاختصاصية مجاميعَ المصطلحات والمعجمات المتخصصة يُدرجون فيها بازاء كل مصطلح اجنبي عدداً من المصطلحات العربية المترادفة يحار قارئها في ايٍّ يختار منها للاستعمال . لا شك أنّ هؤلاء هم احرى من القارىء بدراسة هذه المترادفات ومناقشتها وموازنتها واختيار اكثرها مناسَبَةً للمدلول العلمي .

ولئن اقررنا بوجود مشكلة في تعدُّد المصطلحات المستعملة في الأقطار العربية المختلفة ، على غرار ما اوردنا في مثال ( الحاسبةِ والحَسّابةِ والحُسّابة والحاسوب والحيسوبِ والنَّظّامةِ والكمبيوتر ) ، فما على كل هيئة ان تَزيدَ في الطين بِلّةً فتخترعَ او تُقِرَّ أعداداً إضافية من هذه المترادفات للمدلول العلميِّ او الحضاريِّ الواحد .

## ١٨ ـ فائدة المجاز في الاصطلاح العلميِّ والحضاريّ

ويُعَدُّ المجازُ من الوسائل المهمة في وضعِ المصطلحات ويُمكن به توسيعُ المعنى وتقوية التعبير . فإنّ مصطلحَ ( الرياضيات ) مثلاً ، وهو متخَذ للدلالة على ( العلم الذي يتناول العلائقَ بين الكميات ، والفِكَرَ التجريديةَ المختلفةَ لتلك العلائق ) ، لا تربُطه بمدلوله العلميِّ إلاّ عَلاقةٌ مجازية ، باعتبار ما يتطلبه ويؤدي اليه هذا العلمُ من رياضة عقلية . ومصطلح ( مُمتصّ الصَّدَمات ) الذي هو ترجمةٌ حرفية للمصطلح الانكليزيّ shock absorber فيه ايضاً استعمال مجازيّ لأنه ليس في هذا الجهاز ايُّ نوع من الامتصاص ، وهو في الحقيقة يخفِّف الصدمة ولا يمتصّها ، ولكنه سُمِّيَ هكذا من باب المجاز ، وفي التسمية تقوية للمعنى . ومِثلُه مصطلح ( الخَرْسانة المسلَّحة ) الذي هو ترجمة للمصطلح الفرنسيِّ beton armé . فليس في الخَرْسانة تسليحٌ بل فيها تقوية بقضبان الحديد ، ولكنَّ مختارَ المصطلح العربي فضَّلَ ترجمة المصطلح الفرنسيّ ذي الاستعمال المجازيّ على ترجمة مقابِلِهِ الانكليزيّ reinforced concrete اي ( الخرسانة المقوّاة ) توخياً لقوة المعنى والتعبير . وهكذا يمكن توفير امكانات واسعة للاصطلاح العلمي وبالاستعمالات المجازية .

## ١٩ ـ لا يُقتَصَرُ في وضع المصطلح على لغة اجنبية واحدة

ويقودنا مثال الفِقْرة السابقة ، الذي رجحت فيه ترجمة المصطلح الفرنسي على الانكليزيّ ، الى مبدأ مفيد آخر في وضع المصطلحات ، وهو أن لا يُقتَصَرَ دائماً في وضع مقابل عربي لمصطلح

اجنبيّ على لغة اجنبية واحدة . فقد لا يكون في الدلالة اللغوية لمصطلح انكليزيٍّ مثلاً أيُّ عَلاقة بمدلوله الاصطلاحيّ ، من قريب او من بعيد ، ويستعصي على واضع مقابله العربي اختيارُ المصطلح المناسب . وقد يكون من المفيد في مثل هذه الحالة العَودُ الى مُقابِلاتٍ لهذا المصطلح في لغاتٍ حية اخرى. فمن ذلك مثلاً المصطلحُ الانكليزيّ head ، الذي يدُلُّ في الهندسة على (طاقة وحدةِ الثِّقَلِ من مائع ) ، والذي لا يُوحي مقابلُهُ العربيُّ (الرأسُ ) بشيء من مدلوله العلميّ . وقد وَجَد واضع المصطلح العربيّ ضالَّته بالرجوع الى المقابل الفرنسي لهذا المصطلح وهو charge اي ( الشِّحْنة) فاختارها لعَلاقتها الوثيقة بالمراد بالمصطلح .

## ٢٠ ـ قابليةُ العربيةِ العظيمةُ للنموِّ بالاشتقاق

ولعلّ اللغةَ العربية من اوسع اللغات قابليةً للنموِّ بالاشتقاق . وقد احصَى اهلُ اللغة مئاتٍ عديدةً من الاوزان الاشتقاقية التي مكنت لهذه اللغة الشريفةَ ان تُصبحَ من اغنى لغات العالَم واغزرها عَطاء . إن هذه القابليةَ الاشتقاقيةَ تضع في أيدي العاملين في حقل المصطلحات اداةً فعّالةً وتوفِّرُ لهم إمكاناتٍ واسعةً في صوغ الالفاظ للمدلولاتِ العملية المتزايدةِ يوماً بعد يوم .

لقد اختلف النحاة منذ ان وُجد النحو في موضوع اللغة أهي سماع ام قياس ، ووضعوا في هذا الموضوع مجلدات كثيرة . بعضهم يرى ان « ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب »[٨] ، في حين يصرّ بعض على انه«ليس لنا اليوم ان نخترعَ،ولا ان نقولَ غيرَما قالوه. . .و. . .انّ اللغة لا تؤخذ قياساً نقيسُه الآن نحن »[٩] . ولعلّ من الانصاف ، وهذا الجدل الطويل لم ينتهِ بعد ، ان يقال بأن بعض الصيغ يمكن القياس عليه ، وان بعضاً لا يؤخذ الا بالسماع . فليس لاحدٍ مثلاً ان يعترض على قياس اسم المفعول بزنة ( مفعول ) من ايّ ثلاثيٍّ صحيح متعدٍّ ، وان لم يَرِدْ كلُّه في السَّماع ولم يُذكَرْ في المعجمات . وهكذا يطَّرِدُ قياسُ ( معلومٍ ومجهولٍ ومحسوبٍ ومعدودٍ ومجذوبٍ ومسحوبٍ ) وآلافِ اسماء المفاعيل غيرِها بهذه الصيغة . ومثله اننا نقيس مصدر كلِّ فعلٍ صحيح وزنه ( تفعَّلَ ) على ( تفعُّل) فنقولُ ( التحسُّنُ والتجمّلُ والتقدّمُ والتأخّرُ ) حتى لو لم نسمعْ بعضَه ولم يَرِدْ في المعجمات . غير أنه ليس لنا مثلاً ان نقيسَ مصادرَ على غرار ( علانيَةٍ ورفاهيَةٍ وكراهيَةٍ وصلاحيَةٍ ) من كل فعلٍ ثلاثيّ فنقولَ ( صَعاديةٌ ونزالية ) ، ولا أن نقيسَ على وزن ( موهبةٍ ومَعرفةٍ ومَوجدة ومَعصية) فنقولَ ( مَذهِبةٌ ومأتية )، فمثلُ هذه الاشياءِ لا تؤخذُ الا بالسَّماع ، وإلّا انفلت زمام اللغة وتشوهت هُويتها .

---

(٨) ابو عثمان بكر بن محمد المازني ( ت : ٢٤٩ هـ ) . انظر مثلاً : جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر السيوطي ، **الاقتراح في علم اصول النحو** ، تحقيق وتعليق احمد محمد قاسم ( القاهرة : مطبعة السعادة ، ١٩٧٦ ) ، ص ١٠٨ .

(٩) ابو الحسن احمد بن زكريا بن فارس ، **الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها** ( القاهرة : المكتبة السلفية ، ١٩١٠ ) ، ص ٣٣ .

وبين هذين الطرفين المتباعدين حالات كثيرة وُسطَى لا يصحُّ فيها اغلاقُ باب القياس ، ولا اطلاقُه على مصراعَيه . ولهذا لا بد من التذكير بأنّه ينبغي للمعنيين بوضع المصطلحات من اهل العلوم الافادة في ذلك من رأي العالِم باللغة المتمرس بصرفها واشتقاقها الممتلكِ لرهافة الذوق والحِسِّ اللغويين ، مع وجوبِ تجنُّبِ كلِ ما من شأنه اللَّبسُ في جميع الاحوال ، كما مرّ بيانُه . ولعلّ من المناسب التطرقَ الى بعض ما يهمنّا نحن المشتغلين بالعلوم من هذه الصيغ والاوزان ، مع التوكيد مرة اخرى أنَّه لا يمكن اتخاذ قواعدَ صارمةٍ في مثل هذه الاشياء لأنّ ما يشِذّ في اللغة اكثر من ان يُحصَى .

أ ـ **اسم الآلة** :وقد يمكن مبدئياً اختيار اوزانِه بحسب تسلسل حجم الاداة او الجهاز او الآلة كالآتي :

ـ ( مِفْعَلٌ ) و (مِفْعالٌ ) و( مِفْعَلَة ) وتصاغ من الثلاثيِّ المتعدي ، مثلُ ( المِلقَط) و(المِسَنّ) ، و( الميزان ) و( المِقياس ) ، و( المِعزَقة ) و ( المِرَشّة ) و( المِصفاةِ ) .

ـ و( صيغةُ اسمِ الفاعل مذكّراً او مُؤَنّثاً ) ، مثلُ ( الكاتِم ) و( العادم ) ، و( المُفاعِل ) و( المُرسِل ) و( المُستقبِل ) و( المُكَثِّف ) و( المُشِعّ ) ، و ( الطائرةِ ) و( القاطرةِ ) و( الحادلةِ ) ، و( المُبَرِّدةِ ) و( المُجَلْفِطة ) .

ـ و( صيغةُ مبالغةِ آسمِ الفاعل تذكيراً او تأنيثاً ) ، مثلُ ( الرفّاس ) و( السيّارةِ ) و( الدبّابة ) و( الغوّاصة ) و( النّسّافة ) .

اما ما عدا ذلك من الاوزان فيؤخَذُ سَماعاً ، مثلُ ( سِدادٍ ) و( صِمام ) و( رِتاجٍ ) و( عِنانٍ ) و( لِجام ) . فليس لنا مثلاً ان نقيسَ ألفاظاً مثل ( فِتاح ) و( نِساف ) و( جِماد ) و( لِقاط ) لمدلولات ( المفتاح والنّسّافةِ والمُجَمِّدةِ والمِلقط ) ولو فعلنا ذلك لكان غريباً مردوداً . ومثلُ ذلك الصِّيغُ السَّماعيّةُ الأُخرَى نحوُ ( المُخْلِ ) و( المُنْخُل ) و( المُكْحُلَةِ ) و( السّاطورِ ) وغيرها .

ب ـ **التَّعدية** : وهي مهمة لكثير مما تَقُومُ به الأجهزةُ العلميّةُ من عمليات ، مثل ( الإحماءِ والإمرارِ والإخمادِ والإزاحة والإماعةِ والإسالة ، والتجميد والتبريد والتسخين) وكلها مصادرُ مَصوغة من أفعالٍ عُدِّيَتْ من أصولٍ لازمة . وتكاد تَطَّرِدُ قاعدةُ تعدية الثلاثيِّ اللازم بالهمزة ، مثل ( أحمَى وأَخمَدَ وأزاح ، وأسال ) من ( حَمِيَ ، وخَمَد ، وزاح ، وسال ) ، إلاّ ما اشتهرت وجازت ايضاً تعديَتُهُ بالتضعيف مثلُ ( بَرَّدَ ، وجَمَّدَ ) من ( بَرَدَ وجَمَد ) ، وعدا ما يلتبس بأفعالٍ هذه صيغتُها ولها دلالاتٌ تختلف عن تلك ، مثلَ ( أكرَمَ ، وأحسنَ ، وأقامَ ، وكَرَّمَ ، وقَتَّلَ ، وجَوَّلَ ، وطَوَّفَ ) وغيرها .

وتفيد الهمزةُ ايضاً في جَعْل المتعدّي لواحدٍ متعدِّياً لإثنينِ مثلَ ( أَلْبَسَ وأركَبَ وأَحْمَلَ ) من ( لَبِسَ ورَكِبَ وحَمَلَ ) .

ج ـ **المطاوعة** : وهي صيغة مفيدة في لغة العلوم لدلالتها على التأثُّر بفعل خارجيّ . وتكثُرُ صياغتها بوزن ( اْنْفَعَلَ ) من الثلاثيِّ المتعدِّي مثلِ ( انقطع ، وانكشفَ ، وانشَقَّ ) ، من ( قَطَعَ ، وكَشَفَ ، وشَقَّ ) ، عدا ما اشتهرت مطاوعته بوزن ( افْتَعَلَ ) مثل ( اجْتَمَعَ ، وانْتَشَرَ ) من ( جَمَعَ ، ونَشَرَ ) . ومصدر هذين ( الانفعالُ والافتعال ) ، وهما كثير في لغة العلوم ، مثل ( الانخفاضِ ، والانحرافِ ، والانصهارِ ، والانحلالِ ، والانتشارِ ، والارتفاعِ ، والالتصاقِ ) وغيرِها .

ويكثر استعمال وزن ( تَفَعَّلَ ) لمطاوعةِ ( فَعَّلَ ) المضعَّف العين المتعدّي ، ومصدره ( التفعُّل ) مثلُ ( التجمُّدِ ، والتجمُّعِ ، والتحلّل ، والتجزؤ ) .

د ـ **التشريك**: وهو مهم جداً ايضاً في لغة العلوم لدلالته على العلائق او العمليات المتبادَلة ، وزِنَةُ فعلِهِ ( تَفَاعَلَ )، ومصدرُهُ ( التفاعُلُ ) مثلُ التناظُرِ ، والتماثُلِ ، والتفاعُلِ ، والتبادُلِ ، والتجانسِ ، والتعادل وكثيرٍ غيرِها من مصطلحات العلوم .

هـ ـ **الاشتقاق من اسماء الاعلام والاعيان** : وهو أسلوب شائع في لغة العلوم ، فقد تَرِدُ مصطلحات اجنبيةٌ مشتقةٌ اساساً من اسماء أعلام ، مثل galvanization و pasteurizationو voltage من كالڤِنِ ، وپاستور ، وڤولط ، فتشتقّ لها مصادرُ بطريقةمشابهة ، مثلُ ( الغلونة ) و( البسترة ) ، و( الفُلطيّة ) ، وهذا الاخير مصدر صناعي .

ويكثر الاشتقاق من اسماء الاعيان لسد حاجات علمية او حضارية . ومن امثلة المصادر التي استقوها منها قديماً ( التوشيح ، والتفضيض ، والتبلر ، والتزفيت ، والتكليس ، والإنجاد ) من ( الوِشاحِ ، والفِضّةِ ، والبِلّوْر ، والزِّفْتِ ، والكِلس ، ونَجْدٍ ) . وكثيراً ما نحتاج اليه اليوم في لغة العلوم ، كما في الفاظ ( التأميم ، والتسويقِ ، والتحديثِ ، والتقعيد ) من ( الأمّةِ ، والسُّوقِ ، والحَداثة ، والقاعدة ) . وكذلك ما هو مشتقّ من آسم العَيْنِ الدخيل ، مثلُ ( التأيُّنِ ، والتأكسدِ ، والمغنطةِ ، والتكهربِ ، والتصبّنِ ، والهدرجةِ ) منَ ( الأيون ، والأكسجين ، والمغنَطيس ، والكهرباء ، والصابونِ ، والهِدروجين ) . غير أنّ كل ذلك يجب ان يَخضعَ لاحكام الضرورة العلمية المُلْزِمة والرَّقابةِ اللغويةِ الدقيقة .

و ـ **المصدر الصناعي** : وهذا يفيد في التعبير عن مدلولات كثيرة في مصطلح الحضارة والعلوم . ويصاغ بالحاق ياء النسبة والهاءِ بآخرِ الاسم أو الصفةِ أو المصدر ، او حتى الجملةِ في بعض الاحيان . ومنه الفاظُ ( الاقليميةِ ، والجاهلية ، والانعزاليةِ ، واللاأدرية ، والافضلية ، والاسبقية ، والارجحية ، والحسّاسيَّةِ ، والتلقائيةِ ، والاحتماليةِ ، والمُنْفذيّة ، والمَطِيلية ، والمَطّاطيّةِ ) وكثيرٍ غيرِها .

ز ـ **التسمية بالمصدر والتسمية بالصفة** : من الخواصِّ اللغويةِ إمكانُ التسمية بالمصدر ، وهو اسلوبٌ اتُّبع منذ القِدَمِ في آختيار الكثير من الاسماء . فمن ذلك تسميةُ كتاب اللّهِ العزيز

( القرآنَ ) . وأصل معنى القرآن القراءةُ ، ولكنه مصدر انتقل الى الاسمية فصار يطلق على هذا الكتاب الذي نقرأه . ومثله ( التنزيلُ ) وهو مصدر أُريدَ به انزالُ القرآن وآستُعمِلَ ايضاً بمعنى القرآن نفسه ، و( التأريخ ) وهو مصدر بمعنى تسجيل الاحداث واسم لسِجِلِّ الاحداث ، و( الجمعُ ) انتقل الى معنى جماعة الناس . فقالوا ( جاء في التنزيل كذا ، وكتب فلان تأريخاً ، والتقى الجمعان ) .

وهذا الاسلوب موجود في بعض اللغات الاخرى ايضاً ، ففي الانكليزية مثلاً يعني لفظُ allowance ( التخصيص ) ويُستعمل ايضاً آسماً ( للمبلغِ المخصَّص ) .

وفي هذا الباب مجال واسع لاغناء المصطلح العلمي والحضاري . وبه نقلوا(التمرينَ)وهو مصدر بمعنى التدريب ، الى آسم لِمَا يُقْتَرَحُ او يُنْصَحُ به للتدريب ، فقالوا مثلاً ( حلّ خمسةَ تمارينَ في الحساب ) . ومثلُه نَقْلُ ( التصوير ) الى الصورة نفسها ، و( التقرير ) الى المادة التي تُقَرَّرُ وتُكْتَب . ومثلُ هذا كثيرٌ في المصطلح العلميِّ والحضاريِّ الجديد .

ويقاربُ هذا بابُ التسمية بالصفة . وهو ايضاً اسلوب مُعْرِقٌ في القِدَم ومنه ( الدقيقةُ ) يُراد بها المدةُ الزمنيةُ الدقيقة ، و( الأحياءُ ) للناسِ الأحياءِ ، و( الحَسَنةُ ) للمعروف ، ومئاتُ الالفاظ الاخرى . وعلى غِرارِهِ في الانكليزية استعمالُ لفظ adhesive مثلاً صفةً وآسماً ، فإنّ اصلَ معناه ( شديدُ الالتصاق ) ولكنهم يستعملونه ايضاً ( للمادّة اللاصقة ) نفسِها .

وهذه الخاصةُ اللغوية في امكان استعمالِ صيغةِ الوصف لمعنى الاسمية مفيدةٌ جداً في وضعِ المصطلحات ، ولاسيما في وضع اسماء الاعيانِ . ومن امثلتها في المصطلح الحديث اتخاذُ لفظ ( الذَّريئةِ ) لما تُذْرَأ به النُّفاياتُ ، و( النَّبيطَةُ ) للأداةِ المستنبَطة ، و( اللصوق ) للمادة اللاصقة ، ومئاتٌ من الالفاظ على غِرارِها .

هذا غيض من فيض مما تمكن الافادة منه في الاشتقاق للأغراض العلمية . وهو اقرب الى التمثيل منه الى الاستيعاب ، فإنه لا يشمُلُ الصِّيغ القياسيةَ الكثيرة الاخرى ذاتَ الدِّلالاتِ اللغويةِ المختلفةِ التي يُمكِنُ ايضاً الافادةُ منها في صوغ المصطلح .

## ٢١ ـ لا حاجةَ لنا بتقليب الحروف او تبديلها لاشتقاق الفاظ جديدة

في كل هذا مَغناةٌ عمّا صارت ترتفع به اصواتُ بعضهم من المناداة بتقليب حروف الكَلِمِ العربيِّ لاستحداث الفاظ جديدة ، كأن نصوغَ من ( ضَمِنَ ) الفاظاً مثلَ ( مَنَضَ ، ومَضَنَ ، وضَنَمَ ) ، كأنَّ معجماتِنا خلت وخوت من آلاف الالفاظ المهجورة فأصبحنا بمسيس الحاجة الى مثل هذه المستحدثات الغريبة .

ومثلُهُ ما يدعو اليه آخرون من الاستبدال ببعض حروف الكَلِمِ حروفاً مقاربةً لها لتوليد

الفاظ جديدة[١٠] ، كأن نولد ( الإزغاءَ ، والإسغاءَ ) من ( الإصغاء ) . وكلُّ ذلك مُجافٍ للذوق السليم وفيه تشويةٌ للعربية وتجاوز على هُويَّتِها .

ولئن تَمَسَّكَ دُعاةُ هذه التقاليب والتباديل بأنّ بعضِ الاوائل عُنُوا بها فإنّ تلك العنايةَ لم تَعْدُ الدراسةَ العلميةَ للعلائق اللغوية بين الالفاظ المقلَّبةِ او المُبْدَلة حروفُها ، فضلاً عن أنَّ الخليلَ بن احمد ( ت : ١٧٥هـ ) كان أوَّلَ من اتَّخذ التقاليبَ اساساً في ترتيب الفاظ معجمه ( العَيْن ) . ولم يُسْمَعْ عن أُولاء الدارسين ، وأشهرُهم ابو عليٍّ الفارسيّ ( ت : ٣٧٧ هـ ) ومِن بعدهِ تلميذُه ابنُ جنيّ ( ت : ٣٩٢ هـ ) ، أنْ دَعَوْا الى اتِّخاذ هذه التقاليبِ او التباديلِ سبيلاً الى توليد الفاظٍ جديدة .

## ٢٢ ـ الالفاظ الاجنبيةُ في اللغة العربية

ويضطر اهلُ العلومِ والناسُ عامّةً الى إدخال الفاظٍ اجنبية وعلمية وحضارية في اللغة العربية يوماً بعد يوم ، للحاجة المُلِحَّة ولعدم توفُّر مقابلاتها العربية . وقد ينطقون بهذه الالفاظ كما يُنطَقُ بها في لغاتها الاصلية . وقد يحوِّرونها بعض الشيء محاولين بذلك جعل اصواتها واوزانها تقارب اصواتَ اللغة العربية واوزانَها فيما يُدعَى ( بالتعريب ) .

ومهما قيل في أُصول هذا التعريب وقواعده فيبدو انها ما زالت غامضةً غير واضحة المعالم . فالمعروف أنهم كانوا في تعريبهم قديماً يتخذون الفاظاً على غرار ( الاسطرونوميا ، والبويطيقي ، والريطوريقي ، والارتماطيقا ) لمعاني ( الفَلَكِ ، والشعرِ ، والخَطابةِ ، والحساب ) . فأين تلك الالفاظ من الاوزان الاشتقاقية العربية؟ صحيح أنَّهم غيَّروا بعض الالفاظ وجعلوها بأوزان عربية مثلَ ( الهرطقةِ ، والزندقة ) ، ولكنهم في الاغلب لم يتَّبعوا ذلك او لم يتمكنوا منه لاستحالته .

ولقد غيروا اصوات بعض الحروف فجعلوا حرف T طاء ، وحرب C قافاً ، كما يظهر من الامثلة المذكورة ، وحرفP باء كما في(البويطيقي ) ، وقد يجعلونه فاء كما في ( فيثا غورس ) ، وجعلوا حرف G غَيناً كما في ( الجغرافية ، وغرناطة ) ، وحرفَ D طاء ، كما في ( غرناطة ، ومُجريط ، وقرطبة ) ، وحرف V تارة باء ، كما في ( إشبيلية ، والبندقية ) ، وتارة واواً كما في ( قزوين ، والقوقاز ) . وتَجَنَّبُوا بدءَ كلمةٍ بحرف ساكن بأن وضعوا قبلها همزةً مكسورة ، كما في ( إسْبَرُطَة ) . وتجنبوا التقاءَ الساكنين الصحيحين بتحريك احدهما . وقد يُقْصِرون الألِفَ اللَّيِّنَةَ التي يليها ساكن فيجعلونها فتحةً ، ومثلُها جعلُ الواوِ ضَمَّةً والياءِ كسرة .

---

(١٠) يُسمِّي بعضُ الصرفيين توليدَ الالفاظ بتقليب الحروف « الاشتقاقَ الكبير » وتوليدَها بتبديل بعض الحروف « الاشتقاقَ الاكبر » ، ويعكس آخرون ذلك فيجعلون «الاكبرَ» للتقليب و«الكبيرَ» للتبديل . وقد آثرنا الاقتصارَ على « التقليب » و« التبديل » وتَرْكَ مصطلحِ « الاشتقاق » الى الاشتقاق الصرفيْ المعمولِ به ، وهو الذي استهانوا به فسمّوه « الاشتقاقَ الصغير » .

المهم انه سيصعُب علينا ، كما صعُبَ عليهم قديماً ، ان نُغَيِّرَ صيغة بعض الالفاظ الاجنبية لجعلها بأوزان عربية . فلو فرضنا جدلاً ، أنّنا أردنا تعريبَ لفظِ ( جيومورفولوجيا ) او ( انثروبولوجيا ) وجعلَه بوزن اشتقاقيٍّ عربيٍّ فهل يتسنى لنا ذلك؟ الجواب لا ، لأن كلا اللفظين بعيد جداً عن الاوزان الاشتقاقية العربية .

لنعد الآنَ الى ما اختاروه قديماً لاصوات الحروف الاجنبية . فلو اتّبعنا الآن بعضَ تلك القواعد في تغيير اصوات الحروف لوجب علينا ان نقولَ ( انغلترا ) و( اللغةُ الانغليزية ) و( سيارةُ طويوطا ) ( وجريدةُ ابربده أو إفْرَوْدَه ) و( سيارةُ بولبو او وولوو ) و( آبارُ بابا غُرْغُر ) و( علمُ الميقانيقا ) و( لَدَيَّ مِائةُ إغْرامٍ من الفِضّةِ وعشرون إفرنكاً إفرنسياً ) .

لقد سبقت الاشارةُ الى أنّ الصوابَ اختيارُ الفاظ عربية لكل مصطلح اجنبيٍّ وان تُضَاعَفَ الجهودُ المبذولة لهذا الامر ولا يُتَسَاهَلَ فيه . غير أنّه لا بدّ من استمرار استعمال الكثير من الاسماء الاجنبية ، كبعض العناصر والمركّبات الكيمياوية مثل ( البوتاسيوم ، وأُكسيد الكلسيوم ) ، وبعضِ الأدوية والعقاقيرِ مثلِ ( الأمبسلين ، والمركروكروم )، والمقاييسِ والوَحَدَات مثلِ ( الفرنك ، والكيلوغرام ) ، وكثيرٍ من اسماء الاعلام الاجنبية والمواقع والمعالم الجغرافية ، فضلاً عن المصطلحات الاجنبية الكثيرة التي شاع استعمالها ولم تَحُلَّ الفاظ عربية مَحَلَّها بعدُ ، مثلِ ( الميكانيك ، والترانزستر ) وغيرها . فكيف سيُنْطَقُ بكلِّ هذه الاسماء ، وكيف ستُكتَب؟ لعلّ من الافضل ان يُنْطَقَ بها ، وأنْ تُكْتَبَ ، مثلما ينطق بها اهلها ، بالقَدر المستطاع فإنّ ذلك أدعَى الى الفهم وأضمن في إزالة اللبس .

ولا جَرَمَ أنّ ذلك يستلزم صُوَراً لبعض الاصوات اذا أُريدَ تمييزُها في الكتابة ، ولاسيما ما يرد منها في بعض الأعلام الجغرافية والاسماءِ الكيمياوية . وتكاد تُجْمِعُ المجامع والهيئاتُ العلمية في أحدَث مقرَّراتها على رسم صوت G بصورة الكاف بشرطتين (گـ ) ،وصوت P بصورة باء بثلاث نُقَط (پ ) ، وصوت Ch بصورة جيم بثلاث نُقَط (چـ ) ، وصوت V بصورة فاء بثلاث نُقَط ( ڤ ) ، وصوت S كما في measure بصورة زاي بثلاث نُقَط ( ژ ) .

فإن لم تتيسر هذه الصورُ رُسِم صوتُ G غيناً الا اذا شاع رسمُهُ في الكلمة جيماً ، وV فاء ، و P باء ، وCh جيماً او تاء او شيناً .

اما بشأن التقاء الساكنين فثمة نوعان منه ، أوّلُهما أن يكونَ كلاهما حرفاً صحيحاً ، وهو الأغربُ والأبعد عن اللسان العربي . وكانوا قديماً يجتنبونه بتحوير اللفظ ، كما فعلوا في لفظة astrolabe الاجنبيةِ التي اجتمع فيها السينُ والتاءُ الساكنان فحركوا ثانيَهما وقلبوه طاء في لفظ ( الأَسْطُرْلاب ) . ومثلُهُ في المصطلح الحديث الكافُ والتاءُ في ( الالكْتْرون ) واللامُ والسينُ في ( الكَلْسْيوم ) . فإنّ اكثرَ المثقفين ينطقون بهذين اللفظين كما ينطق بهما اهلهما . ولكن بعضهم يسكن كافَ الاول ولامَ الثاني بموجَب القاعدة فيقول ( الالَكِتْرون ، والكَلِسْيوم ) . ويضطرّ بعض عامة الناس الى تحوير اللفظ الاول الى ( الأَلْكْتُرون ) للتخفيف من بعض غرابته .

اما النوع الثاني من التقاء الساكنين فهو ان يكون اولهما حرفاً ليِّناً كما في ( الكاربون ) carbon . وهذا ليس غريباً ولا ممتنعاً على اللسان العربي ، فهو معروف في كثير من الالفاظ مثل (الصافّاتِ ، والضالّين ، والدابةِ ، والدُّوَيْبَّة ) ، التي لا يختلف ايٌّ منها عن مثال ( الكاربون ) الا بكون ثاني ساكنَيْهِ مُدْغَماً بما يليه . وما عدا ذلك فهي من أمثلة الالفاظ العربية التي يلتقي فيها ساكنان ، ولهذا يتعذّر مثلاً على الشاعر العربيّ استعمالُها في اوزان الشعر المعروفة ، لأنها لا يُمْكِنُ ان يلتقيَ في داخلها ساكنان[11] .

لكلٍّ هذا لا تبدو ضرورةٌ للالحاح الشديد على الناس بلزوم حذف الألف ، او تحريكِ الحرفِ الصحيحِ بعدها ، مما جاء على غرار ( كارْبُون ، ومالْطَة ، وقارْنَا ، والملاريا ) ، او حذفِ الواو او تحريكِ ما بعدها في أمثال ( بُورْصَة ، وستُوكْهُولْم ، وجُونْيَة ) ، أو حذف الياء او تحريكِ ما بعدها في امثال ( كِينْيا ، ومَرْسِيلْيا ، وكيبْتَاونْ ) ففي ذلك إغلاءٌ وتعسُّفٌ لا لزومَ لهما .

## ٢٣ ـ ليس النحتُ من طبيعة اللغة العربية

والنحت أنْ يُخْتَزَلَ تركيبٌ من لفظين او أكثرُ باقتطاع حرفٍ او أكثرَ من كلٍّ لفظٍ وادماجِها بلفظةٍ واحدة . ومن ذلك ما وضعه بعض المَعنيين باللغة العربية والمصطلح العلميّ والحضاريّ من منحوتاتٍ على غِرار ( الكُبَاكَحْدِ ) الكبريتات الحديد ، و( المَصْطَعْلا جِدة ) للمصادر الطبيعية اللامتجددة ، ( والخامَدْرَسيّ ) لما هو خارجُ المدرسة ، و( الحِزْضَر ) للحزامِ الاخضر[12] .

إن هذه الالفاظَ ، لا مَحَالةَ ، تبدو غريبةً على الاذن العربية ، مجافيةً للذوق ، متنافرة اصواتِ الحروف ، واكثرها مخالف للاوزان الاشتقاقية العربية . وغنيٌّ عن القول أنّ النحتَ لم يكن يوماً من وسائل نموِّ اللغة العربية او تطورها خلال تاريخها المعروف . فمن المعروف لدى دارسي تاريخِ اللغة ان ما نحته العربُ الخُلَّصُ قبل الاسلام لم يتجاوز خمسة الفاظ لا غيرَها ، استعملوها في النسبة الى بعض اسماء القبائل المركبة تركيباً إضافياً ، وهي ( تَيْمَلِيٌّ ، وعَبْدَرِيّ ، وعَبْشَميّ ، وعَبْقَسِيّ ، ومَرْقَسِيّ ) نسبةً الى ( تَيْمِ اللاّتِ ، وعبدِ الدارِ ، وعبدِ شمسٍ ، وعبدِ القيس ، وآمْرِىءِ القيس ) . ومثلُ هذا العدد التافه لا يعتدّ به في القياس اللغوي .

---

(١١) من طريف ما يُروَى ان احدهم اراد ان يطلبَ «دابّةً» من زميل له ببيت من الشعر فكتب له بما يأتي :

أردتُ الركوبَ الى حاجةٍ ... فَمُرْ لي بفاعلةٍ من «دَبَبْتُ»

(١٢) انظر : وجيه السمّان ، « النحت (١) ، » **مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق** ، السنة ٥٧ ، العددان ١ و٢ ( كانون الثاني / يناير ـ نيسان / ابريل ١٩٨٢ ) ، ص ٩٢ ـ ١١٤ ، و« النحت (٢) ، » السنة ٥٧ ، العدد ٣ ( آب / اغسطس ١٩٨٢ ) ، ص ٣٤٣ ـ ٣٦٤. والمصطلحات المذكورة اعلاه هي لكل من : عبدالله امين ، **الاشتقاق** ( القاهرة : ١٩٥٦ )؛ عبد الحق فاضل ، « دخيل ام اثيل ، » **اللسان العربي** ، السنة ١٢ ، العدد ١ ( ١٩٧٥ ) ؛ ساطع الحصري في : **مجلة التربية والتعليم** ( بغداد ) ، (١٩٨٢) ، ووجيه السمان في : المصدر نفسه .

اما ما اخترعه بعضهم في العصر الاسلامي من الفاظ على غرار ( بَسْمَلَ ) بمعنى ( **قال** بسم الله الرحمن الرحيم )، ، و( حَمْدَلَ ) بمعنى ( **قال** الحمد لله رب العالمين ) ، و( سَبْحَلَ ) بمعنى ( **قال** سبحان الله ) ، و( طَلْبَقَ ) بمعنى ( **قال** اطال الله بقاءك ) ، و( دَمْعَزَ ) بمعنى ( **قال** دام عِزُّك ) فليست من ذلك بشيء . وانما هي ( افعالٌ ) ومصادرُها ارادوا بها ( حكايةَ أقوالٍ مشهورةٍ معروفة ) . وهي على ذلك الفاظ معدودات تُعَدُّ من النادرِ في القياس اللُّغويّ .

ولكن بعض الداعين الى النحت في هذه الايام لم يشاءوا الّا دعم دعوتهم هذه بالاصرار على أنّه مما يَخْضع للقياس . فتشبثوا لذلك بأن اضافوا الى شواهدهم المشار اليها ألفاظاً من مثل ( الصِّلْدِمِ ، والجُمْهُورِ ، والفَرزْدَقِ ) وما اشبهها من الرباعيات والخماسيات التي كانت ضمن ما تدارسه بعض الصرفيين الاوائل وعدّوه من المنحوتات القديمة . غير ان تلك الالفاظ كانت قد صيغت وانتهت صياغتها في زمن العربية ، ولم يتمّ وضعها في حقبة تاريخها المعروف . ومن هنا لا يُعرف على وجه التأكيد كيف وُضِعَتْ وكيف نُحِتَت . وكل ما اورده الصرفيون من كون بعض الرباعيّ والخماسيّ منحوتاً كان من باب الحدس والتخمين .

ولا يغيب عن البال ان تلك الالفاظ لا تختلف في هذا الشأن عن سائر الفاظ اللغة . فالثلاثيات مثلاً يمكن ايضاً ان يقال أنّها نحتت من حرفين اضيف اليهماحرف ثالث ، كما في ( قَطَّ ، وقَطَعَ ، وقَطَمَ ، وقَطَفَ ، وقَطَبَ ، وقَطَلَ ) . ولكنّ كلَّ ذلك مجهول لدينا ، وليس لنا ان نقيس عليه ، لأنه حصل في زمن التكوين ، وانتهى بعد ان استقرت اصول اللغة واساسياتها . هذا فضلاً عن ان الصَّرفيين الاوائل ، واشهرُهُم ابْنُ فارس[١٣] ( ت : ٣٩٥هـ )، قالوا بهذا ولكنّ أحداً لم يقل بالقياس عليه .

ولا بد من القول بأن اقرار النحت يناقض فكرة توحيد المصطلح العربي . فلو اخذنا على سبيل المثال متضايفين بسيطين مثل ( علم الجبر ) واحصينا الرباعيات والخماسيات الممكن نحتها منها بعد حذف الالف واللام ، مع التزام الحفاظ على توالي الحروف فيهما ، على غرار( عَلْمَج ، وعَمْجَب ، وعَلَجْبَر ، وعَلَمْجَب )، لوجدنا بعملية احصائية بسيطة ان ثمة سبعَ عشْرَةَ صيغةً ممكنةً لهذا النحت . ولا شك أنّ عددَ هذه الامكاناتِ سيتضاعف بسرعة اذا زاد عدد الحروف او المتضايفات ، كما في مصطلح ( القشريات العديمة الاجنحة ) مثلاً ، الذي يمكن ان يُصاغَ منه مئاتُ المنحوتات الرباعية والخماسية بالطريقة نفسها . ولا جَرَمَ أنّنا لو أجَزْنا النحت ، على ما نعرفه من ضَعفِ وسائل توحيد المصطلح بين الخليج والمحيط في الوقت الحاضر ( كما رأينا في مثال الحاسبة والحُسّابة والحاسوب والنظّامة واشباهها)، لفتحنا الباب لانتشار عشرات المنحوتات الغريبة المبهمة لكل مدلول علمي واحد ، وفي ذلك اقصى درجات تشويه اللغة العربية وتفتيت وَحدة الفكر القومي .

---

(١٣) ابو الحسين احمد بن زكريا بن فارس ، **معجم مقاييس اللغة** ، تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون ، ٦ ج ( القاهرة : دار احياء الكتب العربية ، ١٣٦٦هـ - ١٣٧١هـ ) ، ج١ ، ص ٣٢٨ - ٣٢٩ .

وتجدر الاشارة الى انه لم يتيسَّرْ للقائلين(١٤) بجواز النحت وضعُ قواعد سهلة وواضحة له ، عدا ما قيل في ذلك من وجوب المحافظة على الذوق السليم ، وتجنب الجمع بين الحروف المتنافرة ، والتزام الاوزان الاشتقاقية العربية .

ومن المناسب لأجل هذا عرضُ امثلةٍ اخرى لمنحوتات اقترحها بعض علماء اللغة المعنيين بدراسة النحت الداعين الى اجازته وسيلةً من وسائل وضع المصطلحات العلمية . فمن بين ما اقترحه عبدالله امين صاحبُ كتاب ( الاشتقاق ) : ( الفَحْسَكُ ، والقَحْبَرُ ، والسُّمَأْرُ ، والدَّرْطَعُ ، والكَبْنَحَسُ ، والأَزْكَفْضُ ، والكُبَاكَحْدُ ، والكَبَسْنَحُ ، والتَّتَصْدَاتُ ) . ومما نحته عالم الكيمياء صلاح الكواكبيّ ( الماغَوْلُ ، والماسَلْ ، والخَزْلَدَةُ ) . ومما اقترحه المربي ساطعُ الحُصْريّ : ( الفَوْسَوِيّ ، والقبتاريخيُّ ، والخـامدرسيُّ ، والتَّحشعوري ) . ومما نحته الاديب الشاعر عبد الحق فاضل ( الكَثَاسَكْنُ ، والنَّعْتَوطَنُ ، والمَصْطَعْجَدَةُ ، والمَصْصَعْلاَجَدَةُ ، والتَّوْنَوْجِد ، والمنذبيئي ، والمَحْطَبْخَاصَةُ ، والتَّبَلْطَعْبَشَرِيُّ ، والصَّقْمَدِينيُّ ، والمَحْطَعْمَرْعيَّة ) .

فإن كان هذا قُصارى ما توصل اليه دارسو النحت من اهل الذوق الادبي والمعرفة اللغوية ، فأنَّى للمشتغلين بالعلوم ، وجُلُّهُم أقصر باعاً في دقائق اللغة ومسالكها ، أن يُوَفَّقوا في ما ينحتونه ؟

ليس علينا ان نُخْضع لغتَنا للغةٍ اجنبية . فإنْ كانت اللغاتُ الاوروبيةُ ( إلصاقيَّةً ) تنقاد الى النحت فلا يعني ذلك أنّ علينا أن نشوِّهَ لغتَنا وهي ( اشتقاقيّةٌ ) وليس من طبيعتها النحتُ . ولكلِّ لغة ميزاتُها وخصائصِها وطرائقُها . فقد اقول بالعربية( اسْتَنْجَدَ ) ولا يمكن للانكليزيِّ ان يقولَها الا باربع كلمات he asked for help او أقولُ ( تلاقيا ) فيترجمها هو they met each other ولَئِنْ يُقَلْ ( سمعي بصريّ او سمعُ بصريّ ، وقبلَ تاريخيّ ، وشبهُ زلاليّ ، ودُونَ الذرّيّ ، وشبهُ قِلْويّ ) لهو افضل كثيراً من ان يقال (سمبصيّ، وقبتاريخيٌّ ، وشِبزاليُّ ، ودُو ذَرِّيّ ، وشبقليّ ) وغيرُها من هذه المُشَوَّهات التي هي اقرب الى العجمة منها الى الكلمات والاوزان العربية .

---

(١٤) قد ينسبون بعضَ المُرَكَّبِ تركيبَ اضافةٍ الى صدره كما في «دَيرانيٌّ» نسبةً الى «دير القمر» ، او الى عَجزه كما في ( مُنافيٌّ ) نسبةً الى «عبد مناف» . وقد يَنسِبون الى المُركَّب الإضافيّ برُمّته تشبيهاً له بالمُرَكّب المزجيّ كما في ( وادي آشيٌّ ، وعين حوريٌّ» نسبة الى «وادي آشٍ ، وعينِ حَورٍ» .

# الفصل السابع

# العلاقة الاتصالية بين المفهوم القومي والتطور الاجتماعي

حامد ربيع

## مقدمــة

العلاقة بين اللغة والسياسة قديمة وحديثة في آن واحد ، فمنذ اقدم العصور نظر فلاسفة السلطة على ان احد اركان الصلاحية للقيادة هو ما اسماه افلاطون فن الخطابة ، وهو يقصد بذلك القدرة على تكتيل الجماهير حول مفاهيم معينة ومثالية محددة .وعرف بركليس على انه اعظم قادة العالم القديم بسبب فصاحته وبلاغته الخطابية . بل واعظم مفكري السياسة افردوا قسماً مستقلاً إن لم يكن مؤلفاً بذاته عن فن الخطابة ، افلاطون في اليونان وشيشرون في الحضارة الرومانية . والامثلة على قادة استطاعوا ان يطوعوا الاحداث بفضل هذه المقدرة عديدة ، ولنذكر على سبيل المثال اوغسطس عقب مقتل قيصر . وقد زاد من اهمية هذه العلاقة ان الخطابة كانت الاداة الوحيدة للاتصال بين الحاكم والمحكوم .

على ان هذه العلاقة اخذت صورة جديدة واكثر عمقاً منذ ظهور وبلورة مفهوم الدولة القومية ، هذا المفهوم لم يكتمل الا في نهاية القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر ، وهو قد اكتمل كممارسة قبل ان تقدر له الصياغة الفكرية . الدولة القومية في اوسع معانيها تعني ان المجتمع الواحد المتجانس من حقه ان ينصهر في ارادة واحدة لها حق السيادة على ارضها القومية ، وتملك حق تقرير مصيرها في النطاق الدولي . ومنذ طرح مفهوم الدولة القومية على انه المثل الاعلى للوجود السياسي والنموذج المثالي للدولة العصرية ، كان لا بد من ان يرتبط بذلك مفهوم اللغة ، فالمجتمع القومي مجتمع متجانس ، فكيف يتم التجانس وما هي عناصر وادوار ومظاهر ذلك التجانس ، هل هو الاصل الواحد؟ هل هو اللغة الواحدة؟ هل هو الحضارة الواحدة؟ هل هو الدين الواحد ؟

هذه الاسئلة العديدة التي طرحها الفقه السياسي خلال القرن التاسع عشر والتي وجدت لها اكثر من اجابة واحدة ، بل البعض منها متعارض ومتناقض ، كان لا بد من ان يطرح بدوره

مشكلة اللغة كمحور للتساؤ ل : هل اللغة عنصر من عناصر التكامل القومي؟ هل هي العنصر الوحيد اللازم والكافي؟ بمعنى آخر وحدة لغة الخطاب تصير عنصراً أساسياً لنستطيع الحديث عن امة تملك من ثم حقها في تقرير المصير من جانب، والوحدة النظامية ذات الارادة الواحدة في النطاق الدولي من جانب آخر . ان طرح المشكلة بهذا المعنى افرز اتجاهين اساسيين : احدهما يجعل من وحدة اللغة وحدة المصير القومي ، وهذا هو الاتجاه الذي ساد الفقه الالماني وبصفة عامة الفقه السياسي في اوروبا الوسطى والشرقية . ان شعباً يملك لغة واحدة هو مجتمع قومي واحد ، من ثم من حق تلك الجماعة ان تملك ارادتها المستقلة والمتميزة وشخصيتها الدولية القائمة بذاتها . بينما وجد اتجاه آخر لم يجد وحدة اللغة شرطاً لازماً لوجود المجتمع القومي ، فالامة الواحدة قد تتعدد فيها اللغات ، المحور الاساسي اكثر بعداً من وحدة اللغة . هل هي وحدة التاريخ وخبرة الصراعات التي عاشتها الجماعة في مراحل وجودها المتعددة؟ ام انها ارادة التعايش التي تسيطر على الجماهير وتجعلها تعيش في امل ان تصهر في بوتقة سياسية واحدة؟ منطلقات مختلفة ولكن تظل وحدة اللغة عنصراً غير لازم ، رغم انه متغير حاسم في التطور السياسي للمجتمع القومي ، هذا الاتجاه هو الذي ساد الفقه السياسي في غرب اوروبا وبصفة خاصة فرنسا وبلجيكا وسويسرا واسبانيا .

هذا التصور لمشكلة العلاقة بين اللغة والقومية مرده الحقيقي الخبرة التي عاشتها الجماعات الاوروبية . فدول شرق ووسط اوروبا ، التي امتازت بالتجانس اللغوي جعلت من منطلق مبدأ الوحدة اللغوية سنداً لشرعيتها في الاستقلال من جانب ، والتقارب الذي يقود الى الانصهار في اطار نظامي واحد من جانب آخر . بينما دول غرب اوروبا التي تكامل اطارها النظامي خلال خبرة طويلة من المعاناة المستمرة التي استغرقت قروناً عديدة طيلة فترة العصور الوسطى والحديثة ، لم تكن بحاجة الى متغير اللغة ، خصوصاً وان تطبيق هذا المتغير لا يتفق مع وضعها الداخلي . فلنتصور سويسرا حيث لغات ثلاث تسود مقاطعاتها ، كذلك فإن فرنسا واسبانيا تعرفان العديد من اللغات رغم سيادة لغة واحدة على غيرها ونستطيع بتبسيط مطلق ان نحدد هذه العلاقة في الواقع الاوروبي في الصياغة التالية : لغة واحدة تقود الى قومية واحدة ، ولكن العكس ليس بالضرورة وارداً ، او بعبارة اخرى فإن اللغة الواحدة هي سبب للقومية او احد الاسباب التي تفرض التطور السياسي نحو القومية الواحدة .

ولكن الناحية الاخرى ـ اي هل القومية الواحدة تفرض اللغة الواحدة ، لم تطرح من حيث الواقع والممارسة ـ او لم تطرحها الا الخبرة الصهيونية، وواقع المجتمع الاسرائيلي، ففي المجتمع العبري الى المجتمع اليهودي الذي يكون الدولة الاسرائيلية هناك ما يوصف بأنه قومية يهودية ، بل ان السند للشرعية من منطلق التصور الصهيوني هو مفهوم المجتمع القومي . ولكن هذا المجتمع القومي يملك العديد من اللغات ، حتى ان التفاهم بين ابنائه في بعض الاحيان قد يتم بالالتجاء الى اللغة الانكليزية فكيف يمكن تصور مثل ذلك المجتمع القومي؟ وهكذا تثور المشكلة في اطار معاكس للوضع السابق وللخبرة التي عاشتها المجتمعات الاوروبية خلال الفترة السابقة واللاحقة مباشرة

على الثورة الفرنسية . هل المجتمع القومي الواحد من حقه ان يفرض على ابنائه سيادة لغة واحدة؟ هذا هو السؤ ال الذي يطرحه الفقه السياسي المعاصر.

على ان مشكلة العلاقة بين اللغة والظاهرة القومية لم تقف عند ذلك الحد ، فالتحليل السابق في كلا البعدين ينظر الى هذه العلاقة على انها علاقة سلبية ، احدهما سبب للآخر ، بحيث يصير العنصر الثاني نتيجة حتمية لذلك المتغير: مجتمع قومي واحد ـ لغة قومية واحدة ، او العكس لغة واحدة ـ مجتمع قومي واحد. التحليل السياسي المعاصر يتجاوز هذه النظرة الجامدة ، فهناك علاقة ديناميكية بين المتغيرات بمعنى التأثير والتأثر . لا يعنينا فقط علاقة السببية Causal relationship ، بل يجب ان نتعدى ذلك وان نضيف علاقة التوظيف او ما نسميه علاقة التفاعل interaction . والواقع ان خصائص المجتمع المعاصر وبصفة خاصة المجتمعات المختلفة التي برزت خلال ربع القرن الماضي لتفرض حقائق جديدة ، كان لا بد من ان تعيد تشكيل هذه العلاقة . وكان من الطبيعي والمنطقي ان يضفي تطور وظيفة الدولة آثاره وظلاله على موضع اللغة من البنيان السياسي للوجود المعاصر .

وسوف نبحث في دراستنا ثلاثة موضوعات اساسية : **اولاً** : اللغة والظاهرة القومية : استقراء الواقع المعاصر ؛ **ثانياً** : اللغة وادوات السياسة القومية ؛ **ثالثاً** : المجتمع القومي ووحدة الادراك اللغوي.

## اولاً : اللغة والظاهرة القومية : استقراء الواقع المعاصر

ارتبط المفهوم القومي للوجود السياسي منذ القرن التاسع عشر بخمسة عناصر اساسية :١ ـ الحرية القومية ؛ ٢ ـ النظم الديمقراطية ؛ ٣ ـ احترام الفرد ورفع قيمته كأساس للتعامل والوجود السياسي ، ٤ ـ الارادة ـ الدولة للمجتمع السياسي وحق تقرير المصير ؛ ٥ ـ وحدة النظم القانونية في داخل المجتمع القومي .

تحليل هذه العناصر ولو بايجاز ، يسمح بفهم معنى المجتمع القومي في نطاق الكليات السياسية التي فرضت وجودها على المجتمع المعاصر ، والتي سوف يقدر لها ان تتحكم في جميع التطورات التي تعيشها الانسانية ، منذ الحرب العالمية الثانية .

فأول هذه العناصر ان المجتمع القومي حر وليس من حق اي مجتمع قومي ،بأي دعوة كالوظيفة الحضارية او التقدم الاجتماعي ، ان يسيطر او يتحكم في اي مجتمع قومي آخر . فالحرية القومية هي الوجه المعنوي لمبدأ القومية السياسية . وهنا نلحظ كيف ارتبط هذا المفهوم تاريخياً بظاهرة النظم الديمقراطية . لقد ترسبت في مفاهيم القرن التاسع عشر علاقة ثابتة بين التحرير السياسي وتأسيس النظم الديمقراطية . ورغم انه من حيث التنظير السياسي المجرد يجدر ربط النظم الديمقراطية بظاهرة التحرير السياسي ، حيث ان الاولى ليست سوى عملية تنظيم للعلاقات الداخلية بين الحاكم والمحكوم في حين ان الناحية الثانية تدور حول تبعية واقع سياسي معين لارادة اجنبية ، الا ان الخبرة التاريخية اثبتت ان مجتمعاً تحكمه او تتحكم في مصيره قوى غير

قومية ، لا يمكن ان يعرف الواقع الديمقراطي . والديمقراطية في اوسع معانيها هي المحور الحقيقي لاحترام كرامة الفرد اي المواطن . فالمواطنة لا تصير حقيقة فاعلة الا في نظام يقوم على مفهوم الديمقراطيـة ، حيث المساواة تـرتفع الى مستـوى القاعـدة الاساسيـة والمثاليـة المطلقـة للوجود وللممارسة السياسية . والقومية السياسية ليست علاقة بين الفرد والجماعة فحسب ، انها ايضاً اساس لتنظيم علاقة الجماعة بالاسرة الدولية. ان حق تقرير المصير هو الوجه الدولي للظاهرة القومية ، اي مجتمع يستطيع ان يصف نفسـه بأنـه يحمل عنـاصر ومقـومات المجتمـع القومي ، يصير من حقه ان يقرر مصيره ، وعلى المجتمع الدولي ان يحمي شرعية ذلك الحق . العنصر الآخر الذي يقود اليه مفهوم المجتمع القومي هو وحدة النظم القانونية في داخل المجتمع القومي الواحد . والواقع ان هذا المبدأ الذي لم تعرفه النظم القديمة ، حيث كانت الدولة الواحدة تعرف اكثر من نظام قانوني واحد في داخل المجتمع السياسي ، هو تعبير عن مبدأ آخر اكثر اتساعاً وشمولية : التجانس. قوة المجتمع القومي تكمن في تجانسه،والتجانس يملك ابعـاداً متعددة . فالتجانس قد يكون عنصرياً بمعنى الاصل الواحد المشترك ، وهو قد يكون نظامياً بمعنى ان اساليب وقواعد تنظيم الممارسات اليومية يجب ان تخضع لنظام واحد ، وهو كذلك تجانس ادراكي حيث نظام القيم بأوسع معانيه واحد . ولكن اهم عناصر التجانس تنبع من الولاء من جانب واللغة من جانب آخر . الولاء واحد ومطلق يتجه الى الدولة اي الجماعة او الشعب او الامة التي تمثل تلك الدولة ، بحيث ان اي نوع من انواع الولاءات يصير تـابعاً ومعلقـاً وجوداً وعـدماً عـلى الولاء السياسي . كذلك فاللغة هي اداة التعبير عن التجانس: لغة واحدة للخطاب ، وخطاب يتم عبر رموز واحدة ، حيث يحيط كل ذلك بمجموعة من القيم ، والتعابير الجماعية هي وحدها محـور العملية الاتصالية بين افراد الجماعة القومية ، وتميز الجماعة القومية عن غيرها وتجعل منها نموذجاً للوجود الفكري قائماً بذاته في نطاق الحقيقة الانسانية .

ولكن هل يعني ذلك انه يجب على المجتمع القومي في لحظة معينة الا يعرف سوى لغة واحدة؟ ولماذا هذا الاصرار على وحدة اللغة؟ وما هي علاقة كل ذلك بالوعي القومي؟ وقبل ان ننطلق في معالجة الخبرة المعاصرة من حيث العلاقات المتبادلة بين اللغة والوعي القومي علينا ان نحدد المفاهيم .

اول هذه المفاهيم هو كلمة اللغة،وفي اوسع معانيها يقصـد بها الـرموز والكلمـات التي يستخدمها مجتمع معين للتعبير عن مفاهيمه ومدركاته. على ان الواقع هو ان اللغة اكثر من هذا اتساعاً وشمولية ، انها تعني اربعة عناصر تأتي فتتكمل فيما بينها ذلك الذي نستطيع ان نصفه بفقه التعامل اللفظي : (أ) الكلمات المعبرة عن تحديد ووصف الاشياء والظواهر ؛ (ب) الصيـاغة اللفظية للمفاهيم والمدركات ؛ (ج) بناء صور الجمال اللفظية والمرتبطة بالتعبيرات الفكرية او ما في حكمها ؛ (د) نظام القيم الجماعية والفردية من خلال التعبيرات اللفظية بالصياغة اللفظيـة او السلوكية .

واول عناصر اللغة هي تلك الرموز التي تسمي الاشياء ، فتسمح بالتخصيص والتفرقة بين

الظواهر. كذلك فإن المفاهيم والمدركات يعبر عنها بألفاظ ورموز تسمح باجراء العملية نفسها على الحقائق المعنوية في كلا التطبيقين . فإن الرموز اللغوية هي الطريق المباشر لتوصيف الحقائق سواء أكانت حقائق مادية ملموسة ام انها مفاهيم مجردة ومدركات فكرية . رغم ذلك فاللغة عندما تتعرض للحقائق المعنوية ، فإنها تعبر بهذا عن مستوى معين من التقدم ، تعبر عن درجة من التطور والتقدم الحضاري . وان توصيف وتسمية الحقائق المعنوية هو في حقيقة الامر تعامل مع القيم والمثاليات ، كذلك فإن اللغة تؤدي وظيفة خطيرة من حيث صوغ قواعد التعامل مع الجماليات اللفظية ، الذوق الادبي والتذوق اللغوي ، لا بد من ان تنبع من خصائص كل مجتمع وواقع كل مجتمع سياسي. واللغة هي بمثابة قنوات تسمح للقدرة الفردية بالتعبير عن الذات في صورة جمالية ، وهي بهذا المعنى تصير حلقة تترابط بين الوعي الاجتماعي من جانب ، والقدرة الفردية على الاستجابة الى ذلك الوعي الجماعي من جانب آخر . فكتابة الشعر بشكل معين ، او استخدام تعبيرات ورموز معينة في فصاحة الخطاب ، هما ايضاً عنصران من عناصر اللغة، علماً ان اللغة تقدم ايضاً وظيفة اخرى لا يستطيع ان يفهمها من يقتصر على تحليل اللغة على انها فقط مجموعة قواعد وقوالب جامدة للتعامل مع الرموز والالفاظ ، حيث ان اللغة اداة غير مباشرة لصوغ نظام القيم السلوكية السائدة في مجتمع معين. فمثلاً خطاب الرجل بلغة المؤنث كتعبير عن الاحترام ، انما يعكس قيماً معينة ترتبط باحترام المرأة والنظرة اليها من خلال مفهوم معين للتعامل ، وعدم استخدام اسلوب الجمع في خطاب الفرد اياً كانت درجته الاجتماعية انما يعني تأكيداً لمفهوم محدد للمساواة داخل المجتمع السياسي . الاول نستطيع ان نجده في اللغة الايطالية ، والثاني واضح في تقاليد اللغة الانكليزية .

**هذه الوظائف الاربع للغة كل منها يكمل الاخرى، وهي في الواقع تعبير عن روح الجماعة** وخصائصها الذاتية الدفينة . كل مجتمع يملك وعياً باطناً وعقلاً لاشعورياً متميزاً . واللغة في تراكمها التاريخي ، في تطوراتها المتعاقبة ، في ميلها لاسلوب معين للتعبير عن الجماليات اللفظية ، انما تعكس واقع ذلك المجتمع وخصائصه الذاتية : اوضاع البيئة ، التطورات الاجتماعية، الشخصية القومية ، الخبرة التاريخية ، المستوى الحضاري ، عناصر متعددة جميعها تتفاعل فيما بينها لتقدم تلك البوتقة التي من خلالها تتكون وتتبلور التقاليد اللغوية. ان اللغة اللاتينية بصعوبة تركيبها وبقلب معاييرها المنطقية ، انما تعبر عن عقلية معقدة . اللغة الفرنسية برفاهيتها في عناصر الوصف ، وتألقها في العرض واناقتها في التشبيه، تؤكد قدرة معينة ورغبة واضحة في التأنق والاحساس بالجمال . اللغة الانكليزية ببساطتها وقصر جملها ووضوح مقاطعها تقدم لنا نموذجاً صارخاً للنموذج العملي في الممارسة اللغوية . وهذه الحقائق تفسر كيف ان اللغة تملك وتؤدي وظيفة سياسية ، وكيف ان اللغة بدورها قادرة على ان تصير احدى ادوات العمل السياسي .

**المفهوم الثاني، يدور حول كلمة«الوعي القومي»** ، فسبق ان تعرضنا لتعريف القومية ورأينا كيف ان الايديولوجية القومية هي مفهوم حديث نسبياً يدور حول الارادة الجماعية للحياة السياسية المشتركة ، حيث درجة معينة من درجات التجانس تفرض على عناصر ذلك المجتمع ان

ينصهر في ارادة واحدة ، بحيث تؤدي تلك الارادة وظيفة الممارسة الجماعية للاقليم القومي في النطاق الدولي . والذي يعنينا هنا تحديد ما هو المقصود بـ « الوعي القومي » ؟

هذه الكلمة في شقها الاول اي اصطلاح الوعي ، لم تبرز وتسيطر على الفكر السياسي الا خلال القرن التاسع عشر ، وعلى وجه الخصوص مع الفكر الماركسي . وقبل ظهور المجتمعات الجماهيرية لم يكن هناك موضع لاستخدام هذه الكلمة ، وذلك طبيعي ، فقد كانت الارادة السياسية هي اساساً صياغة قانونية للطبقة المختارة ، حيث العلم يتفاعل مع الادراك في اطار يكاد يكون متطابقاً . ولكن عقب نزول الجماهير المتعطشة للحرية الى ساحة العمل السياسي ـ وهي جماهير غير مثقفة ـ كان من الطبيعي ان يطرح موضوع الوعي بالذات . وهكذا تحدث كارل ماركس وبصفة خاصة في **البيان الشيوعي،** عما اسماه الوعي بالانتماء الطبقي ، معنى ذلك في الفقه الشيوعي الشعور الذاتي والداخلي بأن المواطن ينتمي الى مجموعة معينة من الافراد تترابط حول مصالح اقتصادية وغير اقتصادية ، تتناقض مع مصالح الطبقات الاخرى . والوعي بهذا المعنى يصير مرادفاً لمفهوم الشعور بالانتماء من جانب ، واهمية وخطورة نتائج ذلك الانتماء من جانب آخر . ان الوعي بالانتماء الطبقي من ثم ، يصير حالة نفسية تتولد في الذات الفردية تتجه للعالم الخارجي او المحيط بالفرد في بعدين : بعد يرتبط بما ينتمي الى الذات الفردية نفسها ، وهو يدور حول التضامن والترابط ، وبعد يتجه الى ما لا ينتمي الى تلك الدائرة الاولى ، ينبع من الشعور بالتميز وحقيقة الوزن السياسي في لحظة الصراع والصدام من جانب آخر ، ومن ثم فإن الوعي بالانتماء الطبقي هو في حقيقته تعلق لا شعوري وتلقائي بواقع اجتماعي معين لا بد من ان يقود الى موقف سياسي محدد .

الحديث عن الوعي القومي ينبع من الادراك الماركسي بالوعي الطبقي ويتحدد منهاجياً بتلك التقاليد التي وضعها كارل ماركس . ومما لا شك فيه ان العامل النفسي في تحليل الظاهرة القومية اثاره فيخته قبل ذلك بقرابة نصف قرن في مؤلفه المشهور **حديث الى الامة الالمانية** ، ولكن فقط بمعنى عنصر التحدي للغزو الاجنبي . ومنذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر اضحى الوعي القومي هو ارادة بناء وتميز ، سوف تقود في لحظة معينة ـ كنتيجة للمبالغات الفكرية ـ الى مفهوم التعصب الفكري والشعور بالحق في قيادة الشعوب الاخرى ، وهو ما حدث مع النازية عقب الحرب العالمية الاولى .

ولكن لو تركنا جانباً المبالغات العاطفية وحاولنا ان نعرف كلمة الوعي القومي لاستطعنا ان نحدد المفهوم بأنه : تلك العلاقة العاطفية الميكانيكية المتدفقة المباشرة غير المعلقة على شرط ، التي تخلق نوعاً معيناً من التماسك بين اجزاء المجتمع السياسي ، بحيث يتبلور ذلك المجتمع في اطار معنوي اساسه وحدة الامة او الشعب . ومن هذا نستطيع ان **نحدد عناصر الوعي القومي في انها تدور حول المقومات الثلاثة التالية** :

ـ **علاقة الولاء** : الوعي القومي يعني الشعور بالارتباط ، ووجود هذا العنصر يفرض اطاراً معيناً من حيث المشاركة في المصير والمستقبل ، وعدم وجوده يعني اختفاء كلياً لذلك الاطار

المعنوي . ان علاقة الولاء تفرض علاقة التبعية ، الولاء واحد لا يتعدد ولا يتنوع ، وبهذا المعنى ، وجود عنصر الولاء يجعل الفرد يشعر بأنه تابع لمصدر الولاء اياً كانت تعبيراته، وهذا ما يعبر عنه في لغة علم النفس السلوكي بسيادة الاتجاه العام على الاتجاه الخاص ، وتقويم سلوك معين بأنه قاصر او طائش، يصير نتيجة لعنصر الولاء نحو مصدر السلوك وليس مترتباً على التقويم الموضوعي للقرار في ذاته .

ـ **علاقة الارتباط** : فالوعي القومي يعني الاستمرارية ، والاستمرارية تلغي عنصري الزمان والمكان ، والوعي القومي لا يتجه فقط ولا يقتصر من حيث ترابطه مع الواقع المعاصر ، انه يستمد سنده الحقيقي من الخبرة الماضية ، من الواقع الذي يضرب بجذوره في اعماق الماضي . وهي علاقة لا تتحدد ولا تتوقف على الانتماء المكاني او الوجود المادي في الاقليم القومي . انها علاقة وشعور يمتدان مع صاحبهما حيثما واينما وجد ، علاقة الترابط تجب عنصر الزمن اولاً ، وتلغي عنصر المكان ثانياً ، فإذا بها اطار معنوي يحيط بالفرد ويصهر كيانه المادي في مفهوم عام مجرد يحلق في اطار المثاليات .

ـ **علاقة الاستيعاب** : ويقصد بذلك ان الفرد يشعر بذاته وقد انصهرت في علاقة الولاء . والفرد ليس جزءاً متميزاً عن المجتمع القومي ، انه تعبير كلي وشامل عن المجتمع القومي ، كذلك فإن المجتمع القومي يحتضن الذات الفردية . الوعي القومي هو تعلق اعمى حيث الفرد ينسى ذاته وينسى كيانه لينصهر في اطار اكثر اتساعاً ، بحيث لا يعرف بخصوصه اي نوع من انواع الانانية ، هذه العلاقة ، علاقة الاستيعاب ، هي اقدم صور المفهوم القومي في تاريخ الخبرة الانسانية . فقد كان اليوناني صاحب البراعة الفنية يعتبر كل ما يخرج من انامله من تحف او تماثيل او ما في حكمها ، ملك المجتمع ـ المدنية ، الذي ينتمي اليه ، لا يملك بخصوصه اي حق للتصرف او التعامل .

الحصيلة التي تتكون من هذه العناصر الثلاثة ومن انصهار متغيراتها في بوتقة واحدة تكون ما يسمى بالوعي القومي ، والوعي القومي بهذا المعنى هو علاقة عاطفية ، العقل فيها يؤدي دوره ولكن في اطار من الاحاسيس والمشاعر التي لا تخضع لمنطق ولا تقبل التوصيف الفكري . الوعي القومي هو تعبير عن وعي جماعي وضمير تاريخي حيث تلتقي الاحاسيس والمصالح والآمال في ترابط مطلق هو في ذاته اعلان عن شخصية جماعية ووظيفة تاريخية ، واللغة هي وحدها التي تسمح بهذا اللقاء . كيف؟ سؤال آخر في حاجة الى تفصيل .

ويتعين علينا قبل اي اجابة علمية عن **حقيقة العلاقة بين اللغة والسياسة القومية** بأن يحدد كل معنى من معانيها من خلال الاستقراء الواقعي للعالم المعاصر . وحقيقة وضع الوحدة اللغوية في الدولة القومية هي ان نقطة البداية التي يجب ان ندخلها في الاعتبار كون الواقع السياسي المعاصر ليس هو الواقع الذي عرفته انسانية القرن الثامن عشر او النصف الاول من القرن التاسع عشر. بل ان مفهوم الدولة القومية نفسه في صياغته التي تتبلور امام اعيننا خلال الربع الاخير من القرن العشرين ليس هو مفهوم الدولة القومية ، كما عرفته اوروبا عصر النهضة ، وكما عبر عنها فلاسفة الوحدة الالمانية ، وكذلك فلاسفة عصر الاحياء الايطالي وعلى رأسهم ماتزيني . ولعل هذه

الملاحظة تفسر ايضاً موقفنا من الفكر القومي العربي الذي هو في حاجة الى اعادة صياغة تشمل جميع عناصر العلاقة بين الدولة والشعب والاقليم ، ومن ثم ايضاً من حيث علاقة الارادة القومية باللغة اداة تكتيل الوعي الجماعي .

ان نقطة البداية في تحليل النماذج المعاصرة للعلاقة بين اللغة والدولة القومية هي الاجابة عن هذا السؤال : كيف نستطيع تحديد الذاتية القومية لشعب معين؟ الاقليم ام اللغة ام وحدة الاصل العنصري؟ الدولة القومية المعاصرة تستند الى ثلاثة مبادىء اساسية تمثل جوهرها الفكري :الذاتية للشعب او الامة ، والسلطة او الفاعلية للاداة الحاكمة ، والمساواة بين المواطنين لتحقيق التحديث والعصرية. هذه المبادىء الثلاثة رغم ذلك متداخلة : ذاتية الشعب تفرض نوع وحدود فاعلية السلطة بل كذلك قدرته على تحقيق المساواة بين افراد المجتمع السياسي ، وهكذا تصير الذاتية القومية المحور الحقيقي لمفهوم الدولة القومية .

من هذا المنطلق نستطيع في الواقع السياسي المعاصر ان نميز بين عدة نماذج من حيث سيادة مبدأ وحدة اللغة في الدولة القومية :

**النموذج الاول** ، الذي نستطيع ان نجده واضحاً في اغلب الدول الاوروبية وكذلك في بعض الدول الآسيوية ، وكذلك في تلك الدول التي اقامها الاستعمار والهجرة الاوروبية. نذكر على سبيل المثال الى جوار التطبيقات المعروفة ، اليابان وكوريا وفيتنام . في هذه الدول نجد لغة واحدة سائدة،وتقدم وحدة اللغة في مثل هذه المجتمعات قاعدة ثابتة وموثوقاً من نتائجها في بناء الوحدة القومية . والمشاكل التي يتعين على الدولة صاحبة الشأن ان تواجهها تصير واضحة وموضع اجماع قومي . ففي بعض هذه النماذج تصير المشكلة الاساسية هي استبعاد بعض العناصر اللغوية التي تكون قد ترسبت خلال فترة استعمارية سابقة ، كما هو الحال في كوريا حيث التعبيرات اليابانية تداولتها الالسنة خلال فترة معينة ، وكذلك التعبيرات الهولندية في اندونيسيا ، يساعد على ذلك المحاولات الثابتة من وضع وتقنين قواعد التعامل اللغوي ، ومن خلال عمليات التقنين تترسب ايضاً مفاهيم التجديد والتطوير للبناء اللغوي ، وهذا ما يحدث على قدم وساق في اللغة اليابانية التي اصبحت رغم كل خصائصها المميزة لغة علمية تستطيع ان تضاهي اللغة الانكليزية بدقة وقدرة وفاعلية .

**النموذج الثاني** ، يبرز حيث لغة واحدة تسود مجموعة من الدول المتجاورة ، وهذا هو الواقع الذي تقدمه لنا دول امريكا اللاتينية التي تتكلم اللغة الاسبانية ، وهو اكثر وضوحاً في البلدان العربية في منطقة الشرق الاوسط وشمال افريقيا . والملاحظ في مثل هذا النموذج هو ان وحدة اللغة تعبر عن حركة سياسية سابقة تسعى نحو نوع معين من الوحدة او النظم الفدرالية ، لم يقدر لها النجاح ، ولكن ذلك لم يمنع من استمرارية وحدة اللغة ، الامر الذي فرض مجموعة من الظواهر لا يمكن ان تقف منها السياسة القومية بسلبية :

فالملاحظ اولاً ، ان التبادل القيادي والتفاعل الحركي قائمان على قدم وساق ورغم جميع ابعاد

الفشل التي سجلتها محاولات الوحدة السياسية ، والسبب في ذلك يعود اساساً الى ان علاقة اللغة ارست مفاهيم وقيماً معينة كان خير من يعبر عنها هو العمل السياسي القيادي ، ولنذكر بعض التطبيقات : غيفارا وهو مولود في الارجنتين كان احد اعمدة النظام السياسي الذي ارسيت قواعده في كوبا ، حوراني اللبناني الاصل ظل فترة طويلة المستشار السياسي للرئيس بورقيبة ، عبد الرحمن عزام المصري شغل منصب المستشار الاول للحكومة السعودية .

ـ كذلك فإن مفهوم الالتجاء الى المنفى في علاقة القيادات المرتبطة بذلك الواقع لا يعبر عن المعنى المتداول عن هذا المفهوم ، وان المنفى السياسي في التقاليد الاوروبية ، والسابقة على القرن العشرين كان يعني وضع حد للنشاط المعارض . ولكننا في هذا التطبيق نجد انه يعني اساساً نقل ذلك النشاط المعارض الى موقع آخر اكثر تجانساً مع الادراك السياسي . وليس علينا سوى ان نسوق نموذج الاخوان المسلمين في مصر عقب تقيدات النظام الناصري بقصد وضع حد لنشاطهم . بل انهم عندما خرجوا من مصر وبصفة خاصة الى منطقة الخليج ، وجدوا من النظام الناصري نوعاً من الترحيب . وكانت هذه المتابعة احد اسباب انتشار مفاهيم وحركة الاخوان المسلمين خارج موطنها الاصلي في وادي النيل لتغمر جميع اجزاء الوطن العربي ، بما في ذلك شمال افريقيا ، ورغم خضوع هذه المنطقة للغزو الحضاري واللغوي الفرنسي .

ـ وحدة التقاليد اللغوية في ذلك النموذج ترفض الانصياع لاي سياسة قطرية او جزئية ، فاللغة حقيقة حية تتفاعل مع البيئة والموقف والواقع السياسي ، وهي جميعها عناصر لا تستطيع ان تسيطر عليها اي ارادة سياسية الا بقدر معين ، بل ان الضمير الجماعي قد يرفض تلك السيطرة او يقيد من دلالتها . وهنا تبدو العلاقة الوثيقة بين اللغة والحركة السياسية ، وحدة اللغة تسمح للحركة السياسية بايناع معين يستحيل ان يتحقق في اي طار آخر تنقصه الوحدة اللغوية . في عاصمة كوستاريكا توجد مدرسة مخصصة لتدريب القيادات والكوادر الحزبية الخاصة بحركات التحرير ، استطاعت من تلك العاصمة الصغيرة ، مدينة سان خوسيه ، ان تنشر مداً ثورياً لم تستطع اي مؤسسة اخرى في العالم المعاصر ان تقدم له مثيلاً .

ـ اللغة تساهم في مثل هذا الاطار في خلق شعور عام بالتعاطف والتقارب السياسي ، ان التفرقة بين السياسة الداخلية والسياسة الاقليمية تكاد تصير امراً مستحيلاً ، ومن ثم فإن الصراعات الايديولوجية ترفض ان تجعل الحدود القطرية فواصل لهذه الصراعات . انها ـ هذه الصراعات ـ تعبر الحدود وتصير بدرجات مختلفة ، وقد غزت جميع دول المنطقة ، ولعل هذا يفسر كيف ان الاندماج غير الاكراهي ظاهرة فاعلة وحية سوف تحدث آثارها في الامد البعيد في كلا المنطقتين : امريكا الجنوبية الناطقة باللغة الاسبانية والمنطقة العربية الاطار التقليدي للوحدة القومية . والذي عرفته الدول الاوروبية ومحوره العنصري العسكري والقوة المادية لم يعد هو الوحيد . ان الاندماج الوظيفي والذي مرده الترابط المعنوي والولاء المشترك سوف يلعب دوراً اكثر فاعلية ، واكثر استجابة في عملية التقارب بين تلك الشعوب .

**النموذج الثالث** الذي نلحظه من متابعة الخبرة المعاصرة ، حيث دولة واحدة تمارس فيها العديد من اللغات ، ولكن بين هذه اللغات واحدة تسود الاخرى كلغة رسمية للدولة . هـذا التطبيق نلحظه في كثير من الدول الحديثة العهد بالاستقلال ، ولنذكر على سبيل المثال تنجانيقا ، حيث يوجد عدد لا حصر له من اللغات تستخدمه الشعوب المنتمية الى تلك الدولة ، وحيث يكاد نصف اهالي الدولة يتكلمون اللغة السواحلية ، هذه اللغة تتكون من خليط من اللهجة المسجلة المسماة لغة « البانتو » مع تدخل واضح وسيادة ساحقة للغة العربية . والواقع ان اللغة العربية كانت تملك السيادة المطلقة وبلا منازع . وقد شجع على ذلك ايضاً المستعمر الالماني قبل الحرب العالمية الاولى لاسباب عملية ، فارتباط اللغة السواحلية باللغة العربية سمح لهذه اللغة بمزايا ثلاث : فاللغة السواحلية تستمد الكثير من الالفاظ من اللغة العربية بسبب غناها المعروف، كذلك فإن اللغة السواحلية هي اللغـة الافريقيـة الوحيـدة المكتوبـة والمسجلة ، او المدونـة قبل فتـرة الاستعمار الاوروبي ، كذلك فإن هذه اللغة تملك قدرة معينة على التعامل مع المفاهيم القرآنية ، الامر الذي يسمح للغة السواحلية بشيء من الايناع والازدهار مع انتشار الاسلام . ومن الطبيعي انه في لحظة معينة وجد صراع خفي بين اللغة السواحلية واللغات الاوروبية ، وبصفة خاصة اللغة الانكليزية ، حيث ان هذه الاخيرة تغلغلت في المنطقة تحت حماية العلم المستعمر وبصورة خاصة عقب الحرب العالمية الاولى .

**النموذج الرابع** يقودنا الى واقع مختلف ولكنه يكاد يثير المشاكل نفسها . في دولة معينة ، نجد العديد من اللغات غير المترابطة ، ولكن بينها لغة واحدة تملك تقاليد ادبية ثابتة ومقننة . في هذا النموذج ، رغم تعدد اساليب التعامل اللفظي واللغوي ، نجـد من حيث الواقع هناك لغة واحدة تملك جميع ادوات السيادة ولو في الامد البعيد نسبياً ، على جميع اللغات الاخرى ، بحكم كونها تملك تقاليدها الادبية الواضحة والمقننة . ورغم ان هذه اللغة لا يتحدث بها الجميع ، او على الاقل لا يستخدم هذه اللغة للخطاب المتداول الا اقلية متميزة ، والنموذج الواضح لهذا التطبيق الرابع نجده في المغرب ، بل كذلك في الجزائر ، وبصورة اقل وضوحاً في ليبيا . فالغالبية العظمى تتحدث اللغة العربية ، من حيث الواقع وبصفة خاصة في الجزائر والى حد معين في المغرب حيث تصطدم اللغة العربية باللغة الفرنسية التي لا تزال تملك سيادة معينة في كثير من الاوساط، ولا يزال يحن اليها الكثير من المثقفين ، بل انهم لا يستخدمون سواها للتعبير عن افكارهم ومعتقداتهم . الى جانب ذلك ، هناك العديد من اللهجات البربرية السائدة بصفة خاصة خارج المدن الكبرى . ونجد نموذجاً آخر في الواقع العربي لهذا التطبيق نفسه في جنوب السودان ، حيث اللغة العربية تتصارع مع اللغة الانكليزية الى جوار عدد لا بأس به من اللهجات المحلية .

قد يبدو لاول وهلة ان المستقبل يحمل في طياته السيادة للغة العربية ، والواقع ان اسباب هذا التفاؤ ل عديدة : فاللغة العربية هي اللغة القومية ، وهي وحدها ذات التقاليد الثابتة والراسخة ، كذلك فإن الانتقال الدائم من القرية او الصحراء الى المدينة يؤ دي بالضرورة الى عملية استيعاب لهذه العناصر في دائرة الانتشار للغة العربية . رغم ذلك فيجب ان نعرف بأن مجموعة من العوامل

تفرض علينا ان ننظر الى هذا التطور على انه بطيء ولا يسلك طريقه الطبيعي . واول هذه العوامل ينبع من مفهوم الاستعمار الجديد. الغزو الثقافي اضحى احدى ادوات السيطرة والهيمنة، الذي ارتفع الى مستوى الفلسفة المتكاملة للتعامل مع الشعوب المتخلفة. والحديث عن الحضارة البربرية لم نسمعه الا خلال الاعوام العشرة الاخيرة ، وهو منطلق خطير لتفتيت فاعلية اللغة العربية ، ويقوي من ذلك المتغير ان الدولة لم تضع سياسة واضحة لتوظيف اللغة كأداة للتكامل القومي . فالبعض يتصور ان عملية التعريب لا تعدو ان تكون التدريس باللغة العربية ، وهذا فهم قاصر لأن التعريب ليس مجرد خطاب بلغة مقننة ، وحتى يستطيع ان يحقق الوحدة اللغوية يجب ان يرتفع الى مستوى خلق اللغة الصالحة ، لأنه يتعامل مع الموقف من جانب ومع منطق وخصائص الادراك الذاتي للمستقبل من جانب آخر ، دون ان ينسى تقاليد الواقع والبيئة الاجتماعية التي يجب ان يتفاعل معها وبها من جانب ثالث. التعريب هو فلسفة اولاً وحركة ثانياً ، وككل فلسفة وحركة ، فالتعريب لا بد من ان يخلق ادواته الذاتية الصالحة للغزو والقادرة على خلق الاستجابة .

إن بلدان شمال افريقيا وبصفة خاصة الجزائر والمغرب، لم تصنع لنفسها فلسفة للتعامل مع الادراك القومي في مواجهة اللغة الفرنسية من جانب، واللهجات البربرية من جانب آخر. وكلاهما يملك قوته : الاولى قوة التحديث والاخرى قوة الانتماء في التعامل اليومي ، ولا يعني ذلك ان اللغة العربية سوف تفشل في تحقيق الوحدة الادراكية في تلك المجتمعات ، ولكنها سوف تواجه عقبات كان من الممكن تخطيها بسهولة لو ان القيادة السياسية كانت واعية بحقيقة هذه العقبات. والامر اكثر خطورة في السودان ، وليس مرد ذلك الى ان على اللغة العربية في جنوب السودان ان تواجه اللغة الانكليزية وهي لغة اكثر ايناعاً واكثر انتشاراً ، بل لانه الى جانب العوامل السابق ذكرها يوجد متغيران آخران يزيد كل منهما من تضخيم هذه المخاطر . فجنوب السودان لا ينتمي الى الوطن العربي في معناه الضيق ، لا من حيث الاصل العنصري ولا من حيث الديانة السائدة ، وذلك خلافاً لمنطقة البربر في شمال افريقيا ، كذلك فإن جنوب السودان يخضع لعملية جذب عنيفة نحو وسط افريقيا التي لا تزال تحن الى انشاء الدولة الافريقية الكبرى التي سوف تمتد - لو قدر لها التكامل - من اعالي النيل حتى المحيط الهندي، اضف الى ذلك ضعف الحكومة المركزية في فرض اللغة العربية كأداة علمية سائدة في السودان الشمالي نفسه. كيف نتصور ان جامعة الخرطوم لا تزال حتى اليوم وفي الكليات المتخصصة بالعلوم الانسانية تنظر الى اللغة العربية على انها لغة اجنبية؟ كيف يعقل ان الاقتصاد العربي والسياسة العربية والتاريخ العربي لا تزال تدرس في جامعة الخرطوم الحكومية باللغة الانكليزية؟ والواقع ان من يتابع تطور منطقة جنوب السودان ، يلحظ كيف ان انتشار اللغة العربية يتسع او يتقلص في علاقة ثابتة ومطردة مع قوة الحكومة المركزية في اثبات هيبتها ، والهيبة ليس معناها القوة او العنف ، ولكنها تعني خلق القناعة بالمصالح المشتركة والانتماء الواحد ، وان نموذج السودان يوجد بدرجات مختلفة في جميع المناطق العربية التي تمثل الاطراف دون استثناء .

وهناك ملاحظة اخيرة بصدد هذا التطبيق الرابع ، جديرة بأن تثير الانتباه ، وهي ان هذا

النموذج ليس قاصراً على البلاد العربية ، فهو يوجد ايضـاً في كثير من دول امـريكا الـلاتينية . بارغواي ، بوليفيا ، مكسيكو ، غواتيمالا ، اكوادور ، حيث اللغة الاسبانية تعيد للذهن موقف اللغة العربية في النماذج السابقة ، بل ونستطيع ان نضيف دولة بورما في جنوب شرق آسيا .

النموذج الخامس يقترب من النموذج السابق وهو تطبيق آخر يقوم بدوره على مبدأ التعدد اللغوي ، وان كان يختلف من حيث الجوهر عن الاول . فرغم تعدد اللغات لا توجد لأي لغة من تلك اللغات المتداولة قوة التقاليد الادبية الثابتة . هذا النموذج هو السائد في جميع دول افريقيا السوداء . فتعدد اللهجات المحلية والنقص الواضح في التقاليد الادبية منعا تلك اللغات من القدرة على اي نوع من انواع التحدي للغات الاجنبية السائدة : الانكليزية والفرنسية اللتين كانتا ولا تزالان هما السائدتين كلغة الثقافة العالية والتعـامل الـرسمي والاستخدام السيـاسي . ان الاستقلال لم يؤ د الى ضعف اللغات الاجنبية في تلك المجتمعات ، بل العكس من ذلك ، زاد من تدعيم سيادة تلك اللغات وتوغلها في المنطق القومي المحلي ، ومرد ذلك الى عوامل عديدة : تعدد اللهجات المحلية الذي وصل في بعض تلك الدول الى اكثر من ثمانين لهجة من جانب ، ثم عدم قدرة اي من هذه اللهجات على ان تسود اللهجات الاخرى ، فضلاً عن تخلفها ، الامر الذي لا بد من ان يمنعها من الانفتاح على العالم الحديث ، وكان لا بد من ان يؤ دي الى زيادة التبعية الى اللغات الاجنبية . فإذا اضفنا الى ذلك ان هذه اللهجات تتميز بصعوبة بالغة ، لكان من الطبيعي والمنطقي ذلك الاقبال الشديد على تعلم والتمسك باحدى اللغات الاوروبية ، وبصفة خاصة الفرنسية او الانكليزية كأداة للتعبير عن الوحدة اللغوية . ورغم ان مثل هذا التطور منطقي ، الا انه لا بد من ان يفرض نوعاً من التبعية الفكرية ، فضلاً عن انه يسمح بخلق اساليب مباشرة للغزو المعنوي والتسميم الحضاري ، وفي هذا النموذج لا يمكن ان ينظر الى المستقبل الا بكثير من التشاؤ م .

النمـوذج السادس الذي يـأتي عقب ذلك هو نمـوذج يقف من التـطبيق السابق مـوقف النقيض ، رغـم انه يقود الى النتيجة نفسها : تعدد في اللغات المحلية ، ولكن حيث كل لغة تملك تقاليدها الادبية . هذا الواقع نجده في الهند ، وكذلك في الباكستان وايضاً في سيلان وماليزيا ، بل وقبرص . الهند تمثل النموذج الصارخ لعدم منطقية التطور السياسي والقومي ، فهي تملك العديد من اللهجات واللغات ، والبعض منها يملك تقاليـده الادبية بـل والمتقدمـة ، ورغم ذلك فـإن الدستور الهندي ينص صراحة على استخدام اللغة الانكليزية كلغة رسمية للتعامل الحكومي وهي كذلك لغة الثقافة المتخصصة والتعامل بين الطبقات المختارة والمسؤ ولـة . ورغم ان الدستـور الهندي جعل استخدام اللغة الانكليزية بهذا المعنى مقيداً بعشر سنوات كفترة انتقالية ، الا ان هذه الفترة مددت لاكثر من مرة . ولعل الظاهرة التي تدعو للتساؤ ل هي ان التقدم العلمي في الهند وصل الى مستوى يجعل من الطبقة المثقفة في تلك الدولة قادرة على ان تقترب إن لم تكن قد تميزت عن مثيلاتها في كبرى دول العالم المتقدم . كذلك فإن الديانة الهندوسية تمثل احد عناصر التوحيد في الادراك القومي ، الا ان اللغة الانكليزية لا تزال سائدة كمحور حقيقي للتعامل الشعبي وغير الشعبي العلمي وغير العلمي في شبه القارة الهندية . وفي التطبيقات الاخرى نجد الصراع بين

لغتين ، تمثل كل منهما تقاليد حضارية معينة ، وامتداداً قومياً معيناً . وقبرص تعبير واضح عن هذه الحقيقة ، حيث الصدام بين اللغة اليونانية واللغة التركية هو صدام يخفي في حقيقة الامر صراعاً بين انتماء قومي تركي وآخر يوناني ، وفي نهاية الامر فإن هذا الصراع ينتهي لمصلحة اللغة الانكليزية التي تتسلل بطريق غير مباشر لتسود ، او على الاقل تنافس كلا اللغتين موضع الصراع .

## ثانياً : اللغة وادوات السياسة القومية

لن نستطيع ان ندرك خطورة الوظيفة التي تؤديها اللغة في التطور السياسي المعاصر ، الا اذا تتبعنا حقيقة التطور الذي تعيشه الانسانية المعاصرة . لقد سبق وذكرنا كيف ان الخطأ الذي يقع فيه الفقه السياسي في دول العالم الثالث ، وبصفة خاصة في المنطقة العربية ، هو انه ينقل الفكر القومي الاوروبي الذي تم صوغه خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، ويطبقه على الواقع المعاصر دون ان يدرك ان الاطار الاجتماعي والاقتصادي الذي نعيشه اليوم يختلف اختلافاً جذرياً عن ذلك الواقع الذي انبت الفكر القومي التقليدي . ان احد مظاهر هذا الخلط يتعلق بالوظيفة السياسية للغة . ورغم ذلك فإن العودة الى ذلك التاريخ - الذي منه نبعث المفاهيم القومية - ضرورة حقيقية لاكمال فهم ذلك التطور الذي نعيشه في خلال الربع الاخير من القرن العشرين .

ان القرن التاسع عشر هو عصر العودة الى التاريخ . وقد علمت هذه العودة الشعوب الاوروبية الكثير من الحقائق . اولى هذه الحقائق ، ان محور التطور السياسي ليس هو الدولة او الامة او الشعب . والحقيقة الثانية تدور حول كيفية الكشف عن الذاتية القومية ، وان الذاتية القومية هي الاصالة والتميز . والحقيقة الثالثة ترتبط وتنبع من مبدأ شرعية القيادة السياسية للمجتمع في المحيط الانساني . وهذا يقودنا الى مفهوم الوظيفة الحضارية . هذه الحقائق الثلاث فرضت مفهوم اللغة كأداة سياسية وكمحور لنشاط الدولة في نطاق العمل السلطوي والقيادة الجماعية .

**اولى هذه الحقائق هي محور التطور السياسي** . ما هي القوى المحركة للتطور السياسي ؟ ما هو العنصر الديناميكي الذي يدفع بالحركة ، فيفرض التنقل من وضع لآخر ؟ انه ليس الدولة كما قال وزعم هيغل ، وهو ليس الامة كما رد عليه هردز ، انه حقيقة معنوية اعظم وابقى واكثر خلوداً من كل ذلك ، انه **روح الشعب** : او كما يقول (Mosse) ان روح الشعب هي القوة الخفية المعنوية التي تسيطر على الجماعة فتفرض الترابط وتتحدى الاحداث وتنتظر اللحظة المناسبة لتتفجر حقيقة واقعة ، فإذا بها امة ودولة ، بل وظيفة حضارية وقيادة انسانية . ان روح الشعب هي وحدها محور التطور ، والزعيم هو ذلك الذي يملك الحساسية والعلاقة المباشرة الخفية مع روح الشعب . وما هي روح الشعب وما الذي يسمح باستمراريتها رغم الاحداث ؟ انها اللغة ، قدس الاقداس . اللغة هي التي تحمي روح الشعب في طقوسها واساطيرها ورموزها وتقاليدها ، بل ومعانيها . اللغة المتداولة المتنقلة من جيل الى جيل ، ومن عصر الى عصر ، وعبر مسالك خفية غير واضحة ، ولكنها ثابتة ، هي وحدها التي تحمي كنوز المعرفة وصلابة الايمان وقوة الانتماء .

التاريخ وحده هو الذي يعلمنا كيف نستطيع ان نحدد الذاتية القومية بمعنى الاصالة والتميز . ان مسيرة الشعب عبر الزمن ذات اهمية حاسمة في عملية التمييز بين شعب وآخر . فنلاحظ « لامارك » وكذلك « بوفون » قيدا التطور التاريخي بتغيرات اقليمية ، جغرافية ومناخية ، بحيث ان الفوارق بين الشعوب لا تصير سوى متغيرات سببية . ولكن هذا التطور لم يعد له موضع . ان التطور التاريخي لمجتمع معين انما يخضع لارادة عليا قد حددت له وظيفة في المجتمع الانساني . التاريخ هو اسطورة قومية ، والمجتمع القائد هو وحده الذي يعرف كيف يحتفظ بنقائه وكيف تظل دماؤ ه صافية لا تعرف الاختلاط والتلوث . ومهما فرض على المجتمع من خضوع ، فإنه يظل نقياً في صمته قوياً في نقائه ، شامخاً في رفضه للتزاوج وللاندماج مع الغازي الاجنبي ، نبيلاً في وحدته وعزلته وانطوائه على نفسه . ومظهر ذلك واضح في لغته ، لأنها تظل تحافظ على نقائها الروحي ، فهي لا تقبل استقبال تلك المفاهيم الاجنبية ولكنها تخلق بارادتها وتصقل بصلابتها مفاهيمها وتعبيراتها . هذا المنطق هو الذي سوف يجعل منه فيخته محور رفضه للغزو الفرنسي في **احاديث الى الامة الالمانية** . فعندما اقبلت جميع القيادات الارستقراطية البروسية تنحني امام البطل الاسطوري نابليون وتسرع لارضائه وللتزلف اليه باقتناعها بالفرنسية وقف في مواجهتها فيلسوف المانيا الاكبر ليذكر ابناء وطنه بأن هذه اللغة الالمانية هي وحدها ذات العظمة التاريخية ، لأنها عرفت كيف تحافظ على نقائها ازاء الغزو الروماني ، ومن ثم فهي وحدها صاحبة السيادة وليست لغة هؤلاء الدخلاء .

إن التطورات المختلفة التي سبق تحديدها ، فرضت الاهتمام باللغة ، بحيث جعلت منها مدخلاً اساسياً للظاهرة القومية . يستوي في هذا ان تصير اللغة منطلقاً للوحدة حيث تتعدد الكيانات ذات اللغة الواحدة ، فيصبح من الطبيعي ان تنصهر في اطار واحد اي دولة واحدة ، او تصير اللغة اساساً لشرعية الانفصال والاستقلال ، حيث نجد في واقع معين مجتمعاً يملك لغته المستقلة وقد فرض عليه ان يتعايش مع مجتمع آخر يملك بدوره استقلاله اللغوي ، فيصير من حق اي منها الاستقلال والانفصال . التطبيق الاول نجده واضحاً في التطور الالماني ، والثاني تطبيقاته عديدة في جنوب شرق اوروبا ، وبصفة خاصة في منطقة البلقان العليا . فالقومية هي علاقة انتماء يفرض الولاء ، واحد اسباب ذلك الولاء واحدى ادوات التعبير عن ذلك الانتماء هما اللغة . وهي بهذا المعنى ، واقعة او حدث او احد معطيات التطور . انها حقيقة قائمة ، ولكنها لم ترتفع بعد لتصير اداة من ادوات التطوير لتندرج من جهة اخرى في دائرة التعامل الايجابي ، او من جهة اخرى ، لتصير احدى ادوات السياسة القومية ، بحيث يتعين على الدولة ان تتعامل معها بالتغيير والبناء من منطلق سياسة مقننة ومخططة ، فتجعل منها اداة من ادوات تحركها في دائرة الاقليم الذي هو وعاء لارادتها خلال النصف الثاني من القرن العشرين . كيف حدث ذلك ؟

قرن كامل لا بد من ان يعاني الكثير من التفجرات قبل ان نصل الى النصف الثاني من القرن العشرين، حيث تصير اللغة احدى ادوات السياسة القومية. ارتبط ذلك واعتمله العديد من التطورات التي كانت لا بد من ان تفرض الاهتمام باللغة من منطلقات جديدة، ليست تاريخية فقط

بل وكذلك سياسية ، بمعنى التغيير من جانب والتعامل الديناميكي مع الواقع لتطويعه من جانب آخر . **اول** هذه المتغيرات ظهور المجتمع الجماهيري ، ثم يأتي فيكمل ذلك **متغير** مرتبط بطبيعة الدولة : مفهوم الدولة القومية تحول تدريجياً ليعاصر اليوم ما يسميه الفقه المتخصص الـدولة ـ الاقليم . ويأتي متغير **ثالث** ليخلق قنطرة بين هذين المتغيرين ، وهو بروز وظيفة الدولة الاتصالية وما ارتبط بذلك من صراع معنوي باسم الصدام العقائدي او الحرب الايديولوجية .

هذه التطورات فرضت على اللغة وظيفة سياسية ، علينـا ان نفهمها في معنـاها الحقيقي لنستطيع ان نحدد موضع اللغة في اطار التعامل الفكري مع ما اسميناه ، تكتيل الوعي الجماعي .

**اول هذه المتغيرات بروز الظاهرة الجماهيرية**، فلقد ظلت الانسانية حتى نهاية القرن الثامن عشر وهي لا تعرف سوى حاكم او محكوم . ثم جاءت الثورة الفرنسية فأطلقت عقال المحرومين والكادحين. غير ان الواقع، لم تكن الثورة الفرنسية تستطيع ان تحقق هذه الطفرة لولا اطار اجتماعي وحضاري معين مكّن من ذلك التطور . واول عناصر ذلك الاطار هو التطور الرهيب الفجائي في ادوات الاتصال ، ثم من جانب آخر ظهور الطباعة بأوسع معانيها . هذا التطور الذي بدأ مع النصف الثاني من القرن العشرين ، ادى الى ان يلغي العالم عنصري الزمان والمكان او يكاد ، من حيث نقل الرسالة الاتصالية . وقد ارتبط بذلك ـ نتيجة للثورة الفرنسية وما اعقبها من احداث ـ تطور التعليم نحو الديمقراطية ، بحيث لم تعد الجامعة او ما في حكمها ، احتكاراً لفئة او لطبقة معينة . اضيفت الى ذلك ظاهرة التجمعات السكنية الضخمة كنتيجة للتطور الصناعي وما يعنيه ذلك من قدرة معينة على تهديد السلطة القائمة . وهكذا فإن ثورة سياسية ، ثورة اتصالية ثم ثورة صناعية ، قادت لأن تجعل رجل الشارع هو محور التطور الحقيقي ، يخطب وده الزعيم السياسي ويهابه اي حزب عقائدي وتتحكم بارادته جميع ، او على الاقل اغلب القرارات القومية .

فرض المجتمع الجماهيري مشكلة الثقافة الجماهيرية ، ومعنى ذلك اسلوب جديد للتعامل الفكري ، محوره عنصران اساسيان : التبسيط اللغوي من جانب والايجاز في العرض من جانب آخر . ان رجل الشارع لا يستطيع ان يجاري تقاليد التألق اللغوي التي عرفتها العصور السابقة ، وهو يريد الحقيقة بأقل الكلمات . فهو عامل يقضي وقته في مصنعه ، وليس لديه لا من الوقت ما يسمح له بالتروي والانكبـاب ، ولا من الادراك ما يمكنـه من التعمق وتذوق مـظاهر الجمـال اللغوي . كل هذا يفترض اقتراباً من اللهجات المتداولة وهو امر له بعدان متناقضان : فهو يعمق التميز والخلافات اللغوية نتيجة لطغيان اللهجات المحلية من جانب ، ولكنه من جانب آخر يفرض دائرة اكثر اتساعاً من حيث الاهتمام بالخطاب . وهذا يفرض تطوراً معيناً على اللغة . لقد ظهر ما يسمى بالادب الشعبي ، واضحى هو المتحكم الحقيقي في التطور العام للمنطق اللغوي . ورغم كل ما قدم ذلك التطور من نتائج سيئة الى القدرة اللغوية التقليدية ، الا ان الادب الجماهيري اثبت انه اداة حاسمة في تحقيق عملية الاندماج بين المواطن رجل الشارع والمفهوم القومي للوجود السياسي كركيزة تدور حولها مجموعة من المفاهيم والرموز والتقاليد الاسطورية . وقد اثبتت الخبرة النازية قوة هذا المنطلق في تحقيق التكامل القومي : لقد استطاعت الدعاية النازية مستغلة ما اسماه

« موس » عملية « تأميم الجماهير » ان تجعل رجل الشارع يفقد حتى القدرة على التفكير ويصير اداة مسيرة في يد الزعيم او الحزب نحو اهداف قومية حددها الزعيم بارادته المنفردة دون اي مشاركة شعبية او فكرية . ورغم ان الشعب الالماني دفع ثمن ذلك ، الا ان هذه الخبرة تدعو الى التأمل والتساؤ ل .

**إن التطور في مفهوم ظاهرة الدولة اضاف بعداً آخر للوظيفة السياسية للاداة اللغوية . لقد** كان المنطق التقليدي بسيطاً في ادراكه ، واضحاً في عناصر ذلك الادراك : دولة واحدة تضم امة واحدة ، اي شعب واحد متجانس حيث الاصل العنصري يكاد يكون واحداً ، ومن ثم فإن الاصطلاحات الاربعة تصير او تكاد ان تكون مترادفات : شعب = امة = دولة = اصل عنصري واحد . ولكن مع الحرب العالمية الثانية ارتفعت قوى جديدة الى مركز القيادة العالمية لا تعرف مثل هذا التصور، فالتقدم الرهيب في ادوات الاتصال كان لا بد من ان يساعد على ذلك التطور . ان سيطرة الاعتبارات الاقتصادية ادخلت في مفهوم الدولة متغيرات ذات وزن مختلف، وهكذا ظهرت تطبيقات جديدة لمفهوم الدولة ولم تعد الدولة القومية بالمعنى التقليدي هي المثل الاعلى للوجود السياسي . فالولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي لا يمثلان ولا يعبران عن مفهوم الدولة القومية، ان اياً منهما مجموعة من القوميات المتعددة ، بل والمتنوعة من حيث الاصل العنصري . ورغم ذلك فإن هذه الدولة هي وحدها التي تمثل المثالية التي تسعى اليها جميع القوى المعاصرة . حتى اوروبا صاحبة التقاليد الثابتة في المفهوم القومي بالمعنى السابق تسعى لأن تخلق اوروبا المتحدة التي تتكون من شعوب مختلفة ومتباينة ، بل وكل منها يملك لغته المستقلة وتاريخه المتميز واصله العنصري المختلف . ما معنى الدولة الاقليمية؟ الفقه لم يستطع بعد ان ينظّر هذا الواقع الجديد ، ولكننا نعرف هذا النموذج بأنه « مجتمع تربطه عناصر الوحدة الحضارية من جانب والانتماء الى اقليم واحد يمثل التكامل الاقتصادي من جانب آخر ، وقد سيطرت عليه ارادة الحياة المشتركة » . لقد جاء مفهوم الوحدة الحضارية يحل محل الوحدة اللغوية ، وهذا يفرض على الدولة التزاماً جديداً وهو تدعيم تلك الوحدة الحضارية من خلال سياسة لغوية واعية . هذه الحقيقة تبرز واضحة ليس فقط في الدولتين الاعظم ، بل في النماذج الاخرى التي تسعى لأن تخلق مثاليتها على ضوء خبرة هذين العملاقين ، وبصفة خاصة الصين والهند والبرازيل . الاولى نجحت والثانية فشلت والثالثة تتذبذب بين النجاح تارة وبين الفشل تارة اخرى.

علماً ان اخطر المتغيرات التي فرضت الوظيفة السياسية للغة ينبع من ذلك الذي اسميناه في مواقع متعددة من مؤلفاتنا باسم«وظيفة الدولة الاتصالية»اي المفهوم التقليدي للدولة على انها حقيقة معنوية لا تملك وجوداً مادياً، فهي تعبير قانوني عن الامة. فالشعب هو العنصر المادي والدولة هي التصور المجرد لذلك العنصر المادي ، ومن ثم فإن الدولة لا تملك اي ممارسات مادية : انها لا تتزوج ولا تعتنق الدين على سبيل المثال . وقد ارتبط هذا بمفهوم الدولة الحارس التي تقتصر وظيفتها على حفظ الامن في الداخل والدفاع عن الجسد القومي في الخارج. هذه المفاهيم جردت الدولة من كل مثالية لها ومن كل معنى من معاني القيم . فالقرن العشرون وبصفة خاصة منذ الثورة الشيوعية ، يعيش ثورة حقيقية لهذه التقاليد ، وهي ثورة تتضمن من جانب تجديداً في الاطار

الفكري، ومن جانب آخر عودة لتقاليد الدولة في العصور الوسطى. لا تعنينا التفاصيل ولكن يكفي ان نقف امام النتيجة : فالثورة الشيوعية فرضت مفهوم الايديولوجية كاحدى وظائف الدولة ، والعودة الى تقاليد الدولة في العصور الوسطى فرضت مفهوم الدولة الدينية اي الدولة التي لا تستطيع ان تقف من الدين موقف الرفض وعدم الاهتمام . وفي كلا المعنيين ، على الدولة ان تؤدي وظيفة ايجابية وهي خلق علاقة اتصال ثابتة ومقننة مع المواطن ، مع رجل الشارع ، وهذه هي الوظيفة الاتصالية . وقد يكون منطلق الوظيفة الاتصالية هو الايديولوجية السياسية كما هو حادث في الاتحاد السوفياتي ، وقد يقتصر على الاعجاب والدفاع عن اسلوب معين للحياة كما هو الامر القائم في المجتمع الاميركي ، وقد يرتفع فإذا به خيال نحو تحقيق مثالية تاريخية كماهو بالنسبة للدولة الكاثوليكية او للدولة الصهيونية . ولكن هناك علاقة معنوية تنبع من التزام الدولة بالوظيفة الايجابية نحو خلق القناعة لدى المواطن بحقائق فكرية ثابتة نستطيع ان نوجزها حول اربعة عناصر : (١) خلق القناعة بالمثالية ؛ (٢) خلق الثقة بالحاكم ؛ (٣) خلق الامل في المستقبل ؛ (٤) خلق المشاركة في الممارسة .

يضم جميع هذه العناصر ويحتويها الوعي بالذات القومية . فالعنصر **الاول** يدور حول ترسيب القناعة بأن ذلك النموذج الذي تسعى الدولة الى تحقيقه هو خير تعبير عن الواقع الاجتماعي الذي يرتبط بتلك الدولة . وهو بهذا المعنى خطاب يتجه الى الحاضر بقدر اتجاهه الى الماضي والمستقبل . الاول يربط الواقع بالتقاليد ، والثاني يعد المواطن لمجتمع الغد ، والمواطن يصير في ذلك الاطار هو الشاب والطفل الذي يمثل مستقبل الجماعة وتطوراتها القادمة . العنصر **الثاني** هو الثقة بالحاكم تنبع من دفع عجلة التعاطف والاعجاب نحو الفئة القيادية من خلال تقديم منجزاتها وتدعيم القناعة بالتضحية والقدرة على التمثيل الواعي للجماعة . الحاكم يصير رمزاً ينبع من التراث الاسطوري الذي يسيطر على التاريخ السياسي للمجتمع .

العنصر **الثالث** هو الامل في المستقبل الذي يدعم كل ذلك، لأنه وحده الذي يبرر جميع الالتزامات ويفسر جميع القرارات التي تتضمن الحرمان او القيود على الحريات ، او ما في حكمها. كذلك فإن العنصر **الرابع** ، اي المشاركة هي المحور الحقيقي لنجاح اي خطة قومية بحيث يشعر كل مواطن انه اضحى حاكماً ، وان الحاكم ليس الا محكوماً بتلك الارادة الشعبية التي ليست بدورها سوى حصيلة الارادات الفردية .

والجوهر الحقيقي للوظيفة الاتصالية هو خلق الوعي بالذات القومية، واداتها هي الاعلام الجماهيري، وتتولى صياغتها اللغة القومية ، ومن ثم، فهي تستطيع ان تؤدي هذه الوظيفة ولا بد من ان تتطور حتى تنزل الى مستوى رجل الشارع ، وهي ايضاً يعاد تركيبها لتشحن عاطفياً وسياسياً ، ولكنها تظل مترابطة بل تزداد ترابطاً مع النماذج التاريخية والاساطير القديمة المرتبطة بذلك التراث وتلك القواعد الخاصة بتلك اللغة .

والخلاصة ان اللغة تصير الاداة الاساسية التي تستطيع من خلال القيادة السياسية ان تحقق عملية تكتيل الوعي الجماعي . مسالكها عديدة : بعضها مباشر وهو عن طريق التطوير الذاتي

للغة ، وبعضها غير مباشر حيث تصير اللغة بدورها الجوهر ، ولكن من خلال قنوات اخرى ، وبصفة خاصة قناة الوظيفة الحضارية من جانب ، وقناة الايديولوجية السياسية من جانب آخر . وهكذا نلاحظ كيف ان العناصر الثلاثة تصير بمثابة الاواني المتسطرقة حيث يقود كل منها الى الاخرى ولكن الجوهر الحقيقي هو اللغة بمعناها السياسي . ولكن هل تملك اللغة معنى سياسياً ؟

**إن المعنى السياسي للغة هو التطابق بين اللغة وروح الشعب او الجماعة.** ان هذه الروح الخفية التي تخلق التطور وتربط الماضي بالمستقبل عبر الحاضر ، تملك تعبيراتها العديدة : الوظيفة الحضارية ، القيادة الاقليمية ، الاختيار الالهي ، وكذلك فإن اللغة هي احد تعبيرات روح الشعب او الجماعة . هذا المعنى السياسي يبدو واضحاً من حيث الوظائف التي تؤديها اللغة ولا تستطيع سواها ان تقوم بها في معناها ودلالتها الحقيقية :

ـ فلا يوجد شعب او امة لا تملك لغة . ان اللغة هي الشرط الاساسي الذي يعني انتفاؤه انتفاء الامة او كما يقول فلاسفة الرومان (sine qua non) ، انها بهذا المعنى احد المقومات الاساسية التي بدونها لا موضع للحديث عن مفهوم المجتمع القومي . وهنا يجب الا تختلط في اذهاننا الدولة القومية بالمجتمع القومي . وهناك ظاهرتان آن لنا ان نفهم ان كلا منهما من حيث علاقتها باللغة تملك معنى مستقلاً . ان اللغة هي التعبير الحقيقي عن ذكاء الشعب ، حيث ان الطابع الفكري لكل شعب ، انما يتجسد عبر الالفاظ والعبارات التي تتكون منها اللغة .

ـ علماً ان هذا لا يعني انه لا توجد علاقة بين اللغة والوحدة . فاللغة هي التي تسمح بوحدة الجماعة عبر الاحداث . الغزو الاجنبي والخضوع للمستعمر لا تقاومهما سوى اللغة في ثباتها وترابطها ، بل انها هي التي تفرض على الجماعة ان تظل متماسكة وهي مجزأة مترابطة وهي مفتتة ، كرامتها مرتفعة وهيبتها قائمة وهي خاضعة للنفوذ الاجنبي . اللغة تصير بهذا المعنى الوعاء الذي يحفظ ويحمي التراث القومي .

ـ والواقع ان مرد ذلك الحقيقي ، هو ان اللغة تسمح ، بل وتفرض التطابق بين ما تمثله اللغة من قيم وبين الشعور القومي ، وعندما يفقد مجتمع ذلك التطابق فإن هذا ايذان بتقلص العلاقة بين اللغة والضمير القومي ، وهو مقدمة لاختفاء اللغة من ذلك الشعور الجماعي . ان اختفاء اللغة اللاتينية في ايطاليا وتحول المجتمع الايطالي من لغة ابائه واجداده الى لغة جديدة ، لم يكونا الا النتيجة المباشرة لتقلص العلاقة السياسية بين اللغة والشعور القومي . وهو امر سوف نراه يتكرر في صورة اخرى اكثر قسوة في اختفاء اللغة العربية من المجتمع الايراني والعودة الى اللغة الفارسية رغم الانتماء الديني ، ولو شكلياً . ان مرد ذلك هو ان اللغة الفارسية في ذلك المجتمع هي اكثر تجاوباً مع الشعور القومي من اللغة العربية ، ولم تستطع القيم التي تخلق الترابط بين اللغة العربية والدين الاسلامي ان تزيل القيم الاخرى المترسبة في الوعي القومي الجماعي من خلال اللغة الفارسية . وهو امر لم يحدث على سبيل المثال في مصر، ورغم ان هذه كانت تملك تقاليد اكثر قوة واكثر تكاملاً من حيث ايناعها الحضاري .

ـ اللغة هي وحدها التي تسمح بالاحتفاظ بالتقاليد ونقلها من جيل الى جيل . وفي هذه التقاليد ، تجد الاساطير تعبيراتها الرمزية والاغاني المتداولة مصادرها الحقيقية . يقول « هردز » بهذا الخصوص : « اللغة هي تعبير عن تلقائية روح الشعب ، انها عصير الحياة للامة . الضمير القومي للامة لا يمكن ان يتبلور الا من خلال الادب الذي تخلقه قريحة تلك الامة » ان القرن العشرين ـ قرن سياسة الجماهير وثقافة الجماهير ـ لا يمكن الا ان يزيد من تأكيد هذه الحقيقة .

ـ كذلك فإن اللغة هي وحدها اداة التعليم ، بحيث يحتفظ النظام التثقيفي ليس فقط باستمراريته بل ، وبصفة اساسية ، بالدلالة الحضارية التي يمثلها من حيث علاقته بالتراث التاريخي . ان التاريخ الحقيقي للانسانية هو سلسلة مترابطة من التقاليد ، ولا تستطيع سوى التعبيرات اللغوية حماية هذه الاستمرارية . اللغة هي اداة الاندماج الحقيقية : اندماج الماضي بالحاضر ، اندماج روح الشعب بالتطور السياسي ، اندماج الفرد في المجتمع القومي الذي اليه ينتمي . هذه هي الوظيفة السياسية للغة في معناها الحقيقي .

إن اللغة ليست مجرد رموز والفاظ ، انها قبل كل شيء آخر ، بنيان يتسرب من خلال اطار منطقي للتعامل مع الواقع الاجتماعي اولاً ، ونظام متكامل للقيم الفردية والجماعية والجمالية ثانياً . هذه الحقيقة تطرح تساؤلاً اخيراً عن السياسة الاسرائيلية المرتبطة بالاحياء القومي للغة العبرية كنموذج للترابط بين مفهوم التكامل القومي من جانب ، واللغة كأداة للسياسة القومية من جانب آخر . بل ان هذا الموضوع يثير بوضوح حقيقة امكانيات الدولة الاسرائيلية من حيث النجاح والفشل . فبقدر التوفيق الذي حققته القيادة الصهيونية في هذا الاحياء خلال العشرين عاماً الاولى من وجود الكيان السياسي لهذه الدولة ،كان الفشل خلال الاعوام الخمسة عشر اللاحقة . فكيف ولماذا؟ وما هي دلالة هذا التطور؟

في منتصف الستينات كتب المحلل الالماني المعروف « زفاريغ » يعلق على حركة الاحياء اللغة العبرية يقول : « ان ما حققه يمكن ان يتبوب على انه احد مظاهر النجاح المذهلة في التاريخ ، بل ومن المحتمل ان يوصف بأنه احدى اعظم المعجزات التي يعرفها القرن العشرون ، بل انها معجزة اكثر عظمة من نفس خلق دولة اسرائيل » . فأين ذلك القول من الواقع الذي تعيشه اسرائيل اليوم؟

في تقاليد الصهيونية السياسية ومنذ بداية الحركة في نهاية القرن الماضي ، كانت العناصر الاساسية التي تقوم عليها الدعوة ، ثلاثة : ارض ولغة وسيادة . فالارض هي الوعد الالهي ، واللغة هي روح الشعب التي تكلم بها الاله مع ابنائه ، والسيادة هي المظهر المعبر عن الوجود السياسي للامة المختارة في عالم الحضارة المعاصرة ، ولذلك فقد كانت عملية احياء اللغة العبرية تعني في ذهن الآباء الاوائل المحور الحقيقي للسياسة الداخلية والثقافية ، بل ان هذا الهدف تبلور من خلال انشاء الجامعة العبرية في القدس قبل انشاء الدولة ذاتها بأكثر من عشرين عاماً . ان احياء اللغة العبرية يصير الغاء لالفي عام من التشرد وخلق الرابطة المباشرة مع الاجداد الاوائل ، ومن ثم التواصل مع الروح الحقيقية للمجتمع اليهودي في نقائه وصفائه ، قبل ان يلوث بالتعامل مع الشعوب الاخرى خلال فترة المهجر .

انها رحلة طويلة عبر الزمن تفرض التعامل مع كثير من المخاطر والصعوبات :

ـ فاللغة العبرية لم يكن يتكلم بها الا القلائل . حتى ان بن غوريون في يومياته يحدثنا عن ان عدداً قليلاً من اليهود في ارض فلسطين عندما وصل اليها مهاجراً في اوائل القرن ، كان قادراً على ان يفهم اللغة العبرية ، بل ان الدليل الحكومي لاسرائيل يؤكد انه في عام ١٩٦١ لم يكن في داخل اسرائيل من يتكلم اللغة العبرية سوى ٦٧ بالمائة من المجتمع اليهودي . كذلك يجب ان ندخل في الاعتبار ان اللغة العبرية بسبب انقطاع استخدامها ، كانت قد اضحت لغة قديمة متحجرة لا تعبر الا عن مفاهيم وحقائق تعود لاكثر من الفي عام من الزمن .

ـ تبدو الصعوبة الحقيقية التي كان على القيادة الاسرائيلية ان تواجهها ، عندما تتذكر ان تلك الجماعة في بداية وجودها كانت تستخدم سبعين لغة ، بل ويحدثنا من درس هذه الظاهرة ان اليهودي العادي كان يستخدم في اليوم الواحد من لغتين الى ثلاث لغات تبعاً لموقعه في المجتمع . فالانتقال من لغة لاخرى كان يحدث في داخل الاسرة الواحدة ، وقد ادى ذلك الى نوع من الاضطراب الفكري لأن عملية الانتقال لا تعني مجرد استخدام رموز مختلفة ، بل انها انتقال من منطق الى منطق ومن بنيان فكري الى بنيان فكري آخر .

ـ اضف الى ذلك ان اليهودي عرف عنه التعلق باللهجات المحلية التي تعوّد عليها في مجتمع الغيتو القادم منه ، وهذه اللهجات المحلية في اغلب الاحيان ليست سوى خليط غير متجانس من لغة المجتمع الذي كان يعيش في داخله اليهودي ، ثم كلمات متفرقة بعضها عبري وبعضها من لغات يهودية اخرى تكونت خلال اعوام التشرد . والواقع انه توجد لغتان اساسيتان تكونتا في المهجر من خلال الممارسة اليومية : احداهما اللغة اليديشية والتي ترتبط باليهود الاوروبيين ، ثم لغة ثانية تسمى « لادينو » وهي تعود الى يهود اسبانيا . ونستطيع ان نضيف لغة ثالثة تطعمها اللغة العربية ، استخدمها يهود البلدان العربية ، وبصفة خاصة يهود المغرب ويهود اليمن. وجميع هذه اللغات تتضمن بعض الالفاظ العبرية ، ولكن كلا منها تحمل طابعها المتميز ، بل واسلوب نطق مختلف .

ـ الصعوبة الرابعة التي كان على الدولة ان تواجهها، تنبع من الواقع الاجتماعي في اسرائيل . فقد درجت اللغات اليهودية على توطين اليهود في اماكن واحدة تبعاً للاصل الذي ينتمون اليه . فهناك قرى كاملة لا يعيش فيها سوى مهاجرين روس وكيبتزات ، يغلب على من ينتمي اليها الاصل التونسي . وهذا مما يسهل استمرارية التعامل باللهجة المحلية التي تنتمي اليها تلك التجمعات وعدم الاقبال على اللغة العبرية .

رغم جميع هذه الصعوبات ، فإن التطور العام لاحياء وانتشار اللغة العبرية ظل في تطور دائم ايجابي حتى حرب الايام الستة ، حتى ان بعض الاحصاءات تحدثنا عن ان ٧٠ بالمائة من المجتمع اليهودي قد استطاع ان يتعامل بها على انها لغة الخطاب المتداول اليومي ،

وهو امر يجب ان يسجل نجاح القيادة الاسرائيلية . فرغم جميع الصعوبات التي سبق وذكرناها من خلال سياسة واعية، تم تطويع المجتمع اليهودي وخلق الترابط بينه وبين لغة آبائه واجداده . الا ان المتتبع للوضع اللغوي في اسرائيل اليوم وعقب قرابة خمسة عشر عاماً من حرب الايام الستة، لا بد من ان يلحظ ظاهرة غريبة، فالدولة تعرف سيادة اربع لغات في آن واحد بالترتيب التالي :

ـ اولى اللغات السائدة والمنتشرة في المجتمع الاسرائيلي هي اللغة **الانكليزية** ، وذلك لاسباب عديدة : فالاهمية الدولية لتلك الدولة من جانب ، والثراء العلمي الذي تمثله ، فضلاً عن انها الاداة الحقيقية للاتصال مع يهود الدياسبورا من جانب آخر . ومن حيث الواقع ورغم ان اللغة الانكليزية ليست اللغة الرسمية ، فإنها تحتل المركز الاول في جميع انواع التعامل على المستوى العالمي والثقافي المتخصص ، حتى ان المهاجر الذي يأتي من البلاد الناطقة باللغة الانكليزية يكاد لا يستطيع تعلم العبرية لأن كل يهودي يريد ان يمارس معه لغته الانكليزية في اي دائرة علمية ، ولذلك لا بد من ان تصير لغة الخطاب هي اللغة الانكليزية .

ـ تعقب تلك ، اللغة **العبرية** من حيث الانتشار ، فهي اللغة الرسمية الاولى ، وهي المستخدمة في جميع اللقاءات الرسمية . انها رمز الاستقلال القومي ، وهي لغة التوراة المقدسة . وكل مهاجر جديد يتعين عليه ان يتعلم اللغة العبرية ، بل ان اقباله ونجاحه في ذلك هما المقياس الاول لتعلقه بالقيم الجماعية السائدة في المجتمع الجديد . ورغم ان اللغة العبرية هي لغة الطبقة الحاكمة والفئة السائدة ، وهي التي تستخدم في جميع اللقاءات الرسمية ، الا ان اللغة الانكليزية هي التي تزداد ترسيخاً في التعامل اليومي والعلمي . لقد اضحت اللغة العبرية لغة الرسميات اكثر من ان تصير لغة الضمير القومي ، بل والملاحظ ان اللغة العبرية نفسها بدأت تغزوها الالفاظ والتعبيرات الانكليزية .

ـ اللغة الثالثة المستخدمة على نطاق واسع هي اللغة **الالمانية** ، وهي لا تزال لغة التجارة والصناعة . والواقع ان هذا منطقي ، فالصهيونية تستمد مصادرها الفكرية من التقاليد الالمانية ، ولا تزال الفئة الحاكمة والقيادة الفكرية تنظران الى التراث الالماني على انه يمثل المثالية الحقيقية للمجتمع الصهيوني . وقد ازداد هذا التعلق عقب التقارب الالماني ـ الاسرائيلي ، وبصفة خاصة عقب القيام بعمليات التعويض المعروفة .

ـ اللغة الرابعة هي اللغة **العربية** ، وهي اللغة الرسمية الثانية . والواقع انه عقب حرب الايام الستة ازداد انتشار هذه اللغة بسبب التوسع الفعلي للحدود الاسرائيلية لتضم كلاً من الضفة وغزة . اضف الى ذلك عنصرين اساسيين زادا من الاستخدام اليومي للغة العربية في داخل الدولة العبرية . فمن جانب ، تضخم عدد السكان العرب وازدياد التماسك العربي حول ارادة الرفض الفلسطينية ، وبصفة خاصة مع التضخم السكاني الذي يسوده عنصر الشباب ، ومن جانب آخر ، فإن اليهود الشرقيين والذين ينتمي اصلهم الى البلاد العربية يتحدثون اللغة العربية بطلاقة بل وأغلبهم لا يعرف اللغة العبرية .

هذا الموقف الذي يعيشه المجتمع الاسرائيلي في الواقع المعاصر يعكس ازمة حقيقة . فاسرائيل توصف بأنها دولة اللغات المحطمة ، الامر الذي يجعل كل مثقف يشعر بالنقص ازاء المجتمعات الاخرى . ان اللغة العبرية فرضت على المجتمع السياسي ولكنها عقب نجاح مؤقت،لم تستطع سوى ان تتراجع في مواجهة الغزو الفكري الكيفي للغة الانكليزية والغزو الكمي للغة العربية . كيف يكون المستقبل؟ سؤال لا يستطيع اي محلل ان يجيب عنه ، ولكن الامر الذي لا شك فيه ان اسرائيل تعيش حالة اختلاط واضطراب لغويين. وعلينا ان نتذكر ان الغالبية العظمى من المجتمع الاسرائيلي لا تزال تمثل الجيل الاول من المهاجرين ، ومن ثم فهي لم تستطع بعد ان تطور اسلوباً ثقافياً ذاتياً . ويعبر عن هذا ، العالم السابق ذكره « زفاريغ » بقوله : « لو ظلت الامور على ما هي عليه فإن اسرائيل سوف تنتهي بأن تستقر حول نظام تسوده اربع لغات : العبرية ، اليديشية ، العربية ، والانكليزية » . بل انه يتصور ان هذا التطور سوف ينتهي بأن تصير هذه اللغات الاربع تعبيراً عن التنوع الطبقي ، فالعربية سوف تصير لغة الطبقة السفلى والانكليزية لغة الطبقة العليا ، اما الطبقة المتوسطة فسوف يصير القسم الاعلى منها متمسكاً باللغة العبرية، لتتمركز اللغة اليديشية وهي لغة اليهود في المهجر الغربي ، في القسم الاسفل من الطبقة الوسطى .

## ثالثاً : المجتمع القومي ووحدة الادراك اللغوي

إن العرض السابق يسمح لنا بأن نفهم حقيقة الوظيفة اللغوية في المجتمع المعاصر . فاللغة ليست مجرد اداة للتعبير، انها اكثر من ذلك، انها رمز الوحدة القومية ومنطلق الدولة لخلق ذلك التجانس الفكري الذي هو وحده يمثل اداة التماسك السياسي في عالم اضحى فيه من الطبيعي تعدد انواع التميز والخلاف في المجتمع الواحد ، ولو من منطلق الخلاف الوظيفي او التباين العقائدي . كذلك فإن هذه المشاكل تحمل طعماً مختلفاً ومذاقاً له نكهته الخاصة في المجتمعات المتخلفة ودول العالم الثالث او الدول الحديثة العهد بالاستقلال . فهي تواجه مشاكل وتراكمات اعقد من ان تستطيع ان تتعامل معها بالمنطق التقليدي المعتاد ، وبقدر تعقيد تلك المشاكل تكون حاجتها الى حلول مبتكرة .

ولنلاحظ من البداية انه بقدر اختلاف الموقف الذي تعيشه دول العالم الثالث خلال الربع الاخير من القرن العشرين ، عن الموقف الذي عرفته الجماعات الاوروبية خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر،نجد ان هناك تشابهاً بينهما ايضاً . فمما لا شك فيه ان الواقع الذي تعيشه جماعات العالم الثالث يعيد للذاكرة ولو في قسط معين من التشابه ، الواقع الذي عاشته الجماعة الاوروبية خلال القرن التاسع عشر . فالتطور اللغوي لا يمكن ان ينفصل عن التغيرات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي تنهل منها الجماعة . واللغة التي سوف تدعي سيادة جماعة معينة، تتوقف على نماذج المرونة الاجتماعية وخصائص الواقع الجغرافي بقدر ثابت ، بغض النظر عن طبيعة تلك الجماعات ومراحل تطورها . وكما عاشت

اوروبا الشرقية هذه الخبرة خلال القرن التاسع عشر فإنها بدورها تتكرر في صورة اخرى وتطبيق آخر يعكس الدلالة نفسها في المجتمعات الافريقية والاسلامية . ولنذكر على سبيل المثال كيف ان الواقع الذي يسود مجتمعاً كالهند، حيث فئة محدودة قليلة من حيث العدد هي وحدها التي تعرف القراءة والكتابة ، وانها في محاولتها لاحلال لغة محلية موضع اللغة الانكليزية الدخيلة ، انما تعيد للذاكرة التطور نفسه الذي عرفته بعض مجتمعات اوروبا الوسطى.الشرقية في صراعها مع اللغة الالمانية خلال القرن التاسع عشر . كذلك فإن الواقع العربي الذي عاشته الامة العربية خلال الربع الثاني من القرن العشرين يعيد بدوره للذاكرة الواقع الالماني خلال الربع الاخير من القرن الثامن عشر : مستعمر اجنبي يزعم حق السيادة للغة اجنبية في مواجهة شعب ممزق يسعى لوحدته التاريخية ويملك جميع مقومات الوحدة، بما في ذلك الاداة اللغوية المتقدمة حضارياً والمقننة فقهياً . رغم ذلك فإن اوجه الخلاف جديرة بأن تساق وان تدخل في الاعتبار لتحدد ولتقيد من دلالة الاستشهاد . فبصفة عامة نجد جميع شعوب العالم الثالث تعيش في تطوراتها عالة على الاداة الحاكمة ، وان الدولة هي التي تقوم بكل شيء ، او بعبارة اخرى فإن الدور الايجابي الفعّال بما في ذلك تقديم الحلول انما يقع على عاتق الدولة . اوروبا القرن التاسع عشر كانت،أساساً، مجتمع الفئات المختارة ، انه مجتمع القيادات الفكرية التي حملت راية التحدي وقبلت مواجهة مسؤوليتها بشجاعة فائقة ، كذلك فإن الدولة لم تكن قد ارتفعت الى ذلك المستوى من التوحش الذي نعيش في العالم المعاصر . فوظيفة الدولة هي المحور الاساسي في دول العالم الثالث بكل ما له صلة بالتطور اللغوي ، كذلك في اغلب دول العالم الثالث،نجد الاختفاء الكلي للتقاليد الادبية ، وهو ما نلاحظه بصفة واضحة في مجتمعات افريقيا السوداء . اضف الى ذلك اننا نعيش فترة استعمار جديد حيث اللغة تصير احدى ادوات ذلك الغزو المقنع ، بل منطلقه الاساسي بالنسبة للطبقات المثقفة والمتخصصة . وتبرز هذه الحقيقة اكثر وضوحاً فيما يتعلق بالوطن العربي ، فإن اي محاولة اليوم وفي الربع الاخير من القرن العشرين لنقل معالم الخبرة الالمانية لفهم الواقع العربي لا بد من ان تقود الى فشل ذريع ، ويكفي ان نتذكر ان الوطن العربي اليوم يتقوقع حول عواصم كبرى قطرية تزيد من تعميق الانانية والرغبة الثابتة في عدم الاندماج الكلي والشامل . ولنتذكر كيف ان الفارق بين مستوى الدخل الفردي في بعض الاقطار يصل الى ارقام خيالية ، ولنقارن على سبيل المثال بين مستوى الدخل الفردي في ابو ظبي من جهة وفي الصومال او السودان من جانب آخر . كذلك في الاطار العربي ، لا نستطيع ان ننسى تدخل القوى الكبرى العملاقة من خلال الادوات المحلية الدخيلة او غير الدخيلة على المنطقة . اضف الى ذلك ، ولعل هذا اهم اسباب عدم جدوى المقارنة ، التقدم العلمي والفكري في المانيا خلال القرن التاسع عشر الذي جعل منها قائدة العالم في ذلك النطاق رغم تجزئتها وتفسخها في مواجهة الوطن العربي الذي يعيش تخلفاً حقيقياً في جميع ابعاده الفكرية والعلمية ، بل انه بقدر ازدياد غناه وثروته يستفحل تخلفه وتراجعه وعدم قدرته على ان يقترب من العالم المتقدم . ويكفي لخلق القناعة بهذه الحقيقة مقارنة اولية مع بعض المجتمعات

الاخرى الملونة كالهند والصين دون الحديث عن اليابان . وليس هدفنا التحليل الكلي والشامل لمفهوم القومية العربية كما ترسبت معالمه خلال فترة العشرين عاماً اللاحقة على الحرب العالمية الثانية ، ولكن مجموعة من الملاحظات تفرض علينا اعادة النظر في كل ما قدمت تلك الفلسفة من تقاليد ومدركات :

١ ـ فالفكر العربي نظر الى اللغة على انها عنصر يبرر الوحدة دون ان يكون واعياً بأن هذا العنصر قد يبرر بل قد يفرض الفرقة والتجزئة . لقد سبق ان رأينا نماذج عديدة لمناطق تنتمي الى ارض الوطن العربي لا تسودها اللغة العربية ، او على الاقل تملك لغات اخرى قادرة على ان تنافس اللغة العربية . والامر ليس مقصوراً على مناطق الاقليات التي تنتشر في الاطراف ، بل ان بعض مناطق القلب تعيش في حالة اقل ما يمكن ان توصف بها انها تعبير عن التعدد اللغوي .

٢ ـ كما ان النظرية التقليدية نظرت الى اللغة على انها رموز والفاظ وليست منطقاً وبناء فكرياً ولم تستطع ان ترتفع لتكتشف خلف الالفاظ ما نستطيع ان نسميه نظام القيم اللغوية . ان المحور الحقيقي لديناميات اللغة والذي يجعل منها اداة تعبير عن روح الجماعة الذي يفرض من ثم ديمومتها او اختفاءها، هو ذلك النظام الخفي للقيم والمستتر خلف الالفاظ والعبارات ، والمحدد لقواعد البناء اللفظي والتعامل الادبي .

٣ ـ كذلك ، فإن مفكري القومية العربية نظروا الى تلك القومية على انها حتمية تاريخية. انها حقيقة يجب ان نسلم بها ـ هكذا يفكرون ـ من حيث كونها مفروضة على التطور،وهنا يبرز بشكل واضح القصور الفكري.فالتطور من حيث نتائجه له توقيت،والتوقيت يعني عناصر ايجابية تدفع،واخرى سلبية تعوق.ومفهوم ادارة الصراع في مواجهة التطور لا يعدو ان يكون دفع وتشجيع العناصر السلبية وشل او اعاقة العناصر الايجابية،طالما كان الهدف هو منع التطور من ان يقود الى النتيجة التي لا نريدها ، وهي في نموذجنا تحقيق الوحدة السياسية ، وهذا هو الذي حدث ويحدث مع الوطن العربي . ان الحتمية لا تعني التوقيت والتلاعب بالتوقيت يكفي لمنع الحتمية ولو في الامد القصير ، وطالما ان منطق التلاعب بالحتمية يتحدد وينتهي من حيث الواقع بايقاف التطور .

٤ ـ يبرز هذا بوضوح كبير في كتابات ساطع الحصري،فقد نظر زعماء الفكر القومي العربي الى ان منطق العمل الوحدوي هو الوحدة الثقافية.هذا بدوره خطأ واضح،لأنه في وطن يمتد من وسط آسيا الى المحيط الاطلسي يستحيل تصور الوحدة الثقافية في معناها الضيق . ان عالم القرن العشرين يتحدث عن التعدد على مستوى الطبقات وفي الكيانات المحدودة من حيث الكم الديموغرافي والاقليمي لفرنسا او ايطاليا . بل ان عالم الدولة ـ الاقليم الذي نعيشه اليوم يفترض التعدد الثقافي ، ولكن ذلك الذي لا يمكن ان نتخلى عنه هو الوحدة الادراكية . الادراك هو مقدمة الحركة والحركة دون ادراك لا موضع لها . بل ان الحركة دون ادراك متجانس تتحول الى صراع داخلي وليس الى توافق في مواجهة العدو

الخارجي . ولا يعني هذا ، التقليص في وظيفة الطبقة المثقفة، ولا يعني ايضاً التشكيك في قدرة الجماعة العربية على تحقيق الوحدة . ولكن علينا ان نفهم ان البعد الحقيقي والجوهر الكامن في العمل الوحدوي العربي هو النطاق الادراكي وليس المفهوم الثقافي . ولماذا نذهب بعيداً ؟ اليس احد تقاليد الدولة الاسلامية كما عرفتها الامة العربية حتى العصر العباسي الاول هو الوحدة الادراكية؟ ألم يكن اساس تلك الخبرة هو وحدة الامة ووحدة الادراك دون اعتبار للوحدة الثقافية ؟ مما لا شك فيه ان الاطار المعاصر مختلف بل متباين ، ولكن المفهوم يظل واحداً .

٥ ـ والواقع ان الخطأ الجوهري الذي نبعت منه جميع التناقضات الفكرية ، هو ان قادة الفكر القومي العربي نظروا الى القومية على انها عواطف وانفعالات وليست سياسة مرسومة وحركة واعية تنطلق من واقع معين ، وتسعى الى تغيير ذلك الواقع بادواتها الذاتية وقدرتها على التلاعب بالمتغيرات المرتبطة بالموقف والنابعة من خصائصه .

رغم ذلك ، فإن المفهوم القومي سوف يظل محور التطور السياسي في المنطقة العربية كذلك في دول العالم الثالث . والسبب في ذلك يعود الى العديد من المتغيرات لم يفهمها في كثير من الاحيان قادة الفكر السياسي الذين تزعموا التأصيل والتنظير للتطور في تلك المناطق ، بل في بعض الاحيان لم يفهم ذلك قادة الحركة السياسية انفسهم في الدولتين الاعظم الذين قدر لهم التعامل مع احداث الوطن العربي : خروشوف من جانب وريغان من جانب آخر على سبيل المثال . ان قوة القومية كأيديولوجية سياسية تنبع من متغيرين اساسيين يجب ان ندخلهما في الاعتبار لنستطيع ان نفهم لماذا لن يعرف نصف القرن القادم سوى ذلك المنطق كأساس للحركة السياسية .

**المتغير الاول** : يدور حول قوة القومية كأيديولوجية . انها اطار واسع فضفاض يسمح بضم واحتواء جميع الاتجاهات والمذاهب . في داخل المفهوم القومي يستطيع ان يجلس الجناح اليساري مع الجناح اليميني وبينهما الفريق المعتدل . القومية بعبارة اخرى كتصور سياسي ، تسمح بتخطي التناقضات المذهبية في اطار واحد متماسك. وهذا ما حدث في صورة محدودة في فرنسا اثناء الحربين العالميتين ، وهو ما يتكرر امام اعيينا في تطبيق اكثر وضوحاً في اسرائيل رغم الفروق التي لا نهاية لها في داخل المجتمع العبري وبصفة خاصة في ايديولوجية حزب الماباي .

**المتغير الثاني** : هو ان جوهر نظرية الدولة القومية يتفق مع حقيقة التطور الحالي الذي تعيشه دول العالم الثالث . ولنستطيع ان نفهم هذه الملاحظة ، علينا ان نعود لنتساءل عن حقيقة الاطار الفكري الذي تتقابل حوله وبتوافق تام ، مختلف المدارس في القومية السياسية : المفهوم الالماني للقومية مع المدرسة الفرنسية بل ودون استثناء الفكر الامريكي . ومن العودة الى التراث العربي الذي تراكم خلال الثلاثين عاماً اللاحقة للحرب العالمية الثانية حول مبدأ القومية ، والذي لا يزال يسيطر على الادراك القيادي العربي ، نجد هذا العنصر الذي ربط

جميع الاتجاهات الاوروبية وقد تجاهله جميع قادة الفكر القومي رغم اهميته ، كما سوف نرى في موضعه . لقد نظروا الى الفكر الالماني على انه يتناقض مع الفكر الفرنسي ، واعتبروا الفكر الامريكي غير جدير بالمناقشة . ان جوهر نظرية الدولة القومية الذي تلتقي حوله جميع هذه الاتجاهات ، هو ان الدولة لا تعرف سوى ولاء واحد ، والمواطن لا يربطه اي ولاء سياسي سوى بالدولة ، وكل علاقة اخرى لا يمكن ان تنافس او تصارع او تتوسط ذلك الولاء . ان اي علاقة اخرى لا يمكن ان تكون سوى علاقة تابعة ، يجب ان تتشكل وتنطوي تحت الولاء للدولة ، الكنيسة ، النقابة ، المنظمة المهنية ، الجماعة السياسية والحزب . وهذه هي جميعها ادوات تعيش في دائرة الولاء القومي حيث الدولة وحدها هي المسيطرة وهي المتحكمة ، وحيث لا موضع لتنافس او مواجهة ، وان وجدا ، فهما دائماً في ذلك الاطار الذي حدد صياغة الدولة وقننته تقاليد الامن القومي . والعالم الثالث بحكم خضوعه لفترة طويلة من الاستعمار ، حيث كان تشجيع الفرقة ودعم التناقضات وفرض التجزئة ، هو احد المنطلقات الاساسية للسياسة الاجنبية ، وكان لا بد من ان يؤدي الى بروز انواع عديدة من الولاء ، ارتفعت الى مستوى القمة لتسيطر على كل نموذج آخر من نماذج الولاء : الولاء القبلي ، الولاء الطائفي ، الولاء الطبقي ، الولاء العقائدي ، بل الولاء المهني على سبيل المثال . هذه الولاءات لم تقتصر على ان تمثل عصب الحياة اليومية ، بل انها ارتفعت لتسيطر على كل ما يرتبط بالعلاقة السياسية . مثل هذا الاطار لا يسمح بالتكامل القومي ، ولتخطيه ، ليس هناك سوى المفهوم القومي بالمعنى التقليدي الذي يسمح وحده ، بصهر جميع الولاءات الاخرى في اطار واحد من الوحدة الادراكية .

هذه الحقائق جميعها تفسر المنطلقات الفكرية التي دارت حولها مجموعة الاصول التي طرحنا من خلالها الوظيفة السياسية للاداة اللغوية . يعنينا من هذه المنطلقات على وجه الخصوص،كيف ان العالم المعاصر يفرض على الدولة ان تبني سياسة قومية محددة المعالم حيث يرتبط احد عناصرها بتلك الوظيفة السياسية للغة . ان تحليل مضمون السياسة القومية وموضوع الادراك اللغوي في تلك السياسة ، هو الجوهر الذي لا تزال العقلية العربية غير قادرة على ان تفهم دلالته الحقيقية.

ان اي سياسة قومية يجب ان تدور بشكل او بآخر حول الاهداف الخمسة التالية : (١) رفع مستوى المعيشة ؛ (٢) خلق التماسك الحركي ؛ (٣) حماية الامن القومي ؛ (٤) اداء الوظيفة الحضارية ؛ (٥) تحقيق الاندماج الادراكي .

وظائف خمس تتداخل ، لتكون في مجموعها المثالية التي تربط الحاكم بالمحكوم. فالدولة لم تعد ارادة ملك ولا اداة طبقة معينة ، وانما هي هيكل يسعى لتحقيق الذات الفردية اي رجل الشارع في اوسع معانيه ، وما يعني رجل الشارع اساساً هو رفع مستوى المعيشة . وبهذا المعنى توصف الدولة اليوم بأنها مجتمع الرفاهية ، وبقدر اتساع نطاق الرفاهية وانتشار مظاهرها وتمتع كل فردبمزاياهايمكن تأسيس شرعية الدولة المعاصرة . كذلك فإن المجتمع السياسي

يجب ان يكون قبضة واحدة، بحيث ان جميع اجزاء الجسد لا بد من ان تسير في لحظة الخطر في اتجاه واحد . ان عالم اليوم هو قدرة ومقدرة ، واذا كانت المقدرة هي صلاحية قيادية ، فإن القدرة هي ترابط جماعي والحاكم الذي لا يعرف كيف يخلق الثقة في جميع اجزاء الجسد السياسي ، بحيث يصير بمثابة القطيع الذي يسير خلفه ، لم يعد يصلح للقيادة في عالم القرن العشرين . ان احد العناصر الواضحة للسياسة القومية التي تحدد مسؤولية القيادة ، هو ما تواضع الفقه على تسميته بالامن القومي ، والذي يعني حماية الجسد من اي تقلبات فجائية قد تعرضه لمخاطرات موضع لها . والامن القومي هو الوجه الآخر الاقليمي للسياسة القومية ، وان الوجه العالمي بين شعوب الاسرة الدولية هو ما نسميه بالوظيفة الحضارية. العالم المعاصر هو عالم الوظيفة الحضارية، وقد اضحى هذا المفهوم يسيطر على جميع الجماعات حتى ولو من قبيل الخديعة والوهم . انه اسلوب الاحتواء : الدول المتقدمة في علاقتها بالدول المتخلفة ، الشعوب البيضاء في تعاملها مع الشعوب الملونة ، العالم الرأسمالي في صراعه مع الكتلة الشيوعية ، على ان العنصر الذي يعنينا اساساً والذي يرتبط بموضوع هذه الدراسة، هو ذلك الذي اسميناه بالاندماج الادراكي .

ما معنى الاندماج الادراكي؟ كلمة الاندماج يقصد بها الانصهار في بوتقة واحدة . هذا الاندماج يصير ادراكياً عندما يتعلق بالتصور للتعامل مع الموقف والمشاكل في الحال والمستقبل . ومن ثم ، فإن الاندماج الادراكي كسياسة قومية يعني خلق التصور الواحد ، حيث الخلافات وتعدد وجهات النظر لا تمنع من ان هناك حداً ادنى تتفق حوله جميع القوى والاتجاهات . فإذا بالمجتمع صف واحد ورأي واحد وادراك واحد. الاندماج الادراكي قد يعبر عنه بالرضا القومي او بالاجماع القومي .

ولكن المعنى واحد وعناصره واحدة ، فالاندماج الادراكي يجب ان يدور حول اربعة عناصر اساسية : الوعي بالذات القومية من جانب ، وعناصر التثقيف السياسي من جانب ثان ، ثم حدود ودلالة الوظيفة الحضارية من جانب آخر ، وايديولوجية الجماعة من جانب اخير . ويفترض الاندماج الادراكي بهذا المعنى علاقة ثابتة مطردة ليس فقط بين الحاكم والمحكوم ، بل بين جميع اجزاء المجتمع السياسي وعلى جميع المستويات . والواقع المعاصر يقدم للدولة العديد من الادوات التي تسمح لها بتحقيق ذلك الاندماج الادراكي . فهناك الى جانب الاعلام الجماهيري وادواته ، نجد الجمعيات الفكرية القومية وكذلك الجامعات ، فالاعلام الجماهيري اكثر الادوات فاعلية وانتشاراً. ان جميع خبراء العلاقات الدولية يسلمون بما قدمه صوت العرب اثناء حكم جمال عبد الناصر في تحقيق عملية التواصل الفكري بين القائد الزعيم وجميع شرائح الامة العربية . كان عبد الناصر اكثر فاعلية عقب موته بفضل صوت العرب. ان الجمعيات الفكرية تؤدي اليوم وظيفة خطيرة، لأنها تخلق البداية العلمية للفكر القومي قبل ان ينطلق الى رجل الشارع . جمعية« جان مولان » الفرنسية هي التي اعدت لمجيء الجنرال ديغول . ورغم ان الجمعيات الفكرية لا تحيط نفسها بدعاية وضوضاء ، الا انها تخلق مسالك للاندماج الادراكي في مرحلته الاولى ، قبل ان تنطلق

المفاهيم كقنابل فكرية تربط الحاكم برجل الشارع . كذلك لا يجوز لنا ان ننسى ما تؤديه الجامعات، انها ذلك الوعاء الذي تلتقي فيه الاجيال فتلغي عنصر الزمان: جيل يحكم وفي طريقه لأن يترك السلطة وجيل يتعلم ، وهو يعد نفسه ليتلقف السلطة . كذلك فإن الاندماج الادراكي الذي يمثل الاطار المعنوي لفاعلية الدولة ، يملك دوائر ثلاث : قومية ، وهي الاصل، ثم دائرة فرعية تندرج تحتها الاقليات الى جوار الدائرة الاقليمية التي لا يجوز ان ننسى ما تمثله من اهمية في عالم اضحى يقوم على اساس سيادة مفهوم السياسة الاقليمية. ان الدائرة القومية هي العصب الذي يمثل جوهر الاندماج الادراكي . ولكن لا يجوز ان ننسى دائرة الاقليات لأن هذه الدائرة هي بمثابة نظم فرعية للادراك ، يجب ان تنصهر بدورها في تلك الدائرة القومية . الدائرة الاقليمية بدورها ذات اهمية مزدوجة . التقدم الرهيب في ادوات الاعلام سمح بصفة خاصة للاعلام المسموع والى حد معين للاعلام المرئي ، بأن يتجاوز الحدود ، ومن ثم فهو يفرض على الدولة ان تخلق نوعاً من المساندة لسياستها في النطاق الاقليمي . اضف الى ذلك ان الاقليات القومية ، في اغلب الاحيان ، تقع في اطراف الاقليم القومي ، ومن ثم فإن تحقيق نوع من الاندماج الادراكي على المستوى الاقليمي ، يسمح بضبط وتضييق حدة الخلاف بين ادراك الاقليات كنظام فرعي وجوهر الادراك القومي .

ان الاندماج الادراكي بما يعنيه من خلق تماسك عقائدي وفكري ، اضحى في المجتمع المعاصر ضرورة اساسية . ان جميع المعارك التي يتعين على مجتمعات العالم الثالث ان تتصدى لها ، تفترض نوعاً من التكتل خلف القيادة السياسية في دائرة واحدة متماسكة حول ادراك واحد صلب ينبع من الوعي الجماعي . ويكفي ان نتذكر معركة التخلف التي يتوقف عليها مستقبل دول العالم الثالث. ان الوطن العربي لا يواجه معركة التنمية فقط، بل يأتي صراعه مع الوجود الصهيوني ليزيد من خطورة المشاكل التي يتعين عليه ان يتصدى لها . وتفترض معركة الوجود الصهيوني أياً كانت اهدافها ، القبضة الواحدة التي تعني التماسك العقائدي والفكري . وهنا نجد اللغة تبدو مرة اخرى كمحور اساسي لتحقيق هذا الهدف .

ان ربط هذا الاطار العام بالواقع العربي يثير العديد من المشاكل التي هي في حقيقة الامر مشاكل مصطنعة . واولى هذه المشاكل تدور حول صلاحية اللغة العربية للتجاوب مع مقتضيات العالم المعاصر . ويؤكد الكثير ان هذه اللغة لا تعدو ان تكون تعبيرات قديمة متخلفة لم تعد قادرة او صالحة لان تستجيب لمتطلبات القرن العشرين . فطبيعتها البنائية ومنطقها الفكري يجعلانها اداة لا تصلح للتفكير المنطقي الذي هو احدى خصائص العالم الذي نعيش فيه . انها لغة تعيش في الاحساس وتستمد جوهرها من الغرائز ، وتستند الى مفهوم العنف السلوكي كجوهر لفلسفتها من حيث القيم المستترة خلف الاطار اللفظي ، وقد آن الاوان لأن نتخلص من هذه اللغة او على الاقل ان نعيد بناءها . ولقد دعم هذا المنطق التوجهات الشعوبية ، وبغض النظر عن مستوى الرفض الذي يبدأ من مجرد الرغبة لفتح الباب واسعاً للهجات العامية والذي يرتفع من جانب آخر الى حد المطالبة بالغاء

الحروف واستخدام الحروف اللاتينية فإنه ينطلق من مبدأ خاطىء هو الخلط بين التجديد اللغوي والقدرة على صوغ الرسالة الاتصالية . فاللغة هي اداة لصوغ الرسالة والمسؤولية في الصلاحية او عدمها ليست في اللغة في ذاتها، ولكن فيمن يتولى تلك الصياغة. ولا يمكن ان ينكر احد حاجة اللغة العربية للتجديد ، ولا توجد لغة ليست في حاجة الى تلك العملية . ان التجديد بالنسبة للغة هو عملية اعادة بناء الرموز والالفاظ بما يتفق مع المكتشفات الجديدة ، وهل هناك لغة حية لم تواجه تلك المشكلة؟ فاللغة الالمانية التي توصف بأنها لغة الفلسفة ، والانكليزية التي يعرف عنها انها لغة العلم الاصم ، والفرنسية التي يتغنى الجميع بجمالها في التذوق الادبي ، واجهت هذه العملية وخلقت ادواتها الثابتة، وفي كثير من الاحيان لم تجد امامها سوى ان تلجأ الى اللغة اليونانية او اللاتينية لتركيب الالفاظ والاصطلاحات المعبرة. عن الحقائق الجديدة . واللغة العربية ليست استثناء من هذه القاعدة .

عقب حرب الايام الستة ، خرجت اصوات عديدة تشكك في كل شيء . وعادت النغمة التي عرفناها اثناء فترة الاحتلال البريطاني ، والتي تزعمها سلامة موسى ولكن في صورة اكثر عنفاً واشد قسوة . ان الهجوم على جميع مظاهر الوجود العربي اضحى نغمة ثابتة : الاسلام هو دين التخلف ، واللغة العربية هي معدة لمن يريد ان يعيش في القبور تصلح للبدو وليس لعالم الوصول الى القمر، وقدرات العربي لا تعدو ان تكون الصلاحية فيها للصوت العالي المرتفع ، وكل ما قدمته الثورة العربية ليس الا خيبة الامل . والذي يعنينا من هذه الحملة العنيفة هو ذلك المتصل باللغة العربية على انها احد اسباب الهزيمة . ويصل الامر في هذا الهجوم الى ان يكتب سامي الجندي يقول : « ان التخلخل في البنيان اللغوي كان لا بد من ان يقود الى فساد المفهوم الفكري للقومية العربية » . وبعبارة اخرى، فإن الاصلاح السياسي يجب ان يبدأ بالاصلاح اللغوي . مرة اخرى تكرر ان الاصلاح والتجديد اللغويين ليسا موضع مناقشة ، ولكن القول بأن اللغة العربية هي احد اسباب الهزيمة الفكرية والعسكرية فهو ليس الا تعبيراً عن المغالاة التي مردها عدم فهم وظيفة اللغة . ان اللغة ليست الا اداة لصوغ الرسالة ، ومضمون الرسالة حقيقة مستقلة عن اللغة ، وكما ان اللغة قادرة على ان تصوغ رسالة ايجابية وذات وقع حديث وعصري فكذلك فإن اي لغة قد تقف عاجزة عن ان تصوغ تلك الرسالة . ليس مرد ذلك اللغة في ذاتها وإنّما المرسل الذي يتولى صوغ الرسالة . وهنا يبرز النبوغ الاتصالي والقدرة على صوغ الرسالة التي يفرضها الموقف وتفرضها طبيعة الحركة . والواقع ان الهجوم على اللغة والقاء التبعة عليها ليس حديثاً لتفسير الفشل . ففي اوائل القرن التاسع عشر نجد ان توكفيل كان اول من وصف اللغة الفرنسية بأنها هي وحدها المسؤولة عن هزيمة الثورة الفرنسية ازاء جحافل الرجعية الاوروبية . وفي اوائل القرن العشرين نجد القصة نفسها تتكرر في الصين ، وعقب حرب حزيران / يونيو تكررت الظاهرة نفسها في الوطن العربي . وهي جميعها تطبيقات لمحاولة القاء التبعة على آخرين ، وسعي نحو التخلص من المسؤولية الذاتية .

كذلك فإن احد التحديات التي يجب ان تواجهها اللغة العربية في صوغها لبناء الاطار الواضح للاندماج الادراكي ،ينبع من ذلك التطور الذي نعيشه حالياً ، والذي اساسه التفرقة بين ما يسمى الوطن الاصغر والوطن الاكبر . ليس هناك وطن اكبر ووطن اصغر ، انما هناك وطن واحد وولاء واحد ، يجب جميع الولاءات دون وسيط او تعدد . لقد سبق ان رأينا كيف ان منطق الدولة القومية ولاء مطلق مباشر غير مركب وغير متعدد وغير متدرج ، ان هذا هو جوهر مبدأ القومية السياسية . والخلاصة ان التطور المعاصر رغم احتفاظه بمبدأ القومية السياسية ، الا ان جل منطلق المفهوم القومي هو الوحدة الادراكية . ووحدة الادراك ليست مجرد الحديث برموز واحدة ، انها ابعد من ذلك واكثر عمقاً : ان نظاماً لقيم التفاهم اللغوي نظام متكامل للتذوق اللفظي ينصهر مع مجموعة من قواعد التعامل الرمزي مع المفاهيم والافكار . ان الاندماج الادراكي بهذا المعنى هو الشرط الاساسي للدولة القومية في واقعها الجديد .

## المراجع (*)(**)


Ajami, Fouad. *The Arab Predicament: Arab Political Thought and Practice since 1967.* Cambridge; New York: Cambridge University Press, 1981.

Berque, Jacques. *Langages arabes du présent.* Paris: Gallimard, 1974.

Brevilly, John. *Nationalism and the State.* New York: St. Martin's Press, 1982.

Firpo, Luigi (ed.). *Storia delle idee politiche, economiche e sociali.* Vol. 5. Torino: Unione di pografico-editrice torinese, 1973.

Kedourie, Elie. *Nationalism.* 1978.

Kohn, Hans. *The Idea of Nationalism: A Study in Its Origins and Background.* 1965.

Laffin, John. *The Arab Mind Considered: A Need for Understanding.* New York: Taplinger, 1975.

Mosse, George L. *Masses and Man: Nationalist and Fascist Perceptions of Reality.* New York: Fertig, 1980.


(*) الكتابات حول الظاهرة القومية عديدة لا حصر لها ، وسوف نقتصر في هذه القائمة على المراجع التي يستطيع فيها القارىء ان يجد جميع المصادر او اهمها التي تناولت الموضوع بصفة عامة مع ذكر بعض تلك المصادر التي تناولت على وجه الخصوص الوظيفة السياسية للاداة اللغوية .

(**) اورد تيفي تفصيلاً للمراجع العربية في كتابه المذكور اعلاه ص ٢٥٦ وما بعدها . كذلك انظر : جورج طرابيشي ، **الدولة القطرية** ( ١٩٨٢ ) ، ص ٢٠٥ وما بعدها .

Rustow, Dankwart. *A World of Nations*. 1968.

Tibi, Bassam. *Arab Nationalism: A Critical Enquiry*. ed. and trans. by Marion Farouk-Sluglett and Peter Sluglett. New York: St. Martin's Press, 1981.

Tivey, Leonard James. *The Nation-State*. New York: St. Martin's Press, [ c1981] .

Valentini, Francesco. *Il Pensiero politico contemporaneo*. Roma; Bari: Laterza, 1979.

Zweig, Ferdynand. *Israel: The Sword and the Harp, the Mystique of Violence and the Mystique of Redemption: Controverisal Themes in Israeli Society*. London: Heinman Educational, 1969.

# تعقيب ١
# أهمية اللغة في الحياة الانسانية

محمد جابر الفياض

ما اكثر الاشياء التي بلغت الغاية من الاهمية ، غير ان قربها منا، وألفتنا لها ، وسهولة حصولنا عليها ، اودت بغير قليل مما لها من تلك الاهمية ، فلم نشغل اذهاننا فيها بقدر ما تستحقه منا .

فالهواء والماء ، هما قوام حياة الاحياء كلها ، انسانية ، وحيوانية ، ونباتية ، واذا استطاع الكائن الحي ان يستغني عن الماء لساعة ، او سويعات قليلة ، لا تعد شيئاً في عمر الزمن ، بل في عمر الكائن الحي ذاته ، فإنه لا يستطيع الاستغناء عن الهواء للحظات . ولكن كم هو الوقت الذي انفقناه من اعمارنا في التفكير في قوام حياتنا ؟

اياً ما كان نصيبها ، فلا خلاف في انه سيتضاعف اضعافاً مضاعفة لو انها لم يكونا بهذا الشيوع ، والقرب ، والسهولة التي نحصل بها عليها .

واليد واللغة كالماء والهواء ، « فاليد الانسانية اداة ، لا تباريها اداة اخرى ، في تمكين الانسان مما تمكن ـ ويتمكن ـ منه »[1] ، ولهذا امتنَّ الخالق على الانسان بخلق هذه الاداة العجيبة على ما هي عليه ، فقال : ﴿ بلى قادرين على ان نُسَوِّي بَنانَه ﴾ ، وفسرت التسوية هذه ، بتغيير خلقها الى ما يشبه خف البعير استواء ، فلا ينتفع الانسان بها ، اكثر من انتفاع البعير بخفه[2] ، فلا مدنية ، ولا حضارة ، ولا رقي ، ولا تمكن له من الحياة ، ولا سيطرة له عليها .

ولكن هذه الأداة العجيبة لم تشغل من تفكيرنا ، اكثر مما شغله غيرها من الاشياء الاخرى .

---

(١) ج . فندريس ، **اللغة** ، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص ( القاهرة : مطبعة لجنة البيان العربي ؛ مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥٠ ) ، التصدير ، ص ١ .

(٢) **القرآن الكريم** ، سورة القيامة : الآية ٤ . والتفسير لابي جعفر محمد بن جرير الطبري ، **تفسير الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن** ( القاهرة : المطبعة الاميرية ببولاق ، ١٣٢٣هـ ) ، ج ٢٩ ، ص ١١٠ .

واذا كانت اليد الاداة العملية ، فاللغة اداته الفكرية والقولية[٣] . ولهذا امتن الخالق على الانسان بها ، امتنانه عليه باليد ، قال تعالى : ﴿ الرحمن ، خلق الانسان ، علمه البيان ﴾[٤] .

والانسان ـ قبل هذا وبعده ـ حيوان ، غير انه حيوان ناطق مبين . فاليد واللغة ـ كما ذهب هنري بر ـ تنحصر فيهما البشرية . فهما اللتان تفصلان بين نهاية التاريخ الحيواني ، وبداية التاريخ البشري ، واذا عجب المرء مما ابتكره الانسان ، فاللغة من اعجب المبتكرات التي اظهرها التطور الانساني[٥] . وليس هناك من آلة ـ كما يرى فندريس ـ تساوي الجهاز الانساني في تنوع الاصوات التي يصدرها[٦] ، ومهما يكن من شيء ، فاللغة ليست عجيبة بذاتها ، وبالجهاز الذي يصدرها فحسب ، بل هي عجيبة كذلك في وظيفتها . فهي لكونها اداة التفكير ومساعدته ، مكنت الانسان من الشعور بذاته ، ومن الاتصال بغيره من ابناء جنسه . وجعلت من الميسور تكوّن الجماعات الانسانية ، ومن العسير ان نتصور حالة اولية كان الانسان فيها محروماً منها ، فتاريخ البشرية منذ بدايته يفترض وجود اللغة[٧] . (وتستطيع اختبار ذلك ـ كما يقول امين الخولي ـ بما تشاء ، من علم ، او عمل ، او فن . . . او . . . الخ ، فلن تراه الا تعبيراً ، وتعليماً ، وتفاعلاً ، وتعاوناً ، ووسيلة ذلك كله ، واداته كله ، هي الافهام ، والتفاهم ، بأقرب طرائقهما ، وهو الكلام )[٨] .

ومن هذا كله ، تتضح اهمية هذا الجانب من النشاط الانساني . ويجانب الصواب من يظن ان التقدم الذي احرزه الانسان في سائر ميادين الحياة ، لا يفرض عليه دراسة هذا النشاط الحيوي ، ولا يزيد من اهميته .

ولقد ذهب اليونانيون الى تفضيل لغتهم على غيرها من اللغات ، فقال جالينوس : « ان لغة اليونانيين افضل اللغات ، لأن سائر اللغات انما هي تشبه ، إما نباح الكلاب، واما نقيق الضفادع » ، وهذا جهل منه شديد ، لأن سامع كل لغة ليست لغته ولا يفهمها ، فهي عنده في النصاب الذي ذكره.

واستجاز اليهود الكذب ، والحلف على الباطل بغير العبرانية ، زاعمين ان الملائكة لا يعرفون غيرها . وفي هذا من السخف ما ترى ، فعالم الخفيات ، وما في الضمائر عالم بكل لسان ومعانيه[٩] .

---

(٣) فندريس ، اللغة ، التصدير ، ص ٥ .
(٤) القرآن الكريم ، سورة الرحمن: الآيات ١ ، ٣ و٤ .
(٥) فندريس ، اللغة ، ص ١ .
(٦) المصدر نفسه ، ص ٦٢ .
(٧) المصدر نفسه ، ص ٢٤ .
(٨) امين الخولي ، محاضرات عن مشكلات حياتنا اللغوية ( القاهرة : مطابع الكتاب العربي ، ١٩٥٨ ) ، ص ١ .
(٩) المصدر نفسه ، ص ٦٤ ، نقلاً عن : احكام الاحكام لابن حزم .

وهكذا شأن الامم في التعصب للغاتها ، وقد مضى على العربية زمن غير يسير تعصب فيه لها غير قليل من الناطقين بها ، فذهبوا الى انها اشرف اللغات ، واوسعها ، وافصحها ، واولها ، وآخر ما يبقى منها ، فحصروا الفضل فيها ، وقصروه عليها ، وانكروه على ما سواها من اللغات[10] .

وجاء عصر النهضة الحديثة ، فبرز اناس من ابنائها وغير ابنائها ، فتحاملوا عليها ، وفضلوا عليها غيرها ، ونعتوها بالعسر ، والصعوبة ، في النطق بها ، وفي رسم حروفها ، وجردوها من كل ما يمكن ان يكون فضيلة فيها ، وتنبأوا لها بمصير اللاتينية ، وشبهوها بها[11] .

فلم يسلم المتعصبون لها وعليها من مغالاة ، لا تقرها الدراسات اللغوية الحديثة . فما من لغة الا ولها خصائصها ومميزاتها ، وما من لغة جمعت الفضل من اطرافه ، او حرمت منه بكل انواعه واشكاله .

والذي يهمنا هنا ، انما هو التعرف على خصائص لغتنا ، وسماتها المميزة ، إنْ لها او عليها ، واثر تلك السمات في العملية التعليمية ، واذا ما وازنّا بينها وبين غيرها من اللغات ، فإنما نعتمد على ما اسفرت عنه الدراسات اللغوية المقارنة ، لا الفخر الكاذب ، الذي لا سند له .

**غير ان العربية ـ قبل هذا وبعده ـ لغتنا الوطنية والقومية والدينية ، وجدير بنا ان نتنبه ، وننبه الى هذه الامور كلها ، ونحسب لها حسابها ، ونعطيها الصدارة في الحديث عن هذه اللغة ، لأنها ـ كلها ـ خاصة بها ، مقصورة عليها ، لا تنازعها فيها لغة ، من اللغات ، قديمة او حديثة .**

## ١ ـ اهمية العربية وطنياً وقومياً ودينياً

العربية في العراق لغة العراقيين الرسمية ، وبها يتكلم العراقيون ، عرباً وغير عرب الا قلة من اخواننا الاكراد والتركمان .

وهؤلاء جميعاً ـ مسلمين وغير مسلمين ـ لا يرون لهم لغة غير لغة الضاد . والاب انستاس ماري الكرملي ، وعبد المسيح وزير ، ورفائيل بطي ، وكثير غيرهم ، وما بذلوه من جهد ـ في خدمة هذه اللغة ـ خير دليل على مدى اعتزاز غير المسلمين من العراقيين بها .

---

(١٠) ابو الحسين احمد بن زكريا بن فارس ، **الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها** ، تحقيق مصطفى الشويمي ( بيروت : مؤسسة بدران للطباعة والنشر ، ١٩٦٤ ) ، ص ٤٠ ـ ٤٣ و ٤٧ ؛ الخولي ، **محاضرات عن مشكلات حياتنا اللغوية** ، ص ٤٩ وما بعدها ؛ عباس محمود العقاد ، **اشتات مجتمعات في اللغة والادب** ، ط ٢ ( القاهرة : دار المعارف ) ، ص ١١٣ ، وسعيد الافغاني ، **من حاضر اللغة العربية** ، ط ٢ ( بيروت : مطابع دار الفكر ، ١٩٧١ ) ، ص ١٠٥ .

(١١) الافغاني ، المصدر نفسه ، ص ١٥٧ وما بعدها ، وساطع الحصري ، **آراء واحاديث في اللغة والادب** ( بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٥٨ ) ، ص ٥٠ .

اما غير العرب من اخواننا الاكراد ، والتركمان ، فإنهم ليسوا اخواناً في الوطن فحسب ، وانما هم اخوان لنا في الدين كذلك . ومن هنا فإن اعتزازهم باللغة العربية ، وحرصهم على لغة القرآن والسنة النبوية ، لا يقلان عن اعتزاز العرب بها ، وحرصهم عليها .

واذا كانت العربية قد انتشرت في اصقاع متباعدة متناثرة ، من الكرة الارضية ، ونطقت بها اقوام تنتمي الى جنسيات مختلفة ، خارج حدود الوطن العربي ، فإن من الطبيعي ان يكون انتشارها بين هؤلاء الاخوة اكثر ، وتمكنها في نفوسهم اقوى ، لاجتماع دواعي المواطنة والدين معاً على نشرها وتمكينها .

ولا نريد بهذا ان نقلل من شأن اللغتين الكردية والتركمانية ، او ان نفخر بالعربية عليهما ، ولكنها الحقيقة التي لا سبيل الى نكرانها ، او التغاضي عنها .

والحق ان العربية لغتهم ، وليست غريبة عنهم ، ولسنا اولى بها ، واحرص عليها منهم ، لكونها لغة قرآنهم ودينهم ، ولغة المواطنين الذين اختلطوا معهم، وامتزجوا بهم . فلم يكتف هؤلاء الاخوة ـ داخل العراق وخارجه ـ بتعلمها ، واجادة النطق بها ، والكتابة بها ، وانما فرضوا حروفها على لغتيهما القوميتين .

واذا كانت الحكومة التركية ـ في وقت ما ـ قد فرضت ـ لاسباب غير مجهولة ـ العدول عن كتابة التركية بالعربية ، واستبدلت بها الحروف اللاتينية ، فإنها لم تستطع التخلص من الالفاظ العربية التي تغلغلت في لغتها ، وفي هذا ينقل استاذنا د. مصطفى جواد رأي الشاعر العراقي المعروف معروف الرصافي فيقول :

« ونظر الشيخ معروف الرصافي في الكلمات المستعملة في اللسان العثماني ، فوجدها تنقسم الى خمسة اقسام : ما لم يغيروا لفظه ولا معناه ، ما غيروا لفظه ومعناه، ما غيروا لفظه دون معناه ، ما غيروا معناه دون لفظه ، ما وضعوه من عند انفسهم على قواعد العربية ، وليس هو من كلام العرب »[١٢] .

فإذا كانت التركية بهذه المثابة فكيف بالكردية التي ما زالت تعتمد الحرف العربي في رسم كلماتها ؟

**فليست العربية ـ بالنسبة لنا ـ كأية لغة اخرى ندرسها ، او تدرسها طائفة منا ، للتعرف على ما عند اصحابها ، مما قد يعنينا التعرف عليه ، او التفاهم مع الناطقين بها ، لتحقيق مأرب من مآرب الحياة ، اياً كانت اهميته . وانما هي القلب من قوميتنا العربية ، فهي اهم رابطة من روابطها** . لا لكونها وسيلة التفاهم بين افراد هذه الامة ، بل لكونها اداتهم ـ جميعاً ـ للتعبير عن الافكار الدائرة في اذهانهم ، والاحاسيس والمشاعر التي تجيش في صدورهم ، والاماني التي تتوق

---

(١٢) مصطفى جواد ، المباحث اللغوية في العراق ومشكلة العربية العصرية ، ط ٢ ( بغداد : مطبعة العاني ، ١٩٦٥ ) ، ص ٦٤ ، وانظر : مجلة كلية الشريعة في جامعة بغداد ( بغداد ) ، العدد ٥ ( ١٩٦٨ ـ ١٩٦٩ ) ، ص ١٣٢ .

اليها نفوسهم ، ولانها ـ كذلك ـ الخضم الذي انصبت فيه روافد عادات الامة ، وتقاليـدها ، ومُثُلها ، وسائر سماتها المميزة لها ، ولأنها ـ بعد هذا كله ـ السبيل التي لا سبيل سواها ، لوصل حاضر الامة بماضيها، وقد لا نجانب الصواب ، اذا ما ذهبنا الى انها هي الشخصية العربية ، ولا قوام لهذه الشخصية بدونها .

واذا صح ما ذهب اليه ( الرافعي ) ، من ان اللغـة صورة وجـود الامة ، بـافكارهـا ، ومعانيها ، وحقائق نفوسها ، وجوداً متميزاً قائماً بخصائصه[١٣] ، فإنما يصح على لغتنا هذه اكثر من غيرها ، لأنها وجدت مع الحياة العربية منذ نشأتها ، ولازمتها ملازمة الروح للجسد ، في جميع فترات تطورها عبر كل تلك القرون ، فلم تستبدلها الامة بغيرها ، ولم تستغن عنها ، في يوم من ايام حياتها ، فلا قومية لنا قبلها ، ولا قومية لنا بعدها . « وبها توحد العرب قديماً، وبها يتوحدون اليوم ، ويؤلفون في هذا العالم رقعة من الارض ، تتحدث بلسان واحد ، وتصوغ افكارها ، وقوانينها وعواطفها في لغـة واحدة ، على تنائي الديار ، واختلاف وتعدد الدول »[١٤] .

ولهذا ذهب العقاد الى ان الحملة على اللغة في الاقطار الاخرى ، انما هي حملة على لسانها ، او على ادبها ، وثمرات تفكيرها ، على ابعد احتمال .

**ولكن الحملة على لغتنا نحن حملة على كل شيء يعنينا ، وعلى كل تقليد من تقاليدنـا : الاجتماعية ، والدينية ، وعلى اللسان والفكر والضمير في ضربة واحدة .** لأن زوال اللغة ـ في اكثر الامم ـ يبقيها بجميع مقوماتها غير ألفاظها ، ولكن زوال اللغة العربية ، لا يبقي للعربي او المسلم قواماً يميزه من سائر الاقوام ، ولا يعصمه من ان يذوب في غمار الامم ، فلا تبقى له باقية ، من بيان ، ولا عرف، ولا معرفة ، ولا ايمان[١٥] .

والعربية لغة **القرآن** الكريم ، والحديث النبوي الشريف ، وما شك احد من الناس ـ قديماً او حديثاً ـ في الحقيقة هذه ، ولا تردد في الاقرار بها ، كيما يرى المرء في نفسه حاجة لاثباتها او التدليل عليها . ومن هنا كانت العربية ـ وما زالت ، وستظل ـ لغة هذا الدين ، الذي ارتبطت به ارتباطاً وثيقاً. اكسبها قدسية في نفوس المسلمين كافة ، عرباً وغير عرب ، وصار لزاماً على غير العربي منهم ان يتعلمها ، كي يقف على تعاليم دينه ، ويتمكن من اداء فريضة الصلاة ، التي لا تصح بغير قراءة شيء من **القرآن** ، ويتقرب الى الله بتلاوته ، في غير الصلاة[١٦] .

---

(١٣) مصطفى صادق الرافعي ، **وحي القلم**، ٣ ج ( القاهرة : دار المعارف ) ، ج ٣ ، ص ٣٦ .

(١٤) محمد المبارك ، **فقه اللغة وخصائص العربية : دراسة تحليلية مقارنة للكلمة العربية وعرض لمنهج العربية الاصيل في التجديد والتوليد**، ط ٤ ( بيروت : دار الفكر الحديث ، ١٩٧٠ ) ، ص ٢٣٢ .

(١٥) العقاد ، **اشتات مجتمعات في اللغة والادب** ، ص ١٢٧ .

(١٦) الحصري ، **آراء واحاديث في اللغة والادب** ، ص ٧٨ ، وتيودور نولدكه ، **اللغات السامية : تخطيط عام** ، ترجمة رمضان عبد التواب ( القاهرة : المطبعة الكمالية ) ، ص ٨٥ ـ ٨٦ .

ويحدثنا المستشرق الالماني ـ يوهان فك ـ عن ارتباط العربية بهذا الدين ، وذيوعها بسببه ، فيقول : « لم يحدث حدث في تاريخ اللغة العربية ، ابعد اثراً في تقرير مصيرها من ظهور الاسلام . عندما رتل محمد (ص) القـرآن على بني وطنه ، بلسان عربي مبين ، تأكدت رابطة وثيقة بين لغته والدين الجديد ، كانت ذات دلالة عظيمة النتائج في مستقبل هذه اللغة ، ولا ينحصر هذا في المقام الذي اخذته العربية ، منذ ذلك الوقت في العالم الاسلامي كله ، من حيث صارت لغة الدين والحضارة على الاطلاق ، بل يتجاوزه بمقدار اعظم الى النتائج ، التي تركتها غزوات الفتح ، على ايدي عرب البوادي ، تحت راية الاسلام في لغتهم ، وبذلك صارت العربية لغة الطبقات الموجِّهة في دولة سرعان ما امتدت رقعتها ـ في اوج عظمتها ـ من اسبانيا غرباً ، الى اواسط آسيا نحو الشرق »(١٧) .

ويصور لنا اعتزاز المسلمين بها ـ عرباً وغير عرب ـ ويعزو بقاءها ، وصمودها في وجه ما عصف بالامة العربية ، من عواصف الدهر وعواديه ، الى كونها لغة هذا الدين فيقول « . . . ربما كان سبب ذلك ، ان لغة القرآن ، قد صارت في شعور كل مسلم ـ اياً كانت لغته الاصلية ـ جزءاً لا ينفصل من حقيقة الاسلام . . . . بل حتى الشعوبيين الذين ادعوا تفوق الشعوب غير العربية ، لم يستطيعـوا ان ينقصوا من مكـانة العربية ، ومقامها مثلاً اعلى »(١٨) .

ولقد اعرب المستشرق الالماني ـ تيودور نولدكه ـ عن تأثير القرآن الكريم فيها ، بقوله : « لا بد من ان يكون لهذا الكتاب ، من التأثير على لغة المنطقة المتسعة ، ما لم يكن لاي كتاب سواه في العالم »(١٩) .

اما ( جول فرن ) فقد ذهب الى انها عاشت مع هذا الدين ، وستظل معه ، وتخلد بسببه ، فلا تختفي من الوجود الا باختفائه فقال : « لا شك انه يموت غيرها ، وتبقى هي حية ، حتى يرفع القرآن نفسه »(٢٠) .

فهذه هي الصلة بين العربية والاسلام ، وهذا بعض انتفاعها بهذه الصلة ، كما ابرزها علماء اللغات الكبار في العالم ، ممن ليسوا من ابناء قومنا ، او ديننا ، فكيف يمكن للعربي او المسلم ، ان ينظر الى العربية نظرته الى اية لغة اخرى ، غريبة عنه ، ويجردها من كل صلاتها : الـوطنية ، والقومية ، والدينية ، وهي منها في الصميم ، ولها فيها ابلغ الآثار واعظمها ؟ او يراها عملة له ان يستبدل بها غيرها متى رغب من غير ان يعود عليه هذا الاستبدال بشيء من الضرر ؟

وقد ذهب علماء اللغات الى جمعها في فصائل ، بحسب ما بينها من تشابه ، فانتهـوا الى حصرها في ثلاث :

---

(١٧) يوهان فك ، العربية : دراسات في اللغة واللهجات والاساليب ، ترجمة عبد الحليم النجار ( بيروت : مطبعة دار الكتاب العربي ، ١٩٥١ ) ، ص ١ .

(١٨) المصدر نفسه ، ص ٥٠ .

(١٩) نولدكه ، اللغات السامية : تخطيط عام ، ص ٨٥ ـ ٨٦ .

(٢٠) محمد الخضر حسين ، دراسات في العربية وتاريخها ، ط ٢ ( دمشق : المكتب الاسلامي ؛ مكتبة دار الفتح ، ١٩٦٠ ) ، ص ١٤ .

الاولى : الهندية ـ الاوروبية ، والثانية : الحامية ، والثالثة : ما سوى لغات المجموعتين ، وقد سماها بعضهم ( الطورانية ) . والعربية واحدة من اللغات السامية ، وهي : ( العربية ، والعبرية ، والآشورية ، والفينيقية والآرامية ، والحبشية ) ، وما تفرع من هذه الاسر . والعربية اقرب هذه اللغات الى السامية الام ، او الاولى ، كما اكد هذا تيودور نولدكه ، في اكثر من موضع في كتابه القيّم **اللغات السامية** حيث قال : « اما السؤال ، اي اللغات السامية المعروفة يمكن ان تكون اقرب شبهاً باللغة السامية الاولى؟ فإنه لم يأخذ الاهمية التي تفترض فيه ، وليس موضوع الكلام ـ هنا دائماً ـ الا القرب النسبي وليس القرب المطلق ، فبعد ان ترك منذ مدة الرأي الذي لم ينشأ الا لباعث ديني ، والذي يقول : ان جميع اللغات السامية ـ او اللغات كلها عموماً ـ صادرة اصلاً من اللغة العبرية ، او الآرامية ، ايضاً ، رغب الناس في الرأي القائل : بأن العربية لا تزال اقرب اللغات ـ جداً ـ الى اللغة السامية الاولى »[21] ، وعلل ما ذهب اليه ، باحتفاظ العربية بكثير من عناصر السامية الام ، فقال : « لقد احتفظت العربية اكثر من اخواتها ، بكثير من الصور الصادقة ، لعناصر اللغة الاولى ، مثل الكمية الاصلية ، تقريباً ، من الاصوات الساكنة ، وكذلك الحركات القصيرة من المقاطع المفتوحة ، ولاسيما وسط الكلمات . . . والفروق النحوية التي أُفسدت ـ ان قليلاً ، وان كثيراً ـ في اللغات السامية الاخرى »[22] .

واشار الى ما خسرته العبرية من الصيغ النحوية ، واحتفظت به العربية، فقال : « اما في الصيغ النحوية ، فقد خسرت اللغة العبرية اشياء مختلفة منها ، ولا تزال اللغة العربية تحتفظ بها »[23] .

وفنّد الرأي الذاهب الى امكان عدّ الآشورية اصلاً للساميات ، فقال : « وأما ذلك الرأي الصادر ، عَرَضاً ، من بعض المشتغلين باللغة الآشورية ، المتحمسين ، والقائل بأن اللغة الآشورية يمكن اعتبارها سنسكريتية اللغات السامية ، هذا الرأي لم يحظ مرة واحدة بتأييد المشتغلين بالآشورية انفسهم ، ولا يحتاج منا الى تفنيد جديد، ومقارنة قواعد اللغات السامية يجب ان يبدأ ـ حقاً ـ من العربية ، على ان يراعى في التفاصيل كل قريباتها ، طالما كن معروفات لنا[24] ، وسيظل المعجم العربي ـ دائماً ـ الوسيلة المساعدة لالقاء الضوء على التعابير الغامضة في اللغات السامية الاخرى »[25] .

## ٢ ـ قدم العربية

ذهب علماء المسلمين ـ من الهنود ـ الى تفنيد زعم طائفة من الاوروبيين ، القائل بحداثة اصول العربية ، بالقياس الى اللغات الهندية ـ الاوروبية ، معتمدين في تفنيدهم على معرفتهم بالعربية واللغات الاوروبية ، فأصابوا ـ كما يرى العقاد ـ كثيراً في تصحيح اخطاء اللغويين

---

(٢١) نولدكه ، **اللغات السامية : تخطيط عام**، ص ٨ .
(٢٢) المصدر نفسه ، ص ١٣ .
(٢٣) المصدر نفسه ، ص ٨ .
(٢٤) المصدر نفسه ، ص ١٣ .
(٢٥) المصدر نفسه ، ص ١٤ .

الاوروبيين ، عند المقابلة بين الكلمات ، كما اصابوا كثيراً في التنبيه الى تلك الاخطاء ، وإثباتها بدلائل المعاني والالفاظ التي لا شك فيها . من ذلك بحث مستفيض للشيخ محمد احمد مظهر ، نشره تباعاً بمجلة الاديان ، الصادرة باللغة الانكليزية ، في باكستان ، تحت عنوان ( العربية أُمّ اللغات ) . اورد فيه مئات من الكلمات الاوروبية ، التي عدها من مشتقات العربية على صورة من الصور اللفظية ، او المعنوية ، منها : كلمة الذَرَّة اتوم (Atom) ومعناها لا يتجزأ ، او لا ينقطع ، فهي مأخوذة من (طم ) العربية ، بمعنى قطع ، لأن الهمزة الاولى زائدة للنفي في اليونانية ، و(توم ) هي (طم) بعينها ، اذا لاحظنا ان الاوروبيين يضعون التاء موضع الطاء ، وكلمة (بتْ ) (Bit) بمعنى قطع في الانكليزية من مادة ( بتّ ) في العربية بالمعنى نفسه و( ارايف ) (Arrive) الانكليزية : وصل الى المرفأ . اخذت من المرفأ العربية بهذا المعنى . و( اسبير) بمعنى التنفس في الانكليزية ، اخذت من الزفير العربية بمعناها[٢٦] .

وعقب العقاد قائلاً : « نحن نعتقد ان اللغة العربية اقدم من معظم اللغات الحديثة ، وان شواهد سبقها في التقدم تزيد على الشواهد التي يستدل بها على سبق اقدم اللغات الاخرى » . غير انه عمد الى وسيلة ، رآها ايسر واولى من مقابلة الالفاظ ، عمد الى اسماء الحيوانات الاليفة منها والمتوحشة ، لأن العلم بها ـ كما يرى ـ اقدم شيء في لغات بني الانسان ، وانتهى الى ان اللغة التي يمكن ارجاع هذه الاسماء فيها ، الى مصادر او معانٍ لها دلالاتها ، اقدم من التي وردت فيها تلك الاسماء مرتجلة ، يتعذر الرجوع بها الى مثل تلك المعاني فيها . واكثر اسماء الحيوانات في العربية ترجع الى مصادر او معان معلومة ، مثل ( الحمار ) من حمرة لونه ، و( البغل ) من مادة اصيلة فيها ، وهي : الخلط ، والنسب الدخيل ، وكل ما هو غير خالص او صريح . ومثلها في الدلالة : النغل ، والدغل . و( الغراب ) من الغربة وهكذا عشرات الاسماء ، التي تدل على وجود هذه اللغة ، في اقدم عهد عرفت فيه الامة العربية هذه الحيوانات . وهو عهد بعيد في القدم ، لم يعرف مثله عهد لغير هذه اللغة ، نقلت عنه تلك الاسماء بغير هذا اللفظ ، وغير هذا الاشتقاق ويقابل هذه في الانكليزية اسماء ، كلها منقولة من غيرها ، او مرتجلة ، مقصورة على مسمياتها ، لا يعرض لها التصريف في الخطاب كالاسد : لايون (Lion) من لايو اللاتينية ، وذكر اسماء اخرى غيره[٢٧] . وفاته ان «لايون» الانكليزية ، او «لايو» اللاتينية ، ربما تكون قد اخذت عن ( ليث ) السامية بالمعنى نفسه .

والتفت بعد هذا ، الى ما كشفت عنه الحفريات في جزيرة ( كريت ) من كتابات سامية ، يرتقي عهدها الى الفي سنة قبل الميلاد ، فقال : « اعلن الاستاذ سيروس جوردن ، رئيس مباحث حفريات البحر الابيض المتوسط ، بجامعة برانديس ، انه اهتدى الى مفتاح الكتابة التي نقشت على الواح الجزيرة ، فوضح له ان اللغة السامية لا شك فيها ، وان بعض كلماتها تقارب العربية ، التي نتكلمها نحن في العصر الحاضر . منها كلمة ( قرية ) و( ميت ) و( داود ) منطوقة بما يقرب من نطق

---

(٢٦) العقاد ، اشتات مجتمعات في اللغة والادب ، ص ١٥ ـ ١٦ .
(٢٧) المصدر نفسه ، ص ١٦ ـ ١٩ .

جروفها التي تكتب بها الآن[٢٨] ، وذهب الى ابعد من هذا ، فامسك بالشبه ـ او في الاصح المطابقة ، بين الابجديتين العربية واليونانية ، فيما سوى حروف الحلق العربية ، وعزا الى التعصب ما افترضه الاوروبيون مـن امكان اقتباس الساميين لهذه الابجدية من مصدر اوروبي قديم . ورأى ان العكس هو الصحيح ، لأن الابجدية العربية رموز مقتطعة من اسماء معروفة فيها ، كالباء من البيت ، والجيم من الجمل ، والكاف من الكف ، والنـون من النون ، بمعنى الجوت ، وهكذا بقيـة الحروف ، ولا يمكن ان يرد شيء منها الى اي معنى ، في اية لغة اوروبية »[٢٩] .

كما ذهب غير العقاد الى القول بأخذ الابجدية اليونانية من العربية[٣٠] ، اما قـدم اللغة العربية والحضارة العربية ، فقد ذهب كثير من اللغويين والمؤرخين العرب ـ وليس العقاد وحده ـ الى القول به ، اذ عدوا الحضارات المعينية ، والسبئية ، والحميرية ، في جنوب الجزيرة العربية ، والفينيقية ، والكنعانيـة ، والآرامية في شمـالها ، عـربية[٣١] . حتى ان منهم من ذهب الى ان الحضارات التي قامت فيما بين النهريـن من : سومـرية ، واكـدية ، وآشورية ، وعـربية[٣٢] ويشاركهم فيما ذهبوا اليه غير واحد من المؤرخين الاوروبيين انفسهم ، فقد ذهب غلازر ، ومولر الى ان المعينين ، اول دول العرب في اليمن ، اصلهم من عمـالقة العـراق ، الذين كـانوا في الجزيرة ، قبل ظهور حمورابي بقرون من السنين ، فلما ذهبت دولة العمالقة في العراق ، نزحوا الى اليمن ، واستقروا وتوطنوا الجوف ، وشادوا القصور والمعابد ، على مثل ما عرفوا في بابـل[٣٣] .

وعقب الشيخ احمد رضا العاملي على هذا ، فقال : « والدولة المعينية عرفت قبل المسيح بنحو خمسة عشر قرناً ، ولا يخالف احد من المؤرخين في عدّها من العرب »[٣٤] .

وذهب د . فؤاد حسنين ، الى ان اللغة المصرية القديمة ، ربما نتجت عن غزو قديم لوادي النيل[٣٥] .

غير ان الاوروبيين ، او كثيرا منهم ، يفرقون بين الاقوام السامية بحسب ما انتهت اليه من فروق بينها ، بعد احقاب من تفرقها وانتشارها .

---

(٢٨) المصدر نفسه ، ص ٢٢ .

(٢٩) المصدر نفسه ، ص ٢٥ .

(٣٠) ابراهيم انيس ، **الاصوات اللغوية** ، ط ٤ ( القاهرة : المطبعة الفنية الحديثة ، ١٩٧١ ) ، ص ٩٤ .

(٣١) جرجي زيدان ، **تاريخ آداب اللغة العربية** ، ٤ج ( القاهرة : دار الهلال ، ١٩٥٧ ) ، ج ١ ، ص ٢٩ ـ ٣٠ ؛ مصطفى صادق الرافعي ، **تاريخ آداب العرب** ، ط ٣ ، ٣ ج ( القاهرة : مـطبعة الاستقـامة ، ١٩٥٣ ـ ١٩٥٤ ) ، ج ١ ، ص ٣٨ ـ ٣٩ ، واحمد رضا العاملي ، **مولد اللغة** ( بيروت : مطبعة سميا ، ١٩٥٦ ) ، ص ٤٤ ـ ٤٥ .

(٣٢) العاملي ، المصدر نفسه ، ص ٤٤ .

(٣٣) المصدر نفسه .

(٣٤) المصدر نفسه ، ص ٤٥ .

(٣٥) فؤاد حسنين علي ، **من الادب العبري** : محاضرات ( القاهرة : مطبعة الرسالة ، ١٩٦٢ ـ ١٩٦٣ ) ، ص ٣ .

**ومهما يكن من شيء ، فالعربية اقرب اخواتها الى السامية الاولى ، واكثرهـا احتفاظـا بخصائص السامية الأم ، وما دامت كذلك فلا يمكن الا ان تكون اقدمها جميعا ، والا ، فبماذا يمكن ان يفسر قربها من الام ـ كما ذهب علماء اللغة ـ واحتفاظها باكثر خصائصها ؟**

وليس بين علماء اللغة ، من برهن على سبق اللغة الهندية ـ الاوروبية للسامية الحامية . وما ذهب اليه مكس ملر وانصار نظريته ، من ان الاصول المشتركة التي تعود اليها المفردات ، في جميع اللغات الهندية ـ الاوروبيـة ، والتي تمثل في نظرهم اللغة الانسانية في اقدم عصورها ، تدل على معان كلية ، يحمل في طياته ما يعصف بنظريته ، اذ الـدلالات الكلية متـأخرة عن الـدلالات الجزئية . ويكفينا في هذا ما نقله د . علي عبد الواحد وافي ، عن بعض اللغويين الاجانب ، بشأن هذه الاصول ، حيث قال : « .... اننا بصدد اصول نظرية ، لم تكن يوما ما لغة كلام »[٣٦] .

وذهب العالمان الالمانيان فـورست ، وديلينزش ، الى القـول ، بتفرع اللغـات الهنديـة ـ الاوروبيـة من السامية ، لأن اصول الكلمات السامية مؤلفة من حرفين ، زيدَ على كل اصل منها حرف ثالث ، وعمدا الى طائفة من الالفاظ الهندية ـ الاوروبية ، واشارا الى التقارب بينهما في اصواتها ودلالاتها وقررا ان الاصل السامي ( الثنائي ) ، هو الذي اخذت منه تلك الكلمات[٣٧] وقد قال بهذه الثنائية غيرهما من اللغويين ، الباحثين ، في العبرية والعربية والسامية بعامة منهم الاستاذ جنرينوس ، والاب انستاس ماري الكرملي ، والاب مرمرجي الدومنيكي ، واحمد فارس الشدياق[٣٨] .

وذكر ان علماء العربية الاقدمين ، كانوا قد فطنوا الى هذه الثنائيـة ، في اصول الالفـاظ العربية ، وبخاصة ابن فارس ، والراغب الاصفهاني ، اذ الف ابن فارس معجم مقاييس اللغة على هذا الاساس ، حيث يأخذ حرفين من المادة ، وما يلحق بهما فيقول مثلا الباء والجيم ، وما يثلثهما . . وهكذا[٣٩] .

غير ان الدكتور علي عبد الواحد وافي ، اشار الى ان العالم رينيه رأى في صنيـع العالمـين الالمانيين ، ما عده من قبل التحكم[٤٠] .

---

(٣٦) علي عبد الواحد وافي، **علم اللغة** ، ط ٤ مزيدة ومنقحة ( القاهرة : مكتبة نهضة مصر ، ١٩٥٧ ) ، ص ١٠٤ .

(٣٧) المصدر نفسه ، ص ٢٠٧ .

(٣٨) المصدر نفسه ، ص ٢٠٦ ؛ رمضان عبد التواب ، **فصول في فقه العربية** ( القاهـرة : دار الحمامي للطبـاعة ، ١٩٧٣ ) ، ص ٢٦٤ ـ ٢٦٦ ؛ أ . س . مـرمرجي الـدومنيكي (الاب) : **معجمات عـربية سـامية** ( بيروت : مطبعة المرسلين اللبنانيين ، ١٩٥٠ )، ص ٥ ـ ٦ ، **وهل العربية منطقية** ( بيروت : مطبعة المرسلين اللبنانيين ، ١٩٤٧ )، ص ١٥٨ ـ ١٥٩ .

(٣٩) وافي ، **علم اللغة** ، ص ٢٠٦ .

(٤٠) المصدر نفسه ، ص ٢٠٧ .

وعلى اي حال ، فاذا كانت العربية اقدم اخواتها الساميات ، واللغويون لم ينتهوا الى رأي قاطع ، في اي من العائلتين اللغويتين اقدم ، السامية الحامية ، او الهندية الاوروبية ، فقد اتضح بما لا سبيل الى الشك فيه قدم العربية ، وعراقتها فيه ، لدرجة بدا لغير واحد من علماء اللغة ، انها اقدم اللغات ، فإن لم تكن كذلك ، فلا اقل من ان تكون من اقدمها ، واعرقها ، وهي خاصية تحسب لها ، ككل عريق في الحياة .

## ٣ ـ حياة العربية وحيويتها

لغتنا الحالية انما هي العربية الباقية التي وصلت الينا عن طريق الادب الجاهلي والقرآن الكريم ، لا العربية البائدة ، التي اندثرت قبلها بقرون، او آلت اليها[٤١] . فقد ذهب اللغويون ومؤرخو الادب ، الى ان الاسلام كان قد صادف ـ عند ظهوره ـ لغة مثالية مصطفاة موحدة[٤٢] ، واجمعوا على ان ما وصل الينا من ادب الجاهلية ، لا يمثل اكثر من قرنين من الزمان قبل الاسلام[٤٣] .

ولا شك ان لغة هذا الادب ، لا يمكن ان تصل الى هذه الدرجة من النضج والاكتمال فجأة ، وانها لا بد ان تكون قد ارتقت سلم التطور في قرون سبقت فترة النضج هذه . ولهذا لم يبعد نولدكه ، حين ذهب الى ان العرب ـ قبل الميلاد وبعده بقليل ـ كانوا يتكلمون لهجة تتشابه كثيرا مع العربية الكلاسيكية[٤٤] . غير انه لم يصل الينا من كتاباتهم ، ما يمكن الباحث من رسم صورة لتطور العربية الباقية ، ويعين على وجه التحديد بدايتها. ويستبعد ولفنسون الا يكون العرب قد تركوا كتابات في مراكز الحجاز ( مكة والمدينة والطائف ) مع ان الروايات اليقينية ـ كما قال ـ تثبت معرفتهم القراءة والكتابة .ولهذا فلا مناص لنا من ان نقنع ـ حالياً ـ بهذه الفترة من حياة العربية الباقية من الجاهلية ( قرنين قبل الاسلام ) حتى يكشف المستقبل عن تطوراتها في الفترات السابقة[٤٥] .

ومن هنا فإن اقصر عمر يفترضه الباحث لها يزيد على خمسة عشر قرنا ، ظلت طوالها حية نامية ، متطورة بحسب مقتضيات الظروف التي واجهتها ، من غير ما عجز عن سد حاجات

---

(٤١) صبحي الصالح ، **دراسات في فقه اللغة** ، ط ٣ ( بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٦٨ ) ، ص ٥٩ ؛ زيدان ، **تاريخ آداب اللغة العربية** ، ج ١ ، ص ٣٢ ؛ الرافعي ، **تاريخ آداب العرب** ، ج ١ ، ص ٣٩ ، وشوقي ضيف ، **تاريخ الادب العربي** ، ط٤ ، تاريخ الادب العربي ، ١ ، ٣ج ( القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٠ ) ، ج١ : **العصر الجاهلي** ، ص ٣٨ ـ ٣٩ .

(٤٢) الصالح ، المصدر نفسه ، ص ٥٩ ؛ عبد التواب ، **فصول في فقه العربية** ، ص ٦٢ ، وفك ، **العربية : دراسات في اللغة واللهجات والاساليب** ، ص ٥ .

(٤٣) جميع الذين كتبوا عن الادب الجاهلي ، من الجاحظ الى الوقت الحاضر .

(٤٤) نولدكه ، **اللغات السامية : تخطيط عام** ، ص ٧٢ .

(٤٥) عبد التواب ، **فصول في فقه العربية** ، ص ٤٧ ـ ٤٨ .

الناطقين بها ، عربا وغير عرب ، بداة ومتحضرين ، ومن غير ان تفقد شخصيتها ، او يضطرب كيانها . ويكفي في هذا ما ذكره المستشرق الالماني يوهان فك ، الذي تـولى دراسة اسـاليبها ، ولهجاتها ، وتطورها ، منذ ظهور الاسلام الى عصرنا هذا ، وقد سبق ان وقفنا على ما ذكره ، عن حياتها وحيويتها طوال تلك القرون ، وكيف وجد ذلك الاثر العظيم ( القرآن ) في العربية التعبير الموائم ، لهذا العالم الفكري الذي لا نظير له في العربية على الاطـلاق ، فاستـوعبت كل هـذا المحصول الجديد ، وانتشر الاسلام ، فانتشرت بانتشاره ، وصارت لغة الدين والحضـارة لكل العالم الاسلامي .

وحين سقطت الدولة الاموية ، لم يقحم سقوطُها العربية معه ، بل شهد عصر النور ـ في اوائل الدولة العباسية ـ اقصى درجات العناية بها . كما ان انحلال الدولة العباسية الى دويلات عديدة مستقلة ، لم يزعزع مكانة العربية ، التي ربطت ـ حينذاك ـ جميع اقطار المدنية الاسلامية ، على انها اللغة الاصيلة ، للعلم والادب برباط جامع وثيق . وتوالت على الامة موجات عاتية ، من شعوبية ، ومغولية ، وصليبيـة ، وتركيـة ، واوروبية حـديثة ، غـير انها انحسرت . ومقـام العربية ـ كما يقرر ( فك ) بكونها اللغة المعتمدة ـ قد بقى حتى هذا العصر ، ثابت الاركان ، وطيد الدعائم[٤٦] .

وانتهى الى القول ـ وهو الدارس لها في كل مراحل تطورها ان جبروت التراث العربي التليد الخالد قد برهن على انه اقوى من كل محاولة يقصد بها زحزحة العربية الفصحى عن مقامها المسيطر .

واذا صدقت البوادر ، ولم تخطىء الدلائل ، فستحتفظ ـ ايضا ـ بهذا المقام العتيد ، من حيث هي لغة المدنية الاسلامية ، ما بقيت هناك مدنية اسلامية[٤٧] .

ومع ان التاريخ ـ كما يقول العالم الالماني شليشر ـ عدو اللغة ، اذ يزداد تطورها بامتداد الفترة الزمنية المارة عليها[٤٨] ، ومع ان انتشارها ،واحتكاكها بلغات اخرى ـ كما يقول د . مراد كامل ـ يعرّضان اللغة الى فقدان خصائصها الذاتية[٤٩] ، فان فاعلية اللغة العربية وحيويتها قد حَيرت علماء تاريخ اللغات ، اذ مكنتها من ان تجتاز كل ما يعترض طريق اللغات من عقبات ، فهذا ارنست رينان يقول في كتابه **تاريخ اللغات السامية** ما نصه : « ومن يوم علمت ظهـرت لنا في حلل الكمال ، الى درجة انها لم تتغير اي تغير يذكر ، حتى انها لم يعرف لها ـ في كل اطوار حياتها ـ طفولة ولا شيخوخة ، فلا نكاد نعلم من شأنها الا فتوحاتها ، وانتصاراتها التي لا تبارى .

---

(٤٦) فك ، العربية : دراسات في اللغة واللهجات والاساليب ، ص ٥٠ .

(٤٧) المصدر نفسه .

(٤٨) مراد كامل ، دلالة الالفاظ العربية وتطورها : محاضرات ( القاهرة : مطبعة نهضة مصر ، ١٩٦٣ ) ، ص ١٤ .

(٤٩) المصدر نفسه ، ص ١ .

ولا نعلم شبيها لهذه اللغة ، التي ظهرت للباحثين من غير تدرج ، وبقيت حافظة لكيانها من كل شائبة »(٥٠) وتنبأ لها ( جول فرن ) قائلا : « انها لغة المستقبل ، ولا شك انه يموت غيرها ، وتبقى هي حية حتى يرفع القرآن نفسه(٥١) ».

ولقد ماتت ـ بالفعل ـ اللغات التي سبقتها ، والتي عاصرتها ، حتى تلك التي ارتبطت بالديانتين السماويتين : الموسوية ، والعيسوية ، وهما العبرية والآرامية . فيقول نولدكه« ان العبرية كلغة للشعب قد ماتت ، على ألسنة اليهود في عصر المكابيين ، كما اننا لا نملك اي اثر ، يدل على انها ظلت لغة حية مدة طويلة ، لدى شعب من الشعوب المجاورة الصغيرة »(٥٢) . وقال « وقد اضطرت اللغة الآرامية الى التقهقر الشديد امام فتوح المسلمين في القرن السابع الميلادي ، ثم اختفت ـ تماماً ـ في الغرب امام اللغة العربية ، في قرون معدودة . وقد فقدت اللهجة الفلسطينية اهميتها كذلك بالنسبة للمسيحيين ، الذين اصبحوا يتكلمون كالآخرين اللغة العربية »(٥٣) .

كما قال في السريانية « وقد اضطرت السريانية ـ ايضا ـ الى التقهقر كثيرا امام العربية ، التي انهت سريعا تلك السلطة التي دامت اكثر من الف عام . . . وهكذا ، نشأت الحاجة ـ حينذاك ـ الى قاموس سرياني ـ عربي ، اذ اصبحت اللغة السريانية لغة ميتة ، ولم يغير من ذلك الموقف شيئا ، انه قد كتب بها ـ فيما بعد ـ كثير من الاعمال الفنية »(٥٤) .

## ٤ ـ ثراء العربية

ربط اللغويون بين اللغة والناطقين بها ربطا محكما ، بعد ان انتهوا ، الى ان اللغات جميعها ارضية بشرية ، ابتكرها الانسان لتوفر وسائلها ، واقتضاء دواعيها ، فالحديث عن حياة اللغة حديث عن اصحابها ، اذ لا حياة لها بغيرهم ، وكذا سائر صفاتها واحوالها ، لا تنفصل عنهم ، ولا تنصرف الى غيرهم(٥٥).

والمجتمعات البشرية منها الراقية ، وغير الراقية ، وكذلك لغاتها . فغير الراقية ما كانت موادها قليلة ، لا يسع التعبير بها اكثر ما تمس الحاجة اليه ، مثل اللغات الزنجية ، ولغة بعض سكان استراليا . وهذه الاخيرة ـ على ما ذكر عنها ـ ناقصة جدا ، بحيث لا يمكن التفاهم بها ، الا مع اشارات حسية . والراقية ما عززت مبانيها ، واتسعت طرق دلالاتها ، فكانت موفية بتأدية

---

(٥٠) حسين ، دراسات في العربية وتاريخها ، ص ١٩ .
(٥١) المصدر نفسه ، ص ١٤ .
(٥٢) نولدكه ، اللغات السامية : تخطيط عام ، ص ٣٨ .
(٥٣) المصدر نفسه ، ص ٥٧ .
(٥٤) المصدر نفسه ، ص ٦١ .
(٥٥) ابراهيم انيس ، طرق تنمية الالفاظ في اللغة ( القاهرة : مطبعة النهضة الجديدة ، ١٩٦٦ ـ ١٩٦٧ ) ؛ كامل ، دلالة الالفاظ العربية وتطورها : محاضرات ، ص ١٩ ، وانيس فريحة ، محاضرات في اللهجات واسلوب دراستها ( القاهرة : مطبعة الرسالة ، ١٩٥٥ ) ، ص ٣٨ .

المراد ، مع الاستغناء عن الاشارة ، وعدم الاعتماد على قرائن الاحوال في الاكثر مثل اللاتينية ، والفارسية ، والعربية(٥٦) فميزان الارتقاء ـ عندهم ـ سعة نطاق اللغة ، وجودة بيانها ، ووفاؤ ها بالتعبير عن المقصود(٥٧) .

واللغة العربية ـ بمقياس اللغويين هذا ـ من اللغات الراقية فقد بلغت من الثراء ـ في المفردات وصيغ التعبير ـ ما اثار اعجاب كبار علماء اللغات ، من المستشرقين الذين عنوا بدراستها ، واخواتها الساميات عناية خاصة ، فقد اعرب نولدكه عن اعجابه من وفرة مفرداتها ، فقال : « انه لا بد من ان يزداد تعجب المرء من وفرة مفردات العربية ، عندما يعرف ان علاقات المعيشة لدى العرب بسيطة جدا . . . وبلدهم ذو شكل واحد . ولكنهم داخل هذه الدائرة يرمزون للفرق الدقيق في المعنى بكلمة خاصة »(٥٨) ، وقال « والعربية الكلاسيكية ليست غنية فقط بالمفردات ، ولكنها غنية ايضا بالصيغ النحوية »(٥٩) .

كما اعرب العالم ارنست رينان عن اعجابه بها ، قائلا : « من اغرب المدهشات ان تنبت تلك اللغة القوية ، وتصل الى درجة الكمال وسط الصحارى ، عند امة من الرحل ، تلك اللغة التي فاقت اخواتها بكثرة مفرداتها ودقة معانيها ، وحسن نظام مبانيها . . »(٦٠) ، فاذا كانت هذه اقوال من لا تشدهم اليها رابطة قرابة ، فلا عجب في ان يذهب ابناؤ ها الى ما ذهبوا اليه من الاعجاب بسعتها ، حتى ان بعضهم ذهب الى القول بتعذر الاحاطة بها(٦١). وجرى ذكر هذه السعة على ألسنة المتحدثين عنها من القدماء والمحدثين ، لكونها من جملة خصائصها البارزة ، فيقول الرصافي « ونحن اذا نظرنا الى اللغة العربية في دورها الجاهلي ، وجدناها لغة راقية جدا ، ورأيناها من اغنى اللغات كلها ، وارحبها صدرا ، لما فيها من اختلاف طرق الوضع ، والدلالة ، واطراد التصريف ، والاشتقاق ، وتنوع المجاز ، والكناية ، وتعدد الترادف وغير ذلك من النحت ، والقلب ، والابدال ، والتصريف ، وهي مع ذلك واسعة جدا »(٦٢) .

وقال د . صبحي الصالح ، في حديثه عن صيغها واوزانها : « رأينا ـ من انواع الاشتقاق ـ ان العربية اصابت ثروة لغوية واسعة ، بما تشعب عن اصولها من فروع ، وما تكاثر في موادها من صنوف والوان ، فكان العمل الاشتقاقي حركة حية دائمة ، تلد للغتنا كل لحظة مولودا جديدا وتلبي للاحياء مطالب التعبير »(٦٣) وقال :

---

(٥٦) حسين ، **دراسات في العربية وتاريخها**، ص ١٤٤ ، والعاملي ، **مولد اللغة** ، ص ٢٩ و٣٥ .

(٥٧) العاملي ، المصدر نفسه ، ص ٣٥ .

(٥٨) نولدكه ، **اللغات السامية : تخطيط عام** ، ص ٨٢ .

(٥٩) المصدر نفسه ، ص ٨٢ .

(٦٠) حسين ، **دراسات في العربية وتاريخها**، ص ١٩ .

(٦١) انظر : ابن فارس ، **الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها** ، ص ٤٧ ، ٦٤ و ٧٤ ، وجواد ، **المباحث اللغوية في العراق ومشكلة العربية العصرية** ، ص ٧٢ .

(٦٢) معروف الرصافي ، **الادب العربي وميزات اللغة العربية في ادوارها المختلفة الادبية** ، ط ٢ ( بغداد: مطبعة المعارف ، ١٩٥٢ ) ، ص ١٦ .

(٦٣) الصالح ، **دراسات في فقه اللغة** ، ص ٣٢٨ .

« ولقد حاول العلماء ـ من قبل ـ حين ادهشتهم هذه اللغة بأبنيتها المتكاثرة ـ ان يحصوا صيغ الاسماء والافعال لعلهم يحصرون القوالب ، التي يبني الفصحاء على مثالها الفاظهم ثقالاً او خفافاً ، في تطابق نفسي كامل مع حالة المخاطبين ، ولكن محاولاتهم باءت بالخسارة . فما تيسر لأحد منهم ـ مهما يكن قد اكثر ـ ان يستوعب هاتيك القوالب فإذا هم يستعيضون عن هذا البحث الايجابي العسير ببحث سلبي يسير ، فمن لم يحصر الاشباه والنظائر ، عن طريق الابنية التي جاءت على لسان العرب ، اضطلع بحصر الالفاظ التي خرجت عن هذا اللسان . . وعلى هذا الاساس وضع ابن خالويه مصنفه الحافل ( ليس في كلام العرب ) . . . »(٦٤) .

ووازن د . علي عبد الواحد وافي بينها وبين الآرامية والعبرية ، فانتهى الى تفوق العبرية على الآرامية ، وتقصيرها عن العربية قائلا : « . . . فقد فاقت الاولى ، ولكنها قصرت عن ان تدرك شأو الثانية ، فألفاظها واساليبها تتسع لكثير من مناحي القول ، ولكن العربية تفوقها في مرونة التعبير ، والترف اللغوي ، وسعة الثروة في المفردات ، وقواعدها سهلة مضبوطة ، ولكنها لا تبلغ في دقتها وتنوعها قواعد العربية »(٦٥) .

ومما يزيد في إعجاب المرء واستغرابه ، ان هذا البحر الزاخر من الفاظ العربية ليس كل ما قالته العرب ، وانما هو قليل من كثير . قال ابن فارس « ان لغة العرب لم تنته الينا بكليتها ، وان الذي جاءنا عن العرب قليل من كثير ، وان كثيرا من الكلام ذهب بذهاب اهله ، ولو جاءنا جميع ما قالوه لجاءنا شعر كثير ، وكلام كثير »(٦٦) .

## ٥ ـ ظاهرة الاعراب واثرها في الازدواج اللغوي عندنا

اللغة الفاظ مادتها حروف الهجاء وما عليها من حركات وسكون أطلق عليها ـ على سبيل التغليب ـ اسم الحركات ، وهي قسمان :

أ ـ حركات المباني : وهي العارضة لمبنى الكلمة ـ ( ما سبق الحرف الاخير منها ) ـ لايضاح النطق بها ، والدلالة على المعاني المختلفة في الالفاظ المتفقة في عدد الحروف وترتيبها مثل قَتل ، قُتِلَ ، قَتْل فهذه الكلمات او الكلمة الواحدة ادت معاني مختلفة لاختلاف حركة مبانيها .

ب ـ حركات الاعراب او علاماته : وهي العارضة للحرف الاخير من الكلمة ، لتعرب عما يخصها به المتكلم من فاعلية ، او مفعولية ، او اضافة(٦٧) .

ولم يثر النوع الاول ما اثاره الثاني من جدل ـ في غير الخط ـ لدخوله في مبنى الكلمة وعدّ حركاته احرف مد كبقية أحرف الكلمة لا تخلو لغة منها(٦٨) .

---

(٦٤) المصدر نفسه ، ص ٣٢٩ .

(٦٥) وافي ، علم اللغة ، ص ٢٣٥ .

(٦٦) ابن فارس ، الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ، ص ٦٧ .

(٦٧) انظر : العاملي ، مولد اللغة ، ص ٧٥ .

(٦٨) رسمت الحركات في اللاتينية بعد الحروف الصامتة مباشرة لذا وجدت الدعوة الى تقليد اللاتينية في رسم الحركات .

اما الثاني فقد تناوله بالبحث والدراسة القدامى من علماء العربية ، كما تناوله المحدثون من عرب ومستشرقين ، ودرسوه في العربية وغيرها من اللغات القديمة ، لكونه ظاهرة لازمت تلك اللغات ، فهو في اللغات السامية من الخصائص المشتركة بينها ، قال تيودور نولدكه « ويمكن بسهولة - الى حد ما - عمل قائمة بخصائص ومميزات تشترك فيها اللغات السامية كلها ومن هذه الخصائص تغير الدلالة بتغير حركات الكلمة . . . »(٦٩) .

وقال برغستراسر : ان « الاعراب سامي الاصل . . . »(٧٠) . وقال ولفنسون : « هناك شيء من بقايا الاعراب في اغلب اللغات السامية »(٧١) . واشار بروكلمان الى آثار حقيقية ، واخرى مظنونة من حالات الاعراب في تلك اللغات(٧٢) .

وهكذا اجمع المستشرقون ، او كادوا يجمعون على ان الاعراب ظاهرة سامية ، بل هو ظاهرة لازمت اللغات القديمة ، سامية وغير سامية ، بكونه من خصائص التمدن القديم ، فظهر في اللغة البابلية ، والعربية ، واليونانية ، والسنسكريتية(٧٣) .

ولهذا ذهب علماء اللغات الى تقسيمها بحسب هذه الظاهرة فقالوا لغات معربة ، ولغات غير معربة .

ولقد اختفت هذه الظاهرة من كثير من اللغات المعربة ، غير ان طائفة منها - وبينها العربية - ظلت محتفظة بها .(٧٤) . فأكد يوهان فك اطراد الاعراب في الشعر العربي قبل الاسلام وبعده ، واطراده في القرآن الكريم ، فقال : « ان الشعر - قبل الاسلام وبعده بقليل - يرينا علامات الاعراب مطردة ، كاملة السلطان وان نظام العروض والقافية - في العربية - لا يدع مجالا للشك في اعراب الكلمات . . كما ان مواقع الوقف الاختيارية في القرآن تقطع بمحافظته على غاية التصرف الاعرابي »(٧٥) .

والى مثل هذا ذهب شيخ المستشرقين نولدكه(٧٦) ، واضاف قائلا : « ان لهجة شديدة الانحراف عن عربية النحاة لا يناسبها مطلقا بحور الشعر المعروفة »(٧٧) .

---

(٦٩) نولدكه ، اللغات السامية : تخطيط عام ، ص ١٠ .

(٧٠) ابراهيم السامرائي ، دراسات في اللغة ( بغداد : مطبعة العاني ، ١٩٦١ ) ، ص ٩٨ ، والخولي ، محاضرات عن مشكلات حياتنا اللغوية ، ص ٦٩ .

(٧١) مهدي المخزومي ، مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو ، ط ٢ ( القاهرة : مطبعة مصطفى البابي الحلبي وشركاه، ١٩٥٨ ) ، ص ٢٤٦ .

(٧٢) عبد التواب ، فصول في فقه العربية ، ص ٣٤١ .

(٧٣) وافي ، علم اللغة ، ص ٢٧٨ ، وفريحة ، محاضرات في اللهجات واسلوب دراستها ، ص ٥٧ .

(٧٤) فك ، العربية : دراسات في اللغة واللهجات والاساليب ، ص ٣ .

(٧٥) المصدر نفسه .

(٧٦) نولدكه ، اللغات السامية : تخطيط عام ، ص٧٩ - ٨٠ .

(٧٧) المصدر نفسه، ص ٧٥ .

اما العرب فلم يرتب احد من علمائهم القدامى في ان الاعراب من خصائص العربية ، بل من اشد خصائصها[٧٨]. وكذلك رآه المحدثون منهم ، فقال استاذنا د. الجواري « والاعراب - وهو ابرز الظواهر في نحو العربية - لا يزال هو هو لم يتحول ، ولم يزايل مكانه من اللغة »[٧٩] ، وعده الاستاذ ابراهيم مصطفى سراً عظيما من اسرار العربية ، فقال : « طول هذه المراقبة ، ودأبهم عليها ، هداهم الى كشف سر عظيم من اسرار العربية وهو ان هذه الحركات ترجع الى علل واسباب يطرد حكمها في الكلام ، ويمكن الرجوع اليها ، والاحتجاج بها . . . وسموا ما كشفوا اول الامر علل الاعراب ، او علل النحو ، ثم لم يلبثوا ان اوجزوا ، فسموها علم النحو ، او الاعراب »[٨٠] .

وهكذا احتل الاعراب المكان الاول في العربية ونحوها .

ولقد اجمع القدماء على دلالته على المعاني الاعرابية ، من فاعلية ، ومفعولية ، واضافة ، الّا قطرب ( محمد بن المستنير ) تلميذ سيبويه اذ لم ير فيه غير التخفف من ثقل السكون ، والاعانة على درج الكلام ووصله[٨١].

وموقف المحدثين من دلالته كما يقول د. المخزومي : « هو موقف القدماء ، فأكثر المحدثين يحاكون جمهور القدماء بالقول بأن الحركات دوال على معان طارئة ، واقلهم - ولا اعرف منهم غير د. ابراهيم انيس في كتابه من اسرار العربية - لا يرى ذلك »[٨٢] .

وليس ما ذهب اليه د. انيس الا صدى لما ذهب اليه قطرب من قبل ، وتابعه فيه معروف الرصافي، وان توسع د. انيس في ملاحظات سابقيه. ولا ادري ان كان قد اطلع على ما كتبه الرصافي ام كان ما اتفق فيه معه من قبيل توارد الخواطر ، فقد اتفقا في نفي ما ادعاه النحاة من دلالة الحركات على المعاني الاعرابية ، مستندين الى امكان التعرف على هذه المعاني ، فيما خلا منها من الجمل المعربة ، وفي البنيات من الالفاظ ، والمعربات اعرابا تقديريا ، وذلك بقرائن الحال او المقال ، كما اتفقا في مجيء هذه الحركات لتحقيق غرض صوتي[٨٣].

والغريب ان يذهب الرصافي هذا المذهب ، مع ما يراه من ان الحركات ، ما وجدت الا لتعصم الالسن من الخطأ في قراءة القرآن ، ذلك الخطأ الذي يفضي بعضه الى الكفر ، وذكر اكثر

---

(٧٨) الصالح ، دراسات في فقه اللغة ، ص ١١٧ .

(٧٩) احمد عبد الستار الجواري ، نحو التيسير ( بغداد : مطبعة سلمان الاعظمي ، ١٩٦٢ ) ، ص ٢٢ .

(٨٠) ابراهيم مصطفى ، احياء النحو ( القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٩ ) ، ص ١٠ .

(٨١) عبد التواب ، فصول في فقه العربية ، ص ٣٢٧ .

(٨٢) المخزومي ، مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو ، ص ٢٤٨ .

(٨٣) ابراهيم انيس ، من اسرار اللغة ، ط ٣ ( القاهرة : المطبعة الفنية الحديثة ، ١٩٦٦ ) ، ومجلة كلية الشريعة في جامعة بغداد ، العدد ٥ ( ١٩٦٨ - ١٩٦٩ ) ، ص ١٤٤ .

ما قيل في وضع النحو والاسباب التي حدت بعلماء العربية الى وضعه ، وعد صنيعهم هذا اول اصلاح للعربية . وانتهى الى ان الاعراب اهم ما يميز الفصحى عن العامية ، وحمل بشدة على القائلين بالازدواج اللغوي ( وجود الفصحى والعامية ) في العصر الجاهلي ، مستدلاً بالقرآن الكريم والادب الجاهلي ، على خطأ ما ذهبو اليه(٨٤) .

ولكنه ـ على اي حال ـ لم يرد عنه ـ كما لم يرد عن قطرب قبله ـ ما يشير ـ من قريب او بعيد ـ الى خلو القرآن الكريم ، وكلام العرب من الحركات الاعرابية ، الا عند الضرورة ، كالتقاء الساكنين على نحو ما ذهب اليه د . انيس متابعا فيه (كاليه)(٨٥) .

وهذا الذي ذهبا اليه مردود ، باجماع علماء اللغة ، القدامى والمحدثين ، من عرب ومستشرقين ، وقد اوردنا من اقوالهم ما فيه الكفاية ، في العربية ، وغيرها من اللغات العالمية القديمة المعربة .

اما ما اتفق فيه قطرب والرصافي وانيس ، من عدم دلالة الحركات على المعاني فمردود بتلازم هذه المعاني وعلاماتها في العربية ، واخواتها الساميات . فقد ذهب نولدكه ، الى ان الحركات الثلاث وجدت في النبطية ، على ما هي عليه في العربية . فالضمة للرفع ، والفتحة للنصب ، والكسرة للخفض(٨٦) . وكذلك شأن الاكدية ، المشتملة على اللغتين : البابلية ، والآشورية . ( فهذا قانون حمورابي ( ١٧٩٢ ق .م.ـ ١٧٥٠ م ) المدون باللغة البابلية القديمة ، يوجد فيه الاعراب كما هو في العربية تماما . فالفاعل مرفوع والمفعول منصوب ، وعلامة الرفع الضمة ، وعلامة النصب الفتحة ، وعلامة الجر الكسرة )(٨٧) .

وقد رد القدماء ـ من علماء العربية ـ على ما زعمه قطرب بقولهم : لو كانت هذه الحركات لمجرد وصل الكلام ، والتخفف من ثقل السكون ، لأمكن ان يجيء الفاعل مرفوعا ومنصوبا ومجرورا(٨٨) . فلما لم يكن هذا ، وثبتَ في العربية واخواتها الساميات ان الضمة للرفع ،والفتحة للنصب ، والكسرة للخفض ، لم يعد هناك مفر من الاقرار بدلالة كل حركة منها على حالتها الاعرابية الخاصة بها(٨٩) . ولكن هذا ـ في الواقع ـ لا يعني اننا بهذه الحركات وحدها ، وفي

---

(٨٤) الرصافي ، **الأدب العربي ومميزات اللغة العربية في ادوارها المختلفة الادبية** ، ص ٩ ـ ١١ ، ١٥ و ٣٦ ـ ٣٧ .

(٨٥) انظر : عبد التواب ، **فصول في فقه العربية** ، ص ٢٣٤ .

(٨٦) انظر : نولدكه ، **اللغات السامية : تخطيط عام** ، ص ٧٢ ـ ٧٣ .

(٨٧) عبد التواب ، **فصول في فقه العربية** ، ص ٣٣٨ ـ ٣٣٩ .

(٨٨) ابو القاسم عبد الرحمن بن اسحق الزجاجي ، **الايضاح في علل النحو** ، تحقيق مازن المبارك ( القاهرة : مطبعة المدني ، ١٩٥٩ ) ، ص ٧١ .

(٨٩) انظر : الجواري ، **نحو التيسير** ، ص ٢٢ و ٣٣ ـ ٣٤ ؛ مصطفى ، **احياء النحو** ، ص ١٠ ؛ عباس حسن ، **اللغة والنحو بين القديم والحديث** ( القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٦ ) ، ص ٢٦١ ـ ٢٦٣ ؛ السامرائي ، **دراسات في اللغة** ، ص ١٩ ـ ١٠١ ، والمخزومي ، **مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو** ، ص ٢٥٠ ـ ٢٥١ .

الحالات جميعها نهتدي الى تلك المعاني ، وانه لا سبيل الى الاهتداء اليها بغيرها ، كما يحتج الرصافي وانيس بالمبنيات والمعربات اعرابا تقديريا ، والجمل المعربة التي سقط منها الاعراب . فما زعم احد من القدامى او المحدثين ، ان هذه الحركات هي كل ما في النحو العربي ، وانها العين التي لا سبيل الى الابصار بغيرها ، وان الجملة العربية لا نظام لها ، ولا قرينة من حال او مقال يمكن ان تدل على معناها ، واننا بحاجة الى هذه الحركات ، حتى في قولنا جاء زيد وذهب عمرو . الواقع ان النحاة انفسهم كانوا قد اسقطوا قيمة هذه الحركات عند امن اللبس ، ومثلهم المشهور في هذا ( خرق الثوب المسمار ) . فأباحوا نصب المفعول وتقديمه ، ورفع الفاعل وتأخيره . وما ذلك الا لأمن اللبس فيه ، وليس امن اللبس هذا الا القرائن ، التي اضوحت الفاعل من المفعول.

لذا فهم يؤمنون بهذه القرائن ، ايمانهم بالحركات واكثر ، ولكن هل يؤمن اللبس في الجمل العربية كلها ، لدرجة تبطل معها دلالة الحركات ؟

الواقع ان العربية وهبت الناطقين بها حرية واسعة ، من تقديم وتأخير ، واستخدام العبارة الواحدة لمعان شتى ، من تعجب ، واستفهام ، وإخبار من غير ان يكلف ابدال الكلمات ، في كل معنى من هذه المعاني ، ومن غير ان تلزمه سلوك سبيل في نظمه لالفاظ الجملة لا يحيد عنها . فله ان يقول :

ما احسن زيد : مخبرا عن نفي الاحسان عنه .
ما احسن زيد : مستفهما عن احسن شيء فيه .
وما أحسن زيداً : متعجبا من حسنه .

فلم تُلزمه اللغة في هذا كله ، اكثر من وضع علامات تبين ما قصده ، بكل منها[٩٠] . ومن غير هذه العلامات لا يكون هناك حد فاصل بين الحرية والفوضى اللغوية ، في مثل هذه العبارة ، ومتى وجد غيرها مما يمكن ان يقوم مقامها تقل - بطبيعة الحال - اهميتها .

وما احتج به الرصافي من استغناء العامة عن الحركات الاعرابية ، من غير ان تختلط عليها المعاني[٩١] ، انما هو حجة عليه ، اكثر منه حجة له . لأن العامة حين استغنت عن الحركات الاعرابية ، استغنت في الوقت ذاته عن حرية التصرف في الجملة العربية ، تلك الحرية التي منحتها الفصحى للناطقين بها . ففي العامية يتعذر ان نعبر عن كل تلك المعاني : الاخبار ، والاستفهام ، والتعجب بعبارة واحدة . كما يتعذر علينا ان نعرف الفاعل من المفعول ، في مثل قولنا : ( ضرب محمد زيد ) ، وانما نلتزم تقديم الفاعل لا على المفعول فحسب ، وانما نقدمه على فعله ، فنقول : محمد ضرب زيد ، ليس غير . اما في الفصحى ، اي مع الاعراب ، فلنا ان نقول : ضرب محمد

(٩٠) العاملي ، مولد اللغة ، ص ٧٥ - ٧٦ .
(٩١) مجلة كلية الشريعة في جامعة بغداد ، العدد ٥ ( ١٩٦٨ - ١٩٦٩ ) ، ص ٣٤٤ .

زيدا ، كما نقول محمد ضرب زيدا ، فلو لم يكن لعلامات الاعراب دلالة على الفاعلية والمفعولية ، لما تمكنت الفصحى مما لم تتمكن منه العامية(٩٢) .

والرصافي الاديب الشاعر ، ادرى من غيره ، بقيمة حرية التصرف هذه في الجمل العربية ، وبخاصة عند الحاجة الى الاسجاع والقوافي ، وما لها من آثار في موسيقى الكلمات .

وهو كذلك أدرى من غيره ، بما يمكن ان يحققه المتكلم مع هذه الحرية من اغراض بلاغية .

وعلى اي حال ، فالاعراب ـ كما اسلفنا ـ ظاهرة لغوية بدت في كثير من اللغات القديمة ، سامية وغير ساميّة ، وتجلت هذه الظاهرة ، في العربية ، اكثر من غيرها من الساميات ، ولازمت الحالات الاعرابية ، ودلت عليها ، في العربية خاصة ، والسامية عامة ، واختفت من اكثر اللغات المعربة ، واحتفظت بها لغات منها العربية والالمانية .

كما تخلفت اللّهجات العربية العامية الحديثة عن هذه الظاهرة فنشأ ما سمي بـ ( الازدواج اللغوي ) ، وجود العامية الى جانب الفصحى .

وقد شهد مطلع هذا العصر دعوات روجت للعامية ، بحجة التخلص من هذا الازدواج ، الذي يعانيه التلميذ العربي ، ولا يعانيه امثاله من الاوروبيين في لغاتهم .

وكون العامية لغة الحياة في الشارع ، والسوق ، والبيت ، وانها مع ذلك سهلة ، لا تحوج الناطق بها الى تعلم وتعليم . وان الفصحى لغة الكتب المصفوفة على الرفوف ، ولا يعرفها الطالب الا بعد دراسة مضنية لامد غير قصير(٩٣) .

ومما يلفت الانظار انطلاقُ هذه الدعوة ـ اول ما انطلقت ـ من حناجر طلائع الاستعمار الاوروبي ، ورعاة مصالحه في البلاد العربية ، الحريصين على تمزيق وحدة هذه الامة ، كيما تصير اشلاء ممزقة ، لا حول لها ولا قوة ، فتسهل هيمنتهم عليها ، وابتزازهم خيراتها ، وانتهابهم ثرواتها ، من هذه الطلائع ( وليم ولكوكس ) ، الذي حشد كل ما استطاع من قوة ، ونزل الى الميادين العامة ، داعيا الى العامية والكتابة بها ، وجعلها اللغة الرسمية . وكتب في ذلك وخطب ، وحشر الاعوان والانصار ، واستأجر من الصحف ما استأجر ، لترويج دعوته هذه ، واليه اشار شاعر العروبة في وادي النيل ـ حافظ ابراهيم ـ بقوله : على لسان الفصحى :

---

(٩٢) انظر : فريحة ، محاضرات في اللهجات واسلوب دراستها ، ص ٥٤ ـ ٥٥ ؛ حسن ، اللغة والنحو بين القديم والحديث ، ص ٢٦١ ـ ٢٦٣ ؛ مصطفى ، احياء النحو ، ص ٤٨ ـ ٥٥ ؛ الجواري ، نحو التيسير ، ص ٣٣ـ ٣٤ ، والمخزومي ، مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو ، ص ٢٥٠ ـ ٢٥١ .

(٩٣) الافغاني ، من حاضر اللغة العربية ، ص ١٦٠ ـ ١٦١ .

ايطربكم من جانب الغرب ناعب          ينادي بوأدي في ربيع حياتي[٩٤] ؟

والحق ان الازدواج اللغوي داء بالغ الاضرار ، وليس من الحكمة في شيء التهاون في معالجته والتخلص من وخيم عواقبه ، ولكن اللغات الاوروبية ليست ـ كما زعم دعاة العامية ـ بمنجى مما ابتليت به العربية من هذا الازواج . فأي لغة غربية ـ كما يقول د . سعيد شهاب الدين ـ لا ازدواج فيها ، بين لغة الازقة ولغة المتعلمين ؟ الالمانية ؟ الفرنسية ؟ الانكليزية ؟ لا شيء من ذلك البتة ، والذي يعرف الانكليزية والفرنسية في قراها ، يدرك فارقا يذكر بالفارق بين فصحانا وعامياتنا ، بل ان الفرنسية الفصحى لم تكن لغة الشعب الفرنسي الدارجة . . . ولا يزال الباريسي حتى اليوم ، لا يفهم لاول وهلة المواطن الفرنسي ، الذي يسكن في ليموزان ، او يتكلم بلهجته المحلية المعروفة بالباتوا[٩٥] .

ونحن لا نريد بهذا ان نقلل من ضرر الازدواج اللغوي ، ولكننا اردنا ان نكشف لابنائنا الدعاوى المضللة ، والعطف المصطنع الزائف ، الذي تقنع به اعداؤ نا ، والا فإن الداء داء خص او عَمَّ ، اقتصر او انتشر . كما ان التخلص من هذا الازدواج لا يكون ـ كما ذهب دعاة العامية ـ بالجنوح الى العامية ، والانتصار لها ، وإزالة الفصحى ، واحلال العامية محلها ، بل العكس هو الصحيح . ولو سلمت النفوس من درن الاطماع غير المشروعة ، لما سُمع صوتٌ ينتصر لعامية على فصحى مثل فصحانا ، اذ لا مقابلة بينهما اصلا ، فالعامية ليست لغة مُوَحَّدَة مُوَحِّدَة ، وانما هي لهجات محلية محكية ، لا يكاد يحصيها عد ، تتغير وتتبدل من قطر الى قطر ، بل من مدينة الى مدينة ومن وقت لآخر[٩٦] .

فعامية العراق غير عامية مصر ، غير عامية الشام ، غير عامية الجزائر ، إلى اخر ما في الوطن العربي من اقطار . وعامية كل قطر من هذه الاقطار تنقسم الى عاميات لا حصر لها ، فعامية الموصل غير عامية بغداد ، غير عامية العمارة . . الخ .

فأية عامية يريدون لها ان تحل محل فصحانا الواحدة الموحدة ؟ واية عامية من هذه العاميات حملت او يمكنها ان تحمل تراثنا العربي الاسلامي ؟

ومن ذا الذي درس هذه العاميات ـ من دعاتها انفسهم ـ وخبرها قراءة وكتابة ، ووقف على خصائصها ، وانتهى الى ما يفضلها به على الفصحى ؟ ومهما يكن من شيء ، فلقد استأثرت الفصحى بالقراءة والكتابة ، والعلم والادب ، واحتكرت التراث العربي الاسلامي ، وكتب لها الخلود عبر كل تلك القرون العديدة ، في حين كانت العامية وما زالت ، وستظل ـ اذا ما ظلت ـ

---

(٩٤) المصدر نفسه ، ص ١٦٤ ، وانظر تفاصيل دعاتها من طلائع الاستعمار الغربي ، في : محمود محمد شاكر ، اباطيل واسمار ، ط ٢ ( القاهرة : مطبعة المدني ، ١٩٧٢ ) ، ص ١٥٣ ـ ١٧١ .

(٩٥) الافغاني ، المصدر نفسه ، ص ١٦٢ .

(٩٦) المصدر نفسه ، ص ١٦٩ .

ابنا منبوذا غير شرعي ، لا ترث ولا تورث ، امسها خير من يومها ، ويومها خير لها من غدها . واذا كانت قد عجزت عن ان تنتصر على الفصحى ، يوم كان العرب في حالة يرثى لها من التأخر الاجتماعي ، والاقتصادي ، والسياسي ، والثقافي ، ايام التجزئة ، والسيطرة الاجنبية ، والجهل المطبق ، والفقر المدقع ، فهي الآن والحمد لله اعجز لتخلص البلدان العربية ـ او اكثرها ـ من الاستعمار والتخلف ، وارتقائها في جميع ميادين الحياة ، وتبلور وعيها القومي ، وانتشار التعليم ، وذيوع الصحافة ، وتعدد الاذاعات وتنوع المطابع .

ونحن في الدعوة الى الالتزام بالفصحى ، لا نعني الالتزام بكل ما ذهب اليه علماؤنا القدامى ، في نحوها ، وصرفها ، وبلاغتها ، فكم من باب فتحوه ، ما كان له ان يفتح ، كالاشتغال ، والتنازع في العمل ، واسماء الافعال ، وحذف جواب الشرط وجوبا ، وغيرها[٩٧] . وكم من فرع ذكروه ، ما كان له ان يذكر ، لولا الرغبة في التعالم ، والولوع بالتفريعات ، والاكثار منها ، من ذلك ما ذهبوا اليه من ذكر فروع البديع ، التي تجاوزوا بها حد المعقول ، وتفريعهم ، لهذه الفروع ، الى فروع الفروع ، كالذي فعلوه في انواع الجناس[٩٨] .

وهكذا سلكوا في تفريعاتهم ، حتى تعذر على عالم اللغة قبل متعلمها الالمام بكل تلك القواعد ، والاحاطة بكل تلك الفروع ، وفروع الفروع ، فعاد غير قليل من جهودهم بكثير من الضرر على اللغة واهلها ، من حيث ارادوا النفع لها ، وللناطقين بها .

وقد بذلت ـ قديما وحديثا ـ جهود غير قليلة لتيسير قواعد الفصحى وتقريبها من اذهان متعلميها ، ولا زالت العربية تنتظر جهودا اكبر واكثر ، وتتناول تلك القواعد بالتشذيب والصقل والتهذيب ، وتعرضها بأساليب تيسر فهمها ، وترغب فيه ، وما ذلك على ابناء هذه اللغة بعزيز .

## ٦ ـ الكتابة العربية

الكتابة العربية قديمة . وقد سبق لنولدكه ان اكد عروبة النبط ، مستدلا بما عثر عليه من كتاباتهم ، المشابهة للعربية الكلاسيكية ( الفصحى ) في حروفها وحركاتها ، فهي على هذا وجدت قبل ميلاد المسيح بقرن او يزيد[٩٩]. وان ركنّا الى القرآن الكريم ، واعرضنا عن كل ما سبقه من كتابات عربية ، يكون عمر هذه الكتابة ما يقرب من اربعة عشر قرنا . ومنذ ذلك العهد ، والتراث العربي الاسلامي مكتوب بها ، ولم يَشْكُ كاتب او قارىء منها ، الى بداية عصرنا هذا . فما ان تمت السيطرة الاوروبية الحديثة ، على البلاد العربية والاسلامية ، الا وتعالت الاصوات ، من ابناء العربية انفسهم ، شاكية صعوبة القراءة والكتابة ، بها ، متضجرة من حروفها ، وحركاتها ،

---

(٩٧) الجواري ، نحو التيسير، ص ٤١ ، ٥٤ و ٥٧ .

(٩٨) انظر ما ذكروه منها ، في : بكر بن علي بن حجة الحموي، خزانة الادب وغاية الارب ( بيروت : دار القاموس الحديث للطباعة والنشر ، ١٣٠٤هـ ) . ( مصورة بالاوفسيت )

(٩٩) نولدكه ، اللغات السامية : تخطيط عام ، ص ٧٢ ـ ٧٣ .

ونقاطها ، حتى لكأن الكتابة العربية بنت هذه الفترة الزمنية ، ولم يسبق ان كَتبتْ بها اجيال واجيال ، عبر قرون وقرون . وكأن الذين كتبوا بها لم يعرفوا غيرها ، وابناء هذا العصر ، هم وحدهم الذين تهيأ لهم الاطلاع ، فاحاطوا علما بما لم يحط به اسلافهم ، وتنبه هؤلاء الى ما غفل عنه اولئك . وجهلوا ـ او تجاهلوا ـ ان علماء العربية كانوا قد عرفوا لغات ولغات . وخبروها قراءة وكتابة ، وترجموا عنها خيرما في تراثها . وانهم كانوا اقدر منا على استبدال لغتهم بغيرها ، لو انهم رأوا في هذا الاستبدال نفعا لابناء امتهم ، ونحن لا نريد بهذا ان يركن الخلف الى كل ما ركن اليه السلف ، ونكون كالذين قال فيهم القرآن الكريم : ﴿ ... انا وجدنا اباءنا على أمةٍ وإنا على آثارهم مقتدون ﴾(١٠٠) فلأولئك جهودهم واجتهاداتهم ،ولنا جهودنا واجتهاداتنا ، وسكوت كل تلك الاجيال عما تشكّى منه هؤلاء مع انهم سبقونا في معاناتها . فلو كانت الصعوبة وحدها هي الدافع الاول والاخير لكل هذه الصيحات ، لصدر مثلها او قريباً منها عن تلك الاجيال التي سبقتنا في معاناتها .

الفارق الوحيد بيننا وبينهم ، انهم كانوا قدوة لغيرهم ، واننا امعّات لغيرنا . فلقد بدأت الشكوى ـ اول ما بدأت ـ من طلائع الاستعمار الغربي ، الذين املت عليهم مصالحهم ، تعلم لغات الاقطار التي ارادوا استعمارها ، او استعمروها فعلا ، وبخاصة الانكليز والفرنسيين ، كي يتيسر تعلم العربية لهم .

فلقد تولى المستشرق الانكليزي (مرغليوث) سنة ١٩١١ اجراء مقابلة بين العربية والانكليزية ، انتهى فيها الى تفضيل القراءة والكتابة بالانكليزية ، عليها بالعربية(١٠١) . واوفدته حكومته للقيام بالدعوة الى الكتابة بالحروف اللاتينية ، فمر بالشام والقدس ، في طريقه الى ايران ، لاقناع الشاه بهذه الدعوة(١٠٢) .

كما تولت جريدة «لاسيري» الصادرة في بيروت سنة ١٩٢٢ الدعوة الى الكتابة بهذه الحروف(١٠٣) . وترددت عن وعي ـ او غير وعي ـ اصداء هذه الاصوات على ألسنة العرب ، في ارجاء مختلفة في الوطن العربي ، حتى انها اقتحمت معاقل العربية ( مجامعها اللغوية ) ، فشغل مجمع اللغة العربية في القاهرة نفسه بهذه الدعوة ثلاث سنوات(١٠٤) كما تولاها المجمع العلمي العربي في دمشق بالبحث والدراسة ، وانتهى المجمعان الى رفضها(١٠٥) .

---

(١٠٠) القرآن الكريم ، سورة الزخرف : الآية ٢٣ .
(١٠١) الافغاني ، من حاضر اللغة العربية ، ص ١٨٢ .
(١٠٢) المصدر نفسه ، ص ١٨٤ .
(١٠٣) المصدر نفسه ، ص ١٧٨ .
(١٠٤) المصدر نفسه ، ص ١٨١ .
(١٠٥) المصدر نفسه ، ص ١٧٩ .

ومنشأ هذه الصعوبة ، أن الحركات في الكتابة العربية تستقل عن الحروف ، وتستقر فوقها ، او تحتها ، وقد تترك فلا ترسم ، وفي هذه الحالة يضطر القارىء الى فهم الجملة ، كي يتسنى له قراءة الفاظها قراءة سليمة ولهذا قيل إن القارىء يفهم ليقرأ ، لا يقرأ ليفهم ، كما ينبغي ان تكون عليه القراءة والكتابة .

اما الكتابة بالحروف اللاتينية ، فقد رسمت حركة الحرف فيها عقبه مباشرة ، في السطر الذي يرسم فيه الحرف ، لا فوقه ، ولا تحته ، فصارت الحركات فيها كبقية احرف الكلمة ، لا يسع الكاتب بها ان يستغني عنها بحال ، ولهذا فالقارىء لها ـ كما ذهب الداعون اليها ـ انما يقرأ ليفهم(١٠٦) غير ان د . سعيد شهاب الدين ذهب الى توهين هذا الزعم ، وتفنيده ، قائلاً :

« اما حجتهم : ( ان العربية تُفهَم لتُقرأ ) ، فجهل ، اذ أغلب لغات العالم كذلك ، وهذا غاليشيه عالم اللغة الفرنسي يقول : « ان اللغة الفرنسية يجب ان تفهم حتى تقرأ ، لا ان تقرأ لتفهم » تماما كالعربية ، ويصدق هذا القول اكثر ما يصدق على اللغة الانكليزية ، لانه لا يمكننا ان نلفظ معظم الكلمات لفظا صحيحا ، الا اذا فهمنا معناها »(١٠٧) .

ويؤيد د . سعيد شهاب الدين في الذي ذهب اليه المستشرق الفنلندي يوحنا اهنتين كرسكو فيقول : « . . . انه لا مناص لك ـ اذا رغبت في تعلمها ( الانكليزية ) ـ من ان تعرف لفظ كل كلمة فيها ، وكتابتها على حدة ، والا فلست بقارئها ما حييت ، واذا انت عرفت جيدا جميع الحروف الانكليزية فلا تتوهمن انك قادر على قراءة الكلمات المركبة منها ، أفلا تعادل يا ترى ، صعوبة معرفة الكلمات الانكليزية ـ قراءة وكتابة . . صعوبة لفظ الحركات العربية ، التي تعرف باصول قياسية عامة؟؟ »(١٠٨) .

والحق ان الكتابة العربية ـ غير المضبوطة بالشكل ـ تحوج القارىء الى فهم ، كيما تسلم قراءته ، من اللحن والخطأ ، ولكنها حين تضبط بالشكل ضبطا تاما ، تصبح قراءتها في اليسر ، والسهولة ، والسرعة ، كالكتابة اللاتينية ، سواء بسواء .

وترك الشكل في الكتابة العربية ليس اصلا من اصولها ، ولا ضرورة محتومة فيها . بل ربما كان العكس هو الصحيح ، كما ينطق بذلك الخط العربي(١٠٩)

وقد لا نجانب الصواب اذا قلنا : ان الشكل العربي افضل من الشكل اللاتيني ، اذ الكاتب العربي حر ، في ان يضبط الحروف كلها ، او يقتصر على بعضها دون بعضها الاخر ، او يعرض عن الضبط اعراضاً تاماً ، « عندما يأمن اللبس ، ويطمئن الى السداد ، في قراءة ما يكتب ، قراءة لا عناء فيها ، ولا اخلال ، وبخاصة حين يكتب لمن اتسعت خبرته ، ونمت في فروع اللغة معارفه ، وبلغ الحد الذي يصبح الضبط

(١٠٦) المصدر نفسه ، ص ١٨٢ .
(١٠٧) المصدر نفسه ، ص ١٨٨ .
(١٠٨) المصدر نفسه ، ص ١٨٢ .
(١٠٩) حسن ، **اللغة والنحو بين القديم والحديث**، ص ٢٧١ .

فيه ضرباً من العبث . . . عندما يكون ترك الضبط أليق ، ويعد نوعاً من الاختزال ، فيه من ادخار الجهد ، والورق ، ومعدات الكتابة ، ما لا يخفى ، وهذه مزية ليست للضبط اللاتيني ، الذي لا انفكاك عنه في اية حالة . ولا خلاص من التزامه في كل المناسبات»(١١٠) .

فكتابة العربية بالحروف اللاتينية ، تحول كل كلمة فيها الى ضعف ما هي عليه ، وفي كلماتنا كلمات خماسية وسداسية ، اذا ما كتبت باثني عشر حرفا ـ بحسب الطريقة اللاتينية ـ لا يكاد النظر يتناولها(١١١)، اضف الى ذلك ، ان الحروف العربية اكثرها موصولة ببعضها ، مما يجعل الكلمة المكتوبة بها كتلة واحدة ، يشملها النظر بالحال ، كأنها كتابة اختزال(١١٢)، وحروف اللاتينية مفككة بعضها عن بعض ، كأنها مسمارية(١١٣) ولا يفرق بين كلمة واخرى ، الا بما بينهما من مسافة ، اكبر مما بين حروف الكلمة من مسافات .

والكتابة اللاتينية تبدأ من الشمال الى اليمين ، بينما تبدأ العربية من اليمين الى الشمال ، وفي هذا يقول المستشرق الفنلندي كرسكو ما نصه « واما تعلم الحروف العربية وكتابتها ، فأسهل من تعلم الحروف اللاتينية وكتابتها . لاننا لو نظرنا ـ بلا تحزب ـ لرأينا ، ان وجهة الكتابة من اليمين الى الشمال تتحرك بها الاصابع على هذا المنوال وهي الاصح . لانها لا تتعب اليد ، مثل وجهة الكتابة من الشمال الى اليمين ، التي تتحرك بها الاصابع على هذه الطريقة وما على المرتاب بصحة ما نقول ، الا ان يعمد الى الاختبار الذاتي ، فتتجلى له الحقيقة الراهنة ، فمن اشتكى من صعوبة الحروف العربية ، برهن على عدم رغبته في ان يعنى بتعلمها ليس الا ، اما الذي يشرع فيه بنشاط ، فيشعر في اقرب الاوقات ، انها جذابة جدا ، ويتحقق ان الكلمة العربية تتصور على القرطاس بسرعة مدهشة ، بعكس كلمات اللغات الاوروبية »(١١٤) . ولو سلمنا جدلا بصحة ما ذهبوا اليه ـ وان لم يكن ما ذهبوا اليه صحيحا ـ واستبدلنا بالحروف العربية حروفا لاتينية ، فهل تعبر هذه الحروف عن اصوات العربية كلها ، من غير ما مسخ لها ؟ .

وهل قابل هؤلاء الدعاة بين الاصوات في اللغتين ؟ فاذا لم يغفلوا هذه المقابلة فما الذي يقابل الضاد والغين والحاء مثلا ؟ وبعد هذا وقبله ما مصير تراثنا العربي الاسلامي ؟

انترك هذا التراث ؟ ام نتولى ترجمته بالحروف والكتابة الجديدتين ؟ هذا التراث الضخم الذي بذلت ولا تزال تبذل جهود جبارة ، من ابناء العربية وغير العربية ، لمجرد نشره بلغته وكتابته ، فلم توفق الا في نشر قطرات من فيض بحره . هذا مع صدق المزاعم ، فكيف الاخذ بها مع بطلانها ، ووضوح زيفها؟ ولهذا ذهب بعضهم الى الابقاء على الحرف العربي ، والاخذ بطريقة الكتابة اللاتينية ، وذلك بتفريق الحروف وادخال الشكل في صلب الكتابة ، بعد تحويل

(١١٠) المصدر نفسه ، ص ٢٧١ ـ ٢٧٢ .
(١١١) الافغاني ، من حاضر اللغة العربية ، ص ١٨٨ .
(١١٢) المصدر نفسه ، ص ١٨٠ ـ ١٨٨ .
(١١٣) المصدر نفسه ، ص ١٨٠ .
(١١٤) المصدر نفسه ، ص ١٨١ .

الفتحة الى الف ، والضمة الى واو ، والكسرة الى ياء ، والتشديد بتكرير الحرف المشدد . وفاتهم ان طريقتهم هذه ، تنتهي الى خلط الممدود بالمشدد، في نحو اطيعونا (أط ي ي ع وو ن أ أ)اذ الياء الاولى ترمز لكسرة الطاء ، والثانية ياء المد ، ومثل الياءين الواوان ، والالفان ، وتكرير الحرف بحسب طريقتهم انما يرمز للتضعيف او التشديد ، فباءت كل هذه المحاولات بالفشل(١١٥) وآلت الى انه ليس بالامكان ابدع مما كان .

واخيرا فليست هذه كل ما للعربية من سمات وخصائص ، فلها خصائص اخرى لا تقل ـ كما وكيفاً ـ عما ذكر في هذا البحث ، كالاشتقاق بانواعه ، والنحت ، والوضع ، والتعريب ، والقلب ، والابدال ، والترادف ، والاشتراك ، والتضاد ، واطراد للصيغ كاسم الفاعل ، واسم المفعول ، والصفة المشبهة ، واسم المرة ، والالة ، والهيئة ، والزمان ، والمكان ، والتثنية ، وجمع المذكر السالم ، وجمع المؤنث السالم .

كما لها ميزات صوتية ، تتجلى في سعة المدرج الصوتي ـ كما اصطلح علماء الاصوات اللغوية ـ وبلوغها الغاية في الافادة من هذا المدرج ، بخلاف كثير من اللغات الاخرى . واداء الحرف الواحد فيها صوتا ، قد لا تؤديه غيرها من اللغات بأقل من حرفين . ومن حروف العربية ما ليس له ما يقابله في اللغات الاخرى ، ولا يمكن ان تؤديه حروفها بحال من الاحوال .

ومن هذا يتضح ان عنونة البحث بخصائص العربية لم يرد بها اكثر من اطلاق الكل ، وارادة الجزء .

---

(١١٥) حسن ، اللغة والنحو بين القديم والحديث، ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥ .

# تعقيب ٢
# الخط العربيّ والمطلب اللغويّ

يوسف ذنون

تشكل الكتابة على الصعيد العالمي ظاهرة لغوية ، وظيفتها التسجيل الرمزي للاصوات اللغوية . والكتابة العربية شأنها شأن بقية لغات العالم من هذه الناحية ، لكنها تميزت عنها باتخاذها الحرف مع الزخرفة الوسيلة الرئيسية للتعبير الفني ، انفردت بها الامة العربية بخصوصية تابعتها فيها الشعوب الاسلامية . ويعود ذلك الى قدسية الحرف الذي اكتسب قدسيته من كتاب الله العظيم ، فصار الحرف وسيلة وهدفا في التعبير انصرف اليه اهله بكليتهم ، وشغلهم عما سواه من وسائل التعبير الفني الأخرى ، فتكوّن من ذلك موروث حضاريّ كبير وصرحٌ فني باذخ برزت فيه جوانب متعددة لغوية وفنية وتاريخية واثرية وشعبية وروحية وغيرها . مع ذلك يبقى الجانب اللغوي مطلبا اساسيا وله السبق على ما عداه اولا واخرا حيث تبدأ قصة الكتابة معه قبل الاسلام بقرون .

## ١ ـ اصل الكتابة ونشأتها

لا زال الغموض يحيط بظهور الكتابة العربية ونشأتها ، وقد تعددت الآراء في ذلك قديماً وحديثاً ، وتشكل المصادر العربية القديمة النبع الثرّ في هذا المجال ، حيث كُتبت لها الريادة والتفرد في التاريخ ، في البحث عن كيفية نشوء الكتابات عامة والكتابة العربية بصورة خاصة . فطرحت عدة اراء في اصل الكتابة العربية ، تتراوح بين ان تكون « توقيفاً » من عند الله أنزلها على الانبياء ، او اصطلاحا اخترعه البشر « توفيقا » . واختلفت الروايات في ذكر الانبياء الذين نزلت عليهم ، فقد ذكر في هذا السياق الانبياء آدم وهود وادريس واسماعيل عليهم السلام . ولا يختلف الامر بالنسبة للاختراع فقد وردت عدة روايات نسبت وضع الكتابة الى افراد او جماعات ممن لهم مراكز قيادية في اتباعهم او مراكز ثقافية في محيطهم . فتذكر رواية ملوك مدين واخرى اولاد النبي اسماعيل ( ع ) وثالثة تذكر قبيلة أياد ، وغيرها تذكر عبد ضخم بن ارم بن نوح واولاده واتباعه . وعلى صعيد الاشخاص ذكر حصير بن سبأ ونزار بن معد بن عدنان ورجل مجهول

من بني النضر بن كنانة او بني مخلد بن النضر[1] ، يضاف الى ذلك الروايات التي لا تشير الى مخترع معين ، وانما تذكر ان الكتابة العربية اشتقاق من المسند وهو الخط العربي الجنوبي ، او متطورة عنه ونتج عن ذلك خط « الجزم » الذي نسب الى الحيرة في بعض الروايات[2].

وتبقى رواية كثرَ ترددها تذكر ان اول من كتب بالعربية ثلاثة رجال من بولان وهي قبيلة من طي سكنوا الانبار ، وانهم اجتمعوا فوضعوا الحروف وهم : مرامر بن مرة ، واسلم بن سدرة ، وعامر بن جدرة . وضع الاول الصور والثاني فصل ووصل ، ووضع عامر الاعجام . وقد اخذ اهل الحيرة الكتابة عنهم . وقد اختلف في طريقة كتابة اسمائهم وطريقة الوضع ، هل هي مبتكرة او على قياس السريانية ، كما حددت بعض الروايات مكانهم « بقّة » قرب الحيرة . وتستمر الروايات فتذكر ان اهل الانبار تعلموا منهم الكتابة ومن هؤلاء تعلم اهل الحيرة وسائر عرب العراق ، ثم انتقلت الى الجوف ( شمال شرقي نجد ) ومن هناك الى الطائف وبعدها الى مكة والمدينة لتعم الحجاز[3] .

ان هذه الروايات قد تعرضت للنقد قديما وحديثا ويمكن اعتبار ما كتبه ابن خلدون ، اجابة غير مباشرة على بطلان الرأي التوقيفي ، حيث وضع الكتابة في عداد الصنائع الانسانية ، وهي مرتبطة بالمستوى الحضاري للبشر[4] .

وتباينت مواقف المحدثين من متابعة للمستشرقين بين الرفض والشك واعتبار هذه الروايات

---

(1) جواد علي ، **تاريخ العرب قبل الاسلام** ، ٨ ج ( بغداد : المجمع العلمي العراقي ، ١٩٥٠ - ١٩٥٧ ) ، ج ٧ ، ص ٧ - ٥٧ ، ويوسف ذنون ، « نشأة الخط العربي في المصادر العربية ، » **النبراس** ، العدد ٧ ( ١٩٧٣ ) ، ص ٥٢ .

(2) محمد بن الحسن الازدي بن دريد ، **كتاب جمهرة اللغة** ، ٤ ج (حيدر آباد الدكن : مجلس دائرة المعارف العثمانية ، ١٣٤٤هـ - ١٣٥١هـ ) ، ج ٣ ، ص ٢ - ٩ ؛ ابو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ، **مقدمة ابن خلدون** ( القاهرة : دار الشعب ، [د.ت.]) ، ص ٤١٨ ؛ حفني ناصيف ، **تاريخ الادب او حياة اللغة العربية** ، ط ٢ ( القاهرة: مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٥٨ ) ، ص ٤٨ ؛ احمد حسين شرف الدين ، **اللغة العربية في عصور ما قبل الاسلام** ( القاهرة ، ١٩٧٥ ) ، ص ٣٢ ، وفوزي سالم عفيفي ، **نشأة وتطور الكتابة الخطية العربية** ( القاهرة : ١٩٨٠ ) ، ص ٥١ .

(3) ابو القاسم عبدالله بن عبد العزيز البغدادي ، « كتاب الكتاب وصفة الدواة والقلم وتصريفها ، » تحقيق هلال ناجي ، **المورد** ، السنة ٢ ، العدد ٢ ( ١٩٧٣ )، ص ٤٣ ؛ عبدالله بن مسلم الدينوري بن قتيبة ، **عيون الاخبار** ( الطبعة المصورة، ١٩٦٣ ) ، ص ١ - ٤٣ ؛ ابو العباس احمد بن يحيى البلاذري ، **فتوح البلدان** ، تحقيق صلاح الدين المنجد ( القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٧ ) ، ص ٥٧٩ ؛ ابو بكر عبدالله بن ابي داود السجستاني، **كتاب المصاحف** ( مصر : نشر آرثر جفري ، ١٩٣٦ ) ، ص ٣٠ ، وعبدالله بن محمد بن السيد البطليوسي ، **الاقتضاب في شرح ادب الكتاب** ، تحقيق عبدالله البستاني ( بيروت : المطبعة الادبية ، ١٩٠١ ) ، ص ٨٨ . وقد وردت هذه الرواية في معظم المصادر التي تحدثت عن اصل الخط ، ذكرنا بعضها على سبيل المثال فقط .

(4) ابن خلدون ، **مقدمة ابن خلدون** ، ص ٤١٨ .

اقرب الى الخرافة[٥] منها الى التوسط او الحياد او التحفظ او التريث في ابداء رأي في هذا الموضوع[٦] .

ان هذه الروايات على اختلافها لها اهمية كبيرة في التعريف بوضع الكتابات العربية قبل الاسلام بالرغم من ظهور بعض التناقض فيها ، وغلبة صفة المعرفة المحدودة على رواتها او البعد عن الدقة في نقل مضامينها. فهي تبرز ان « المسند » كان شائعا في جنوب الجزيرة العربية ، وقد انتقل الى شمالها وهذا ما حدث فعلا في الكتابات الثمودية واللحيانية والصفوية بالرغم من وجود الآرامية في الشمال والتي هي الاخرى وضعت كتابات على قياسها مثل النبطية والحضرية والتدمرية ، كما ان ذلك لم يمنع من وضع كتابة جديدة اقتطعت من هذه الكتابات اطلق عليها « الجزم » وهذا ما نرجحه كما سيأتي. وقد تم ذلك في المراكز الحضرية في العراق كردة فعل تجاه الاحباطات التي تتالت على العرب في المنطقة منذ القرن الثاني الميلادي بسقوط البتراء سنة ١٠٦ م[٧] ، وسقوط الحضر سنة ٢٤١ م[٨]، وبعدها سقوط تدمر سنة ٢٧٣ م ، وهيمنة الروم على بلاد الشام والفرس الساسانيين على العراق وظهور المناذرة والغساسنة وكندة وامارات القبائل العربية في حمص وجبل لبنان وجنوب دمشق وحوران[٩] .

فإذا امعنّا النظر في الخريطة الكتابية للعرب القاطنين في شمال الجزيرة العربية في القرن الثاني او الثالث الميلادي ، فإننا نرى التدمرية والحضرية والثمودية واللحيانية والصفوية كانت قائمة ولكن في طريقها الى الافول ومعها النبطية[١٠] ، مما دعا المتحضرين من العرب وخاصة في الانبار والحيرة وهم في الاصل بقايا الحضريين ، ذوي الكيان المستقل الذين قصدوا هذه الجهات بعد تدمير مدينتهم[١١] . وكان قيام دولة اللخميين بوضعها شبه المستقل وصلتها الوثقى بالجزيرة العربية عاملا مشجعا في ذلك مما دعا الى التفكير في الاستقلال الحضاري. والكتابة اولى هذه الخطوات خاصة وان كتاباتهم المذكورة سابقا ذات الاصل الآرامي لا يمكنها ان تستوعب اللغة

---

(٥) ريجيس بلاشير ، تاريخ الادب العربي ، ترجمة ابراهيم الكيلاني ( بيروت : ١٩٥٦ ) ، ص ٧٠ ؛ ابراهيم جمعة ، دراسة في تطور الكتابات الكوفية على الاحجار في مصر في القرون الخمسة الاولى للهجرة ، مع دراسة مقارنة لهذه الكتابات في بقاع اخرى من العالم الاسلامي ( القاهرة : دار الفكر العربي، ١٩٦٩ ) ، ص ١٧ ، وانيس فريحة ، الخط العربي : نشأته ، مشكلته ( بيروت : ١٩٦١ ) ، ص ٢٧ .

(٦) ناصيف ، تاريخ الادب او حياة اللغة العربية ، ص ٥٠ ؛ علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج ٧ ، ص ٦١ ، وناصر الدين الاسد ، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ط ٢ ( القاهرة: دار المعارف ، ١٩٦٢ ) ، ص ٢٤ .

(٧) علي ، المصدر نفسه ، ج ٧ ، ص ٢٨٢ .

(٨) فؤاد سفر ومحمد علي مصطفى ، الحضر مدينة الشمس ( بغداد : وزارة الاعلام ، ١٩٧٤ ) ، ص ٣٤ .

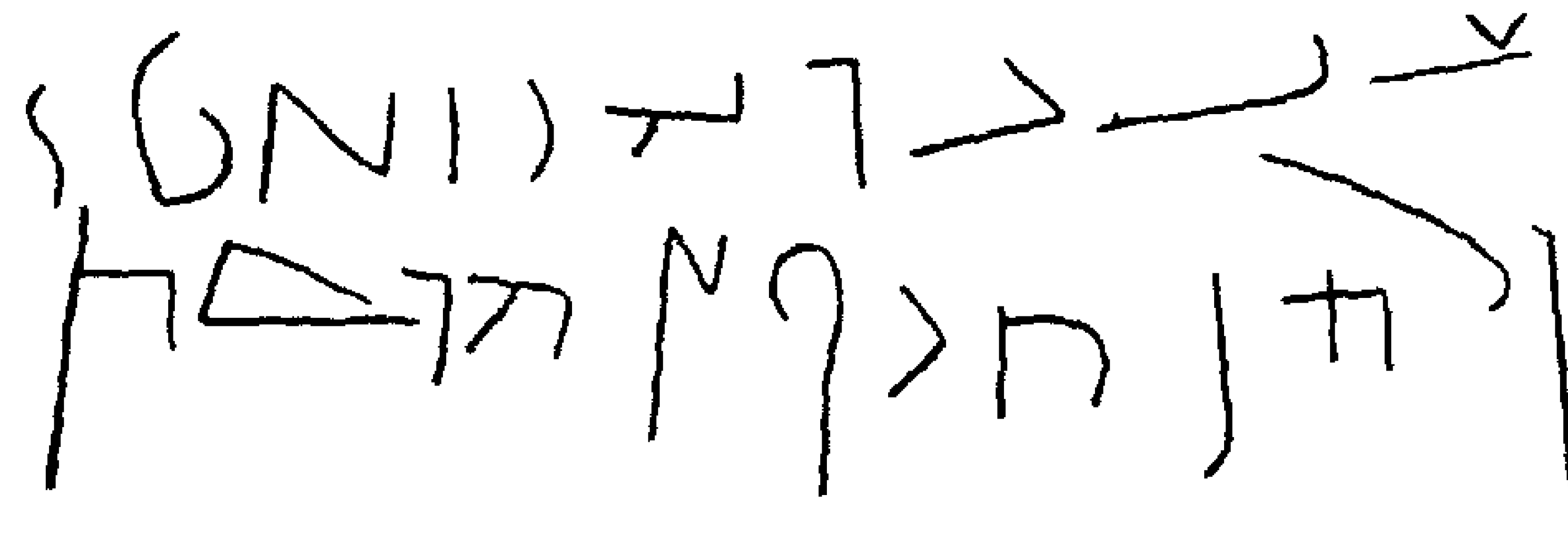
(٩) عدنان البني ، تدمر والتدمريون في ضوء المكتشفات الاثرية ( دمشق: ١٩٧٨ ) ، ص ٦٨ ، ٨٦ و ٩١-٩٢ .

(١٠) أ . ولفنسون ، تاريخ اللغات السامية ( مصر : ١٩٢٩ ) ، ص ١٧٨ و ١٨٣ .

(١١) رينيه ديسو ، العرب في سوريا قبل الاسلام ، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ، مراجعة محمد مصطفى زيادة ( القاهرة : لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٩ ) ، ص ٣٧ .

العربية التي تتميز بحروفها الروادف التي وجدت في الكتابة العربية الجنوبية ؛ الا ان ثقافتهم في هذا الجانب والمبنية على الانماط الشمالية في الكتابة هيأت لايجاد كتابة خاصة بهم تشكل الخطوة الاولى في الاستقلال السياسي . فكانت الكتابة العربية رمزا للشخصية العربية التي نرى فيها آثار الكتابات الحضرية واشكالا اخرى جديدة ، وهذا ما تبرزه روايات الاختراع - المارة الذكر - وترجحه بقايا النقوش القليلة المعروفة . وفي اكتشاف الكتابة الحضرية منعطف جديد في تاريخ الكتابة ، وفيها نقض للنظرية النبطية في اصل الكتابة العربية التي نادى بها المستشرقون والتي وصلت حد الاستقرار عند بعض الباحثين والترجيح عند البعض الآخر[١٢]. فقد وجدت في الكتابة الحضرية حروف كانت سائدة على جدران الحضر[١٣] في القرن الاول او الثاني الميلادي ونراها في الكتابة العربية على الحجر في القرن الاول الهجري ( السابع الميلادي ) بأشكالها الكاملة التي لم يطرأ عليها اي تغيير ، ( انظر الرسمين ١ ، ٢ ) .

**شكل رقم (١)**
**حروف الابجدية الحضريّة**



في النص الكتابي رقم ١٤ ، وجدت منقوشة على الجدار الشرقي لمعبد بعلشمون ، تعود الى حوالى القرن الثاني الميلادي ، وهي اقدم حروف ساميّة مرتّبة على نسق ( أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت ) .

المصدر : نقلاً عن : فؤاد سفر ، « كتابات الحضر ، » سومر : العدد ٢ (١٩٥١) ، ص ١٧٠ .

---

(١٢) صلاح الدين المنجد ، دراسات في تاريخ الخط العربي منذ بدايته الى نهاية العصر الاموي ( بيروت : دار الكتاب الجديد ، ١٩٧٢ ) ، ص ١٣ ؛ سهيلة الجبوري ، **اصل الخط العربي وتطوره حتى نهاية العصر الاموي** ( بغداد : ١٩٧٧ ) ، ص ٥١ ، و

David Diringer, *Writing* (London: 1965), p. 140.

(١٣) الحضر عاصمة لدولة عربية ، تقع بين دجلة والفرات في بادية الجزيرة على بعد ١١٠ كلم جنوبي مدينة الموصل ، ينحصر تاريخ المدينة بين القرن الثاني (ق.م.) والثالث الميلادي ، كانت مستوطنة لعرب البادية وصارت مركزاً تجارياً ودينياً وعسكرياً هاماً ، سقطت على يد الساسانيين عام ٢٤١ م . انظر : سفر ومصطفى ، **الحضر مدينة الشمس** .

## شكل رقم (٢)
## حروف حضرية وعربية ونبطية تظهر العلاقة
## بين الكتابات الثلاث

| الابجدية العربية الحالية | الابجدية الحضرية(أ) | ابجدية عربية قديمة(ب) | بعض صور الابجدية النبطية المتأخرة(ج) |
|---|---|---|---|
| ا | | | |
| ب | | | |
| ج | | | |
| د | | | |
| هـ | | | |
| و | | | |
| ز | | | |
| ح | | | |
| ط | | | |
| ي | | | |
| ك | | | |
| ل | | | |
| م | | | |
| ن | | | |
| س | | | |
| ع | | | |
| ف | | | |
| ص | | | |
| ق | | | |
| ر | | | |
| ش | | | |
| ت | | | |

(أ) من النص الكتابي المرقم (٣٥) والمؤرخ سنة ٢٣٨م . نقلاً عن : فؤاد سفر ومحمد علي مصطفى ، الحضر مدينة الشمس ( بغداد : وزارة الاعلام ، ١٩٧٤ ) ، ص ٤١٧ .

(ب) من نقوش متفرقة من القرن الاول الهجري .

(ج) بعض صور الابجدية النبطية المتأخرة . نقلاً عن : أ . ولفنسون ، تاريخ اللغات السامية ( مصر : ١٩٢٩ ) ، ص ٢٠٠ .

لذلك نرجح ان الكتابة العربية قد اخترعها من له إلمام بالكتابات السائدة في المنطقة ، ولعله من اصل حضري سواء اكان فردا او جماعة وفي رواية الطائيين الثلاثة مرامر وأسلم وعامر ما يوحي بذلك ، وما اتخذ دليلا على وجود السجع في اسماء آبائهم « مرة وسدرة وجدرة » على انه محض خيال ، يمكن ان يكون دليلا على تأكيد هذه الرواية باعتبار هذه الاسماء هي ألقاب آرامية تفيد المكانة الاجتماعية المميزة والثقافة الكتابية العالية(١٤) .

وعلى هذا تكون النقوش المعروفة وخاصة نقش أم الجمال الاول والنمارة هي كتابات عربية غلبت عليها التأثيرات النبطية لان كاتبيها من الانباط ، فظهرت كأنها كتابة جديدة فأطلق عليها الباحثون النبطية المتأخرة او السينائية الجديدة(١٥)، التي اعتبرت نقلة التطور من النبطية الى العربية . واتضحت في النقوش التالية كنقش زبد وحران اللجا وأم الجمال الثاني وجبل اسيس التي ظهر فيها عامل جديد ، اضافة الى ما تقدم هو تنفيذ الكتابة بخطوط هندسية وهي ميزة كتابة « المسند » وهذا ما يفسر الشق الثاني من الرواية القائلة بأن الحزم من المسند .

من كل ما تقدم يتضح ان الكتابة العربية نشـأت في شمال الجزيـرة العـربية بتـأثير من الكتابات السابقة في المنطقة حضرية او نبطية او مسندا وكتابات اخرى لها حضور بشكل آخر في الكتابة الجديدة التي تركزت في الانبار والحيرة ثم انتقلت الى الحجاز من نقاط الاتصال الحضرية المعروفة كدومة الجندل في نجد ومدين في شمال الحجاز الى الطائف ومكة والمدينة ، وحينما ظهر الاسلام وجد كتابة تستوعب كتاب الله العظيم وسفر العربية الاكبر .

## ٢ ـ الكتابة العربية في فجر الاسلام

لم تسعفنا الوثائق بكتابات من عصر الرسول (ص) يمكن الركون اليها ، وما وصلنا من كتبه الى الملوك والامراء تحتاج الى مزيد من الدراسة لايضاح حقيقتها اذ لا يعقل ان تكون بهذه الرداءة من الخط والنقص الكتابي والاخطاء الاملائية ، ووجود الصورة المتطورة لبعض الحروف التي تعود الى فترات لاحقة ، يضاف اليها ما نسب الى ذلك العهد من كتابات جبل سلع التي تعود الى فترات لاحق ايضاً ، يتأكد ذلك بمجرد قراءة نصوصها الرئيسة بشكل صحيح(١٦) .

---

(١٤) انستاس ماري الكرملي ( الاب ) ، « الكتابة في العراق ، » **مجلة لغة العرب** ، العدد ٢ ( نيسان / ابريل ١٩١٣ ) ، ص ٤٢٨ .

(١٥) ولفنسون ، **تاريخ اللغات السامية** ، ص ٢٠٢ ، و Diringer, *Writing*, p. 141.

(١٦) الكتابة في النص الرئيسي واضحة وتقرأ « امسى واصبح عمر بن بكريتوب الى الله من كل ما يكره »وهذا يكفي لنفي ان يكون كاتبها عمر بن الخطاب (ر) كما ذكر د. حميد الله فيما كتبه عنها في :
*Islamic Culture*, no. 4 (1939).
على انها من السنة الخامسة للهجرة . وهو نفسه لم يتعرض لها في مقاله : « صنعة الكتابة في عهد الرسول والصحابة ، » **فكر وفن** ، العدد ٣ ( ١٩٦٤ ) ، ص ٢١ . وقد شاهدت هذه الكتابات فوجدت ثلاثة وعشرين نصاً جديداً ، اضافة الى ما ذكر في كتاب : مرآة الحرمين ، ص ٧٨٩ ، والمقال المذكور ، وفي : محمد حميد الله ، جامع ، **مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة**، ط ٣ مزيدة ومنقحة ( بيروت : دار الارشاد للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٩٦٩ ) ، ص ٢٠ .

ولذلك تكون صورة الكتابة في هذا العهد مجرد تخمين ، ولكن الذي لا شك فيه انها مرت بدور نشط يمكن النظر اليه باعتباره التركيز الشكلي الاول للحرف والتركيب الاملائي الموحد للكلمة ، شارك فيه الرسول ﷺ والصحابة الكرام ، وكان الدافع الاول لذلك القرآن الكريم الذي اعطى الكتابة اهمية كبرى في ميادين الحياة المختلفة ، واول سورة فيه تأمر بالقراءة ﴿ اقرأ باسم ربك . . ﴾[١٧] ، لذلك نرى الرسول الاعظم ﷺ يختار الكتّاب المُجيدين لتدوين القرآن الكريم وفي مقدمتهم الخلفاء الاربعة وزيد بن ثابت ومعاوية بن ابي سفيان وغيرهم حتى بلغ عددهم ثلاثة واربعين كاتبا[١٨] . ولم يكتف ﷺ بذلك بل اهتم بتعليم الاجيال المسلمة عامة والصبيان بصورة خاصة وضرب مثلا في ذلك في فدية اسرى بدر ، فكانت اول مدرسة لنشر الكتابة وتعليمها ، وبذلك بدأت حركة متصاعدة في هذا الميدان بالرغم من صعوبة توفير مواد الكتابة فاستغلت المواد ذات السطوح المناسبة للكتابة ، كالعظام وَكِسرات الفخار والحجارة والقماش والخشب والعسب ، بالاضافة الى الرقوق والجلود والقرطاس المصري ( البردى )[١٩] .

تولى الخلفاء الراشدون هذه المسيرة بعدها ، فأوصى الخليفة عمر بن الخطاب ( رضي الله عنه ) بالاعتناء بالكتابة ، حيث اعتبر المشق ( الكتابة السريعة ) من شرورها[٢٠] ، واعقبه الخليفة عثمان بن عفان ( رضي الله عنه ) باختيار المجيدين لنسخ القرآن الكريم لارساله الى الامصار ، كما هو معروف ، مع محاولة اصلاح املاء بعض الكلمات[٢١] ، مما ادى الى ان تقوم حركة احتراف النسخ في عهد الامام علي ( رضي الله عنه )[٢٢] . ومع ذلك فإن الوثائق التي وصلتنا من عهد الخلفاء كانت قليلة ، اهمها كتابات النقود وحجر اسوان المؤرخ سنة ٣١ هـ وحجر الباثابوادي الشامية المؤرخ سنة ٤٠ هـ[٢٣] ، وما عداها لا تشكل اثرا ذا قيمة لان الشكوك تحوم حولها مثل بردية اهنس ، وانها لم تخضع للدراسة مثل كتابة جسر بطمان صنو في تركيا،وكتابة مشاهد قبر مروة ابن ثابت في قبرص[٢٤] . اما ما نسب الى هذه الفترة من مصاحف تعود الى عثمان بن عفان والامام علي بن ابي طالب رضي الله عنهما ، فانها ترجع الى فترات تالية تقدر بالقرن الثاني الهجري وما بعده .

---

(١٧) **القرآن الكريم** ، سورة العلق : الآية ١ .

(١٨) ناصيف ، **تاريخ الادب او حياة اللغة العربية** ، ص ٦٢ .

(١٩) الاسد ، **مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية**، ص ٧٧ .

(٢٠) ابو بكر محمد بن يحيى الصولي ، **ادب الكتاب** ، تحقيق محمد بهجة الاثري ( القاهرة : ١٣٤١هـ ) ، ص ٥٦ ، وابو حيان علي بن محمد التوحيدي ، **رسالة في علم الكتابة** ، تحقيق ابراهيم الكيلاني ( دمشق : ١٩٥١ ) ، ص ٣٨ .

(٢١) ابو الحسين احمد بن زكريا بن فارس ، **الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها** ( القاهرة : المكتبة السلفية ، ١٩١٠ ) ، ص ٩ ، وناصيف ، **تاريخ الادب او حياة اللغة العربية** ، ص ٦٢ .

(٢٢) السجستاني ، **كتاب المصاحف** ، ص ١٣٠ .

(٢٣) عبد الرحمن فهمي محمد ، **النقود العربية : ماضيها وحاضرها** ( مصر : ١٩٦٢ )، ص ٢٥ .

(٢٤) Adolf Grohman, *Arabische Poläographie* (Wien: 1971), vol. 2, p. 71.

ان كتابة هذه الفترة تشكل الصورة الاولى للكتابة في صدر الاسلام والثانية في مرحلة تطور الكتابة العربية بصورة عامة ، وهي صورة يسيطر عليها الايجاز والتجرد لكي تستوعب اللهجات السائدة ، وقد اخذت طريقها نحو التحديد بشكل تدريجي لتختص لهجة قريش فيكتب لها السيادة ممثلة للفصاحة في هذه اللغة ، وقد تم ذلك في الفترة التالية .

## ٣ ـ الكتابة العربية في العصر الاموي

تضافرت النقول مع الوثائق في هذه الفترة لتعطي صورة معبرة عن مسيرة الكتابة في العصر الاموي ، فقد وصلتنا وثائق عديدة على الاحجار التذكارية وفي قبة الصخرة والقصور الاموية والنقود وشواهد القبور واوراق البردى والمراسلات والآثار الاخرى(٢٥) ، وبعض المصاحف التي ترجح انها من تلك الفترة(٢٦) ، ولكنها تثبت استقرار اشكال الحروف واكتسابها شخصية واضحة . والفضل في ذلك لكتابة المصاحف التي عممت شكلاً موحداً في جميع الامصار ، صارت مرجعاً طبيعياً لاشكال الحروف ، يلاحظ اعتماد الصيغ الهندسية في رسم مسار الحروف التي لاحظناها في نقشي زبد وحران وقد كانت هذه الاشكال تتبع اسلوبين في الاداء :

**الاول:** « المشق » ، وهو الكتابة التلقائية العامة ، نجده في المراسلات الاعتيادية والكتابات الفردية في اوراق البردى وعلى الجدران وفوق الصخور الطبيعية . وتميل هذه الكتابة الى اللين فهي كتابات مصحفية قضت السرعة على كثير من جوانب اليبوسة في رسم الحروف فيها ، لا بل خرج بعضها الى حد الرداءة ، ولكنها لم تخرج في شخصيتها عن الاصل ، الذي اطلق عليه فيما بعد الخط الكوفي ، والذي قسمت رسومه الى شكلين ، مقور ومبسوط او لين ويابس(٢٧) . وهذا المشق هو الخط اللين الذي قد يكون في تطوره قد أثر في نشوء الخط اليدوي ، الا انه ليس اصله كما ورد في كثير من الدراسات الحديثة ، والتي اعتبرت الخطوط اللينة اليدوية سابقة للاسلام(٢٨) .

**الثاني** : « المجود » ، وهو الذي ينجز بصورة متأنية مع محاولة التدقيق في تقليد الاشكال المصحفية على الارجح وتحسينها ، وقد كتب بقلم عريض الرأس ، وبه كتبت النصوص التذكارية

---

(٢٥) المصدر نفسه ؛ ادولف غروهمان ، **اوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية** ، ترجمة حسن ابراهيم حسن ، مراجعة عبد الحميد حسن ، ٦ اسفار ( القاهرة : ١٩٣٤ ـ ١٩٧٤ ) ؛ صفران التل ، **تطور الحروف العربية على آثار القرن الهجري الاول الاسلامية** ، ط ٢ ( عمان : ١٩٨١ ) ، و V.A. Kratchkovskaya, *Ornamental Naskhi Inscriptions: A Survey of Persian Art* (London: 1967), vol. 4, pp. 1770.

(٢٦) محمد عبد الجواد الاصمعي ، **تصوير وتجميل الكتب العربية في الاسلام ونوابغ المصورين والرسامين من العرب في العصور الاسلامية** ( القاهرة : دار المعارف ، [د.ت.] )، ص ٨٢ ، و M. Yazir, *Eski Yazilari Okuma Anahtari* (Istanbul: 1942), p. 105.

(٢٧) ابو العباس احمد بن علي بن احمد القلقشندي ، **صبح الاعشى في صناعة الانشا** ( الطبعة المصورة ) ، ج ٣ ، ص ١١ .

(٢٨) جمعة ، **دراسة في تطور الكتابات الكوفية على الاحجار في مصر في القرون الخمسة الاولى للهجرة ، مع دراسة مقارنة لهذه الكتابات في بقاع اخرى من العالم الاسلامي** ، ص ٥٢ .

الرسمية وبعض النصوص المهمة الاخرى . وقد أدّى ظهور طبقة من المجيدين في رسم هذه الحروف ، امثال خالد بن ابي الهياج وقطبة المحرر ، يضاف الى ذلك تشجيع الخلفاء الامويين وخاصة الوليد بن عبد الملك ٥٦ ـ ٩٦ هـ ( ٦٧٥ ـ ٧١٥ م ) أدى ذلك الى رسوخ اشكال محددة في الكتابة وتطور بعضها ، كانت بداية ظهور فن الخط العربي ، الذي تميزت به هذه الكتابة على جميع الكتابات في العالم . وقد تحقق ذلك في كتابات قبة الصخرة المؤرخة سنة ٧٢ هـ ( ٦٩١ م ) واميال الطريق وما تلاها من كتابات[٢٩] ؛ ادت الى ظهور قلم ( خط ) الجليل الشامي ، الذي سمي فيما بعد الخط الكوفي ، والذي اطلقت عليه المصادر القديمة مع فروعه « الاقلام الموزونة »[٣٠] ، فكانت فاتحة عهد جديد في تطور حركة فنية خصبة لم تتوقف حتى الوقت الحاضر .

وقد واكب ذلك ضبط لغوي شمل ضبط صوت الكلمة ، وهو ما اطلق عليه « الشكل » واعقبه تثبيت « الاعجام » وهو طريقة تنقيط الحروف المتشابهة للتفريق بينها ، وكان بعدها علم القراءات ، فتحقق الكمال في الاداء الصوتي اللغوي .

## ٤ ـ الشكـــل

يمثل الخطوة التي اعقبت مرحلة التدوين المصحفي بعد إرساء شكل حرفي وتركيب املائي محددين ، فكان مطلبا طبيعيا بعد ان دخلت العناصر غير العربية الاسلام . وتأثرت الناشئة العربية بالمحيط اللغوي الاجنبي ، وخاصة في العراق ، مما دعا الى ضبط اللفظ للحفاظ على لغة القرآن الكريم ، فكانت المحاولة التي قام بها ابو الاسود الدؤلي ت ٦٩هـ(٦٨٨)م باستعمال النقطة الملونة للتعبير بواسطتها عن الحركات الثلاث والتنوين[٣١] ، ولذلك صار مصطلح النقط مرادفاً لمصطلح الشكل[٣٢]، وهو ضبط الكلمة بالحركات لكي تؤدي المعنى المقصود. وقد تطورت هذه الطريقة بعد ذلك بشكل محدود ، واقتصرت على المصاحف ، اما في الكتابات الاخرى فكانت نادرة لان المكتوب اليهم يعدّون ذلك تجهيلا لهم[٣٣] ، وتعتبر هذه الطريقة في الضبط طريقة مبتكرة ، ولكنها احياء وبعث لمطلب قديم[٣٤] .

لم تعمر هذه الطريقة طويلا فقضت عليها طريقة الخليل بن احمد الفراهيدي ٩٦ ـ ١٧٠ هـ ( ٧١٤ ـ ٧٨٦ م ) الذي ابتكر اشكالا جديدة تتميز عن طريقة ابي الاسود الدؤلي ، بانها تكتب

---

(٢٩) يوسف ذنون ، « فلسطين موطن ولادة فن الخط العربي ،» بحث قدم الى : الندوة العالمية للآثار الفلسطينية ، ١ ، حلب ، ٢٠ ـ ٢٥ ايلول / سبتمبر ١٩٨٠ .

(٣٠) ابو الفرج محمد بن اسحق بن النديم ، كتاب الفهرست في اخبار العلماء المصنفين من القدماء والمحدثين واسماء كتبهم ، تحقيق رضا تجدد ، ١٠ ج في ١ ( طهران : مكتبة الاسولي ، ١٩٧١ ) ، ص ١٠ .

(٣١) ابو عمرو عثمان بن سعيد الداني ، المحكم في نقط المصاحف ، تحقيق عزة حسن ( دمشق : مديرية احياء التراث القديم ، ١٩٦٠ ) ، ص ١٩ .

(٣٢) المصدر نفسه ، ص ٢٣ .

(٣٣) ناصيف ، تاريخ الادب او حياة اللغة العربية ، ص ٦٩ .

(٣٤) عبد الحي حسن الفرماوي ، قصة النقط والشكل في المصحف الشريف ( القاهرة : دار النهضة العربية ، ١٩٧٨ ) ، ص ٧٠ .

بلون مداد الكتابة نفسه ، حيث جعل الفتحة أَلِفا صغيرة توضع بشكل مائل فوق الحرف ، والضمة واوا صغيرة فوقه ايضا والكسرة ياء راجعة تحته والتكرار للتنوين ، وتتميز ايضا بوضع علامات للسكون والتشديد والهمز والوصل والمد والروم والاشمام[٣٥] ، وهي الحركات التي سادت حتى يومنا هذا بتطوير بسيط ، وبهذا ضبط اللفظ في الفصحى ، وتكفل علم القراءات بالخصوصيات التي تضفي الكمال على اللفظ خاصة بعد تثبيت الاعجام .

## ٥ ـ الاعجـــام

وجد الاعجام لازالة الابهام عن الحروف المتشابهة الرسم بوضع النقاط عليها لمنع الالتباس. فالحرف المعجم[٣٦] هـو المنقط وعكسه الحرف المهمل ، ولم يكن الاعجام في الواقع غائبا عن النقوش الكتابية التي وصلتنا من اواسط القرن الاول الهجري. وهذا يظهر ان الاعجام لربما كان وجوده سابقا للاسلام ويؤكد ذلك وروده في رواية اختراع الكتابة من قبل الطائيين وينسب الى عامر بن جدرة وضعُ الاعجام ، كذلك وروده في الاشعار الجاهلية مثل الوشم والرقم والترقيش، وكذلك وجوده في الكتابة العربية الجنوبية ، هذا بالاضافة الى معرفة الصحابة به في عصر الرسول ﷺ وهم الذين جردوا المصاحف من النقط والشكل. كما يذكر الاعجام كواقع على لسان معاوية وكمصطلح على لسان ابن عباس ، ويزيد في تأكيد ذلك وضع نقط الشكل بلون مغاير وهذا يدل على وجود نقط في اصل الكتابة ، يؤيد ذلك ما ذكره التوحيدي في رسالته في علم الكتابة بأن « الكتاب المعجم هو العربي وغير المعجم النبطي » ولهذا حينما تذكر النقول ان الذي وضع الاعجام نصر بن عاصم الليثي ت ٩٠ هـ ( ٧٠٨ م ) ويحيى بن يعمر العدواني ت ١٢٩ هـ ( ٧٤٦ م ) تلميذا ابي الاسود الدؤلي بطلب من الحجاج بن يوسف الثقفي في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان لكثرة التصحيف في القراءة ، وخاصة في العراق[٣٧] ، فإن تفسيره اذا كان صحيحا ـ انهما درسا وضع الاعجام ، وقد تعددت مذاهبه ، فاقروا طريقة ارتضتها الدولة لكي تعم ، ومع ذلك لم يكتب لها ذلك الا في المشرق ، وهي طريقة الاعجام التي نحن عليها الآن. اما المناطق الاخرى وخاصة المغرب العربي فإنه اتبع اسلوبا آخر عرف به[٣٨] ، وظل معمولا به حتى الوقت الحاضر ، ومما يدعم ذلك وجود اشكال من الاعجام في زمن عبد الملك بن مروان ، لم يرد له ذكر في المصادر القديمة ولا غيرها ، يختلف عن تنقيط المشارقة والمغاربة حيث لاحظناه في كتابة قبة الصخرة المؤرخة سنة ٧٢ هـ واميال الطريق المعاصرة لها . ففي الاولى وضع نقطة واحدة اسفل حرف القاف في كلمات : مستقيم وقائما ولا تقولوا والقاها والمقربون ، وهذا تنقيط حرف الفاء عند المغاربة ولا مثيل له عند المشارقة ، بينما بقية الحروف قد نقطت على الطريقة المشرقية ، وفي اميال الطريق وضع نقطتان لحرف الثاء المثلثة النقط في كلمة ( ثمانية ) وهذا يؤكد وجود سابقة

---

(٣٥) الداني ، المحكم في نقط المصاحف ، ص ٧ ، ٢٢ و ١٤٧ ؛ القلقشندي ، صبح الاعشى في صناعة الانشا ، ج ٣ ، ص ١٦٠ ، وناصيف ، تاريخ الادب او حياة اللغة العربية ، ص ٧٦ .

(٣٦) يوسف ذنون ، « محاضرات في الخط العربي ، » ١٩٧١ ( طبع رونيو ) ، ص ١٣ .

(٣٧) الفرماوي ، قصة النقط والشكل في المصحف الشريف ، ص ٧٢ .

(٣٨) الداني ،المحكم في نقط المصاحف ،ص ٣٧، وناصيف، تاريخ الادب او حياة اللغةالعربية،ص ٧٢ .

الاعجام ، اما عدم وجوده في بعض النصوص فلا ينهض دليلا على انعدامه ، لان هذه الظاهرة تشكل تقليدا لدى العربي ، واعتزازا بلغته وقدرته الفائقة في استيعابها بالرمز والاشارة ويأبى سوء الظن به(٣٩) ، وما تثبيت الاعجام الا حفاظا على اللغة من ان يصيبها داء العجمة المميت .

وهكذا تمت النقلة الاخيرة في رسم الحرف لتغطية التعبير الصوتي بشكل يكاد يكون تاما ، عندها انصب الاهتمام على شكل الحرف لاكسابه جمالا ووضوحا وحسن اداء فكانت الاقلام الموزونة محاولة لتغطية ذلك .

## ٦ ـ الخطوط الموزونة

يطلق عليها في المصطلح القديم الاقلام الموزونة واصلها من خط الجليل الشامي الذي ينسب اختراعه لقطبة المحرر في العصر الاموي ، ومن هذا القلم اشتقت بقية الاقلام بواسطته وبواسطة تلامذته الضحاك بن عجلان واسحق بن حماد الكاتب في اوائل الدولة العباسية(٤٠) . وتعددت الاقلام وتنوعت ، وأصل التفريق بينها عرض رأس القلم . ويبدو انه قد اتخذت في ذلك ادق المقاييس المعروفة في ذلك العصر لكي تكون وسيلة معاملة الخط فاستعملت الشعرة كاداة قياس للطول ، واتُخذ العدد اربعة وعشرون اساسا للتقسيمات قياسا على موازين الذهب التي تعتبر المثقال اربعا وعشرين حبة .فكان خط الطومار اربعا وعشرين شعرة وخط الثلث ثماني شعرات وخط النصف اثنتي عشرة شعرة والثلثين ست عشرة شعرة(٤١) ، وهكذا . وقد اثرت الاغراض التي استعملت فيها هذه الخطوط ، وكذلك الاشكال التي ظهرت بها ، فأضافت تسميات جديدة خلقت معادلة صعبة لم تفصح المصادر التي بين ايدينا عن واقعها فقد تداخلت الاسماء وازدوجت واختلفت التقسيمات والاعداد(٤٢) .

وعند الرجوع الى الوثائق التي وصلتنا من هذه الفترة والتي تعود الى القرون الثلاثة الاولى الهجرية سواء على العمائر والاحجار والرقوق او المواد الاخرى ، فاننا نلحظ فيها شخصية شكل حرفي واحد فيه خلافات نتيجة اختلاف كاتبيه والمواد التي نفذ عليها . وهذا الحرف يعتمد الصيغ الهندسية في مسارات الخطوط حيث يتخذ الخطوط المستقيمة في الخطوط الرأسية والافقية مثل حرف الالف والباء وما شابهها ، والخطوط الدائرية المنتظمة في رؤوس بعض الاحرف الاخرى ونهايتها ، مثل حرف الواو والهاء والفاء والقاف والميم والسين وغيرها ، وكما علمنا فان هذا النوع من الخطوط اطلق عليه « الخط الكوفي » في وقت لاحق . وكانت تختلف بسطا وتقويراً حسب الطريقة التي نكتب بها حيث تأتي في المشق مقورة ( لينة ) وفي التحقيق مبسوطة ( يابسة ) ، وقد

---

(٣٩) القلقشندي ، **صبح الاعشى في صناعة الإنشا** ، ج ٣ ، ص ١٥٠ . حيث يذكر ان : « كثرة النقط في الكتاب سوء ظن بالمكتوب اليه » .

(٤٠) ابن النديم ، **الفهرست** ، ص ١٠ .

(٤١) القلقشندي ، المصدر نفسه، ج ٣ ، ص ٤٨ .

(٤٢) ابن النديم ، المصدر نفسه ، ص ١٠ ، والبطليوسي ، **الاقتضاب في شرح ادب الكتاب** ، ص ٨٩ ، وفيها اسماء هذه الخطوط .

جرت محاولات جادة لتطوير هذه الانواع في اوائل القرن الثالث الهجري ، وخاصة في عصر المأمون ، لكنها لم تبتعد كثيرا عن الشخصية الاساسية لقلم الجليل الذي عهدناه في العهد الاموي ، لذلك كتب لها الركود في نهاية القرن المذكور لتفسح المجال لظهور كتابة لها شخصية مختلفة ، ساعد على ذلك انتشار الورق ونشاط حركة التدوين والتأليف ، فكان مطلبا ضاغطا لايجاد كتابة اكثر وضوحا واسهل اداء مع المحافظة على المقومات الجمالية التي رسخت اولياتها في الاقلام الموزونة ، فكانت مقدمة لظهور الخط المنسوب .

## ٧ - الكتابة المنسوبة

تفيد المصادر التي بين ايدينا ان الخط المنسوب قد اخترعه ابن مقلة عن رأس الثلاثمائة مع اختلاف بين الوزير ابي علي محمد بن مقلة ٢٧٢ - ٣٢٨ هـ ( ٨٨٥ - ٩٣٩ م ) واخيه ابي عبد الله الحسن بن مقلة ٢٧٨ - ٣٣٨ هـ ( ٨٩١ - ٩٤٩ م ) وايهما هو المخترع. لكن التدقيق في النصوص والوثائق يعطي مؤشرا آخر [٤٣] ، يبرز ان الخط المنسوب قد وجد قبل ابن مقلة ولكن المصادر القديمة لم تتبينه لبعد الشقة عما حدث في الخطوط الموزونة وعدم وضوح مقاصد الاخبار بالنسبة للمتأخرين ، وخاصة فيما يتعلق بخط الثلث الذي هو اصل الخطوط المنسوبة ، لذلك نسب اختراعه الى قطبة المحرر في العصر الاموي[٤٤] ، ثم نسب اختراعه مرة اخرى لابراهيم السجدي ت ٢٠٠ هـ ( ٨١٥ م ) في العصر العباسي[٤٥] . وهذا يرجح نسبة الاختراع الاول للخطوط الموزونة والثاني للخطوط المنسوبة الذي ظهرت اشكاله الواضحة في نقد مؤرخ في سنة ٢٩٢ هـ ( ٩٠٤ م )[٤٦] وهو وقت يصعب معه قبول دور اساسي لابي علي بن مقلة فيه وهو في العشرين من عمره ، فإذا اخذنا اخاه عبد الله وهو ابن الرابعة عشرة فيكون ذلك ابعد ولهذا يرجح ان يكون للذين سبقوهما وخاصة اسحق بن ابراهيم استاذ ابن مقلة[٤٧] ، دور كبير في ذلك ولربما من سبقوه كابن معدان وابراهيم السجدي[٤٨] . يؤكد ذلك ما ورد على لسان ابن مقلة من وجود قلم المؤمرات وصغير الثلث وقلم الرقاع قبله[٤٩] ، واشتهاره هو واخوه بغيرها ، ما عدا الرقاع ، وهي خطوط الدرج والرقاع والتوقيعات للوزير والنسخ والدفاتر لاخيه[٥٠] .

(٤٣) القلشندي ، **صبح الاعشى في صناعة الإنشا** ، ج ٣، ص ١٢ .

(٤٤) ابن النديم ، **الفهرست** ، ص ١٠ .

(٤٥) البغدادي ، «كتاب الكتاب وصنعة الدواة والقلم وتصريفها ،» ص ٤٧ .

(٤٦) Grohman, *Arabische Paläographie*, vol. 2, pp. 233.

(٤٧) ياقوت بن عبدالله الرومي الحموي ، **معجم الادباء** ، ط ٢ ، ٢٠ ج ( القاهرة : مكتبة عيسى البابي الحلبي ، ١٩٢٧ ) ، ج ٦ ، ص ٥٨ .

(٤٨) البغدادي ، «كتاب الكتاب وصفة الدواة والقلم وتصريفها ،» ص ٤٧ .

(٤٩) البطليوسي ، **الاقتضاب في شرح ادب الكتاب** ، ص ٨٨ .

(٥٠) الحموي ، **معجم الادباء** ، ج ٣ ، ص ١٥ ؛ القلقشندي ، **صبح الاعشى في صناعة الإنشا** ، ج ٣ ، ص ١٢ ، و «رسالة في الكتابة المنسوبة ،» لمؤلف مجهول، نشرها خليل محمود عساكر في : **مجلة المخطوطات العربية** ، السنة ١ ، العدد ١ (١٩٥٥)، ص ١٢٦ .

ان هذه الصورة تدعو الى القول بأن دورهما هو العمل على تثبيت الخط المنسوب وابتكار اشكال جديدة فيه ، وبذلك تحققت النقلة المطلوبة في الوضوح والاداء السريع والجمالية في الخط المنسوب ، والذي تطور على يد ابن البواب ت ٤١٣ ( ١٠٢٢ م ) وغلبت على بعض انواعه الجوانب الفنية والنواحي التزيينية . لذلك طرحت المقولة التالية لكي تكون فاصلا بين حدود اللغة في الخط والانطلاق الفني وهي « خير الخط ما قرىء والباقي نقش »[٥١] ، ولذلك صار هناك فرز طبيعي في انواع الخطوط ومدى استجابتها للحاجة اللغوية المتمثلة في دقة التعبير ووضوح الشكل وسهولة الاداء مع المحافظة على الفني في الشكل. وقد برز خط النسخ محققا لهذه الاهداف خاصة بعد ان تبلور شكله في اواخر العصر العباسي ، وقد برز فيه ياقوت المستعصمي ت ٦٩٨ هـ ( ١٢٩٨ م ) ومن بعده الشيخ حمد الله الاماسي ٨٣٣ ـ ٩٢٦ هـ ( ١٤٢٩ ـ ١٥٢٠ م ) الذي اختار اجمل رسوم ياقوت في خط النسخ في العهد العثماني ليشكل رأس المدرسة العثمانية في كتابة المصاحف على طريقة ياقوت والتي ظهر فيها عشرات الخطاطين بجمالية فائقة وثبات رائع . اشتهر منهم الحافظ عثمان ١٠٥٢ ـ ١١١٠ هـ ( ١٦٤٢ ـ ١٦٩٨ م ) ومحمد امين الرشدي ( كان حيا سنة ١٢٣٦ هـ ) وحسن رضا ١٢٦٥ ـ ١٣٣٨ هـ ( ١٨٤٩ ـ ١٩٢٠ م ) وغيرهم كثير. وبذلك نال خط النسخ الجدارة لكي يكون الاداة الكاملة للتعبير عن دقائق الاداء الصوتي اللغوي ، فاتخذ خطا لحروف الطباعة في العصر الحديث، بينما بقي الجانب الفني يتطور ويتنوع. فظهرت انواع كثيرة من الخطوط ومات غيرها حتى استقرت في الوقت الحاضر على الخطوط الرئيسية وهي الثلث والكوفي بأنواعه والتعليق والديواني وجلي الديواني والاجازة والرقعة . وبقي النسخ صامدا على الصعيدين الفني والمطبعي ، ولم تؤثر عليه النغمة التي ظهرت مع بوادر المخاطر والتهديدات التي احاطت بالامة العربية في العصر الحديث ، والتي تدعو الى استبداله بدعوى قصوره لدواعي الالات الطباعية بدلا من تطويع الآلة له ،وهو الطبيعي .ولكن تقدم هذه الالات اسكت الى الابد هذه الانحرافات ، وبقي الحرف العربي شامخاً بصموده ما بقيت الامة العربية ولغتها المقدسة ، فهو اللغة منظورة ، واي خطر يتهدده تكون اللغة العربية هي المقصودة ، ولذلك هبت الامة العربية بأسرها حينما استهدف في نهاية القرن الماضي واوائل هذا القرن فكانت تلك الحركة بوادر الوعي القومي في العصر الحديث .

---

(٥١) « رسالة في الكتابة المنسوبة ، » ص ١٢٣

# المناقشات

**١ ـ احمد مطلوب**

في واقع الامر ليست عندي ملاحظة على بحوث الاخوة الاساتذة ولكن عندي ملاحظة عامة . ترددت في بعض البحوث لفظة « الساميين » و « السامية » واقول ان تكرار هذا التعبير غير صحيح وغير دقيق . في الواقع ، اليهود هم الذين ابتدعوا السامية ليربطوا انفسهم بالمنطقة العربية وقد بشر جونسون اليهود بذلك في الجامعات المصرية . ولكن اليهود انكروا ان يكون العرب من الساميين بعد ان اقاموا كيانهم الصهيوني في فلسطين المحتلة ، واصبحوا يطلقون على غيرهم مصطلح اللاسامي ، واخذوا ينعتون كل من يقف مع العرب في حربهم العادلة مع الكيان الصهيوني باللاسامية ، واصبح ما توصل اليه الباحثون الخبراء ان هذه اللغات تسمى اللغات الجذرية او العربية . ولذلك لا يبعد ان تكون العربية القديمة هي ام اللغات التي اطلق عليها اسم اللغات السامية . وهنا اريد ان انبه بان اليهود لم يعرفوا لغتهم وقواعدها الا في القرن الخامس والقرن السادس للهجرة في الاندلس ، ولذلك لم تكن لديهم لا كتب نحو ولا كتب قواعد ولا كتب لغة . وكتب اللغة العبرية كتبت كلها في القرن الخامس والسادس باللغة العربية ، ما عدا الامثلة كانت من اللغة العبرية . معنى ذلك ان هذه بدعة ابتدعها اليهود ، وليس بعيدا عنا وضع غارودي في الاشهر الاخيرة . لقد اتهم هذا بمعاداة السامية لانه وقف مع العرب ، ولذلك اقول لو ان السامية مصطلح حقيقي لما وصف اليهود العرب بانهم لا ساميون او ضد السامية . على كل حال هناك مسألة لا يمكن ان تنكر ، وهي اشتراك بعض اللغات في اسس واضحة او اسس معينة ، وهذا الاشتراك انتمى له العرب منذ القديم وعلى رأسهم ابن حزم الاندلسي ، وقد اشار في كتابه **في اصول الاحسان** الى هذه النقطة . ولذلك ارجو من الاخوة الباحثين ان لا يقعوا فيما اراد اليهود ان نقع فيه . هذه التسمية غير موجودة وغير حقيقية ولا توجد لغة سامية مطلقا ، ومسألة السامية نشبهها بابن آوى ، رأينا الابن ولم نر الاب ! فهذه مسألة تتفرع في بحوث اساتذتنا وزملائنا

وهي بدعة من البدع . ومثلها ايضا الفارسية ولا اريد ان اتطرق اليها . وهنا تردد مصطلح السامية . قواعد النحو اليهودي كلها عربية ومكتوبة باللغة العربية . واللغة اليهودية او العبرية موجودة في السنوات الاخيرة ، وليست هناك لغة بمعنى انها اخت للعربية او انها سامية ، او انها كذا وكذا . والان انكر اليهود السامية ، فلماذا بقي العرب متمسكين بها ؟ نحن الان « لا ساميون » ، اليهود يقولون ان العرب لا ساميون ، فلماذا يتمسك بها الباحثون العرب والاساتذة في محاضراتهم وفي جامعاتنا وغير ذلك ؟ فقط اريد ان الفت النظر الى هذه المسألة ، وارجو ان يرجع الاساتذة الى الدراسات الحديثة ولا سيما د . جابر الصياد ، الذي كرر واعاد كثيرا لفظة السامية والساميين في محاضرته ، وشكرا .

**٢ ـ محمد جميل شلش**

لي على البحث العلمي والقيم والجريء للدكتور حامد ربيع خمس ملاحظات اشير اليها باختصار .

الملاحظة الاولى على شكل سؤال ، يقول الباحث ان خطأ لغة السياسي في دول العالم الثالث وبصفة خاصة في المنطقة العربية ، هو ان ينقل الفكر القومي الاوروبي ، الذي تمت صياغته خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، ويطبقه على الواقع المعاصر . السؤال هل يصح هذا على كل دول العالم الثالث ، وهل يصح تخصيصه بالذات على الوطن العربي بكل ما فيه من انظمة ومنظمات ؟ الملاحظة الثانية : يوحي الباحث في ثنايا محاضرته بأنه كان للادب الشعبي دور فعال في ما سماه تأميم الجماهير في المانيا الهتلرية . والحقيقة ان هذه الجماهير كانت تهتدي بالسحر الهتلري لا بقوة الادب الشعبي ، وباسلوب الدعاية السياسية من الطراز النازي التي كان يوجهها كوكل باساليبه المعروفة ، ( وان كان بالطبع للادب الشعبي اهميته كما تفضل المحاضر) . الملاحظة الثالثة حول احلال مفهوم الوحدات الحضارية محل الوحدات اللغوية ، ويضرب الاستاذ الباحث لذلك مثلا الاتحاد السوفياتي وارى ان هذا لا يصح على مسألة اللغة وعلى علاقتها بالوعي القومي لان الاتحاد السوفياتي تقوم وحدته اصلا على وحدة الوعي والانتماء الطبقي ، وفق المفهوم الماركسي اللينيني الاممي .

الملاحظة الرابعة ، يرى الاستاذ الباحث ان التعدد اللغوي عنصر يقر الفرقة والتجزئة ويضرب لذلك مثلا بلبنان وبتونس . نرى ان لبنان يعيش في حالة يمكن ان توصف بانها تعبير عن التعدد اللغوي ، في حين ان الحالة التي عليها لبنان الان ليس مردها الى التعدد اللغوي ، وانما مردها الى كون دولته قامت اصلا على اساس طائفي ، عمق الخلافات ووسعها اجتماعيا واقتصاديا ، ووضعها مع الامبريالية والصهيونية في بؤرة صراع قومي سياسي اجتماعي في آن واحد .

والملاحظة الاخيرة ، هي ان الباحث يرى ان جوهر العمل الوحدوي هو النطاق الادراكي ، وان الوحدة الادراكية هي الاساس لا الوحدة الثقافية . وانا اسأل هنا ، ونحن

نتحدث عن دور اللغة في الوعي القومي ، كيف تصل الامة الى الوحدة الادراكية دون ان تتحقق لها وحدة الوعي القومي ، منتقلة به من طوره الجميل العفوي الى طوره الموضوعي الذي تشكل الوحدة الثقافية احد عناصره ؟ انني ارى ان الوعي بالوحدة الثقافية قد يتم ، وقد تكون هذه الوحدة في نفوس ابناء الامة فتخلق بذلك القرار السياسي ، اذا تعاونت على العوامل الذاتية والموضوعية ، عبر القنوات المتعددة الجماهيرية والاعلامية والثقافية ، التي تفضي بالنتيجة الى الوحدة الادراكية ؛ فالوحدة الادراكية اذاً نتيجة وليست سبباً .

### ٣ ـ محمود الجليلي

هذه الكلمة قصيرة وهي التعليق على ما قيل عن العزوف عن اللغة العربية ودراستها في السنوات الاخيرة . فيبدو من كثرة المنسوب فيها انه لا يوجد عزوف عن دراسة اللغة العربية . ولكن هذه الدراسات تحتاج الى تقسيم علمي دقيق . فكثير مما نسب هو اعادة لما كتبه السلف الصالح دون تمحيص بعناوين اخرى او بتنظيم اخر . نحن بحاجة الى استعمال الطريقة العلمية في دراسة اللغة العربية ، والتقليل من كثرة الاستشهاد بالمستشرقين لمعرفة اهمية اللغة العربية ، وكأنما نحن بحاجة الى من يعرفنا ذلك . وان العزوف عن اللغة العربية ودراستها ، اذا كان ذلك صحيحا ، يعود الى ما يلي :

ان السبب ليس اللغة انما اصرار عدد من اللغويين على تجميد اللغة العربية والوقوف بها منذ مئات السنين ، بينما الحاضر المتطور بسرعة كبيرة يحتاج الى مسايرة اللغة لهذا التطور كما سبق لها ان سايرت التطور السريع في الحضارة العربية سابقا . إن سعة اللغة العربية سببها انها كانت ذات علاقة بالحضارات العربية القديمة ولم تكن لغة صحراء . وصلة اللغة العربية بما كانت تسمى باللغات السامية امر مهم وتحتاج التسمية الى اعادة نظر فهي لغات عربية قديمة والاشتراك فيها كثير ، ولقد استقر في المجمع العلمي العراقي منذ سنوات عديدة استبعاد مفهوم «اللغات السامية» واستعمال اللغة العربية القديمة محله .

### ٤ ـ عبد العزيز البسام

اود ان اعبر عن الشكر والتقدير للعرض الشائق الذي تفضل به د . حامد ربيع في بحثه ، وفي ملاحظات تمثل اضافة للموضوع وصلة اللغة بالجوانب السياسية . لديّ بعض الملاحظات والاستفسارات عن هذا الموضوع في الاتجاهات الحسنة التي تحدث عنها د . ربيع بالامس وكررها في هذا اليوم ، جاء ان هذه الظواهر الاجتماعية كظاهرة اللغة تحتاج الى ان تدرس بزوايا متعددة ومن فروع علمية متداخلة ، وان هذا التداخل ضروري للاحاطة بها وقد اظهر هذا اليوم وهو يتحدث عن ( لافين ) تأكيده على دراسة ظواهر دينامية الجماعة . وليفين هذا احد رواد مدرسة الهيئة ، والاستاذ رحل من المانيا في الثلاثينات بعد النازية ، وهو من العلماء اليهود الذين رحلوا ، ونشأ في دراساته متقيدا في مبادىء الـ « Gestalt » التي انطلقت من دراسة الفرد ودراسة خواصه الادراكية والتفكير . وقد يكون استطاع ان يتوسع

في تطبيق مبادىء مدرسة الهيئة على الظواهر الاجتماعية، فأبرز ديناميكية الجماعة. ويبدو لي - اذا لم اخطىء في فهم د. حامد ربيع - ان هذه الاضافات التي اتى بها لافين تستدعي استبعاد دراسة اللغة كظاهرة فردية، وعندي اذا صح هذا الاستنتاج فإن المسألة تحتاج الى تفسير. بالامس استمعنا اليه يستبعده كانما يتصور انه عتيق ، وانه يدرس فقط اللغة في الطفولة . هذا ليس عيبا وانما اضافة محمودة .

هناك بحوث مكدسة على مدى ٥٠ عاما من العشرينات الى اواخر السبعينات عند وفاته وانه في الستينات والسبعينات اخذ يكتشف حديثا اكتشافا جديدا في الولايات المتحدة وفي انكلترا ، بعد ان كانت دراساته في الوسط ، في فرنسا وسويسرا ، تعرف اهمالا كبيرا بعد المنطلقات الاساسية التي انطلق منها . يمكن في الناحية الزمنية هو اكثر حداثة ، هو زعيم المدرسة السلوكية الذي انتهى امره عند العشرينات واصبح يتعامل في التجارة وفي تجارة الاعلانات بصورة خاصة، حتى ان المدرسة السلوكية نفسها لم تعد تتقيد بمنطلقات واطسن. ومن ملاحظات د . حامد ربيع نفسه وتأكيده على الادراك ، نطاق الادراك ، يدل على انه يناقض تمام المناقضة مفهوم السلوكية كما اتى بها واطسن ، الذي يقصر السلوك على الحركات الظاهرة ، ولا يلتفت الى جوانبها العقلية الادراكية . و د . حامد ربيع اثار في حديثه ان كثيرا ممن تناولوا اللغة العربية يتعاملون معها كانها مقصورة على الرموز ، وانها لا تعنى بالقيم ولا بالقواعد المنطقية .

ونحن لا نتكلم عن اللغة العربية الا اذا اشرنا الى صلتها بالاسلام **والقرآن** الكريم . والاسلام **والقرآن** الكريم مليئان بالقيم والمواقف العقلانية . فمفهوم اللغة لدينا مفهوم يؤكد نظام القيم ويؤكد نظام القواعد المنطقية العقلانية ومواقف الحياة . فالزعم بان الحديث عن اللغة العربية يقتصر على التعامل معها كرموز ، ويغفل جوانب القيم منها ويغفل جوانب المواقف العقلانية ، لا يصدق على كثير من مفاهيمنا في دراستنا للغة ، وفي حديثنا عن ميزاتها باعتبارها ظاهرة قومية .

والنقطة الثالثة اود ان اثيرها حول الوحدة الثقافية . واشارته الى المفهوم في هذا الباب قد تكون صحيحة . فقد اشار الى وجود فريق لا يتكلم العربية ، ولا يأخذ بالثقافة العربية ، كما هو الحال في جنوب السودان . كما اشار الى تعدد الثقافات تبعا للاوساط الاجتماعية المختلفة . وعندي ان هذا القول مردود من ناحيتين : اولا ، ان هذه المبادىء والاتجاهات التي نتحدث بها على الظواهر الاجتماعية لا يصح ان تؤخذ على اساس الاطلاق. ان كل قاعدة من القواعد تحتمل الشذوذ ، فدراسة هذه الظواهر يجب ان تأتي على سبيل الاحتمال ورد الفعل اكثر من ان تأتي على سبيل الجزم واليقين وانها لا تقبل الاستثناءات ، كما هو الحال في قوانين العلوم الطبيعية . فالالتفات الى الرابطة الثقافية والى الرابطة اللغوية ، والى روابط الدين والى روابط التاريخ ، جميعها روابط معروفة في القومية لكن لا يقال انها ينبغي ان تصدق في جميع الحالات . فهي تصدق على وجه العموم وتحتمل الاستثناءات ، ذلك ان

الحديث عن تعدد الثقافات تبعا لاختلاف المستويات الاجتماعية والثقافية ايضا ينبغي ان لا يصدق . فمثلا ليس هناك عوامل مشتركة هناك نوع من الوحدة الثقافية القائمة على التنوع حتى اذا افترضنا ان هناك اختلافات ثقافية بين الفئات المختلفة ، الا يعني هذا وجود عناصر مشتركة ثقافية بينها تجمعها بعضها الى بعض ؟

هذا من الظواهر التي ينبغي الالتفات اليها . ثمة عناصر مشتركة كثيرة بين هذه الفئات الثقافية والاقتصادية والاجتماعية مهما تعددت ، لوجود ضوابط معينة بينها . هذه ملاحظات عامة واستفسارات اود بان يوضح د . ربيع بعض النقاط عنها ، وشكرا .

**٥ ـ حامد ربيع**

اود ان الفت النظر الى ان تعريب المصطلحات عمل اساسي في صيانة العربية وتثبيتها كأداة لجمع الامة وافكارها ضمن نطاق عام . وهو عمل واسع في العلوم التي توسعت حديثا في الغرب ، ويقوم بهذا التعريب افراد وجماعات ومنظمات انجزوا ما يستحق التقدير . غير اني اود الاشارة الى بعض الجوانب التي اراها جديرة بالعناية .

فأولا : ان بعض العاملين في تعريب المصطلحات العلمية الغربية يبالغون في الاصرار على ايجاد مقابل عربي دقيق للمصطلح الغربي وهذا يؤدي الى صرف جهود مضنية لتقدم نتائج كثيرة وانها لا تكون مستساغة ، علما بان بعض المصطلحات الغربية وضعت ، وليس لها اصول عميقة وانما حصلت بطريق الصدفة ، فارجو ان لا يصل الحرص على التعريب حد الجمود والاغراق .

الامر الثاني هو ان القائمين بالتعريب اتخذوا اساس عملهم مجموعة المصطلحات الغربية ومعاجمها ، اي انهم افترضوا شمول اللغة الغربية وتفوقها ، وعملوا على تقريب اللغة العربية من هذا المثل الاعلى الذي افترضوه . وقد غفل معظمهم عن دراسة المفردات التي استعملها العرب ابان ازدهار حضارتهم . اي انهم استعملوا كلمات عربية لمؤسسات وافكار حديثة ويمكن الافادة مما استعملوه ، وهذا يتطلب عناية بجلب مفردات الكتب التراثية واحياء استعمال الكلمات السليمة التي فيها . ان عددا من كتب التراث المنشورة حديثا تلحق بما تنشره قائمة بالمفردات التي وردت في هذه الكتب ، وان فيها كثيرا مما يفيد في ميادين الاجتماع والاقتصاد وفي علم النفس وفي كثير من فروع الطب . وان هذه المحاولات جديرة بالاهتمام ، وحري بان توسع .

الملاحظة الثالثة والاخيرة انه ينبغي في بحث المفردات عدم الاكتفاء بالمعاجم القديمة . فهذه المعاجم رغم بنائها ودقتها عنيت بالدرجة الاولى بالمفردات التي استعملتها بعض القبائل العربية في الصحراء ، وادخلت عن عمد تدوين مفردات معظم القبائل والمناطق في جزيرة العرب وحيث سكن العرب . انهم عنوا بلغة البدو واهملوا لغة الحضر ، فتصوروا ان ليس من العرب الشرفاء غير البدو ، وليس من المفردات المعتمدة غير لغة الصحراء . وبذلك فات

كثيـرا منهم تسجيل كثيـر من المفردات التي كـثر استعمالهـا عند الحضـر ، وهو مـا لا ينبغي اهماله عندما نعمل في التعريب في الوقت الحاضر . وشكرا .

### ٦ ـ عبد العال الصكبان

اود الاقتصار هنا على ايجاز بعض الملاحظات حول البحث الـذي تقدم به د. حامد ربيع مبتدئا بنقطة شكلية ضمن اللغة والـوعي القومي ، حـول تحريـر العلاقـة الاتصاليـة بين المفهوم القومي للوجـود السياسي والتـطور الاجتماعي نحـو التناسق العقـائدي . اننـا تحدثنـا حقيقة في هذا العنوان الى حد كبير ، واظن ان المطلوب هـو الكلام عن العـلاقة بـين الدولـة القومية ومحتواها الاجتماعي ، واذا ما وضع هذا الموضوع يجـري النقاش عـلى نحو اخـر . في بـداية البحث اراد البـاحث ان يقدم لنـا مفاهيم مجـردة حول الاسس التي ارتبط بهـا المفهـوم القومي في القرن التاسع عشر . فتكلم عن الحريـة والنظم الديمقراطية . وقال انـه ليس من حق اي مجتمع القيام بأي دعوة كالوظيفة الحضارية او التقدم الاجتماعي أن يسيطر او يتحكم في اي مجتمع آخر. تحت هذه الدعوة بالضبط مارست اوروبا نشر الحضارة المسيحية في كل اقطار افريقيا وآسيا وحتى اميركا اللاتينية بالمفهوم نفسه والزمن نفسه ، ولهذا فإن المسألة تحتاج الى تحديد اكثر .

وتكلـم الباحث عن تعريف حقيقة الوعي القـومي ولم استطع ان استـوعبها . نقـول : تلك العلاقة العاطفية الميكانيكية ! هناك تناقض مبدئي بين العاطفة وبين الميكانيكيـة ، فكيف يمكن ان تكون العاطفة ميكانيكيـة بحيث يعرض للوعـي القومي ؟ ولكن البـاحث يريـد ان يصل الى ان قضية الوعي قد لا تكون وعيا قوميا ، وانما قد تكون وعيا بدولة او لمجتمع محدد. نصبح في هذا الامر كمن يريد ان يتكلم الانكليزية او الفرنسية ويريد ان يتكلم ثلاث لغـات ويكون هناك ولاء للدولة ، وبالتالي يكون الوعي وعيا بالدولـة وليس وعيا بـالقوميـة . واعتقد انـه ليست هناك قضيـة وعي بالقـومية ، وانـه ليست هناك قضيـة وعي قـومي . ويتكلم عن الـوعي القومي كعـلاقة عـاطفية ، فالعقل فيهـا يؤدي دوره الى اخر الكـلام . ويقـول رأيـه القومي للتعبير عن الوعي الجماعي والضمـير التاريخي حيث تلتقي الاحـاسيس ، وينتهي بان اللغة هي القاسم المشترك ثم يذهب الى القول ان لغتنا تكون عامل توحيد . وانا لا اعتقد انه في كل المجتمعات يجب ان تكون هذه المجتمعات تتكلم ١٠٠ بالمائة باللغة الاصليـة . يرجـع بذلك الى ان هؤلاء السذج قد تصدوا الى العمل القـومي . انهم لا يستوعبـون حتى المسائـل العلمية . يعتقدون فقط ببساطة ان القومية والوحدة العربية حتمية . اين يقف النضال العربي طيلة هـذه السنـين ؟ كيف تحـرر الـوطن العـربي من الاستعمـار وانجـزت مهمـة الاستقـلال السياسي ؟ هل القومية العربية فعـلا هي السذاجـة ؟ ومرة اخرى اقول ان فهم الحقيقـة هنا على ما نقول ان الوحدة العربية آتية كالساعة لا ريب فيها . نحن لا نقصـد حتمية اتكـالية ، ولا نقصد الحتمية التي قالت بها الماركسية ، لكن نقصـد عودة الامـور الى نصابها. لقد كـانت هناك دولة عربية واحدة وحين انحسر المسلمون عن حكم العرب بقيت ايران ايرانية ، وتـركيا

تركية ، والصين صينية . ولكن البلاد العربية من المحيط الى الخليج بقيت عربية لم تتغير برغم انتقاص الدولة الاسلامية وتغير الامر. وهذا يعطيك حقيقة اساسية اعمق لكل المسائل التي تبقى عليها، والمرحوم الاستاذ حقي عندما نادى بالقضية الثقافية كان محقا ، لانه بدون عربية واحدة للاستيعاب القومي لا يمكن ان تقوم دعائم حقيقية للوحدة العربية . وليتحدث في هذا المحفل من عمل في المنظمة العربية للثقافة والعلوم ويعلم انهم بكل النجاحات التي قاموا بها ، لم يضعوا كتابا واحدا للتاريخ العربي ، ولم يضعوا كتابا واحدا للجغرافية العربية ، لانهم يعلمون انه اذا ما توحدت المفاهيم الثقافية الاساسية في الوطن العربي ينشأ جيل جديد .

القضية الاساسية هي ان اساليب التعبير قد تتعدد ، ولكني لا اتصور ان مجتمعا متناسقا تتعدد فيه الثقافات . واذا كانت هناك ثقافات متعددة في المجتمع الاميركي ، فالمجتمع الاميركي ليس مقياسا لانه مجتمع عمره ٢٣٠ سنة ، ولا زالت كل اقلية فيه مشدودة الى اسرة . والقومية العربية منذ الثلاثينات كانت تعنى بالوحدة . ان القومية العربية كانت تعنى فقط بالوحدة . ثم ظهرت احزاب قومية عربية في مقدمتها حزب البعث العربي الاشتراكي ، ثم الحركة القومية العربية ، وربطت قضية الوحدة بقضية التحرر الاقتصادي والاجتماعي . وكتبت كتابات لا حصر لها . وقد يقولون عنها كتابات السيراميك ، وهذا مقبول ، لكن لا اقبل ان يقال ان قادة الفكر القومي لم يحاولوا اقامة وضوح فكري في بعض المسائل والتوقعات والانفعالات .

## ٧ ـ نعمة رحيم العزاوي

في الحقيقة لديّ ملاحظات متواضعة عن بعض ما سمعناه من ابحاث قيمة . لي ملاحظات على بحث د. حاتم الضامن. ورد في البحث ان القرآن نزل بلغة قريش، الحق ان هذا هو الرأي السائد ، وهو الرأي الذي يكثر ترديده في كتب اللغة القديمة والحديثة ، الا ان بعض الباحثين المحدثين ذهبوا الى ان القرآن لم ينزل بلغة قريش وحدها ، وانما نزل باللغة العربية المشتركة التي ضمت لغة قريش ولغات القبائل الاخرى . والذي يتأمل لغة القرآن الكريم يأخذ بهذا الرأي ففيه من لغات القبائل الشيء الكثير . وفي مواضع منه خروج عن لغة قريش نفسها . وللتدقيق العلمي ، على الباحث ان يشير الى هذا الرأي . وورد في البحث ان لغة القرآن الكريم لغة فصيحة وانها تبتعد عن اللهجات المحلية التي يجري بها الحديث اليومي . والحق ان لغة القرآن الكريم هي الفصحى ، وهي لم تترك اللهجات المحلية ، وانما فاقت احسن ما عرف العرب من صيغ التعبير الفني الجميل في شعرهم ونثرهم ، ومن هنا وصف الكتاب العزيز بالاعجاز .

وعرّف الباحث اللحن بأنه جاء في كلام الموالي ، وفي كتب اللغة ان اللحن مما تورط به العرب انفسهم في عهد النبي والعهد الذي سبق الاسلام . وفي الحديث الشريف الذي اورده الباحث ما يشير الى هذا .

وقال الباحث : «خشية من امتداد خطر»، وكان الصواب ان يقول «خشية امتداد خطره» ففي القرآن « خشية املاق » وورد قوله : « لكبح جماح الخارجين على اللغة الفصيحة » والصواب : « الخارجين عن اللغة الفصيحة » فمعنى خرج الشيء : خرج على وفقه وليس ضده . وورد « وبدأ قسم من الشعراء » ثم لم تكمل العبارة . واشار الباحث الى جذور الدعوة الى العامية وارجعها الى ابن مخيمره ، وذهب الى ان هذا الرجل كان يهاجم النحو . ففات الباحث ان يشير الى ان آخرين من غير الشعوبيين كان لهم مثل هذا الموقف من النحو ، اي تهوينه والاقلال من اهميته ، ومنهم ابن الاثير وابن خلدون . وقال الباحث : « هذه نظرة سريعة عن اهتمامهم » والصواب : « هذه نظرة سريعة الى اهتمامهم » . كما جاء في البحث قوله : « ان يقفوا» ثم عطف « فيدعون » والصواب : « ان يقفوا فيدعوا » وقال « والتمهيد للعزلة بين ابنائها » والصواب : « والتمهيد لعزل ابنائها بعضهم عن بعض » . وقال : « من جنسيات اخرى» والصواب « من جنسيات أُخر » .

اما البحث الرائع الذي تفضل به د . الملائكة فقد اثار عندي ملاحظتين اثنتين . تتصل الاولى بالصعوبات التي تواجه المترجمين في غير مجال المصطلح ، فكثيرا ما تترجم العبارات والالفاظ ترجمة صرفية فيخفق المترجم في عمله . ومن هنا كان على جامعاتنا ومجامعنا ان يولوا علم اللغة التقابلي اهمية خاصة ، وان تصنف المعجمات الخاصة في ضوء هذا العلم . وهذه المعجمات تتسع لمقابلة لغتين احداهما عربية والاخرى اجنبية ، مقابلة تشمل اصواتهما وصرفهما ونحوهما ودلالة الفاظهما ، ليسهل عمل المترجمين بالرجوع الى مثل هذه المعجمات . اما الملاحظة الثانية فتتصل بان المجامع اليوم تعنى بالمصطلح العلمي الصرف اكثر من عنايتها بمصطلحات علم اللغة وغيرها من الموضوعات الانسانية ، فما زال الدارسون يلوكون المصطلح الاجنبي لكثير من موضوعات علم اللغة .

ملاحظة اخيرة ومتواضعة ومختصرة على بحث د . حامد ربيع ، فقد جاء في البحث « لغات يهودية تكونت خلال اعوام التشرد » . وفي رأيي ان كلمة التشرد توحي بالعطف على هذه العصابات وافضل ابدالها ، وشكرا .

## ٨ ـ أزهر شريف

ملاحظاتي عن الكلام الفصيح والعامي ، ولذلك فهي لا تخص باحثا بذاته . حدد الكلام الفصيح او الفصحى تحديدا ممتازا ، د . البسام قال ذلك . ثم تطرق الباحثون الى الفصيحة وحددوها كذلك . اما العامية فلم تحدد . ماذا تعني بالعامية ؟ العامية في حروفها تغيير وهي حصرا ثمانية حروف يختلف في نطقها العرب . وكذلك في بنية الفاظها تغيير ، كما تسمعون إلهم بدل لهم ، وكثيرا من مثل هذه الالفاظ . وكذلك في العامية تغيير لدلالات الالفاظ ، هذه الدلالات تعني في العربية الفصحى والفصيحة شيئا وفي العامية تعني شيئا آخر . وكذلك اذا غير النطق في حرف واحد تغيرت الدلالة في اذهان العامة ، مثلا :

« ثقيل » ، ارجو الا اكـون ثقيلا ،«وتقيـل»بمعنى رزين في اذهان النـاس حتى المثقفين منهم . والعامية في تراكيبها كذلك تختلف عن اللغة الفصيحة ، فـالعراقي يقـول اريد اروح ويحـذف حروف الوصل هذه ، وكثير غير هذا مما يدخل ضمن التراكيب . لذلـك ارى من الافضل ان يقسم الكلام الى فصيح وعامي . الفصيح يشمـل الفصحى وهو كـما قال د . البسـام القرآن الكـريم ، وكلام الـرسول عليـه الصلاة والسـلام ، وكـذلـك التـراث الـذي نعـتز بـه . ثم الفصيحة وهي اللغة المبسطة ولغة العصر ، مما لا يختلف مع قواعد وقوانـين اللغة الفصحى . اما العامية فهناك لغة مغرقة في عاميتهـا جاءتنـا من عصور الجهـل والتخلف ، ثم ارتفع قسم من الناس بلغتهم فاصبحت لغة المثقفين . نحن نتفق اننا لا نريـد العاميـة ، ويجب ان نرتقي باللغة من هذه العامية . لكن كيف ؟

هذه الندوة مخصصة تقريبـا لهذا المـوضوع ، ولم تـذكر كيف نـرتقي بالعـامية ؟ في رأيي احسن طريقة هي ان ندرس العامية دراسة مختبرية وذلك عن طريق لجان الرصـد اللغوي التي اشار اليها د . الفيتوري ذلك لاننا سنحصر الالفاظ العاميـة وتراكيب العـامية والحـروف التي نختلف فيها ، ثم نشيع بـين الدارسـين والمدرسـين كيف نعلم هذه الحـروف وهذه التـراكيب وهذه الالفاظ للاطفال ولم ار ممن دعوا الى طريقة عملية للتخلص من العامية الا صوتين اثنين الصوت الاول صوت د . عبد العزيز البسام عندما دعا الى التشريع ، والصوت الثـاني صوت د . الفيتـوري عنـدمـا دعـا الى تعليم الام لانها هي التي تعلم اللغــة وليس الاب ، وهـذا صحيح . اذن الخطوات العمليـة ان نرتقي من العـامية المغـرقة الى عـامية المثقفـين ، ثم بعد ذلك من عامية المثقفين الى اللغة الفصيحـة. سيدي الرئيس هذا ما اردت ان اقوله . وشكـرا لكم .

**٩ ـ سليمان مزبان**

لديّ ملاحظة واحدة اثيرت في ضوء بحث د . الملائكة وهو غني عن التعريف في مجـال اختصـاصه لكن عنـوان البحث هو الـذي اوحى لي بهذه المـلاحظة . ففيـها يتعلق بالمصـطلح العلمي وعلاقته بـوحدة الفكـر القومي كـان بودي لـو استعرض في مقـدمة البحث شيئـا عن الفكر ، وكيف تبنى وحدة الفكر ، فيأتي تـوظيف البحث ، حيث لاحظت في عـرضه للبحث تفاصيل ذات طابع فني يتعلق بالتعريب ، واكد على جانبين : الجـانب الاصطلاحي والجـانب اللغـوي . فلو توقف لتجسيـد معنى الفكر ، وبـالتـالي بنـاء وحـدة الفكـر ، عـلاقـة الادراك بالمدركات ، وبالتالي تأثيرها على السلوك وبناء القيم .

ان اللغـة تملي القيم كـوعاء ثقـافي . الدقـة مثلا ، قيمـة الـدقـة تبنى في المـوضـوعـات العلميـة . صحيـح للجـانب العلمي حقله الخـاص وللجـانب الثقـافي حقله الخـاص ، لكن الجـانب العلمي قد دخـل ، ولم يـدخـل بشيء اسـاسي ، لكنـه دخـل في المجـال الثقـافي ، واستطاع المجال الثقافي ان يوظف بعض جوانب العلوم في سبيل تطوير الجانب الثقافي نفسه .

لكن تبقى اللغة في الحقيقة لـديها بعض الجـوانب الاساسيـة : جانب القيمـة الوصفيـة الذي تؤديه اللغة ، والجانب الخيالي ، والجانب المنطقي ، واخيرا الجانب النفسي ، ومـا تجسده من قيم في حـالات عديـدة . اعتقد ان مثـل هذه المـلاحظة قـد تؤدي الى دخول هـذا الموضـوع الجديد والمهم في توظيف الوجه اللغوي لبحث د . جميـل الملائكـة ، وصولا الى تجسيـد وظيفة البحث بشكل اكثر تجذيراً واكـثر توضيحـا ، عندمـا يتناول المصـطلح العلمي ووحدة الفكـر القومي . مع الشكر الجزيل .

**١٠ ـ احمد خطاط**

تعليقي ايضا سيكون في العامية . لقد نالت كثيرا من الاهتمام في هذه الندوة وخـوفونـا منها كثيرا ، مع ان عاميتنا ليست بهذا السوء . اولا ، كل النـاس وكل العـالم يحتفظ بلغتين ، لغة العامة ولغة الخاصة ، وهذا شيء متعارف عليه . ثانيا ، ان لهجاتنـا المحلية متحـدرة عن الفصحى وتحتفظ الان بكثير من الظواهر اللغوية وبالعبارات السليمة ، لانها تأثرت بالمفردات ولم تتأثر بـالاساليب . الان يقـولون « وين راح فـلان » ؟ و « محمد راح » ، « جـا محمد » ، فـالجملة الفعلية والجملة الـرسمية وكثـير من التعابـير التي لها صـدارة في الكـلام تستعمـل في العامية . اذن تاثرت العـامية في اخـذ مفردات كثيـرة من اللغات الاخـرى وماتت ، واخـر ما سيموت هي « جايخانة » من اللغة التركية . لهجاتنا المحلية فصحى وقريبة من اللغة الفصيحة كثيـرا فمثلا في بغـداد يقولـون يلعب ويكذب وهـاتان كلمتـان فصيحتـان . بينـما في تكـريت يقولون يمشي ويكذب ويلعب . احتفظت اذن هذه اللغة بالفصاحة في تكريت وفي المـوصل . « النيس » هي قـراءة في القرآن الكـريـم « قل اعـوذ برب النيس » . يقـولون « قيم » ايضـا ، وكل لهجاتنا تخلو من هذه المسـألة . اذن انـا اذهب الى غير مـا ذهب اليه الاخـوة ، انا اقـول ينبغي ان نستفيد من العامية ، كيف تحدرت من الفصحى الى العامية ، فنصعد بها صعـودا ، من العامية الى ان نصعد الى الفصحى .

الحقيقة هناك مسـألة ينبغي ان نخـرج بها من هنـا . يجب ان نحدد الاسـاليب والسبل لمسيـرتنا في قـابل ايـامنا ، لتعـود الفصحى الى كلام اطفـالنا ، والى اسـواقنا ، والى مـدارسنا وكليـاتنا ، لا نـريد ان نختصـر الزمن ونصـور هذه المسـألة كـانها شبح كبـير . الشبـح ابتـدأ يضمحل ، ابتدأ يصرخ . اللهجات المحليـة اضمحلت . كم منا يعـرف كثيرا من الكلمـات القديمة لا تستعمل الان ؟ شيوخنا الان قد يستعملون الفاظا لا نستعملهـا نحن . انا تكلمت البغدادية وتكلمت الموصلوية وتكلمت التكريتية ، ولكنني عنـدما التقي بـرجل مثقف اتكلم بلغـة المثقفين . اذن بعـد عشر سنـوات او عشـرين سنـة ستعـود الفصحى فعـلا الى لغتنـا . وشكرا .

**١١ ـ عبد علي الجسماني**

إن تجديد الحديث عن القوميـة . كما نحن بصدده اليوم ، يجعلني في الواقع استعيد ما ذكره

د. عبد العال الصكبان إذ قال : نحن عندما تعلمنا «بلاد العرب اوطاني من الشام لتطوان » هذا تعلمناه في المدرسة ، وبقي الى الان مؤثرا في نفوسنا ، ولكن لدينا الان اللغة ، ولدينا القومية ولدينا الامة . فأرجو من هذا المؤتمر ان يخرج بتحديد هذه المفاهيم . وان كانت الامة موجودة والمفاهيم موجودة من غير شك ، وهل الامة هي مفهوم يبنيه الذهن تعبيرا عن وضع مشترك عام ؟ واية اصول يراد بها تحقيق تجلياتها في المكان والزمن ؟ اهي عقلية مبدعة ام بنيان متلازم المظاهر بالتداعي كما نقول في علم النفس ؟

في الواقع نحن نعرف متى تتجلى او تعتلي الصورة في الذهن فانها تعبر عن ذاتها وتظهر على سواها . واستعانت العبقرية العربية في انشائها بالاصوات التي تحدث في الطبيعة الخارجية ، ونعرف هذا مثل خرير الماء والاصوات الطبيعية . فعاش الواقع الوجدان وعاش الطبيعة والبيئة كما ذكر د . القيسي امس . والواقع نحن نريد هنا ان نستجلي الرابطة الاشتقاقية بين الكلمات العربية ، بحيث تصبح الكلمة بأسرها كالنغم في تضافره مع شقائقه الانغام في دعوة الالهام عند التجلي في ساحة الوجدان . وهنا لي كلمة اود ان اقولها وهي : نحن هنا فما هو المردود التربوي ؟ وما هو المردود النفسي ؟ وما هو المردود الاجتماعي ؟ فيمكن ان اذكر فقط بما يتعلق باختصاصي وهو في الجانب النفسي والجانب التربوي ، ثمة مزايا للكلمة العربية فلسفية اخلاقية شعرية تصورية ، ثم نزعة تربوية . هذه كلها ارجو ان تتجلى اذا ما اردنا ان تعم اللغة الفصحى وان تاخذها القومية بنظر الاعتبار . فمثلا عندما نعلّم، فنحن نعلم ان التربية من معانيها النحو باشتقاقاتها ( ربى - يربو ) وهذا يلائم تكوين الانسان بوصفه شعورا ووجدانا وروحا . فبالكلمة المفعمة بالمعنى المرن يبدأ عادة واقع الحياة عند الانسان العربي ، فيرتفع الى مستوى الوجدان نائيا بذلك عن مستوى الغريزة فتبلغ الحياة عنده سن الازدهار بالمعاني،ولكن كيف نوقظ الشعور بحيث يتجلى الانسجام ويسود الشعور المستيقظ ويدب في العبقرية العربية كما هي عند امتنا ، استجابة لمنبهات البيئة ؟

العبقرية العربية استندت الى الرؤية والمشاهدة والحس وهذا ما نؤكد عليه في علم النفس وفي التربية ، والخيال والتفكير ، وهذه كلها جوانب مما تؤكده التربية . واخيرا آن لي ان اقول ما يأتي : نحن في الواقع هنا في هذا المؤتمر ونريد ان نخرج بتوصيات تنفعنا في المستقبل ، هل لنا ان نعود الى اللغة ابتداء من المدرسة الابتدائية ؟ - وهذا يتطلب اعداد المعلم واعداد الكتاب من جديد ، وهنا ممثل وزارة التربية د . سليمان ، ونحن جميعا نتعاون وهذه مسألة وطنية وقومية وليست مسألة فردية ، ولا نلقي بالعبء على وزارة التربية وحدها ، ثم التأكيد على الفصيحة في المدارس في سائر الدروس وليس كقواعد تحفظ ، وبعدئذ المعلم يتكلم بطريقة ، والطالب يتكلم بأخرى . العناية بإحياء التراث ومفكريه ، وفي كل ما يكتب . والواقع نجد لمحات ونقرأ قسما منها ، وانا اضرب مثالا ، لو يسمح لي د . القيسي . لقد قرأت كتاب **البطل في التراث** ، وكم اثار فيّ من المشاعر ، ويا ليتنا نعود الى العناية بهذه الجوانب ونحييها. ثم الوعي القومي ينعكس عادة في التجديد ، في مرونة اللغة

لتحتوي متطلبات العصر وما جدّ فيه من مبتكرات ، وهناك محاولات اذكر على سبيل المثال كتاب **العربية تواجه روح العصر**، وكتاب **التطور اللغوي في التاريخ** ايضا للدكتور السامرائي . هذه المحاولات تستوعب ما جدّ من روح العصر . وهذا يؤكد كلام د . الملائكة ايضا . ونحن هنا علينا ايضا ان نأخذ الجانب التربوي والجانب النفسي والجانب الاجتماعي وندخله كموضوعات متبطنة متضمنة في كل ما نكتب وما نقول . من هذا المنطلق لنوقظ احساس المتعلم بدلا من ان نثرثر.

## ١٢ ـ احمد حقي الحلي

كلمة بسيطة لان لجنة الصياغة اشغلتنا بكتابة ملخص . لم نستطع ان نستمع الى بعض الاخوة في البحث القيم الذي تقدم به الاخ يوسف ذنون عن الخط العربي . لاحظت انه اعطى امثلة جميلة عن اشهر الخطاطين : الحافظ عثمان ومحمد امين الرفيتي . . . الخ ، وكان بودي ان يلتفت الى الشخصيات التي اشتهرت بهذا الفن العظيم لا سيما في العصر العباسي مثلا : تذكر لنا الكتب ان ابن البواب الخطاط العظيم بيعت مخلفاته ، وهي اقلام القصب واوراق كان يكتب عليها قبل ان يخط كتابا او شيئا ، هذه بيعت بمبلغ خمسمائة دينار في ذلك الوقت ، مما يدل على قيمة هذا الخط . ولاحظت انه كان يشهد انهم كثيرا ما يزينون المباني في البلاد الاوروبية بالخط العربي ويعتبرونه زخرفة ، وقد رأيت في احدى الكنائس في اسكوتلاندا « بسم الله الرحمن الرحيم » فسألت القس ما هذا ؟ قال : هذا نقش . فقلت له اذا قلت لك المعنى اتقسم ان لا تمحوه . قال نعم فقمت بترجمة التعبير اليه بالانكليزية . قال : اذن نحن في المحراب وضعنا قرآنكم . اعني هذه الاشارات يمكن ان تُري الخط العربي ومقامه . وفي كثير من المحلات لاحظت زخرفة للخط الجميل ولا سيما الكوفي .

## ١٣ ـ حامد ربيع

في الواقع مجموعة الملاحظات التي سمعتها حتى الان نستطيع ان ندمجها في اربع مجموعات من الناحية الموضوعية . المجموعة الاولى وهي المتعلقة بالنواحي العلمية التي طرحها د . البسام . والواقع انني متفق معه . كل ما هنالك انه يبدو لي عدم وضوح فيما قلته او فيما اطلقته . لا شك ان ( **لافين** ) متنازع عليه ، وان هناك من يعتبره امتدادا للمدرسة الالمانية التقليدية ، امتدادا للمدرسة السلوكية . لكن على كل حال **لافين** بدأ صفحة جديدة عندما قرر ان يدرس الدعاية الصهيونية بتكليف من سلفر في عام ١٩٤٦ . من ذلك التاريخ بدأ يدخل في الاعتبار مفاهيم جديدة في تحليله للظاهرة الجماعية بغض النظر عن هذا فان الولايات المتحدة او التقاليد الامريكية بدأت تستعيد نفسها فيما يتعلق بالتحليل السلوكي ، لكن ليس بالمعنى الذي نتصوره . انها تتقبل مفهوم القيم في نطاق السلوكيات وكل الكلام يمكن ان نلخصه بكلمتين : ان تحليل الظاهرة النفسية اخذ ثلاث مراحل ، او اخذ ثلاث مدارس حتى ندخل العامل الزمني : مدرسة نفسية تقليدية ، والتي ينتمي اليها بياجيه ؛ ثم المدرسة السلوكية التي بدأت قبل بياجيه واستمرت معه ؛ ثم المدرسة اللاحقة للمدرسة

السلوكية . المدرسة اللاحقة للمدرسة السلوكية تأثرت بالمدرسة النفسية التقليدية ، انها اخذت مفهوم القيم لكن لا تزال تنطلق من فكرة السلوك . المهم الذي اريد قوله اني لا استبعد التحليل النفسي ، وانما اقول انه ليس كافيا ، وانما يجب ان يكون الى جانب التحليل النفسي التقليدي الذي هو تحليل الفرد في عملية استقباله في عملية التنشئة الاجتماعية . هناك تحليل الجماعة في تكوينها للغة وفي تعبيراتها . فيها ناحية فردية وناحية جماعية واقول جماعية وليس اجتماعية .

فالمسألة التي اريد ان اقولها او الخصها انني لا امانع في الدراسة النفسية ولا امانع في تحليل السلوك من منطلق ناحية استيعاب اللغة ابتداء من الفرد ، وانما يجب ان يضاف الى الحاجة الجديدة التحليل السلوكي الجماعي . ولذلك انا اتفق مع رأيكم بهذا الخصوص سواء من ناحية التأصل والتأثير ، او من ناحية اهمية التحليل النفسي . لكن اختلف بالقول ان هذا ليس كافيا ، يجب ان يضاف اليه اشياء اخرى .

النقطة الثالثة المتعلقة باللغة العربية بما فيها من القيم . لكن اين الدراسة التي استطاعت ان تقدم لي تلك القيم العفوية وتلك القيم والمثاليات عبر اللغة ؟ في اللغة الانكليزية مثلا يقال : ان اللغة الانكليزية لغة الديمقراطية لماذا ؟ لانها لا تعرف الجمع بالنسبة للفرد فلا تقول للشخص الواحد « سيادتكم » وفي اللغتين الايطالية والاسبانية ، ذكرت في البحث من اجل التفصيل ، عندما نتحدث عن الشخص بالتعظيم تعطيه صفة المؤنث . هذا كله تعبير عن قيم معينة . هذا النوع من القيم لم يوجد درس له بعد في اللغة العربية ، ويا حبذا لو وجد ، ولا يغني عنها القرآن ، لان القرآن قيم واخلاقيات مثالية متعلقة ليس باللغة وانما متعلقة باشياء اخرى .

النقطة الاخيرة المتعلقة بالوحدة الثقافية . في النهاية اؤكد امرا واحداً : نحن في هذه اللحظة نعيش ثورة حقيقية في التحليل السلوكي ، واساسها لفظ التقاليد السابقة حتى خمسة او ستة اعوام سابقة .

المجموعة الثانية من الانتقادات المتعلقة بالناحية الثقافية والفكر العربي القومي في غالبيتها العظمى كانت نتيجة تحمل النص اكثر مما يحتمل . ففيما يتعلق بالادب الجماهيري ،فالواقع اني اميز بين الادب الجماهيري والادب الشعبي ،وقد احلت الى العالم المشهور موست . لكن على كل حال هناك فرق بين الادب الشعبي والادب الجماهيري وهو هنا ما سماه موست عملية تأميم الجماهير . والناقد هنا يعطي النص اكثر من معناه. هذا ما قلته ،انا لم آتِ على ذكر كل ما هنالك . والعبارة واضحة لو نقرأها . الامر ليس قاصرا على مناطق الاقليات فتنتشر في الاطراف بل ان بعض مناطق القلب لتعيش في حالة اقل ما يمكن ان توصف به انها تعبير عن التعدد اللغوي . ونذكر لبنان وتونس على سبيل المثال . والرجوع الى نص البحث يبين العلاقة بين التعدد اللغوي والوحدة . وان اوروبا رغم لغاتها التسع تسير نحو الوحدة ، الوحدة الحضارية .

المجموعة الثالثة ، من الملاحظات اثارها د . الصكبان لانه لم يحضر العرض الذي بدأت به ولو فعل لفهم العنوان . قد يكون العنوان معقدا قليلا لان لغته علمية اكثر مما يجب . والموضوع هو: التطور المعاصر لوظيفة سياسية للغة واثر ذلك على بناء السياسة القومية واعتقد ان هذا المعنى في منتهى الوضوح . وقد وقف امام بعض الكلمات ايضا واعتبرها نتيجة عدم معرفة للغة العلمية . كلمة « ميكانيكية » مثلا ، و « عاطفة ميكانيكية » واوصد بها التعبير مباشرة ، يعني الاستجابة لمنبه دون ان يتدخل اي عامل آخر بينهما . و « ميكانيكية » ليس هي « الميكانزمية » ، « الميكانزمية » شيء اخر ، غير « الميكانيكية » .

واعتبر كذلك انني اوجه النقد الى الحركة العربية . الواقع هذا غير صحيح . لقد تعرضت للفكر القومي العربي التقليدي ، ولم اتعرض اطلاقا للحركة العربية . لم انتقد ؛ وكتاباتي في هذا عديدة . ولكن اقول بصراحة بضرورة اعادة النظر في كل ما قدمت تلك الفلسفة ، اعني الفكر القومي العربي ايضا . بالنسبة للنقد الذي اقول فيه ان الفكر العربي كتاباته وعواطفه غير عميقة .

آخر نقد لي اني كررت ما قاله د . سعدون حمادي . هذا غير صحيح فقد ذكرت خمسة عناصر ، منها عنصر واحد فقط ذكره د . سعدون حمادي واتحدى ان يؤتى بذكر كلمة واحدة من العناصر الاربعة الاخرى : التماسك الحركي ، حماية الامن القومي ، كلمة الامن القومي لم ترد ، كلمة الوظيفة الحضارية لم ترد ، كلمة الاندماج الادراكي لم ترد . اربعة اشياء اخرى لم ترد اطلاقا .

واخيراً فإني اتهم بالتعاطف مع اليهود عندما اقول التشرد . لا ، انا اؤكد بهذا انهم لم يكونوا في تاريخهم شعبا . واؤكد ايضا في احد عناصر البحث ان الفشل الحقيقي في المجتمع اليهودي انه رغم نجاحه في العشرين عاماً الاولى، سيكون في وجود اربع لغات كما يتوقع جميع خبراء تحليل الصهيونية . مجتمع صغير له اربع لغات ، معنى ذلك انه لم يستطع ان يحقق اي تكامل او اندماج طبقي .

## ١٤ - جميل الملائكة

اني اؤيد ما تفضل به د . صالح العلي من ان بعضهم يبالغ في ضرورة ايجاد مقابل دقيق للمصطلح الاجنبي . وقد اكدت في بعض ما عرضته من ان المصطلح يوضع حتى لا تقع ادنى ملابسة . وفي التمثيل بالقطار لا يعدو معناه صفا من الابل . ولكنه اصطلاح سار وقبل ، وهو يرى جرد المصطلح القديم لما فيه من الفاظ تفيد في المصطلح الجديد ايضا . وانا اؤيده في ذلك . حبذا لو قامت جهات علمية بهذا . هناك كتب كثيرة مثل الجبر والمقابل للخوارزمي والمناظر لابن الهيثم ، وغيرها من الكتب . وكنت قد جردت مصطلحات المياه الجوفية في كتاب باطن المياه الخفية للحاسب الكرجي ، ووجدت فيها كثيرا مما يضعنا في لجنة الهندسة .

لجنة الحضارة في المجمع سابقا كانت قد بدأت منذ مدة في جرد المصطلحات العلمية والحضارية في مقدمة ابن خلدون ، ولكنها توقفت ولم تنجز عملها . حبذا لو استؤنف هذا العمل فيما تفضل به د . نعمة عبد العزيز من الاهتمام بعلم اللغة التقابلية . كما اؤيد مقابلة الاصوات والنحو والصرف ودراسة الالفاظ والترجمة وقوله ان المجامع تعنى بالمصطلح العلمي ولا تعنى بمصطلح اللغة . يا حبذا لو عني المجمع ايضا بمصطلح اللغة . اني اؤيد هذا . اما ما تفضل به الاستاذ مزبان من الكلام عن ضرورة بحث موضوع الفكر القومي ، فأؤيده ايضا في موضوع الادراك والمدركات والجانب الخيالي والنفسي وتأثيره على السلوك ، وبناء القيم في وحدة الفكر ، والفكر . ولكني اعترض بانه لم يكن مجال البحث ليستوعب كل هذا وقد يكون فيه مجال لبحث اخر مختص يقوم به . وشكرا .

### ١٥ ـ حاتم الضامن

اشكر د . العزاوي على ملاحظاته التي اجهد نفسه فيها كثيرا ، ولا ادري لم لا يتناول البحوث الاخرى . فأنا وهو كما يقول المثل « اهل مكة ادرى بشعابها » فبصدد نزول القرآن الكريم بلغة قريش اعتمدت على اكثر الروايات واستبعدت الروايات التي لم يتفق عليها . وبصدد اللحن ، اي الخطأ في كلام الموالي ، فقد ظهر اول ما ظهر عند الموالي . و«خشية كذا» و«خشية من كذا » روايتان مستعملتان صحيحتان . و « العزلة بين الابناء » صحيحة ، قياسا انه يقال « بينهما صلة » و « بينهما عزلة » فاين الخطأ ؟ وشكرا .

### ١٦ ـ محمد جابر

قال النبي محمد ( ص ) : «إنما الاعمال بالنيات ، وانما لكل امرىء ما نوى» . الحق لست من المتحزبين للسامية والساميات ولا للمستشرقين ، ولكني اردت رفع قدر العربية بمقارنتها بمثيلاتها لا اكثر ولا اقل . وكنت اظن ان د . احمد مطلوب يكون اكثر تسامحا من غيره في اعتراضه على هذا ، لانني رأيت في بحثه ذكر الساميات في ثلاثة مواضع . وبطبيعة الحال المسألة ليست مسألة اقرار او انكار ، قبول او رفض ، ليست مسألة اعتباطية ، وانما هناك امور ينبغي ان نتعرف عليها وان نلم بها وان نستمع اليها ، وان نتولى درسها بغض النظر عن الانفعالات .

اللغات السامية عولت على المستشرقين الالمان وقد استمعنا جميعا الى نصوص ما قالوه ، ما قالوا اكثر مما نقول . واذا كنت قد عولت عليهم فلا يتصدى لي من يقول « كل فتاة بأبيها معجبة » فيما يقوله العربي بالعربية فيما ارى لا يضاهي ما يقوله كبار المستشرقين في رفع قيمتها ومقارنتها وتبيان رسوخ قدمها وعراقتها واصالتها بوفائها بمستلزمات الحياة .

لترفض السامية او تقبل ولكن هناك المعجمات وهناك معجمات عربية حديثة . فالمعجم العربي لعبد الله العلايلي ، وهو من المعنيين بالعربية مقارن بالساميات ، المعجم

الكبير الذي يشرف عليه المجمع العلمي في القاهرة يتصدى لمقارنة اللفظ العربي بالساميات . ومعجمات عربية سامية ( لميرغلي الدومنكي ) مطبوع موجود . ولست من المتخصصين بالسامية ، ولا يعنيني اصولها ومن اطلق التسمية وانما كل الذي اردته تشويق المتعلمين والمعلمين بابراز قيمة اللغة العربية اذ كيف ابرزها بغير مقارنتها ؟ كيف اطري عليها واثني عليها وانا ابن من ابنائها ، ومن سيستمع لي ؟ لذلك قلت واقول « انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى » . هذا ما اردت . واعتذر لتعويلي على اقوال المستشرقين . وعن اطلاق لفظ الساميات .

اما القول بأن الساميات لغات عربية ، فأرجو ان اطلع على ما كتب في هذا المجال فكيف تكون العبرية عربية ؟ كيف تكون الآرامية عربية ؟ لقد اطلعت ، والحق انني لست مبتدعا ، وانما انا متبع ، اطلعت على اقوال المتخصصين لا اكثر ولا اقل ، فارجو المعذرة .

**١٧ - يوسف ذنون**

بخصوص ملاحظة د . احمد حقي الحلي والتي اشكره عليها اود ان اقول ان تاريخ الخط العربي قد حفل باسماء الخطاطين العظام وقد ألفت لذلك كتب كثيرة مثل **طبقات الخطاطين** للسيوطي ، **وتحفة الخطاطين** لمستقيم زاده **وخط خطاطان** لحبيب افندي وغيرهم كثير . وقد اكتفيت بذكر ابعدهم ذكرا . وقد ورد اسم ابن البواب بالذات في اصل البحث الذي قدمته مختصرا . واما النقوش الكتابية ، وفي اوروبا بالذات ، فانه قد صدر فيها عدة مؤلفات منها للدكتور حسن الباشا ود. بانسي ولكنها لم تغط الا جزءا يسيراً منها . وهذا موضوع يطول شرحه .

# القسمُ الرابع

# الفصل الثامن

# اللغة والوجود القومي

ياسين خليل

- ١ -

تباينت النظريات بصدد نشأة الامم والقومية[١] ، وتعارضت الآراء والاتجاهات الفكرية والفلسفية ، وبلغ التناقض مبلغه بين المدافعين عن الضرورة القومية باعتبارها التعبير الحقيقي عن كيان الامة ، والضرورة الاممية باعتبارهـا الهدف الانسـاني الكبير للمجتمـع البشري[٢] . وبـرز عدد غـير قليل من الفـلاسفة والمفكـرين في العصر الحـديث ، تناولـوا مـوضـوع الامـة والقومية بـالدراسـة والتحليل ، فـذهبوا في استنتـاجاتهم مـذاهب شتى[٣] . ولا نريـد في هذا

---

(١) تختلف النظريات القومية في الاساس الذي تقوم عليه ، فمنهـا ما تقـول ان الله خلق الامة او ان الطبيعة خلقت الامة . واخرى ترى ان جذور القومية بدأت بالجنس والقبيلة والدم والغريزة . واخرى ترى ان الامة نتـاج للبرجوازيـة وحـاجتها الى الاسـواق والمكانـة . واخرى تـرى ان الامـة نشأت نتيجة للكفاح من اجل البقاء والرغبة في السلطة . واخرى ترى ان اللغة توحد الامة داخلياً وتميزها وتفصلها عن غيرها من الامم . واخرى ترى ان الامة تكونت نتيجة لحاجة الانسان للحياة الاجتماعية واخرى تـرى الامة نتيجة لتاريخها المشترك . انظر : بويد شيفر ، **القومية : عرض وتحليل** ، ترجمة جعفـر خصباك وعدنان الحميري ( بيروت : دار مكتبة الحياة ، ١٩٦٦ ) .

(٢) ظهر عدد من المفكرين والفلاسفة ينادون بالولاء للجنس البشري وليس لامة من الامم ، وقـد تزعم هذه الحركة العالمية الاممية في القـرن الثامن عشر كل من هيـوم ( ١٧١١ ـ ١٧٧٦ ) وفولتـير (١٦٩٤ ـ ١٧٧٨ ) وغوته ( ١٧٤٩ ـ ١٨٣٢ ) وكانط (١٧٢٤ ـ ١٨٠٤) وغيرهم .

(٣) يرى فيخته ( ١٧٦٢ ـ ١٨١٤ ) انه اذا ما تركت الامة لتكوين نفسها وكذلك كل فرد في الشعـب ، فـإن هذا التكـوين يكون وفقـاً لمشيئة القـدسية الالهيـة ، بينما نجـد هيغل ( ١٧٧٠ ـ ١٨٣١ ) في فلسفتـه يشيد بـالدولـة القوميـة باعتبـارها المثـل الاعلى ، لأن الـدولة هي غـاية التـطور التاريخي . ويـرى هوستـن تشمبـرلن (١٨٥٥ ـ ١٩٢٧) ان العـرق هو الاسـاس في تكوين الامم ، وان المـدنية الحاضـرة مدينـة لعبقريـة الشعـوب الجرمانية . وهذا امر يوافق ما ذهب اليه هنريخ ترتيشكة ( ١٨٣١ ـ ١٨٩٦) من ان القومية ليست الا تعبيراً عن فكرة الدم المشترك .

البحث دراسة النظريات القومية المختلفة او نقدها، بل تتلخص غايتنا في فهم العلاقة بين اللغة والوجود القومي اولاً ، ودراسة العلاقة العضوية بين اللغة العربية والوجود القومي العربي ، ثانياً .

وبناء على ذلك سأتناول في هذا البحث بالدراسة الاوجه المختلفة للعلاقة بين اللغة والوجود القومي وفق الخطة الآتية :

أ ـ تعريف بعض المفاهيم الضرورية في الفلسفة القومية .

ب ـ تعريف اللغة وتحليل ما تنطوي عليه من ابعاد ضرورية ، لها صلة بالوجود القومي .

ج ـ دراسة الصلة بين اللغة والحضارة والامة .

د ـ دور اللغة العربية بالنسبة للعرب باعتبارها لغة التنزيل .

هـ ـ تحليل مذهب تنقية اللغة العربية من الشوائب .

و ـ اهمية اللغة العربية في دعم الوجود القومي على صعيد الادب والفكر والعلم .

ز ـ التحديات المختلفة التي واجهت اللغة العربية في العصر الحديث ، وانعكاساتها على الوجود القومي العربي .

وفي سبيل تحقيق ما جاء في الخطة من مفردات ، سألتزم بمنهج موضوعي يعتمد التحليل والنقد وتوثيق المقدمات اوالمبادىء بالنصوص الضرورية ، واستنباط النتائج من المقدمات والبرهان عليها من خلال الحوادث والوقائع ، والابتعاد ، كلياً ، عن غموض العبارة او تضمين البحث اراء ميتافيزيقية او انفعالية ، والالتزام بالخصوصية التي تمليها ظروف التطور التاريخي والحضاري للامة العربية ، من دون اعتماد نظرية قومية جاهزة او مسبقة ، والبحث في جوانب التاريخ والحضارة والفكر لتأييدها .

ـ ٢ ـ

اختلفت الآراء بالنسبة لنشأة القومية ، فمنهم من يراها ممتدة في التاريخ متمثلة بالنزعة القبلية ، وذلك على اساس ان لكل قبيلة لغة او لهجة معينة ، ونمطاً خاصاً من التنظيم الاجتماعي ورعاية دينية وحضارية ، ومجموعة خاصة من التقاليد غير المدونة ، واسلوباً خاصاً في التمهيد للشباب للمشاركة في الحياة الاجتماعية ، وحب القبيلة والولاء لها(٤) . ومنهم من يرى ان القومية ظاهرة حديثة تولدت في العصر الحديث نتيجة لوجود ظروف معينة في المجتمع

---

(٤) انظر : M.H. Boehn, «Nationalism: Theoretical Aspects,» in: *Encyclopaedia of the Social Sciences* (New York: Macmillan, 1948), pp. xi-xii and 231-240.

الاوروبي ، وانه من الخطأ السير مع الـذين يرون ان العـاطفة القـومية مـوجودة دائـماً ، يمكن تتبعها بصور زمنية متسلسلة من جذور نبتت في المجتمعات البدائية والتاريخية الاولى(٥) .

ان مـوقفنا من هـذه الآراء مختلف لسبب بسيط هو ان جميـع هـذه الـدراسـات تنـاولت بالبحث مظاهر معينة ، تتفق او لا تتفق مع موقف الباحث في تعريفه للقومية او تحديد سماتها الرئيسة ، فلو تبـدلت التعريفـات لاختلفت النتائـج ، كما ان الاغفـال المتعمد او غـير المتعمد لدراسة نهوض الامة العربية في ظل الاسلام والتحديات القومية التي فرضتها شعوب اخرى ، واقتصار معظم الباحثين على تتبع جذور التاريخ الاوروبي باعتبار ذلك هو النمط الامثل ، قـد اوقعا الباحثين في اخطاء كثيرة .

لا شـك ان مصطلح « القـومية » حـديث العهد ، وانـه من المصطلحـات التي ابدعهـا الفكر الاوروبي ، وقد اكتسبت القومية معناها السياسي والفكري ( الايديولـوجي ) من خلال حـركة الشعـوب الاوروبية ونهوضهـا العلمي والحضاري الـذي بدأ بمحـاولات الانفصال عن السلطة الدينية البابوية والكنسية ، وانتهى ببناء الدول القومية المختلفة . وتعزز هذا الانفصال بالنشاط المثابر لتعزيز الاستقلال الوطني ، وبلورة كيانات لغوية وحضارية متميـزة تفصل بينهـا حدود جغرافية وسياسية .

. . . لقد جذبت الفكرة القومية في التاريخ المعاصر ، اليها قلوب الملايين من البشـر في شتى انحاء المعمورة ، فكانت وما زالت ذات تأثير كبـير يبلغ حد السحـر في بعض الاحيان ، تتحرك في هدى معانيها جماهير غفيرة من الناس باتجاه تحقيق اهداف كبرى ، فتصبح التضحية اداء للواجب ، والثورة وسيلة للانقـاذ من الضياع ، والعمـل على جمـع الشتات في ظـل دولة واحدة ، تعبيراً عن روح الامة ، هدفاً لا مناص من تحقيقه .

وعلى الطرف الآخر اثارت الفكـرة القوميـة مجموعـة واسعة من البشـر باتجـاه مقاومتهـا بأساليب عمليـة ونظريـة ، وتباينت التفسيـرات والاجتهادات المعـادية، فمنهم من وجـد فيها اسطورة جديدة مثيرة لنزعات كامنة للعـدوان والتوسـع قد تؤدي ، وفي الغـالب ، الى اشعال الحروب وتهديد السلام العالمي ودمار البشـرية . وشـرعت الاطراف المتبـاينة تجنـد الاقلام من اجل اثبات شرعية وجهة نظرها ، فكان لكل فريق شعـراء ومفكرون وادبـاء وفلاسفـة وعلماء اجتماع ، وفي السياسة والتاريخ والاقتصاد .

واختلفت التعـريفات « للقـومية » بـاختلاف الـنظريات والاتجـاهات الفكـرية والتـطور التاريخي للامم والطابع الحضاري والثقافي للمجتمع(٦) . وهكذا نـدرك بوضـوح عدم وجـود

(٥) شيفر ، القومية : عرض وتحليل ، ص ٦٨ .

(٦) لا شك ان الظروف المختلفة التي احاطت تـطور المجتمعات من الـنواحي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية كانت سبباً في اختلاف التعريفات للقومية عند الفلاسفة والمفكرين ، فمنهم من جعل العامل السياسي في المقام الاول ، بينما وجد آخرون ضالتهم في التأكيـد على عـوامل اخـرى مثل : اللغـة والعرق والتاريـخ والحضارة لتحليل نشوء الامم والقومية وتعريفها .

اتفاق على تعريف واحد « للقومية » ، وعدم امكانية التوصل الى تعريف جامع مانع لها يقبل به جميع الاطراف ، اذ لا يوجد تعريف الا وله استثناء او اكثر[٧] . فإذا قلنا ان « القومية » تعني الشعور بالانتماء الى شعب معين ، له كيان حضاري متميز او ثقافة معينة ، كان المبدأ الحضاري او الثقافي هو المسؤول عن وحدة الامة واختلافها عن الامم الاخرى[٨] . واذا قلنا ان « القومية » تعني الولاء للدولة التي تعبر عن مصالح الوطن والمواطن ، كما تعبر عن سيادة الامة واستقلالها ، كان المبدأ السياسي هو العامل الحاسم في ترابط الامة والتعبير عن ارادتها[٩] . واذا قلنا ان « القومية » تعني حب الأرض التي عاش فوقها الاسلاف وتوارثتها الاجيال المتعاقبة ، فاكتسبت قدسية خاصة تحتم على مجموع الافراد او الابناء التضحية في سبيل المحافظة عليها وعدم التفريط بشبر واحد منها ، كان المبدأ الطبيعي او الجغرافي هو العامل الذي يشد افراد الامة بعضهم الى بعض في وحدة جغرافية معينة[١٠] . واذا قلنا ان « القومية » تعني الولاء المطلق للامة ، وان على مجموع الافراد الدفاع عنها ضد الاخطار الداخلية والخارجية ، بحيث تصبح الامة في نظر كل فرد ، كياناً مقدساً يعلو مجموع الافراد ، كان المبدأ القومي هو الاساس في الوحدة والتمييز[١١] .

(٧) نتيجة لاختلاف تعريفات القومية وتأكيد كل تعريف على عامل واحد دون غيره، فإننا نلمس بوضوح استثناءات لكل تعريف . فإذا كان العرق في تعريف القومية هو العامل الاساس ، فإننا نجد شعوباً تطورت فيها القومية وهي مختلفة العروق، مثال ذلك الولايات المتحدة الامريكية . واذا كانت اللغة هي العامل الحاسم في تعريف القومية ، فإننا نجد دولاً قومية تتألف من اكثر من مجموعة لغوية، مثال ذلك الاتحاد السويسري . . . . وهكذا .

(٨) هذا تعريف يعتمد على عامل معقد التكوين والبناء هو الحضارة او الثقافة ، وهو اكثر التعريفات شيوعاً ، لأن الحضارة نتاج انساني معقد التركيب تختلط فيه وتتفاعل عوامل كثيرة مادية وغير مادية ، اضافة الى كونه ارضية واسعة ينشأ الانسان في احضانها ويرتشف منها مجموعة واسعة من القيم والاهداف وآداب السلوك وكل ما يمت بحياة الانسان بصلة ، فهي بذلك القاسم المشترك بين جميع الافراد المنتمين الى امة واحدة ، تؤلف بينهم وتحدد سلوكهم المشترك وتدفعهم نحو تحقيق اهداف مشتركة .

(٩) يميل عدد غير قليل من المفكرين والفلاسفة ومنهم هيغل الى الاعتقاد بضرورة المطابقة بين الدولة والقومية ، وذلك على اساس ان الدولة هي التعبير الحقيقي عن الارادة القومية للامة . ومن المعروف ان شلايرماخر (١٧٦٨ - ١٨٣٤ ) كان من الداعين الى ان تكون الدولة غاية تتجلى في المحافظة على وحدة الشعب وحدة حقيقية وطبيعية وضرورة التعبير عن هذه الفكرة في كل مظاهر الحياة .

(١٠) لقد ذهب الى هذا الرأي عدد غير قليل من المفكرين القوميين ، حيث وجدوا في الارض اماً توحد بين الافراد، ويزداد شعورهم ارتباطاً بالارض عندما يدركون انها مصدر حياتهم ومعاشهم ، وانها المكان الذي يضم رفاتهم . ولا شك ان المفكرين امثال مونتسكيو (١٦٨٩ - ١٧٥٥) وهيرور (١٧٤٤- ١٨٠٣) وبكل (١٨٢١- ١٨٦٢) وغيرهم قد اكدوا على اهمية عامل الطبيعة والمناخ في خلق الفروق بين الامم ، فكان ذلك اساساً لعدد من المفكرين القوميين في طرح نظريات قومية في نشوء الامة والقومية والدولة .

(١١) لقد اخذ بهذا المبدأ عدد من الفلاسفة الذين تنحو فلسفتهم باتجاه الميتافيزيقا احياناً . فافترضوا للامة كياناً عضوياً يعلو فوق الافراد ، او انها وجدت باختيار الهي، او انها تنحدر من جد اعلى له طبيعة الهية مقدسة . ولكننا لو ازلنا الآثار الميتافيزيقية عن هذا المبدأ لوجدناه سلبياً ، فهو يفترض الولاء للامة باعتبارها معبرة من خلال القوانين والمؤسسات المختلفة عن طموح الافراد واهدافهم ووحدتهم .

وعلى الرغم من اننا في هذا البحث لا نتوخى مناقشة الفلسفات القومية وما ينجم عنها من تعريفات « للقومية » ، الا اننا في الوقت نفسه نقول بأن هذه التعريفات واخرى غيرها ، غالباً ما يكتنفها الغموض ، كما انها تعبر عن نظرة احادية الجانب ، بحيث يصبح من البساطة بمكان ، ايجاد الادلة على بطلان كل واحد منها بايراد بعض الاستثناءات .

- ٣ -

ان افضل سبيل كما نعتقد لازالة اللبس والغموض اللذين اكتنفا تعريفات « القومية » والمفاهيم التي تشترك معها في المعنى جزئياً ، هو في التمييز الواضح بين المفاهيم الآتية : الوجود القومي ؛ المذهب القومي ؛ الامة .

نقصد « بالوجود القومي » الكيان الثابت للشعب او الامة في الزمان والمكان ، فنقول على سبيل المثال : ان للامة العربية وجوداً قومياً بمعنى ان لها مقومات حضارية ومادية ثابتة تبلورت عبر الزمان فوق ارض عريضة ممتدة من الخليج العربي الى المحيط الاطلسي ، وان هذه المقومات باقية على الرغم من وجود عوامل داخلية وخارجية عملت وتعمل باستمرار على تمزيق هذا الوجود والقضاء على وحدة الامة العربية . وفي سبيل البرهان على صدق هذا المبدأ ، لا بد لنا من الاستعانة بالتاريخ السياسي والتاريخ الحضاري للامة العربية ، حيث تبدو الوقائع والحقائق واضحة في تسلسلها الزمني ، فنجد خطاً صاعداً يعبر عن نهوض الامة بعد ان امتلكت زمام امرها وسط امبراطوريتين كبيرتين هما : الامبراطورية البيزنطية والامبراطورية الفارسية ، فراحت تحرر نفسها من التبعية الفكرية والاحتلال الاجنبي ، وتبني اسساً راسخة لوجود حضاري جديد ملتزمة برسالة سماوية غايتها الانسان وبناء مجتمع يسوده العدل والحرية والمساواة .

ونجد خطاً معاكساً بدأ بالظهور بطيئاً وضعيفاً ، ولكنه سرعان ما اشتد وقوي نتيجة وقائع وحقائق وقعت في المجتمع العربي الاسلامي ، فإذا بالقوى التي انضوت تحت لواء الاسلام ولم تستسلم نهائياً للوجود العربي ، ومجموع القوى الخارجية التي جردها العرب من عناصر القوة والهيمنة على الارض العربية ، تبدأ عملها بخط متصاعد غايتها تحطيم الوجود القومي للامة العربية وسلب ارادتها . ولكن على الرغم من تباطؤ الخط المتصاعد للامة العربية وانحداره في نهاية المطاف ، مع اشتداد الخط المعاكس الذي تحول بمرور الزمن الى مؤشر لفرض الارادة الاجنبية على العرب ، الا ان الوجود القومي العربي استمر في الزمان والمكان يترقب نهوضاً جديداً ووثبة قوية تعيد اليه حيويته في فرض الارادة . وهنا تكمن حقيقة تاريخية مهمة تتجلى في ضرورة استمرار الوجود القومي العربي ، لأن الرسالة التي امدت هذا الوجود بالحيوية والترتب تبقى خالدة وفاعلة بين امم العالم ، طالما بقي الوجود القومي العربي مستمراً في الزمان والمكان . وهذا يفسر لنا لماذا اندثرت امم سالفة مثل البابلية والفينيقية والفرعونية ، ولم يعد لها وجود قومي ، وذلك لغياب الرسالة ، وعدم قدرة هذه الامم على مجابهة التحديات الداخلية والخارجية .

ينطوي تعريف « الوجود القومي » على العوامل المادية التي تشكل بقاء الامة وديمومتها ، مثل الارض والجماعات والافراد الذين تجمع بينهم عوامل مشتركة تعمل على تقارب وعيهم بالانتماء الى وحدة جماعية واحدة . وبناء على ذلك يتحدد معنى الوجود القومي للامة العربية بالعوامل الآتية :

أ ـ عامل الارض : ان للامة ارضاً يعيش عليها الابناء وقد توارثوها عن الاسلاف عبر مسيرة شاقة من الصراع الحضاري والسياسي لتوطيد كيانها بحدود واضحة المعالم .

ب ـ عامل الحضارة : ان للامة العربية حضارة متميزة تكونت من خلال انجازات اجيال متعاقبة موغلة في التاريخ ، بحيث اصبحت ارثاً مشتركاً لجميع الابناء . فكانت التقاليد والاعراف وآداب السلوك ومجموعة القيم والنظرة الواحدة الى الاشياء ، والتاريخ والدين واللغة ، عناصر مشتركة تجمع الامة في وحدة واحدة .

ج ـ عامل الرسالة : ان للامة العربية رسالة انسانية باعتبارها جوهر الاسلام وحاملة رايته ، وعليها واجب التبشير به الى العالم كافة ، وان اختيار الله لها هو تعبير عن ارادة الهية في تحقيق ذات الامة قومياً ، ووحدة العالم انسانياً في ظل مبادىء سامية .

ـ ٤ ـ

ونقصد « بالمذهب القومي » او « النظرية القومية » او « الفلسفة القومية » التعبير الايديولوجي للوجود القومي . فعندما تتبلور مجموعة من المقولات والمبادىء القومية في مرحلة من مراحل التطور ، وتكون معبرة عن جوهر الوجود القومي للامة ، ومعززة بالمثل والاهداف السامية والمستقبلية ، وقادرة على احداث تغيير في حياة الامة بما يخدم تقدمها الحضاري وتطورها باتجاه الاهداف ، يصبح المذهب القومي او النظرية القومية دليل عمل لتحقيق المستقبل المنشود(١٢) .

إن طرح ايديولوجية قومية معينة في فترة زمنية ، معناه في الوقت نفسه حدوث تطور كبير في الوعي القومي ، اذ لا يمكن للايديولوجية ان تشق طريقها ما لم يرافقها وعي قومي على درجة عالية من النضوج ، ولا يمكن للوعي القومي ان يتكامل الا اذا توفرت خصائص ثابتة هي :

أ ـ الشعور بالانتماء الى امة ، بمعنى : ان يكون الفرد على وعي تام بأنه ليس مجرد فرد لذاته ، بل جزء لا يتجزأ من الكيان القومي للامة .

---

(١٢) ان ذلك يستدعي تعريفاً لمفهوم الايديولوجية . فالايديولوجية منظومة من افكار ومبادىء نابعة من ظروف اقتصادية واجتماعية معينة ، غايتها ليس فهم الواقع ، بل العمل باتجاه تغييره وفق اهداف مرسومة . ولهذا يشترط ان يكون لكل ايديولوجية « رسالة mission » تتضمن الاهداف الرئيسة المستقبلية التي تطمح الايديولوجية الى تحقيقها .

ب ـ الوعي باهمية هذا الانتماء ، بمعنى : ان يكون الفرد على معرفة جيدة بدور امته في التاريخ والحضارة ، فيشعر بالفخر والاعتزاز بأنه ينتمي الى تلك الامة ، فيحمل تراثها وحضارتها ورسالتها .

ج ـ التمييز الواضح بين الامة التي ينتمي اليها ، والامم الاخرى ، فلا يقبل اية افضلية للامم الاخرى على امته بقصد الانتقاص منها وتشويه تراثها الحضاري ودورها في التاريخ .

د ـ الوعي بضرورة التعبير عن « الامة » و « الكيان القومي » بايديولوجية قومية تسعى الى بناء « دولة قومية موحدة » .

ولا بد من الاشارة هنا الى ان المذاهب او النظريات القومية المختلفة التي صاغ مجموعة المبادىء فيها عدد غير قليل من الفلاسفة والمفكرين ، تعبر عن حقيقة مهمة هي : انه من الخطأ الاعتقاد بوجود مذهب او نظرية قومية واحدة صالحة التطبيق على كل المجتمعات بغض النظر عن خصوصية كل امة . ولكننا في الوقت نفسه لا ننكر وجود عوامل مشتركة في « الوجود القومي » لكل امة ، وان التعبير عن هذا الوجود بايديولوجية قومية هو مصدر الاختلاف ، فمن الايديولوجيات ما تؤكد العامل العرقي ، او الطبيعي ، او الحضاري ، او السياسي ، او الاقتصادي ، او اللغوي من دون ان تهمل العوامل الاخرى ، على اساس انه العامل الحاسم والاساسي في وحدة الامة(١٣) .

ـ ٥ ـ

وفي سبيل ان نفهم معنى « القومية » في سياق هذا البحث ارى ان نتخذها صفة تحمل على فرد ينتمي الى امة معينة ، فنميز في الوقت نفسه بين تعبيرين مختلفين من حيث المعنى والدلالة ، فنقول على سبيل المثال : « قومية فلان عربي او هندي او يوناني او فرنسي » و« فلان قومي » .

فالعبارة الاولى تشير بوضوح الى الانتماء الى قومية معينة او وطن بالذات ، فهو يحمل هويتها او جنسيتها ويرتبط بمؤسساتها وانظمتها وقوانينها . اما العبارة الثانية فمختلفة

(١٣) لقد ترتب على اختلاف النظريات بصدد نشوء الامم والقومية ان المعارضة وجدت باختيارها نظرية معينة تتفق واساليب نقدها ، خير عون لاشاعة جو من عدم الثقة بالمذهب القومي . ففي الوطن العربي على سبيل المثال روجت المعارضة الدينية فكرة مؤداها ان القومية تعني الالحاد والعنصرية وتفضيل قوم على اقوام اخرى ، ويضربون الامثال من القومية التركية بزعامة مصطفى كمال اتاتورك . ولكننا من خلال التحليل نجد ان ليس هناك ضرورة من المعاداة بين القومية والدين ، بل ان بعض النظريات القومية لا تهمل مطلقاً عامل الدين في بناء الامة . وارى ان افضل سبيل لازالة هذا اللبس الذي وقعت فيه الجماعات الدينية ، والاحزاب الماركسية في اعتقادها ان كل قومية معادية واستعلائية ، هو في التمييز بين الوجود القومي للامة ، والقومية كمذهب سياسي وايديولوجي ، فالضرورة تقتضي الاجماع على تأكيد الوجود القومي للامة لانه حقيقة واقعة وليس مذهباً سياسياً تختلف وتتباين وجهات النظر بصدده .

جوهرياً ، فهي تشير الى ان هذا الفرد ينتمي الى مذهب سياسي او ايديولوجي هو المذهب القومي ، وانه بالاضافة الى انتمائه الى امة ودولة معينة ، يمتلك اطاراً فكرياً وسياسياً يسعى من خلاله الى تحقيق اهداف رسالته الايديولوجية .

ونقصد « بالامة » جماعة او مجموعة من الناس تربط بينهم علاقات تعينها عوامل لغوية وثقافية وحضارية وسياسية واجتماعية واقتصادية وغير ذلك .

ان الامة في المذهب القومي اكثر اهمية من الافراد ، وان الفرد لا تتقرر هويته الا من خلال انتمائه الى امة معينة ، والامة كمفهوم في الفلسفة القومية ، يتصدر قائمة المفاهيم القومية جميعها ، كما ان الامة كقيمة ، تتصدر جميع القيم التي يناضل من اجلها كل قومي . ولا شك ان الامة لا تساوي المجموع الحسابي للافراد ، بل هي اكثر من ذلك ، لأن الامة هي مجموع الافراد مع العلاقات التي توحد الافراد في الكل . ولكننا لا نذهب مذهب القائلين بأن « الامة » كائن اجتماعي يعلو على الطبيعة[١٤] ، اذ ليست الامة كياناً ميتافيزيقياً لا وجود له الا في عالم آخر او في العقل فقط ، بل هي وجود قائم يتحقق بالفعل من خلال التاريخ المشترك واللغة المشتركة والثقافة المشتركة والاوجه الاخرى المعبرة عن وحدة الوجود القومي والمصير المشترك .

ان الاحساس او الشعور بالانتماء الى الامة لا يعني بالضرورة وجود مذهب قومي يساعد الفرد في اتخاذ الموقف من الامة ، ولكن يعني بالضرورة وجود دافع داخلي في الفرد يشعر من داخله بالطمأنينة عندما يكون جزءاً من كل ، ويشعر بالضياع عندما يكون خارجاً عن الامة. ويشتد الشعور بالانتماء الى الامة في جميع الحالات التي يرى فيها الفرد تهديداً مباشراً او غير مباشر لأمته. فالحروب تقوي الشعور بالانتماء وتجعل الوجود القومي اكثر تماسكاً ، وان التحديات المختلفة تحدد موقف الفرد بوضوح ، لأن تهديد الامة يعني تهديداً لوجوده، كما يعني في الوقت نفسه تهديداً لكل الانجازات والاعمال التي ساهم في بنائها الاجداد عبر مسيرة شاقة من الكفاح ، وتهديداً للمبادىء والقيم التي آمن بها والتي لا يقبل استبدالها باخرى مفروضة عليه من قبل قوى تنازعه البقاء في ساحة الصراع من اجل الحياة واستمرارها .

- ٦ -

وبعد هذا التوضيح بالتعريفات والشروح لمجموعة من المفاهيم المهمة ، يصبح الطريق ممهداً نحو ربط اللغة بالوجود القومي ، وهو ما نسعى الى بحثه ودراسته بالتفصيل في هذه المقالة .

---

(١٤) ذهب بعض المفكرين مذهباً ميتافيزيقياً في تحديد الاسس التي تقوم عليها الامة والقومية ، وقد امتزجت بعض الاساطير والخرافات مع الوقائع التاريخية عندما ارادوا فهم نشوء امتهم وقوميتهم . انظر : شيفر ، القومية : عرض وتحليل ، الفصل الخاص ببعض الاساطير الميتافيزيقية ، ص ٨٧ - ١١٤ .

تمثل اللغة عـاملاً وعنصـراً جوهـرياً في « الـوجود القـومي » ، فغالبـاً ما تصبـح الحدود اللغوية على بقعة جغرافية معينة هي الحدود السياسية لـلامة ، وكثيـراً ما تنشب الحـروب بين مجموعات بشرية او امم بسبب محاولات تبذلها امة معينة لضم مجموعة لغويـة تشترك مـع الامة بروابط لغوية . وغالباً ما يتعاطف الافراد الـذين تضمهم امة لا ينتسبـون اليها لغـوياً مـع امة اخرى تربـطهم بها روابط لغـوية . وقـد تسعى جماعـات متباينـة لغويـاً ، في دولة واحـدة الى الانفصـال بقصد بنـاء دولة مستقلة او اقـامة حكم ذاتي في ظـل الدولـة الواحـدة . كما تسعى الجماعات اللغوية المتشابهة لغوياً او التي توحدها لغة واحـدة الى بناء دولـة قوميـة واحدة عـلى الـرغم من تعدد الحكـومات التي تحكم هـذه الجمـاعـات ، واختـلاف عقـائـدهـا السيـاسيـة وتنظيماتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . ونظراً لهذه الاهمية التي تحظى بها اللغة بالنسبة للوجود القومي ، ارى ان نتولى بحثها مجردة وبصورة عامة اولاً ، ثم تحليـل اهميتها في التعبـير عن الوجود القومي ثانياً ، وربط ذلك باللغة العـربية ودورهـا بالنسبـة للوجود القـومي العربي ثالثاً .

ونبـدأ بتعريف اللغـة بقولنـا : انها منظومـة System مؤلفة من اصـوات ( منـطوقـة او مكتوبة ) مترابطة وفقاً لقواعد بنائية معينة في سبيل تحقيق الاتصال Communication الفكـري والعاطفي بين الناس[١٥] .

ينطوي هذا التعريف على عدة اوجه لا بد من تحليلها ، ليكون التحليل بمثابة الاسـاس الذي نعتمد عليه في الربط بين اللغة والوجود القومي ، وهذه الاوجه هي :

أ ـ ينـطوي التعـريف عـلى البعـد الصـوري Formal Dimension ، ونقصـد بـه البنـاء التركيبي الذي تقوم عليه الابنية اللغوية المختلفة ، سواء ما اختص منهـا باللفظ او العبـارة او الجملة او القضية . ولكل لغة مجموعة قواعـد يتم بموجبهـا تركيب الصيـغ اللغويـة المختلفة ، وان العلم الـذي يتناول هـذه الصيغ من حيث التـركيب فقط هو مـا يطلق عليـه عـادة بعلم « النحـو والصرف » ، وذلـك على اسـاس ان هـذا العلم يبحث في القـواعـد التي تتحكم في تصريف الالفاظ وترابطها في عبارات ، وقـد اشارت العبـارة : « بأنها منـظومة مؤلفـة من اصوات ( منطوقة او مكتـوبة ) متـرابطة وفقـاً لقواعـد بنائيـة معينة » الى البعـد الصـوري[١٦] . لا شـك ان هذه

---

(١٥) انظر : ياسين خليل ، منطق اللغة : نـظرة عامـة في التحليل اللغـوي ( بغداد : مـطبعة العـاني ، ١٩٦٢ ) .

(١٦) اتجهت الدراسات المنطقية الحديثة صوب تحليل اللغة بصورة عامة . وقد اثمرت دراساتهم في تعيين الابعاد التي تنطوي عليها اللغة ، ومن ابرز هذه الدراسات كتاب « اسس نظرية الاشارات » لتشارلـز موريس ، انظر : Charles William Morris, *Foundations of the Theory of Signs* (Chicago, Ill.: International Encyclopedia of Unified Science, 1957).

وكـان البعد الصـوري من اكثر الابعـاد اللغويـة اهمية ، اذ دلت الـدراسات المنطقية عـلى الصلة الـوثيقـة بـين «Syntactics» والمنـطق الصوري ، كـما كشفت الابحاث المنطقية عن العـلاقـة الـوثيقـة بـين المنـطق الـريـاضي والسنتاكس «Syntax» .

القواعد مهمة جداً لبناء اللغة واستمرارها ، فهي الاساس في المحافظة على كيان اللغة . وقد بات معروفاً في اوساط علماء اللغة ان البنية اللغوية ثابتة نسبياً ، وان مجمل التغيرات التي تطرأ على اللغة محصورة في اطار المعنى والدلالة .

ب ـ وينطوي التعريف كذلك على بعد المعنى والدلالة Semantical Dimension ، ونقصد به ما تشير اليه الالفاظ والعبارات والجمل والقضايا من دلالات ، وما تعبر عنه من معانٍ هي في حقيقة الامر الافكار والتصورات والاحكام . فالالفاظ تعبر عن افكار ذهنية او تصورات ، كما تشير الى اشياء في العالم المادي(17) . وتعبر العبارات والجمل والقضايا عن افكار واحكام ، كما تشير الى اشياء او وقائع في العالم الخارجي(18) . والعلم الذي يدرس المعنى والدلالة نطلق عليه عادة اسم « علم المعنى والدلالة » ، وذلك على اساس ان هذا العلم يهتم بدراسة قواعد استعمال المعنى والدلالة وصلة ذلك بالابنية اللغوية ، وهذا يدل على ان هذا العلم يضم علم المعاجم كجزء منه بالاضافة الى اجزاء اخرى(19) . وقد اشارت العبارة « في سبيل تحقيق الاتصال الفكري والعاطفي بين الناس » الى البعد السيمانطيقي او بعد المعنى والدلالة .

واذا كانت للغة قواعد بنائية يبحثها علم النحو والصرف ، فإن للغة قواعد اخرى تتعلق باستعمال المعاني ، اذ لا يجوز ان يستخدم لفظ ما في غير معناه المستعمل ، وان المعاجم لا تمثل عند تحديد معنى لفظ ما غير الاستعمالات المختلفة له في الحياة اليومية او المعرفة العلمية .

ج ـ وينطوي التعريف كذلك على البعد الشعوري Feeling Dimension ، ويمكن تسميته كذلك بالبعد القومي ، على اساس ان اللغة تحمل احاسيس وعواطف مشتركة بين افراد الامة يدركها المرء من خلال مشاركته في استعمال اللغة ، وبعبارة اخرى: ان هذا البعد يمثل الناحية الوجدانية والنفسية التي تعبر عنها روح الامة ، فهي معانٍ ليست موضوعية ، بل ذاتية يشعر بها المنتمي الى الامة التي تستعمل تلك اللغة ولا يدركها الاجنبي بسهولة ، لأن هذه الروح او المعاني قد نمت في داخل الفرد منذ الصغر ، وتشربت بها نفسه من خلال التربية البيتية والمشاركة الاجتماعية والتربية المدرسية والتعليم بصورة عامة . وقد اشارت عبارة

---

(17) يمكن القول من ناحية التحليل اللغوي ان ليس هناك ضرورة من اقتران الاشياء المادية والفكرية معاً باللفظ، فبعض الالفاظ تنطوي على معانٍ ذهنية ، لكنها لا تشير الى دلالات شيئية ، والامثلة على ذلك في اللغة كثيرة منها الاسماء التي تعبر عن افكار مجردة هي صفات مثل « القومية » ، « الامية » ، « الايديولوجية » وغير ذلك .

(18) ان هذه الصيغة تعبر عن نظرية منطقية في اللغة وضع اسسها عالم المنطق غوتلوب فريجه (1848ـ 1925) وطورها الفيلسوف لودفيج فتجنشتاين (1889ـ 1951) في كتابه رسالة منطقية فلسفية ، ووجدت فيها فائدة وتطبيقاً لاغراض هذا البحث على اساس ان اللغة وعاء الفكر ولها صلة وثيقة بالعالم المادي .

(19) لا شك ان علماء اللغة العرب قد افاضوا في البحث عن علاقة اللغة بالمعنى ، وتطورت دراسات لها شأنها رفدت علم المعاني بكثير من المعلومات ، ومن هذه الدراسات ما يعرف بعلم البلاغة ، والبيان والبديع .

« الاتصال الفكري والعاطفي بين الناس» الى هذا البعد وقد امتزج المعنى والدلالة ، علماً بأن الاختلاف بين البعدين واضح ، فبينما يعبر بعد المعنى والدلالة عن الوجه الموضوعي ، يعبر البعد الشعوري عن المعنى في الاطار الذاتي[٢٠] .

ويتحدد المعنى للفظ في البعد الشعوري للغة من خلال الارتباط القومي اولاً ، والمشاركة المستمرة في استعمال اللغة ثانياً ، وادراك ما للغة من صلة وثيقة بالوجود القومي ثالثاً .

- ٧ -

اذا كانت اللغة اداة التعبير عن الوجود القومي ، فكيف نفهم العلاقة بين ابعادها الثلاثة والاوجه المختلفة للوجود القومي؟

من المسلمات المعروفة ان اللغات تختلف عن بعضها البعض من حيث القواعد البنائية ، وبالتالي من حيث انظمتها اللغوية ، وان كانت جهود الفلاسفة والمناطقة منذ القديم تهدف الى بناء علم قواعد عام Universal Grammar[٢١] . ولكننا نعلم ان طريقة بناء اللفظ وكذلك العبارات والجمل والقضايا في اللغات المختلفة ليست واحدة ، وان التشابه الواضح في قواعد البناء لا يظهر الا في اللغات التي تنتمي الى عائلة واحدة[٢٢] . ان التراكيب اللغوية المختلفة في كل لغة تعبر عن طريقة معينة في التفكير واسلوب مشترك بين الافراد الذين يتحدثون بها في ترتيب المفاهيم والوقائع . وهذا معناه ان ابنية الوقائع في الوجود القومي تتعين من خلال الابنية اللغوية . فالذين يستعملون اللغة العربية للتعبير عن الوجود القومي العربي يلتزمون بعدة مستويات من القواعد البنائية ، ويمكننا فهم هذه المستويات بالصورة الآتية :

اولاً : تترتب الاصوات ( او الحروف ) في اللغة العربية وفق ضرورات صوتية معينة ، فإلى جانب امكانيات ارتباط الاصوات بعضها مع بعض في مجال المسموح به ، نجد عدم امكان ربط بعض الاصوات مع بعضها بسبب الخصائص المميزة لكل صوت[٢٣] . ولا يفوتنا

(٢٠) يسمى هذا البعد عادة في الدراسات المنطقية الحديثة بالبعد البراغماتي (pragmatical dimension) ، وقد ساهم بتطويره عدد من المناطقة . ولكننا من وجهة نظر قومية سميناه « البعد الشعوري »، لاعتقادنا انه يرتبط بتصورات ومشاعر افراد ينتمون الى امة واحدة ، وليس على اساس لكل فرد تصوراته الذاتية الخاصة به .

(٢١) بدأت المحاولات الفلسفية في بناء علم قواعد عام منذ القديم، ويعود الفضل الى ارسطو (٣٨٤-٣٢٢ق. م.) في طرح مقولات لغوية عامة لتحليل اللغات . واستمرت هذه المحاولات في العصر الحديث ولا تزال حتى يومنا هذا . انظر : O. Jespersen, *The Philosophy of Grammar* (London: Allen and Unwin, 1924).

(٢٢) يقسم علماء اللغة عادة اللغات الى مجموعات او عوائل للتشابه الحادث بين الفاظها وبناء قواعدها او اصولها ، فهناك مجموعة من اللغات تنتمي مثلاً الى عائلة اللغات السامية ، ولغات اخرى مختلفة تنتمي الى عائلة اللغات الهندية الجرمانية او الهندية الاوروبية وغير ذلك .

(٢٣) لقد بيّن الخليل بن احمد الفراهيدي(١٠٠-١٧٥هـ) في كتابه العين كيفية ترتيب معجمه العربي حسب خصائص الاصوات الخارجة من الفم، كما بيّن المسموح من الالفاظ المؤتلفة من ترابط الاصوات وعدم =

ان نذكر ان الـوحدات الصـوتية Phonems في اللغـة العربيـة تشترك مـع وحدات صـوتية في لغات اخرى في الخصائص المميزة ، الا اننـا في الوقت نفسـه ندرك وجـود وحدات صـوتية في اللغة العربية غير موجودة في لغـات اخرى ، وبـالعكس . وهذا امـر له اهميتـه في خصوصيـة الوجود القومي العربي في حالة نظرنا الى اللغة كعنصر من عناصره .

ثانياً : تترتب الاصوات في اللغة العربيـة ، شأنها في ذلـك شأن اللغـات الاخرى ، في متـواليات محـدودة هي ما نـطلق عليها اسم « الكلمـات » . ولكن ليس كل تـرتيب محدود من الاصوات يكون كلمة ، فمن المعروف في اللغة العربية اننا نميـز بين المستعمـل والمهمل[٢٤] ، ويتعين ذلك من خلال المعنى الذي يقترن باللفظ ، فالالفاظ المستعملة هي تلك التي لها معانٍ متفق عليها في الجماعة اللغوية ، في حين تكون الالفاظ المهملة خالية من المعنى وغير مستعملة من قبل افراد الجماعة اللغوية . وبالاضافة الى ذلك نجد في اللغة العربية مجموعة من القواعد الصارمة في تصريف الانواع المختلفة من الافعال ، وهي قواعد تعبر عن منطقية او منهجية في التفكير عند الانسان العربي .

ثـالثاً : وتتـرابط الكلمات او الالفـاظ في اللغة العـربية ، شـأنها في ذلك شـأن اللغات الاخرى ، في متواليات محدودة ، مكـونة الانـواع المختلفة من العبـارات والاقوال والجمـل في اللغة . ولكن ليس كل ترتيب محدود من الكلمات يكون ترابطاً لغوياً مقبولاً في اللغة ، بل لا بد من توفر شرطين اساسيين ليكون الترابط مقبولاً هما :

أ ـ ان يكون وفق قواعد بنائية معينة في اللغة العربية هي قواعد النحو .

ب ـ ان يكون معبراً عن معنى او دلالة ، وبعبارة اخـرى ان يعبر عن اشيـاء او مفاهيم او وقائع او حقائق، فيكون ترتيب الالفاظ معبراً عن ترتيب في الفكر او في الوجـود القومي . ولا شك ان القواعد اللغوية تعبر هي الاخرى عن منطقية او منهجية في التفكـير عند الانسـان العـربي ، بالاضـافة الى مـا تعبـر عنـه العبـارات والاقـوال من اشيـاء او وقـائـع في الـوجـود القومي[٢٥] .

---

= المسموح منها في قوانين صوتية خاصة باللغة العربية . انظر : ياسين خليل ، التـراث العلمي العربي ( بغـداد : مطبعة جامعة بغداد ، ١٩٧٨ ) ، ص ٩١ ـ ٩٤.

(٢٤) ميّز الخليل بن احمد الفراهيدي بين الالفاظ المستعملة وغير المستعملة والمهملة ضمن نـظريته اللغـوية في الارتباط ، والتي تقوم على مبدأ التقليب . فالفعل الثلاثي مثلاً يتألف من ثلاثة حروف صحيحة ويمكن تقليبه الى ستـة اوجه ، وقـد تكون جميـع هذه الاوجـه مستعملة متداولـة في اللغـة العـربيـة ، وقـد يكـون بعض منهـا مستعملاً ، بينما يكون ما تبقى منها مهملاً . انظر : المصدر نفسه، ص ٩٢ ـ ٩٣ .

(٢٥) تؤلف قـواعد اللغـة العربيـة منطقـاً يعبر عن اسلوب الانسـان العربي في تـرتيب المعاني بمـا يقتضي واسلوب التفكير ، اذ ان اللغة بقواعدها تعكس الـطريقة او المنهج الذي يعتمـده الانسان العـربي في التعبير عن فكره او واقعه الذي يعيش فيه ، وقد تنبه علماء اللغة العرب الى هـذه الحقيقة فـاعتبروا علم النحـو بمثابـة منطق اللغة العربية .

واذا كان للجانب الصوري في اللغة صلة وثيقة بالوجود القومي كما بيّنا آنفاً ، فإن الصلة بين المعنى والدلالة ، والوجود القومي اكثر وضوحاً ووثوقاً . فاللغة وعاء الفكر واساس الصلة بين الماضي والحاضر ، والمعبرة عن تجارب الامة في التاريخ ، والمصورة خبراً وبالصورة اللغوية، الاوجه المختلفة للانجازات الحضارية . فهي ليست مجرد جزء لايتجزأ من الوجود القومي ، بل هي في الوقت نفسه الوسيلة الوحيدة لمعرفة جوهر الوجود القومي وابعاده واسسه ومنطلقاته، كما انها تخبرنا عن البعد التاريخي والحضاري، وعن حالة الوجود القومي وتطوره وتقدمه وحيويته في التفاعل، داخلاً بين عناصره المختلفة ، وخارجاً مع عناصر اخرى تنتمي الى وجود قومي آخر . وتنفرد اللغة من بين عناصر الوجود القومي باهمية اكبر ، فهي وإن كانت جزءاً لا يتجزأ منه ، الا انها الوسيلة الوحيدة الممكنة التي تسجل نشاط الانسان وابداعاته وانجازاته الحضارية المختلفة . واللغة بصورة عامة ذات اهمية لكل الانشطة البشرية ، فكل انسان عضو في جماعة اجتماعية او اكثر يتعامل مع افرادها ويشارك في فعالياتها ، وبذلك لا بد من استعمال اللغة كوسيلة للاتصال ، اذ لا يمكن تصور حياة اجتماعية بشرية من دون استعمال اللغة . ولا يقتصر نشاط الانسان على العلاقات الاجتماعية المتبادلة ، بل يتجاوز ذلك الى اوجه متعددة . فالانسان يتميز من بين كل الموجودات بأن نشاطه يهدف الى تكوين حضارة ، وان البرهان على امتداد وجوده فوق الارض لا يعرف بدقة الا من خلال العطاء الحضاري عبر التاريخ . واذا علمنا ان للحضارة وجهين : الوجه المادي الذي يتمثل عادة في الموجودات المادية مثل البيوت ودور العبادة والهياكل والادوات المختلفة والملابس وغير ذلك ، والوجه اللامادي او المعنوي الذي يتمثل في الدين والعلم والفلسفة والقوانين والاعراف والتاريخ والعادات والقيم ، وكذلك اللغة ، فإن الوجود القومي للامة هو بلا شك وجود حضاري لا يقتصر على نشاط الانسان في الماضي ، بل يتجاوز ذلك الى الحاضر والمستقبل .

لا شك ان اللغة خير معبر عن الجانب المادي للحضارة ، فبالامكان دراسة هذا الجانب عن طريق الملاحظة والتتبع وتدوين النتائج بواسطة اللغة ، لأن لهذه الموجودات المادية اسماء وعبارات لغوية تدل عليها ، وان تدوينها معناه نقلها من صورتها المادية الى صورة فكرية - لغوية . واللغة في الوقت نفسه بالغة الاهمية في التعبير عن الجانب المعنوي للحضارة ، اذ لا يمكن فهم هذا الجانب الا من خلال ملاحظة سلوك الافراد وانشطتهم الكلامية ، فهي بذلك ليست مجرد جزء من الحضارة ، بل الاساس لكل الانشطة الحضارية . واذا اردنا فهم الصلة بين اللغة والوجود القومي ، فإن افضل وسيلة ، بالاضافة الى كل ما تقدم من تحليل ، هي في ربط بعد المعنى والدلالة ببعدي الحضارة ، حيث يرتبط المعنى بالوجه المعنوي ، وترتبط الدلالة بالوجه المادي للحضارة ، فتكون اللغة بناء على ذلك وعاء لكل الانشطة الحضارية .

ويمكن ادراك ما للغة من اهمية عندما نحاول معرفة الماضي البعيد والقريب ، فنحن لا نعرف عن الوجود القومي والحضاري لامة ما في التاريخ الا من خلال مخلفاتها وآثارها ، وتلعب الوثيقة دوراً بارزاً في الكشف عن الانجازات ومجموع الانشطة الحضارية للامة. فاللغة هي مفتاح معرفتنا لماضي الحضارات القديمة ، فلولاها لما استطاع الانسان كشف الانجازات العلمية والادبية ومراحل التطور سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وفكرياً لأمم قديمة مثل البابلية والفرعونية وغيرهما . وقد كان من ابرز اسباب معرفتنا الحالية لماضي هذه الامم هو اكتشاف مفاتيح لغاتها التي كانت في نظر الباحثين قبل ذلك مجرد نقوش ورموز وصور واسرار مغلقة عسيرة الفهم .

ولا تقل اللغة اهمية في الدراسات التاريخية للماضي القريب ، فهي مفتاح معرفتنا للحوادث والوقائع والانجازات المدونة في الوثائق . فاللغة هي الوسيلة التي اعتمدها الانسان في تدوين الاخبار والانجازات العلمية والادبية ، وان الوثائق التي تعتبر الركيزة الاساسية في المعرفة التاريخية ، سواء أكانت هذه الوثائق مدونة على جلود الحيوانات ام على الجدران ام على الواح الطين ام على اوراق البردى ام على الورق المصنوع ، وغير ذلك ، تعتمد في اغلب الحالات بما تحتويه من معلومات وصور ومخططات واشكال ، على اللغة وكيفية استعمالها في التعبير عن الحقائق والحوادث والحالات ، فتحفظ المندثر وتدعم الباقي بالشاهد اللغوي .

## - ٩ -

وندرك اهمية اللغة من خلال ارتباطها الوثيق بالامة ، فغالباً ما تقترن اللغة باسم الامة وهويتها القومية ، فتصبح اساساً مميزاً لها عن بقية الامم في حالة التعرف عليها او على الافراد المنتمين لها . فنقول على سبيل المثال لا الحصر : ان للعرب لغتهم وهي اللغة العربية ، وللفرنسيين لغتهم وهي اللغة الفرنسية ، ولليونانيين لغتهم وهي اللغة اليونانية ، وللالمان لغتهم وهي اللغة الالمانية وهكذا . . . ويشذ عن هذه القاعدة جميع الشعوب التي فقدت لغاتها الاصلية واكتسبت لغات قومية اخرى سواء عن طريق الهيمنة الاستعمارية ام عدم قدرة لغاتها على التطور وعجزها عن الايفاء بمستلزمات العلم والفكر والتكنولوجيا. ومثل هذا الوضع شائع بالنسبة لعدد غير قليل من دول العالم النامي ، فالشعوب الافريقية الناطقة باللغة الانكليزية او اللغة الفرنسية ، وشعوب امريكا اللاتينية الناطقة باللغة الاسبانية او اللغة البرتغالية ، واللغة الانكليزية في الهند مقابل تعدد اللغات المحلية، فيها امثلة على اكتساب هذه الشعوب لغات لا تعبر عن هويتها القومية[٢٦] .

---

(٢٦) لقد ادرك الاستعمار ما للغة من اهمية ودور في وحدة الوجود القومي لأي شعب من الشعوب ، فعمل في افريقيا وامريكا اللاتينية على استبدال اللغات القومية بلغات اوروبية ، على اساس ان الشعب الذي يفقد لغته الاصلية ليكتسب لغة الغير انما يكتسب في الوقت نفسه ثقافة واسلوب حياة المستعمر الناطق بتلك اللغة ، اذ ينحصر اهتمامه بارتشاف المعرفة من المنشورات والكتب والصحف التي يصدرها المستعمر ، واخيراً يجد الشعب نفسه اسير حضارة جديدة مفروضة عليه يتفاعل معها ويتعاطف مع المستعمر في قضاياه ومشكلاته ، ولن يتخلص من هذه التبعية الا في حالة التحرر الوطني وبناء دولة قومية خاصة به .

ولا نجانب الحقيقة اذا قلنا ان اللغة العربية ليست كبقية اللغات المعروفة في العالم، فهي الى جانب ما تشترك به من خصائص عامة مع اللغات الاخرى ، تتميز عن بقية لغات العالم بخصائص لا تتوفر في اية لغة معروفة . وفي سبيل البرهان على صدق ما نذهب اليه نولي اهتمامنا بصورة رئيسية للعلاقة بينها وبين الوجود القومي العربي من خلال دراسة ابعادها المختلفة : البعد الديني ، والبعد القومي والبعد التاريخي والحضاري .

اخذت اللغة العربية في الفترة الزمنية السابقة على ظهور الاسلام طريقها الى الوحدة رغم تعدد اللهجات العربية التي كانت سائدة بين القبائل العربية[٢٧] ، فأصبحت بفضل ذلك لغة مشتركة لكل العرب ، تسجل اشعارهم واسجاعهم وامثالهم واخبارهم ، فتحفظها الاجيال وتتناقلها وتتحدث بها ، فتخلق فيما بينهم شعوراً مشتركاً وفكراً واحداً يعكس الحياة العربية وتطلعاتها ، كما يعكس في الوقت نفسه الصورة المثلى للقيم التي يجب على العربي ان ينشأ عليها . وقد اشارت هذه الظاهرة الى حقيقة حضارية مهمة هي التقاء العرب فكراً وحضارة ووجوداً لبناء وحدتهم ، حيث اصبحت اللغة العربية وعاء لتجارب العرب ومعارفهم ، واساساً للتعبير عن وجودهم القومي المتفتح للحدث الكبير .

وعندما بدأ الرسول الكريم (ص) بدعوة العرب والناس اجمعين الى الاهتداء برسالة السماء ، كانت اللغة العربية ابرز مظاهر الدين الجديد، فلقد انزل الله القرآن على رسوله الامين (ص) بلسان عربي مبين ، فاجتمعت بذلك في الدعوة الاسلامية ثلاثة اركان حضارية مهمة هي :

أ ـ تنزيل القرآن بلغة عربية توحد العرب في اللسان وتدفعهم الى التعمق في معاني الفاظها وما تنطوي عليه من اعجاز وعذوبة وبيان ، وما ترمي اليه من تصوير للحياة الدنيا والآخرة .

ب ـ رسول عربي يقود مسيرة حضارية جديدة ، فيصبح المثال والقدوة الحسنة لجميع البشر ، لأن فيه اجتمعت ارادة الله وكلماته ، هدى ورحمة للعالمين .

ج ـ امة عربية تخرج الى الدنيا موحدة تحمل رسالة سماوية الى الناس كافة ، حيث تبلورت شخصية الامة في ظل الاسلام قومياً ، لتكون نواة صالحة مختارة لبناء الانسان والامم الاخرى على اسس من العدل والمساواة .

لقد اكتسبت اللغة العربية بفضل الاسلام بعداً دينياً تجلى في كل مظاهر الحياة الدينية عند العرب وعند غيرهم من الاقوام والشعوب التي دخلت في الاسلام ، فازداد اعتزاز العربي بلغته التي هي لغة الارض والسماء ، لا سيما وان الاسلام لم يكن ديناً طقوسياً اقتصر على اداء

---

(٢٧) انظر : حسين نصار ، المعجم العربي : نشأته وتطوره ، ط ٢ ( القاهرة : دار مصر للطباعة ، ١٩٦٨ ) ، ص ١٥ .

شعائر دينية معينة كما هو الحال بالنسبة للاديان التي سبقته ، بل كان دعوة صريحة لاقامة مجتمع وحضارة ودولة لانسان الارض ، وسبيلاً لحياة اخرى خالدة بعد الحياة الدنيا . واكتسبت اللغة العربية بفضل تعاليم الرسول الكريم (ص) التي تجلت في احاديثه وشروحه ووصاياه ، منزلة كبيرة في نفوس المؤمنين ، وبذلك اقترنت ارادة الله في تنزيل كتابه بلغة عربية، وارادة الانسان ( متمثلة في شخص الرسول الكريم (ص))، في مجمل اقواله وافعاله ، لتصبح اللغة العربية لغة التعبير عن الارادة الالهية والفعل الانساني .

لقد احب العرب لغتهم ، وازدادوا بها اعجاباً ، خاصة وانهم وجدوا في التنزيل الرباني الاعجاز والمعجزة ، وانعكس هذا الحب وذاك الاعجاب في التمسك بها ودراستها والتوسع فيها ، حتى انهم من شدة حبهم لها قالوا ان آدم عرف اللغة العربية ونظم الشعر بها ، وان لسان اهل الجنة عربي مبين . ومن اسباب تمسكهم بالعربية واستهجان اللحن فيها ، ما ورد في القرآن الكريم من آيات تنص على منزلة اللغة العربية ، فقال تعالى: ﴿وانه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الامين على قلبك ، لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين﴾ ، وقال الرسول الكريم لرجل لحن : « ارشدوا اخاكم فإنه قد ضل » ، وقال : « رحم الله امرأً اصلح من لسانه » .

- ١٠ -

وكان طبيعياً ان يقترن الاعتزاز باللغة العربية على اساس انها لغة التنزيل ، بالامة العربية على اساس انها الامة التي اختارها الله من دون سائر الامم لتحمل مسؤولية نشر الرسالة والدعوة اليها. فاللغة العربية هي لغة العرب ، والدفاع عن اللغة العربية دفاع عن الوجود القومي العربي ، وكما تميزت اللغة العربية بفضلها على بقية اللغات ، فقد تميز العرب بفضلهم على بقية الامم .

ان احتكاك العرب المسلمين بالروم والفرس ، وهما يمثلان اكبر امبراطوريتين في ذلك الزمان ، وانتقال الخلافة العربية من المدينة المنورة الى دمشق الشام ، وعلى مقربة من حدود الدولتين البيزنطية والفارسية، قد ضاعفا من اعتزاز الانسان العربي بلغته وامته، الامر الذي ابرز بشكل واضح عناصر قومية في التفكير العربي الاسلامي على المستويين : اللغوي والعرقي . كما ان دخول شعوب اخرى في الاسلام وتأكيد الدين الجديد على المساواة بين افراد هذه الشعوب والعرب حملة الرسالة وقادة الحكم، قد ولدا في نفس العربي شعوراً اخذ يزداد يوماً بعد يوم ، تجلى في ضرورة المحافظة على نقاء الدم العربي واللغة العربية في وجه الاختلاط بالاعاجم ، لأن من نتائج هذا الاختلاط تلاشي السلطة العربية والوجود القومي العربي وسط الاكثرية من مسلمي الشعوب الاخرى ، وشيوع اللحن في اللغة وفساد التذوق العربي لجمال اللغة وفصاحتها . وازداد تمسك العربي بنقاء اللغة العربية وضرورة المحافظة على العرق العربي عندما بدأت حركة سياسية وفكرية هي « الشعوبية » تحاول الانتقاص من كل ما هو عربي مقابل اعلاء منزلة الفرس وبيان فضلهم في السياسة والحكم والادب والعلم والفلسفة .

وتحولت الشعوبية الى قوة سياسية في الاقاليم البعيدة التي خضعت للسلطان العربي ، وجاهرت بالعداء للعرب مستفيدة من بعض النصوص القرآنية الداعية الى المساواة بين العربي وغير العربي ، عاملة على احياء التراث الفارسي والتغني بالامجاد الفارسية .

ولكن الرد العربي كان عنيفاً كذلك ، حيث وضعت مجموعة من الشروط والعوائق التي تحول دون امتزاج العرب بالاعاجم ، كما انبرى عدد غير قليل من العلماء والمفكرين العرب للرد على الشعوبية(٢٨) ، وبيان فضل العرب على من سواهم من الشعوب الاخرى . واشتدت العناية بالعلوم العربية ، ومنها علوم اللغة ، واخذ الفصل يبدو واضحاً بين العربي والمولى في شؤون الحياة العامة ، وغالى بعضهم في القول باختلاف دم العربي عن دم المولى ، قال ابو بكر الشيباني : « كنت اسيراً مع بني عم لي من بني شيبان - وفينا من موالينا جماعة - في ايدي التغالبة . فضربوا اعناق الموالي على وهدة من الارض ، فكنت ، والذي لا اله الا هو ، ارى دم العربي يتمايز عن دم المولى ، حتى ارى بياض الارض بينهما ، فإذا كان هجيناً قام فوقه ولم يعتزل عنه »(٢٩) .

لقد ادرك العرب جسامة الاخطار الجديدة التي تحدق بوجودهم القومي ، فالرسالة الاسلامية لا يمكن نشرها من دون اتقان اللغة العربية ، وان الاخطاء الصرفية والنحوية من شأنها ان تغير المعنى المراد ايصاله او تبليغه ، وفي ذلك خروج واضح عن العقيدة الاسلامية ، لاسيما ان الفقهاء لم يجيزوا قراءة القرآن الكريم بغير اللغة العربية ، وعلى المسلم ان يلتزم في صلاته بتلاوة الآيات القرآنية باللغة العربية فقط . والشعوب الداخلة في الاسلام من غير العرب لا تجيد اللغة العربية في نطق بعض الاصوات ، وفي تصريف الافعال والالتزام بقواعد النحو ، وان اختلاطها مع العرب في الاسواق والاعمال والبيع والشراء والصناعة والمهن المختلفة ، وفي البيوت ، قد مهد الطريق الى اشاعة اللحن بين ابناء العروبة انفسهم ، كما ظهرت ظاهرة لغوية اخرى تجلت في ادخال مفردات اعجمية الى اللغة العربية ، وشاع استعمالها بين الناس ، فكان كل ذلك نذيراً دفع الحريصين على نقاء اللغة العربية الى ضرورة التوسع في دراسة اللغة ووضع القواعد الصارمة التي تصون لسان العربي قبل الاعجمي من الوقوع باخطاء لغوية . ويحق لنا ان نطلق على المذهب الذي اخذ بتنقية اللغة العربية من شوائب اللحن ، والمحافظة عليها وعلى فصاحتها ، « مذهب تنقية اللغة العربية » .

---

(٢٨) لقد كان الرد الفكري على الشعوبية باتجاهين : الاول : باتجاه زيادة العناية بالعرب وانسابهم وتاريخهم ولغتهم ، وبيان فضائلهم ومكارم اخلاقهم ، وما كان لهم من معرفة وعلم وادب وشعر ، وما امتازوا به من سرعة الخاطر والبديهة والفطرة وذكاء القلب وصفاء النفس والالتزام بالمواثيق والعهود . والثاني : باتجاه مواجهة اعداء العرب من خلال بيان فساد حجتهم بشأن التقليل من فضل العرب ، والتصدي للشعوبيين عند ايرادهم لمثالب العرب بزعمهم . وقد نشط عدد غير قليل من العلماء العرب في الرد على الشعوبية نذكر منهم ابا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، وابا سعيد عبد الملك بن قريب المعروف بالاصمعي الباهلي وغيرهما .

(٢٩) كما وردت في : نصار ، المصدر نفسه ، ص ١٩ - ٢٠ نقلاً عن كتاب الجاحظ : **البيان والتبيين** .

ونشطت حركة علمية ـ لغوية متأثرة بما ذهب اليه العرب من ضرورة بقاء اللغة العربية نقية لا تخالطها لغة الاعاجم ، هدفها استقصاء العربية الفصحى من مناهلها ، فكان طبيعياً ان تتجه الانظار نحو لغات اهل البادية الذين لم تخالط لغتهم شوائب لغات اخرى ، وذلك بفضل انقطاعهم عن سكان المدن والحواضر ، وعدم احتكاكهم بالاعاجم . وبذلك اصبحت لغة البادية مصدر معرفة من جهة ، ومقياساً لفصاحة اللغة وخلوها من الشوائب من جهة اخرى .

وتطور اسلوب استقاء العربية الفصحى من لغات اهل البادية ، واخذ مذهب تنقية اللغة العربية يشق طريقه باساليب جديدة منظمة تعتمد التربية من جهة والبحث العلمي من جهة اخرى ، فكان ان ظهرت اتجاهات تربوية وعلمية جديدة نجملها بالنقاط الآتية :

أ ـ تنشئة ابناء الاسر الحاكمة والاغنياء في البادية بغية تعلم اللغة العربية من مصادرها النقية ، والاتصال بالشعراء والفصحاء ورواية اشعارهم وامثالهم من اجل التربية على الفصاحة والدربة على الصحيح الفصيح من غير شوائب .

ب ـ ظهور فئة من المعلمين ، غايتهم تعليم ابناء العروبة فصاحة اللسان من غير حاجة الى ارسالهم الى البادية ، فتحولت جهودهم الى دراسة اللغة العربية وتدريسها في بيوت الامراء والموسرين ، وفي مدارس خاصة للتعليم .

ج ـ ظهور فئة من العلماء ، وقد قصدوا البادية والاتصال بالاعراب لاستقصاء اللغة ومفرداتها ، والعلوم والمعارف التي توارثها اهل البادية عن الحضارات التي قامت في المنطقة العربية ، والخبرات التي تناقلتها الاجيال ، فكانت اساساً لحياتهم ومعاشهم .

ـ ١١ ـ

لقد كان القرآن الكريم ، وهو اول كتاب عربي ، محور اهتمام العلماء والادباء والمفكرين ، كما اصبحت السيرة النبوية الشريفة محور اهتمام المؤرخين والمحدثين والفقهاء ، فإذا بالقرآن والحديث منبعان رئيسان من منابع المعرفة العربية، فكان ان نشأت حولهما الدراسات اللغوية والدينية والشرعية والتاريخية ، وكل ما يتصل بالحياة الاجتماعية الجديدة التي بشر بها الاسلام . وبهذا اخذ الوجود القومي العربي ، تترسخ دعائمه على اسس ثابتة من العلم والمعرفة والحكمة ، بحيث اخذت شخصية العربي تتوحد في خصائصها الجديدة ، وتتمايز بوضوح عن شخصيات لغوية وحضارية تنتمي الى وجود قومي آخر .

لقد تضمن القرآن الكريم الى جانب ما تضمنه من معارف متصلة بالكون والمجتمع والانسان والتوحيد ، اطاراً للفهم التاريخي لمسيرة الانسان منذ بداية الخلق ، يقوم على اساس ابراز الصراع بين التوحيد والوثنية ، بين الخير والشر ، بين الارادة الالهية والارادة البشرية ، بين النزعة الفردية للانسان والنزعة الاجتماعية ، بين الحرب والسلم ، بين المعرفة والجهل ،

بين الايمان والكفر . . . وهكذا نشأت العلوم العربية قبل اتصال العرب بالثقافات الاجنبية ، فكانت الاساس الذي حفظ للامة العربية وجودها القومي ، لأنها علوم تتصل باللغة والادب والتاريخ اضافة الى صلتها الوثيقة بالعقيدة الاسلامية(٣٠) .

وعندما بدأت حركة الترجمة والنقل تشق طريقها ، واقبل الناس في المجتمع الجديد على دراسة تراث الشعوب الاخرى وما خلفته من علوم وآداب وفلسفة ، كانت اللغة العربية امام الامتحان الكبير ، فهل هي قادرة على استيعاب علوم الاوائل والتعبير عن الثقافات الاجنبية بدقة وموضوعية؟ وهل يمكن ان تكون لغة علمية الى جانب كونها لغة الدين والادب والشعر؟ وهل تسمح قواعدها الصارمة ببناء المصطلح العلمي والتغلب على المشكلات الناجمة عن الترجمة والنقل ؟

لا شك ان التحدي الجديد للغة العربية هو تحدٍ للوجود القومي العربي ، فأما ان يكتب للغة العربية النجاح في المهمة الجديدة ، فتبقى لغة واحدة تحفظ تماسك الوجود القومي ، او ان تفشل ، وعندها يتوقف النمو العلمي والحضاري في حدود ضيقة ، او تحل لغة اخرى الى جانب اللغة العربية لتقوم بمهمة النقل العلمي من الحضارات السابقة ، اليونانية والهندية والفارسية .

لقد نجحت اللغة العربية في فترة قصيرة من الزمن بأن تكون لغة العلم ، فهي لغة رصينة للعلوم الانسانية ، كما انها لغة رصينة للعلوم الرياضية والطبيعية والعلوم التطبيقية . ويكمن سر نجاحها في الحقائق الآتية :

أ ـ اشتمل القرآن الكريم على مجموعة كبيرة من الالفاظ التي غدت فيما بعد مصطلحات في لغة العرب ، اذ لم يقتصر القرآن الكريم على ذكر العبادات والامور الدينية والاجتماعية فقط ، بل تعدى ذلك الى وصف كثير من الظواهر الطبيعية والكونية والبشرية ، اضافة الى دعوته الصريحة الى الأخذ باسباب العلم والمثابرة العلمية من اجل ادراك قدرة الله في تسخير كل الموجودات وفق قوانين ونواميس معلومة .

ب ـ امتلاك العربي قبل الاسلام معرفة علمية ، اساسها الخبرة والتجربة العلمية وما توارثوه من معارف متنوعة عن اسلافهم الذين اقاموا حضارات متقدمة ومزدهرة داخل الجزيرة العربية وخارجها . ولقد اشتملت هذه المعارف على جملة واسعة من الحقائق العلمية ذات الصلة بالطبيعة والفلك والحساب والانواء والحيوان والنبات والاحجار والطب والعقاقير ، يؤيد ذلك ما ورد في القرآن الكريم من معارف كثيرة تثبت ان الانسان العربي لم يكن جاهلاً

---

(٣٠) العلوم غير العربية او الاعجمية : او « علوم العجم » كما يسميها ابو عبدالله محمد بن احمد بن يوسف الكاتب الخوارزمي في كتابه مفاتيح العلوم ، وهي الفلسفة والمنطق والطب والحساب والهندسة وعلم النجوم والموسيقى والحيل والكيمياء .

بالمعرفة العلمية ، والا لما ورد في الآيات الكريمة من معارف لا يستطيع الانسان العربي ادراكها وما تنطوي عليه من حقائق[٣١] .

ج ـ القدرة الذاتية للغة العربية وجهود العلماء العرب في استحداث المصطلح العلمي العربي والمرادف للمصطلح الاجنبي ، عن طريق وضع القواعد المناسبة في النحت والاشتقاق والنقل والتعريب وغير ذلك .

لا شك ان المحاولات الاولى في الترجمة والتعريب لم تكن على مستوى جيد من حيث صوغ العبارة والمصطلح ، فنجد الى جانب الركة في الاسلوب مصطلحات اجنبية لم يستطع المترجم ايجاد المرادف العربي الصحيح لها . ولكن سرعان ما اجتاز العلماء العرب والمترجمون هذه العقبة ، فأصبحت العبارة العلمية سهلة التداول ، كما حل المرادف العربي محل اللفظة الاجنبية في اغلب الاحيان .

- ١٢ -

لقد نشطت الحركة العلمية في جميع المجالات وتوسعت آفاق المعرفة العلمية عند الانسان العربي ، وتأسست المدارس ودور العلم والمكتبات بشكل واسع ، وظهرت المؤلفات العلمية مكتوبة باللغة العربية في الرياضيات والطب والفلسفة والعلوم الطبيعية اضافة الى العلوم الاخرى التي بدأت منذ النشأة،عربية اللسان . وظهرت كتب الفهارس في العلوم المختلفة تدون لكل عالم معروف ، عربياً كان ام غير عربي ، مؤلفاته ومصنفاته[٣٢] .

ونشط علماء اللغة في دراسة اللغة العربية من جميع نواحيها ، وكان تأثير منهج اليونان في ذلك واضحاً ، فوضعت الاسس اللغوية وتعينت الخصائص الصوتية والوظيفية والصرفية والنحوية اضافة الى العناية بدراسة المعاني والبيان والبلاغة . وكانت ظاهرة تأليف المعاجم اللغوية واضحة وبارزة ، كما تفنن العلماء العرب في تأليف المعاجم العلمية لشتى العلوم ، الامر الذي يثبت بجلاء قدرة اللغة العربية على استحداث المصطلح العلمي لكل العلوم المعروفة آنئذٍ .

ولما كانت معظم العلوم التي اطلق عليها اسم « علوم العجم » من مصدر يوناني ، ونظراً لسعتها وغزارتها وافتتان الناس بها ، فقد اصبحت مقياساً للمعرفة الحقة ، وقد خصها بعض العلماء العرب باسم « العلوم على مذهب اليونان » .

---

(٣١) ياسين خليل ، « العلوم على مذهب العرب ، » مجلة المجمع العلمي العراقي ، السنة ٣١ ، العدد ٣ ( تموز / يوليو ١٩٨٠ ) .

(٣٢) من اشهر كتب الفهارس العربية القديمة كتاب **الفهرست** لابن النديم ، وكتاب **طبقات الاطباء والحكماء** لابن جلجل ، وكتاب **عيون الانباء في طبقات الاطباء** لابن ابي اصيبعة ، وكتاب **اخبار العلماء باخبار الحكماء** لابن القفطي .

وبـالمقابـل نشطت جهـود علمية اخـرى غايتهـا استقصاء وجمـع وتدوين جميـع المعارف العلمية التي امتلكها الانسان العربي نقية من كل تـأثير اجنبي ، وهكـذا نشأت حـركة علميـة تبغي استقصـاء « العلوم عـلى مـذهب العـرب » ، وقـد تنـاولت المعـارف العلميـة الآتيـة : الحسـاب ، الفلك والانواء ، النبـات ، والحيـوان ، فصنف العلماء في هـذه العلوم مؤلفـات تثبت في بعض الاحيان افضلية هذه العلوم على مذهب اليونان(٣٣) .

« لا شك ان اول الذين اهتموا بالمعـارف العربيـة قبل الاسـلام وبعده ، علماء اللغـة ، حيث استعانـوا بفصحاء الاعراب والبادية في تسجيل كثير من المعلومات الخاصة بالنجـوم والكواكب والبـروج والمنازل، وانـواع النباتات وخصائص الحيوانات واسماء الموجودات المختلفة ، وكانت غايتهم جمع مفردات اللغة العربية ، وصيـانة او تنقيـة اللغة العـربية ممـا علق بها من شـوائب اللحن نتيجة اتصـال العرب بـالاعاجم ، وضبط قـواعد اللغـة وفصاحة اللسان . لقد امدت هذه الحركة اللغوية القـوية علماء معـاجم اللغة بعـدد كبير من المفـردات ، كما انها افـاذت العلماء في شتى انواع العلوم من حيث المصـطلح العلمي والمعرفـة العلمية العـامة ، وزودت علماء النحـو واللغة بالشواهد المختلفة »(٣٤) .

ونلاحظ كذلك ظاهرة علمية ولغوية اخرى مرتبـطة « بالعلوم عـلى مذهب اليـونان » ، يمكن ان تكون جزءاً من حركة تنقيـة اللغة العـربية ، فمن المعـروف ان الترجمـات الاولى من اليونانية الى العربية لم تكن جيدة الاسلوب بالاضافة الى ما ذكـر فيها من الالفـاظ اليونـانية ، وهي ظـاهرة لم تقتصـر على نـوع معين من المصنفـات ، بل اصـابت جميع الاختصـاصـات ، وبخـاصة الكتب الفلسفيـة والطبيـة والريـاضية ، الامـر الذي ادى الى اعـادة ترجمـة بعضهـا بـاسلوب افضل واكـثر دقة علميـة . ونشط العلماء والفـلاسفـة العـرب في مـرحلة لاحقـة في استحداث الفاظ عربية او مصطلحات بدلاً عن اليونانية ، فكـان ذلك خـير سبيل للمحـافظة على اللغة العربية وسلامتها من ان يصيبها الوهن نتيجة استعمال الفاظ اجنبية كثيرة فيها .

- ١٣ -

وتأكيداً للوجود القومي العـربي الذي تـوحد بفضـل الاسلام ،اخـذت اللغة العـربية في صدر الرسـالة تشق الـطريق نحو ايجـاد ابجديـة كتابيـة للتدوين ، فـدون بها القرآن الكريـم والاحـاديث النبويـة الشريفـة ، واستقرت في نهايـة الامر بـالصـورة التي نجدهـا واضحـة في المخطوطات العلمية والدينية والادبية ، واصبح لها قـواعد خـاصة لا يجـوز الخروج عليهـا من حيث الشكل والضبط اللغوي .

(٣٣) كتب الجاحظ مصنفه في « الحيـوان » وقد اشتمـل على معـرفة العـرب بالحيـوان من جميع الـوجوه ، وانتقد في ضوء هذه المعرفة بعض ما ذهب اليه ارسطو في هذا الصدد ، والف ابو حنيفة احمد بن داود الدينوري كتابه في « النبات » وقد جميع فيه معـرفة العـرب في هذا القـاموس النبـاتي ، وألف عبد الله بن مسلم ابن قتيبة كتاب الانواء في مواسم العرب الذي اشتمل على معرفة العرب بالانواء والفلك . . . وهكـذا غيرهم . انـظر : ياسين خليل ، العلوم الطبيعية عند العرب ( بغداد : مـطبعة جـامعة بغـداد لوزارة التعليم العـالي، ١٩٨٠ ) ، و« العلوم على مذهب العرب ،» .

(٣٤) خليل ، « العلوم على مذهب العرب ،» .

وارتبطت الكتابة العربية بالذوق الفني العربي ، فكان ذلك حقـلاً ابداعيـاً جديـداً ، اذ المعـروف ان الاذن العربيـة تتذوق فنيـاً الشعـر العربي باوزانه المختلفة، لأنـه يعبر عن جمـالية موسيقية وايقاعية خاصة فيها انسجام اللفظ والمعنى والروح. وتتذوق الاذن العـربية المـوسيقى والالحان بمقامـاتها المختلفـة ، ولكن الشيء الجديـد في الذوق الفني العـربي هو الجمـالية التي بدأت العين تحسها بفضل ارتباط اللغة بالدين والاوجـه الحضاريـة الاخرى . وهكـذا اخذت العناية الفنية العربية تتجه نحو تشكيل الحرف العربي بصور متنوعة تعبر بـلا ريب عن اصالـة الفنان العربي وطموحه نحو خلق اعمال فنيـة جديـدة خالـدة خلود الوجـود القومي العـربي . وكانت الروح الدينية وقدسية اللغة العربية دافعين خلقا في النفس العربية القدرة عـلى الابداع الفني لدى الفنان العربي ، والاحساس بالدهشة والروعـة لدى المشـاهد العـربي . وتوسـع فن الخط العربي ليشمل انواعاً كثيرة ، حيث نلمس ان لكل نوع منه ميزة خاصـة تعبر عن جمـالية معينة ومتميزة ، ووجدت له تطبيقات كثيرة في مجالات الحياة المختلفة : في عمـارة المساجـد ، حيث يتداخل مع النقوش والعمارة الفنية ، وفي كتابة المصحف الكريم وتزيينـه ، وفي النقش على النقود ، وفي عمارة الدور الخاصة ، وفي الرسم على الملابس واواني الخزف المختلفـة وغير ذلك . لقد ارتبطت الكتابة العربية والخط العربي بالوجود القومي العربي للاسباب الآتية :

أ ـ ان الكتابة العربية والخط العربي مظهران حضاريان متميزان ، فالكتابة العربية مظهر يميز الشخصية العربية ويطبع الوجود القومي العربي بطابع يشير الى الاختلاف البين بينه وبـين غيره ، سواء عبر التاريخ والآثار او من خلال التعبير عن الوجود القـائم . اما الخط العـربي، فإنه يشير الى الوجود الحضاري للامة العربية بالاضافة الى الابداع الفني للانسان العربي .

ب ـ ان التعبير عن المظاهـر والانشطة الحضـارية المختلفـة بكتابـة متميزة لهـا قواعـدها واصولها،وارتباط ذلك بالذوق الفني والمشاعر الدينية يشيران الى حقيقة مهمـة هي : ان الامة العربية قد اوجدت لذاتها اسلوباً في التدوين يحفظ لها وجودها وتواصلها عبر التاريخ ، ويجعل من تراثها الخالد وابداعاتها الادبية والعلميـة حاضـراً مستمراً يـطلع عليه الابنـاء دونما كلل او صعوبة ، ويفرض على الانسان العربي احسـاساً متجـدداً بعظمـة الماضي والافـادة من تجاربـه ومعطياته .

ج ـ تعين الكتابة العربية والخط العربي الآفاق التي ارتادها الانسان العـربي إبان نهضتـه الاسـلامية ، فحيثـما نجد الكتـابة العـربية نستنتـج كما هـو معروف في الـدراسات التـاريخيـة والآثارية ، ان الحضارة العربية الاسلامية قد امتدت الى هذه البقـاع والاصقاع ، كـما نستنتج امكانية الوجود القومي العربي وتأثيراته الفنية والحضارية والبشرية على الشعوب غير العربية .

ولما كان التدوين يشتمل عـلى جميع مـظاهر الكتـابة ، فـلا بد من ان نشـير كذلـك الى حقيقة علمية مهمة مرتبطة بالكتابة العربية، وهي تـطور الكتابـة بالارقـام ، فمن المعروف ان العـرب استخدمـوا الالفاظ في بـادىء الامر للتعبير عن الاعـداد ، ثم استخـدمـوا الحـروف الابجـدية ومـركباتهـا للتعبير عن الاعـداد كما هـو معـروف في « حسـاب الجمـل » ، واخيـراً استخدمت الارقام للتعبير عن الاعداد ، وفي هذا المجال نجد صورتين لهذه الارقـام : الاولى مستخدمة في اقـطار المشرق العـربي وهي : ٠ ، ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ،

والثانية مستخدمة في المغـرب وهي 9 , 8 , 7 ,0,1,2,3,4,5,6 . ودارت مناقشـات حول اصـل ارقام هاتين السلسلتين ، وذهب البـاحثون مـذاهب شتى ، وفضل آخـرون استخدام الارقـام المغربية . ولكن الامر يبدو لي غير ذلك ، فلو رجعنا الى الكتب الريـاضية جميعهـا التي صنفها العلماء العرب لوجـدناهـا تستخدم السلسلة الاولى او المشـرقية ، بـل وان المصنفات الفلكيـة والـطبيعيـة استخـدمت كـذلـك هـذه السلسلة ، ولم تستخـدم السلسلة الثـانيـة الا في بعض الكتب ، ومنها كتاب علي بن محمد القلضاوي ( ت: ١٤٨٦) المعروف : **كشف المحجوب في علم الغبار**، وانتقلت هذه الارقـام الى اوروبا عن طـريق الاندلس واصبحت جـزءاً لا يتجزأ من التراث العلمي الاوروبي بعد ان استخدمت في جميع المجالات العلمية(٣٥) .

**- ١٤ -**

ان النهـوض العربي الـذي تحقق بفضل الاسـلام والقدرات الـذاتية لـلامة العـربيـة ، سرعان ما بدأ بالانحسار اولاً ، وبالتدهور السريع ثانياً ، نتيجة لتعاظم القوى المعادية للعرب وتمزق الوجود القومي العربي الذي احدثته عـوامل كثيـرة ، منها : تعـدد الفرق والـطوائف ، ودخول الاعاجم وسيطرتهم على كثير من مظاهر الحياة العامة ، وتفضيـل غير العـرب من قبل بعض خلفاء بني العباس على العرب ، والاستعانة بـالجند من المـوالي او الاعاجم من الفـرس والترك ، وتفرق العرب في الاقطار والامصار، والابتعاد عن القيم العـربية الاصيلة ، وضيـاع رسالة الامة بين الجدل والتأويل ، وهكذا ازدادت التحديات للامة العـربية ، ولم يعـد للوجود القومي العربي غير الانغلاق والتبعثر ، بينما اخذت القوى الاجنبية تتصاعـد في تحقيق غايـاتها في القضاء على هذا الوجود وطمس معالمه ، فكانت اللغة العربية هدفاً مركـزياً . ففي الـوقت الذي استطاعت القوى الاجنبية من فـرس واتراك الخـروج من دائرة التـأثير العـربي، باحيـاء لغاتها القومية القديمة ، توجهت الى سياسة قهر اللغة العربية واشاعة لغاتها القومية وآدابها بـين الناطقين باللغة العربية من العرب وغير العرب .

إن انتقـال السيادة والحكم من ايـدي العرب الى ايـدي الاعاجم كـان ايذانـاً بـانهيـار الحضارة العربية والاسلامية وسيادة الفوضى والتنازع بين القوى الطامعة في الارض العربية . وقد اصاب اللغة العربية في هذه الفترة تدهور من الناحيتين : ناحية العناية بها والاستمـرار في تغذيتها بالعلم والمعرفة ، وناحية شيوع الكلام باللهجات المحلية وتفشي الالفـاظ غير العـربية فيها . وعلى الرغم من كل ذلك بقيت اللغة العربية والامـة الناطقـة بهامصونتين بسـور القرآن الكريم طيلة عهود الاستبداد الاجنبي ، حيث كان للقرآن الكريم الدور الاول في الحفاظ على اللغة العربية نقية ، كما كان له الفضل الكبير في تدعيم الروابط الثقافيـة والحضاريـة والدينيـة بين العرب .

لقد ادركت القوى الاجنبيـة اهمية اللغـة العربيـة في تماسـك الوجـود القومي العـربي ، فاتخذت اساليب متعددة من اجل منع الانسان العربي من التحدث بها، او ابدالها بلغة المستعمر

---

(٣٥) خليل ، التراث العلمي العربي ، ص ١٦١ ـ ١٦٥ .

بـالقوة والقهـر ، او العمل بـاستمـرار في سبيـل شيـوع اللهجـات المحليـة ، وفيـما يـلي ابـرز السياسات التي استهدفت القضاء على اللغة العربية في العصر الحديث :

اولاً : السياسة التي انتهجها الاتراك في بعض الاقطار العربية والدعـوة التي دعوا اليهـا في تتريك الشعوب غير التركية ، ومنها الشعب العربي ، وذلك عن طريق منع التحدث باللغة العربية والاقتصـار على استعمـال اللغة التـركية في الحـديث والمعامـلات في الدوائـر الرسميـة اعتقاداً منهم بأن ذلك الامر سيلحق الشعب العـربي بالتـرك . ولكن هذا المسعى بـاء بالفشـل لسبب بسيط هو بقاء القرآن الكريم باللغة العربية وضرورة تلاوة السور والآيات خمس مـرات في اليوم اثناء تأدية الصلاة، اضافة الى تلاوة القرآن الكريم في كثـير من الشعائـر الدينيـة وغير الدينية . كما لعبت المساجد دوراً مهماً في استمرار اللغة العربية من خلال تعليم الابناء القـرآن والحديث ، وما يتصل بهما من مؤلفات بالاضافة الى تدريس المخطوطات العربيـة ذات الصلة باللغة والعلوم الفقهية .

ثانياً : السياسة التي انتهجهـا الفرنسيـون في الاقطار العـربية التي احتلوهـا وخاصـة في اقطار الشمال الافريقي ، حيث حلت الفرنسية محل العربية في معظم مظاهر الحياة ، فكـانت لغة الحديث ولغة العلم والادب والمعرفة في المدارس والجامعات ، وانحسرت اللغة العربية في دائـرة ضيقة يتـداولها النـاس في المساجـد والتكايـا والمنـاطق الـريفيـة الفقيـرة والبـوادي بـين القبائل . وهنا مرة اخرى ، يتصدى الاسلام لهذه السياسة ، فتنمو الثورة شيئـاً فشيئاً من قلب الصحراء والريف والمسجد لتحرر الانسـان العربي من الاستعمـار وتعيد اليـه اللغة العـربية ، وتشتد الدعوة الى الوحدة العربية تأكيداً لتواصل الوجود القومي العربي .

- ١٥ -

ولم تبق حركة معاداة اللغة العربية موقوفة على المستعمر ، بل سرعان ما نشط في الاتجاه نفسه عدد غير قليل من العرب وقد تركزت جهودهم في اتجاهين :

**الاول** : ويتمثل في الدعوة الى شيوع اللهجات المحلية لتحل في نهاية الامـر محل اللغـة العربية الفصحى ، فتكون للعراقي لهجة او لغة عراقية ، وللسوري لغة سورية ، وللمصـري لغة مصريـة ، وللجزائـري لغة جـزائريـة ، وهكذا . وبـذلك نحصـل على عـدد من اللغات المختلفـة ، فينعكس هذا الامـر على الـوجود القـومي العربي ، فـلا نستطيـع ان نتحدث عن شعب عـربي واحد ، بـل عن شعوب عـربية ، كـما لا نستطيـع ان نتحدث عن امـة عـربيـة واحدة ، اذ كيف يكون لامة واحدة مجموعة من اللغات بعد ان كانت لها لغة عربية واحدة ؟!

**الثاني** : ويتمثل في الدعوة الى ابدال الحرف العـربي واسلوب الكتابـة العربيـة بالحـرف اللاتيني او العبري المتقـطع . وذلك عـلى اساس انـه اكثر سهـولة لتعلم الانسـان وافضل من الحرف العربي المترابط في الكلمة . وابدال الرقم المشرقي التراثي بالرقم المغـربي الذي اصبـح جـزءاً من التراث الاوروبي عـلى اسـاس انـه اكـثر عـروبيـة كـما يـدعـون واسهـل في عمليـة التعريب ،فالافضل الابقاء على المعادلة بارقامها ، والجدول بارقامه، والخرائط والـرسوم وغـير ذلك من المسائل التي تحتاج الى الارقام .

ان الدعوة الى تمتين اللهجات العامية في الاقطار العربية والكتابة بها والترويج لها على صعد الصحافة والاعلام والنشرات والكتب الادبية والعلمية ، تمثل ظاهرة معاكسة للاتجاه الوحدوي المتمثل في الدعوة القومية الى قيام الوحدة العربية ، كما تمثل في الوقت ذاته تياراً شعوبياً جديداً ، هدفه قطع صلة الانسان العربي بماضيه وتراثه العقائدي . ويمكن تشخيص اهداف هذه الظاهرة او الدعوة بما يأتي :

أ ـ اذا كانت اللغة العربية الفصحى هي الرابط القومي الموحد لابناء العربية ، باعتبارها اللغة المشتركة وهي لغة القرآن والموروث العقائدي ولغة الشعر والادب الواحد ، ولغة المعرفة والعلم ، فإن اللهجات العامية في الاقطار العربية مختلفة الى الحد الذي لا يستطيع انسان المشرق العربي مثلاً ، فهم لهجة الانسان العربي الجزائري او المغربي ، وهذا معناه : ان ابدال الفصحى بالعامية عملية تهدف الى تجزئة الامة الواحدة الى كيانات لغوية متباينة تعمل على اعاقة تحقيق الوحدة العربية ، وتقطع الصلات والوشائج التي تكونت عبر الزمن بفضل اللغة الواحدة(٣٦) .

ب ـ ان التجربة التاريخية للامة العربية في ممارسة جميع الانشطة ابتداء بالرسالة الاسلامية ، والسيادة القومية ، والمعرفة العلمية ، والدراسات الانسانية ، والانجازات والابتكارات التي اضافتها الى المسيرة العلمية للعالم ، والانجازات الحضارية والتاريخية عبر الزمن ، قد دونت باللغة العربية ، ووصلت الينا معرفتنا لها من خلال المخطوط والآثار . فإذا ما تم احلال اللهجة العامية محل الفصحى ، فإن علينا ان نذكر بأن هذا التراث العربي الضخم سيصبح مجرد تركة ثقيلة لا يستطيع الانسان العربي الاطلاع عليه ودراسته او اتخاذه بداية لحركة بعث عربية واحياء التراث ، وبذلك تقطع الصلة بين ماضي الامة وحاضرها ، وان على الامة بعد ذلك ان تخلع عن نفسها امانة السماء ، وينزوي الموروث العقائدي في المساجد والتكايا وتصبح اللغة الفصحى مجرد لغة دينية للمناسبات ، كما هو الامر بالنسبة للغة اللاتينية في الاقطار الاوروبية .

**- ١٦ -**

اما الدعوة الى ابدال الحرف العربي باستعمال الحروف المتقطعة سواء أكانت هذه الحروف عربية محوّرة ، ام لاتينية ، ام عبرية ، فإنها ولا شك تلتقي من حيث الاهداف مع الدعوة الى استعمال اللهجات العامية ، اذ كيف يمكن للانسان العربي ان يطلع على موروثه

---

(٣٦) يعتبر سعيد عقل من لبنان من اكبر المتحمسين لابدال اللغة العربية الفصحى باللهجة العامية لكل قطر عربي . ونشر الاب اليسوعي رفائيل نخلة سنة ١٩٣٧ كتاب « قواعد اللهجة اللبنانية ـ السورية » بالفرنسية :

Raphaël Nakhla, *Grammaire du dialecte libano- syrien: Phonétique, morphologie et syntaxe* (Beirut: Imprimerie Catholique, 1937),

واصدر انيس فريحة ، **تبسيط قواعد العربية وتبويبها على اساس منطقي جديد** ( جونيه : مطابع المرسلين اللبنانيين ، ١٩٥٢ ) ، وله كتاب آخر بعنوان : **محاضرات في اللهجات واسلوب دراستها** .

العقائدي وآدابه وتراثه الحضاري المدون بالحرف العربي اذا ما استعمل اسلوباً او حرفاً آخر في الكتابة[٣٧] . ان هذه الدعوة تكشف حقيقة مهمة جداً هي ان اعداء الامة العربية قد ادركوا بأنفسهم او بتوجيه من دوائر اجنبية ان استبدال الحرف العربي واسقاط حركات الاعراب بقصد تيسير اللغة العربية ، والعمل على اشاعة العامية بديلاً عن الفصحى ، تؤدي في نهاية المطاف الى تجزئة الوجود القومي العربي وتحويل جوانبه الحضارية المشرقة ورسالة الامة العربية الى العالم الى متحجرات وآثار لا يقدر الانسان العربي على التفاعل معها او اتخاذها قاعدة لفهم العالم الذي يعيش فيه .

ولم يتوقف اعداء اللغة العربية عن نشاطهم في تجميد اللغة العربية وتحويلها الى لغة لا يتعدى نشاطها الدين والادب والشعر ، لأنها في اعتقادهم غير قادرة على مواكبة التطور الهائل الذي احدثته العلوم والتكنولوجيا . وهكذا وقفت جمهرة كبيرة من المثقفين واساتذة الجامعات ضد حركة التعريب في القطر العراقي ، متذرعين بحجج واهية تدل على عدم معرفة بلغتهم القومية . وكانت غايتهم واضحة هي ابقاء اللغة الانكليزية لغة للعلوم الى جانب اللغة العربية ، وعجبي من ذلك هو لماذا لا تكون اللغة الفرنسية او الالمانية او الاسبانية او الروسية ، وكلها لغات قادرة على التعبير عن العلوم وما تحتاجه من مصطلحات، هي اللغة العلمية الى جانب اللغة العربية؟

ان الاتجاه المعادي لتعريب العلوم يؤدي دوراً تخريبياً ضد اللغة العربية ، لأنه يمنع اللغة من التطور عبر القنوات المعروفة في الاشتقاق والنحت والتعريب وغيرها ، كما يقيد اللغة العربية في المساهمة العلمية لتكون لغة علمية شأنها في ذلك شأن اللغات الاخرى، ويخلق هذا الاتجاه وضعاً نفسياً لدى الانسان العربي، قد يؤدي من دون ان يعرف الى احتقار لغته والتقليل من شأنها ، لأنها ليست لغة علم، ويفضل عليها لغات اخرى مما يزيد الهوة بين المثقف والعالم ولغته القومية ووجوده القومي .

ان التعريب ضرورة قومية ولغوية ، قومية لأن التعريب يزود الوجود القومي العربي بانشطة جديدة ، ولغوية لان التعريب تعبير عن استمرار اللغة في اداء وظيفتها على الصعيدين: لخلق الثقة القومية بقدرة لغته على الاداء العلمي والادبي ، ولاستمرارها في عملية التجدد والخلق اللغويين في مجال المصطلح العلمي والشرح المفهوم .

---

(٣٧) من ابرز من نادى بابدال الحرف العربي بالحرف اللاتيني في عالمنا العربي حنا ابو راشد، بقصد تقليص الحرف العربي ، وسلامة موسى ولويس عوض وانيس فريحة . وقد عمد نصري خطار منذ سنة ١٩٣١ الى ابتكار طريقة لكتابة اللغة العربية بحروف متقطعة كما في اللاتينية والعبرية . ويضاف الى هذه القافلة كل من سعيد عقل وعبد العزيز فهمي وخيري حقي .

# الفصل التاسع

# اللغة العربية وطرائق تدريسها

أحمد حقي الحلي

اللهم انا نعوذ بك من فتنة القول ، ونعوذ بك من التكلف لما لا نحسن كما نعوذ بك من العجب بما نحسن ، ﴿ اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ .

## اولاً : مفاهيم اساسية

### ١ ـ اللغة اهم مظاهر سلوك الانسان

ان اهم من يدب على ظهر هذه الارض هو الانسان ، « وان اللغة هي اهم مظهر من مظاهر سلوكه . لذا فهي ، اكثر من غيرها ، بل وقبل غيرها جديرة بالدراسة والبحث ما دامت مرتبطة بالانسان الى هذا الحد»[١] . فللانسان لغته الادارية التي يتعلمها من بيئته ، والتي تتكون من كلمات ذات مقاطع .

ويرى علماء النفس ان لغة الحيوان غريزية . وهي مجموعة من الاصوات والحركات المحدودة التي يعبر بها عن حاجاته الضرورية ووجدانه انفعالاته وبالرغم من عدم وجود لغة ذات مقاطع عند الحيوانات فانها تستطيع التفاهم بما تصدره من اصوات ذات معان خاصة . ويقول بعض المتخصصين انها ما دامت وسيلة للتفاهم كلغة القردة والطيور فانها لغة . ويرى الاستاذ Garmer في كتابه The Speech of Monkeys ، ان لغة القردة تتكون من نحو اثني عشر صوتا متميزا وهي تستعملها في حالة الخطر او وجود الطعام او الرغبة الجنسية[٢] .

---

(١) نايف خرما ، **اضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة** ( الكويت : المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، ١٩٧٨ ) ، ص ١٦ .

(٢) عبد العزيز عبد المجيد ، **اللغة العربية : اصولها النفسية وطرق تدريسها ، ناحية التحصيل** ، ط ٣ ( القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦١ ) ، ص ١٣ .

ويقول البعض ان ظاهرة التعبير الصوتي يشترك فيها الانسان وسائر الحيوان، بل قد يتأثر الانسان بالتعبيرات الصوتية للحيوان تأثرا نفسيا ، ولكن الكلام وهو ارقى انواع التعبيرات الصوتية، ظاهرة لا توجد الا عند الانسان وحده[٣] .

## ٢ ـ اللغة القومية

ان اللغة القومية لاية أمة هي الرابط التاريخي الذي يشد ابناءها اليها ، ويعزز في نفوسهم شرف الانتماء ، ويتبادلون ، عن طريق اللغة الاحاسيس والمشاعر ، فهي اهم مكونات الامة ، والوعاء الحضاري لها ، وقد تختلف الامة بيئة وجنسا ودينا . . . الخ ، ولكنها تظل متحدة متماسكة اذا كانت لغتها واحدة . فاللغة مستودع عقائد الامة وتاريخها وآمالها وآلامها ، و هي واسطة لتكتل فئات من البشر تجمعهم سوية وتطبعهم بطابع قومي خاص .

يخطىء من يظن ان اللغة العربية مادة كسائر المواد، انها لنا اللغة القومية ، وهي اداة التثقيف ، فما نحصل عليه في مختلف الموضوعات وما نطالعه للثقافة العامة انما تكون اداته هي اللغة القومية ، اللغة العربية . بل هي التي نعتمد عليها خارج الدراسة ، وهي التي تدور عليها محاوراتنا وجدلنا واحاديثنا في مجالسنا،وان حرفت قليلا الى العامية .

من يملك اللغة القومية ملكا صحيحا يستطيع ان يضع يده على ثروة ضخمة من المعلومات القيمة، ويكون بيده مفتاح لقصر فخم يستطيع ان يتناول منه ما شاء لتغذية عقله وروحه . ومن لا يملكها ملكا صحيحا يتعثر في هذه الثروة ويتخبط فيها ولا يستطيع ان ينتفع بها ويحسن نقلها ، ويشعر بكراهيتها ويعيش في ظلام .

ويضيف الاستاذ احمد امين : « ولعل من اهم مقاييس رقي امة من الامم مقدار عنايتها بلغتها القومية من حيث العناية بتعليمها ونشرها ، والعناية بتسهيل صعوباتها ، والعناية بوضع كتبها المشوقة الجذابة المفيدة للاعمار المختلفة ، والعناية بمعلمها بإعداده وتوسيع افقه واحاطته بما يعلي شأنه ويحفظ كرامته . فإن رأيت في امة ان معلمها القومي اقل إعداداً من غيره ، وانه لا ينظر اليه النظرة الكريمة التي تتفق واهمية تبعته ، ورأيت مكتبة اللغة القومية فقيرة غير جذابة ، ورأيت اهلها لا يعنون بتقريب لغتهم وتذليل صعوباتها ، فاحكم على الامة بالتأخر والضعف والانحلال »[٤] .

## ٣ ـ اللغة والحياة

اللغة صور واشكال للحياة نفسها، ولهذا فهي تتطور مع الحياة صعودا او هبوطاً، فلا عجب اذا ظهر عليها ما يظهر في الحياة من ضعف وقوة ، من عز ومن ذل . ترقى الامة فترقى اللغة وتنحط

---

(٣) محمد صالح سمك ، فن التدريس للغة العربية والتربية الدينية ( القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٩ ) ، ص ١١- ١٢ .

(٤) محمد قدري لطفي ، تعليم اللغة القومية، تقديم احمد امين( القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٤)، « المقدمة، » ص ٣ ـ ٥ .

الامة فتضعف اللغة وتهزل، فتتساقط دموعها من رؤوس الاقلام وتتناثر من افواه الادباء ، ثم تستيقظ الامة فتدب الحياة في اللغة التي هي ليست في الحقيقة مجسمة صور الكلمات واشكال الجمل والكلام فحسب ، وانما هي صوت واشكال للحياة نفسها .

في اللغة تتمثل حضارة الامة ونظمها وعاداتها وتقاليدها وعقائدها ومظاهر نشاطها العملي والعقلي ، وثقافتها العامة واتجاهاتها الفكرية وما تخضع له من مبادىء في نواحي السياسة والتشريع والقضاء والاخلاق والتربية وحياة الاسرة ، وما تأخذ بأسبابه من انواع الفنون الجميلة كالموسيقى والنحت والرسم والتصوير والعمارة والتمثيل . . . وغير ذلك مما تسجله اللغة ، لأن كل تطور في الاحوال الاجتماعية يتبعه تطور في اللغة .

فاللغة مقياس دقيق يعرف به مدى ما وصلت اليه الامة من تطور وارتقاء ، او عكس ذلك ، فاللغة هي الدلالة على مدى تحضر الامة ورقيها في احوالها الاجتماعية(٥) .

## ٤ ـ وظيفة اللغة في حياة المجتمع

اللغة وسيلة اجتماعية وأداة للتفاهم بين الافراد والجماعات ، في مواجهة المواقف المختلفة التي تتطلب الكلام او الاستماع ، او القراءة او الكتابة ، وهذه الفنون الاربعة ادوات مهمة في اتمام التفاهم وهو من اهم الوظائف الاجتماعية للغة(٦) .

إن جميع وسائل التواصل الجماهيري المختلفة ، التي لها اكبر الاثر في حياة المجتمع تعتمد على اللغة التي اصبح لها شأن خطير ، في السلم والحرب ، حتى انها قد تكون امضى سلاحاً من الاسلحة الاخرى في تحطيم قوة العدو واحراز النصر ، اضف الى ذلك ان اللغة من وسائل الارتباط الروحي بين افراد اي مجتمع . وهذا يفسر لنا حرص الدول الاستعمارية على نشر لغاتها ، لأنها تكتسب بهذا الغزو اللغوي قلوباً وميولاً .

واللغة عامل مهم في حفظ التراث الثقافي والحضاري ، ونقل هذا الارث الاجتماعي من جيل الى جيل . واللغة تقرب المسافات لانها تمكننا من ايصال انفسنا الى ما وراء الحواجز التي تفصلنا عن بعضنا حين يكون احدنا بعيدا عن الآخر(٧) .

اما الكلمة المكتوبة فتقرب الزمان والمكان كليهما . ولولا هذا الارث الاجتماعي لما وصلنا الى حضارتناهذه ، ولكانت حياتنا في متاهة ، علما بان اللغويين مثل « فردينانددي سوسير» يفرّق بين اللغة «language» والانسانية اي انها شيء صنعه الانسان واتخذه وسيلة للاتصال ، ثم كيف انها « تتحول الى كلمات مفهومة تفيد من الخصائص التي تمتلكها اللغة فتكون ادوات يتسم بها التفاهم والتواصل

---

(٥) سمك ، المصدر نفسه ، ص ١٦ .

(٦) عبد العليم ابراهيم ، الموجه الفني لمدرسي اللغة العربية ، ط ٤ ( القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦١ ) ، ص ٤٤ .

(٧) المصدر نفسه ، ص ٤٤ ـ ٤٥ .

«Parole»(٨). اما اذا فقد الانسان قدرة التعبير واستعصى عليه الاتصال اللغوي بمجتمعه فإنه يصيبه القلق والاضطراب . ولنتصور مجتمعا ما تعطلت فيه اللغة يوما ، فلا كلام ولا كتابة ولا قراءة ، لننظر بعد هذا ما يصيب المجتمع من شلل وركود ، فندرك مدى توقف حياة المجتمع على اللغة .

## ثانيا : هل اللغة العربية صعبة ؟

### ١ - لغتنا العظيمة

يقول ابو حيان التوحيدي ، في الليلة السادسة من كتاب **الامتاع والمؤانسة** عن اللغة العربية ما يأتي : « قد سمعنا لغات كثيرة - وان لم نستوعبها - من جميع الامم فما وجدنا لشيء من هذه اللغات نصوع العربية ، اعني الفرج التي في كلماتها والفضاء الذي بين حروفها ، والمسافة التي بين مخارجها ، والمعادلة التي نذوقها في امثلتها ، والمساواة التي لا تجحد في ابنيتها ، وان شئت ان تعرف حقيقة هذا القول وصحة هذا الحكم ، فالحظ عرض اللغات الذي هو بين اشدها تلابسا وتداخلا ، وترادفا وتعاضلا وتعسرا وتعوصا والى ما بعدها مما هو اسلس حروفا وأرق لفظا ، واخف اسما ، والطف اوزانا واخضر عيانا ، واحلى مخرجا واجلى منهجا واعلى مدرجا ، واعدل عدلا ، واوضح فضلا ، واصح وصلا الى ان تنزل الى لغة بعد لغة ، ثم تنتهي الى العربية ، فإنك تحكم بان المبدأ الذي اشرنا اليه في العوائص والاغماض ، سرى قليلاً قليلاً حتى وقف على العربية في الافصاح والايماض»(٩) .

فاللغة العربية لغة وعي ، ولغة شهادة . وينبغي انقاذها سليمة باي ثمن لانها حفظت مخلفات الامم وتراث الانسان في العلوم واستوعبت آثار العلماء والفلاسفة ، فقد نقلت مؤلفاتهم الى العربية من اليونانية والسريانية والفارسية والهندية والنبطية ، ولا سيما كتب افلاطون وارسطو وآخرين يزيدون على عشرين من الفلاسفة الطبيعيين والرياضيين وغيرهم في علوم الطب(١٠) .

وابرز ماسينيون في بحوثه ومحاضراته فكرة تبدو جديدة بالقياس الى آراء المستشرقين السابقين : في حين ان « اللغات الهندو- اوروبية انما جعلت للتعبير عن نظام العالم الخارجي ، نجد اللغة العربية وكأنما جعلت لكي يتذوق اصحابها مقصداً من المقاصد الالهية » . العربية « تملك دايلكتيقا المعجزة التي ترنو الى الابدي ، وتصرف النظر عن المتغير وعن كل ما هو زائل ، ولما كانت العربية هي المصدر الوحيد لدى العرب للوصول الى الفعل الالهي ، فقد احبها اهلها حباً راسخاً عميقاً » . ويقول ماسينيون ايضاً :

---

(٨) ابراهيم السامرائي ، **العربية تواجه العصر** ( بغداد : دار الجاحظ ، ١٩٨٢ ) ، ص ١١ .

(٩) ابو حيان علي بن محمد التوحيدي ، **الامتاع والمؤانسة** ، اختار النصوص وقدم لها ابراهيم الكيلاني ( دمشق : منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي ، ١٩٧٨ ) ، ج ١ ، ص ١٢١ - ١٢٢ .

(١٠) حسين علي محفوظ ، « سعة العربية وغناها واصالتها بين القانون والمجمع ، » ورقة قدمت الى : الاتحاد الوطني لطلبة العراق ، مؤتمر تنفيذ قانون سلامة اللغة العربية ، ١٩٧٩ ، ص ٦ ( غير منشور ) .

« ان في اللغة العربية استعداداً للرؤية الجوّانية يتذوقه من نشأوا على التحدث بها . وفي العربية بفضل تركيبها الداخلي وطراز الخلوة الذي توحي به ، قدرة خاصة على التجريد والنزوع الى الكلية والشمول . ومن هنا كان للعرب الفضل في اكتشاف رموز الجبر وصيغ الكيمياء والمسلسلات الحسابية . ثم ان اللغة العربية لغة الغيب والايحاء : تعبر بجمل قصيرة مركزة عما لا تستطيع اللغات الغربية ان تعبر عنه الا في الجمل الطويلة الفضفاضة » . ويذكر ماسينيون ان « واحداً من الاوروبيين المساكين قال له مرة في معرض الزراية على العرب : « ليس لهؤلاء الناس ادب » . فأجابه : « لم ، نقول في ثلثمائة جملة ما يمكن ان يقال في سطر واحد»» . ويضيف ماسينيون الى قوله : « ان الشعوبية المتزمتة ، شعوبية دولة اسرائيل الجديدة ، لا تؤمن بشيء قدر ايمانها بلغتها العبرية . وان مدارسها الاولية تعلم العبرية وفقاً للاعراب العبري التقليدي المنقول عن اللغة العربية ، وفقاً للابجدية القديمة » .

« اللغة العربية لغة وعي وشهادة ، وينبغي انقاذها سليمة بأي ثمن للتأثير في اللغة الدولية المستقبلية . واللغة العربية بوجه خاص هي شهادة دولية يرجع تاريخها الى ثلاثة عشر قرناً »(١١) .

وبمناسبة هذه الآراء الجديدة التي عرضها البروفسور ماسينيون عن خصائص « الجوانية في اللغة العربية » نشر الاستاذ الجليل المستشرق الفرنسي هنري لوسيل مقالا في جريدة « لوموند » بعنوان « اللغة العربية والحضارة العربية الاسلامية تزودان الدارس لهما بنظرة جديدة الى العالم » . وفي هذا المقال شهادة جديدة تؤكد ما ذهبنا اليه من خصائص الجوانية في اللغة العربية والمثالية الاصيلة في فلسفتها . كتب لوسيل ـ حفظه الله ـ داعيا الى تعليم اللغة العربية في المدارس الفرنسية ، ومبينا ان هذه اللغة تيسر الملاءمة السمعية مع اللغات الاخرى ، فقال : « ان التلميذ او الطالب يجد في العربية معاني لغوية تختلف اختلافا كبيرا عن معاني الفرنسية او اللاتينية او اي لغة اوروبية . وعن طريقها يتعرف المتعلم الى عقلية العرب ، يجد نفسه اولا امام الابجدية العربية ، وربما كان فيها بادىء الامر موضع للنقد ، ولكنه سرعان ما يجد لها جاذبية خاصة . ويستوقف نظري في الوقت نفسه سير الكتابة العربية من اليمين الى الشمال . ولكن هذا السير يبدو مطابقا لحركة فسيولوجية اكثر اتفاقا مع الطبيعة . ثم اذا به يكتشف كلمات ذات اصول ملحنة واضحة ونسقا ( مرفولوجيا ) مبتكرا داخل الكلمة ، يستبعد كل اضافة خارجية من المقاطع لاوائل الكلمات او اواخرها ، ويتيح ثروة من الاشتقاق من الاصل الواحد . وتقدم العربية ايضا نسقا من قواعد الاعراب بسيطا وفيه قدر كبير من المرونة ، كما تقدم اساليب من تركيب الكلام تجمع بين السذاجة والدقة ونسقا من الافعال يتسم بالبساطة . . . الخ» . ثم يردف مبرراته للطالب الفرنسي لتعلم العربية قائلا : « هذه الخصائص وغيرها تزود المتعلم ـ عن غير وعي منه ـ بتصور للتعبير الانساني جديد حقا ، وفيه خصوبة وثراء . . . الخ» ومع اللغة العربية ينفتح امام نظر التلميذ عالم جديد يخالف العوالم التقليدية المأثورة ، ان الحضارة العربية الاسلامية ، وجذورها ضاربة في الاصل السامي المشترك ، مختلفة كل الاختلاف عن حضارتنا ،

---

(١١) عثمان امين ، **فلسفة اللغة العربية** ( القاهرة : الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٥ ) ، ص ٧ ـ ٨ ، نقلاً عن : ماسينيون ، **المؤلفات الصغرى** ( بيروت : دار المعارف ، ١٩٦٣ ) ، ص ٦٢٥ ( بالفرنسية ) .

غير انها قد تجوهلت تجاهلا شائنا . فالتعليم الفرنسي ، حتى في البلاد العربية ، قد القى على عينيه غشاوة فعمي عن رؤ ية هذه الحقيقة زمنا . . . الخ،الى ان يقول : « والواجب على من يتولون امر الثقافة في فرنسا ان يصنعوا بالنسبة الى العرب ما يصنعه اساتذة التاريخ بالنسبة الى اوروبا . يجب ان يعلموا الاطفال الفرنسيين شيئا من الذخيرة الهائلة من الحضارة العربية . ان دراسة القرآن ، ولو كانت دراسة سطحية تكشف للتلاميذ شيئا فشيئا تصورا جديدا للعالم . والدين الاسلامي يسري في حضارة القرآن كلها ، وتلك ظاهرة قد تجوهلت كثيرا ، فاذا تعمقنا استطعنا ان نفهم الى حد كبير ما يجري في العالم العربي في ايامنا هذه»[١٢]. وعن الجرس الموسيقي للفظ العربي قال ماسينيـون : « في اللفظ العربي جرس موسيقى لا اجده في لغتي الافرنسية» .

هذه شهادات عن اللغة العربية من عالمين غربيين فاضلين غير متهمين بالتحزب لنا ، ونرجو من بني قومنا العرب ان يراجعوا انفسهم وليكفوا عن ترديد آراء تقليدية عن قصور لغة وسعت كتاب الله لفظا وغاية .

## ٢ ـ مشكلة النحو

اليس غريبا ان يكون الغرض الاصلي لوضع اللغة العربية ان تكـون اداة شفافـة لإبراز المعاني ، فتصبح ستارا كثيفا يطمس عليها ، ويحول دون ظهورها ؟ لذلك قال « رينـان » فـي كتـاب **تاريخ اللغات السامية**: « ما زال شغلا شاقا على الناطقين بالعربية ان يحذقوا لغتهم الفصحى» . وقال : « ومعظم الذين يعرفون القراءة يقرأونها بصعوبة ولا يدركون المعاني بسرعة ، كما لو كان الاعراب الذي تمرسنا به في حداثتنا لا يزال يشغلنا في الكبر كما كان يشغلنا في الصغر»[١٣] .

ما اصعب هذه اللغة . . . . كلمة تسمعها من ابناء العربية وغيرهم ، ولو انصفوا لقالوا ما اعقم الطرائق والوسائل المستعملة في تعليم هذه اللغة ،ولا تقتصر طرائق التدريس العقيمة على النحو والصرف بل تتناول الادب وشتى فروع اللغة الاخرى .

يقـول العلامـة « وليم مارسيـه » المستشـرق الفـرنسي وعضـو المجمـع العلمي العـربي العام : « هذه العربية الخالدة ، حسبما يقول الذين يتخذونها اداة للثقافة اصيبت بنقيصة اصيبت بها جميع اللغات العالمية اذ خسرت تماسها مع لغة التخاطب ـ اي مع الحياة ـ ففقدت المرونة . . . هذا مع انه من السهل جدا تعليم اصولها ، فقواعدها الصرفية التي تظهر معقدة لاول نظرة هي قياسية ومضبوطة بشكل عجيب لا يكاد يصدق ، حتى ان صاحب الذهن المتوسط يستطيع تحصيلها بأشهر قليلة وبجهد معتدل ، ان الفعل العربي هو لعبة اطفال اذا قيس بالفعل اليوناني او بالفعل الفرنسي ، فليس هناك صعوبـة في الاشتقاق . اما النحو فبسيط لا تعقيد فيه مطلقاً. . . » .

---

(١٢) امين ، المصدر نفسه ، ص ٩ ـ ١٢، نقلاً عن : المقال الذي نشره هنري لوسيل في : *Le Monde*, 3 / 9 / 1964.

(١٣) جورج الكفوري ، **اللغة العربية في ماضيها وحاضرها ومستقبلها** ، تقديم جبور عبد النور ( بيروت : مطابع نصار ، ١٩٤٨ ) ، ص ٨١ ـ ٨٢ .

وفي هذا الصدد يقول المستشرق الفرنسي « هنري لوسيل »: « وتقدم العربية ايضاً نسقاً من قواعد الاعراب بسيطاً ، وفيه قدر كبير من المرونة ، كما تقدم اساليب من تركيب الكلام تجمع بين السذاجة والدقة ، ونسقاً من الافعال يتسم بالبساطة ، ويحير الناظر اول الامر ، ولكنه مع ذلك قد بلغ من التمام في منطقه ما بلغه النسق الفرنسي »[١٤] .

إن العربية المحبوبة لغتنا ومعين تراثنا كانت « طوال عصورها لسان المتحدث ، وقلم الكاتب ، وكتاب المؤلف ، وكانت ديوان هذه الامة اختصر فيه مجدها وحضارتها وثقافتها . ولكنها نكبت بابنائها، فلم تلق منهم الا ازوراراً ، والا استهتاراً بالاساءة اليها »[١٥] .

هذا شعور استاذ مكلوم ينطق عن لوعة حادة تذيب القلب لانه رأى ان درس النحو صار تمرينات غير واقعية ولا عملية ، او صار نوعا من الرياضة العقلية البائسة[١٦] .

بناء لما سبق يمكن الاشارة الى ان اهم مشكلة تعرض لدارس العربية هي مشكلة طبيعة القواعد كما رسمها النحاة . تلك القواعد التي ثار عليها منذ البداية بعض الشعراء الذين كرهوا ان يقيدوا كلامهم بقواعد لم يعودوها، وما قصة الفرزدق مع بعض النحاة ببعيدة عنا . اضف الى ذلك ان النحاة في العصور الاولى وضعوا القواعد العربية مستنبطة من كلام العرب وادبهم وشعورهم تقويما للسان وابعاداً للذوق الادبي من الانحراف بعد ان فشت العامية بين الناس ، ولكن علم النحو قد فسد بالصنعة بما داخله من الفلسفة والمنطق فأصبح النحو غاية لا وسيلة تتخذ لتقويم اللسان على سداد النطق من زيفه الى العامية[١٧] .

لقد كان النحو اول الامر علم الادب . وكان دليل الدارس الى فهم النصوص « وكان النحاة الاوائل رواة اللغة والشعر والادب ، وكانت مجالسهم تنتظم الدارسين على اختلاف موضوعاتهم ، غير ان اللغة وروايتها والنحو وتعقيده ، والقراءة وتخريجها كانت الاساس الذي اقام الدارسون عليه نشاطهم العلمي ، وكانت منطلقهم الى ميادين اخرى»[١٨] . وتمخضت هذه الحقبة الخصبة التي عاش فيها الفراهيدي وصحبه وتلاميذه عن درس لغوي ونحوي حي ، يستمد حياته من حياة مصادره . « ولم يكد القرن الرابع يطل على الدارسين حتى صار الدرس يتوخى في مجالس الفلسفة ، او النحاة المتفلسفين وكان الدراسون قد شهدوا عند

---

(١٤) امين ، **فلسفة اللغة العربية**، ص ١٠ .

(١٥) مهدي المخزومي ، « العربية .. امانة نتحملها جميعاً ،» **الثقافة** ( بغداد ) ، السنة ٩ ، العدد ١ ( كانون الثاني / يناير ١٩٧٩ ) ، ص ٨٨ .

(١٦) مهدي المخزومي ، **اعلام النحو العربي** ( بغداد : وزارة الثقافة والاعلام ؛ دار الجاحظ ، ١٩٨٠ ) ، ص ٤ .

(١٧) ابراهيم كمال ، « انحطاط اللغة العربية في العراق ،» **مجلة الاستاذ**، السنة ٤ ( ١٩٥٥ ) .

(١٨) المخزومي ، **اعلام النحو العربي** ، ص ٤ .

مطلع القرن الرابع تياراً ثقافياً جديداً حفلت به مجالس الدرس في بغداد ، بعد ان خبت الجذوات الاصيلة التي كانت تتقد وتتوهج في البصرة والكوفة ، وفي بغداد في عهدها الاول »(١٩) .

## ٣ ـ كتب النحو المدرسية

ان كتب اللغة العربية الجديدة عندنا تعطي الطالب قسطا وافيا من الوعي الوطني والقومي ويتزود بكثير مما يحتاج اليه في حياته من قيم واتجاهات صحيحة، غير ان هذه الكتب ما زالت بعيدة عما نطمح اليه في جانبها المعرفي وما فتئت تنوء بموضوعات ومسائل لا تخدم لغة ولا تصقل ذوقا ولا تثري ملكة، وان كتب النحو خاصة هي اجمع الكتب للمشكلات واحراها بالنقد والتقويم ، والكلام على كتب النحو يقتضينا الكلام على مفرداتها وعلى طريقة معالجة هذه المفردات . فاما المفردات فلم تقرر في ضوء حاجة الطالب الى ما يقوم لسانه ويصحح اسلوبه ويجعله قادرا على الكلام الذي لا يشوبه خطأ ولا يفسده لحن (٢٠). وان من يتأمل هذه المفردات يجد نفسه امام صعوبات تعسّر طريق المربي الذي يعمل على تعليم اللغة الى ابناء الجيل ، تلك اللغة التي لا تصبح في متناولهم الا اذا عنيت بها يد الصناعة الحكيمة فهذبتها ووحدت قواعدها وذللت صعابها وقربتها الى المتعلمين وحببتها لهم ولا سيما علم النحو .

« إن الذي ينظر الى كتب النحو في ضوء وظيفة هذا العلم يجد انها تضم موضوعات ومسائل لا يسبب الجهل بها وقوعاً في لحن او ارتكاباً لخطأ . فما انتفاع الطالب مثلاً في موضوعات مثل : اقسام المعارف والمبني من الاسماء والافعال واعراب اسماء الشرط والفعل الصحيح والفعل المعتل؟ ان درس هذه الموضوعات وامثالها لا يدفع لحناً ولا يعصم من خطأ ولا ينجم عن درسها الا حشو ذهن الطالب بمصطلحات واسماء من شأنها ان تزهده في النحو وتصرفه عن درسه . . . الخ»(٢١) .

المتفحص لكتبنا المدرسية وما تقدمه عن بعض الموضوعات لا يختلف عما تقدمه كتب النحو المطولة التي تدرس في مراحل عالية من التعليم . ولا شك في ان التفصيل والجري وراء الدقائق في المرحلة المتوسطة والاعدادية مما يؤخذ على كتب النحو عندنا ويشكل عائقا من عوائق تعليمه . وعلى سبيل المثال لا الحصر ، خذ كتاب قواعد اللغة العربية للصف الاول المتوسط فهناك احوال بناء الفعل استنفذت من الكتاب من ٢٨ الى٣٦ صفحة، تناولت بناء الماضي وبناء الامر، وبناء المضارع ، وهذه المعلومات في البناء لا تعصم التلميذ من الخطأ ، كما انها ليست موضوعا وظيفيا . ومن بين موضوعات هذا الصف تقسيم الفعل من حيث الزمن ، وقد سبق ان درسه الطالب ولا ضرورة لتكراره ثانية . وكذلك اعراب المضارع فهو ايضاً موضوع غير وظيفي ، كما ان

---

(١٩) المصدر نفسه ، ص٥ ـ ٦ .

(٢٠) نعمة رحيم العزاوي ، « مناهج اللغة العربية وسبل تطويرها ،» ورقة قدمت الى : الاتحاد الوطني لطلبة العراق ، مؤتمر تنفيذ قانون سلامة اللغة العربية ، ١٩٧٩ ، ص ١ .

(٢١) المصدر نفسه ، ص ١ ـ ٢ .

الحركات المقدرة لا تخدم نطق التلميذ ولا تعصمه من الخطأ[٢٢].

اما التمييز الملحوظ والملفوظ من الكتاب نفسه فهو صعب على تلميذ في الصف الاول المتوسط ، وقد انهى لتوه المرحلة الابتدائية ، فالغوص في مثل هذه المصطلحات تبعد الطالب عن حاجاته الاساسية من علم النحو ولا سيما التمييز الملحوظ اي التمييز غير الموجود في الجمل والذي يفهم من سياق الكلام ، ويعطي الكتاب مثالا على ذلك « عظم العرب قوة » والتقدير عظم شيء من الاشياء المنسوبة للعرب[٢٣]. كما يقترح حذف مسألة جواز جر التمييز بـ ( من ) لان التلميذ لا يخطىء في هذه الصيغة[٢٤].

وخذ مثلاً آخر وهو كتاب **قواعد اللغة العربية للصف الثاني المتوسط** وأول موضوعاته المبني والمعرب من الاسماء فلا يخدم صحة التعبير ولا سلامة النطق ، ثم انظر الى النص الذي اختاره المؤلفون للموضوع ذاته تتأكد من قول احد الاساتذة الافاضل المتمرسين في لغتنا عندما يقول : « جرائمنا في تدريس عربيتنا » . ومما جاء في النص ما يأتي : « الاسلوب خلق مستمر . خلق الالفاظ بواسطة المعاني ، وخلق المعاني بواسطة الالفاظ » . ويقول : « ويجب ان يتوافر في الاسلوب البليغ عنصر التلاؤم او الموسيقية ، يكون ذلك في الكلمة بائتلاف الحروف وتوافق الاصوات وحلاوة الجرس . . . . الخ »[٢٥] . لغة لا تلتئم ومستوى تلاميذ الثاني المتوسط في اول اسبوع دراسي من السنة .

اما موضوع علامات الاعراب وعلامات البناء[٢٦] فموضوع معاد ومربك للتعليم . وقد التفت المجمع العلمي المصري الى امثال هذه الصعوبات ولا سيما علامات الاعراب والبناء ودعا الى اعتماد ألقاب الاعراب وعدم التمييز بين القاب الاعراب والقاب البناء منذ عام ١٩٣٦ .

ويرى د. نعمة العزاوي[٢٧] في موضوع « انواع المعارف » انه « ليس الا حشو ذهن الدارس بالمصطلحات والتعريفات التي لا يضر الطالب ان يجهلها . فسواء عرف التلميذ (الذي) من المعارف ام لم يعرف » . وكذلك الحال مع « العلم » فما الجدوى الوظيفي للطالب ان يعرف ان العلم مفرد ومركب بثلاثة انواع : اضافة واسناد ومزج ؟ اما ان العلم المضاف يعرب صدره حسب العوامل الداخلة عليه ،

---

(٢٢) انظر : نعمة رحيم العزاوي، « نقد كتب قواعد اللغة العربية للمرحلتين الابتدائية والمتوسطة ،» معهد تطوير اللغة العربية، [د.ت.]، ص ٤٠ ( طبع رونيو) .

(٢٣) الجمهورية العراقية ، وزارة التربية ، **قواعد اللغة العربية للصف الاول المتوسط** ( [بغداد : الوزارة]، ١٩٨٢)، ص ٦٣ .

(٢٤) العزاوي ، المصدر نفسه ، ص ٤٣ .

(٢٥) الجمهورية العراقية، وزارة التربية ، **قواعد اللغة العربية للصف الثاني المتوسط** ([بغداد: الوزارة]، ١٩٨١)، ص ٧ .

(٢٦) المصدر نفسه ، ص ١١ .

(٢٧) العزاوي ، « نقد كتب قواعد اللغة العربية للمرحلتين الابتدائية والمتوسطة ،» ص ٤٨ .

والعلم المركب تركيباً اسنادياً مثل جاد الحق وتأبط شراً ان يعرب على الحكاية والمركب تركيباً مزجياً مثل حضرموت فيمنع من الصرف ، والمختوم « بويه » مثل نفطويه وسيبويه فيبنى على الكسر ، لا محل لهذا كله لتلميذ المرحلة المتوسطـة ويمكن ان يعطى عرضاً في دروس المطالعة في مرحلة لاحقة .

وكذلك موضوع « الضمير » الذي غطى تسع صفحات في الكتاب المقـرر(٢٨) يمكن ان يجري تدريس هذا الموضوع عن طريق التدريب على استعمال الضمائر المتصلة والمنفصلة من غير ذكر بنائها او محلها من الاعراب وكذلك الحال مع اسماء الاشارة والاسماء الموصولة(٢٩) .

وكتاب **قواعد اللغة العربية** ، الذي ألفه اكثر من عشرة متخصصين ، نجدهم مع الاسف ادخلوا موضوعات فوق مستوى المتعلم ، ودخلوا في تفصيلات جانبية تزهد الطلاب في النحو لا بل تنفرهم منه .

ان ما جاء في الكتاب عن ابواب الفعل الثلاثي والرباعي(٣٠) وظيفي يتعلق ببنية الكلمة اي بسلامة النطق ، غير انه من الصعب ضبط الفعل لطالب بعمر ( ١٤ او ١٥ سنـة تقريبـاً ) . ولذا يمكن معالجة الموضوع باعطاء المتعلم جداول تضبط الابواب ليعرف الطالب حركة عين الفعل فيقول : نَصَرَ ينصُرُ ، وضَرَبَ يضرِبُ ، ونَضَجَ ينضَجُ ، وكَرُمَ يكرُمُ ، وحَسِبَ يحسِبُ .

والاحسن ان يحذف هذا الموضوع من المرحلةالمتوسطة،اما موضوع « الميزان الصرفي » فليس من فائدة عملية ترجى من معرفة الطالب ان ( زَينب ) وزنها ( فَيْعل ) وان ( سام ) وزنها ( فاع ) وان ( ف ) وزنها ( ع ) . ولذا اقترح حذفه(٣١) . وكذلك موضوع المتصرف والجامد من الافعال في كتاب الصف الثالث المتوسط مثل نعم وبئس وليس التي هي جامدة لموضوع غـير وظيفي ، فيمكن حذفه من منهج الصف الثالث او التنبيه الى هذه الافعال عندما ترد في كتاب المطالعة . وهناك قسم من المدرسين يشير الى ان بعض النحويين يرون انها ليست افعالا فيزيد في اربـاك المتعلمين .

وهناك المصدر فإنه غطى ١٧ صفحة واشتمل على سبعة موضوعات ولو فرضنا ان المدرس سيقدمها للطلاب في ثلاث حصص ، فان السأم سيدب الى نفوس المتعلمين ، بينما نحن نهدف الى تحبيب اللغة الى الطلاب .

اما المصدر المؤول والصريح والمصدر الصناعي فبالامكان حـذفها لتخفيف العبء عـلى

---

(٢٨) الجمهورية العراقية ، وزارة التربية ، **قواعد اللغة العربية للصف الثاني المتوسط** ، ص ٢٢- ٣٠ .

(٢٩) العزاوي ، المصدر نفسه ، ص ٤٩ .

(٣٠) الجمهورية العراقية ، وزارة التربية ، **قواعد اللغة العربية للصف الثالث المتوسط** ( [بغداد: الوزارة]، ١٩٨٢)، ص ١٩ - ٢١ .

(٣١) العزاوي ، «نقد كتب قواعد اللغة العربية للمرحلتين الابتدائية والمتوسطة ،» ص ٥٥ .

المتعلمين لان الموضوعين بعيدان عن النحو الوظيفي . ان الامثلة التي سقناها من كتب قواعد اللغة العربية هي نزر من فيض مما يعاني منه المتعلمون من دروس النحو .

ان بعض اللغويين المحدثين يرون ان سبب ضعف الطلاب في اللغة العربية وعلّة انصرافهم عنها تكمن في بعد كتبنا الدراسية عن المفهوم الصحيح لتعليم اية لغة قومية .

ولا يؤدي تعليم اللغة نتائجه الناجحة ما لم تحصل مواءمة بين المعلم والمنهج والكتاب والطريقة ودوافع الدارس للتعلم بحيث يستطيع ان يفهم المسموع ويفهم المقروء ويستطيع التعبير عن نفسه بكلام عربي سليم . ولهذا يمكن القول ان اي نشاط لغوي لا يحقق هذه الوظائف قد يصرف الطلاب عن اللغة ويسبب لهم النفور منها .

فلكي يحبّ طلابنا لغتهم القومية ، التي هي إحدى مفاخر أمتهم ، علينا ان نعيد النظر في مناهج اللغة العربية ، وفي إعداد المعلم الكفء ، وان يكون الكتاب المدرسي ، المتخم الآن بتفصيلات لا يجني منها المتعلم غير العناء ، مبتعدا عن حشو الذهن بالتعاريف والمصطلحات الغامضة والاقتصار على الاساسيات في الكتاب المقرر . فلقد قال د . رمضان عبد التواب في ندوة خبراء اللغة العربية المنعقدة في جامعة الرياض سنة ١٩٧٦ : ان القواعد الاساسية للغة العربية يمكن جمعها في بضع وعشرين صفحة .

## ٤ ـ كتب النحو المرجعية

لم تكن الصعوبات مقصورة على الكتب المدرسية المقررة ، وانما تعدى ذلك الى كتب المراجع فهذا شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك علق على حواشيه محمد محيي الدين عبد الحميد ، مفتش العلوم الدينية والعربية بالجامع الازهر .

لقد انصرف اجدادنا الى خدمة لغة القرآن الكريم « فوضعوا كتباً تعليمية في مختلف علوم اللغة ، وكان النحو اول ما انصرفت اليه الهمم ، فكانت الكتب التعليمية التي تُعنى بتقديم القواعد بعبارات موجزة وصفحات محدودة . وقد راعى كثير من المؤلفين الجانب التربوي في التأليف وتدرجوا في كتابة مادة النحو تدرجاً يتفق وأعمار المتعلمين » . ولعل ابن هشام الانصاري المتوفى سنة ٧٦١ للهجرة خير من يمثل هذا الاتجاه في تدريس النحو حينما بدأ بكتابة **الجامع الصغير** ثم **قطر الندى وشرحه** ثم **شذور الذهب وشرحه** ثم **اوضح المسالك الى الفية ابن مالك** ثم **مغني اللبيب عن كتب الاعاريب** ، وهذا الارتباط بين الحلقات ضرورة يقتضيها المنهج التربوي الذي كان العرب حريصين عليه منذ القديم . . . الخ[٣٢] .

---

(٣٢) احمد مطلوب ، « نظرة في مناهج اللغة العربية » ، ورقة قدمت الى : الاتحاد الوطني لطلبة العراق ، مؤتمر تنفيذ قانون سلامة اللغة العربية ، ١٩٧٩ ، ص ١ .

اما شروح الحواشي على الفية ابن مالك فقد اغرقتها الصنعة وجعلتها اقرب الى المماحكات اللفظية ، ومما جاء في اعراب اول بيت من الالفية ما يأتي : « قال محمد هو ابن مالك احمد ربي الله خير مالك قال : فعل ماض ، محمد : فاعل ، هو مبتدأ ، ابن : خبر، ومالك : مضاف اليه . وكان حق « ابن » ان يكون نعتاً لمحمد ، ولكنه قطعه عنه ، وجعله خبراً لضميره، والاصل ان ذلك انما يجوز اذا كان المنعوت معلوماً بدون النعت حقيقة او ادعاء كما ان الاصل انه اذا قطع النعت عن اتباعه لمنعوته في اعرابه ينظر : فإن كان النعت لمدح او ذم وجب حذف العامل ، وان كان لغير ذلك جاز حذف العامل وذكره والجملة هنا - وهي قوله هو ابن مالك ليست للمدح ولا للذم ، بل هي للبيان فيجوز ذكر العامل وهو المبتدأ ، واذاً فلا غبار على عبارة الناظم ، والجملة من المبتدأ والخبر لا محل لها من الاعراب معترضة بين القول ومقوله، احمد : « فعل مضارع ، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً تقديره انا ، ربي : منصوبة على التعظيم . . . . »[٣٣] . أفمثل هذا الاسلوب يحبب اللغة الى من يراجع مثل هذا الاعراب في مثل هذا الكتاب النفيس؟ ان امثال هذه الصنعة اصبحت ضرباً من الرياضة العقلية البائسة . وصار النحو عند بعض النحاة مجموعة من الاصول النظرية الجافة ، ويبالغون في تحكيم المنطق والاعتبارات الفلسفية في الدرس النحوي[٣٤] . وهذا ما جعل الاستاذ « علي الجارم » يقول في محاضرة القاها في المؤتمر الثقافي العربي الاول الذي انعقد في « بيت مري » في لبنان: « . . . . ولهذا ولكثير من مثل هذا كره الطلاب العربية وأرغموا على تعلمها ارغاماً ، فأخذوها كما يؤخذ الدواء المر الذي لا يثق به المريض ولا يرجو منه شفاء »[٣٥] . وقد وصلت الحذلقة في تعليم النحو ، ان نماذج من تلك الدروس كان يستشهد بها في الطرق والملح . من ذلك قصة اعرابي جلس يستمع الى درس في النحو فسمع الشيخ يسأل تلاميذه ويقول : « كيف تقولون من تؤ زهم أزّاً : يا فاعل افعل؟» ، او قال : « كيف تأتون بمثال ( اطمأننت ) من ( رميت وغزوت وبعت وقلت؟) فإذا سكتوا ولم يجيبوا قال الشيخ : يقال في المسألة الاولى : يا آزّ أزّ او اوززْ . ويقال في المسألة الثانية « ارميّيت واغزووّت ، وابيععّت ، واقوللّت . . » . . . عند ذلك نهض الاعرابي وهو يقول :

قد كان اخذهم في النحو يعجبني حتى تعاطوا كلام الزنج والروم
لما سمعت كلاماً لست افهمه كأنه زجل الغربان والبوم
تركت نحوهم والله يعصمني من التقحم في تلك الجراثيم

وتركهم وهو يقول في نفسه : « لئن اصلحتموه انكم لأول من افسدوه » . ويعلق على هذا الدكتور المخزومي قائلاً : « كان الدرس النحوي قد وصل حقاً الى ان صار كما سمع هذا الاعرابي وغيره ، والى ان صار

---

(٣٣) عبدالله بن عبد الرحمن بن عقيل ، **شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك** ، علق حواشيه وشرح شواهده محيي الدين عبد الحميد، ط ٥ ( القاهرة : المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٤٥)، ص ١٠ .

(٣٤) المخزومي ، **اعلام النحو العربي** ، ص ٧ .

(٣٥) انيس فريحة ، **تبسيط قواعد اللغة العربية وتبويبها على اساس منطقي جديد** ( بيروت : الجامعة الاميركية في بيروت ، ١٩٥٢ ) ، ص ٦ .

تمرينات غير واقعية ولا عملية . او صار نوعاً من الرياضة العقلية البائسة .

لم يكن الدرس كذلك اول الامر . لقد كان النحو علم الادب ، وكان دليل الدارس الى فهم النصوص ، والوقوف على اساليب العرب في نظم كلامهم ، وكان النحاة الاوائل رواة اللغة والشعر والادب ، وكانت مجالسهم تنتظم الدارسين على اختلاف موضوعاتهم ، غير ان اللغة وروايتها والنحو وتقعيده ، والقراءة وتخريجها كانت الاساس الذي اقام الدارسون عليه نشاطهم العلمي ، وكانت منطلقهم الى ميادين اخرى»[٣٦] . وهناك من علماء اللغة المحدثين من افسد علم النحو بالصنعة فأصبح غاية لا وسيلة تتخذ لتقويم اللسان .

فالغلاييني على علو قدره فانه في كتابه **جامع الدروس العربية** وفي اول وابسط موضوع تناول « الكلمة واقسامها » فعرف الاسم بما يأتي : « ما دل بنفسه على معنى غير مقترن بزمان وعلامته ان يصح الاخبار عنه او يقبل « ال » او التنوين او حرف النداء او حرف الجر »[٣٧] .

ثم لاحظ ما جاء في الكتاب نفسه عن اقسام التنوين : « الاول تنوين التنكير وهو ما يلحق بعض الاسماء المبنية ، كاسم الفعل والعلم المختوم بـ « ويه » فما نوّن كان نكرة وما لم ينون كان معرفة مثل «صه » و« صهٍ » فالاول معرفة والآخر نكرة فإذا قلت « صه » مبنية فإنما تطلب الى مخاطبك ان يسكت عن حديثه الذي هو فيه . اما ان قلت له « صهٍ » بالتنوين فإنما تطلب منه السكوت عن كل حديث .

الثاني تنوين التمكين : وهو اللاحق للاسماء المعربة ويسمى تنوين الصرف .

الثالث تنوين العوض : وهو إما ان يكون عوضاً عن مفرد : وهو ما يلحق « كلا وبعضاً واياً » عوضاً عما تضاف اليه نحو كل يموت « اي كل انسان يموت » واما ان يكون عوضاً عن جملة : وهو ما يلحق « اذ » عوضاً من جملة تكون بعدها ، كقوله تعالى : ﴿ **فلولا اذ بلغت الروح الحلقوم وانتم حينئذ تنظرون**﴾ اي حين اذ بلغت الروح الحلقوم .

وإما ان يكون عوضاً عن حرف : وهو ما يلحق المنقوصة الممنوعة من الصرف في حالتي الرفع والجر ، عوضاً من آخرها المحذوف : كجوارٍ وغواشٍ وعوادٍ . . . الخ »[٣٨] .

خذ مثلا آخر « شرح الكفراوي على متن الاجرومية » فانه يعطيك في اعراب البسملة تسعة اوجه نشأت من رفع الرحمن ونصبه وجره مضروبة في رفع الرحيم ونصبه وجره ، ثم يمضي في اعراب هذه الاوجه حتى يقف عند وجهين لا يجد لهما مخرجا فيرفعهما ، وهما جر الرحيم مع رفع الرحمن او نصبه .

---

(٣٦) المصدر نفسه ، ص ٤ .
(٣٧) الغلاييني ، جامع الدروس العربية ، ٣ ج في ١ ( بيروت : مطبعة المصباح ، ١٩٢٩)، ص ٩ .
(٣٨) المصدر نفسه ، ص ١٠ ـ ١١ .

يرينا هذا ، ولا شك ، كيف ان اسلوب العرض قد تعقد بعد ان تفلسف النحاة فأفسدوا هذا العلم بالصنعة فاستحال جدلا عقيما وجعل اللغة وكأن طبيعتها صعبة . كما ان مثل هذه الاساليب والتراكيب المنطقية والتعليلات اصبحت وكأنها غاية بحد ذاتها فخرجت القواعد عما وجدت من اجله فاصبح تعليم النحو بعيدا عن تقويم اللسان من زيفه الى العامية .

« وقد كان هذا الاعراب سهلاً على الالسنة ثم ثقل وصعب حين فسدت الطبائع العربية وفشا اللحن وتحول المجتمع العربي الخالص الى مجتمع ضخم كبير فيه اجناس شتى ، ولاسيما في الحواضر العربية فلم يلجأ للاعراب في فترة متأخرة . . . »(٣٩) .

فالنحو « مرّ بأدوار شتى ، وثار عليه منذ نشأته بعض الشعراء الذين كرهوا ان يقيدوا كلامهم بقواعد لم يعودوها ، ومن اولئك الفرزدق »(٤٠) .

على ان هذا التجهم للنحو من البعض امثال الفرزدق لا ينفي الحقيقة البينة التي يشير اليها الاستاذ ابراهيم مصطفى في كتابه **احياء النحو** حين يقول : « وما كان للعرب ان يلتزموا هذه الحركات ويحرصوا عليها كل الحرص وهي لا تعمل في تصوير المعنى شيئا . ونحن نعلم ان العربية لغة الايجاز ، وان العرب كانوا يتخففون ما وجدوا السبيل ويحذفون الكلمة اذا فهمت والجملة اذا ظهر الدليل عليها ، والاداة اذا لم تكن الحاجة ملجئة اليها »(٤١).

## ٥ ـ جرائمنا في تدريس عربيتنا

منذ اكثر من ربع قرن كتب د . علي جواد الطاهر في مجلة المعلم الجديد العنوان المشار اليه في اعلاه ومما جاء في المقال ما يأتي : « لقد فشلنا في تدريس لغتنا ، تلك بديهة لم يعد الاعتراف بها فضيلة . العراق بلد عربي والعربية لغته الرسمية ، وهل من شك؟ ولكن درس اللغة من اثقل الدروس على الطلبة ، وان « الواحد » منهم ليفضل ان يتعلم كل شيء الا علماً اسمه النحو ، مثلاً .

حصص العربية كثيرة ، ومدرسوها كثيرون ، ولكن ، ما جدوى ذلك ونحن نجرم في حق لغتنا ، ما جدوى ذلك ونحن لم نستطع ان نحبب هذه اللغة الى نفوسهم ولم نستطع ان نطوعها الى حاجتهم وغكنهم على استعمالها في التعبير عما يحسون .

لماذا؟ ليس ذلك لأن العربية صعبة جداً . . . انما لاننا لا نعرفها ولا نعرف كيف ندرّسها . . لا نعرف ولا نريد ان نعرف . . . اقول هذا ، وانا اعلم الضجة التافهة التي ثارت منذ سنين حول التيسير والتعسير . . . الضجة التي لم

---

(٣٩) ابراهيم السامرائي، دراسات في اللغة ( بغداد : مطبعة العاني ، ١٩٦١ ) ، ص ١٠٠ .

(٤٠) ناصر الحاني ، «نظرة في اصول تدريس الانشاء ،» المعلم الجديد ( بغداد ) ، العدد ٤ ( ١٩٥٢ ) ، ص ١١٧ .

(٤١) السامرائي ، دراسات في اللغة ، ص ١٠١، نقلاً عن : ابراهيم مصطفى ، **احياء النحو** ( القاهرة : لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٩ ) ، ص ٥٠ .

تلبث ان اصبحت غاية وراح الفطاحل يمضون السنين ويسودون الدفاتر . . . في نقاش لا طائل تحته ، ولكنهم يتلذذون في هذا النقاش فهو مسلاة جميلة ووسيلة سهلة لاثبات العبقرية . وقد أنستهم هذه النشوة الهدف الذي بدأوا من اجله طريقهم .

ألخص التيسير في كلمة واحدة ـ لست مبتكرها ـ وهي تدريس النحو العملي الضروري الذي يحتاجه الطالب فيما يقول ويقرأ ويكتب : المرفوعات ، المنصوبات ، المجرورات . . . ما يقتضي الكلام اعرابَه . . . الافعال الخمسة ، الاسماء الخمسة ، اسناد المقصور للضمائر . . . العدد . . . اما التوافه من قبيل الضمة المقدرة على الالف المحذوفة ، ولتنصرنانّ ، وجملة كأنْ المخففة ، فكل ذلك تخريف لا محل له من الاعراب ، واذا وجد في الكتب فقد وجد يوماً ما لضرورة اقتضتها حاجة الاعاجم ، واستدعاء ما يتطلبه كل إغراق . . . وانا لا امنع هذا الترف على طلاب التخصص، ولكن ما جريمة هؤلاء الاطفال الذين ندّعي السعي لاعدادهم للمواطنة الصالحة؟ إن « الفرد » منا ليُمضي السنين والسنين في اعراب صيغة التعجب حتى اذا جاء السبب وأراد ان يتعجب كان خطؤه افظع منه في الاولى ، وما ابدع هذه الـ « ما »التي هي نكرة تامة بمعنى شيء ، مبتدأ ، مبنية على السكون في محل رفع . . . وأبدِعْ بها ، بهذه « الابداع » التي هي فعل ماض جاء على صورة الامر مبني على فتح مقدر لمجيئه على هذه الصورة »(٤٢) .

رأينا مما مرّ « ان ما تقدمه كتب النحو المدرسية عن بعض الموضوعات لا يختلف عما تقدمه كتب النحو المطولة التي تدرس في الجامعة او في مراحل عالية من التعليم ، ولا شك في أنّ التفصيل والجري وراء الدقائق في مرحلة التعليم المتوسط والاعدادي مما يؤخذ على كتب النحو ويشكل عائقا من عوائق تعلمه . لقد أتيح لي ان اقف على بعض الكتب التي ألّفها النحاة الاقدمون لتعليم الشذاذ والمبتدئين فوجدتها كتبا سهلة قريبة المأخذ لا تتناول من الموضوع النحوي الا ما كان له أثر في تقويم اللسان وتصحيح الاسلوب ، تاركة الأوجه المختلفة والتفصيلات الدقيقة لأنها تفوق ادراك المبتدىء من جهة ولأن الجهل بها لا يضر من جهة أخرى . ولعل كتاب «الواضح في النحو» لابي بكر الزبيدي خير مثل لهذا الضرب من الكتب القديمة ، وكم تمنيت ان تكون كتبنا المدرسية قريبة منه او جارية على نهجه في السهولة ، والابتعاد عن التفصيلات والاوجه المعقدة التي لا يطلبها الا المتخصص »(٤٣). ويذكر ابن خلدون في المقدمة من الكتب السهلة المختصرة للمتعلمين فيقول : « ثم وضع ابو علي الفارسي وابو القاسم الزجّاج كتبا مختصرة للمتعلمين يحذون فيها حذو الامام في كتابه ، ثم طال الكلام في هذه الصناعة وحدث الخلاف بين اهلها في الكوفة والبصرة ، المِصرين القديمين ، وكثرت الأدلة والحِجاج بينهم وتباينت الطرق في التعليم وكثر الاختلاف في اعراب كثير من آي القرآن باختلافهم في تلك القواعد وطال ذلك على المتعلمين وجاء المتأخرون بمذاهبهم في الاختصار ، فاختصروا كثيرا من ذلك الطول مع استيعابهم لجميع ما نقل كما فعل ابن مالك في كتاب **التسهيل** وامثاله او اقتصارهم على المبادىء للمتعلمين كما فعل الزمخشري في **المفصل** وابن الحاجب في **المقدمة** له . . . الخ »(٤٤).

---

(٤٢) علي جواد الطاهر ، « جرائمنا في تدريس عربيتنا ،» **المعلم الجديد** ( بغداد ) ، العدد ٢ ( آذار / مارس ١٩٥٧ ) ، ص ٦ .

(٤٣) العزاوي ، « مناهج اللغة العربية وسبل تطويرها ،» ص ٢ .

(٤٤) ابو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ، **مقدمة ابن خلدون** ، ص ٥٤٧ .

إن هذه دعوة ، دون شك ، الى تيسير طرائق تدريس النحو . « لقد ادرك نحاتُنا القدامى ان علم النحو واسع ومتشعب وان ما يحتمله الناشىء منه هو الضروري الذي يعصم اللسان ويقي من الخطأ، فكانت كتبهم التعليمية غاية في السهولة والوضوح وقد دلت عنواناتها على ذلك فبعضها يدعى **الواضح** وبعضها يسمى **الموجز** وثالث يعرف بـ **المقدمة** او **التفاحة** او **الايضاح** وغير ذلك من اسماء تفصح عن منهج مؤلفي هذه الكتب وغاياتهم من تأليفها ، وهي غاية قريبة لا تجاوز اعطاء الضروري من هذا العلم ، وكان الجاحظ ممن أيّد هذه الطريقة في التأليف النحوي للمبتدئين فقال قولته المشهورة : « واما النحو فلا تشغل قلب الصبي منه الا بمقدار ما يؤديه الى السلامة من فاحش اللحن ، وما زاد على ذلك فهو مشغلة له »»[٤٥] .

فعلى المدرس الحديث ان يعنى بما يحتاج اليه الطلاب من القواعد الضرورية ليقوّموا السنتهم ويتجنبوا الخطأ في تعبيرهم وقبل ان يبالغ المدرس في قيمة قواعد اللغة وفائدتها ان يتدبر القول المشهور : « النحو في الكلام كالملح في الطعام » ، وان يتذكر ان التعبير بلغة صحيحة عادة لا تثبت الا بالمران كما يجب علينا ان نعرض على المتعلم كثيرا من العبارات الصحيحة والشواهد لتكون مقياسا لغيرها ونجعل محاكاة الصحيح مؤكدة مبنية على فهم الاساليب .

## ٦ ـ اللغة العامية عائق للغة القومية

غير خاف على اللبيب ان نشوء العامية وشيوعها ان هو الا مظهر من مظاهر الجنوح الى لغة خفيفة مرنة لا يستطيع نحوي ان يقول للناطق بها انك لحنت ، لأن العامية لا تعترف بسلطة النحويين .

ويمكن حصر أهم اسباب انتشار العامية بالنقاط الآتية :

١ ـ خلوها من الاعراب .

٢ ـ مرونتها في قبول الاوضاع الاجنبية بلفظها الاجنبي .

٣ ـ خلوها من الالفاظ الحوشية والوحشية .

٤ ـ خلوها من المترادفات والاضداد .

٥ ـ ميلها الى إطلاق القياس في الاشتقاق للنحو والتوسع .

٦ ـ كثرة دورانها على الالسنة بحيث اصبحنا نألفها ، وكما يقول جورج الكفوري : « واذا كتبنا بالفصحى فإنما نترجم في الغالب عنها »[٤٦] .

---

(٤٥) العزاوي ، «مناهج اللغة العربية وسبل تطويرها ،» ص ٢ .

(٤٦) الكفوري ، **اللغة العربية في ماضيها وحاضرها ومستقبلها** ، ص ٨٥ .

لقد غزت العامية الفصحى وانتصرت عليها حقبة من الزمن وكانت عائقا قويا في وجه تقدم الفصحى . لهذا يجب علينا ان نؤكد على التزام الفصحى في المدرسة ، وان يكون المدرسون انفسهم قدوة حسنة امام طلابهم .

كانت العامية منذ نشأتها من اقوى العوامل التي زاحمت الفصحى ولا تزال تزاحمها وانها ما فتئت ان حلت محلها في كثير من الاحوال عند جمهور كبير من الناطقين بالضاد ، وانها اصبحت لغة العامة والخاصة معا في حين ان الفصحى انحسرت بين جمهور الخاصة، ولم تتعدَّ اقلامهم والسنتهم .

ان العامية خطر على اللغة القومية ، وعلى الامة العربية ، وثقافة الجيل . واننا اليوم بين لغة فصحى يتفاهم بها بعض الناس ، في جميع البلاد العربية وبين لغات عامية عديدة يتفاهم بها الناس في ارجاء الوطن العربي ، وهذه حالة لا تتناسب ومقتضيات الحياة القومية السليمة لأننا بحاجة الى لغة موحَّدة ( بفتح الحاء ) تزيد الأمة تجاوباً وتماسكاً ، وبهذا تكون اللغة موحِّدة ( بكسر الحاء ) للناس .

أضف الى ذلك ان اللغة العامية تبعدنا عن ثقافة أمتنا ، اذ الفصحى هي اللغة التي كتب بها المتنبي والمعري والطبري ، والمسعودي وابن الهيثم وجابر ابن حيان وابن سيناء والكندي والفارابي . . . الخ .

ان المتعلم يجد نفسه في محيط عائلي عامي ، كما يجد نفسه في مدرسة لا يتكلم مدرسوها الفصحى الا ندورا ، بما في ذلك مدرس اللغة العربية ، لقد انكمشت الفصحى في بطون المعاجم ، وانطلقت العامية على ألسنة الناس .

وفي البحث الذي قام به د. صالح جواد الطعمة(٤٧) يشير الى ان « في مقدمة المشكلات التي تواجهها اللغة العربية التفاوت الواضح بين لغة الكلام الطبيعي او الاعتيادي « العامية » ولغة الكتابة والقراءة والالقاء « الفصحى » ، وقد وجه الى المدرسين عدد من الاسئلة التي تتناول اوجهاً مختلفة للمشكلة المذكورة بغية تحديد مدى فهمهم الموضوعي لطبيعة المشكلة وأثرها في تدريس العربية وموقفهم منها واستعمالهم الواعي او غير الواعي لكل من الفصحى والعامية » .

اما السؤال الأول فقد نص على ما يلي :

« إن من وظائف دروس اللغة القومية مساعدة الطلبة على التعبير الشفهي بدقة ووضوح . هل ترى ان دروس اللغة العربية الحالية تستطيع ان تؤدي هذه الوظيفة كما يجب ، إن كان الطلبة لا يستعملون اللغة المعربة في حياتهم العملية ولا يدرسون العامية او اللغة المستعملة خارج جدران الصف؟ » .

---

(٤٧) صالح جواد الطعمة ، مشكلات تدريس اللغة العربية في مرحلة الدراسة الثانوية : عرض وتحليل لآراء مدرسي اللغة العربية ( بحث ميداني ) ( بغداد : ١٩٦٩ ) ، ص ٢٩ .

وكانت نتيجة الاستجابة على الوجه التالي :

| السنة / الاجوبة | ١٩٥٦ (نسبة مئوية) | ١٩٦٨ - ١٩٦٩ ( نسبة مئوية ) |
|---|---|---|
| نعم | ٢٦ | ٤٩,١ |
| لا | ٦٩ | ٤٥,٥ |

## ثالثاً : طرائق تدريس العربية

### ١ - الطرائق المتبعة حاليا

الطريقة احد أركان التعليم : المعلم والمتعلم والكتاب وطريقة التدريس .

وقد كانت الدعوة الى تيسير مادة النحو وتهذيبها قديمة، فقد الف بعض النحاة الاقدمين، كما رأينا ، كتبا تناسب المبتدئين منها كتاب **الواضح في النحو** لابي بكر الزبيدي ، ومنها **الموجز** وآخر يعرف بـ «المقدمة» . . . الخ، من الكتب التي تفصح عن منهج مؤلفي هذه الكتب باعطاء الضروري من علم النحو .

وقد انبرى ، في عصرنا الحديث ، اساتذة اجلاء بدراسات تتسم بالعمق والجدية امثال الدكاترة : مهدي المخزومي ، ومصطفى جواد ، واحمد عبد الستار الجواري ، وابراهيم مصطفى وابراهيم السامرائي ، على سبيل المثال لا الحصر داعين الى تيسير تدريس النحو ، ووضع برامج دراسية تلبي حاجة المتعلمين وتحبب اللغة العربية الى ابنائها .

ومهما قيل في الكتاب الجيد والمنهج العملي وان هناك دافعا للتعلم لدى الطلاب وان المعلم متمكن من مادته ، فإن هذه العناصر على اهميتها قد لا تحقق تعلما جيدا ، ما لم تكن هناك طريقة جيدة يتبناها المعلم تيسر له تفهيم المادة للطلاب وتحبب درس اللغة الى نفوسهم .

مما لا شك فيه ان هناك علاقة مباشرة بين طريقة التدريس وحب المتعلم للغته او نفوره منها ، وبالتالي هناك علاقة مباشرة بين الطريقة وتحصيل المتعلم .

اشرنا الى اثر الطريقة في التعلم ، ولكن لا بد من ملاحظة مهمة جدا هي ان الانسان يتعلم ان كانت لديه رغبة في التعلم ، وكانت لديه القدرة على التعلم ، واتيحت له الفرصة ، وقدم اليه الارشاد فيها يتعلم . غير ان القدرة والفرصة والارشاد لا تجدي نفعا في التعلم ان لم يكن لدى

الانسان ما يدفعه الى التعلم[٤٨]. هذا ما يخص المتعلم ، اما من جانب المعلم فان التدريس الجيد يعتمد على ذكائه وحبه لمهنته ، وجودة اعداده ، ولوعيه باهمية رسالته وخطورتها دور كبير في خلق المناخ اللازم لنجاحه في التدريس .

وطريقة التدريس هي اساليب ونشاطات يشترك فيها المعلم والمتعلمون لتحقيق الهدفين العام والخاص من تعليم مادة ما : وقبل مناقشة طرائق التدريس المختلفة في تعليم العربية ، لا بد من الاشارة الى ان بعض هذه الطرائق قديمة ولم تدخل بعد الطرائق الحديثة في تعليم اللغة العربية . وفيما يأتي اهم الطرائق المستخدمة في تعليم اللغة العربية حالياً في مدارسنا :

## أ ـ الطريقة الاستقرائية

ورد الفعل استقرأه في لسان العرب استقرأ طلب منه ان يقرأ .

ان الاستدلال يحصل بإحدى طريقتي الاستقراء او لقياس، فحينما يسير المعلم بطريقة الاستقراء يكون الانتقال فيه من الجزئي الى الكلي[٤٩]. فعندما يعرض المدرس للطلاب امثلة لتركيب لغوي يريدهم ان يتعلموه ثم يحملهم على تفحصها ومقارنتها ، ثم استنباط القاعدة اللغوية نكون قد اتبعنا « طريقة الاستقراء ».

ففي الاستقراء تُفحص الامثلة او النماذج وتقارن ثم تشتق القاعدة اي اننا ننتقل من الخاص الى العام ، اي من الامثلة الى القانون او المبدأ ، او التعريف. ويرى البعض أننا في الاستقراء « نبسط الامثلة ثم نبحث عن القانون » فاذا سبقنا كلا من الطريقتين في التربية والتعليم ، وجدنا حاجة الى الاستقراء من جهة والى القياس من جهة اخرى : فعند التعرض لموضوع جديد يجب ان يقوم الاستقراء بالدور الاول ، حتى اذا تقدمنا واصبحت المعلومات متوفرة وجدنا ان القياس مفيد في مراجعة المعلومات السابقة وترتيبها[٥٠] .

## ب ـ طريقة القياس

هناك طريقة مختلفة للوصول الى القوانين العامة ، او القواعد الاساسية تلك التي كانت تعطي المتعلم حقيقة عامة يقيس عليها امثلة تؤيدها وتنطق بها وهي طريقة شائعة في كتب النحو العربي والاوروبي القديمة ، حيث يبدأ المعلم بذكر التعريف ويعطي مثلا تطبيقيا ، ثم يحمل المتعلمين على اعطاء امثلة ينطبق عليها التعريف .

---

(٤٨) ابراهيم ناصر ، مقدمة في التربية ، ط ٣ ( عمان : ١٩٨٠ ) ، ص ٥٧ .

(٤٩) ساطع الحصري ، دروس في اصول التدريس ، ط ٨ ( مطابع الغندور ، ١٩٦٢ ) ، ج١ ، ص ٥١ .

(٥٠) صالح عبد العزيز وعبد العزيز عبد المجيد ، **التربية وطرق التدريس** ، ط ٨ ( القاهرة : دار المعارف ، [د.ت.])، ج ١ ، ص ٢٤٩ .

وهذه الطريقة امتازت بسهولتها، حيث يعطي المعلم التعريف ويضرب مثالا ، ويحمل الدارسين على ان يأتوا بامثلة قياسا على النموذج . فالقياس شكلٌ اساسٌ للتفكير او طريقة من طرائق التدريس . فالطريقة القياسية عكس الطريقة الاستقرائية حيث يتم فيها عرض القاعدة اولا ثم ذكر الامثلة اي ـ التطبيقات للقاعدة او التعريف ـ ويكون المعلم في ذلك قد اتبع الطريقة القياسية .

ومما تجدر ملاحظته ان الاطفال لا يفهمون التعاريف بيسر الا اذا اطلعوا على امثلتها ، ولا يدركون القاعدة الا بعد ان يروا تطبيقاتها ، فتقديم التعريف او القاعدة على الامثلة يكون بمثابة تقديم الصعب على السهل . ولذا فاتباع القياس في المرحلة الابتدائية ليس بالامر الهين على الطفل ، فالاستقراء حيث الانتقال من الاجزاء الى الكليات اهون عليهم من القياس . اما في المراحل الاخرى المتوسطة والاعدادية فليس هناك من محذور .

ومع هذا فإنّ الاستدلالات العقلية لا يمكن اقتصارها على المحاكاة الاستقرائية فلا بد من الرجوع الى المحاكات القياسية ايضا[٥١] .

والملاحظ ان المعلم الجيد لا يكون عبداً لطريقته ، فمن مدرسي اللغة العربية من يقوم بتدريس قواعدها على الطريقة الاستقرائية ، ومنهم من يدرسها على الطريقة القياسية ، وآخرون على طريقة النص . وقد يمزج او يؤلف فريق آخر بين طريقتين او اكثر من هذه الطرائق . علما بان بعض المربين يقولون بأفضلية الطريقة الاستقرائية ، وبخاصة في المرحلة الابتدائية[٥٢] .

## ج ـ طريقة النَّص

تعتمد هذه الطريقة على اختيار نص يقرأ ويحلَّل فيتوصل الطلاب من خلال ذلك الى القاعدة او التعريف ، وبالاضافة الى توصل الطلاب الى قواعد اللغة فإنهم يستفيدون لغة وثقافة وأدبا . فعن طريق النص يتصل طلابنا بتراث امتهم الرفيع قديما وحديثا . وبما ان النص قد لا يفي بجميع المتطلبات ، فلا بد للمدرس من اعداد جمل مكملة للنص ، وان يراعي في الجمل والنص الجانب التطبيقي .

لقد اخذت الكتب المدرسية الجديدة بأسلوب النص ، ولكن مع الاسف ان قسما من تلك النصوص مقحمة اقحاماً وموضوعة بشكل جامد ، كما في موضوع الاسماء الخمسة في كتاب **قواعد اللغة العربية للصف الاول المتوسط** « كان ابو زيد انساناً طيباً يساعد اخاه علياً في محله التجاري لأنه كان راقداً في مستشفى مدينة الطب . . . . الخ »[٥٣] . او موضوع نائب الفاعل في الكتاب نفسه فقد جاء النص :

---

(٥١) الحصري ، المصدر نفسه ، ج١ ، ص ٥٥ .

(٥٢) سمك ، فن التدريس للغة العربية والتربية الدينية ، ص ٤٦٠ ، وابراهيم ، الموجه الفني لمدرسي اللغة العربية، ص ٢٢١ .

(٥٣) الجمهورية العراقية ، وزارة التربية ، **قواعد اللغة العربية للصف الاول المتوسط** ، ص١١ .

« تُنشأ الحديقة العامة في المدينة ويُزرع العشب في ارضها ، وتغرس الاشجار الكثيرة فيها ، وتعبد الطرق بين اشجارها وتوضع المقاعد في ظل الشجر ، فيخصص قسم منها للطلبة ، ويجعل الآخر لغيرهم »[٥٤] . وهكذا يقال عن كتب القواعد للصفين الثاني والثالث المتوسط .

ان العقل الجبار الذي عالج مشكلة تيسير النحو هو العلاّمة ابن خلدون فاقترح اختيار النص الجيد الذي عن طريق تحليله يتوصل المتعلمون « الى فهم اللغة حين تُسمع ، وفهمها حين تُقرأ وإفهامها للآخرين بواسطة الكلام الشفهي ، وإفهامها لهم بواسطة الكتابة »[٥٥] .

فالطريقة التي نتبعها اما ان تحبب اللغة القومية الى المتعلمين واما ان تنفرهم منها . فاكثر النصوص التي اختيرت في الكتب الجديدة **قواعد اللغة العربية الجديدة** جامدة وبائسة ومنفرة ، فلو اخذنا النص الآتي على سبيل المثال ، وقام المتعلمون بتحليله واستخراج قواعد اللغة العربية منه ، بمساعدة المعلم ، لكان احسن واجدى على ما اظن .

**النص المقترح :**

وقف امير على باب طحّان ، فرأى جرسا في رَقبة الحمار فَجَرى الحوار الآتي بين الامير والطحان :

الامير : لماذا وضعت جرسا في رقبة حمارك ايها الطحان ؟

الطحان : ان ادركني النعاس ولم اسمع صوت الجرس عرفت ان الحمار لا يدور في الطاحون .

الامير : فان وقف الحمار وحرك رأسه ، فما ادراك ان الحمار يدور في الطاحون ؟

الطحان : ومن لي بحمار بمثل عقل الامير ؟

### د ـ طريقة المحاضرة

وهي من اقدم الطرائق ، ويكون فيها المعلم محور النشاط ، فهو في القطب الموجب والطلاب في القطب السالب ، لأن دورهم مقصور على الاستماع . وهذا الدور السلبي يقعد المتعلمين عن الدرس ، ويدعو الى عدم الانتباه ، والولوج في احلام اليقظة . وحجة بعض المدرسين في اتباع هذه الطريقة تضخم المنهج وعدم وجود الوقت الكافي لاتباع طرائق تدفع الى جذب الطالب الى الدرس .

ويؤخذ على هذه الطريقة انها لا تنمي التفكير وروح المنافسة عند الطلاب لعدم المشاركة

---

(٥٤) المصدر نفسه، ص ٥٤ .

(٥٥) العزاوي ، « نقد كتب قواعد اللغة العربية للمرحلتين الابتدائية والمتوسطة ،» ص ٤ .

الفعالة في الدرس وانما الطلاب مستمعون ومتفرجون . وحتى في الجامعات فانها غير صالحة تماما ما لم تطعم بالصور والافلام كمسلسلة « اين مكاني من الاعراب ؟ » .

وعروض من كتب اللغويين الاعلام وقراءات واستشهادات فيها بحيث تطمس هذه الوسائل قسما من المنهج التجريبي في طريقة المحاضرة .

ومع كل قصور طريقة المحاضرة فاننا لا نهجر هذه الطريقة نهائيا بل يمكن الافادة منها احيانا في موضوعات تحتاج الى استعراض امور متسلسلة ، وان تقطيعها بالسؤال والجواب . . يقضي على التواصل الفكري ، ولهذا فهناك طرائق تدريسية احسن وافضل من طريقة المحاضرة في مراحل الدراسة قبل الجامعية لتدريس لغتنا القومية .

## ٢ ـ طرائق التدريس الحديثة

### أ ـ طريقة المناقشة الاجتماعية

وهي من الطرائق الرئيسة الاخرى التي يمكن استخدامها في تدريس اللغة العربية، وتستغل هذه الطريقة طرائق التدريس الاخرى مثل الاستقراء والقياس ، او طريقة النص . وللمناقشة الاجتماعية حسنات كثيرة سنذكر اهمها على سبيل التمثيل :

(١) ان اهم حسنات هذه الطريقة اشراك الطلاب في المناقشة وفي استخلاص التعاريف والقواعد وتفسير المعاني وتحليل الشعر . . . الخ، من موضوعات فروع اللغة المختلفة .

(٢) انها تعزز التفكير العلمي ، وتعود الطلاب على الدقة في التعبير والتحليل والاستدلال والتقويم .

(٣) عن طريق المناقشة الاجتماعية يكتشف المعلم المواهب والقابليات ، في فروع اللغة لدى الطلاب ، فيشجع المعلم اصحاب الكفاءات المتميزة الى الظهور فيتعرف على هذه البراعم الناشئة وبينها القاص والشاعر والناثر والمنشىء ، والخطاط والخطيب ، فهذه النبتات اليانعة ، اذا ما وجدت المناخ المناسب فانها ستنتعش وتنمو .

(٤)عن طريق المناقشة الاجتماعية سيتحسس المعلم جوانب الضعف والقوة في طلابه في المواد التعليمية التي فوق مداركهم وتلك التي هي دون مستوياتهم ، وسيتم له تقويم دروسه تدريجيا .

(٥) تكوّن المناقشة الاجتماعية الشجاعة الادبية في الطالب فهو يسأل ويجيب ، ويتبارى مع زملائه ، فيتعرف على قابلياته الخاصة كما يتحسس كفاءات زملائه فيتعلم منهم ويعلمهم احيانا ما لا يعرفون . وبهذا يخرج المتعلم من دور المتلقي الى دور المعطي ، فيندفع الى حب الدرس ويشعر بامكانات لغته القومية فيعتز بها ، ويتفاخر بأنها مفخرة بين لغات العالم .

(٦)ان طريقة المناقشة الاجتماعية تدفع المعلم والمتعلم كليهما الى التحضير والقراءة وتتبع هذه اللغة العظيمة فيعتزان بتراث امتهما عن طريق لغتهما القومية ، ولهذا ينكمش المعلم الضعيف عن

استخدام هذه الطريقة الفعالة ويكتفي بالمادة التي جاءت في الكتاب المقرر، مستعيناً بالامثلة والتعاريف الجاهزة واحياناً ينقلها دون ان يتعب نفسه بأمثله منه ، فلا تنويع في الدرس مما يؤدي بطبيعة الحال الى عزوف الطالب عن مادة اللغة ، فيتجهم لها ، وقد ينعتها بالصعوبة فيجفوها . وهذه هي الخسارة الكبرى التي نخشاها على لغتنا المحبوبة .

ويجب ان نتذكر ان المناقشة الاجتماعية في اللغة العربية تتطلب من المعلم الالتفات الى النواحي الآتية :

ـ لا مناقشة دون تخطيط مسبق وتحديد خطة عمل عن حدود المادة اللغوية التي يجب ان تقدم خلال فترة الدرس وطريقة تقديمها والنتائج التي يجب ان يتوصل اليها الطلاب بمساعدة المعلم ، فلا بد اذن من تحديد المسار وفق زمن الدرس حتى لا يختلط الامر على المعلم فيفلت زمام الامور من يديه .

ـ ان ينحو المعلم نحو الاسئلة الفكرية التي تدفعهم الى امعان النظر ومحاولة تقديم الجواب الصحيح . وان تكون الاسئلة بعيدة عن اي تعقيد ، ومحاولة صوغها باكثر من شكل واحد حتى يسهل فهمها .

ـ ان الاسئلة التي توجه الى المعلم من الطلاب يحسن محاولة طرحها على الطلبة لايجاد الجواب الصحيح ، مع محاولة مساعدتهم عندما يتطلب الجواب تدخل المعلم .

ـ يجب ان يعطى الطالب الوقت الكافي لايجاد الجواب الصحيح ، والابتعاد عن الاجوبة المرتجلة ، لان الهدف تعويد الطلاب على التفكير العلمي عند الاجابة .

ـ ان يكون المعلم نموذجا حسنا في احترام آراء الطلاب حتى يقتدوا به في احترام آراء زملائهم حتى لو كانت غير دقيقة لان الازدراء او التهكم يضعف ، وقد يزعزع ، ثقة الطالب بنفسه ، وهذا ما يجب تحاشيه دائما .

ـ ان كتابة بعض الامثلة او التعاريف او الخلاصات على السبورة ضرورة لطريقة المناقشة الاجتماعية حتى يتسنى للمعلم ان يرى كيف حول الطالب التعبير الشفوي الى تعبير كتابي . فإشراك الطلاب في مثل هذا النشاط ضرورة في طريقة المناقشة الاجتماعية .

## ب ـ الطريقة الاستكشافية او الاستطلاعية

وهي من الطرائق الحديثة في التدريس ، ومن اهم ميزاتها انها تنقل الطالب من مستقبل للمادة اللغوية من المعلم، او وسائل له، للحصول على معرفة لغوية الى ان يصبح الطالب ، من خلال توجيه بسيط من المعلم ، الى متعلم بنفسه يتفحص الحقائق ويكتشف القواعد او تحليل شخصية الشاعر من خلال شعره .

ان هذه الطريقة الحديثة وسيلة لممارسات عقلية ، لم تدخل بعد جدران مدارسنا ولكن ، لو

ان كليات التربية ومعاهد المعلمين ودورها ادخلت هذه الطريقة في مناهجها ، لأحدثت هزة في طرائق التعليم .

فهذه الطريقة الحديثة تساعد الطلاب على مواجهة المشكلات وايجاد حلول لها ، الامر الذي يتطلب تقصي المعلومات . وهنا يجيء دور المعلم الذي يعينهم ليس باعطاء الحلول ، وانما باستخدام معلوماتهم وقابلياتهم للوصول اليها .

ان الهدف الاساسي للطريقة الاستكشافية هو ان نجعل الطالب يفكر بدلا من ان يكون مستقبِلا للمعلومات من المعلم او الكتاب ، اذن هذه الطريقة تنقله من الاعتماد على المعلم الى الاعتماد على نفسه (٥٦) .

والفرق بين هذه الطريقة وطرائق التدريس الاخرى ، ان الاستكشاف لا يشجع على حفظ المادة اللغوية من اجل الامتحان ، وانما ينمي المهارة الفكرية لدى المتعلم باشراكه الفعلي في الوصول الى العلم الحقيقي بجهده وجهد زملائه من الطلاب .

رأينا مما مرّ ان الهدف من تعليم اللغة هو اكتساب المهارات الاتية :

١ ـ التعبير الشفهي

٢ ـ القراءة

٣ ـ التعبير الكتابي

ولا تكتسب هذه المهارات نظريا ، وانما يتم ذلك بالتدريج بواسطة التدرب على اللغة وممارستها في مواقفها الطبيعية .

ان المتخرج في المدرسة الثانوية ، في الاعم الاغلب ، مقصر عن بلوغ الاهداف الثلاثة . ليس بمستطاعه الكلام باللغة العربية الفصيحة ، فاذا حاول الكلام بها فانه سرعان ما ينزلق الى الكلام بلهجته العامية .

كما ان المتخرج في الثانوية غير قادر على القراءة دون خطأ وتردد ، وان تعبيره الكتابي ركيك وغير منسق ، علما بان التلميذ يدرس العربية من السنة الاولى الابتدائية الى ان يتخرج خلال ما يقارب الـ ( ٣٠٠٠ ) ساعة داخل المدرسة ، اثناء المراحل التعليمية الثلاث ، عدا ما يمضيه خارجها في اتمام فروضه ودروسه (٥٧) .

---

(٥٦) انظر : رؤوف عبد الرزاق ، **اتجاهات حديثة في تدريس العلوم** ( بغداد : مديرية مطبعة الادارة المحلية ، ١٩٧٦ ) ، ص ٦٨ ـ ٧٥ .

(٥٧) الجمهورية اللبنانية ، مركز الابحاث اللغوية والتربوية ، « طريقة لتعليم العربية في المرحلتين الابتدائية والمتوسطة ،» بيروت ، ١٩٨٣ ، ص ٣ ( طبع رونيو ) .

ان بعض طرائق تعليم اللغة لا تراعي المبادىء التربوية ولا ترسم سياسة تربوية متكاملة ، لهذا لا توصل المتعلم الى اكتساب المهارات اللغوية . والكتاب الذي هو عماد الطرائق المستعملة في المدارس فانه عنصر واحد ، حتى لو كان جيد التأليف والاخراج ، فكيف به لو كان رديئا ؟ اضف الى ذلك ان اعداد المعلم ، الذي هو مركز الاهتمام الاساسي في الدرس فان اعداده يتم في اطر نظريات تربوية مع ضعف الجانب التطبيقي . اما المعلمون الذي لم يتخرجوا في دور المعلمين فان رصيدهم التربوي لا يتعدى خبراتهم الخاصة وهذا لا يفي بغرض تعليم اللغة العربية .

تعنى الطرائق الحديثة لتعليم اللغات بأمور اساسية من بينها « المضمون اللغوي » اي المفردات والتراكيب الصرفية والنحوية .

١ ـ **المفردات** : ينطلق اختيار المفردات من مبدأ اللغة الاساسية ـ اي مجموعة المفردات الاكثر استعمالاً ـ ويعتمد الباحثون على المفردات الشائعة في الحياة العامة .

وقد ظهرت قوائم المفردات في اوائل القرن العشرين ، نتيجة انعكاس النظرة الوظيفية للكلمة ، وان يزود بها الطفل لتكسبه القدرة على القراءة والتعبير الشفهي والكتابي[٥٨] .

٢ ـ **التراكيب الصرفية والنحوية** : ان اللغة العربية تفتقر الى لائحة للتراكيب الصرفية والنحوية الاكثر استعمالاً في التخاطب الشفهي والكتابي . وسنراعي في وضع ذلك التدرج بعض المبادىء كأن نقدم في الدروس الاولى المضارع والامر على الماضي ، لأن هذه الدروس تدور حول المحاورة التي تفرض استعمال المضارع والامر قبل الماضي .

٣ ـ **تدرج التراكيب والمفردات حسب متطلبات التخاطب** : ان معرفة المفردات الاكثر تواتراً والتراكيب الاكثر ظهوراً مهم جداً في تعلم اللغة العربية . ولكن الاهم ان نعرف اي مفردات وتراكيب يحتاج التلميذ المبتدىء ليعبر عن الحالات والظروف التي يعيشها واقعه اليومي . فعلى ضوء ذلك يتم اختيار المفردات والتراكيب[٥٩] .

## رابعاً : المبادىء التربويــة

على ضوء مراقبة التلميذ وتحركه في اكتساب اللغة تظهر الحقائق الآتية :

---

(٥٨) لمعرفة قوائم المفردات وفق تواترها ، انظر : عبد الحسين الزويلف، « تواتر الكلمات عند الامين ،» ( رسالة ماجستير ، جامعة بغداد ، كلية التربية ، ١٩٧٣ ) ، ص ١١- ٢٥ .

(٥٩) الجمهورية اللبنانية ، مركز الابحاث اللغوية والتربوية ، المصدر نفسه ، ص ٥ - ٦ .

## ١ ـ مبدأ الاجمال

اللقاء الطبيعي مع اللغة لقاء اجمالي بكل ما فيها من غنى وتعقيد في المفردات والتراكيب . فعندما نتكلم بالفصحى لا نختار المفردات والتراكيب الاسهل ، ويصبح من الطبيعي ان تقدم اللغة للتلميذ المبتدىء بكل غناها . ومن ثم فان على النشاطات التربوية ان تساعد التلميذ على الانتقال تدريجيا من الفهم الاجمالي الى التخزين والاستيعاب والتحليل للوصول الى العناصر اللغوية المبسطة وتملكها واستعمالها في التعبير .

## ٢ ـ عملية الفهم والتعبير عملية فردية

انها تخضع لعوامل متعددة اهمها عاملا الوقت والاستعداد الجسدي والنفسي . هذا الطابع الفردي لا يعني الاستغناء عن دور الفريق في خلق المناخ النفسي والتربوي لمساعدة المتعلم على الاستيعاب والانتقال الى التعبير .

## ٣ ـ مبدأ الافضليات

تعطى الاسبقية في تعلم اللغة الى التعبير الشفهي على القراءة والتعبير الكتابي . فلا يقرأ التلميذ مفردات وتراكيب او يكتبها الا اذا سبق ان تعلمها مشافهة لان اللغة نسق صوتي ، ولأن الكتابة نسق طارىء عليها الهدف منه استنساخ اللغة . ولهذا فمبدأ الافضليات يكون كما يأتي : السماع فالفهم فالتعبير فالقراءة فالكتابة ، اي اننا نستمع الى لغة ما اكثر مما نعبّر بها شفهيا ، ونعبر شفهيا اكثر مما نقرأ ونقرأ اكثر مما نكتب .(٦٠)

## ٤ ـ مبدأ التعليم بالموقف

هو أن يتم التعليم في مواقف قريبة من المواقف الطبيعية التي يتم فيها التخاطب عادة . وهذا يستوجب إدخال المعينات السمعية البصرية . فالنصوص الحوارية اقرب للموقف الشفهي ، والرسالة اقرب للموقف الكتابي .

## ٥ ـ اشراك حركة الجسم في تعلم اللغة

شعور التلاميذ بالارتياح ، يسهل عليهم ، في الصف ، اكتساب المهارات اللغوية وان ما يسهل خلق هذا المناخ من الارتياح الاعتماد على تجنيد الطاقات الفكرية والجسدية في اكتساب مهارات اللغة التي تمر عناصرها في طريق الاذن والعين ، فان لم يكن الجسد مستعدا لاستقبال اللغة ونقلها الى الدماغ يتعثر الفهم ويتأخر التعبير . ولهذا تضمن الطريقة تمارين جسدية تحضر المتعلم للفهم وتساعده على الانتباه السمعي والبصري ، وادخال تمارين الايماء وضرب الايقاع والتنغيم . فالايماء دليل الفهم الاجمالي للحالة . كذلك ضرب الايقاع السليم لجملة او تنغيمها دليل على تمييز

---

(٦٠) المصدر نفسه ، ص ٦ ـ ٧ .

الاصوات ، والكلمات والتمارين الجسدية تساعد التلميذ على بلوغ الهدف الاساس من تعلم اللغة وهو استيعاب العناصر وتوظيفها في النطق والتعبير .

## ٦ ـ عدم استخدام العامية في تعليم الفصحى

ان استخدام العامية « خرق لأبسط قواعد تعليم اللغات ، يعطي فيه المعلم المثل السيء لتلاميذه فيحيدون عن هدفهم في اكتساب اللغة » .

## ٧ ـ اللجوء الى الالعاب التربوية

من المسلم به انه « كما كانت الالعاب العظيمة والاعياد الفخمة قديماً عند اليونان وسيلة تنشئة المثل الاغريقية الكاملة في الحياة والسلوك وانتشارها ، كذلك ، اليوم يكتشف كثير من الاولاد نفوسهم ويستكملون قواها الخلقية والاجتماعية ويزيدون في رسوخها واستحكامها في الالعاب الجمعية للمراهقين والناشئين . . »(٦١) .

ان اللعب يؤدي الى زيادة استكمال القدرة على التعبير ، وان الطبيعة انما اخترعت اللعب لا ليكون وسيلة للتصريف المأمون للطاقة الفائضة في الكائن الحي ، بل كواسطة لاستخدام تلك الطاقة لغرض اعداده لشؤون الحياة فيما بعد . « وتتدرج الالعاب التربوية في الجو العام الذي يحيط بتعليم اللغة . فالنظرة التقليدية في تعليم اللغة تقوم على الحزم والصرامة والتهيب من المعلم ولذلك يصعب في جو كهذا الجو القيام بألعاب في الصف . اما النظرة الحديثة في تعليم اللغة فتقوم على الحركة والحيوية في الصف وعلى التعامل بين المعلم وتلاميذه على اساس الصداقة وعدم الرهبة ، وهذا جو يسهل فيه القيام بالالعاب التربوية »(٦٢) .

# خامساً : عناصر الطرائق الحديثة لتعليم اللغة ووسائلها

إن تطبيق المبادىء التربوية في الطرائق الحديثة لتعليم اللغة قد احدث تغييراً جذرياً في الوسائل المستعملة في دروس اللغة ابتداء بغرفة الصف وعدد التلاميذ فيها وانتهاء بالادوات السمعية البصرية التي تدخل في درس اللغة .

١ ـ **عدد التلاميذ** : ان عدد التلاميذ في كل حصة تستعمل فيها المعينات السمعية البصرية لا يزيد على العشرين ليتسنى لجميع التلاميذ ان يقوموا بكل نشاطات الدروس .

٢ ـ **غرفة الدرس**: تصف المقاعد صفاً واحداً بشكل نصف دائري لتيسير الرؤية مع وجود عارض للفيلم الثابت .

---

(٦١) برسي نن ، التربية: **حقائقها واصولها الاولى**، ترجمة عبد العزيز ابراهيم البسام (بغداد: مطبعة المعارف، ١٩٤٦) ، ص ١٠٢ .

(٦٢) الجمهورية اللبنانية ، مركز الابحاث اللغوية والتربوية ، « طريقة لتعليم العربية في المرحلتين الابتدائية والمتوسطة، » ص٨ .

٣ ـ **عارض الفيلم الثابت وشاشة العرض** : آلة كهربائية تمكّن المعلم من عرض الافلام الثابتة التابعة للطريقة السمعية البصرية . وقد يستغنى عن الشاشة اذا كان الجدار ابيض .

٤ ـ **آلة التسجيل** : تعمل بالبكرة او بالكاسيت حسب نوع الاشرطة التعليمية . وهناك آلات تسجيل مصنوعة خصيصاً لدرس اللغة[٦٣] .

## ١ ـ عناصر الطريقة

**أ** ـ كتاب المعلم الذي يتضمن الارشادات التربوية والعلمية .

ب ـ كتاب التلميذ : الذي يجب ان تتوافر فيه الانقرائية . وقد قام الاستاذ Lorge بوضع قائمة ، وجدت بالتجربة انها تقيس الانقرائية من حيث المفردات وتركيب الجمل[٦٤] .

ج ـ دفتر التلميذ : الذي يحتوي على التعبير اللغوي المنطلق من مبدأ الحوار ويركز على السؤال والجواب للوصول الى التعبير السليم فترسخ في ذهن التلميذ التراكيب الاساسية ، وقد تستثمر هذه التمارين في الصف او في مختبر اللغة ، مع العلم انها تمارين فردية يقوم بها التلميذ وحده للوصول الى تخزين التراكيب وترسيخها .

د ـ مجموعة الالعاب التربوية : ليس اللجوء الى اللعب من باب الترفيه والتسلية فقط ، بل انه وسيلة تربوية تجعل الطلبة يستثمرون ، من خلال الاشتراك باللعب المكتسبات اللغوية ، وتستثمر بعض الالعاب شفهياً والبعض الآخر كتابياً .

هـ ـ مجموعة الاشرطة التي تستعمل في الصف جماعياً واخرى يمكن استعمالها فردياً في المختبر اللغوي .

و ـ مجموعة الافلام الثابتة التي تستعمل في الصف .

## ٢ ـ تفصيل عناصر الطريقة

### أ ـ القسم الشفهي

(١) الحوار : نقطة الانطلاق بالنسبة الى العناصر الباقية حيث يرتكز الحوار على الصوت الحي المسجل ، والرسوم المعبرة في الافلام الثابتة . وتنقل هذه الرسوم ما يؤديه المتخاطبون من ايماء واشارات تعبّر عن حالاتهم النفسية من فرح وحزن وتعجب وغضب لتصوير الحالة الطبيعية التي هم فيها .

---

(٦٣) المصدر نفسه ، ص ٩ .

(٦٤) احمد حقي الحلي ، كتب المتابعة : مفهومها وميادينها وطرائق اعدادها ، ص ٧١ـ ٧٢ .

(٢)**نصوص السماع**: تهدف الى تنمية السماع والفهم كما يصلان الى اذن المتعلم من اصوات تساعده على التحقق من فهمه للمفردات التي تشرح وللتراكيب التي تعرض.

(٣) **تمارين فردية لترسيخ المكتسبات** : هذه التمارين تساعد التلميذ على الفهم السريع وعلى التعبير اللغوي السليم ، وترتكز على طريقة السؤال والجواب . انها ترسخ اهم التراكيب الاساسية وهذه التمارين فردية يقوم بها التلميذ وحده في الصف ولذلك تسجل على كاسيت ليسهل على التلميذ استعمالها .

(٤) **افلام صامتة للتعبير الشفهي**: عبارة عن سلسلة رسوم حية معبرة عن قصة او حادثة يستطيع التلاميذ ان يتخيلوها وان يحضروا حواراً يتلاءم معها . تساعد هذه الافلام على استثمار ما لدى التلميذ من مكتسبات لغوية فينطلق الى الكلام والتعبير.

## ب ـ القسم الكتابي

(١) **الخط** : يتم اللقاء بين البصر والخط ضمن اطار نص صغير يعود بمضمونه الى كلمات وتراكيب سمعها التلميذ وابصرها ، وتتحرك اليد بكتابة كلمات وجمل لا بتصوير شكل منفصل او حرف منفرد .

اما الحروف واشكالها المتعددة فإن التلميذ يكتشفها بالتمارين العملية من التراكيب الى العناصر وتارة اخرى من العناصر الى التراكيب[٦٥] .

(٢) **القراءة** : مفتاح التعلم والتعليم . عن طريق القراءة نطلع على ما لا نستطيع ان نختبره بانفسنا مباشرة. فالقراءة تهدف الى تعويد التلميذ الحالات التي يكون فيها الاتصال باللغة محصوراً بطريقة القراءة التي تنطلق من مواقف واقعية تكون مألوفة بل ضرورية كالبحث عن شارع او قراءة رسالة او قراءة دعاية سياحية . . . الخ .

(٣) **الأدب** : ان الطفل قبل ان يذهب الى المدرسة يسمع انواعاً من الادب فهو يستمع بشغف الى القصة الجميلة التي تسردها له امه ، وهو يطرب للاغنية التي يسمعها من الراديو او التلفزيون او من امه . كما انه يطرب لنغم الشعر والرنة الموسيقية فيه . حتى ان الرضيع يتلذذ بالاغنية التي يسمعها من امه فيحلو له سماعها ، ويستسلم للنوم .

يخطىء بعض المعلمين في تدريس الشعر للاطفال . ويجبر التلميذ على حفظ ابيات من الشعر لا يستسيغها ذوقه ، وقد تكون مفرداتها صعبة وتراكيبها معقدة ، فينفر منها التلميذ وقد يحفظها على مضض . ولهذا يراعى في القصائد تدرج التراكيب والمفردات ، وان تكون الابيات الشعرية مما تدفع على العيش في جو من الشعر العربي الرقيق ، واذا رافق القصائد تسجيل موسيقي يتلاءم مع موضوع كل قصيدة فسيزيد من جمالها وحسن وقعها على اذن التلميذ .

---

(٦٥) المصدر نفسه، ص ١٣- ١٤ .

(٤) **تمارين الاملاء** : تنطلق هذه التمارين في حالات تكون فيها كتابة ما يسمع ( نص برقية مثلا . . . ) امرا طبيعيا عفويا . من الواضح انها تمارين املاء ولكن صبت في قالب اتصالي ينزع عنها صفة الاملاء المدرسي الجاف . وتهدف هذه التمارين الى تعويد التلميذ كتابة ما يسمع بطريقة سليمة وسريعة والى تحضيره للانتقال الى تمرين الانشاء .

(٥) **الانشاء** : دروس العربية كلها تقصد مران الملكة الابداعية او التعبيرية في الطالب ، وما النحو واللغة وغيرهما الا وسائل لغاية هي : الانشاء ودروس العربية وحدها غير كافية لخلق طلبة مبدعين في التعبير لأن تعلّم الالفاظ دون امتلاك ذخيرة يعبر عنها لا يجدي شيئاً(٦٦) .

**الخطوات التمهيدية** : يقترح البعض ان يكون لكل درس انشائي درس تمهيدي تناقش فيه الفكر العامة ، وهو ما اصطلح عليه باسم ( المحادثة ) متوخين من هذا معاونة الطالب على التعبير عما يدور بباله تعبيرا سليما ونأخذه برفق الى ما نراه صائبا ، ونترفق كذلك في تصحيح اخطائه اللغوية والنحوية وليتذكر المعلم ان جودة الانشاء تتوقف على ثلاثة امور :

ـ حضور الافكار التي ستكون موضوعا للمحادثة .

ـ معرفة الكلمات التي تدل على تلك الافكار .

ـ معرفة اساليب الكلام لترتيب العبارات من تلك الكلمات حسب ما تقتضيه المعاني (٦٧) .

## ج ـ المعارف اللغوية

(١) **القواعد** : من المسلم به ان قواعد الصرف والنحو هي نظريات حول اللغة لاحقة بها . فالناس يتكلمون اللغة بألسنتهم ويكتبونها قبل ان يصوغوا قواعدها ولذلك فان تعليم القواعد يجب ان لا يتم الا بعد ان يكتسب الطفل التراكيب والمفردات الاساسية في اللغة التي يتعلمها .

الا ان ترك تعليم القواعد الى زمن لاحق على اكتساب اللغة لا يكفي ليقرب القواعد الى ذهن التلميذ بل لا بد من ربط المادة بالمكتسبات اللغوية عند الطفل بحيث يكون درس القواعد ممارسات ذهنية قوامها المفردات والتراكيب التي اكتسبها في التعبير الشفهي والقراءة والتعبير الكتابي . فكاتب وذاهب ونائم تؤدي به الى فاعل ثم الى اسم الفاعل وهكذا .

(٢) **المعاجم** : لا نعرف في العربية معجما يتوجه الى تلاميذ المرحلة الابتدائية اما المعاجم التي تتوجه الى المراحل الاخرى فانها اجمالا ايجاز للمعاجم الكبرى . والمعجم وثيقة ومرجع قد يطالعه التلميذ للافادة من المعلومات الواردة فيه وقد يرجع اليه اذا ما صادفته صعوبة لغوية (٦٨) .

---

(٦٦) الخاني ، « نظرة في اصول تدريس الانشاء ،» .

(٦٧) المصدر نفسه .

(٦٨) الجمهورية اللبنانية ، مركز الابحاث اللغوية والتربوية ، « طريقة لتعليم العربية في المرحلتين الابتدائية والمتوسطة ،» ص ١٣ ـ ١٦ .

انها تجعل من الامة الناطقة بها كلاما متراصا خاضعا لقوانين . انها الرابطة الوحيدة الحقيقية بين الاجسام وعالم الاذهان .

« ولست اعرف لغة من لغات العالم يصدق عليها قول الفيلسوف الالماني اكثر مما يصدق على لغتنا العربية . وقد اتضح للاذهان بعد ان ارتسم في القلوب ان هذه الوحدة العربية تقوم في صميمها على الوعي القومي النابع من تلك المشاركة الروحية العميقة ، مشاركة اللغة والعقيدة ، والثقافة والحضارة »(٦٩) . وينبه الاستاذ عثمان في هذا المقام « ان للغتنا العربية اثراً في تكوين عقليتنا وتدبير تفكيرنا ، وتصريف افعالنا ، وهداية سلوكنا يفوق كل اثر سواه ، واننا ما دمنا قد عقدنا العزم على ان نصون وحدتنا العربية ، فواجبنا ان نحافظ بكل ما في وسعنا على خصائص لغتنا ، وان نستمسك في الوقت نفسه بالسمات الفكرية الاصيلة التي تجعل لهذه اللغة فلسفة متميزة »(٧٠) .

لقد كان تحسساً رائعاً من القيادة السياسية بمسؤوليتها عندما اصدر مجلس قيادة الثورة القانون رقم (٨٣) لسنة ١٩٨٣ قانون الهيئة العليا للعناية باللغة العربية ترتبط بمجلس قيادة الثورة ، ونصت المادة الرابعة على ما يأتي : « تتولى الهيئة العليا ممارسة الاختصاصات التي من بينها، « الرقابة والاشراف » على تنفيذ قانون الحفاظ على سلامة اللغة العربية رقم (٦٤) لسنة ١٩٧٧ والقوانين والانظمة والتعليمات والقرارات المتعلقة بشؤون اللغة العربية » .

## ٣ ـ اثر الطريقة التدريسية في تحصيل الطلاب

أشرنا الى ان طريقة التدريس لها علاقة مباشرة بمدى حب الطلاب للغتهم او الانكماش عنها ، وبالتالي فإن للطريقة تأثيراً في تحصيل الطلاب .

وفيما يأتي اشارات خاطفة الى بعض الدراسات الجامعية : فقد قام «Haslam and Brown» في سنة ١٩٦٥ ، بدراسة حول اثر الطريقة التدريسية الفعالة في تحصيل الطلاب في القراءة والكتابة والاستعداد للامتحانات وتحسين العادات والدوافع الدراسية . وجرت التجربة على عينة ضابطة وعينة تجريبية في مدرسة ثانوية وتوصلا الى ان المجموعة التجريبية فاقت المجموعة الضابطة في العادات الدراسية وكانت النتيجة عند مستوى ٠,٠٠١ .

كما فاقت المجموعة التجريبية المجموعة الضابطة في التحصيل وبدلالة احصائية عند مستوى ٠,٠٠١(٧١) .

وقدم السيد طه الدليمي رسالة ماجستير في «اثر بعض الطرق التدريسية على تحصيل الطلاب في قواعد اللغة العربية» في عام ١٩٨٠ وحدد المتغيرات التجريبية وهي العوامل

---

(٦٩) امين ، فلسفة اللغة العربية ، ص ١٨ .

(٧٠) المصدر نفسه، ص ١٩ .

(٧١) انظر : *Journal of Educational Psychology*, vol. 59, no. 4(1965), p. 223.

المستقلة وذلك لمعرفة اثرها في المتغير التابع الذي هو التحصيل . وان الموضوعات التي درست كانت من الكتاب المقرر وهي ستة موضوعات : التمييز ، والحال ، والمستثنى بإلا ، والمجرور بحرف الجر والمجرور بالاضافة والنعت .

وبنى الباحث اختباراً تحصيلياً في قواعد اللغة العربية وفي الموضوعات التي تم تدريسها .

واظهرت نتائج البحث انه لا فرق ذا دلالة احصائية في التحصيل بين الطرق التدريسية الثلاث ، وعند مستوى (٠,٠٥) .

وهذه النتيجة التي توصل اليها السيد طه الدليمي تخالف ما اظهرته دراسة قام بها باحث من الجمهورية العربية السورية ولمدة سنة دراسية في موضوع قواعد اللغة العربية حيث اظهرت الدراسة ان الطريقة القياسية افضل من الطريقة الاستقرائية(٧٢) . ومن حيث الاوساط الحسابية فإن دراسة طه الدليمي تشير الى ان متوسط مجموعة الطريقة الاستقرائية اكثر بقليل من متوسطي مجموعتي طريقة القياس والنص كما في الجدول الآتي :

| الطريقة | الوسط الحسابي |
|---|---|
| الاستقرائية | ١٤,٠٠٩ |
| القياسية | ١٣,٨٨٠ |
| النص | ١٢,٩٩٠ |

على ان هذا الفارق الضئيل لصالح الطريقة لا يعطينا مؤشراً على ان هذه الطريقة افضل من الطريقتين الاخريين . ولم يعط الباحث تحليلاً مقبولاً لهذه النتيجة غير المتوقعة ، لان اكثر الادبيات التي ذكرها في رسالته في الفصل الاول ، تختلف عما جاء في بحثه(٧٣) .

ان دراسة حنان الجبوري ( رسالة دكتوراه ) استهدفت معرفة تأثير الطريقة الاستقرائية والقياسية والجمع بين الطريقتين الاستقرائية والقياسية والطريقة التقليدية وتشير الى ما يأتي :

- هناك فروق ذات دلالة احصائية في التحصيل لصالح الطريقة الاستقرائية .
- ان الطريقة القياسية جاء تفوقها بالمرتبة الثانية .
- احتلت طريقة الجمع بين الطريقتين الاستقرائية والقياسية المرتبة الثالثة(٧٤) .

---

**(٧٢) طه الدليمي ، دراسة مقارنة: اثر بعض الطرق التدريسية في تحصيل الطلاب في قواعد اللغة العربية، ص ٥٥- ٥٦ .**

(٧٣) المصدر نفسه، ص ٦٦ .

(٧٤) المصدر نفسه، ص ٤١ .

## خاتمة : العربية امانة نتحملها جميعاً

يتصور البعض ان المسؤول عن العربية ، والحفاظ عليها في المرحلة الابتدائية والمتوسطة والاعدادية هو القائم بتدريس اللغة العربية ، فاذا اخطأ احد مدرسي الاجتماعيات او العلوم او غيرهما فعذره انه ليس مسؤ ولا عن العربية ، كأنّ الحفاظ على سلامة اللغة من مهمة مدرس اللغة وحده . وهو مفهوم خاطىء لأن جميع المدرسين يستعملون اللغة في تدريسهم ، والبراعة تكمن ليس في معرفة المادة العلمية فقط وانما كيف يعبر عنها وينقلها الى الطلاب بيسر عن طريق براعته اللغوية .

« ان تعلم العربية ، والالمام بمبادئها ، ثم المحافظة على سلامتها واصالتها فرض على كل منتسب الى هذه الامة ، وعلى كل منتسب الى هذا المعهد او ذاك ، او الى هذه الجامعة او تلك ، او هذا القسم او ذاك ، مدرس التاريخ ، ومدرس الجغرافيا ، ومدرس التربية ، ومدرس اللغة الانكليزية ، ومدرسو العلوم على اختلافهم جميعا شركاء في تحمل هذه « المسؤولية » ، وحمل هذه الامانة ، . . . الخ »[٧٥].

ومن قبل افاض الفيلسوف الالماني «فيخته» في كتابه **نداءات الى الامة الالمانية** ، بعد موقعة « يينا » اثر هزيمة بروسيا على يدي نابليون ، مبينا ما للغة من اثر بالغ في تطور الشعوب ، فقال : « ان اللغة تلازم الفرد في حياته وتمتد الى اعماق كيانه ، وتبلغ الى اخفى رغباته وخطراته انها تجعل من الامة الناطقة بها كلا متراصا خاضعا لقوانين ، انها الرابطة الوحيدة الحقيقية بين عالم الاجسام وعالم الاذهان » .

ولست اعرف لغة من لغات العالم يصدق عليها قول الفيلسوف الالماني اكثر مما يصدق على لغتنا العربية . وقد اتضح للاذهان بعد ان ارتسم في القلوب ان هذه الوحدة العربية تقوم في صميمها على الوعي القومي النابع من تلك المشاركة الروحية العميقة ، « مشاركة اللغة ، والعقيدة، والثقافة والحضارة »[٧٦] . وينبه الاستاذ عثمان في هذا المقام ، « ان للغتنا العربية اثراً في تكوين عقليتنا وتدبير تفكيرنا ، وتصريف افعالنا ، وهداية سلوكنا يفوق كل اثر سواه ، واننا ما دمنا قد عقدنا العزم على ان نصون وحدتنا العربية ، فواجبنا ان نحافظ بكل ما في وسعنا على خصائص لغتنا ، وان نستمسك في الوقت نفسه بالسمات الفكرية الاصيلة التي تجعل لهذه اللغة فلسفة مميزة»[٧٧] .

وفي الختام اقتبس ما قاله ابو منصور الثعالبي : « انّ من احبّ الله احب رسوله المصطفى ﷺ . ومن احب النبي العربي احب العرب ، ومن احب العرب احب اللغة العربية التي بها نزل افضل الكتب على افضل العجم والعرب . ومن احب العربية عني بها وثابر عليها ، وصرف همته اليها »[٧٨].

---

(٧٥) المخزومي ، « العربية . امانة نتحملها جميعاً، » .

(٧٦) امين ، **فلسفة اللغة العربية**، ص ١٨ .

(٧٧) المصدر نفسه، ص ١٩.

(٧٨) عبد الملك بن محمد الثعالبي، **فقه اللغة وسر العربية** ( بيروت : دار مكتبة الحياة ، [د.ت.])، ص ٢ .

# الفصل العاشر

# تحسين وسائل خدمة اللغة العربية في الوطن العربي (*)

شكري فيصل

## مدخل

يشير هذا العنوان ، في كثير من الحذر والدقة ، الى ان وضع اللغة العربية في الوطن العربي يمثل نوعا من التقصير في خدمة هذه اللغة والقيام بحقها . . واذا كان من حق اللغة على اصحابها في الظروف العادية ان يبذل لها اكبر قدر من العناية في الحياة والمجتمع والناس ، فان هذا الحق في مثل هذه الظروف التي يمر بها الوطن العربي يبدو وكأنه فوق كل حق آخر وقبل كل حق آخر . . فقد تقطعت الوشائج بين البلاد العربية على نحو لم نشهد مثله من قبل، وتعرضت مقومات الحياة العربية الواحدة الى كثير من التخلخل حيناً ومن الانحلال حينا اخر . . وطغت نزعات من الاقليمية والشعوبية لا عهد لهذا الجيل بها ، واخذ الجيل الجديد طرائقه الى « الكفر » بالعربية والعروبة وآلها . . ولم تبق الايام من الاواصر بيننا ومن الآمال فينا الا هذه اللغة . .

ومع ذلك فقد نفذت الى هذه اللغة السهام من كل صوب . . ولعله لم يحمل قوم على لغة كان لها فضل وجودهم الحضاري ومكانتهم الانسانية ، على نحو ما حمل ناس منا على لغتهم . . فقد اتهموها بالصعوبة وحملوها من ذلك ما هو حق في اقل الاحايين وما هو باطل في اكثر الاحايين ، ورموها بالخروج على المنطق وانها لا تنقاد قواعدها اليه ، وقذفوا خطها وحروفها ، بل ودعوا الى تبديلها ، وبذلوا لذلك الكثير من القول والعمل ، واخرجوها من نطاق الطبيعة التي تنتظم اللغات كلها حين زعموا انك في اللغات الاخرى تقرأ لتفهم بينما نحن في العربية نفهم لنقرأ . . وقالوا في نحوها وصرفها ما لم يقله مالك في الخمر . . وتحدثوا عن عجزها في متابعة التقدم الحضاري وكأنها لم تكن اللغة التي وسعت حقبا طويلة من

---

(*) كتب هذا البحث للندوة ولكنه لم يقدم في جلساتها .

الدهر ، العلوم، والمعارف كلها . . وكأنها لم تكن اللغة التي انشأت حضارة وانبتت ثقافة ، وكتبت الاف الكتب في كل ضروب الصنائع والفنون والعلوم .

وفي وسع الانسان الذي يتتبع حركات التخلخل الثقافي الذي اصيب به العرب في هذه العقود الاخيرة ان يلاحظ ان الامر لم يقتصر على مهاجمة العربية في نحوها وصرفها وقواعدها وحروفها واعدادها واشكالها وطباعتها ومفاهيمها والفاظها وتناقض معاني هذه الالفاظ . . لم يقتصر الامر على هذا الجانب « السلبي » ، وانما رافقته حركة ايجابية اخرى جهدت في ان تقدم البديل . . ان تقدم اللغات الاجنبية حينا هينة لينة ميسورة ، وبذلت لذلك من الوسائل ما لا يمكن حصره ، او ان تقدم العاميات في احيان اخرى مشدودة الى انواع من النعرات الاقليمية التي احكمت الدعوة اليها .فاذا اضفنا الى ذلك ما كان من اهمال العرب لقدر لغتهم و « كفرهم » بمكانتها ، وادارة ظهرهم لعالم اسلامي كبير كان يقدس حروفها . . . واذا ذكرنا وضع معلم اللغة العربية : الانسان الاول في البناء القومي ، والصورة المهزوزة التي اعطيت له في المسارح والتمثيليات . اذا نحن جمعنا ذلك كله بعضه الى بعض ادركنا مدى الجناية التي نرتكبها في حق لغتنا ، بل في حق انفسنا . . وهل كانت اللغة الا الصفحة الاخرى للحياة النفسية العقلية للافراد والجماعات ؟

الامر اذن ليس تقصيرا في وسائل خدمة اللغة العربية ، بل هو امر الجناية عليها . . ولعلنا ننطلق في هذا الاعتراف متجاوزين اللباقة التي اصطنعها عنوان البحث والحذر الذي اخذ به نفسه ، حين تحدث عن وسائل تحسين خدمة اللغة العربية . . . على حين نحتاج ان نتحدث عن الوسائل التي تعيد الى هذه اللغة مكانتها وتعيد الينا ايماننا نحن بها . . بعد هذا ( الالحاد ) بها ، وهو الحاد مُرٌّ كريه .

## منهج

والحديث عن اللغة العربية في الوطن العربي متشعب متداخل . . يتقبل عديدا من المداخل ، وكثيرا من المناهج . . فقد يؤثر باحث ان يتحدث عن اللغة في المدرسة واللغة في المجتمع . . وقد يؤثر آخر ان يتحدث عن اللغة في الجامعة واللغة في وسائل الاعلام ، وقد يفضل باحث ثالث ان يتحدث عن الازدواجية في العربية ، عن العامية والفصحى ، وقد يكون هناك من يؤثر ان يتحدث عن مزاحمة اللغات المحلية للغة العربية او عن مزاحمة اللغات الاجنبية لها . . او عن ماضي هذه اللغة او عن مستقبلها ، او عن همومها الحاضرة ، او عن مكانتها في المجتمع العربي اليوم . . او عن امكانية اتساعها للتقدم العلمي . . ان ذلك كله يمكن ان ندرج منه الى خدمة اللغة ، وان يكون منطلقا للبحث وبداية له . . ان قضايا اللغة متداخلة يقود واحد منها الى الاخر او يستدعيه او يثيره ، وكأنها كلها سلسلة من الدوائر المتعددة التي تنبثق عن مركز واحد .

وليس في وسع بحث واحد ، في مثل هذا الحيز الضيق ، ان يتناول بعض ذلك بلْه ان يتناوله كله . . لذلك يتشعب الموضوع في قسمين كبيرين : اللغة في المدرسة ، واللغة في

الحياة والمجتمع . ولعل من الخير ان نلتزم في القسم الاول التتابع الزمني فنتحدث في العناوين التالية :

١ ـ اللغة قبل المدرسة الابتدائية .
٢ ـ اللغة في المدرسة الثانوية .
٣ ـ اللغة في المرحلة الجامعية .

اما في القسم الثاني ( اللغة في الحياة والمجتمع ) فنتناول ثلاث قضايا :

١ ـ وسائل الاعلام .
٢ ـ اتجاه الدولة .
٣ ـ الفصحى والعامية .

وسيكون حديثنا عن ذلك كله ملتزماً بالايجاز ، مقتصراً على صلب القضايا التي تواجهنا في كل فقرة .

# اولاً : اللغة في المدرسة

## ١ ـ اللغة قبل المدرسة الابتدائية

لم نتعود في المجتمع العربي ان نناقش قضية اللغة العربية قبل المدرسة الابتدائية . . ولا اعرف قطرا عني بذلك كما عني به المغرب ، وكان لذلك عنده منطلقات واسباب تتجاوز اللغة الى السياسة التي تقوم هناك على اساس من المزاوجة والموازنة بين اللغة العربية واللغة الاجنبية ويبدأ الامر في المغرب على النحو التالي :

اللغة العربية هي لغة القرآن ، بينهما هذا التلاحم العضوي . . ولذلك فان اتقان قراءة القرآن الكريم وحفظ مقادير منه في مرحلة مبكرة يضمن سلامة اللسان العربي فيما يستقبل صاحبه من طوارىء اللغة الاجنبية . . ويزرع روح العربية واساليبها في الذهن العربي ، ويقيم في النفس العربية اسس هذه اللغة ، ويمكّن لصيغها وبناء الجملة فيها.

ومن هنا لم يستشعر بعض من في المغرب الخوف الذي نحسه امام طغيان اللغة الاجنبية . . اذ رأى القائمون عليه انهم بذلك يضعون سدا مكينا يردّ في مستقبل الشاب المغربي اخطار الازدواجية اللغوية التي يؤمنون بها ، او يؤمن بها كثرتهم التي بيدها الامر.

من هنا كان في بعض ما قرأت وما شاهدت عناية المغرب بتحفيظ القرآن الكريم في مرحلة الروضة ، والى ذلك دعا الملك الحسن الثاني في بعض مشاريعه ، فقد اراد ان يستثمر مرحلة الروضة ( مرحلة ما قبل المدرسة الابتدائية ) او مرحلة الكتاب ، وان تستثمر قدرة الطفل في تلك الفترة على « التغييب » . . وان يكون فيما نزرع في اعماقه في هذه المرحلة قوة الشعور الديني مقرونة بالتمكن من روح العربية واطلاق اللسان بها والتطبع بكل صيغها وابنيتها.

لا اريد هنا ان اخوض في تفصيل ذلك ، ولا ان اتوقف عند الناحية النفسية فيه ، ولا عند المسلمات التربوية ومدى تطابقها معه . . لا اريد ان اتناول شيئا من ذلك . . ولكني اكتفي بهذه الوقفة عند هذا الاتجاه لاضعه مقابل الاتجاهات الاخرى النقيضة في المشرق . . وخاصة تلك التي تحاول ان تدرس اللغة الاجنبية للطفل قبل مرحلة الدراسة الابتدائية . . وهي المحاولات التي بدأت مع انتشار مدارس التبشير .

اني انظر الى هذا المشروع من زاوية الموضوع الاصلي : تحسين وسائل خدمة اللغة العربية دون ان اعنى بدوافعه الاخرى . . ولكني احب ان اسجل هنا اقتناعا كاملا بما رأيته عند شباب المغرب خلال سنوات ثلاث من التدريس فيه والاتصال بمثقفيه . . . فالشاب المغربي الذي حفظ اقدارا من القرآن في هذه المرحلة ، يتحدث اللغة العربية ـ اذا هو لم ينقطع عنها ، مهما يكن من اقباله على اللغة الاجنبية ـ بلهجة جد سليمة . . لهجة تتقن مخارج الحروف على خير الوجوه من ناحية ، وتبتعد من ناحية اخرى بعدا واضحا عن الاخطاء النحوية الكثيرة . . وتحسن العودة الى مسالك البيان العربي في اول فرصة تتاح لها ، عودة فيها كل عناصر الغلبة والتفوق على كل المثبطات .

خلاصة ما اريد ان اقوله هنا ان هذه المرحلة المبكرة من حياة الطفل العربي يجب ان تجند ، على نحو ما ، لخدمة اللغة العربية ، وان تزود بما يلائم ذلك ويحققه ، وان ترفع منها النقائض التي تتمثل في افساح المجال امام هجمة اللغة الاجنبية .

اليس عجيبا اننا نقبل على تدريس اللغة الاجنبية في مرحلة الروضة ايمانا باثرها في المستقبل ، وننسى ان هذا الاثر هو الاثر النقيض لما نحاوله من خدمة اللغة العربية ؟

وبعد ، ففي هذه المرحلة تواجهنا بدايات قضية اخرى هي قضية لغة البيت واختلاف ما بينها وبين لغة المدرسة . . ولكننا نؤثر ان نتحدث عن ذلك في مجال آخر لان هذه الازدواجية ستصاحب حياة الانسان العربي في المراحل المقبلة كلها .

## ٢ ـ اللغة في المدرسة الابتدائية

القضية اللغوية الكبرى التي تواجه الباحث هنا هي الاشتراك باللغة العربية . . وهل نبدأ تعليم اللغة الاجنبية للطلاب في هذه المرحلة . . ام نؤخر ذلك الى مرحلة تابعة ؟ واين نبدأ ذلك ؟

سنتبين هذا الموضوع من خلال العناوين والفقرات التي سنمر بها . ولكن يكفي هنا ان نؤكد اهمية هذه المرحلة لتأصيل اللغة العربية في اذهان الطلاب وعلى السنتهم .

أ ـ ومن الواضح ان لغة المعلم هنا هي التي يجب ان تولى اشد العناية . . ويكفي للتدليل على ذلك ان نقارن بين عمل مدرس اللغة العربية وعمل مدرس اللغة الاجنبية . .

كلاهما ينقل الى الطالب لغة جديدة ـ بمعنى من المعاني بالنسبة الى العربية ـ وكلاهما يترك هذه اللغة في ذهن الطالب . . ولكن مدرس اللغة الاجنبية ينقل ذلك اليه على وجه صحيح سليم على حين ينقل معلم اللغة العربية ذلك على وجه منحرف مغلوط تخالطه اللهجات والعاميات . وليس هذا فحسب ، بل ان معلم اللغة الاجنبية يقف وحده لا يشاركه احد آخر في هذا التعليم ، فينفرد بمسؤوليته . . على حين يقف مع معلم العربية ( في المدارس الابتدائية التي لا تخضع لنظام المعلم الواحد للصف الواحد ) معلمون آخرون ، مؤكد انهم لا يصلحون عمله ـ اذا افترضنا صلاحه ـ وانما يعرضونه لالوان من الفساد والافساد .

المدرسة الابتدائية هنا ـ بالقياس الى معلم اللغة العربية ـ مجموعة من القوى المتناحرة المتضادة . . واذا سلمنا بصلاحية معلم اللغة العربية في داخل الصف ، فان قوى اخرى كثيرة في المدرسة نفسها ( ولا نتحدث عن البيت والشارع ) تؤلف القوة المضادة . . والطالب هو الذي يقع فريسة محصلة هذه القوى .

ب ـ هذا عن مدرس العربية . . ولكننا لا نريد ان نغفل امر المنهاج ، ولا ان ننسى الكتاب ، ولا ان نهمل عدد ساعات العربية . . اننا نتحدث عن الجهود المضادة فحسب . . الجهود التي نفترض ان تكون سليمة والتي تتعرض للاحباط على ايدي المدرسين الاخرين .

بيئة المدرسة الابتدائية اذن في صورتها الحاضرة لا تساعد على خدمة اللغة العربية . . انها تزرع الاعوجاج في البذرة تمهيدا لظهوره بعد في الشجرة . . ولا بد من بحث هذه البيئة في تفاصيلها كلها ، على ان نقطة الانطلاق في ذلك ان ننظر الى المدرسة الابتدائية على انها البيئة الاولى للتمكين للعربية . . لا ينهض بذلك معلم العربية وحدها ، وانما يتظاهر عليه المعلمون جميعا في المواد جميعا . . فتكون الدروس كلها ، من حيث سلامة الاداء دروس العربية . . ويكون نصيب مدرس التاريخ في هذا الواجب لا يقل عن نصيب معلم العربية ، وتكون جهود الادارة تنسيقا لذلك وتمكينا له .

والغريب اننا لم نتعلم ذلك حين خالطتنا اللغة الاجنبية وحين خالطنا مدرسوها . . ففي تدريس اللغة الاجنبية يعمدون الى نوع من المراقبة في ذلك عن طريق الشارة التي تنتقل الى الطالب المخطىء في ساعات الفرصة بين الدروس ، فيحاسب على خطأه ، على حين تضج حياتنا اللغوية العربية بالاخطاء دون حساب او عقاب .

وعلاج الامر يبدأ في معاهد دور المعلمين . . *ان هذه المعاهد هي التي تزود المدارس* الابتدائية بالمعلمين ، وهي التي تقودها وتحكمها . . وحين يتخرج المعلم ضعيفا مقصرا فان ذلك ينتقل الى الطلاب مضخما ومتراكماً تراكما لا ينتج عنه الا الاغراق في الضعف .

وفي تجاربنا جميعا ما يدلنا على ان المعلم الواحد القوي يستطيع ان يطبع المدرسة كلها بعناصر من قوته وسلامة لغته وحمل الطلاب على متابعته .

وايا ما كان الامر ، فلا بد من دراسة مفصلة ، من ناحية اللغة العربية ، لحياة الطالب

في المدرسة الابتدائية ، ويكون منطلق هذه الدراسة ان هذه المدرسة هي ـ فيما يستقبل ابناؤها بعد ـ البيئة الاصل التي تطبع السنتهم وتقيم لغتهم . . وان كل الذي نريده من الطالب في المدرسة الثانوية او في الجامعة . . وكل الذي نريده من الانسان العربي في الحياة ، يبدأ من هنا . . ولذلك يجب ان نعمل على ان تكون البداية طيبة ومبشرة ، باحكام الجهود في معاهد دور المعلمين ، والنظر الى اللغة على انها الاصل في نجاح المعلم ، والنظر الى مادة الاختصاص نظرة ثانوية اذا هي قيست الى اللغة التي يجب ان تظفر بالمكانة الاولى ، وتنظيم التعاون بين الادارة والاساتذة على اشاعة الحد الادنى من سلامة الاداء ، او من الفصحى المبسطة بين التلاميذ في كل شؤونهم ، وفي كل ساعات وجودهم في المدرسة وفي مختلف اوجه نشاطهم التعليمي او الترفيهي .

## ٣ ـ اللغة في المدرسة الثانوية

هنالك تماثل واضح في المشاكل التي تواجه اللغة العربية في المدرسة الثانوية والمدرسة الابتدائية غير اننا نواجه هنا وضعا خاصا باللغة الاجنبية ، ومردود هذا الوضع على لغة الدراسة الجامعية ، وتأثيره على الثقافة العربية في جملتها وعلى حركة الفكر العربي ومسايرته للتطور العالمي .

ان اللغة في مرحلة الدراسة الثانوية تؤلف منطلقا عريقا لكثير من القضايا . . انها تشكل بداية الصراع اللغوي بين العربية واللغة الاجنبية . . كما تمثل استمرار الصراع بين العربية والدارجة .

فاذا تجاوزنا هنا الحديث عن المشاكل التي تتصل باللغة العربية ذاتها ، من مثل ازدواجية الفصحى والعامية ، ومكانة مدرس اللغة العربية ، ومكانة اللغة في تعليم المواد الاخرى ـ اذا تجاوزنا ذلك على اساس ان ما قلناه عنه في المرحلة الابتدائية هو هو هنا على مقياس واسع ـ فان لنا ان نتحدث عن صراع ما بين العربية والاجنبية ، وآثار هذا الصراع على مستوى اللغة العربية في المرحلة الثانوية .

يتحكم في التفكير العربي مفهوم اهمية اللغة الاجنبية في الدراسة الثانوية . . ثم يتولى عن هذا المفهوم مجموعة من النظرات والقضايا التي تتمثل في النقاط التالية :

- اي اللغات الاجنبية نختار ؟ . . وما اثر ذلك في تطور الفكر العربي ؟
- ما هو نصيب اللغة الاجنبية من ساعات التدريس الاسبوعية ؟
- هل تخالف هذه اللغة الاجنبية بعض المواد التدريسية . . وما هي هذه المواد ؟
- ما تأثير ذلك كله على الدراسة الجامعية ؟

وفي هذه الامور كلها يحس المرء ان الفكر العربي ـ كما هو شأن المجتمع العربي ـ يقع اسيرا في قبضة سلسلة من العقد ، على رأسها عقدة النقص ، ويحكمه اتجاه ذو بعد واحد وهو ان العناية باللغة الاجنبية في المجتمع كله لا طريق لها الا الدراسة الثانوية ، وان هذه المرحلة هي الميدان الوحيد لتحقيق فوائد الاتصال باللغات والثقافات الاخرى.

والحق ان تجارب الشعوب الاخرى ، وخاصة الشعوب التي اخذت طريقها الى النهضات السريعة وانتظمت في سلك الشعوب صانعة الحضارة ـ تجارب هذه الشعوب والاطلاع عليها كفيل بان يضع امامنا عناصر اخرى تتمثل في محاولة الجواب عن هذه الاسئلة :

**أ ـ** هل من الضروري ان يتعلم الطلاب كلهم اللغة الاجنبية ( لغة او لغتين ) في مرحلة الدراسة الثانوية ؟ وما هو القدر الضروري من ذلك ؟

ويكتسب هذا السؤال اهميته والحاحه حين نذكر امرين خطيرين ، احدهما : ان هذه اللغة تشغل حيزا زمانيا واسعا ( نحوا من ثلث او ربع الساعات الاسبوعية ) .

والاخر : ان معطيات العصر تفرض انواعا من المعارف لم تكن تداخل الدراسة الثانوية . . غير ان مداخلتها لهذه الدراسة واطلاع الطلاب عليها اضحيا امرا واجبا . . وذلك بطبيعة الحال يفتح الطريق امام تعديل توزيع الجدول الاسبوعي.

ب ـ اذا كان الغرض من تعليم اللغة الاجنبية هو توسعة الساحة الثقافية ومد الآفاق امام الرؤية العلمية فهل يحقق واقع تدريس اللغة الاجنبية في البلاد العربية هذه المهمة ؟

ج ـ ما هو مصير طلاب المدارس الثانوية ، وهل مصيرهم جميعا الى الجامعة ؟ . . وما هو مدى اخفاق او نجاح هذه التجربة التي طبقت على البلاد العربية جميعا تطبيقا يوشك ان يكون تقليديا اذا لم نشأ ان نقول انه اعمى .

د ـ اذا كان بدأ يداخلنا الشك في فائدة تعميم تعليم اللغة الاجنبية في الدراسة الثانوية على هذا النحو الذي وصفنا . . واذا بدأ يداخل اذهاننا وعقولنا مقولات جديدة بحكم نتائج تجربتنا ، وبحكم ضرورة الافادة من تجارب الامم الاخرى ، او بحكم الاصلاحات التي دخلت على المرحلة الثانوية في ترشيد المناهج والاخذ بأحسنها . . اذا كان ذلك كذلك فما هو البديل عن الواقع الحالي ؟

هـ ـ هل يكون من الخير ان نخصص للغة الاجنبية ، الناس القادرين عليها واصحاب المواهب فيها ، ونكل اليهم بعد ذلك اشاعة حركة ترجمة واسعة ومحكمة ومنتقاة لافضل نتاج اللغات الاجنبية ؟ حركة تضمن لنا نتائج كلية بديلا عن هذه النتائج الجزئية المشتتة التي تنتج الان عن تعليم اللغة الاجنبية للجميع ، فلا يحقق الغاية المتوخاة الا افراد قلائل من هذا الجمع الضخم الكبير .

اني اعي وانـا اكتب هذه الكلمـات ، مردودهـا السريـع الغاضب او العـاتب في نفوس الكثيرين . . سيقال انه اسلوب رجعي في المعالجـة وانه سيعـزلنا عن الثقـافة الغـربية ، وانـه سيؤخرنا عن الركب الحضاري ثم اني اعي ضخامة التغيير الذي ادعو اليه ، من اجل ضمـان مستوى لغوي نافع ولكني منطلق في ذلك من دافعين ماثلين :

احدهما واقع التجربة العينية وتجارب اخرى مماثلة نظرت الى الفائدة من اللغـة الاجنبية وهي الاطلاع على الثقافات المعاصرة ومحاولة مواكبتها . . ولكنها لم تشأ ان تجعل هذا الاطلاع وقفا على فئة قليلة ، وانما ارادت ان تشرك في ذلك جماهير المتعلمين والمثقفين . . ولذلك آثرت ان تشيع هذه الثقافة المعاصرة عن طريق تنظيم حركة الترجمة فخصصت لتعلمها وترجمة الآثار العلمية منها ، فريقا مختـارا من الناس قـادرا على ذلـك ، يحمل هـو وحده هم الاطـلاع على اللغة الاجنبية اطلاع معرفة ومشاركة ونقل واشاعة ؛

والاخر واقع التجربة العربية ، منذ طبق اسلوب التعليم الثانـوي الحكومي وانشئت في اثره الجامعات . . فقد مر على هذه التجربة عدد من العقول ، وسجلت ذاكرتها مئات الالاف من الطلاب ولكن ذلك لم يحقق في ميدان الاتصال المنتج بالمعـرفة العلميـة والمتفاعـل معها الا اقل النتائج .

وانا لا انكر هذا النظام انكارا جاحـدا . . فقد حقق نتـائج طيبـة في ساحتـين اثنتين : ساحة التعليم وساحة الدراسات الانسانية ، على حين ظل فقيرا جدا في الميدان العلمي .

وتسأل : لماذا ؟

والسبب واضح جدا يتصل بموضوعنا الاصلي . . ذلك ان النتائج كـانت جيدة ـ نسبيـا ايضـا ـ حيث كـانت اللغـة العـربيـة هي المستعملة وهي السـائـدة . . اعني في التعليم وفي الدراسات الانسانية . فقد مكن للغة العربية في هذين الميدانين . . فاستطاعت ان تكون لغـة تواصل وتفاعل .

ومعنى هذا اننا نستطيع ان نحقق الافضل والاكثر لطلابنا ولحركتنا الثقافية والعلمية اذا نحن اصلنا للغة العربية ، ومكنا لها على الالسنة ، وفي العقول .

ان اللغـة اذا لم تقد الى القـراءة والاطـلاع ، والى مـا ينتـج عن القـراءة والاطـلاع من تفاعل ، هي في حكم اللغة الميتة . وهذا هو الـذي حدث في حـركتنا التعليميـة . . لم نتقن ـ الا في الاقل ـ اللغة العـربية ، وبـالطبـع لم نتقن من اللغة الاجنبيـة القدر الـذي يساعـد على الافادة منها ومتابعة هذه الافادة .

ومن المؤسف ان يكون واقع شبابنا الذي يتخرج من الثانويات ـ وهل علي من حرج ان اقول : والذي يتخرج من الجامعات ـ انه لا يتقن لغة ما ـ حتى العربية احيانا ـ لقراءتها قـراءة تدبر . . ولذلك فهو لا يقرأ اي لا يتابع ، واذا قـرأ فهو لا يفهم ، واذا تفهم فهـو لا يعقل ، واذا عقل فهو لا يتفاعل . . لان الشرط الاول في تحقيق التفاعل هو امتلاك اللغة .

لماذا اذن لا نحاول ان نمتلك لغتنا ؟ . . وان نحشد لذلك الجهود وان نتدارك حاجتنا الى اللغة الاجنبية عن طريق آخر، عن طريق افراد طبقة خاصة تأخذ نفسها بإتقان اللغة العربية واتقان اللغة الاجنبية واتقان مد القنوات بين اللغتين وتقدم ذلك الى جمهرة الناس يفيد منه من يفيد ؟

هل تكون غريبة هذه الدعوة ؟ . . وهل نستمر نخضع لاستمرارية التجارب الفاشلة ، او ضئيلة النتائج ، او التي تتضاءل نتائجها يوما بعد يوم ؟ . .

في اوائل الحركة الثقافية بهرتنا النتائج الاولى لتعلم اللغة الاجنبية . . ولكن الفرق كبير بين ما كنا فيه وما نحن فيه الان . . . كنا الافا في المدارس الثانوية فأصبحنا ملايين . . وكان لنا جامعة او جامعتان في الوطن العربي فأصبحنا نعد نحوا من ستين جامعة . . اصبحنا نشعر بخسارة الجهود ونقدر ضخامة هذه الخسارة مع تضخم الاعداد . . وقد تطور كل ما حولنا تطورا واسعا واخذنا بمبدأ الاختصاص . . فلماذا لا نأخذ بهذا المبدأ كذلك في نطاق تعليم اللغة الاجنبية ؟

ان هذا من بعض الوسائل لتحسين خدمة اللغة العربية في الوطن العربي في المرحلة الثانوية . . فقد اشتد انتقاص هذه اللغة وتعريضها للتآكل والتشقق والحت المستمر ، وبخاصة حين وضعت الى جانبها اللغة الاجنبية بكل العقد التي رافقت ذلك في نفوس الطلاب والاساتذة والمثقفين . . وبكل الامتيازات التي اتيحت للذين ينصرفون الى اتقان هذه اللغة الاجنبية ، في المناصب والمراتب والهروب من تخلف المجتمع العربي الى المجتمعات الاجنبية تحت سلطان الانبهار بمظاهر التقدم فيها ، وكأنما استقر في اذهان الناس ، وخاصة حكامهم ومترفيهم والملأ منهم هذا الارتباط بين تعلم اللغة الاجنبية والرطانة بها وبين المستوى الاجتماعي الرفيع .

وانسدل اثر ذلك اثرا عكسيا على اللغة العربية وعلى مكانة مدرسيها الاجتماعية . . وانضاف اليه هذه الحملات على اللغة العربية والاهتمام الكاذب بصعوباتها ، مما انتهى في احيان كثيرة الى غرس عقدة الصعوبة دون تحقيق حلها . . او ان الحلول التي اقترحت لهذه الصعوبات لم تبلغ مستوى مطاردتها . . فتعلق القوم بالجانب السلبي واغمضوا اعينهم عن العلاج الايجابي .

هل هنالك من ينكر عشرات المحاولات لاصلاح تدريس النحو ؟ . . فلم كان العقم في هذه المحاولات ؟ لقد اخذت بالتيسير ، وافسحت له مجالا واسعا ، ووضعت له النماذج والتطبيقات . . ولكن كان الوقت قد فات ، لان فكرة الصعوبة ، مصحوبة بطبول الدعاية وابواق السخرية ومكر الشعوبية التي كانت احيانا وراء ذلك قد انغرست في النفوس فلم ينفع فيها دواء .

واوشك ان اقرر اننا لو قدمنا آية من مواد اللغة العربية بعيدة عن اي صعوبة لما افلحنا في انزالها منزلتها في نفس الطالب الثانوي . .

واذا كان هنالك حقا بعض الصعوبات في النحو او الصرف او . . فلماذا تلاقي الفروع الاخرى للعربية المصير ذاته ؟

من هنا تبدو هذه الدعوة التي اجمجم بها قلباً لكل المفاهيم والمقولات والانظمة وتحقيقا لخير العربية . . انها في حاجة الى ان يصدع بها بعد مناقشتها من كل وجه من وجوهها . . وهي في حاجة الى من يصدم النظم القائمة ليخرج بنا من اسارها . . انها في حاجة الى وطن واحد شجاع من الاوطان العربية الخائفة ، يتخذ لها الاهبة اولا ، ثم يطبقها ، ثم يعطي نتائج هذا التطبيق . . فإذا لم نجد هذا البلد الشجاع وما احسب اننا سنجده بحكم المشاغل الطارئة التي تتجدد كل ساعة في حياتنا ـ فلنطبق ذلك على جيل من الاجيال او في مدرسة من المدارس الكثيرة في كل عاصمة او بلد . . لننسخ هذا التعليم القاصر الضامر للغة الاجنبية ، ولنعد بساعاتها على اللغة العربية ( وعلى بعض المعارف الجديدة التي لا نجد لها مكانا في جدولنا الاسبوعي ) . . حتى نزرع في كل نفس القدرة على الفهم والتفاعل مع ما تقرأ ، ثم لنفرز عددا محدودا من الطلاب ، موهوبا ، قادرا نفسيا على اكتساب اللغة الاجنبية ، يتفرغ لها ، ويكون معاهد الترجمة لكل فروع المعرفة .

وبدلا من ان نملأ المجتمع بنماذج من المواطنين الذين يعرفون اللغة الاجنبية معرفة عجفاء غير مثمرة . . ويمسكون بالصحف ليقرؤوا اخبار الرياضة واحداث النجوم ويتأملوا صور الغلاف ولقطات من الحوادث . . بدلا من ذلك لنملأ هذا المجتمع بنماذج من المواطنين القادرين ، عن طريق اتقان لغتهم العربية ، على الوصول الى ثمرات الثقافة الحديثة .

## ٤ ـ اللغة في المرحلة الجامعية

من الواضح ان هناك خيوطا كثيرة تنطلق من المستوى الثانوي لتستمر في نسيج المرحلة الجامعية ، ومعرفة هذه الخيوط ومتابعتها في هذه المرحلة الجديدة لا تحتاجان ان نتوقف عندهما ولكن الذي يستوقفنا هو الجديد الذي يطرأ على هذه الخيوط والخطوط فيعطي موضوع اللغة في المرحلة الجامعية صيغته التي لم تكن له في المرحلة الثانوية .

والقضية الاولى والكبرى في موضوع اللغة في المرحلة الجامعية هي قضية تعريب التعليم الجامعي .

ومن المعروف ان هذه القضية كانت مدار اهتمام كثير من الباحثين وكثرة من المؤتمرات وعديد من المجامع والمؤسسات اللغوية . . وانها كانت احدى القضايا التي تمثل حركة الفكر

العربي وتصور دورانه الذي لا نهاية له حول القضية التي يعالجها ، يبدىء فيها ويعيد ، ويتحدث ويسكت ، ويقرر ويعاود التقرير .

وارجو الا يكون استطرادا هذا الذي سأقوله في هذا المعرض .

فقضية تعريب التعليم الجامعي هي وقضية الوحدة العربية القضيتان اللتان اثبت فيهما الوطن العربي قدرته على الكلام والبحث والتنظير وعجزه عن التنفيذ والاجراء . . واستبان من خلالهما ان هذا الوطن طبقتان : طبقة محكومة تفكر وتقترح وتحس همومها ومطامحها ، وطبقة حاكمة تتجاهل وتسكت . . وفيهما كتب العرب الاف الصفحات وعقدوا جملة من المؤتمرات واراقوا فيهما من المداد ما لم يبق معه مداد .

وقد كنت كتبت ذات مرة في ذكرى الوحدة ادعو الكتاب العرب الى ان يتوقفوا عن الحديث في موضوع الوحدة العربية . . فحسبنا الذي كتب في ذلك . . لان الحديث عن الشيء مع فقدان اي تحرك فيه او نحوه ، يورث من الشك اضعاف ما يورث من اليقين . .

ومعنى هذا هنا ايضا اني اوثر الا اتحدث هنا عن الموضوع . . لاني شهدت ما يزيد على عشرة مؤتمرات عربية جامعة لطرفي الوطن العربي انتهت كلها الى اقرار مبدأ تعريب التعليم الجامعي والحث على الاخذ به . . وكتبت اعدادا من التوصيات كنت احار كيف اعبر فيها عن هذه الحقيقة الواضحة بتعبير جديد حتى لا تأتي التوصية في مؤتمر صورة عن التوصية في مؤتمر سابق . . ولست الان في موقف يتيح لي تعداد هذه المؤتمرات سواء منها مؤتمرات التعريب الاربعة ، او مؤتمر طرابلس « ليبيا » او قرارات مؤتمرات المجامع اللغوية او مؤتمر بغداد . . الى عدد اخر لا يكاد يطاله الحصر .

ولم يكن الامر في الحديث عن تعريب التعليم الجامعي واقرار مبدئه قاصرا على العرب وحدهم . . وانما تعداه الى بعض المنظمات الاجنبية التي تتابع ، لغرض او اخر ، حركة التعليم في البلاد النامية وتراقب عوائقها . . فقد انتهت اليونسكو مثلا الى التوصية باستخدام اللغة الوطنية في التعليم الجامعي ضمانا لنجاحه ، لانهم وجدوا ان مردود الجامعات التي تدرس العلوم باللغة الاجنبية ـ في تحقيق اهداف التعليم ـ جاء دون مردود الجامعات التي تدرس باللغة الوطنية .

وبعض المؤسسات العربية التي دعت الى تعريب التعليم الجامعي تجاوزت المؤيدات النظرية الى اجراء بعض التجارب العملية رغبة منها في قطع الجدل النظري الذي استمر كل هذه السنين . . فقد شارك مجمع اللغة العربية الاردني زملاءه المجامع الاخرى في العمل على تعريب التعليم الجامعي . . واتخذ سبيله الخاص الى ذلك فأخذ بتعريب الكتاب العلمي الجامعي مبتدئا بالسنة الجامعية الاولى . . ودعا الى استخدام هذا الكتاب وراقب نتائج ذلك وتطبيقه في بعض الجامعات الاردنية . . فوجد ان الطلاب الذين درسوا المادة العلمية باللغة العربية كانوا افضل من زملائهم الذين درسوا المادة نفسها باللغة الاجنبية في العام ذاته في

جامعة اخرى . . وقد اشهد على هذه النتائج ادارة الجامعة ، وامل ان يكون ذلك آية بينة يضعها بين ايدي اولي الشأن الجامعيين .

وما لنا نتحدث عن هذه التجربة الجزئية الصغيرة والقيمة في جامعات الاردن ، وننسى التجربة الضخمة في تعريب التعليم الجامعي في الجامعات السورية ، في جامعة دمشق اولا ثم في الجامعات التي توالدت منها وعنها في حلب واللاذقية وحمص . . وهي تجربة عتيقة بدأت خاوية اليدين ولكنها مزودة بالايمان بالعربية في كلية الطب في دمشق وكلية الحقوق . . ثم كبرت ، بفضل الجهود الصامتة المؤمنة ، حتى شملت كل ضروب المعرفة في فروع الجامعة كلها ، وفي كل ادوات التدريس : اساتذة وكتابا مقررا . . ثم تجاوزت الكتاب المقرر الى الكتاب المرجع . . ثم تجاوزتها معا الى صناعة المعاجم العلمية . . وجاءت النتائج ممثلة في المشاركات العلمية للخريجين والاساتذة ، نتائج باهرة تقطع على الشك كل سبيل.

ان الخوف الذي يساور الكثيرين في كل مرة تبدأ فيها الدعوة الى تعريب التعليم الجامعي تأخذ طريقها الى وجه من وجوه التنفيذ ـ كان خوفا مصطنعا حيناً، وكان خوفا من الداخل ، وكان خوف القلق بأكثر مما كان خوف المواجهة . . وكان خوف المجهول باكثر مما كان خوف الواقع . . فالى متى يستمر هذا التردد والخوف ؟

ان تعريب التعليم الجامعي سيستصفي العلماء الاخصائيين العرب ـ وهم محط الامل في اللحاق بالركب الحضاري ـ للالتقاء على الجوانب المشتركة في البحث العلمي ، وسيؤلف بينهم ، وسيحددهم في مساق واحد ، وسيجمعهم على لغة مشتركة ، وسيضمن ان يكونوا فريقا متعاونا ، وسيدفع عنهم شر التمزق اللغوي ، وبالتالي شر التمزق الفكري ، الذي يجعل منهم لو بقي كل واحد منهم مشدودا الى اللغة الاجنبية التي تعلم بها ـ بابلا جديدة تتبلبل معها الالسنة ، ثم يكون من وراء ذلك بلبلة الافكار والقلوب .

ان اللغة هنا في هذا المقام تعني الفكر . . والالتقاء على العربية في هذه المرحلة الجامعية وما يتلوها انما يعني الالتقاء على مسالك فكر مشترك ، وعلى معايير فكر مشترك ، وعلى مناهج فكر مشترك . . فلا يفكر الباحث العربي بلغة ثم يتكلم في الوقت نفسه ، لغة اخرى .

ومن المعلوم ان الترجمة من اصعب الفنون . . ونحن نترك علماءنا ـ بهذا التشتت اللغوي ـ ضحية لعملية ترجمة داخلية شاقة تتم في ذات نفوسهم ، يقومون بها في كل لحظة يفكرون في عالمهم الجواني بلغة هي اللغة الاجنبية التي تعلموا بها وينقلون الى الاخرين تفكيرهم بلغة اخرى يداخلها التعتعة والاضطراب . . فلا هم يخلصون لعربيتهم او يخلصون لها ، ولا هم يخلصون للاجنبية او يخلصون لها .

وما هو السبيل الى اقامة بحث علمي مشترك ، ونشر تفكير علمي مشترك ان لم يكن هذا السبيل . . ان لم يكن تعريب التعليم الجامعي . . ؟ وكم نهدر من قوى فكرية اذا قصرنا

البحث العلمي على اصحاب اللغة الاجنبية ، وكم يؤخر ذلك من تحركنا على دروب الحضارة ؟

وسيتحدث ناس بألسنتهم او بقلوبهم عن الصعوبات . . وانه لحديث حق . . ولكن متى كانت امور البناء ، وخاصة في بناء الاسس ، بعيدة عن الصعوبات والمشقات . . . ولكن احتمال المشقات وتجاوزها لا يرتبط بشيء قدر ما يرتبط بالايمان . . ويبدو ان ايماننا بالعربية لا يزال بعيدا عن الاكتمال . . ان مثله هنا مثل ايمان الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض . . والمؤمنون بعربيتهم ومستقبلها وبعروبتهم وحضارتها وبمجتمعهم واصالته ، وبوطنهم ووحدته لا يجدون عن تعريب التعليم مناصا آية هذا كله اننا نتطلع الى مشاركة حضارية والى ان نستأنف مسيرتنا الثقافية والى ان نصل ما انقطع من تزودنا بالفكر العالمي ومشاركتنا فيه . . وذلك امر يقتضي ، في اول ما يقتضيه ، اتقان المعرفة . . ولم تتح لنا نظمنا التعليمية حتى اليوم لا اتقان لغتنا العربية ، ولا اتقان اللغة الاجنبية ، وانه لذلك لا بد من عديد من الوسائل لخدمة هذه اللغة في وطنها قبل ان تأتي عليها عوامل الغزو والتعربة والتآكل . . ولا ينهض بذلك شيء كما ينهض له ان نحيي هذه اللغة ، لا في العناوين والمظاهر ، بل في الاستعمال الدائب ، المتصل لها ، واستخدامها اداة المعرفة في كل مراحل اكتساب المعرفة . . وقد اثبتت تجربتنا الطويلة مع اللغات الاجنبية انها تجربة ، اقل ما توصف به ، ان ثمارها دون الجهد المبذول فيها وان مردودها يقف بعيدا جدا عن تكاليفها . . ودلتنا التجارب العملية في البلاد العربية والابحاث النظرية في المؤسسات الثقافية انه لتحقيق افضل النتائج العلمية في الوطن العربي لا بد من اللجوء الى اللغة العربية واستخدامها . . وان ذلك يجعل من لغتنا اداة وحدة في التفكير واداة مشاركة علمية .

ومن هنا حسن عندنا ان تنساق جهودنا في وجهة لغوية واحدة بدلا من هذه ( البابلية ) التي فقدت سحرها الذي كان لها في بدء حركة النهضة . .

ان هذا لا يعني بحال اننا نتنكر للغات الاجنبية . . فنحن نؤمن ان هذه اللغات الاجنبية هي نافذتنا على الثقافة العالمية ، وهي سبيلنا اليها . . ولكننا بدلا من ان نشتت الجهود والساعات والطلاب في ميدان التعدد اللغوي ، نتمنى ان تكون هذه الجهود موجهة نحو اتقان العربية لتكون اداة فعالة في اكتساب المعرفة ونشرها واشاعتها والتفاعل معها ، لا لتكون اداة مثلمة مهشمة تمنح الطالب درجة النجاح دون ان تمكن له من القدرة على التعامل الكامل معها .

## ثانياً : اللغة في الحياة والمجتمع

وبعد ، فان هذا كله عن اللغة في مراحل الدراسة . . . ولكن المدرسة او الجامعة ليست بعيدة عن الحياة ، ولا يمكن فصلها عنها . . والنظر الى اللغة في المدرسة نظر قاصر وجزئي يمنحنا كذلك النتائج القاصرة والجزئية .

ومعنى هذا ان العربية التي نريد يجب ان تلابس كل شيء في الحياة الفردية وفي الحياة الاجتماعية ، في الحياة الخاصة وفي الحياة العامة .

## ١ ـ وسائل الاعلام

على ان اظهر ما يكون من ذلك الا ينقطع عمل المدرسة والجامعة في مجالات الحياة العامة ، وبخاصة ما يتصل من ذلك بوسائل الاعلام .

فهذه الوسائل هي التي يمكن ان تغني عمل المدرسة ( على اختلاف درجاتها ) وان تكمله . . وهي التي يمكن ان تفرغه وان تفسده . . ومن الواضح ان الناس يتأثرون بوسائل الاعلام هذه ، شاؤ وا ام ابوا ، اشد التأثر . . فهذه الوسائل تفرض ذاتها فرضا عن طريق الالحاح والتنوع : تنوع الوسائل والحاح البرامج . . وقد كان لها في الشعوب المتقدمة اثرها الكبير . . واستطاعت ان تتصدى في بعض الشعوب لعمليات من اكبر عمليات التغيير ، وان ترتفع بهذه الشعوب من ادنى المستويات التي تلامس الارض الى اعلاها ، وان تقفز بها على سلم الحضارة درجات فوق درجات .

وما من شك في ان وسائل الاعلام في الوطن العربي كان لها ـ فيما يتصل بخدمة العربية ـ آثار مزدوجة ، وهي آثار توزعت بين السلبية والايجابية . . فقد اكملت عمل المدرسة مرة وانتقصت منه مرة . . نشرت الفصحى من نحو وساعدت على تأصيل العامية من نحو اخر .

وايا كان الرأي في تقدير عملها والخلاف فيه ، فنحن متفقون على ان هذا العمل كان عفويا بكل نتائجه . . لم تقصد الى صناعة هذه الايجابيات التي تحققت قصداً ، كما لم تقصد الى صناعة السلبيات . . لان الذي كانت تصدر فيه عن قصد واضح انما هو الدعاوة . . اذا استثنينا الصحافة الملتزمة .

وقد آن لهذه الوسائل ان تنخرط في عمل مرسوم لخدمة العربية ، وان تعد لذلك الادوات والبرامج ، وان يكون هنالك هذا التكامل فيما بينها اولا وفيما بينها وبين معاهد العلم ، وهذا التشارك والتساند على الهدف الواحد.

ان وسائل الاعلام في موضوعنا قادرة على ان تسهم اسهاما لا حد له في خدمة اللغة وتصحيحها والارتفاع بها على ألسنة العامة . . انها المدرسة التي لا تحتاج الى إلزام ، لانها ملزمة بطبيعتها ، ولا تحتاج الى قانون لمحو الامية . . وكل الذي تحتاج اليه ان توضع في مواضعها ، وان تسخر لغاياتها ، وان يداخل المسؤ ولين عنها ايمان عميق بقدرتها في هذا الميدان واستثمار هذه القدرة.

ومن الخير ان نراجع هنا ، للافادة من بعض التفاصيل والمبادىء ، نتائج الدراسات

التي نهض بها مجمع القاهرة في دورته الاخيرة التي خص بها هذا الموضوع ، حتى نتجنب التكرار والاعادة .

## ٢ ـ اتجاه الدولة

ان كل الذي تقدم لا يغني ولا يسمن اذا كانت السلطة في بلد عربي ما لا ترى سيادة العربية على هذا النحو . . ان سلطان الدولة هنا له وزنه الاكبر . . ومنذ القدم شاعت عندنا مقولة ان الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن .

ان اي قدر من هذا الذي مضى الحديث عنه لا يتحقق على وجهه الاكمل اذا لم تبدأ به الدولة في مؤسساتها وقراراتها ومنشوراتها وخطب رؤسائها . . اي اذا لم ينطلق من روحها ، من ايمانها . . ولم تقصد منه الى الاهداف الكبرى ، الى تأصيل الوحدة في معانيها اللغوية التي هي تأسيس لمعانيها السياسية .

ان الحديث عن سلامة اللغة ومكانتها ، والعمل في الاتجاهات المضادة من مثل التأكيد على الادب الشعبي ، وتمجيد مظاهر بقايا الفولكلور اللغوي واتاحة المساحات له في وسائل الاعلام . . اما هذا كله فلون من الضلال الذي يصاب به العمل العربي في وجوهه كلها .

## ٣ ـ الفصحى والعامية

بقي في اعقاب هذا كله موضوع يوليه بعض الباحثين اهتماما عريضا ، ويبدؤ ون فكرة خدمة اللغة العربية منه . . وهو موضوع الفصحى والعامية .

والغريب ان هذا الموضوع منطلق مشترك بين اخصام العربية واصدقائها . . بين الذين يدافعون عنها والذين يدافعونها . . فأولئك وهؤلاء يبدؤ ون تحركهم من هذه الازدواجية ، ويستخدمونها في اتجاهين متضادين : الدفاع والهجوم .

ان وجه الحق في هذا الموضوع ليس خفيا . . ولكن حين تتراكم من فوقه الوان من الكتابات والمعالجات ، البريء منها والمغرض ، فان قسمات هذا الحق لا تلبث ان تختفي وتغيب القضية الاصلية لتنشأ فوقها جملة من القضايا الفرعية او المستجدة .

اليس هذا هو الذي حدث هنا ؟ . . الم تخرج قضية الفصحى والعامية الى قضايا اخرى . . قضايا الذين يكتبون بالعامية والذين يوصفون بأنهم يخدمون الابداع الفني ، وانهم يلتزمون بقضايا الجماهير ، وانهم . . وانهم . . الى حد ان اخرجوا اللغة عن وظيفتها القومية الكبرى ليقول واحد منهم من الذين عرفوا بتشتيت الفكر العربي والخروج به عن محاوره القومية ، في احدى المجلات الواسعة الانتشار : ان اللغة لا تحدد هويتي السياسية ، وكأنه يريد ان يقول انها لا تحدد هويتي القومية .

فما هو هذا الفصل الجديد في مجتمع عربي سليم بين الهوية اللغوية والهوية

السياسية ؟ . . ولم هذا التعقيد والتفريع ان لم يكن اسلوبا من اساليب القفز فوق الموضوع الاصلي ، وشده الى اتجاهات اخرى تبتعد به عن محوره ؟ . . واذا كان في وسعي ان اكتب بالعربية ، فلماذا اكتب بالعامية اذا كنت صحيح الايمان بالعربية ومكانتها وموقعها من الحياة ؟

وكذلك يخرجون بموضوع الفصحى والعامية من معالجته الى تسويغه وتبريره ، وايجاد المبررات من خلال اعمال بعض الادباء الذين كتبوا بالعامية لظروف خاصة .

ان العامية حالة طارئة ، وهي حالة قلقة ليس لها جذور ولا اصول تستقي منها وتتغذى بها . . والجذور الاصلية التي ترتوي منها هي الاصول الفصحى او المرتبطة بالفصحى . . ومن هنا سهولة معالجتها وطرائق التخلص منها .

انها قضية تحمل في ذاتها عوامل اختفائها . . ويكفي ان نعرف ان بداياتها كانت من الجهل لتصل من ذلك الى معالجتها والى تحقيق نهاياتها . . فكل وسائل المعرفة في المدرسة ـ على اختلاف مراحلها ـ وكل وسائل الايصال في الحياة على اختلاف انواعها ، وكل روح المجتمع الذي يتحرك بدوافع الوحدة ـ كل ذلك عوامل للتخفيف من العامية تمهيدا للخلاص منها والعودة الى السلامة اللغوية . . وقد وجدنا بوضوح كيف استطاعت وسائل الاعلام ، في الجانب الايجابي منها ان تخفف من فروق ما بين الفصحى والعامية .

اننا لا يمكن ان نخضع لغتنا لانظمة اللغات الاخرى ولا ان نطبق عليها القوانين ذاتها . ان العامية عندنا حالة مرضية . . وليقل علماء اللغة ما شاؤ وا فانما يقولون مدفوعين بدافعهم ، وينظرون مشدودين الى لغاتهم . . ولعل الاسطورة الكبيرة التي تريد ان تقتحم تفكيرنا هي اسطورة ان اللهجة لغة ، وان العامية قدر ، وانها حركة طبيعية تؤصل بالدراسة وتتوج بالاقرار .

قضية العامية ليست ورقة حية في مجتمع عربي سليم ، ولا يمكن ان تكون . . انها اشبه بالاوراق المريضة او اوراق الخريف لا تلبث ان تسقط مع اول هبة ريح . . والتعليم هو هذه الهبة المرتجاة .

اما الحرص على تضخيم الموضوع وفلسفته وقياسه على اللغات الاخرى والاحتجاج ببعض الحالات الفردية والاحتماء بها من وهج الحقيقة وطرح مجموعات من الاسئلة فهو نوع من الارباك ، من التعمية فليس هناك اي خط يمكن ان يصل بين العامية والمجتمع العربي المنشود . . لان العامية ليست واقعا لغويا سليما او ثابتا والمجتمع المنشود انما يقوم على الركائز السليمة الثابتة .

العامية في خلاصة الامر مرحلة من مراحل الامية والشعوبية والنزعات المحلية فكيف يحاولون تسويغها ؟ !

# تعقيب ١
# المعجم العربي

هاشم طه شلاش

ان الموروث اللغوي الذي يمثل احوال العرب قبل الاسلام وبعده ، كبير دفع علماء اللغة في العصر العباسي الى ان يتفننوا في تصويره برسائلهم وكتبهم ، حتى وصل التأليف في اللغة مرحلة لم نجد في حينها امة من الامم وصل التأليف اللغوي عندها الى ما وصل اليه عند علماء العربية . فقد حكي عن الصاحب بن عباد ان بعض الملوك ارسل اليه يسأله القدوم عليه ، فقال له في الجواب : « احتاج الى ستين جملا انقل عليها كتب اللغة التي عندي » . ومهما يكن من امر هذا الخبر فانه ينقل صورة واضحة عن اتساع الموروث اللغوي عند العرب بشكل غير مألوف عند غيرهم .

لقد أعجب العرب بلغتهم اعجابا كبيرا جعلها موضع فخرهم واعتزازهم واهتمامهم ، وقد ابرزت الاخبار المتوافرة عن المجتمع العربي الجديد بعد الاسلام هذا الاعجاب الذي دفع كثيرا منهم الى ان يجولوا في ميادين الفصاحة لجمع الفاظ اللغة من افواه العرب الفصحاء ، فقد قيل في الاصمعي ( المتوفى سنة ثلاث وعشرة ومائتين ) : « ان اكثر سماعه من الاعراب واهل البادية »[١] . وقيل في ابي زيد الانصاري ، المتوفى سنة خمسة عشرة ومائتين ) انه « كان احفظ الناس للغة واوسعهم رواية واكثرهم اخذا عن البادية »[٢] .

وكان هذا الحرص على جمع الفاظ اللغة ومعانيها ممهدا لظهور المعجم العربي الذي برز وتنامى ، واصبح في وضعه الاخير ـ الذي يمكن ان يمثل بـ **تاج العروس** لمرتضى الزبيدي

---

(١) ابو سعيد الحسن بن عبدالله السيرافي ، **اخبار النحويين البصريين ومراتبهم واخذ بعضهم من بعض** ، ص ٥١ .

(٢) ابو الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي الحلبي ، **مراتب النحويين [اللغويين]**، ص ٤١ .

( المتوفى سنة خمس ومائتين بعد الالف ) ، الموسوعة اللغوية الحضارية ، التي تصور مختلف فنون المعرفة التي حصل عليها العرب في عصور ازدهارهم .

قلنا : ان الجمع اللغوي مهد لظهور المعجم العربي ، اذ بدأ علماء اللغة العربية بجمع مفرداتها عن طريق المشافهة لحصر المستعمل من كلام العرب . ثم تبع ذلك تصنيف الرسائل اللغوية الصغيرة التي تصور امورا كثيرة تتعلق بأحوال العرب وعاداتهم وصفاتهم واخلاقهم ووسائل عيشهم ، فظهرت كتب الغريب والاضداد والحيوان ، والنبات ، والنوادر ، والتذكير ، والتأنيث ، والافراد ، والتثنية ، والجمع ، وابنية الافعال ، وابنية الاسماء ، وغيرها . . .

وبرز بعد ذلك عمل المعجميين الذين جمعوا المواد اللغوية من الرسائل اللغوية المكتوبة ومن مشافهتهم العرب الفصحاء فاستوعبوا ما وصل اليهم من الفاظ اللغة ومعانيها في كتب سموها ( المعجمات ) .

والواضح تماماً ان الغرض من تأليف هذه المعجمات هو خدمة اللغة العربية وتقويمها وتقديمها موثقة بوسائل متعددة من جهة ، وخدمة الانسان العربي الذي يمكن ان يفيد من هذه المعجمات عن طريق حصر اللغة وتيسير مناهج التأليف فيها من جهة اخرى .

فالواضح من **كتاب العين** للخليل بن احمد الفراهيدي ( المتوفى سنة خمس وسبعين ومائة ) ان التأليف المعجمي عند العرب من ابتكار العقلية العربية وان الاسلوب الذي جمع به الخليل لغة العرب غير متأثر بأساليب امم اخرى، اذ استطاع هذا الرجل البصري النشأة والثقافة ان يحصر الفاظ العربية مستخدما اسلوب التقليب اساسا لهذا الحصر ، واستطاع ان يعرف المهمل والمستعمل من الاصوات التي يلوكها اللسان العربي ، وقد ابتدع الخليل بن احمد نظامه المعجمي هذا في وقت لم يكن لاية لغة اوروبية ما يعرف بالقاموس او المعجم .

اما الازهري ( المتوفى سنة سبعين وثلاثمائة ) فقد سعى الى تنقية اللغة من الشوائب التي تسربت فيها معتمدا على ما سمع من الاعراب الذين اختلط بهم سنوات عدة وعلى ما رواه عن الثقات من اللغويين[٣] . ويمكن ان يقال مثل ذلك في **تاج اللغة وصحاح العربية** للامام اسماعيل بن حماد الجوهري ( المتوفى في حدود سنة اربعمائة هجرية ) الذي رمى من معجمه الى جمع ما صح عنده من اللغة بعد مشافهة العرب العاربة في ديارهم بالبادية[٤]. والمعروف ان المعجمات العربية سارت من حيث انظمة تأليفها في طرق مختلفة هي نظام المخارج الصوتية والنظام الالفبائي ونظام الباب والفصل . ولا نريد ان نتحدث عن طرق التأليف هذه فهي مسائل معروفة لدى الدارسين لكننا نقول : لم تكن الغاية من النظام

(٣) محمد بن احمد الازهري ، **تهذيب اللغة** ، ج١ ، ص ٦ - ٧ .

(٤) اسماعيل بن حماد الجوهري ، **الصحاح** ، ج١ ، مقدمة المؤلف ، ص ٣٣ .

الالفبائي ونظام الباب والفصل الا تيسير مناهج التأليف المعجمي بما يسهل تناول المعجم العربي على الدارسين بعدما عرف من وعورة الطريق الذي اتبعه الخليل في معجمه ومن صعوبة تناول هذا المعجم عند الدارسين .

وقد استخدم المعجميون وسائل متعددة لتوثيق المواد اللغوية . فقد كانت الرواية المباشرة عن اصحاب اللغة من العرب الفصحاء وسيلة مهمة من وسائل التوثيق عند المعجميين المتقدمين كالازهري في **التهذيب** والجوهري في **الصحاح** . وقد ضعف هذا الاسلوب في المعجمات المتأخرة من عصري الازهري والجوهري . وان كان في معجمات المتأخرين سماع فهو قليل لا يستحق الذكر ، وسبب ذلك ان علماء اللغة استوفوا المادة اللغوية التي تمثل عصور النقاوة اللغوية . يزاد على ذلك ان الثقات من رواة اللغة عُدموا في العصور المتأخرة . اما ما يذكره اصحاب المعجمات المتأخرة ومنهم ـ الزبيدي صاحب التاج ـ فهو صبابات باقية لا تروي عطشا ، والاعتماد عليها لا يخلو من تعسف ما لم يدعمه نقل آخر تشير اليه المعجمات المتقدمة .

وللتمثيل على السماع ننقل كلام الازهري في **التهذيب** ، وهو قوله : « وقد دعاني الى ما جمعت في هذا الكتاب من لغات العرب والفاظها خلال ثلاث منها : تقييد نكت حفظتها ووعيتها عن افواه العرب ، الذين شاهدتهم واقمت بين ظهرانيهم سنيات ، اذ كان ما اثبته كثير من ائمة اللغة في الكتب التي ألفوها والنوادر التي جمعوها لا ينوب مناب المشاهدة ولا يقوم مقام الدربة والعادة »(٥) . واشار الى ان العرب الذين التقاهم من هوازن وتميم واسد ، وانه افاد من مخاطباتهم ومحاورة بعضهم بعضا الفاظا اوقع اكثرها في مواقعها من الكتاب .

وننقل ايضا كلام الجوهري في مقدمة **الصحاح** ـ وهو قوله « اودعت هذا الكتاب ما صح عندي من هذه اللغة . . بعد تحصيلها بالعراق رواية ، واتقانها دراية ، ومشافهتي بها العرب العاربة في ديارهم بالبادية »(٦) .

وقد نالت الفاظ اللغة ـ في قسم من المعجمات ـ اهتماما يشبه في بعض جوانبه الاهتمام برواية الحديث النبوي ، فقد عرفت الدقة في رواية الحديث النبوي وفي تحقيق نصوصه ، عن طريق روايته بالاسانيد المتواترة وعن طريق دراسة احوال نقلة الحديث بما يضمن صحة الحديث . وقد كانت احدى وسائل التوثيق اللغوي في المعجم في المدة الواقعة قبل نهاية القرن الرابع الهجري ، رواية اللغة بالاسانيد المتصلة بالعرب الفصحاء ، وقد كان الرواة الذين نقلوا المادة اللغوية ممن عرفوا بالدقة والعلم وحسن السيرة والصدق في الرواية . وقد بنى ابو منصور الازهري جانبا كبيرا من معجمه **تهذيب اللغة** على ذلك فهو يقول مثلا :

---

(٥) الازهري ، **تهذيب اللغة** ، ج١ ، ص ٦ .

(٦) الجوهري ، المصدر نفسه ، ج١ ، مقدمة المؤلف ، ص ٣٣ .

« واخبرني ابو الفضل المنذري عن الحراني عن ابن السكيت انه قال»[٧] ، ويقول ايضاً : « قال ابو عبيد فيما اخبرني به عبدالله بن محمد بن هاجك عن احمد بن عبدالله بن جبلة عنه انه قال : قال الاصمعي . . .»[٨] .

وقد دعم قسم من اصحاب المعجمات الالفاظ اللغوية ومدلولاتها بالرؤية والمشاهدة . وقد صور لنا قسم منهم كثيرا من مظاهر الطبيعة تصويرا دقيقا ربطوا فيه بين اللفظة وحقيقة معناها معتمدين في ذلك على معرفتهم بتلك الامور، فقدموا لنا صورا دقيقة للنباتات والحيوانات التي شاهدوها وربطوا بين الالفاظ اللغوية وبين مدلولاتها بكل دقة وامانة . ومراجعة **التهذيب** للازهري **والعباب** للصغاني **وتاج العروس** للزبيدي توضح الكثير مما نقول .

والواضح من قراءة **التاج** للسيد مرتضى الزبيدي ان الرجل جوَّل في الهند واليمن والحجاز ومصر وبلاد الشام[٩] ، واطلع على كثير من المعالم الحضارية لتلك البلدان ، واطلع ايضا على طبيعة حياة اهلها ، ومآكلهم ومشربهم ومصنوعاتهم ومحصولاتهم الزراعية ، فصور ذلك وضبط كثيرا من الالفاظ التي تمثل مختلف انماط حياتهم بعد مشاهدتها ، وللتمثيل على ذلك نذكر ما يأتي : ذكر ابو حنيفة الدينوري عن بعض اعراب اليمن الراءة شجيرة ترتفع على ساق ثم يرتفع لها ورق مدور احرش ، ونقل ابو حنيفة عن غيره « انها شجيرة جبلية كأنها عظلمة ولها زهرة بيضاء لينة كأنها قطن » ، ونقل ابن الطيب الفاسي شيخ الزبيدي عن صاحب النور : « ان هذه الشجرة التي وصفها ابو حنيفة هي ( العشر ) في غالب الظن وانه رآها بأرض البركة خارج القاهرة وهي تتفتق عن مثل قطن يشبه الريش في الخفة » ، ورأى من يجعله في اللحف في القاهرة . وعقب الزبيدي في **التاج** على ذلك بقوله : « قلت وما ذكره شيخنا هو الصحيح فإن الراء غير العشر وقد رأيت كليهما باليمن ومن ثمر كل منها تحشى المخاد والوسائد الا ان العشر شجر يبدو صغيراً ثم يكبر حتى يكون كالباذنجانة ثم يتفتق عن شبه قطن ، وثمر الراء ليس كذلك والعشر لا يوجد بارض مصر كما هو معلوم عندهم ، وهما من خواص ارض الحجاز وما يليها ، ومن ثمر الراء تحشى رحال الابل ، وغيرها في الحجاز »[١٠] .

والظاهر ان هذه الوسيلة من وسائل التوثيق اللغوي عمت اكثر المعجمات ولكنها اتسعت في المعجمات المتأخرة ، لذلك رأينا الصغاني في **العباب** والزبيدي في **التاج** يكثران من نقل مشاهداتهما في اثناء تجوالهما في الاماكن التي شدا الرحال اليها او حلا فيها .

ان اكبر مصدر من مصادر المعجم العربي هو النقل من الكتب وقد اختلفت اعداد

---

(٧) الازهري ، **تهذيب اللغة** ، مادة « عقق » .

(٨) المصدر نفسه .

(٩) ابو الفيض مرتضى بن محمد الزبيدي ، **تاج العروس من جواهر القاموس** ، تحقيق عبد الستار احمد فراج وآخرون ، راجعته لجنة فنية من وزارة الارشاد والانباء ، ١١ج ، التراث العربي ، ١٦ ( الكويت : مطبعة حكومة الكويت، ١٩٦٥ ـ ١٩٧٧ ) ، الباب المعقود لحياة الزبيدي .

(١٠) المصدر نفسه ، مادة « روأ » .

المصادر التي اعتمد عليها المعجميون في نقل مواد اللغة كلما تقدم الزمن بالمعجم العربي . وسبب ذلك اتساع حركة التأليف في مختلف علوم الانسانية ، لذلك رأينا الازهري في **التهذيب** يعتمد في نقل المادة اللغوية على مائة وعشرين مصدرا ، في حين ان مصادر **العباب** للصغاني تجاوزت هذا العدد بكثير[11] ، واذا كان **لسان العرب** لابن منظور قد اعتمد في نقل المادة اللغوية ، على خمسة مصادر اساسية فان مادته في الحقيقة منقولة عن مئات المصادر اللغوية اذا وضعنا في الحسبان مصادر مصادره ، اما **القاموس المحيط** فقد صرح الفيروز ابادي في مقدمته انه خلاصة الفي مصنف من الكتب الفاخرة[12] . وقد عقب الزبيدي على ذلك بقوله : « اي زيادة على ما ذكر في العباب والمحكم والصحاح من مؤلفات سائر الفنون »[13].

اما الزبيدي في **التاج** ، فقد اعتمد في نقل مادة كتابه على اكثر من خمسمائة مصدر من مختلف العلوم والفنون ، واذا وضعنا في الحسبان مصادر هذه المصادر كان تعداد مصادره عدة آلاف .

نخرج من ذلك بنتيجة هي ان المادة اللغوية اتسعت اتساعا نسبيا كلما تقدم الزمن بالمعجم العربي ، وكلما كثرت مصادره فقد صرح الزبيدي في **التاج** [14] ان **صحاح الجوهري** اشتمل على اربعين الف مادة لغوية وان **القاموس المحيط** اشتمل على ستين الف مادة وان **لسان العرب** لابن منظور اشتمل على ثمانين الف مادة ، في حين ان **تاج العروس** للزبيدي اشتمل على مائة وعشرين الف مادة[15] .

لقد كانت الغاية من وضع المعجم العربي في الاساس تسجيل الالفاظ العربية التي كان يلوكها اللسان العربي في عصور النقاوة اللغوية والمحافظة على صفاء اللغة ونقائها . وقد تم تسجيل تلك الالفاظ من خلال القرآن الكريم والحديث النبوي والشعر والنثر العربيين ومن خلال لغات القبائل العربية التي استمرت محافظة على فصاحتها حتى القرن الرابع الهجري ، وقد استطاع المعجم العربي في ذلك الوقت ان يصور الكثير من المعالم الحضارية للعرب انفسهم ، فصور معالم الحياة الاجتماعية والتجارية والثقافية فضلا عن تصويره مظاهر الطبيعة من حيوان ونبات ، وجبال وانهار ، وصحارى ووديان ، وقدم للاجيال التالية ثروة لغوية كبيرة تمثل لغات القبائل العربية المنتشرة آنذاك في مواطن كثيرة من الجزيرة العربية .

ولم تقف اللغة العربية عند هذا الحد في تصوير معالم الحياة العربية بل اتسعت اتساعا كبيرا خلال التطور الذي عرفه المجتمع العربي في العصر العباسي ، فقد اتسعت ميادين

---

(١١) المصدر نفسه ، المقدمة ، ص ج و د .

(١٢) ابو الطاهر محمد بن يعقوب الفيروزأبادي ، **القاموس المحيط** ، « المقدمة » .

(١٣) الزبيدي ، **تاج العروس من جواهر القاموس** ، ج ١ ، ص ١٢١ ـ ١٢٢ .

(١٤) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٧٢ .

(١٥) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٧٣ .

الحضارة وكبرت رقعة الثقافة فجدت علوم كثيرة لم يكن يعرفها المجتمع العربي من قبل. فظهرت علوم العربية كالنحو والصرف والبلاغة والعروض والخط ، وظهر الاهتمام بالادب وتاريخه ، ونقده ، وكثر الادباء والنقاد ومؤرخو الادب ، وانتشرت مؤلفاتهم ، وظهرت الدراسات القرآنية والدراسات الحديثة والفت الكتب الكثيرة في التفسير وعلوم القرآن وعلوم الحديث وما يتصل بذلك من علوم اخرى. والتفت المجتمع المتطور الى اهمية علوم الحيوان والنبات والطب والفلك والبلدان والانواء والجغرافية والتاريخ والانسان وغيرها من العلوم المختلفة ، فألفت الكتب الكثيرة التي استوعبت جميع مظاهر الحياة الجديدة التي ظهرت في المجتمع العربي الجديد .

وقد تأثرت اللغة العربية ، بعد الفتح العربي لكثير من بلدان المشرق والمغرب ، بلغات شعوب البلدان المفتوحة فتلقحت اللغة العربية بشيء قليل من خصائص تلك اللغات ، فظهرت في العربية الفاظ دخيلة ، واجرى العرب تغييرات على الالفاظ الدخيلة بما يلائم ابنية العربية واصواتها فظهرت الالفاظ المعربة .

وتأثرت العربية ايضا ببعض العلوم الجديدة التي كانت من نتاج عقليات امم اخرى فدخلت تلك العلوم الى العربية عن طريق الترجمة فعرفت الفلسفة وعرف المنطق ودخلت الى العربية مصطلحات جديدة من هذين العلمين لم تكن معروفة في العربية من قبل .

ومن كل ما سبق تكونت الحضارة العربية التي جمعت بين الاصالة من جهة وبين الاقتباس من جهة اخرى ، وقد اثرت هذه الحضارة اللغة العربية اثراء كبيرا فظهرت في العربية الفاظ جديدة ومصطلحات علمية غزيرة ، اصبحت فيها بعد مادة من مواد المعجم العربي . فانتقل المعجم العربي من معجم لغوي الى معجم حضاري ، يجمع بين الفاظ اللغة من جهة ، ومصطلحات العلوم المختلفة ومظاهر الحياة العلمية الجديدة التي جدت بتجدد المجتمع العربي المتطور من جهة اخرى . وكان **العباب** للصغاني **والقاموس المحيط** للفيروزابادي **وتاج العروس** للزبيدي خير شاهد على القواميس الحضارية التي عرفتها اللغة العربية في تاريخها الحضاري الطويل .

والملاحظ في العربية كثرة المعجمات التي توالت بعد كتاب **العين** ، ولم يقف التأليف المعجمي الى الوقت الحاضر ، واذا اردنا الاستشهاد ببعضها ذكرنا **العين** للخليل **والبارع** للقالي ، **والتهذيب** للازهري **والجمهرة** لابي دريد **والمقاييس والمجمل** لابن فارس **وديوان الادب** للفارابي **والصحاح** للجوهري **والمحكم** لابن سيده **والمحيط** لابن عباد **والتكملة والعباب** للصغاني **والمصباح** للفيومي **ولسان العرب** لابن منظور **والقاموس المحيط** للفيروزابادي **وتاج العروس** للزبيدي ، **ومعجمات الافعال** لابن القطاع ، وابن القوطية والسرقسطي وابي جعفر اللبلي وغيرها . ويتبع ذلك مئات الشروح والمختصرات والمستدركات والحواشي على الكتب المذكورة آنفاً .

اما في العصر الحديث فتطالعنا في المعجمات الآتية : **المنجد والبستان واقرب المواد ومحيط المحيط ومعجم متن اللغة والوسيط** وغيرها .

ولا شك ان كثرة المعجمات العربية ظاهرة متميزة في العربية ولعلنا لا نكون مخطئين اذا عزونا ذلك الى ما يأتي :

١ ـ الرغبة في استيعاب المادة اللغوية وما يدور حولها من مسائل تتعلق بها : لقد كان الاهتمام الاول للمعجميين حصر المواد اللغوية التي نطق بها العرب ، سواء اكان ذلك عن طريق النقل من الكتب ، ام عن طريق مشافهة العرب الفصحاء في مواطن سكناهم ، وقد حصر الخليل بن احمد المواد اللغوية التي طرقت سمعه او وصلت اليه عن طريق الرواة واغفل الكثير مما لم يصل اليه فكان ذلك دافعا لمن جاؤ وا بعده على ان يستدركوا عليه شيئا مما اغفله وكان ذلك ايضا دافعا لان يستدرك اللغويون بعضهم على بعض ما يمكن ان يكون قد وقع تحت طائلة النسيان ، او الاغفال ولذلك كثرت المعجمات واتسعت تدريجيا ، حتى وصلت الى ما وصلت اليه في **لسان العرب** لابن منظور **وتاج العروس** للزبيدي .وتبع ذلك شعور بعض المعجميين بتقصير السابقين في اهمال تسجيل الالفاظ المتصلة بمظاهر الحضارة العربية الاسلامية لان هؤلاء كانوا يرون ان المعجم العربي ديوان العرب الحضاري واللغوي في آن واحد .فالدارس يستطيع ان يعرف مفردات لغته ومعانيها ، ويستطيع ان يعرف ايضا اشياء كثيرة عن معالم حضارة امته فيتعرف المدن والبلدان المتحضرة واعلام الرجال والنساء ممن كان لهم اثر في حضارة امتهم ، يزاد على ذلك مصطلحات العلوم العربية الاسلامية كالفيزياء والكيمياء والطب والرياضيات والفلك والشريعة والنحو والصرف والعروض والبلاغة وغيرها وما يتفرع مع ذلك من ابواب وفصول . وخير شاهد على ذلك **القاموس المحيط** للفيروزابادي **وتاج العروس** للزبيدي .

٢ ـ حركة التصحيح اللغوي والاهتمام بتخليص لغة العرب من الشوائب التي علقت بها بسبب التصحيف والتحريف ، لذا نشطت حركة التصحيح اللغوي في المعجم العربي ، فالازهري ينقد **العين** والصغاني والفيروزابادي ينقدان **الصحاح** والزبيدي ينقد **القاموس المحيط** .

واتخذ اصحاب المعجمات على عواتقهم تأمين صحة المادة اللغوية في المعجمات العربية ، اذ ليس من الصحيح ان يتناقل الناس مفردات اللغة وقد دخلها التصحيف والتحريف ، لذا بنى قسم من المعجميين معجماتهم على اساس متين هو تحقيق كل ما من شأنه ان يكون مادة لغوية في تلك المعجمات ، فعرضوا للغة وعرضوا لأشهر مصادرها وكان بعضهم يطمح ان يحصل على عدة نسخ من كل مصدر من مصادر كتابه ليقابل النصوص اللغوية بعضها على بعض . فابن منظور مثلا اعتمد في تأليف **اللسان** على خمسة مصادر هي **صحاح** الجوهري **وتعليقات** ابن بري **والنهاية** لابن الاثير والتهذيب للازهري **والمحكم** لابن

سيده . واستطاع ان يحصل على اكبر عدد من النسخ الموثوق بها من كل مصدر من مصادره الخمسة[١٦] ، وبهذا استطاع ان يحقق لكتابه الشهرة في الدقة والامانة والصحة . والزبيدي اعتمد في تأليف **تاج العروس** على نسخ كثيرة من **القاموس المحيط** و**صحاح** الجوهري وغيرهما من الامهات اللغوية ، واستطاع ان يحصل على نسخ مكتوبة بخطوط رجال عرفوا بحسن الخط ودقته ، فحصل على نسخة من **صحاح** الجوهري لياقوت الرومي ، وعلى نسخة من التكملة للصغاني بخط المؤلف وعلى غيرها من النسخ الاخرى .

ولم يكتف المعجميون بمقابلة المادة اللغوية بل انتقلوا الى الشواهد المختلفة التي تدعم تلك المادة وتقومها ورأوا ان التحقيق يجب ان يشمل هذا الجانب ، اذ لا قيمة للمادة اللغوية من دون التفتيش عما يقوم هذه المادة ويعطيها الحياة ، فالتفتوا الى شواهد القرآن الكريم وشواهد الحديث النبوي والامثال وشواهد الشعر والنثر التي اهتموا بنسبتها الى قائليها ، وبيان الاختلاف في نسبتهاوروايتها، ولما كانت المصادر كثيرة فقد تنوعت الموضوعات تنوعا كبيرا . ولم تبق المادة اللغوية وحدها هي الواقعة في مجال التحقيق وانما تعدى الامر ذلك الى الاهتمام بالاعلام وبخاصة اعلام الرجال والنساء ، واسماء المدن والمواضع والقرى والادواء والادوية ، والمعجميون في كل ذلك يعرضون المادة المنقولة على بساط البحث والمقابلة فيصوبون ويخطئون ، وخير شاهد على ذلك **تهذيب** الازهري و**عباب** الصغاني و**تاج العروس** للزبيدي .

٣ - تنوع مناهج التأليف المعجمي : اذ المعروف ان المعجمات سارت من حيث انظمة تأليفها في طرق مختلفة وان هذا التنوع في انظمة التأليف كان سببا من اسباب كثرة المعجمات .

هذه رحلة سريعة في بطون المعجمات العربية ، كشفت عن وعي قومي كان الدافع لدراسة اللغة العربية والتأليف فيها ، وكشفت عن اثر المعجمات العربية في تأكيد هذا الوعي ، واثارته في نفوس ابناء الوطن العربي ، اذ قدم المعجم العربي صورة حضارية لكل بقعة من بقاعه ، جعلت الانسان العربي يتعرف ملامحها بدقة وينظر اليها باعجاب وفخر وهو جالس في بيته في اي قطر من اقطار الوطن الكبير .

---

(١٦) انظر على سبيل التمثيل المواد : « بلهص » و« ابس » و« طوى » و« برد » و« ربع » و« صندم » و« عدد » و« عصد » و« عهب » و« غثث » و« نجرج » و« ربح » و« بوأ » و« خطب » و« ربب » و« نور » و« عبقر » .

# تعقيب ٢
# الأرقام العربية ووحدة استعمالاتها[*]

محمد حسن آل ياسين

## ١ ـ الارقام ونشأة علم الحساب

شعور الانسان بالحاجة الى الحساب والعد شعور فطري نما في وجدانه منذ اوائل عهده بالعيش على سطح هذه الارض ، وزاد احساسه بذلك منذ تجاوزت شؤونه الحيوية حدودها البدائية الاولى ، وأصبح له من الاخذ والعطاء والتعامل مع الآخرين ما لا بد فيه من حساب وتعداد .

وفي هدي هذه الحاجة الماسة بدأت مسيرة علم الحساب ، مواكبة مسيرة الانسان في تاريخه المديد العريق .

ويروي الباحثون ان البابليين كانوا في مقدمة الامم القديمة التي عنيت بهذا العلم وأولته ما يستحق من اهتمام وجهد ، وكان من نتائج اهتمامهم هذا وضع عدد من القواعد والانظمة والضوابط الحسابية ، على نحو أثار اعجاب المعنيين وإكبارهم[١] .

ثم كان للمصريين القدامى ولليونانيين بعد ذلك عناية فائقة بهذا العلم ، كما كان للهنود دور كبير بل نصيب وافر في هذا الميدان ، ويذكر المؤرخون بالتقدير والاحترام اسم الرياضي الهندي ( اريابهاتا ) الذي سطع نجمه في القرن الخامس الميلادي و ( برهما جويتا ) في القرن السابع الميلادي[٢] .

---

(*) كتب هذا التعقيب للندوة ولم يقدم خلال جلساتها .

(١) قدري حافظ طوقان ، **تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك**، ط ٢ ( القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٤)، ص ٢٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٠ ، ومحمد بن موسى الخوارزمي ، **الجبر والمقابلة** ، تقديم علي مصطفى مشرفة ومحمد مرسي احمد ( القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٦٨ ) ، ص ٢ و٧ ـ ٨ .

ولعل ابرز شيء قام به الهنود في الرياضيات نظامهم العشري في الترقيم[٣] ، ذلك النظام الذي يمكن وصفه بالثورة او الطفرة في علم الحساب . غير انهم ـ مع ابداعهم هذا ـ لم يستطيعوا الاتفاق على شكل واحد معين للارقام المتداولة بينهم « فكان لديهم اشكال متعددة للاعداد »[٤] .

اما العرب القدامى فلم يكونوا اقل التفاتا لهذا الامر من غيرهم ، ولكننا لم نجد من اخبارهم في هذا الصدد ما يسبق تاريخ ظهور الخط المعروف بـ ( المسند ) في حدود المائة العاشرة قبل ميلاد السيد المسيح ( عليه السلام ) ، على وجه التقريب ، والشواهد الباقية مما كتب بهذا الخط أو القلم ليست كافية في ايضاح الملامح التفصيلية لانجازهم العلمي في هذا الموضوع ، لان الباحثين لم يعثروا حتى اليوم على نص يحمل علامات كسور الاعداد ، او يدل على استعمال علامات خاصة بالجمع او الطرح او القسمة او الضرب ، أو علامات للتربيع او للجذور ، وامثال ذلك من العلامات المستعملة في الرياضيات[٥] . غير ان هذا لا ينفي القول بالعناية التي اولوها هذا الجانب من جوانب المعرفة ، وحسبنا دلالة على ذلك استعمالهم صورا خاصة بالارقام في كتاباتهم بدلا من استعمال الكلمات في التعبير عنها[٦] .

وعندما شعر العرب بالحاجة الملحة الى الحساب ـ بعد انتشار رسالة الاسلام وقيام الدولة الكبرى ـ لم يكن لديهم ما يرمزون به الى الاعداد ، لبعد العهد بـ ( المسند ) حروفه وارقامه ، وانقطاع الصلة بكل ما يؤول اليه ، فبادروا بادىء بدء الى اعطاء حروفهم الابجدية قيما حسابية معينة ، يستعينون بها على قضاء حوائجهم وضبط تواريخهم وتيسير مهماتهم ، فكانوا يرمزون الى الواحد بحرف الالف والى الاثنين بحرف الباء والى الثلاثة بحرف الجيم . . . الخ ، واطلقوا على ذلك اسم ( حساب الجمّل ) .

وبفضل من الروابط العقيدية التي وحدت تلك الرقاع الشاسعة من آسية وافريقيا وقسم من اوروبا خلال قرن واحد من الزمن ، بدأت هذه الشعوب تعزز تقاربها وتوثق تعارفها ، وأصبح لعاصمة المسلمين الجديدة ( بغداد ) ـ منذ اواسط القرن الثاني الهجري ـ من سمو الشأن وقوة الجذب ما دفع رجال الفكر والحكم والصناعة والتجارة في كل حدب وصوب الى زيارتها والوقوف على ما تضمه جوانحها من علم ومعرفة وتحضر ، ووصلت الى هذه العاصمة

---

(٣) طوقان ، المصدر نفسه ، ص٣٥ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٣٥ .

(٥) جواد علي ، **المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام** ، ٩ج ( بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٦٨ ـ ١٩٧١ ) ، ج ٨ ، ص ٢٢٦ .

(٦) في صور ارقام المسند وفي شرح دلالاتها ، انظر : المصدر نفسه ، ج ٨ ، ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣ و٢٢٧ ـ ٢٢٨ .

المجيدة بفعل هذا التزاور والتمازج معارف تلك الشعوب وحضاراتها ، وكان من جملتها علم الحساب .

وعلى الرغم من جهلنا بالتاريخ المحدد الثابت لاستعمال الارقام العددية والعمليات الرياضية في العالم الاسلامي ، فالمظنون انه كان في بدايات العصر العباسي الاول . وقد حدثنا احد الباحثين عن وصول « اجزاء من كتاب وضعه راهب سرياني هو سويرس سبيخت سنة ٦٢٢م ، وهو في موضع من كتابه ينحي باللوم على قومه لشدة اعجابهم بكل ما هو روماني . وفي معرض التدليل على ان لدى غير الرومان ايضاً ما يستحق الاعجاب يذكر الراهب ان الهند بتسعة ارقام فقط يستطيعون ان يكتبوا اي عدد كائناً ما كان .

ومن هذا نستطيع ان نستنتج ان الارقام الهندية قد بدأت تتسرب اخبارها الى الشرق الاوسط في القرن السابع الميلادي »[٧] .

واذا كان معنى ذلك وصول اخبار علم الحساب الهندي في زمن سابق ، ثم وصول المعلومات نفسها بعد حين ، فمن الجدير بالملاحظة انّا لم نعثر في المصادر العربية القديمة المعنية بهذا العلم على أية اشارة لمؤلف او حاسب هندي ولا على اي لفظ سنسكريتي في مصطلحاته ، في الوقت الذي نجد فيها نقل العرب من علم الفلك الهندي بعض الالفاظ السنسكريتية واسماء عدد من الفلكيين الهنود ، ويعلل الدكتور احمد سعيدان ذلك : بأنه « لعل العرب لقنوا هذا العلم مشافهة من هنود يقيمون بين ظهرانيهم ويتكلمون العربية مثلهم »[٨] .

ومهما يكن من امر ، فالمستفاد من مجموع النصوص التاريخية ان رجال العلم في بغداد قد استحسنوا ما وصلهم من الهند في هذا الشأن ووجدوا فيه ما يستأهل الاهتمام بل الاقتباس ، فأخذوا منه ما رأوا فيه النفع والفائدة وكان في طليعة ذلك نظام الترقيم ، « اذ رأوا انه افضل من النظام الشائع بينهم ـ نظام الترقيم على حساب الجمّل ـ »[٩] . وكان شكل الارقام ـ كما ترجح الروايات التاريخية أو تؤكد بما هو اكثر من الرجحان ـ في مقدمة ما اقتبس من الهنود من قواعد هذا العلم واصوله ويكفينا مؤونة سرد النصوص والتطويل فيه ان نشير الى ان المؤرخ اليعقوبي قد نسب وضع هذه الارقام لاحد ملوك الهند[١٠] ، وان الاقليدسي سماها ( احرف الهند )[١١] ، وان ابن النديم عزاها الى السند[١٢] ، وان ابن الياسمين قد

---

(٧) احمد سعيدان ، « مراجعة كتاب نصير الدين الطوسي جوامع الحساب ، » الابحاث ( بيروت ) ، السنة ٢٠ ، العدد ٢ ( حزيران / يونيو ١٩٦٧ ) ، ص ١٠٣ .

(٨) المصدر نفسه ، ص ١٠٣ .

(٩) طوقان ، **تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك** ، ص ٣٨ .

(١٠) احمد بن ابي يعقوب اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي** ( النجف : ١٣٥٨هـ ) ، ج ١ ، ص ٦٦ .

(١١) الاقليدسي ، **الفصول في الحساب الهندي** ، تحقيق احمد سعيدان ( عمان : ١٩٧٣ ) ، ص ٣٨٦ .

(١٢) ابو الفرج محمد بن اسحق بن النديم ، **كتاب الفهرست في اخبار العلماء المصنفين من القدماء والمحدثين واسماء كتبهم** ، تحقيق رضا تجدد، ١٠ج في ١ ( طهران : مكتبة الاسولي ، ١٩٧١ ) ، ص ٢٠ .

عد ذلك في جملة ( اعمال اهل الهند )[١٣] ، وان نصير الدين الطوسي ذكر أنها ( منسوبة الى الهند )[١٤] .

وهكذا بدأ علم الحساب تاريخه الجديد الزاهر في بغداد .

ومن بغداد نفسها انطلقت المؤلفات الاولى الرائدة في هذا الميدان فتلقفتها ايدي الدارسين في كل مكان ، وزحفت جموع الخريجين الاوائل نحو الحواضر الاسلامية الكبرى في شرق البلاد وغربها فتحلق حولهم التلامذة ينهلون من نمير علمهم ما ينهلون .

وكان هذا كله من الحقائق المسلمة التي لا تحتاج الى مزيد بحث او بيان .

## ٢ ـ الجدل حول اصل الارقام العربية

غير ان العصر الاخير قد شهد بعض الشك او الجدل في جانب من الموضوع لم يكن موضع كلام او شبهه لدى الاجيال المتقدمة من السلف ونعني به البحث في تحديد ذلك الشكل الخاص الذي رسم به العرب الارقام يومذاك لمعرفة ما اذا كان هنديا محضا او معربا مختارا .

وقد روى المستشرق فيفري ان الهنود كانت لديهم عدة طرق في الترقيم ثم توصلوا « فيما بعد الى نظام تعدادي شبيه بنظامنا فيه ارقام ومراتب . . . وهذه الارقام تسمى النجارية كاسم الكتابة التي كانت تكتب معه » ، كما روى ان عدداً من الباحثين قد نسبوا « فضل هذا الترقيم للهنود . . وان العرب اخذوا عنهم طريقتهم هذه . على انه لا بد من الاشارة الى ان الاجماع ليس تاماً على اشكال الارقام نفسها »[١٥] .

وذكر الاستاذ ويبك : « ان العرب يستعملون مجموعتين من الارقام يطلقون عليهما معا اسم الحروف الهندية او حروف الغبار : مجموعة تنتشر في المشرق الاسلامي ، واخرى تنتشر في المغرب ومنها اخذت الصور التي يستعملها الاوروبيون ، وبين المجموعتين اختلافات في الشكل ظاهرة »[١٦] .

وذهب الاستاذ قدري طوقان الى ان العرب عندما وقفوا على الاشكال المتعددة للارقام الهندية قاموا بتشذيبها وتهذيبها « وكونوا من ذلك سلسلتين اشتهرت احداهماباسم الارقام الهندية . . . وعرفت الثانية باسم الارقام الغبارية »[١٧] .

---

(١٣) كتابه تلقيح الافكار ، وقد نشرت منه صفحتان مصورتان في مجلة اللسان العربي المغربية ضمن بحث : ابو فارس ، « دليل جديد على عروبة الارقام المستعملة في المغرب العربي ، » اللسان العربي ( الرباط) ، السنة ١٠ ، العدد ١ (١٩٧٣)، ص ٢٣١ ـ ٢٣٣ .

(١٤) سعيدان ، « مراجعة كتاب نصير الدين الطوسي : جوامع الحساب، » ص ١١٤ .

(١٥) فيفري ، «اشارات التعدد، » اللسان العربي، العدد ٢ (١٩٦٥)، ص ٧٥ ـ ٧٨ .

(١٦) الاقليدسي ، الفصول في الحساب الهندي، ص ٢١ .

(١٧) طوقان ، تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك ، ص ٣٨ ـ ٣٩ .

ويبدو ان استعمال كلمتي « الهندية » و« الغبارية » وتكرار اطلاقها على هاتين « المجموعتين » او « السلسلتين » في الدراسات المعنية ، قد احدث كثيراً من الخلط والالتباس ، ونشأ منه معظم هذا الذي نراه من الجدل والخلاف في حين ان هاتين التسميتين لا تعنيان وجود شيئين متغايرين ، بل هما اسمان ينبئان عن مسمى واحد هو الرقم نفسه ، اذ يسمى « الهندي » تارة لانه مأخوذ من الهند ، و« الغباري » تارة اخرى لأن « اهل الهند يتخذون لوحاً اسود اللون يمدون عليه الغبار وينقشون فيه ما شاؤوا ، ولذلك يسمى حساب الغبار »(١٨) .

واذا كان الاسمان او المصطلحان المذكوران يعنيان مسمى واحداً هو الرقم الهندي بالذات ، فما هي حقيقة تينك المجموعتين او السلسلتين المتقدم ذكرهما ، وما هو ذلك الشكل الاصيل الذي رسم به العرب ارقامهم في اول عهدهم بعلم الحساب ثم طرأ عليه التحوير والتغيير فأصبح شكلين او طريقتين ؟

ليس هناك شك في ان الارقام ( البغدادية ) المشرقية كانت هي الاصل لشكل الارقام العربية بل كانت هي المتداولة ايضاً في جميع ارجاء العالم الاسلامي ـ عربية واعجمية ـ كما تدلنا على ذلك مخطوطات تلك العهود ، على اختلاف اماكن تأليفها ونسخها .

ويبدو ان العرب قد اجروا على الارقام الهندية اثر وصولها اليهم بعض التعديل والتشذيب ، ومنحوها من ذوقهم الخاص ولمستهم الفنية الذاتية ما جعل لها شكلاً خاصاً وصورة متميزة ، وربما ارادوا بذلك ان يجعلوا رسوم تلك الارقام اكثر شبهاً وقرباً الى حروف ابجديتهم ذات القيمة العددية ايضاً ولعل هذا التحوير هو الذي جعل بعض الباحثين في حيرة من الامر اذ رأى العرب السابقين ينعتون تلك الارقام بالهندية ، ولكنها تغاير في الوقت نفسه «صور الارقام التي يستعملها الهنود »(١٩) .

وقد منيت هذه الارقام بعد حين من وصولها الى المغرب العربي وبلاد الاندلس واستقرارها هناك ببعض التغيير والتحوير ، فبدت مختلفة عن الاصل المشرقي الاصيل ، واذا كنا لا نعلم متى كان ذلك على وجه التحديد فمن اليقين انه متأخر عن تاريخ استعمالها وانتشارها في بلاد الاسلام بقرون .

وتلقف الاوروبيون تلك الارقام المغربية الاندلسية ـ فيما تلقفوا من قضايا الثقافة والعلوم العربية واطلقوا عليها بصدق وامانة اسم ( الارقام العربية ) لاقتباسهم اياها من جيرانهم العرب ، فكانت هذه التسمية الاوروبية هي السبب ـ في ارجح الظن ـ فيما اثير اخيراً من مجادلات وما بذل من محاولات لاثبات اصالة تلك الارقام .

---

(١٨) ابن الياسمين كما ورد في : ابو فارس ، « دليل جديد على عروبة الارقام المستعملة في المغرب العربي، » ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣ .

(١٩) الاقليدسي ، الفصول في الحساب الهندي، ص ٢١ .

والحقيقة التي لا بد من عرضها - هنا - بصراحة وموضوعية بالغة ان عرب المغرب والاندلس منذ العصور الاسلامية الاولى ، كانوا قد اجازوا لانفسهم مد يد التصرف والتغيير في كثير مما وردهم من عرب المشرق ، ولم يروا ما كان ينبغي ان يروه من ضرورة الحفاظ على التراث القادم اليهم بصوره الاساسية وقواعده الاصيلة ، صيانة لوحدة هذه الامة في الفكر والثقافة شكلاً ومضموناً .

وكان من مظاهر هذا التصرف ما فعلوه في ترتيب الحروف الهجائية القادمة اليهم من المشرق، فجعلوها بالتسلسل الآتي :

(أ ، ب ، ت ، ث ، ج ، ح ، خ ، د ، ذ ، ر ، ز ، ط ، ظ ، ك ، ل ، م ، ن ض،ص، ع ، غ ، ف ، ق ، س ، ش ، هـ ، و ، ي )[٢٠] .

وكل المعجمات اللغوية والكتب الاختصاصية لم تقر ذلك ولم تعترف به ، بل ولم يكتب لهذا الترتيب البقاء حتى في المغرب نفسه لخروجه على الاجماع .

وكان من مظاهر ذلك ايضاً تصرفهم في رسم الحروف الهجائية واختيارهم طريقة خاصة في الكتابة تعرف بـ ( الخط المغربي ) ، وان نظرة سريعة تلقى على اي كتاب مكتوب بهذا الخط تظهر لنا الفروق جلية واضحة ، ولم يكتب لهذا الخط الذيوع والانتشار خارج المغرب بل هو في طريقه الى الاندثار ، لخروجه على الرسم المألوف .

وكان من مظاهر ذلك ايضاً تصرفهم في نقط بعض الحروف الهجائية ، اذ نقطوا الفاء « بواحدة من اسفلها » والقاف « بواحدة من اعلاها »[٢١] ، ولم يكتب لهذه الطريقة امتداد الوجود خارج الخط المغربي .

وهكذا كان الامر في مسألة الارقام، فقد حوروا رسمها و« حولوا فيه بعض الاشكال عن الوضع العمودي الى الوضع الافقي ، هذا الى جانب الخلق والابتكار الذي يلاحظ في النصيب الباقي » كما عبّر او اعترف احد الكتاب المغاربة المعاصرين[٢٢] .

وكان المنتظر ان تنتهي مسألة الرسم المغربي للارقام بالطريقة التي انتهت فيها مسألة الرسم المغربي للحروف ، لأنها خروج على الاصل وعلى الاجماع الكبير الواسع ، وهو اجماع يتعدى دائرة الوطن العربي ليشمل كل الكاتبين بالحرف العربي من المسلمين غير العرب ، كالاكراد والفرس والافغان والهنود وكثير من سكان جنوبي شرقي آسية وشرقي افريقية وحتى

---

(٢٠) ابو العباس احمد بن علي بن احمد القلقشندي ، **صبح الاعشى في صناعة الإنشا** ( القاهرة ، طبعة مصورة ) ، ج ٣ ، ص ١٨ .

(٢١) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٥٤ .

(٢٢) عبد الهادي التازي ، « الارقام المغربية ارقام عربية اصيلة ، » **اللسان العربي**، العدد ٢ (١٩٦٥)، ص ٣٧ - ٣٨ .

الاتراك قبل الردة الكمالية عن الحرف العربي ، وقد ربط هؤلاء بأجمعهم شكل الارقام بالخط الذي يكتبون به اوثق ارتباط واحكمه ، ولم يستسيغوا الفصل بينهما ابداً .

غير ان السنوات الاخيرة شهدت عدة محاولات قام بها عدد من اخواننا المغاربة المعاصرين في سبيل اثبات عروبة ارقامهم وتأكيد اصالتها ، ثم تابعهم على ذلك نفر من المثقفين في قطر عربي مشرقي ، بدعوى ان الاوروبيين قد نسبوا هذه الارقام الى العرب ، فلماذا لا يستعملها العرب ولا يعيرونها الاهتمام المطلوب ؟

ويأتي في طليعة من كتب في هذا الموضوع وأولاه الاهتمام البالغ من اخواننا المغاربة : صديقنا الدكتور عبد الهادي التازي والمرحوم الاستاذ محمد السراج ، وقد بذل هذان الكاتبان في بحثيهما كل وسعهما من جهد وأدليا بجميع ما ملكا من حجج وأدلة ، وان كانا ـ على الرغم من ذلك ـ لم يأتيا بما يقنع ويحسم .

اما الدكتور التازي فكان جماع بحثه كما الدفاع عن النفس وتبرئتها من التهمة باقامة البرهان القاطع على ان الارقام المستعملة في بلاده كانت قد سكنت تلك الارض اولاً ثم رحلت منها الى اوروبا ، وليس العكس كما يتصور بعض السذج ، وفي ذلك يقول : « ان جانباً من العرب في المشرق وجميع العرب في الاندلس وافريقية والمغرب تمسكوا بتحوير جوهري ادخلوه على الارقام الواردة ، هذا التحوير الذي حولوا فيه بعض الاشكال عن الوضع العمودي الى الوضع الافقي ، هذا الى جانب الخلق والابتكار الذي يلاحظ في النصيب الباقي . . ولعل هذا التحوير الجوهري هو الذي حدا بالعرب ان يتبنوا هذه الارقام ، وحدا بالاوروبيين التلامذة الى اعتبار هذه الارقام ارقاماً عربية في الاصل »[٢٣] .

ولسنا نجد في هذا الكلام الا الاعتراف الصريح :

أ ـ بأن اخواننا العرب في الاندلس والشمال الغربي من افريقية ( ولم يشاركهم باقي الافارقة العرب وفي مقدمتهم ابناء مصر ، ولا جانب من عرب المشرق ) قد ادخلوا تحويراً جوهرياً على الارقام الواردة اليهم من اخوانهم العرب في المشرق .

ب ـ وانهم بهذا التحوير قد حولوا « بعض الاشكال عن الوضع العمودي الى الوضع الافقي » مما يدل على اصالة الوضع العمودي وسبقه في الاستعمال .

جـ ـ وان الاوروبيين التلامذة قد عدوا هذه الارقام « عربية في الاصل » لأنهم اخذوها عن عرب الاندلس .

ويبقى قوله : « حدا بالعرب ان يتبنوا هذه الارقام » بلا رد او تعليق لأنه من وحي عاطفة الكاتب الجياشة وليس من نتائج البحث الموضوعي ، ومن البداهة بمكان ان فئة قليلة من العرب قد تبنت الارقام وليس ( العرب ) بعمومهم وجمعهم واجماعهم .

---

(٢٣) المصدر نفسه ، ص ٣٧ ـ ٣٨ .

اما المرحوم الاستاذ محمد السراج فقد طغى حماسه على حياده العلمي ولم يسلم بحثه من الخلط والاضطراب ، وقد مهد للنتائج التي يتوخاها بما افترضه تفسيراً لكلام البيروني في هذا الموضوع ، فقال : « وقد اكد البيروني ان اشكال هذه الارقام كانت مختلفة باختلاف الجهات في الهند ، وان العرب انتقوا منها ما رأوه مناسباً ، واكتفى العرب بطريقتين مختلفتين لكتابة الارقام : الطريقة المشرقية واستعملها عرب بغداد وتطورت قليلاً حتى صارت كما هي الآن بمصر والعراق وسورية ولبنان وبلاد العرب . الطريقة المغربية ، واستعملها عرب الاندلس وتطورت حتى اصبحت كما هي الآن بالمغرب » . « ولاحظ البيروني ( وما زال الكلام للسراج )، ان الغربيين اقتبسوا الطريقة المغربية عن طريق عرب الاندلس ، ثم زاد قائلاً : وبهذه المناسبة ننوه بأن المغاربة الآن لا يزالون يستعملون طريقة اجدادهم في كتابة الارقام ، ولا يظن بأنهم يكتبون الارقام الفرنجية ، وانما الفرنجة هم الذين يكتبون الارقام المغربية »[٢٤] .

ولا يجد الباحث المدقق في مقال الاستاذ السراج - فيما نقلنا منه وفيما لم ننقل - علماً وحجة بمقدار ما يجد فيه حماساً متدفقاً وخلطاً غير موفق بين عدد من الافتراضات والاحتمالات المتهافتة التي لم يثبت منها شيء ولم يحظ بالبرهنة العلمية المطلوبة .

لقد اقر - اولاً - تصديقاً لرواية البيروني بأن الهنود هم واضعو اشكال ارقام الحساب، وان العرب قد انتقوا من تلك الاشكال « ما رأوه مناسباً » .

وأقر ثانياً - الحاقاً بكلام البيروني - بأن شكل الارقام قد تطور بعد تعريبه ، وان آثار هذا التطور في الرقم المشرقي تختلف عن آثاره في الرقم المغربي .

ثم اقر ثالثاً - وهذا من اعظم الحجج عليه لا له - ان « فئة قليلة من المغاربة» قد تمردت على طريقة اجدادها فرسمت الارقام كما يرسمها المشارقة « مع اختلاف في الاربعة والخمسة وتغيير بسيط في التسعة » ، وعلل فعل هذه الفئة بأنه « لأغراض خاصة » ( كذا ) وليس بدافع الحفاظ على الاصالة .

امّا استدلاله في ختام بحثه بكلام الحباك التلمساني ( المتوفى سنة ٨٦٧هـ ) فقد كان عن غفلة وقلة التفات ، لأن كلام هذا العالم الرياضي صريح في ان التراث المغربي الموروث في الحساب والرقم ، انما يتمثل في ذلك النوع الذي يسمى ( الزمامي ) او ( القلم الفاسي ) ، وهو ضرب من الحساب ذو ارقام خاصة وطريقة متميزة ، ولا تمت اشكاله لأشكال الارقام المشرقية والمغربية بأي صلة ( كما يتضح ذلك من الصورة المثبتة فيما يأتي ، وقد اوردها السراج في مقالته ) :

---

(٢٤) محمد السراج ، « الطابع العربي في الارقام الرياضية ، » اللسان العربي، العدد ٣ (١٩٦٦)، ص ٦٤ - ٦٩ .

900 800 700 600 500 400 300 200 100 90 80 70 60 50 40 30 20 10

| | | | | | | | | | |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| آحاد الالوف | [illegible] | [illegible] | [illegible] | [illegible] | [illegible] | [illegible] | [illegible] | [illegible] | [illegible] |
| عشرات الالوف | [illegible] | [illegible] | [illegible] | [illegible] | [illegible] | [illegible] | [illegible] | [illegible] | [illegible] |
| مئات الالوف | [illegible] | [illegible] | [illegible] | [illegible] | [illegible] | [illegible] | [illegible] | [illegible] | [illegible] |

## ٣ ـ استنتاجـــات

وهكذا يتضح لنا من مجموع ما تقدم بيانه :

(١) ان ارقام الحساب التي استعملها العرب وطبعـوها بـطابعهم الخاص كـانت هندية الاصل والنِّجار ، وان تسميتها بعد تعريبها بـ ( الهندية ) و( الغبارية ) لا تعني كونهما شيئين او طريقتين ، بل هما اسمان لمسمى واحد هو الرقم نفسه ، ينسب الى واضعيه تـارة والى طريقـة الكتابة به اخرى .

(٢) ان تعريب الارقام واختيار صورها واعطاءهـا الشكل المنسجم مـع حروف الكتـابة العربية قد تمّ في عاصمة الخلافة ( بغداد ) في القـرن الثاني الهجـري ، ومنها انـطلق الى العالم الاسلامي كله .

(٣) ان للمغرب العربي ـ ونعني به ما يسمى المملكة المغربية اليوم على وجه التحـديد ـ ارقاماً او رموزاً خاصة كان يتداولها كتّاب الفرائض والمحاسبات والنفقات ، ويطلق عليها اسم ( القلم الفاسي ) او ( الزمامي ) ، وليس لها اي شبـه او ارتباط بـأرقام الحسـاب المشرقيـة او المغربية وانما هي مأخوذة من القلم الرومي القديم في رواية الاستاذ السراج .

(٤) ان الاشكال ( البغدادية ) التي رسم بها العرب الارقام في بدء عهدهم بـاستعمالهـا هي نفسها الاشكال التي مـا زالت متداولـة الى اليوم في المشـرق العربي كله ومصـر واطرافهـا وبعض الشمال الافريقي وجميع البلاد الاسلامية التي تكتب لغـاتها بـالحروف العـربية ، وامـا تلك التي تداولها ( المراكشيون ) و( الاندلسيون ) واطلقـوا عليها اسم الارقـام الغباريـة ، فقد كانت هي الارقام ( البغدادية ) في الاساس بعد ان قام هؤلاء بتحويرها ونقلهـا « من الوضـع العمودي الى الوضـع الافقي » على حـد تعبير الـدكتور التـازي ، فكان شـأنها في ذلك شـأن حروف الكتابة العربية التي ادخل عليها المغاربة شيئاً من التحوير ، في ترتيبها وفي شكلهـا وفي نقطها ، فأصبح رسمها مختلفاً في الجملة عما يرسمه غيرهم من العرب عامـة ومن غير العـرب من المسلمين الكاتبين بالحرف العربي .

(٥) ان تغيير شكل الارقام ونقلها « من الوضع العمودي الى الوضـع الافقي » على يـد بعض المغاربة قد جرى في وقت متأخر عن تاريخ استعمال الارقام البغدادية ، وليس ادل على هذه الحقيقة من اننا لم نجد نصاً يذكر الشكل المغـربي ، اقدم من نص ابن الياسمين ( المتـوفى سنـة ٦٠٠ او ٦٠١هـ ) ، في حين ان تلك الارقـام الاصيلة كانت هي السـائدة والمنتشـرة في جميع الاصقاع العـربية والاسـلامية قبـل ذلك التـاريخ بكثـير ، وكانت هي المستعملة في كـل الكتابات والالواح والمؤلفات المعنية بمسائل العلوم والرياضيات منـذ القرن الثـالث الهجري ، اي قبل عصر ابن الياسمين بثلاثة قرون تقريباً[٢٥] .

وبعد ،

فليس لي بد في الختام ـ أداء للامانة وابراء للذمة ـ من التنبيه بل رفع اشارة التحذير من مثل هذه المحاولات التي لم تسفر عن مكسب حتى اليوم سوى المزيد من تعميق الانقسـام ومن اثـارة النعرات الاقليميـة في هذه الامـة التي يكفيها مـا تعاني من مخلفـات التجـزئـة الفكـريـة والثقافية فلا نضيف اليها ما يزيد الطين بلّة .

ومهما كانت ثقتنا عالية وكبيرة بسلامة نوايا الدعاة الى مثل هذا التغيـير ونزاهـة دوافعهم واهدافهم ، فإننا نخشى ان يزداد مؤشر ذلك انحرافاً عـلى مر الايـام ، فيخرج بنـا على خط الاصالة خروجاً لا عودة فيه .

وليس ادل على صحة حذري وخوفي مما طلعت به على القراء مجلة ما من تلك المجلات العراقية التي فضلت الارقام المغربية المحورة على الارقام البغدادية الاصيلة ، اذ لم يكفها ذلك بل اخذت تصفّ ارقام تاريخ صدورها من اليسار الى اليمين كما يكتب الاوروبيون تمامـاً : إذ يكون تاريخ اليوم على يسار السطر ثم يليه على يمينه تاريخ الشهر ثم يكون تـاريخ السنـة على يمـين ذلك كله ، وهـا هي تفعل فعلتهـا هذه منـذ اكثر من سنتـين بلا منكـر او مستفهم عن مسوغات هذا التصرف ومبرراته ، واورد فيما يأتي صورة لذلك زيادة في الايضاح .

---

(٢٥) انظر : محمد حسن آل ياسين ، **الارقام العربية : مولدها ، نشأتها ، تطورها** ( بغداد: المجمع العلمي العراقي ، ١٩٨٢) . وقد اورد فيه صوراً مقتبسة من عدة كتب تمثل القرن الثالث الهجري وما بعده من القرون ، وصوراً لخطوط عدد من الاعلام المغاربة كانوا قد رسموا ارقامهم بالشكل البغدادي المشرقي الاصيل .

# المناقشات

**١ - حميد الهيتي**

ان عنوان الندوة ، ندوة اللغة العربية والوعي القومي ، يشخص اساسا ان المقصود باللغة العربية هو اللغة العربية الفصيحة وليس غيرها . وما طرأ من احاديث هنا وهناك عن الوجود الشائب وغير الشرعي للعامية له حديث آخر ، ونتفق جميعاً على بديهة ثابتة هي ان اللغة العربية الفصيحة تشكل المظهر الوحيد المتحقق من مظاهر الوحدة العربية ، لساناً وفكراً وحضارة مكتوبة بهذا اللسان . وعلى هذا الاساس ، ينبغي ان نصرّ على ان وجود الفصيحة بالصيغة التي نعرفها وبالصيغة التي وجدت فيها هو المنطلق الاساسي الذي يمكن ان يمتن الدفع القومي اللاحق لما تصبو اليه الامة العربية من الوحدة الشاملة في اقطارها كافة .

ان الحديث عن الفصاحة وكيفية التوصل اليها حديث يطول . لم يعرف العرب لغتين ، بل لغة واحدة هي اللغة الفصيحة ، اما العامية الدخيلة فقد طرأت ، وتعد مرضا من الامراض التي ابتلي بها العرب . ويكفي ان اشير هنا الى ان العرب في البداية كانوا يعيرون من يزل باللسان ومن لا يطيق الفصيحة ، بل ان البيوتات العربية المشهورة أنفت ان تدرس النحو في اوليته ، وقالوا في بعض اسمائه انه علم الاعاجم . وهنا اشارك من قال بان النحو ليس غاية لذاته .

لا شك بأنني معجب جدا بالبحثين القيمين المقدمين في هذه الجلسة وهما بحث د . ياسين خليل وبحث د . احمد حقي الحلي . اما د . ياسين خليل فقد ربط ربطا محكما بين اللغة واهداف الامة ، وبين اللغة والمحتوى الحضاري للامة العربية الذي عرفت به ، وسميت به بين امم الارض . واما د . الحلي فقد تحدث عن مشكلات التعليم وقال ان المشكلة ليست في اللغة ولكن في الطرائق ، وانا اؤيده ، ولكن لي عتاب عليه . ان هذا الاسلوب الرائع الذي شوقنا وعودنا عليه ، وارجو ان يكون ذلك كشفا للعمر ، ان هذا الحديث سمعناه من استاذنا عندما كنا على مقاعد الدراسة في الجامعة ، ولكن آثاره مع الاسف الشديد لم تنعكس على المنهاج ، ولم تنعكس

على الكتب ، وهو قريب الصلة من وزارة التربية واعتقد ان الكتب تمر به ، أو له رأي فيها في اقل التقديرات .

وأثار د . الحلي مشكلة التدريب . نعم لا يمر الطفل بالتدريب منذ المدرسة الابتدائية ، ولا يمر بها الطالب في المدرسة المتوسطة ولا في الجامعة ، فالجانب النظري هو الجانب المتفوق . في السابق كان الطفل يقف وقفة الخسيس ، فيقرأ قصيدة او يتحدث بين رفاقه ، يتجاوز في هذه الوقفة الخجل وتقوى فيه الشجاعة الادبية ، وهذا مفقود . كان الطفل يدخل مباريات متجددة وهذا يقوي الملكة عند الطفل ، وكان الطلاب يقرأون الشعر كثيرا . ان فرص التدريب تقل ، ربما لان العدد ، عدد الطلاب ، قد كثر ، ولكني اؤ كد ان فرص التدريب قد قلت الى حد بعيد . ان كتب المطالعة غير جيدة ، وهي ركن اساسي من اركان تعليم العربية ، لان النصوص الموجودة في هذه الكتب ليست من النصوص الرفيعة المختارة . ارجو ألاّ اكون متشائما ، وألا اشيع جو التشاؤ م حين اقول اننا سوف لا نجني الكثير مما سيؤ ول اليه الامر من تأليف كتب جديدة . فخلال ست او سبع سنوات اعيد تأليف الكتب ، او انها قد نقحت اكثر من مرة ، ولكن ما الجدوى ؟ ان الذين يفعلون ذلك هم الاشخاص انفسهم . المشكلة تكمن في ان مدرسي المادة ، وحتى مؤلف المادة ليسوا بالمستوى المطلوب . واخشى ان اكون متشائما اكثر حين اقول لكم ان الكتب التي درست سابقا بعد نفي الجانب السياسي منها او وضعه جانبا ، اقول ان تلك الكتب التي درسناها هي امتن في اللغة العربية واقوى من الكتب التي ندرّسها الان ، والتي شاركنا فيها ، ونتحمل جانبا من سوئها .

## ٢ ـ عادل البياتي

لقد اتحفنا د. ياسين خليل ببحثه القيم : « اللغة والوجود القومي» دليلنا على ذلك قائمة مصادر الباحث ومراجعه وهوامشه التي اغنانا فيها بالمادة العلمية ، بالاضافة الى ما ورد في البحث نفسه . وقد استوقفتني بعض الملاحظات وساكتفي باثنتين منها .

جاء في البحث العبارة التالية : « وهذا يفسر لنا لماذا اندثرت امم سالفة مثل البابلية والفينيقية والفرعونية ولم يعد لها وجود قومي ، وذلك لغياب الرسالة وعدم قدرة هذه الامم على مجابهة التحديات الداخلية والخارجية » .

نحن نعلم ان الفينيقية ليست امة وانما هي جماعة ، فارجو ان انتفع من علم د . ياسين كيف ننظر الى الفينيقية بانها امة . وهذا ينسحب على البابلية والفرعونية . ومع تسليمنا بان البابلية والفرعونية امتان ، فهل اندثرتا ؟ اذا اندثرتا فمعنى ذلك انه لم يعد هناك اناس على هذه الارض . ويبدو لي ان الاندثار هو للجانب السياسي والجانب العقائدي والجانب الاقتصادي ، لكن تبقى هذه الخلائق موجودة على هذه الارض لتبعث من جديد ، وتعرف فيما بعد باسم امة العرب ، وهكذا . اما ان لا تكون لها رسالة او ان تغيب رسالتها ، فانا اختلف مع د . ياسين . ان الرسالة موجودة وكانت رسالة وثنية والرسالة الحقيقية الخالدة الباقية هي رسالة التوحيد التي جاء بها الاسلام .

اما بالنسبة الى الملاحظة الثانية ، فقد وردت هذه العبارة : « واكتسبت اللغة العربية بفضل تعاليم الرسول الكريم التي تجلت في احاديثه وشروحه ووصاياه، منزلة كبيرة في نفوس المؤمنين » . الثابت الصحيح في الاثر ان للرسول ﷺ حديثاً وسنة فأرجو ان يوضح لنا د. ياسين ما المقصود بالشروح والوصايا التي جاء بها الرسول ﷺ .

## ٣ ـ الشاذلي الفيتوري

لي ملاحظتان : احداهما للدكتور ياسين خليل بعد شكره على العرض القيم الممتع الذي قدمه في هذه الجلسة . واريد ان ابدي ملاحظة بسيطة بخصوص المغرب ، وبخصوص تفشي الفرنسية فيه . ان هذا الكلام قد تكرر مرارا في هذه الجلسات ، ويتكرر كثيرا ، واظن ان في ذلك ـ دون ان نثير نعرة الشعوبية في مثل هذه المناسبات ـ تحاملا كثيرا على المغرب وعلى بلاد المغرب، مع جهل لمعطيات المجتمع المغربي واكثر من هذا اننا ـ وعندما اقول اننا فاني احشر نفسي داخل الحظيرة ـ متأثرون كثيرا بوسائل الاعلام الغربية ، وناخذ ما يرد عن طريق وسائل الاعلام هذه على انه من باب المسلمات . فمثلا عندما يقع التحدث عن انتشار اللغة الفرنسية وطغيان ما سمي بالـ « فرنكوفونية » في بلدان افريقيا ، او انتشار الانكليزية في بلدان افريقيا ، فيجب ان نصحح هذا الوضع . هل تعلمون مثلا ان في تقدير جماعة الفرنكوفونية ان هناك مؤسسات لها صبغة سياسية وصبغة ثقافية تعنى بكل قضايا ما سمي بالفرنكوفونية ومن زعماء الفرنكوفونية ـ وهذا معروف لدى العام والخاص سنغور والحبيب بورقيبة وغيرهما. وهؤلاء يدعون ان المدينة الاولى بعد باريس الناطقة بالفرنسية والتي هي مفخرة للفرنكوفونية، هي مدينة داكار. وقيل هذا مراراً، وكتب في مجلاتهم، مع العلم ان مدينة داكار ليس فيها اكثر من ٤ بالمائة من سكانها يحذقون اللغة الفرنسية . فأين الفرنكوفونية ؟ انهم يجعلون داكار قبل مونتريال ، لان عدد سكان داكار يفوق عدد سكان مونتريال . والاغلبية الساحقة من سكان مونتريال ( اكثر من ٧٠ بالمائة ) ، يتكلمون اللغة الفرنسية . ولكن في داكار ٤ بالمائة فقط يتكلمون الفرنسية والبقية الباقية قد شملتهم الامية وبلاد المغرب من موريتانيا الى تونس .

وهنا استنجد بالدكتور مسارع الراوي ، لكنه تغيب ليعطينا الارقام الصحيحة المتعلقة بتفشي الامية . وان قيام الامية الى يومنا هذا في بلاد المغرب وكامل المنطقة العربية مع الاسف يتراوح بين ٥٠ بالمائة الى ٨٠ بالمائة بين تونس وموريتانيا والمغرب الاقصى . إذن تبقى نسبة المثقفين لا تتجاوز ٤٠ بالمائة . ومن هؤلاء المثقفين ـ ان نحن استثنينا الجزائر وسأعود لمشكلة الجزائر ـ نجد ان عدد المتكلمين بالفرنسية وعدد المولعين بالفرنسية ـ لانه قيل هذا وكتب في بعض الدراسات ، ان هناك ولوعا بالفرنسية ونفورا من اللغة العربية في بلاد المغرب ـ لا يتجاوز ٥ بالمائة او ٦ بالمائة من مجموع الناس . ثم ان نحن دققنا النظر والملاحظة ـ ولا اقول لو قمنا بالتحقيقات ، وقد جرت بعض هذه التحقيقات على الاقل في البلاد التونسية ـ وجدنا ان هذه الجماعة ، وهذه الاقلية انما هي اليوم اقلية ، وتشعر في اعماقها بنوع من انكسار النفس ، لتفريطها وعدم حرصها على الثقافة العربية ، ولما تشعر به الان وبعد مرور اكثر من ربع قرن على استقلال البلاد التونسية من تخلف .

وهنا مجرد تعريج على التاريخ . مما تذكره الوثائق التاريخية ، ان ابراهيم بن الاغلب في عهد الدولة الاغلبية بالقيروان ، وفي اوج الدولة العباسية في بغداد ، عندما دخل عليه احد السفراء الشرلمانيين ، خاطبه مباشرة بلغة لاتينية نقية . ولم يكن متبجحا بذلك ولا فخورا بذلك ، ولا شاعرا كذلك بنوع من انكسار النفس او من التبعية لانه تحدث لغة القوم ، بل عمل بالقاعدة الاسلامية المعروفة وخاطب القوم بما يفهمون .

كان هناك اذن اقبال على تعلم اللغات الاجنبية . ربما كلام كهذا يقال في بغداد ، انما من شأنه ان يثير من هم في قبورهم منذ قرون وقرون ، حيث قامت دار الحكمة ، وحيث كان التفاعل بين الثقافة العربية الاسلامية وبقية الثقافات الاخرى ، واللغة العربية الفصحى والفصيحة وبقية اللغات الاخرى ، هو الذي غذى وما زال يغذي الى الان التراث الثقافي العربي . حيث هنا لا بد من ان نميز بين ما هو اتجاه صحافي رخيص على ما أراه ، وما هو اتجاه اكاديمي . ونحن في مجمع علمي واتجاه علمي مضبوط بحيث لا بد من ان ندقق الاوضاع .

ان عدنا كذلك الى التاريخ القريب لا الى التاريخ البعيد وجدنا ان العربي التونسي قدم خدمة لكامل الحظيرة العربية ، فهو فرد من هذه الامة يقدم عملا ولا يدري ماذا سيكون مآل هذا العمل في سلم التقدير التاريخي . لكن ما اردت ان اشير اليه هو ان الماضي القريب اي القرن وربع القرن الاخير شهد مقاومة المغرب العربي ، للاستعمار الفرنسي ، الذي يختلف عن الاستعمار الانكليزي من حيث كون الاخير استعمارا قائما على المصالح الاقتصادية والمصالح الاستراتيجية ، اما الاستعمار الفرنسي فهو الاستعمار الاستيطاني الذي كان يعمل للقضاء على الجنس العربي منذ البداية . اما ان يصمد قوم بمثل ما صمدوا اذاك وان يحافظوا على لغتهم ، وان يبقى فيهم الى يومنا هذا ادباء وشعراء وفنانون ومتخصصون باللغة ، وأناس قادرون على ان يتعمقوا في اللغة في ايام المحنة ، فذلك دليل على ان قدرتهم على المقاومة والصمود كادت تفوق ببعيد قدرات كثير من الشعوب ، التي كان يمكن لاقل من هذا النوع من الدمار والضغط الاستعماري ان يجعل امورهم تتلاشى ، وان يخسروا كيانهم لغة وتفكيراً . انتقل الى ما قاله د. احمد حقي الحلي، وهو كلام ممتاز ، ممتع ولي عليه ملاحظة بسيطة ، وهي ان ما نادى به من اقتباس للمنهجيات التي قامت في انكلترا بخصوص اللغة الانكليزية «perfect English» ، واظن ان الشيء نفسه قام كذلك في فرنسا فيما يخص «le Français-les Bases» ، كل هذا قد قام على اساس التجربة ، وقد انتفع منها المغرب العربي . واظن ان قطراً عربياً آخر اليوم يقتبس من هذه التجربة ، وهي تجربة الرصيد اللغوي التي قامت على هذه المنهجية . واليوم اصبحنا نجني ثمراتها منذ سنوات ، وهي معمول بها على الاقل في النظام التونسي والجزائري فيما يتعلق بتأليف الكتب وربط البرامج والمناهج وطرق التدريس .

ثم هناك طريقة اخرى . لكن مع الاسف ما يصدر من بضاعة في السوق الداخلية على الصعيد القومي العربي قد ينظر اليه على انه بضاعة ممقوتة ، وهذا شأننا في كل البلاد العربية فالاحذية التي تصنع داخل البلد ينظر اليها نظرة تحط من قيمتها بالمقارنة بالاحذية المستوردة من ايطاليا ، حتى وان كانت اقل جودة منها . هناك طريقة اخرى قامت في تونس وعممت على

المدارس وهي تأتي بنتائج محمودة جدا . وقد اندهش لها روبير ستافيله الجامعي الفرنسي والصحافي المعروف . فهو من صحافيي جريدة لوموند ، كرس اكثر من عشرين سنة من حياته للتعليم في جامعة بوردو، واسس معهدا للبحث خاصا بقضية المطالعة ، مع ذلك لم يحقق الجزء اليسير مما احرزناه من نتائج في تونس .

وقد استخدمت شخصيا تلك الطريقة قبل ان اغادر تونس سنة ١٩٧١ ، وقبل ان التحق بمكتب التربية الدولي في جنيف ، حيث نظمنا اذاك ندوة عالمية لمشكلة المطالعة واقترحنا على روبير ستافيله ان يترأسها . وقد حضر حصصها .

ان هذه الطريقة ليست دروسا ، فهي طريقة جديدة مبتكرة تبتعد كل البعد عن الطرق الروتينية المعهودة . حضر ستافيله حصصا بالعربية واخرى بالفرنسية ، وكان مندهشا تماما ، لانه لم يكن ينتظر من التلاميذ التونسيين الذين لم يتدربوا على اللغة الفرنسية الا لبضع سنوات ان يكونوا قادرين على التعبير بهذه الكيفية ، وعلى تشويق بعضهم بعضا في المطالعة بهذا المستوى .

اما الدروس في العربية او الحصص العربية فكانت افضل بكثير من حصص الفرنسية، وقد استطعنا ان نضبط المعدات الفنية لنستخدم الوسائل السمعية والبصرية لمطالعة مؤلفات توفيق الحكيم . وكل هذا يجري بوسائل زهيدة جدا وعلى ايدي التلاميذ ، والمدرس اصبح من المتفرجين لان المعني بالامر هو التلميذ ، فهو الذي يقتني الكتاب ، ويختاره ، وهو الذي يعد الحصة ليشوق غيره في كتاب كان قد شوق هو اليه من طرف مجموعة اخرى من تلاميذ آخرين آتين من معهد ثالث .

هذه التجربة كنت قد كتبت عنها مقالا طويلا نشر في مجلة « بريد اليونسكو » بـ ( ١٣ ) لغة ، بما فيها اللغة العربية . وقد وصلتني رسائل استفسار وشكر من كثير من بقاع الدنيا ، من كوريا ومن اليابان ، ومن انكلترا ومن امريكا . ولم يصلني ولا كلمة واحدة من مرب عربي . ان هذه الاشياء تحز في النفس .

ارجو الا يؤخذ كلامي على غير وجهه . لقد تعلمت في المدرسة الابتدائية تاريخ بغداد ولم اتعلم تاريخ القيروان . وهذه كذلك من الظواهر الشاذة في النظام التربوي التونسي . ولا اقول هذا الكلام بدافع الشعوبية او للدفاع عن بلاد المغرب ، بل لتصحيح اوضاعنا . وانني بقدر ما الاحظ ان اخواننا من المشرق يجهلون كثيرا من الاشياء عن المغرب اشعر بالحسرة وانكسار النفس عندما يجلس اليّ زملاء من تونس او من الجزائر او من المغرب وهم يجهلون كل شيء عن بلاد المشرق . بل اكثر من هذا قد اثرت فيهم وسائل الدعاية الغربية ووسائل الدعاية الاستعمارية فحملوا عن المشرق صورا مشوهة وآراء مغلوطة يعتقدون انها هي الحقيقة ، ثم ينشرون هذا في صفوف طلابهم وتلاميذهم .

ان هذه من المآسي التي لا بد لمؤسساتنا ، مثل المجمع العلمي العراقي ، وكل المؤسسات التي تعنى بقضايا القومية العربية واللغة العربية والفكر العربي والثقافة العربية ،لا بد لها من ان

تتصدى لها بالعلاج ، وان تتخذ الوسائل المناسبة من اعلامية وغيرها لتلافيها في المستقبل . ان المطلوب هو التفاني في خدمة القضايا العربية والدخول الى هذه الحظيرة المباركة التي نريدها ان تتسع ، ولا اقول ان تنطلق لانها قد انطلقت منذ عصور . ان قيمة هذا الاجتماع ان يكون حظيرة عمل بالمعنى الصحيح لا حظيرة جدل فحسب وشكرا .

**٤ ـ نوري القيسي**

بقدر ما يثير الحديث عن العربية من مشاعر الرقة والجمال والعذوبة ، فهو يثير مشاعر الحيرة والتأثر والمراجعة في كثير من الاحيان ، وهذا ما وجدناه في كثير من البحوث وخاصة في حديث د . الحلي الذي دفعني الى هذه المناقشة .

ربما يكون الحديث عن اللغة وما صاحبه من محاولات للتيسير او التسهيل قد جاء ضمن الحديث عن عصر النهضة . ان موضوع الحديث عن تدريس العربية وأسباب ضعفها كثيرة ، وفي كل ندوة يثار مثل هذا الحديث ، وتقال مثل هذه الاقوال ، واذا كانت صرخة الحرص على العربية قد بدأت منذ تلك الفترة ، فماذا كانت النتيجة ؟ اقول أليس من المعقول ان يقدم نموذج للوزارات المسؤولة تحدد فيه الطريقة والموضوع والمفردة التي تعيد الى العربية ما نتمناه لها ؟ لانني لم اجد ما يحقق امرا يتناسب مع تلك الصرخات على الرغم من كثرتها . اقول اليس من الواجب ان نبدأ بالممارسة الفعلية لتقديم المثل الناجح ، والكتاب الجيد ، والنص المقبول ، والصورة المشرقة ، لتأخذ العربية موقعها ؟ . الم يحن الوقت لوضع تلك الصرخات موضع التنفيذ ؟ . انني وفي هذه الندوة الكريمة اشعر باننا ـ اذا امد الله بعمرنا ـ بحاجة لان نناقش هذا الموضوع في ندوة اخرى قد يطول امدها او يقصر . وارجو ان تتحقق الغاية من كل احاديثنا في تحويل المقترحات الى بدائل لا تقتصر على الطرائق وانما تبدأ من المدرس، وتحبيب العربية الى التلاميذ والتنسيق بين وسائل الاعلام ، ولا آخذ بنظر الاعتبار وسائل التعليم التي اخذت بها مدارس التعليم عند العرب مما ابقى اللغة سليمة ، والقدرة متمكنة ، والعبارة فصيحة ، ووضع الاسس في الاعداد النفسي لتقبل اللغة لنريح المسؤولين الذين نثقل عليهم في كثير من الاحيان المقترحات ، ونتركهم في دوامات الحيرة والتساؤل .

ان الاهتمام بدرس اللغة العربية وتهيئة مدرس اللغة العربية القادر منذ المراحل الابتدائية ، واعطاء درس اللغة العربية ما يستحق ، باعتبار اللغة اساسا من اسس التكوين الشخصي للفرد ووسيلة الفكر المعتمدة ، كل هذه الوسائل يمكن ان نشارك في وضع الحلول لها ، الى جانب ما يمكن ان يقترحه الاساتذة الافاضل من بدائل لما هو موجود ، لانني اعتقد ان الوقت قد حان لوضع بدائل لهذه المقترحات .

**٥ ـ يوسف ذنون**

في البحث القيم الذي قدمه د . ياسين خليل هناك ملاحظة اود ان ابدي عليها بعض التحفظات . فقد ذكر ان هناك سلسلتين من الارقام ، الاولى مستخدمة في اقطار المشرق العربي ،

وهي الارقام التي نعرفها ؛ والثانية مستخدمة في المغرب ، وهي في وضع صور الارقام الاوروبية . وهذه طبعا ظاهرة ملفتة للنظر ، وهي ان الارقام الاوروبية هي غير الارقام المغربية ، ولربما البعد بين الارقام المغربية هو اكبر بكثير من بعد الارقام المشرقية والعكس هو الصحيح .

ان الارقام المغربية هي اقرب الى الارقام المشرقية من الارقام الاوروبية . فالحقيقة الواقعة اليوم ان هناك ثلاثة نماذج من الارقام : الارقام المشرقية وفيها صور متعددة ، وهناك الارقام المغربية ولها صورة تكاد ان تكون واحدة ، وهناك الارقام الاوروبية وهي غير المغربية . والنماذج الثلاثة هذه هي من اصل واحد . وهذا يدعونا الى القول ان الاخذ بالارقام الاوروبية هو ظاهرة غير صحية لغويا وفنيا وعلميا ، لان اصل الارقام التي وصلتنا ـ واقدم صورة لها عثر عليها في شيراز في القرن العاشر الميلادي ـ هي الصورة التي لا تزال الاولى لدينا . وهذه اذا ما قارناها بارقامنا الحالية فاننا نرى ان ارقامنا الحالية هي تطور هذه الارقام ، اما اذا قارناها بالارقام المغربية فاننا نجد انها اقرب الى الارقام المغربية . ولكن اين الارقام المغربية ؟ الارقام المغربية اختفت منذ القرن العاشر ، وحلت محلها الارقام الاوروبية بفعل الاستعمار الذي بدأ منذ القرن السادس عشر او قبل ذلك في المدن الساحلية المغربية ، وبخاصة الاستعمار البرتغالي الذي جلب معه الارقام التي كان قد اخذها سابقا من العرب ، وبعد ان طورها تطويرا يتناسب مع كتابته الاوروبية التي تتسم باليبوسة ، كما نسميها في الاصطلاح العربي ، او الصيغ الهندسية والمكتوبة بقلم مدبب . وهذه لا تتناسب نهائيا واساليبنا في الكتابة ، كما ان لها شخصية اوروبية لا تتناسب وشخصيتنا العربية ، وبصورة خاصة في طريقة الكتابة . فنحن نبدأ بالكتابة من اليمين وهم يبدأونها من اليسار ، وهذه اثرت على الشكل وغيرت معالمه ، ولهذا ارى في هذه الندوة اضافة الى هذه الملاحظة ، ان يشار الى هذه القضية واخذ قرار بخصوصها ، خاصة اننا نرى في العراق هذه الظاهرة غير الصحية ، التي لا تتناسب ودعوانا الى القومية العربية واللغة العربية .

### ٦ ـ عبد علي الجسماني

كثيرا ما نسمع مثلا ان هناك مآخذ على ان المعاجم العربية مثلا بدأت تتضخم . وحاولت ان ارجع الى بعض هذه الاسباب ، فوجدت انها بدأت تتسع في القرن الرابع الهجري وحاولت ان احصي بعض اسباب تضخمها ، فجمعت حوالى احد عشر سببا . فقد تعجبون من هذا ، فانا من المتخصصين بعلم النفس فلماذا اتحول الى اللغة العربية؟ان حبي للغة العربية هو الذي يدفعني الى ذلك . على اية حال، الاسباب موجودة لديّ بعدما جمعتها من بطون الكتب. لكن اقول ـ وخاصة عندما اعتبر بعض النقاد هذا مأخذا على العربية ومعاجمها ـ اقول لهؤلاء : وما الضير؟ اليس هذا من سمات عبقرية اللغة العربية لمرونتها ومطاوعتها ؟

ان المعاجم في اللغات الاخرى قد تضخمت لتساير العصر . فعلى سبيل المثال ، في الحرب العالمية الثانية ادخلت في المعاجم كلمات جديدة لم تكن موجودة من قبل،مثلا : لما بدأ الهجوم

الالماني بالغارات على « كوين تري » وارادوا ان يهدموها أشتقوا من هذه الكلمة « كوين تري » وهي مدينة « كوين تري » التي توجد فيها المصانع ، اشتقوا منها فعلا معناه « يهدم » . ثم بعد هذا ، هل نهمل ما استجد في عصرنا من مصطلحات ومن تكنولوجيا وذلك بدعوى المحافظة على رشاقة المعاجم ؟ هذه امور اعتقد انها مردودة . وحسنا صنع ، زميلنا الذي قدم هذا البحث ، ونحن بحاجة الى مثل هذا .

واسمحوا لي ان اقول باني استفدت ايضا مما قدمه د . ياسين خليل و د . احمد حقي الحلي عندما تحدث احدهما عن الوجود العربي والآخر عن طرائق التدريس . ويتجلى ، كما لا يخفاكم ، وجود الانسان في حالة تؤلم ضميره ووجدانه ، فان هذا يصدق على ضرورة الوحدة القومية عندما تتولى اللغة اذابة الفوارق واستثارة فيض الوجدان ، وذلك من اجل التحابب والتقارب ، عملا بما نقرأه في علم النفس اي المبدأ المعروف بمبدأ المشاركة الوجدانية ، وان الامة العربية تحمل بذور الحياة في ذاتها ، وان جزءاً من هذه الذات هو في الواقع في لغتها . والامة العربية تصطفي خبراتها وتسعى نحو وحدتها من تجاربها الكامنة في ماضيها ، ومن المؤثرات الملحة في حاضرها . فإذاً يجب ان تستضيء بنور ذاتها الكامنة فيها ، وبهذه الاستضاءة يتضح لها الشعور والضمير معا . ونحن ، على سبيل المثال ، ندرس ظرف الزمان وظرف المكان ، وهما من مبتكرات الذهن العربي ، فيمكن ان نجعل ظرفي الزمان والمكان هذين ظرفا مشتركا يعبر عن ارتباطهما بواقعهما ومصيرهما . فمن هنا ندخل الطريق الى اللغة ، ونحبب باللغة عبر استخدام الطريقة ، عندما نحسنها . وهذا في الواقع يجعل التلاميذ يدركون بان درس القواعد ليس غاية في ذاته ، كما ذكر بعض الاخوان ، وانما هو الوسيلة . ويمكن ان نحد من هذا ، وان نجعل الدرس تمثيليا حتى على المستوى الجامعي وانا لا ابرىء نفسي وانما الزم نفسي ، واعتبر نفسي ملزما بهذا قبل غيري .

والآن هل يمكن ان اعود فأقترح ما كنت قد ذكرته صباح هذا اليوم من ان الاصلاح اللغوي ـ وهو الخطوة الاولى ـ يحتاج في الواقع الى ان نبدأ به من البيت ، من الاسرة ، من المدرسة ، من الطفل . وان نضع دائرة معارف عربية واسعة للاطفال متفق عليها ، حتى نكون قد سرنا خطوة نحو التوحيد القومي والوحدة القومية ، وان تكون هناك مكتبة للطفل ، وان لا تكون قطرية ، انما ينبغي ان تكون عربية شاملة ، وينفق عليها بسخاء . وايضاً على الكتب التي توضع للاطفال ، ففي هذا سبيل للتوحيد .

وفي الواقع اسمحوا لي ان اقول ان الطور الذي تمر به الامة العربية الآن قد مرت به اقوام قبلنا ، ولكنها في الواقع حاولت ان تعالج ما مرت به بطرائقها وفق ثقافاتها ، وقد اتخذت لمواجهته ما استطاعت ان تستمده من قواها الذاتية . والامة العربية قواها الذاتية كامنة فيها ، والحمد لله . وعلينا ان نستمد من عناصر القوة الذاتية الكامنة في لغتنا ما يمكننا من تنمية اللغة الصحيحة واذكاء الروح القومية بالتفاؤ ل . فان المستقبل لنا ولكن بالعمل الدؤ وب ، والحفاظ على روح الامة ومثلها السامية . وشكرا .

## ٧ ـ محمود الجليلي

هذه ملاحظات بسيطة عن البحوث القيمة . ان البحث عن تدريس اللغة العربية وعدم معرفة الطلبة لها، جاء بمعزل عن بقية الدروس . فمعرفة الطلبة للمواضيع الاخرى ليس احسن حالا من اللغةالعربية .الحالة متشابهة في كثيرمن الدروس ، كالكيمياء والفيزياء والرياضيات وعلم الاحياء والجغرافيا . ان حرصنا على اللغة العربية اكثر من حرصنا على بقية المواضيع يجب ان لا ينسينا ان هذه الحالة يجب ان لا تكون متفرعة ، لانها جزء من حالة عامة ، ومن الواجب اجراء تقسيم عام مستقل . واؤكد على التفهم العام المستقل للدراسات في مختلف مراحل التعليم ، اي الابتدائية والمتوسطة والثانوية والمهنية والجامعية .

ويعتمد هذا التقويم على الدراسات الميدانية التي يجب ان يتناولها علم الاحصاء فيما يختص بالاحتمالية ، اي عدم الاكتفاء بالنسب وما شابه ذلك دون تعريض النتائج الى العمليات الاحصائية المعروفة في العالم . ومن الضروري اجراء اختبارات دورية لمعرفة ما يتبقى من المعرفة لدى الطلاب الناجحين ، فيكون ذلك دليلا على نجاح المتعلم والتعليم . واقصد بالاختبارات الدورية ، التي اجريت في الجامعات في بعض الدراسات ، ان الطلبة الناجحين يمتحنون في بداية السنة الجديدة بالمواضيع التي امتحنوا فيها ، ونرى نسبة الدرجات التي سيأخذونها . . هذا سيعطينا فكرة عن مدى التعلم الحقيقي . ثم نعيد العملية بعد ستة اشهر ، وهكذا . وسوف يتبين لدينا ما هو مقدار التعلم الحقيقي للطلبة ، وهذا سيؤدي الى مراجعة دقيقة للمنهاج الدراسي ، ومواد كل درس ، وكتابه وكيفية التدريس ، ومقاييس النجاح والرسوب . كذلك فان الكتب في الدراسات المتوسطة والثانوية غير متوازنة : ففي بعضها اسهاب او تفصيل كبير وفي بعضها اهمال واخطاء علمية ، وفي بعضها ،عدا بعده عن التطور العلمي السريع ، اخطاء نحوية .

وانتهز هذه الفرصة لارجو الاخوان الحاضرين ، وغيرهم ، ان يطلعوا على الكتب التي بأيدي ابنائهم . قد يكونون غير متخصصين ولكن ستتكون لديهم فكرة عما في هذه الكتب . هل هذا هو المطلوب ؟ ما هو رد فعل اولادهم لهذه المعلومات الجديدة لهذه المادة التي يطلب منهم حفظها في مادة الادب وبعضها يصعب قراءته يصعب علي انا قراءتها ، فكيف سيتمكن الطلاب من ذلك وحديثي هذا لا يقلل مطلقا من الجهود التي تبذل في الاعداد ، ولكن يجب ان يكون هناك تقويم صحيح ، وارجو ان تقبل كلمة تقويم واقصد بها المعنى الذي نريده ، التقويم من اجل التقويم . ويجب استعمال المختبرات بصورة مفيدة لتدريس العلوم ، وكذلك مختبرات اللغة لتدريس اللغة العربية نفسها ، كما تستعمل لتدريس اللغات الاجنبية . وقد بدأنا بذلك في جامعة الموصل قبل سنوات عديدة ، عند انشائها .

اما كيفية تعليم الطلاب فأمر خطير ، ان حفظ المستوى العلمي يبدأ من الدراسات الاولى ، ويعتمد عليه حاضر الامة ومستقبلها هذه مسألة اساسية . ان مستقبل هذه الامة يعتمد على الدراسة في المدارس بصفة اولية ، ولكن ذلك لا يتم عن طريق الامتحانات ، انما يتم عن طريق اعادة النظر الفاحص في كل ما بيّنا لنتجنب الهدر الكبير الذي يحدث في المدارس .

لقد سبق ان طرحنا في اجتماع مشترك للمجمع العلمي العراقي ومجمع اللغة العربية في القاهرة موضوع اللغة العربية بعنوان « لغة عربية للعلوم سنة ١٩٦٧ » قبل اكثر من ١٦ سنة . وما زال الموقف كما كان عليه .

اما فيما يختص بالمعاجم فمع تقديرنا لها وتمسكنا بها ، لكننا في الوقت الحاضر بحاجة الى معجم لغوي حضاري يتضمن تطور الكلمات ومدلولاتها ، وهذا يحتاج اعداده الى سنين طويلة وجهود كبيرة ، ولكن الخطط الاولى اتخذت ونشرت في مجلة المجمع العلمي العراقي في سنة ١٩٨٣ ونرجو ان تستمر هذه الخطوة ، ليكون بأيدينا بعد سنوات الجزء الاول من المعجم اللغوي الحضاري لانها الوسيلة التي يفكر ويعبر بها في سائر الموضوعات ، وهو سبب الاهتمام باللغة العربية بصورة خاصة .

**٨ - سليمان مزبان**

في ضوء البحث الذي طرحه الاستاذ احمد حقي الحلي يلاحظ انه منذ ندوة مناقشة دراسة العمل للتربية والتعليم العالي في تموز/يوليو عام ١٩٨١ ، اصبح من واجب الوزارة فهم السياسة المحددة بعد هذه الندوة ، بأن تبدأ بالاخذ او بتعميق الاتجاهات في اطار اللغة العربية . قد تبدو بعض الاتجاهات متميزة ضمن خصوصية اللغة العربية ، لكن بشكل عام في المناهج ، قد يتم تناولها ضمن هذه المؤشرات فصارت عملية التنقيح ، تحديد المؤشرات بالمناقشة وخاصة الميدانية : اعداد المعلم على اسس جديدة ؛ اعادة النظر بتكرار دورات التدريب والارتباط مع المناهج ؛ اشاعة النشاطات المرافقة للتطبيق المنهجي المدرسي ؛ واعطاء اهمية خاصة لمعلم الصف الاول ، وتطوير اسس اختباره ؛ وتعزيز معهد تطوير تدريس اللغة العربية ، وتقرير لجنة الرصيد اللغوي الذي ارتبطت به ؛ ومناقشة مناهج وكتب الاقطار العربية والاخذ بايجابياتها ، وتعزيز لجنة المناهج المتخصصة باللغة العربية ؛ بانشاء اللجنة الوطنية للغة العربية ؛ واشراك المعلمين في التأليف والمناقشة ؛ ومناقشة آراء الطلبة والتلاميذ وصولا لاولياء امورهم ، جنبا الى جنب مع المتخصصين لاخضاع الكتاب المؤلف لندوة او اكثر قبل طبعه . وبعد تجربة لمدة عام او سنة دراسية واجراء التنقيحات اللازمة في ضوء هذه التجربة ، وجب اختيار المؤلفين وفق اسس وضوابط محددة للاستفادة بشكل عملي من نتائج المؤتمرات والندوات المتخصصة على بناء المناهج . واعتقد ان الاخوة من ذوي العلاقة بوزارة التربية يعرفون جيدا هذه الامثلة .

وبودي ان اطرح امثلة عملية لكل مؤشر ، ولكن حتى لا اكون في موقع المدافع والمبرر لا بد من القول بأن هذه الاتجاهات والعملية سابقة الذكر ، فيها درجات متفاوتة للاخطاء لكن ذلك لا يعني بشكل مطلق ان السبب في تعليم اللغة العربية راجع الى طبيعة تدريسها كما اشار د . احمد حقي الحلي . انا مع الدكتور في ان الامر ليس راجعا الى طبيعة اللغة العربية ، وانما راجع الى طبيعة تدريسها او تعليمها وايضاً ، من الوجهة الثانية الى تفاوت السادة المتخصصين من حيث التقليدية في طرح المادة المدرسية . فأرجو ان يسمح لي د . احمد حقي الحلي ان اقول بأن الطرق

التي ينادي بها انما تعتمد على مناهج وكتب اللغة العربية المطروحة مدرسياً ، فلكل مادة طريقة . فكيف يحصل نهوض بالطرق ، والطريق اصلاً مسدود على طبيعة المادة المطروحة ؟

وانسجاما مع سياسة المناهج منذ مناقشة ورقة العمل التي اشرت اليها فان وزارة التربية تؤكد اهمية ما يصلها من آراء وجهود وبحوث مطورة جديدة . ويود لي ايضا ان اتمنى على المجمع العلمي الموقر لو ادخل هذا الاطار بشكل عملي ، ووضع خطة كما يحصل لمناهج الموضوعات الاخرى بالتنسيق مع الجمعيات العلمية المتخصصةالموجودة في القطر ، وبعض الاخوة الزملاء الحاضرين هم رؤساء جمعيات علمية يقدرون حق التقدير مدى الجهود التي تبذلها الجمعيات العلمية للتنسيق مع وزارة التربية لتطوير مناهجها في الموضوعات المختلفة .

اما الملاحظة التي اشار اليها الاستاذ محمود الجليلي فهي جديرة بالاهتمام ، لكن ارجو من د . محمود الجليلي ان يوافي وزارة التربية باشياء محددة .

هنالك اخطاء في المناهج وهناك اسهاب في بعض الكتب ، وهنالك عدم توازن بين كتب المراحل . لكن هل هنالك شيء محدد في كتاب محدد او نشاط معين في كتاب معين او في موضوع معين في مدرسة معينة لكي نعرف طريق علاجه ؟

في موضوع الامتحانات هنالك عملية دراسة وتطبيق لنتائج الدراسات. ويرتبط موضوع اللجنة العليا للمناهج والوسائل والامتحانات في وزارة التربية ، لجنة متخصصة لتناقش موضوع الامتحانات مع عدم الرضى عما تم التوصل اليه . وهنالك مراحل من التطور في طبيعة الامتحانات ، وفي طبيعة القياس والتقويم اصلا في المدارس . وعندنا ، هذا لا يعرفه الناس البعيدون عن العملية التربوية الميدانية ، لكنهم يعرفون حق المعرفة مجمل وضع الاسئلة والتقويمات والمعلمين والمدرسين . لكن هنالك بداية جيدة في هذا الطريق وبالنسبة الى موضوع النتائج التي اشار اليها الاستاذ محمود ، هي فكرة جيدة وفكرة صائبة ، لكن في اطار المحاسبة والمتابعة ينبغي ان ترسم لها اسس وترسم لها طرق . فالثانوية دخل اليها ٢٠٠ وتخرج منهم في الاعدادية ١٠٠ . ولو نجح ٨٠ من هؤلاء المئة لاعتبرنا ان نسبة النجاح ٨٠ بالمائة . لكن محتمل ان يدخل مدرسة اخرى ٤٠٠ ولا يتخرج منهم سوى ثمانين . هذا مثل قد لا يكون واقعياً، لكنه للتوضيح ، وناقشته مع الاستاذ محمود قبل عقد الجلسة ، لكن اعتقد بان نتائج الامتحانات محسوبة بمستوى الذين يدخلون الامتحان ويتخرجون . لكن هذا موجود في وزارة التربية لانها تدرس وتعمق البحث ، ضمن خطة واضحة ، وهي الاقلال من نسب الرسوب والتسرب ، فعملية حساب الرسوب والتسرب مع نتائج المشاركين في الامتحان ، مسألة تتطلب اجراءات وصيغا ، لكن مع ذلك فالفكرة مقبولة ، واعتقد انها جيدة ويمكن ان تخضع لدراسة وزارة التربية .

**٩ ـ عبد الرزاق الهاشمي**

ليست ملاحظاتي ملاحظات متخصص في اللغة العربية وانما ، ملاحظات مسؤول بصيغة التنفيذ . اولا لا بد من تثمين الجهد الذي بذل من قبل مركز دراسات الوحدة العربية والمجمع

العلمي العراقي ومعهد البحوث في الدراسات العربية على هذه المبادرة القيمة بعقد مثل هذا اللقاء ، الذي يعتبر الاول من نوعه في طرح موضوع تعاني منه اللغة العربية . والحديث عنه طويل جدا وبدأ من فترات ماضية .

اما الملاحظة الاولى فتأييد لما تفضل به الاستاذ سيد نوري حول ما تفضل به د. ياسين خليل في موضوع العلاقة بين المغرب العربي والمشرق العربي . وتأييدا لما تفضل به د. سيد نوري نلاحظ العلاقة ما بين المستعمر في المشرق العربي والمغرب العربي . فالدين الاسلامي يجمع بين العرب والاتراك . وكون المستعمر الفرنسي غير مسلم انعكس على مستقبل الحركة الوطنية في المشرق العربي والمغرب العربي . المستعمر هو الكافر ، والوطني هو المسلم العربي . في المشرق العربي نلاحظ ان الجانب القومي طغى على الحركة العربية وميزه . والسبب هو سياسة التتريك التي فرضت على العرب . والجانب الديني المشترك في كلتا الحالتين ، جعل الجانب القومي هو الذي يثبت . ونرى هذا التمايز في المشرق العربي والمغرب العربي. والمقارنة التي تفضل بها د . ياسين قد لا يكون المقصود بها الصيغة التي طرحت كاساس في المناقشة .

هناك ملاحظة ثانية عن موضوع التعريب طرحها د . الجليلي وغيره من الباحثين . فالتعريب تحدثنا عنه كثيرا ونفذنا قسما منه بشكل خاطىء غير مدروس ، وخاصة في مجال العلوم . المطلوب ان لا يكون هناك تعريب اذا لم تترجم العلوم الى العربية . ولا يمكن ان يكون هناك تعريب على مستوى التعليم في العلوم اذا لم تكن هناك مكتبة عربية متقدمة في مجال العلوم . الخطأ الذي وقعنا فيه هو اننا ادخلنا التعريب في مجال العلوم دون ان تكون لدينا مكتبة عربية متطورة في مجال العلوم . وكانت النتيجة عكسية في التأثير على هبوط المستوى العلمي . المطلوب في هذا الجانب ان نبدأ بالترجمة بشكل علمي ومدروس ودقيق وايجاد الكتاب العلمي العربي لنضعه بيد الطالب ثم الاستاذ الذي درس دراسات عليا داخل القطر .ويعيش المجتمع العربي هذين الاتجاهين اللذين يجب ان يترسخا حتى نستطيع ان نعلم العلوم باللغة العربية ، ونخرج الاستاذ من المحيط العربي حتى يستطيع ان يدرس في هذا المحيط . ان اساتذتنا في جامعاتنا اتوا من مدارس مختلفة ، من المانيا وامريكا وانكلترا وفرنسا والاتحاد السوفياتي وغيرها ، ثم نطلب منهم ان يدرسوا باللغة العربية . والكتاب الذي يأتي به ليس باللغة العربية . انعكست الترجمة على المستوى العلمي ، والنتيجة اننا فقدنا المستوى العلمي .

ان الملاحظات التي اثارها د . احمد حقي الحلي في بحثه هي الوقفة الجريئة في هذا الجانب . وفي اكثر من مناسبة نسمع المشكلة انها ليست فقط في تداولنا للغة العربية وانما مشكلتنا تكمن في المتخصصين باللغة العربية ، في تناولهم للغة وتعاملهم معها . هنا المشكلة باسبابها وبنتائجها تتحملها الجامعة ، واذا لم نكن قادرين ان نوجد المدرس الجيد المتمكن من اللغة العربية حتى يطبق المناهج باللغة العربية في المراحل الابتدائية والمتوسطة والثانوية نبقى عاجزين . واذا لم نتمكن من تأمين الاستاذ القادر على تدريس اللغة العربية في الثانوية وفي المتوسطة والابتدائية ، واذا لم يكن عندنا الاستاذ المتمكن الذي يستطيع ان يخرج المدرس بالمستوى الذي يستطيع ان

يتعامل مع اللغة العربية فلن تستقيم الامور . و د . احمد حقي الحلي ذكر مثلا ، ومن خلال معايشتي لكلية التربية لدي عشرات الامثلة من خلال العرائض التي قدمها لي الطلبة ، خاصة طلبة اللغة العربية .في العريضة الواحدة يوجد ما بين ١٠ و ١٥ غلطة املائية ولغوية ونحوية ، علما بأنهم في الصف الرابع.ان مشكلة تدريس اللغات ليست في اللغة العربيةفقط،بل باللغة الانكليزية والالمانية والفرنسية ايضا . وخريج اللغة الالمانية لا يجيد اللغة الالمانية ، وكذلك الشيء بالنسبة الى خريج اللغة الفرنسية او الروسية . والسبب في ذلك اننا ندرس اللغة الانكليزية بفعل عربي ، واسلوب عربي ، واستاذ عربي . المشكلة في تدريس اللغة العربية في كلية التربية ان اللغة العربية يدرسها اساتذة لا يجيدون اللغة العربية . نعم ، انهم عرب ، لكنهم لا يجيدون اللغة العربية . اذا الطالب يتخرج وهو غير مستوعب وغير قادر ان يدرس اللغة العربية . ان اساس المشكلة اذا تكمن عندنا في وزارة التعليم العالي ، وحلها عندنا في وزارة التعليم العالي . وعلينا ان نبدأ في كليات التربية باعادة النظر في صيغ تدريس اللغة العربية ، في صيغ اختيار استاذ اللغة العربية . والطرق ستأتي كنتيجة ، لان الاستاذ الجيد سيختار الطريقة الناجحة للتدريس ، كذلك فان الاستاذ المتمكن سيختار الاسلوب الناجح لايصال المادة الى طلابه . واذا ما فعلنا هذا حللنا المشكلة .

اما الملاحظة التي اثارها د . الجليلي عن موضوع كتاب التفسير في الدراسة المتوسطة والثانوية ، فأنا واثق جدا ان المتخصصين في اللغة العربية يجدون صعوبة في استيعاب ما فيه من نصوص ، وتفسير الآيات القرآنية . والمشكلة الاخرى التي نعاني منها في تدريسنا ومناهجنا هي عدم مرحلة الكتاب المنهجي للدراسة ، اعني اننا غير قادرين ان نختار ما نعطي لتلميذ الصف الاول بشكل علمي ، وماذا نعطي لطالب الصف الرابع بشكل علمي ، وماذا نعطي للطالب في المرحلة المتوسطة بشكل علمي ، وللطالب في الخامس الاعدادي وفي الكلية ، سواء في المجال العام ام في اللغة العربية . ومع الاسف ، فان كل كتبنا تفتقر الى هذا وقد تفضل د. الحلي وبيّن السبب وهو ان مؤلف الكتاب المدرسي لم يأخذ في الاساس المرحلة الدراسية التي ستدرس الكتاب . ولو اخذ الحقيقة هذه بنظر الاعتبار وبمفهوم علمي سليم لكان كتابه بالمستوى المطلوب . فالامر ليس مجرد تأليف كتاب. ولا يحصل هذا في اللغة العربية فقط، بل هي مشكلة نعاني منها في كافة العلوم . واعود واقول ان الحل يكون في وزارة التعليم العالي وفي الجامعة ، وكل ما نأمل من الموجودين في هذه القاعة ، وغالبيتهم اساتذتنا ، وهذه مسؤولية تاريخية ، نأمل منهم ان يقفوا وقفة جريئة ويعيدوا النظر بمن يدرّس اللغة العربية ، وبالكتاب الذي يستخدم كمادة للغة العربية ، ونلقي نظرة على الملازم العديدة جدا التي اكل الدهر عليها وشرب ، والملازم التي لا تسمن ولا تغني من جوع ، والملازم التي نسيها مؤلفوها ولا زال يتم تداولها بين الطلبة ، وهي لا تخرج طلبة لغة عربية بشكل مطلق . المطلوب اذا اعادة النظر بصيغ التدريس .

**١٠ ـ ياسين سليم**

ورد استفسار من د . عادل حول اسباب اندثار امم سابقة مثل البابلية والفينيقية التي لم

يعد لها وجود طبعا لو رجعنا الى تعريف الوجود القومي لعرفنا السبب. المسألة بسيطة جدا . اعني انها مسألة حسابية بسيطة . ان هذه الامم اندثرت لانه لم يعد لها اي واقع حضاري . لم تعد هناك لغة تتحدث عن هذا الواقع الحضاري. والناحية الاخرى هي الدين الذي هو جزء لا يتجزأ من الحضارة. لكن الرسالة هدف يعمل على تغير المجتمع استنادا الى اهداف مركزية . فقليل من الامم تحصنت بالرسالة ، والامة العربية واحدة منها .

ان السياسة التي انتهجها الفرنسيون ضد اللغة العربية وبعد ذلك تقوقع هذه اللغة في دائرة ضيقة يتداولها الناس في المساجد ، لا يتيحان القول بانها اختفت نهائيا ابدا . فهي موجودة في التكايا والمناطق الريفية الفقيرة والبوادي بين القبائل وما الى ذلك . بالطبع الثورة بدأت ، كلنا نعلم ، من قلب الصحراء والريف والمسجد .

**١١ - ياسين خليل**

الآن الطلبة التونسيون في الجامعة التونسية يدرسون بالفرنسية ، الاستاذ يوسف ذنون يتكلم عن الارقام . في الحقيقة لم ارد في هذه المعالجة التحدث عن تطور الارقام ، وكل ما اردت ان اقوله ان هناك ظاهرة يجب معالجتها ، ولو تفضل الاستاذ يوسف ان يرجع الى كتابي في التراث العلمي العربي الجزء الاول ، لاغتنى بالكثير من هذا الحديث . هناك سلسلتان ولا توجد لدينا ثلاث سلاسل اشار اليها معظم الباحثين. فالسلسلة الاولى ابراهيمية والسلسلة الاخرى سانسكريتية . وهناك السلسلة المعروفة بالارقام الهوائية والاخرى الغبارية ، وانا سميتها مشرقية ومغربية حتى تكون واضحة للاخوان . ان هذه الارقام قد عدلت ، فالرقم المشرقي ، ٤ يشبه العين ورقم ٥ يشبه القلب المقلوب ورقم ٦ فيه ركزة الى فوق ورقم ٧ بضلعين متجهين الى الاعلى ،و٨ بضلعين منحنيين الى الاسفل ، الصفر كان دائرة ثم اصبح نقطة وما الى ذلك . ان هذا تطور نحن نعرفه في غاية البساطة لكني لم اتناولها بالتفصيل . وافيد الاستاذ يوسف ذنون ان يرجع الى عدد من الكتب والمخطوطات وان يرجع الى كتاب **ميزان الحكمة** للخازني ، وهو كتاب في الفيزياء ، يجد فيه الارقام التي هي الارقام المشرقية ، بالطبع مع بعض التحوير، وليرجع الى كتاب جمشيد الكاشي في القرن الخامس عشر الذي هو **مفتاح الحساب البيروني**، يتحدث باسهاب عن هذه القضية والبيروني مات سنة ١٠٤٨ م ، وتكلم باسهاب عن هاتين السلسلتين .

انني اشكر د . عبد الرزاق الهاشمي في تعليقه على التعريف ، بل رجائي كأخ ، وهو مسؤول الآن ، وانا قد ساهمت في الترجمة ، على الاقل في نطاق ما اعرفه وفي فلسفة العلوم والمنطق الرياضي ، اذا كانت هناك بعض الكتب الهزيلة نستطيع ان نتلافاها ، واذا كانت هناك ترجمات سيئة نستطيع ان نعهد بها الى اناس آخرين ، لكن فكرة التعريب يجب ان تكون حافزا لنا . لان الكوريين يدرسون بلغتهم ، والصينيين يدرسون بلغتهم وحتى السواحيليين يدرسون بلغتهم بضع سنين . واللغة العربية ، لغة حية ، تستفيد على الاقل من

التجربة . انا لا اريد ان اطيل في الحديث ، لكن العرب لم يكن عندهم مترجمون متخصصون. وعندما بدأت الترجمة في العصر الاموي فان الترجمات السريانية كانت ركيكة جدا لغويا ، وغير مفهومة . بعد ذلك اعيد النظر بها واذ بنا نجد المصطلح يظهر ولاول مرة ، وتطبق قواعده . ثم بعد فترة قصيرة من الزمن استطاع العربي ان يتخطى هذه الصعوبة ويضع الكلمات العربية المرادفة ؛ واستمرت عمليات التنقية كما قال الاستاذ شلاش في المعاجم . ولم ينبهه احد الى ان عندنا من المعاجم العلمية ثروة هائلة ونعني كتاب الدينوري في النبات الذي يقع في ستة اجزاء ، هذا الكتاب يمكن تسميته بالمعجم النباتي ١٠٠ بالمائة . واللطيف فيه انه لا يعطي المعنى فقط بل يعطي في الوصف الدال على النبتة بالكامل. وكل ما عندنا الان هو جزءان من كتاب الدينوري . اما كتاب القزويني فهو متأخر في الحيوان ، وهو من ابدع ما يمكن ان يكون عليه معجم في العلوم .

وفي تلك الفترة التي كان العرب فيها بعيدين عن العلوم اليونانية اصطدموا بالحضارة اليونانية ، فلم يقفوا ضدها عاجزين ، كما تصور البعض في محاضرات سابقة . فالاصطدام الحضاري ليس ضروريا ان يكون الاقوى دائما ، لكنه هو الذي يستطيع ان يفرض نفسه ، وقد يفرض الاضعف نفسه . ان هناك خطأ ارتكب في محاضرات سابقة ، فعندما جاءت اليونانية كانت قوية كعلم ، اما العلوم عند العرب فقد كانت قليلة جدا . ولي مقال في هذا وهو من المقالات الجيدة في العلوم على مذهب العرب. لهذا اريد ان انبه الى ان العرب لم يعرفوا العلوم على المذهب اليوناني فحسب ، فهذا خطأ كبير ، وانما ظلت العلوم على مذهب العرب الى القرن السادس الهجري ، مستمرة في النبات ، في الحيوان ، في كل فروع المعرفة . وبقي المذهب عربيا محافظا تأثر به ابن سينا في كتاب الادوية ، وكذلك ابن البيطار. لكن للاسف بسبب تكالب القوى الحاقدة اندثر الاتجاه العربي الاصيل ، الذي مثله هذا المذهب في العلوم . واروي هنا كلمة قالها ابن قتيبة في كتابه عن الانواع ، وكذلك كتاب الصوفي في الثمانية والاربعين كوكبا ، قال ان العلوم التي تداولها العرب، وخاصة في الفلك ، هي اكثر دقة من العلوم التي ورثناها عن اليونان . وهذه شهادة علمية دقيقة .

فرجائي ان نرجع الى التعريب ، فنحن لدينا ثروة ضخمة جدا تفضل وزير التعليم العالي بقوله صادقا ، ان المشكلة هي مشكلة المدرس نفسه . المدرس عندما يعرف ان هناك معاجم تنشرها المجامع اللغوية ويستطيع ان يرجع اليها عند الحاجة سوف لن يجد اي مشكلة في التعريب . لكن عندما يعتمد على ثروته اللغوية ، وهي بسيطة سيجد صعوبة كبيرة وبالتأكيد سيفشل في التعريب ، ويفشل في التدريس .

في الحقيقة نحن في الجامعة نعترف، خاصة في العلوم، اننا لا ندرس لا بالعربية ولا بالانكليزية نحن ندرس بالفرنكو ـ عربية ، اوبالانكلو ـ عربية . استاذ الطب يقف ويتكلم نصف انكليزي ونصف عربي والطالب ايضا نصف عربي ونصف انكليزي والوصفات ليست انكليزية صحيحة ولا عربية صحيحة . فيجب اعادة النظر بالتعليم الجامعي من اساسه.

فاختيار الاستاذ الجامعي ليس محصورا في كل من يحمل شهادة دكتوراه او ماجستير لنفتح له الابواب وكأنها ابواب الرحمة ، بل يجب ان نختار المواصفات الجيدة . وفي بعض الجامعات يمتحن الاستاذ ، فلا بأس بذلك . وعندئذ اعتقد ان التعليم سيكون بالنتيجة افضل مستوى بكثير

**١٢ ـ احمد حقي الحلي**

اولا اسأل الاستاذ حميد الهيتي سؤالا : هل قرأ البحث ؟

**١٣ ـ حميد الهيتي**

لا ، استمعت الى ملخصه .

**١٤ ـ احمد حقي الحلي**

لم آت على كل شيء في الملخص . لمتني انني ما تعرضت للكتب . لقد ذكرت اننا نشترك في وضع الكتب ، ونشكل لجاناً، لكني لا املك التنفيذ وانما على تقديم الاقتراحات والتوصيات . ونحن نعمل كما يعرف د . مزبان ايام الاسبوع ما عدا ايام الاحد ، بالكتب وكل يوم اربعاء لدينا اجتماع خاص بالكتب . اللجنة كانت تجتمع وتقدم الاقتراحات فيما يخص الطرائق المتبعة حاليا ، توجد طرائق جديدة والمعلم لا يجيد حتى الطريقة القديمة . ولتطبيق الطرائق الجديدة عملنا على مناقشة اجتماعية جديدة الاتجاه . وما جاء في هذا البحث هو الجديد لسنة ١٩٨٣ اي قبل بضعة اسابيع ، وصلني هذا مؤخراً ، قد اشرت الى كثير من القضايا ويا ليت عندك الوقت لتقرأها لان كل اتجاهاتها جديدة لتطوير اللغة العربية واعطائها حياة جديدة . من بين ما اقترحناه ان يجري تسجيل القطعة الشعرية التي على الطالب حفظها وتمنينا ان يكون معها او يصاحبها قطعة موسيقية لطيفة تحبب الطالب بها ، وهو يفرح لسماع الموسيقى مع القطعة الشعرية عندما يقرأها . والطلاب يسرهم ان يسمعوا الموسيقى والادب . وهناك قضايا ذكرت ايضا يمكن ان تطور اللغة . لماذا اللغة الانكليزية فيها هذا التطوير واللغة العربية لا نطورها ايضاً؟ لنسأل انفسنا هذا السؤال . اعطني الاستاذ الجيد وانا اتكفل بالباقي . ما قولك ان كان الذي يتخرج يكتب « ما النقد » « منقد » ، ( ميم نون قاف دال ) . اذ كيف نأتي بالاستاذ الجيد؟ الحقيقة انني رغم كل شيء متفائل ، لكننا نحتاج الى مرحلة طويلة .

**١٥ ـ احد المشاركين**

المسألة في الحقيقة لا تقتصر على الاستاذ الجيد فقط . انما هي ايضا في اختيار الطالب الى قسم اللغة العربية . وانا اعتقد ان السيد الوزير قد لمس ذلك ومن خلال اللجنة العليا للغة العربية سابقا ، هناك تفكير في كيفية اختبار طالب قسم اللغة العربية في الجامعة .

**١٦ - احمد حقي الحلي**

صحيح هذا . ثم هناك اتجاه جديد لمعالجة قضية المفردات والتراكيب الصرفية والنحوية . وهو اتجاه ان يعلم الطالب بغير اقحام المواد ، وانما عن طريق القراءة. انتبه الى هذا النص ، اشر هنا بالقلم ، اكتب هذا في دفترك ، انتخب اثنين فقط من القطعة ، اكتبها.

هذا جانب . اما فيما يخص د . الفيتوري ، فأطمئنه اني في بعض الاحيان التقي بعض الاخوان التونسيين وفي هذا يعود الفضل الى د . مسارع الذي يستدعي قسما من الخارج ، انا رأيت احدهم وكان يحكي لي عن القوائم الموجودة . وفي كتب المتابعة اعرف ان عندهم كتب متابعة لكنها جديدة . المشكلة ان الجامعة العربية منهمكة بشغلها ولا تعرف ان تنظم توزيع المعلومات والقضايا . القوائم الموجودة في المغرب هي قوائم المرحوم السيد البهي التي وضعها . وقد وجدناها بالصدفة . اذ لو لم استفسر لما كنت عرفتها . احد الطلاب عمل بحثاً لتصحيح الاتصالات في الجامعة العربية ، لتؤمن هذه القضايا ، وما عندنا يرسل لهم وما عندهم يرسل لنا ، فتصبح الفائدة مشتركة .

**١٧ - هاشم طه**

ليس لي تعليق على ما قيل في هذه الجلسة وقد يكون ما اقترح فيها واردا لنا ، بخاصة مسألة نهجنا التاريخي الحضاري الذي ارجو ان يصل الطموح فيه الى حيز التنفيذ .

في هذا المعجم صعوبة كبيرة نحتاج فيها الى معرفة باللغة العربية القديمة ومعرفة كبيرة باللغات الاجنبية. واعتقد ان هذا الموضوع بحث كثيرا ولكنه لم يصل الى حيز التنفيذ لا في العراق ولا في الوطن العربي .

هناك مسألة ليست من هذه الجلسة وانما هناك تعليق ورد في الجلسة الصباحية ويمس مسألة المعجم العربي ، وهذا التعليق ورد على لسان د . صالح مهدي العلي اذ قال بأن المعجم العربي لم يجمع الا الفاظ الصحراء . ان **لسان العرب** لابن منظور الذي يمثل الالفاظ اللغوية النقية لمجموعة من كتب في اللغة العربية،وقد وصلت هذه الالفاظ الى ٨٠ الف مادة ، هذا الكتاب ألف في القرن الثامن الهجري .معنى ذلك ان بينه وبين **تاج العروس** للزبيدي خمسة قرون . فاذا وصلنا الى الزبيدي ونظرنا الى قائمة مصادره لوجدنا ما يدهش من كتب العلوم والفنون وكتب الطب والفلك والانواء والوجدان والنقد وغير ذلك من المصادر الكثيرة جدا . زد على ذلك ان الزبيدي نفسه جال في كثير من البلدان وبخاصة مصر واليمن والشام والحجاز ونقل استعمالات الناس ، كيف كانوا يتكلمون وكيف كانوا يتحدثون ، وسجل كل هذه المسائل بدقة . ومعنى ذلك ان الاربعين الف مادة من مواد الزبيدي في كتابه **تاج العروس** تمثل الفاظ الحضارة ، والكثير منها يمثل ما استخدمه الناس في حياتهم في تلك الفترة .

# البيان الختامي

عقدت ببغداد في المدة من ٢١ ـ ٢٢ ذي الحجة ١٤٠٣هـ الموافق في ٢٨ ـ ٢٩ ايلول / سبتمبر ١٩٨٣ في مبنى المجمع العلمي العراقي ندوة « اللغة العربية والوعي القومي » التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية والمجمع العلمي العراقي ومعهد البحوث والدراسات العربية . وقد شارك في هذه الندوة الفكرية خمسة وثمانون مفكراً واستاذاً جامعياً واديباً ، وقدم عدد من البحوث والدراسات تناولت قضايا اربع ، هي :

١ ـ الوعي القومي ، والبحث عن الهوية القومية .

٢ ـ اللغة العربية والفكر اللغوي .

٣ ـ الجوانب الفكرية والتربوية .

٤ ـ الاعلام .

وقد رأى القائمون على هذه الندوة ان معالجة موضوع العلاقة بين اللغة العربية والوعي القومي ضرورة مزدوجة ، فاللغة العربية تحتاج الى عناية شاملة ، لأنها الرابط القومي المهم في حياتنا العربية واداة الثقافة ووسيلتها . والوعي القومي يحتاج الى عناية خاصة في وقتنا الراهن الذي تمر فيه الامة العربية بمرحلة تشهد انحساراً في العمل القومي وفي الحديث عن الرابط القومي ، والفكر القومي ، وتتطلب طرح مثل هذه القضايا لتحديد الوسائل والاساليب الكفيلة بتقوية الروابط القومية وتعميق الوعي بقضايا الواقع العربي ومشكلاته عن طريق الاهتمام باللغة العربية الفصيحة ونشرها ، وتعميم استعمالها .

وقد اظهرت ابحاث الندوة ومناقشاتها عدداً من الاتجاهات الرئيسة يمكن اجمالها بما يأتي :

## ١ ـ الوعي القومـــي

اكـدت البحوث والمنـاقشات ان الـواقع العـربي يشهد اليـوم تـراجعـاً في الحـديث عن القومية . . . يكون مرده الى عوامل عدة من اهمها : الـوضع النفسي النـاتج عن الاخفـاق في تحقيق خـطوات جديـة على طـريق الوحـدة العربيـة ، والسياسـات الاجتماعيـة والاقتصاديـة القطرية . فالاهتمام بـالقضايـا القوميـة والامور الاقتصـادية والاجتمـاعية بـإمكانها ان تكـوّن محتوى تقدمياً للفكرة القومية ، كـما ان بامكـانها في حالـة غياب الـوعي ان تكون شـاغلاً عن الاهتمام بقضية القومية العربية .

وشخصت الابحاث والمناقشات التي دارت العوامل الخارجية والتيارات الفكرية السائدة في عالم اليوم الذي يتصرف على اساس قـومي ، ولكنه لا يتحـدث عن ذلك الامـر الذي اثّـر تـأثيراً سلبيـاً في تراجـع الحـديث عن القـوميـة والعمـل القـومي ، ليحـل محله الحـديث عن الاشتراكية والديمقراطية والتنمية ، والسلام والتعاون الدولي ومشكلات البطالة وزيادة السكان والامن الغذائي ، ثم ان ظهور الاتجاهات القطرية والطائفية والافكار المناهضة للفكرة القومية اتخذ وجهات مظهرية شكلية ، عادت على الواقع العربي بالكثير من السلبيات .

وقد رافقت هذا الواقع ، وانصبت عليه حرب استعمـارية تمثلت في مجمـوعة ظـواهر ، اهمها : استهداف روح النهضة العربية باستهدافها الوحدة العربية والانسان العربي العامل من اجلها ، والسعي في تعميق الاتجاهات القطرية والانعزالية ، ومحاولة تنمية النزعات الطائفية . وقد ترافق هذا مع الحرب على اللغة العربية من حيث هي وعاء لفكـر الامة وشـرط وجودهـا والمقوم الاساس لهذا الوجود ، فهي اداة للاستمرارية التاريخية للامة ، كـما انها اداة من ادوات التوحيد القومي .

وقـد اكدت النـدوة ضرورة تجـديد الحـديث عن القوميـة العربيـة لمـواجهـة مثـل هـذه التحديات في الوجود القومي العربي . ورسمت البحوث والمناقشات مسارات واضحة لتجديد الحديث عن القومية باعتباره من عناصر الثقافة الجديدة مع ضرورة توضيح ما للقومية العـربية من محتوى اقتصادي واجتماعي وثقافي متقـدم ، الى جانب ما لها من ابعـاد انسانيـة بريئة من العرقية والتعصب بشتى انواعه كـما اكدت ايضـاً ضرورة ربط الفكـرة القوميـة بمضامينهـا هذه وبالعمل الوحـدي(*) الذي هو الاساس في قيام الدولة القومية .

## ٢ ـ الجانـب اللغـــوي

اكدت البحوث والمناقشات ان اللغة العربيـة هي الوعـاء الفكري والمستـودع الحضاري للامة العربية ، وقد كانت وستظل من العناصر الاساسية في الوجود العربي ، وفي تنمية الوعي

---

(*) النسبة الى ( الوحدة ) ـ بحسب ضوابط العربية ـ ( وحدي ) ، وليس ( الوحدوي ) .

القـومي فيه وهي من اهم مقـاييس رقي الامـة وصـورة لحيـاتهـا ، تـرقى بـرقيهـا ، وتضعف بضعفها .

وان عوامل الربط المحكم بين اللغة العربية والوعي القومي ، وبين اللغة والحرص على سلامتها والشعور بالانتماء الى ثقافتها ، تؤكد ان العمق التاريخي لهذه اللغة قد امتـد في نفوس العرب حتى اصبحت صورتها هي الصورة التي يعبرون عنها في كل مظهر من مظاهر حياتهم . ان الحديث عن اللغة العربية لا ينفصل بحال من الاحوال عن الفكر القومي العربي ، فـاللغة العربية هي اداة التفكير الحضاري ، ووسيلة التعبير عنه ، وتأكيد خصائصه .

ان الاستعمار الجديد يحاول تفكيك وحدة اللغة بادخـال تناقس داخـلي فيها عن طـريق الازدواج اللغوي واشاعة العاميات ، وتشجيع الكتـابة بهـا ودفع التيـارات المشبوهـة الى طرح مسألة كتابة العربية بالحرف اللاتيني . ان هذه المحاولات المخربة تؤلف قضية سياسية وثقافية وفكرية خطيرة ،فهي تعمل على ضرب الوحدة القوميـة للامـة العربيـة بضرب ثقـافتها وتشتيت لغتها الواحدة .

ومن هنا ترى الندوة ان وعي العرب لـواقعهم ، رهن بوعيهم لـواقعهم اللغوي ، كـما ترى ان من واجب الحكومـات العربيـة العنايـة بنشر العـربية الفصيحـة بين مختلف الـطبقات الاجتماعية ، اذ ان استعمال اللهجات العامية في الكتابة والتأليف والتعليم وفي وسائل الاعلام سيكون عامـلاً في تفتيت وحدة الامـة والتمهيد لتكـريس العزلـة القطريـة . وقد جـاء اصدار قانون الهيئة العليا للعناية باللغة العـربية في العـراق من القوانـين المهمة التي شـرعتها حكـومة الثورة في هذا المجال بتأكيد الرقابة والاشراف على تنفيذ قانون الحفاظ على سلامة اللغة العربية والقوانين والانظمة والتعليمات والقرارات المتعلقة بشؤون اللغة العربية ، مما يمكن اعتباره نموذجاً يحتذى في هذا المجال .

## ٣ ـ الجانب الفكري والتربوي

أكـدت الندوة الاهميـة البالغـة للنظام التعليمي في نشـر اللغة العـربية وتنميـة الثقـافـة القومية ، مع وجوب تحقيق ما يتطلبه من تحديد واضح للاهداف التـربويـة والوسـائل الكفيلة بتحقيقها . ومن هنا ذهبت البحوث والمناقشات الى وجوب تبني سياسة تربويـة تعتمد العـربية الفصيحة لغة للتعليم في جميع مراحله وميادين الدراسة فيه ، ووجوب الالتزام بمـا لهذه اللغـة من اصول واستيعاب للتطورات الحضارية المتجددة وتحديد الاهداف المتوخاة فكرياً واجتماعياً وقومياً ، وجعلها جزءاً من تجديد شامل للتربية العربية مستند الى تعاون عـام بين المؤسسـات ذات العلاقة على الصعيدين القطري والقومي .

ان هـذه السياسـة التربـوية تتـطلب خطوات عمليـة تراهـا الندوة متمثلة في اتخـاذ قرار سياسي على اعلى مستويـات الدولـة ، وذلك بتشـريع وافٍ بـالمبادىء واتجـاهات تـطبيقها مـع

مواصلة عملية التعريب باعتماد العربية لغة اساسية في التعليم ووضع المصطلحات وفق منهجيات علمية ، وتنمية البحوث والدراسات اللغوية والتربوية والنفسية الكفيلة بتطوير مناهج الدراسة وطرائقها ووسائلها وتيسير طرائق تعليم اللغة العربية ، والاستعانة بالتقنيات الحديثة في تعليمها ، وضرورة اعداد معلمي اللغة العربية اعداداً جيداً وسليماً ، مهنياً وعلمياً ، ووضع الكتاب الميسر والجيد مع وجوب الالتزام هنا بقومية العمل العربي في هذه المجالات ، وذلك بتضافر الجهود بين الجهات المسؤولة عن التربية والثقافة ، وبين المنظمات العربية ، وفي مقدمتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، والمجامع العلمية العربية ، والجامعات العربية .

وتؤكد الندوة ضرورة انجاز مشروع حصر الرصيد اللغوي لدى الاطفال ، الذي تقوم به المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، لما له من اهمية في وضع مناهج الدراسة وتأليف الكتاب المدرسي .

## ٤ ـ الاعلام واجهزته ووسائله

أكدت الندوة اهمية الاعلام واجهزته ووسائله وما يمكن ان يكون لها من اثر ملحوظ في نشر لغة عربية صحيحة ، ومن مساعدة في تنمية الثقافة العربية وبث الوعي القومي ، وتقوية اسسه .

ويرى المشاركون في الندوة وجوب ايلاء وسائل الاعلام القضايا التربوية والتعليمية ـ ولاسيما نشر العربية ، وتنمية الثقافة القومية ـ الاهتمام اللازم بها ، كما أكدت الندوة ضرورة التنسيق بين اجهزة الاعلام ونظام التعليم في مجال نشر اللغة العربية الفصيحة وتنمية الثقافة والنظرة الشمولية وتوحيد اجهزة الاعلام ونظم التعليم على المستويين القطري والقومي .

# المشاركون

| | |
|---|---|
| د. ابتسام مرهون الصفار | كلية التربية ـ جامعة بغداد ( بغداد ) |
| د . ابراهيم الداقوقي | كلية الآداب ـ جامعة بغداد (بغداد ) |
| د. احمد حقي الحلي | كلية التربية ـ جامعة بغداد ( بغداد ) |
| د . احمد خطاب العمر | كلية الآداب ـ جامعة الموصل ( الموصل ) |
| د. احمد عبد الستار الجواري | المجمع العلمي العراقي (بغداد) |
| د. احمد محمد الشحاذ | معهد البحوث والدراسات العربية ـ جامعة الدول العربية ( بغداد ) |
| د. احمد مطلوب | كلية الآداب ـ جامعة بغداد ( بغداد ) |
| د. احمد ناجي القيسي | المجمع العلمي العراقي ( بغداد ) |
| د. احمد نصيف الجنابي | كلية الآداب ـ الجامعة المستنصرية (بغداد) |
| ازهر شريف | باحث |
| د. بهجة كامل عبد اللطيف | وزارة التعليم العالي والبحث العلمي (بغداد) |
| د. جابر الشكري | المجمع العلمي العراقي (بغداد) |
| د. جلال الخياط | كلية الآداب ـ جامعة بغداد (بغداد) |
| د. جميل الملائكة | المجمع العلمي العراقي (بغداد) |
| د. حاتم صالح الضامن | كلية الآداب ـ جامعة بغداد ( بغداد) |
| د. حامد ربيع | معهد البحوث والدراسات العربية ـ جامعة الدول العربية (بغداد) |
| د. حمد دلّي الكربولي | كلية التربية ـ جامعة بغداد ( بغداد ) |
| حميد مخلف الهيتي | كلية الآداب ـ الجامعة المستنصرية ( بغداد ) |
| د. خديجة عبد الرزاق الحديثي | كلية الآداب ـ جامعة بغداد ( بغداد ) |

| | |
|---|---|
| د. خليل ابراهيم العطية | جامعة البصرة ( البصرة ) |
| د. خليل بنيان | كلية التربية ـ جامعة بغداد ( بغداد ) |
| خليل العاني | نقابة المعلمين ـ المركز العام ( بغداد ) |
| د. رؤوف نجم الدين الواعظ | كلية التربية ـ جامعة بغداد (بغداد) |
| د. سالم الاحمدي | وزارة التربية ( بغداد ) |
| د. سامي مكي العاني | كلية الآداب ـ الجامعة المستنصرية ( بغداد ) |
| سعد زاير | الاتحاد العام للعمال ( بغداد ) |
| د. سعدون حمادي | رئيس مجلس امناء مركز دراسات الوحدة العربية |
| د. سليمان مزبان | وزارة التربية ( بغداد ) |
| د. سنان سعيد | كلية الآداب ـ جامعة بغداد (بغداد ) |
| د. الشاذلي الفيتوري | باحث ( تونس ) |
| د. صالح احمد العلي | رئيس المجمع العلمي العراقي (بغداد) |
| د. صالح حمدان | وزارة التربية (بغداد) |
| د. صلاح حسين العبيدي | معهد البحوث والدراسات العربية ـ جامعة الدول العربية ( بغداد ) |
| د. عادل جاسم البياتي | كلية الآداب ـ الجامعة المستنصرية ( بغداد ) |
| د. عادل عبد الحسين شكاره | كلية الآداب ـ جامعة بغداد ( بغداد ) |
| عبد الجبار الالوسي | وزارة التربية ( بغداد ) |
| عبد الجبار العمر | آفاق عربية ( بغداد ) |
| عبد الحميد العلوجي | وزارة الاعلام ( بغداد ) |
| عبد الرحمن التكريتي | باحث وعميد متقاعد ( بغداد ) |
| د. عبد الرزاق الهاشمي | وزير التعليم العالي والبحث العلمي (بغداد) |
| د. عبد العال الصكبان | المجمع العلمي العراقي ( بغداد ) |
| د. عبد العزيز البسام | المجمع العلمي العراقي ( بغداد ) |
| د. عبد علي الجسماني | كلية الآداب ـ جامعة بغداد ( بغداد ) |
| د. عبد الكريم العبود | كلية الآداب ـ الجامعة المستنصرية ( بغداد ) |
| د. عبد الوهاب مطر الداهري | معهد البحوث والدراسات العربية ـ جامعة الدول العربية ( بغداد ) |
| د. عدنان محمد سلمان | كلية الآداب ـ جامعة بغداد (بغداد ) |
| د. عرفان عبد الحميد | كلية الآداب ـ جامعة بغداد ( بغداد ) |
| علوان ناجي علوان | معهد البحوث والدراسات العربية ـ جامعة الدول العربية ( بغداد ) |
| د. علي عباس علوان | كلية التربية ـ جامعة بغداد ( بغداد ) |
| د. علي عطية | المجمع العلمي العراقي (بغداد ) |

| | |
|---|---|
| د. عمر الطالب | كلية الآداب ـ جامعة الموصل ( الموصل) |
| د. عناد اسماعيل الكبيسي | كلية الآداب ـ الجامعة المستنصرية ( بغداد ) |
| د. غازي زاهد | جامعة البصرة ( البصرة ) |
| غازي العبادي | جريدة الثورة ( بغداد ) |
| د. فائق مخلص | معهد البحوث والدراسات العربية ـ جامعة الدول العربية (بغداد ) |
| د. فاضل الساقي | نقابة المعلمين ـ المركز العام ( بغداد ) |
| د. كامل البصير | المجمع العلمي العراقي ( بغداد ) |
| د. كمال نشأة | كلية الآداب ـ الجامعة المستنصرية ( بغداد ) |
| كوركيس عواد | المجمع العلمي العراقي ( بغداد ) |
| د. ماجد احمد السامرائي | وزارة الاعلام (بغداد) |
| ماجد صالح السامرائي | جريدة الجمهورية ( بغداد ) |
| محسن خليل | مركز البحوث والمعلومات ( بغداد ) |
| محمد بهجة الاثري | المجمع العلمي العراقي ( بغداد ) |
| د. محمد جابر الفياض | كلية الآداب ـ جامعة بغداد ( بغداد ) |
| محمد الجزائري | مجلة فنون ( بغداد ) |
| محمد جميل شلش | المنظمات العربية ( بغداد ) |
| الشيخ محمد حسن آل ياسين | المجمع العلمي العراقي (بغداد) |
| د. محمود الجادر | كلية الآداب ـ جامعة بغداد ( بغداد ) |
| د. محمود الجليلي | المجمع العلمي العراقي ( بغداد ) |
| د. محيي الدين توفيق | جامعة الموصل ( الموصل ) |
| محيي هلال السرحان | كلية الشريعة ( بغداد ) |
| د. مسارع الراوي | الجهاز العربي لمحو الامية ـ جامعة الدول العربية |
| ميخائيل عواد | المجمع العلمي العراقي ( بغداد ) |
| د. ناصر حلاوي | كلية التربية ـ جامعة بغداد ( بغداد ) |
| ناظم سيالة | المجلس الاعلى لمحو الامية ( بغداد ) |
| د. نعمة رحيم العزاوي | وزارة التربية ( بغداد ) |
| د. نوري حمودي القيسي | رئيس معهد البحوث والدراسات العربية ـ جامعة الدولة العربية ( بغداد ) |
| د. واجدة الاطرقجي | نقابة المعلمين ـ المركز العام ( بغداد ) |
| د. وميض عمر نظمي | كلية القانون والسياسة ـ جامعة بغداد ( بغداد ) |
| د. هادي الحمداني | كلية الآداب ـ جامعة بغداد ( بغداد ) |

| | |
|---|---|
| **د. هاشم طه شلاش** | كلية التربية ـ جامعة بغداد ( بغداد ) |
| **د. ياسين خليل** | كلية الآداب ـ جامعة بغداد ( بغداد ) |
| **ياسين سلمان مهدي** | وزارة التربية ( بغداد ) |
| **يوسف خيدو** | المجمع العلمي العراقي ( بغداد ) |
| يوسف ذنون | باحث ـ متقاعد ( بغداد ) |
| **يوسف نمر ذياب** | وزارة التربية ( بغداد ) |

# ملحق
# برنامج الندوة

## الاربعاء في ٢٨ ايلول / سبتمبر ١٩٨٣

الجلسة الاولى: من الساعة ٩,٥ صباحاً حتى الواحدة بعد الظهر
رئيس الجلسة : د. صالح احمد العلي

١ ـ كلمة د. سعدون حمادي
٢ ـ كلمة د. صالح احمد العلي
٣ ـ كلمة د. نوري حمودي القيسي

| | | |
|---|---|---|
| المبحث الاول : | تجديد الحديث عن القومية العربية | د. سعدون حمادي |
| المبحث الثاني : | العربية الفصيحة لغة التعليم في الوطن العربي | د. عبد العزيز البسام |
| التعقيب الاول : | وسائل الاتصال الجماهيري ودورها في نشر لغة عربية صحيحة | د. مسارع الراوي |
| التعقيب الثاني : | اللغة ووسائل الاعلام الجماهيرية | محمد جميل شلش |

مناقشة عامة

## الاربعاء في ٢٨ ايلول / سبتمبر ١٩٨٣

الجلسة الثانية : من الساعة ٥ حتى الساعة ٨ مساء

رئيس الجلسة : د. سعدون حمادي

| | | |
|---|---|---|
| المبحث الاول : | من خصائص اللغة العربية | د. احمد مطلوب |
| المبحث الثاني : | الاسس النفسية والاجتماعية للغة العربية | د. الشاذلي الفيتوري |

التعقيب الاول : اسلوب الكتابة والهوية الثقافية القومية د . صالح احمد العلي

التعقيب الثاني : ظاهرة الاستشهاد اللغوي والحفاظ على الهوية القومية د . نوري حمودي القيسي

مناقشة عامة

## الخميس في ٢٩ ايلول / سبتمبر ١٩٨٣

الجلسة الثالثة : من الساعة ٩,٥ حتى الواحدة بعد الظهر

رئيس الجلسة : د. نوري حمودي القيسي

المبحث الاول : العامية والفصيحة د. حاتم صالح الضامن

المبحث الثاني : المصطلح العلمي ووحدة الفكر د. جميل الملائكة

المبحث الثالث : العلاقة الاتصالية بين المفهوم القومي والتطور الاجتماعي د. حامد ربيع

التعقيب الاول : اهمية اللغة في الحياة الانسانية د. محمد جابر الفياض

التعقيب الثاني : الخط العربي والمطلب اللغوي يوسف ذنون

مناقشة عامة

## الخميس في ٢٩ ايلول / سبتمبر ١٩٨٣

الجلسة الرابعة : من الساعة ٥ حتى الساعة ٨ مساء

رئيس الجلسة : د. جميل الملائكة

المبحث الاول : اللغة والوجود القومي د. ياسين خليل

المبحث الثاني : اللغة العربية وطرائق تدريسها د. احمد حقي الحلي

المبحث الثالث : تحسين وسائل خدمة اللغة العربية في الوطن العربي د. شكري فيصل

التعقيب الاول : المعجم العربي : د. هاشم طه شلاش

التعقيب الثاني : الارقام العربية ووحدة استعمالاتها : الشيخ محمد حسن آل ياسين

مناقشة عامة

البيان الختامي

# فهرس عام

( ت )



( ث )

( د )

( ذ )



( ر )



( ز )



( س )

## ( ش )

( ص )



( ض )



( ط )



( ظ )



( ع )

( غ )



( ف )

( ق )



( ك )

( ل )

( ن )

## (A)



## (B)



## Books

# هذا الكتاب

يضم هذا الكتاب حصيلة الوقائع الكاملة لبحوث وتعقيبات ومناقشات ندوة «اللغة العربية والوعي القومي» التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية بالاشتراك مع المجمع العلمي العراقي ومعهد البحوث والدراسات العربية، والتي انعقدت في بغداد خلال الفترة ٢٨ ـ ٢٩ ايلول / سبتمبر ١٩٨٣ وشارك فيها ما يقرب من ٩٠ باحثاً ومفكراً ومربياً.

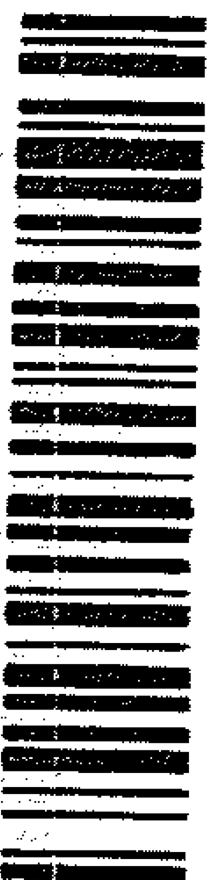
وسبق للمركز ان تعرض في منشوراته السابقة الى هذا الموضوع في سياق دراسات وابحاث متفرقة. ويمكن القول انه لم يغب عن قسم كبير من الكتب التي اصدرها وعالجت مسائل التعليم والتعريب او الادب والفكر.. كما كان حاضراً على صفحات مجلة **المستقبل العربي** بشكل شبه دائم.

واذا كانت اللغة العربية، باستمرار، منذ ما يزيد عن القرن، ضمن اطار البعد القومي العربي، فإن تناولها في علاقتها بالوعي القومي العربي ينم عن اصالة الموضوع وعن اهميته الراهنة. إنما ميزة هذا الكتاب تكمن، فيما يتعدى اقتصاره على هذا الموضوع، في تناول نخبة من الاختصاصيين له من جوانب مختلفة وبمناهج متعددةٍ، فجاءت مساهماتهم تجمع الى الرصانة والعمق التنوع والغنى.

يأتي هذا الكتاب اذن ليكرس الاتجاه الثقافي والفكري الوحدوي لنشاطات مركز دراسات الوحدة العربية. كما يأتي ليرفد اعمالاً مماثلة في هذا الاتجاه منطلقاً من خلال ذلك الى تكامل وتفاعل يدفعان بعملية التطور والابداع والوحدة الحضارية في الوطن العربي، الى ارقى مستوياتها.

الطبعة الثانية

الثمن:





**مركز دراسات الوحدة العربية**

بناية «سادات تاور» شارع ليون

ص. ب: ٦٠٠١ ـ ١١٣ ـ بيروت ـ لبنان

تلفون: ٨٠١٥٨٢ ـ ٨٠١٥٨٧ ـ ٨٠٢٢٣٤

برقياً: «مرعربي»

تلكس: ٢٣١١٤ مارابي